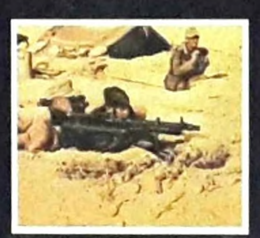
بهجة المعرفة

موسوعة علمية مصورة









المجموعة الثانية

٥

مسيرة الحضارة

مجلد ثالث

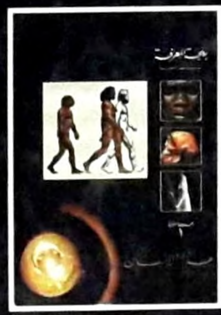

بحر المعرفة
المجموعة الثانية
٥
مسيرة الحضارة
مجلد ثالث

هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربية،
لأول مرة في تاريخنا بأسره،
تصدر لدينا موسوعة مصورة ومعدة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي.
لم يكن بوسعنا ان نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربية، ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في أكثر لغات العالم تقدماً.
وقد أنفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم "الحل الوسط"، لكن البحث نفسه لم يعلمنا شيئاً سوى انه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدي.
فماذا فعلنا؟
سؤال البديهي حقاً، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها أو هذا الكتاب كله. انها تقع في عشرة مجلدات تضم حوالي أربعة آلاف صفحة وأكثر من عشرة آلاف صورة، وجهد خمسمائة محرر ورسام طوال أربع سنوات كاملة.

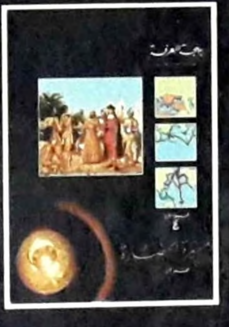
الصادق النيهوم

المجموعة الثانية











بسم الله الرحمن الرحيم

بهجة المعرفة

موسوعة علميّة مصوّرة

مسيرة الحضارة

مجلد ثالث

المجموعة الثانية

٥



○

ساهم في إعداد هذا المجلد :

ترجمة :

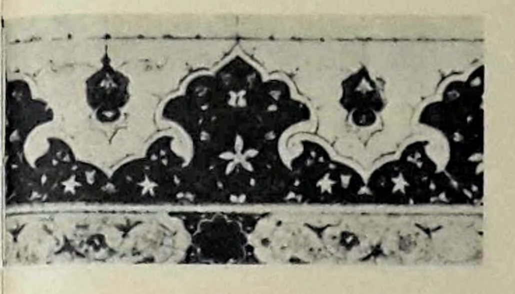
الدكتور ماجد فخري
- دكتور بالفلسفة من جامعة أدنبره .
- أستاذ الفلسفة العربية والغربية في جامعة لندن وجامعة جورجتاون بواشنطن سابقا .
- أستاذ الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت .
- رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت سابقا .

دراسات خاصّة :

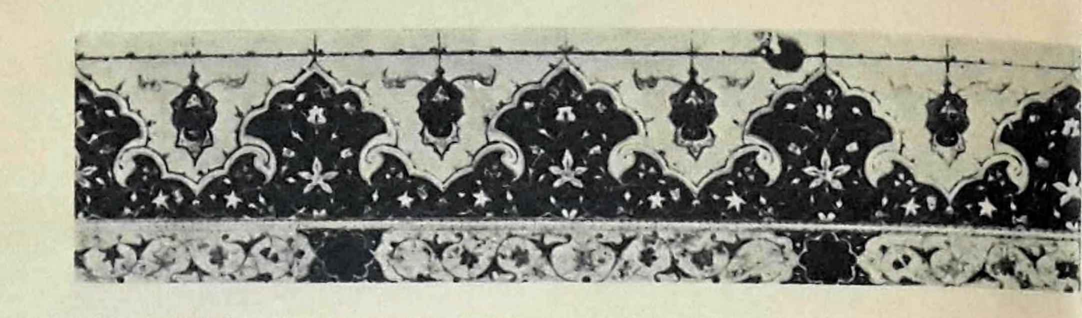
نخبة من أساتذة الجامعات العربية .

مراجعة : الدكتور شاكر مصطفى

التنفيذ الفني : أوصاف البقيلي



فهرس



هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربية .

لأول مرة في تاريخنا بأسره ، تصدر عندنا موسوعة مصورة ومعدة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي .

لم يكن بوسعنا أن نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا العربية . ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في اكثر لغات العالم تقدماً . وقد انفقنا بعض الوقت ونحن نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم « الحل الوسط » ، لكن البحث نفسه لم يعلّمنا شيئاً سوى أنه ليس ثمة حل وسط لأداء أي عمل جدي .

وذهبنا الى القمة .

اتصلنا بدور النشر شرقاً وغرباً ، وفحصنا اعمالهم بكل ما في حوزتنا من رغبة في التدقيق ، واخترنا أفضل - واحدث - عمل بينها ، ثم اندفعنا نفاوض على حقوق نشره في ملحمة مرهقة ، وغريبة بعض الشيء عن عالم منتجي الموسوعات في الغرب . فلم نكن نفاوض على الثمن ، بل على حقنا في تنقيح المادة ، وكان ذلك الطلب يدهشهم - احياناً - أكثر مما نتمنى .

بالتدريج تعلمنا أن نشرح لهم موقفنا . بالتدريج بدأنا نقنعهم بأننا لا نريد أن ننقل عملهم الى اللغة العربية ، بل نريد ان نعدّ لانفسنا موسوعة عربية تخصنا ، وتعكس روحنا وبيئتنا وذوقنا ، وترى الاشياء من وجهة نظرنا ، اذا كان لا بد أن تراها من وجهة نظر أمة ما .

وتقبّلوا فكرتنا في دار ميتشل بيزلي ذات الدور الرائد في ابتكار الموسوعات المصورة ، وانفتح الباب الذي ظل مغلقاً طوال تاريخنا القديم والحديث على حد سواء ، وبدأنا بالعمل لتقديم اول انتاج موسوعي متكامل في لغتنا العربية ، بعد ان تقررت خطة التنفيذ خلال جلسة شبه عائلية بين ثلاثة من المسئولين عن التنفيذ .

في تلك الجلسة تقرر اولا اننا سنواجه مشكلة صعبة في نقل المصطلحات الى حد قد يدعونا احياناً الى استعمال الكلمة اللاتينية حرفياً . وبالنسبة لهذه النقطة ، كان الحل الوحيد لدينا هو أن نوكل الترجمة الى اساتذة جامعيين في المادة نفسها ، وليس فقط الى مجرد مترجمين ، في محاولة حافلة بالتوقعات لحمل الخبير العربي على مواجهة مشاكل لغته المعاصرة ، واشراكه في مسئولية البحث عن الكلمة الأفضل والاكثر قرباً الى روح ثقافتنا وشخصيتنا .

ابعد من ذلك لم يكن بوسعنا ـ ولم يكن من حقنا أصلاً ـ أن نمضي شبراً واحداً . فنحن لا نتصدى لكتابة لغة جديدة للعرب ، بل لتسجيل معلومات جديدة في لغتهم ، وهي اقصى مهمة تستطيع أية موسوعة أن تؤديها .

في تلك الجلسة تقرر أيضاً أن الترجمة على أي حال ليست هي وحدها كل المشكلة . فمنهج التحرير نفسه في تغطية مواد الموسوعة الانجليزية منهج لا يلبي جميع احتياجاتنا . أنه يهيء لنا مادة علمية ممتازة العرض والتنسيق في مجلدات « الكون » و « الأرض » و « الحياة » ، لكن اهتماماته في مجلدات اخرى مثل « الانسان والمجتمع » ، و « مسيرة



من مواضيع المجلد :
- النظرية الذرية
- الحرارة والضوء والصورة
- الكهرباء
- الكيمياء . . .

الحضارة » ، لا تغطي كثيراً مما يهمنا نحن في الدرجة الأولى .

بالنسبة لهذه النقطة كان الحل لدينا هو أن نعيد اخراج الموسوعة بأسرها في مجموعتين : -

المجموعة الأولى موجهة لتغطية ميادين العلوم الطبيعية المعاصرة في المجلدات الخمسة التالية :

١) العلم
٢) الكون
٣) الأرض
٤) الحياة
٥) الاداة والآلة

وصفة هذه المجموعة انها تتعامل مع حقائق علمية مجردة . ودورنا فيها هو اننا









- علوم الفضاء
- المجموعة الشمسية
- النجوم وخرائط النجوم
- الانسان والفضاء . . .

- تركيب الارض
- البحار والمحيطات
- المناخ والطقس
- مصادر الغذاء والطاقة . . .

- كيف بدأت الحياة ؟
- النبات
- الحشرات والسمك
- الطيور والثدييات . . .

- وسائل النقل
- الاسلحة
- الهندسة
- الصناعات الكيميائية . . .

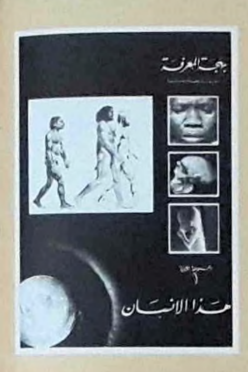
نقلنا جميع معلوماتها بأمانة ودقة . وما نتوقعه منها هو أن تسد الثغرة الهائلة - والشديدة الوضوح - في مكتبتنا العربية في ما يخص حقل المعرفة المصورة بالذات .

المجموعة الثانية موجهة لتغطية ميادين العلوم الانسانية في خمسة مجلدات اخرى هي :

١) هذا الانسان
٢) الانسان والمجتمع
٣) مسيرة الحضارة مجلد أول
٤) مسيرة الحضارة مجلد ثان
٥) مسيرة الحضارة مجلد ثالث

وصفة هذه المجموعة أن خطة تحريرها بحكم طبيعة العلوم الانسانية نفسها خطة لا يمكن اداؤها من جانبين مختلفين في وقت واحد . فمنهج المحرر الاوربي هو أن ينظر الى ميادين العلوم الانسانية في أوربا ، ويركز بحوث النص على قضايا المجتمع والتاريخ فيها ، مقابل أن يكتفي بتغطية شبه عامة لمعظم ما يقع خارج هذا الاطار . ومشكلتنا نحن في الطرف الاخر أن هذا المنهج يلزمنا بتفاصيل لا نحتاج اليها عن اوربا ، ويحرمنا معلومات اساسية نحتاج اليها اكثر عن مجتمعنا وتاريخنا وطبيعة قضايانا التي نتعامل معها . وكأن الأمر كله بالنسبة لنا مجرد دعوة للاختيار بين أن ننقل المجموعة الى اللغة العربية وبين ان نعدّ لانفسنا مجموعة عربية تخصنا .

هذه المرة لم تكن مشكلتنا ان نجد حلاً ، بل أن نتفق على اتخاذ قرار . وقد اعترانا التردد ، وارتفعت اصواتنا بعض الشيء ، ونحن نعدد لانفسنا انواع المصاعب والاحتمالات ، لكن ذلك فيما يبدو مجرد



من مواضيع المجلد :
- قصة التطور
- كيف يعمل جسدك وينمو ؟
- الصحة والمرض
- مراحل العمر المختلفة . . .

جزء متوقع من أية جلسة مخصصة لاتخاذ قرارات صعبة . فقد انتهى الأمر بيننا بالاتفاق على أي حال ، واتفقنا جميعاً على اختيار الطريق الأطول والأكثر تعقيداً .

رأينا أن نعيد توزيع النص . أن نتدخل لتنقيح المادة . أن نحذف . أن نضيف . ورأينا أن ذلك يعني في الواقع اننا سنعدُّ كثيراً من فصول هذه المجموعة بأنفسنا ، مما يتطلب بدوره أن نلتزم أيضاً بالمستوى الرفيع - والمبتكر - لاخراج النص في نسخته الاصلية . فماذا فعلنا ؟ قمنا بتقسيم مواد المجموعة الثانية الى ثلاثة اقسام :

القسم الأول : دراسة علمية منفصلة من مجلدين ، احدهما يضم معظم المعلومات المتوفرة الآن عن الانسان وتطوره ، ووظائف اعضائه وتشريح





- عن الموت والحياة
- الانسان والدين
- السياسة
- القانون . . .

- نشأة المجتمعات
- امبراطوريات العالم القديم
- ظهور الاسلام
- المغول في بغداد . . .

- اوربا في القرن الرابع عشر
- اكتشاف امريكا
- العثمانيون
- مطلع عصر الاستعمار . . .

- استعمار العالم العربي
- الحرب العالمية الاولى
- حركات التحرير في العالم العربي
- الحرب العالمية الثانية . . .

جسده وصفاته ، ومشاكله العقلية العامة . والآخر يتعرض لموقع الانسان في المجتمع ، والتركيبات الجماعية المعروفة في العالم ، وقضايا الشخصية والنمو العقلي . وفي هذا المجلد كان دورنا أن نساند معظم الدراسات الاصلية التي تركزت بحوثها على مجتمعات اخرى بدراسات جديدة عن مجتمعنا العربي ونوع قضاياه ذات الطابع المختلف . وقد بلغت حصيلة اضافاتنا مائة صفحة تقريباً مخصصة كلها لتحديد ابعاد الصورة الأخرى التي تسود مجتمعاتنا في العالم العربي .

القسم الثاني : دراسة تاريخية من مجلدين يعرضان قصة الحضارة منذ عصور ما قبل التاريخ الى نهاية العصور الحديثة . وفي هذا القسم تجاوزت اضافاتنا حدود المائة صفحة ، ووقع علينا عبء اعداد الفصول الخاصة بتاريخ الاسلام والعرب بالذات لتغطية النقص الظاهر في اصل الموسوعة .

القسم الثالث : دراسة للتاريخ المعاصر من مجلد واحد ، يتبعه في وقت لاحق اطلس تاريخي للوطن العربي . ومنذ بداية هذا القسم كنا قد افترقنا كثيراً عن النص الاجنبي ، وكنا نعرف على وجه اليقين اننا هذه المرة لا بد أن نعد معظم المادة بأنفسنا .

فماذا فعلنا ؟

سؤال بديهي حقاً ، لكن اجابته الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة وحدها او هذا الكتاب كله . انها تقع في عشرة مجلدات ، تضم اربعة الاف صفحة تقريباً ، وأكثر من عشرة آلاف صورة ، وجهد خمسمائة محرر ورسام طوال أربع سنوات كاملة .

الصادق النيهوم

خطة التحرير

كلمة موسوعة في اللغات الاوربية تعني تقريبا ما تعنيه كلمة « حلقة الدرس » في لغتنا . انها تجميع للمعارف طبقا لخطة اخراج خاصة من شأنها ان تضع حصيلة ضخمة من المعلومات بين يدي القارىء المتخصص والقارىء العادي على حد سواء .

ثمة خطتان لتحرير الموسوعات :

الاولى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب التجميع حسب الحروف الابجدية ، وتعمل على تقسيم معلوماتها في خانات ترتبط بنوع الحرف وليس بطبيعة الموضوع . مشكلة هذه الخطة انها قائمة على تفكيك الوحده الى فقرات مبتورة او مكررة ، مما يجعل الموسوعة نفسها مجرد قاموس مطول ، قد يرضي حاجة قارىء يبحث عن اجابة معينة لسؤال معين ، مثل « من هو قلب الاسد ؟ » ، او « متى عاش صلاح الدين ؟ » ، لكنه لا يسد حاجة من ينشد المعرفة الحقيقية بظروف هذين الرجلين وظروف العصر الذي شهد لقاءهما .

الخطة الاخرى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب تجميع المعلومات حسب وحدة الموضوع ، بحيث تقدم عرضا شاملا له ، بغض النظر عن حروفه الابجدية . فالقارىء هنا لا يتلقى معلومات متفرقة عن قلب الاسد او صلاح الدين تحت حروف ابجدية متباعدة ، بل يشاهد حياتهما بمجملها وعصرهما بكامله ، ويتعرف على الظروف والاحداث التي احاطت بهما ، في عرض واحد مفصل تحت عنوان « الحروب الصليبية » .

ان هذه الخطة ، بكل ما تقتضيه من المحرر من مراعاة الشمول والدقة ، هي التي رأيناها جديرة بتحرير موسوعة كبرى مثل « بهجة المعرفة » .

بهجة المعرفة ؟ نعم ، فهذا الاسم بالذات ليس مجرد اختيار عابر من جانبنا ، بل هو المنهج ذاته المتبع في اعداد مواد الموسوعة وفي توزيعها ايضا .

لم نكترث للفكرة القائلة بان المعرفة التي تكتسب بيسر لا بد ان تكون معرفة سطحية أو غير نافعة . الواقع ان مثل هذا الزعم ليس خياليا وبعيدا عن مفهوم التربية فحسب ، بل انه مفسد ، اذ من شأنه ان يسد كل طريق ممكن الى المعرفة . لقد تعمدنا ان نتجاهله ، وصممنا على ان نمضي في الاتجاه الاخر ، عازمين على تأكيد ايماننا بان المعرفة في حد ذاتها هي اول لذات الحياة واكثرها اثارة للبهجة .

استعملنا الرسوم . استعملنا الجداول واللوحات والخرائط . اتجهنا لتطوير طريقة

عرض المادة بحيث يسقط الضوء على كل موضوع من ثلاث زوايا مختلفة في وقت واحد :

زاوية النص العام الذي يتولى مهمة شرح الموضوع وتحديد اطاره ؛ زاوية الصور التي تواكب فقرات النص بمثابة شروح او وثائق ؛ زاوية التعليق على الصور ، وهو نص آخر قائم بذاته ، لإضافة مزيد من المعلومات الى النص العام او شرح تفاصيله .

هذا المنهج في تغطية جميع وحدات الموضوع من عدة زوايا في وقت واحد هو الذي قاد المشرفين على اخراج الموسوعة في اللغة الانجليزية الى ابتكار نظامهم البارع - والمفيد - لتجميع كل موضوع على حدة في قطاع واحد من صفحتين .

نظام القطاع : اصطلاح « القطاع » يمثل هنا الوحدة الاساسية لجميع المجلدات ، وهو صفحتان في الاصل الاجنبي ، واربع صفحات في النسخة العربية ، نظراً لاختلاف حجم المجلد من جهة ، وصغر انماط الحرف اللاتيني من جهة اخرى .

كل قطاع يضم نصاً رئيسياً يقع في ٧٥٠ كلمة تقريبا على امتداد النصف العلوي من الصفحات الاربع ، تضاف اليه الصور والرسوم الملونة التي تغطي مع شروحها اكثر من نصف المساحة . وقد اخترنا للشروح اصغر نمط متاح للحرف العربي ، لكي نفسح مجالاً كافياً لحشد مزيد من التفاصيل ، دون ان تصبح القراءة صعبة او مرهقة .

نقل القطاع من اصله الاجنبي الى النسخة العربية تم بنجاح ، رغم الاختلاف الظاهر بين حجم المجلد في كلتا الموسوعتين . لقد التزمنا اصلا ، في القطاعات التي قررنا نقلها بحذافيرها الى اللغة العربية ، بنشر جميع الصور في احجامها الاصلية وجميع النصوص والشروح التي يضمها القطاع على اربع صفحات بدلاً من اثنتين .

لمن « بهجة المعرفة » ؟ في الدرجة الاولى نحن نتوجه الى القارىء المدرب الذي تلقى تعليماً منظماً يعادل - على الاقل - مرحلة التعليم الاعدادي . فقراءة موضوعات الموسوعة من دون المام بأوليات المعرفة قد لا تكون امراً مشوقاً . فيما عدا ذلك ، نعتبر « بهجة المعرفة » « حلقة درس » حقيقية مفتوحة فعلاً لجميع الاعمار .

لقد ضمنّاها ثلاثة مصادر للمعرفة ، تمثل مستويات المعارف المختلفة : مصدراً يعالج معلومات اساسية قد يحتاج اليها كل قارىء ، مثل المواد الخاصة بوظائف الجسم

وتربية الطفل وامور الصحة والمرض ؛ ومصدراً يعالج معلومات مفيدة وممتعة معـا ، من شأنها ان تشد انتباه كل قارىء بين الاعدادي وبين الجامعة ، لأنها تهيّء له مرجعا علميا موثوقا به لجميع المعارف التي يتلقاها طوال سنوات دراسته ، مثل المواد الخاصة بالتاريخ والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلك ؛ ثم مصدراً ثالثاً يعالـج معلومـات متخصصـة لا يحتاج القارىء الى مطالعتها فقط ، بل الى مراجعتها ايضا بين حين وآخر ، بحثاً عن الحل او المشورة ، مثل المواد الخاصة باستعمال الالات او موضوعات غذاء الطفل ورعاية الحامل .

كيــف تقـرأ ؟ نظام القطـــاع مصمم خاصة لتحويــــل الموسوعة الى مكتبة امـــــام كل قارىء لا يرتبـط بمنهج بحث معين . انه يستطيع ان يقرأ كل كتاب على حدة - او حتى كل قطاع على حدة - ويستطيع ان يضمن لنفسه فيضاً زاخراً من المعلومات النافعة دون ان يخسر شيئاً من متعة التشويق والتباين . لكن نظام القطاع قد يقدم خدمة اكبر للقارىء المدرب الذي يستعمل الموسوعة طبقا لمناهج محددة في البحث .

فهذا القارىء ، سواء كان طالبا او باحثا متخصصا ، تمده الموسوعة بمرجع قريب وسهل التداول . يكفيه مشقة البحث الطويل بين المصـادر ، ويكفيه في الدرجـة الاولى مشقة تجميع المصادر نفسها . كل ما يحتاج اليه هنا هو ان يراجع في « اقرأ ايضاً » ارقام صفحات القطاعات المترابطة في كل مجلد على حدة ، لكي يكتشف بنفسه ان كل قطـاع يعمل تلقائياً بمثابة خلية واحدة في جسم واحد ، وان كل قطاع يقود الى الآخر في نسيج متواصل النمو والتشابك مثل المعرفة الحية نفسها .

كيــف تبحــث ؟ الخطوة الاولى ان تحدد لنفسك المجلــــــد الـذي يتعامــــل مع موضوعـك . فما يخص الانسان مثلا تبحث عنه في « هذا الانسان » ، وما يخص الفضـاء تبحـث عنـه في مجلـد « الكون » . ومجلدات الموسوعة مقسمة عمدا الى مجموعتين لتسهيل هذه المهمة بالذات .

الخطوة الثانية ان ترجع ، في « هذا الانسان » مثلا ، الى الصفحة الثامنة عشرة ، حيث تجد خارطة مفصلة للكتاب ، تحدد لك اين تجد موضوعك ، وموقعه من المادة بأسرها . فاذا كنت تبحث عن امر يتعلق بالجهاز الهضمي مثلاً ، فسوف ترشدك الخارطة الى القسم الثاني المخصص للجسم البشري في بنيته وفي وظائفه . بعد ذلك ، كل ما تحتاج اليه هو ان تلقي نظره على فهرس المحتويات لكي تعرف الصفحة التي تحتوي على موضوعك .

الدكتور كريم عـــزقول

نظام القطاع

النص الرئيسي هو عرض لموضوع قائم بذاته ، من ٧٥٠ كلمة تقريباً ، يملأ الجزء الأعلى من صفحات القطاع الاربع .

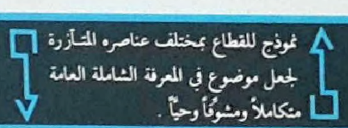


الرسوم والصور هي رسوم وصور ومخططات ولوحات وجداول وخرائط تضفي طابعاً حسياً على تفاصيل الموضوع وتجسّده ماثلا امام عينيك .



نموذج للقطاع بمختلف عناصره المتآزرة لجعل موضوع في المعرفة الشاملة العامة متكاملاً ومشوقاً وحيّاً .

الهوامش هي كلمات - عناوين لاجزاء الرسوم والصور او ارقام تدلك الى شروحها في التعليقات .



التعليقات هي شروح للرسوم والصور تستخرج معانيها وتوضح دقائقها وتزودك بمعلومات تفصيلية اضافية عن الموضوع .

اقرأ ايضاً هي قائمة بالابحاث التي تتناول نواحي اخرى من الموضوع ذاته والتي يمكنك مطالعتها في هذا المجلد . وقد افرد لها باب خاص في آخر المجلد .

خطة الكتاب

الشرق في القرنين ١٩ و ٢٠

اوروبا السياسية منذ القرن ١٩

البلاد العربية المشرقية

الاصلاح الاسلامي والدولة العثمانية

الغزو الاستعماري في القرن ١٩

النهضة العربية

البلاد العربية حتى اواسط القرن العشرين

البلاد العربية في افريقيا

محمد علي في مصر

الغزو الاستعماري والنضال ضده

قناة السويس

الحضارة الغربية الحديثة

التاريخ الامريكي والافريقي

النهضة اليابانية الحديثة

الصين منذ القرن ١٩

الهند واوقيانا في العصر الحديث

الغرب الاوروبي . ثورته الصناعية واتجاهه للشورى

روسيا والبلقان منذ القرن ١٩

الحربان العالميتان الاولى والثانية

التاريخ السياسي

فلسطين والصهيونية

الآداب والتربية والمجتمع

المسرح والموسيقى والسينما

الفنون الغربية (مسرح. تصوير. موسيقى. سينما. اوبرا)

الآداب والعلوم والصحافة

الفكر السياسي والاجتماعي. الامم المتحدة

حركات التحرير في امريكا اللاتينية

تاريخ الولايات المتحدة الحديث وكندا

افريقيا منذ القرن ١٩ والاسلام فيها

الأمبراطوريات الأوروبيّة في القرن التاسع عشر

كانت الامبراطوريات النمساوية ـ المجرية ، والروسية ، والعثمانية ، جميعها متورطة في مشكلة البلقان خلال معظم القرن التاسع عشر . نشأت النزاعات الدبلوماسية والعسكرية بين هذه الدول الثلاث الكبرى نتيجة لمطامعها السياسية من جهة ، ولحركات الاستقلال الوطنية العنيفة في المناطق البلقانية المتنازع عليها من جهة ثانية .

كفاح صربيا من أجل الاستقلال

في صربيا احدى المقاطعات العثمانية في البلقان بدأ تحدّي السيطرة السياسية للامبراطورية العثمانية . كان الحكم

١



٢



٣

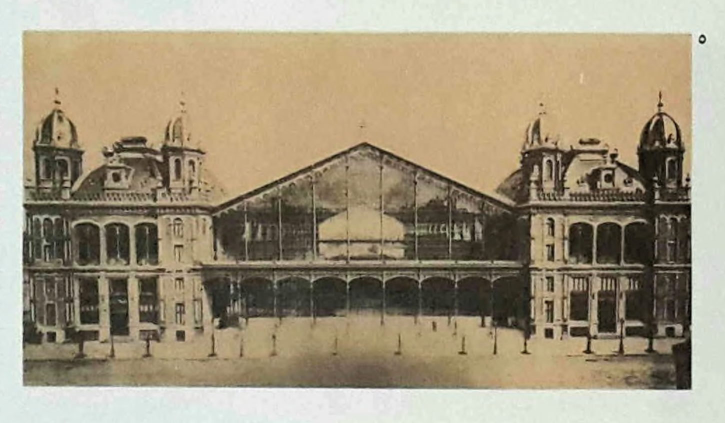


٤



التركي في صربيا ، التي جرى احتلالها سنة ١٣٨٩ ، قد اتخذ شكلا استبداديا ، وخصوصا في أواخر القرن الثامن عشر . كان الحكام العسكريون يمارسون سلطة مستقلة الى حد كبير ، وفي سنة ١٨٠١ اعدموا باشا بلجراد ممثل السلطان الخاص ، وسنة ١٨٠٤ امروا باعدام ٧٢ من وجهاء القرى الصربية . من جراء ذلك ، اندلعت الثورة الصربية سنة ١٨٠٤ بقيادة قره جورجي ، وهو قائد عسكري قدير ، كحركة احتجاج على تجاوزات الحكم التركي . لكن تلك الثورة تطورت ، في أعقاب انتصارات عسكرية باهرة ، الى حركة تتوخى احراز الاستقلال التام .

قدمت روسيا بعض الدعم العسكري والدبلوماسي للصربيين ، الذين تربطهم بها الديانة الارثوذكسية والعصبية السلافية .



٥

(١) ـ استهل انتصار نابليون على النمسا في معركة مارنجو ، في يونيو ١٨٠٠ ، عملية طرد آل هابسبورج من أوروبا الشمالية والغربية . بعد ذلك بوقت قصير ، أكره فرنسيس الأول سنة ١٨٠٦ على التخلي عن لقب « الامبراطور الروماني المقدّس » ، الذي تقلده آل هابسبورج لعدة قرون . منذ ذلك التاريخ ، أخذت النمسا تتطلع نحو الجنوب الشرقي .

(٢) ـ الشاعر الانكليزي اللورد بايرون ، الذي جهّز جيشا للدفاع عن قضية الاستقلال اليوناني ، مات في ميسولونجي سنة ١٨٢٤ . في ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧ ، قضي على الاسطول التركي في معركة نافارينو على يد بريطانيا وفرنسا . في سنة ١٨٢٩ ، اقرت معاهدة ادرنة استقلال اليونان الذاتي ، وتحقق الاستقلال سنة ١٨٣٢ .

(٣) ـ وقعت معركة « آلما » في ٢٠ سبتمبر ١٨٥٤ ، وكانت أول اشتباك ضخم في حرب القرم بين روسيا من جهة وتركيا وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . على أثر معاهدة باريس (سنة ١٨٥٦) ، انحسرت سيطرة روسيا في أوروبا الجنوبية الشرقية ، ومنحت تركيا فسحة جديدة من العمر تحت حماية الدول الأوروبية .

(٤) ـ فتح الاتراك منطقة « الجبل الاسود » سنة ١٤٩٩ ، الا ان مساحة شاسعة من أراضيه الجبلية الوعرة بقيت خارج متناول يدهم . من تلك الأراضي ، راح سكان « الجبل الاسود » ، كالظاهرين هنا ، يهاجمون المدن التي استولى عليها الاتراك . في أعقاب الحروب التي شنوها على الاتراك سنة ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨ ، اعترف مؤتمر برلين المنعقد سنة ١٨٧٨ « بالجبل الاسود » دولة مستقلة . نتيجة لذلك ، زادت أراضي « الجبل الاسود » ٧٠ ٪ وتضاعف عدد سكان البلاد تقريبا .

(٥) ـ كانت السكك الحديدية تربط بين المركزين الرئيسيين لامبراطورية آل هابسبورج ، فيينا وبودابست (التي تبدو محطتها في الصورة) ، وبين المقاطعات النائية . بني الخط الحديدي بين فيينا وميناء تريستا سنة ١٨٥٤ ، وازدادت المستوردات بين سنة ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣ بنسبة ٨٣ ٪ بالقياس الى السنوات الخمس السابقة . أصبحت بودابست مرتبطة بمرفأ ريجيكا (فيومي) سنة ١٨٧٣ .

لكن السبب الحقيقي في تمكين الثوار من التمتع بالاستقلال طيلة ثماني سنوات كان خليطا من الضعف التركي ومن شدة المقاومة الصربية . في آخر الأمر ، سحق الاتراك الثورة الصربية سنة ١٨١٣ . لكن الصربيين ثاروا ثانية في غضون ١٨ شهرا بزعامة ميلوس اوبرينوفيتش (١٧٨٠ – ١٨٦٠) ، وكان دبلوماسيا محنكا أكثر من قره جورجي . توصل اوبرينوفيتش الى اتفاق مع الاتراك بقيت بلاد الصرب بموجبه مقاطعة عثمانية ترابط فيها قوات تركية ، ولكنها تتمتع بحق المشاركة في الادارة ، والاحتفاظ بحرس وطني ، وانشاء مجلس وطني في العاصمة بلجراد .

لم ينته صراع الصربيين من أجل الاستقلال حتى ١٨٧٨ ، عندما اعترف مؤتمر برلين (٦) بصربيا دولة مستقلة .

٦



(٦) – كانت التسوية التي توصل اليها مؤتمر برلين ضعيفة الركائز وانطوت بالتالي على بذور الصراع اللاحق . فقد منحت تلك التسوية امبراطورية النمسا – المجر حق الاشراف فقط على مقاطعتي البوسنة والهرسك دون حق الاحتلال الدائم ، فانطلقت من بلاد الصرب دعاية على نطاق واسع وانبثت في أوساط مواطنيها الصربيين وسواهم من السلاف الجنوبيين في البوسنة والهرسك والمقاطعات الجنوبية الأخرى التي كان يقطنها السلاف وتدخل في امبراطورية آل هابسبورج . لذلك قامت النمسا – المجر سنة ١٩٠٨ بضم بلاد الصرب . اما بلغاريا ، التي حرمت من الوصول الى بحر ايجة ومن مقدونيا ، فاضمرت العداء لبريطانيا وسواها من الدول باستثناء روسيا وبلاد الصرب . تخلت رومانيا عن بيسارابيا الجنوبية لروسيا ، التي لم تتمكن من السيطرة على القسطنطينية .

٧



(٧) – جرى تتويج فرنسيس جوزيف في بودابست في ٨ يونيو ١٨٦٧ . ففي تلك السنة قامت امبراطورية ثنائية نتيجة لتسوية بين فيينا وبودابست ، وتوج فرنسيس جوزيف في فيينا أمبراطورا للنصف النمساوي من المملكة المزدوجة ، ثم توج في بودابست ملكا للنصف الهنجاري منها . توصل الهنجاريون الى اتفاق مع كرواتيا سنة ١٨٦٨ ، يضمن لها وضعا خاصا وبعض الحكم الذاتي داخل النصف الهنجاري من المملكة . الا ان القومية الهنجارية اصطدمت بالمقاومة من قبل الرومانيين والكرواتيين والصرب والاوكرانيين .

توحيد الاقوام السلافية

كان التأثير على اشده داخل امبراطورية النمسا ـ المجر التي كانت تحكمها أسرة هابسبورج ، والتي كان قد لجأ اليها عدد من السلاف هربا من الاتراك في القرن السابع عشر .

كانت الكنيسة الارثوذكسية رابطة قوية بين الصرب المقيمين في صربيا والآخرين المقيمين خارجها . كذلك كان من شأن الخوف من الضغط المزدوج ، الرامي الى فرض الطابع الالماني من قبل فيينا ، والطابع المجري من قبل بودابست ، انّه قرّب بين الكرواتيين وبين سواهم من السلاف (٧) .

في الثورة المناوئة لحكم آل هابسبورج سنة (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩) ، حارب الجنرال الكرواتي جوسيب جيلاتشيك (١٨٠١ ـ ١٨٥٩) الهنجاريين ، مستعينا بالصرب والسلوفينيين ، فقامت فيينا ، على اثر سحقها لثورة (١٩٤٨ ـ ١٨٤٩) ، بفرض حكم مركزي ذي نزعة المانية قوية . لكن وجود دولة صربية شبه مستقلة ألهب خيال الصرب والكرواتيين ، فضلا عن السلوفينيين ، وساعدت الروابط اللغوية على ترويج الفكرة القائلة بأن جميع الصرب والكرواتيين والسلوفينيين هم أمة واحدة من اليوغسلاف او السلاف الجنوبيين .

تطورت هذه الفكرة فيما بعد ، فأصبحت تنادي بالوحدة السلافية ، وهي حركة قومية أخذت تناضل من أجل الوحدة الثقافية والسياسية لجميع الشعوب السلافية .

تأثير سياسة روسيا الخارجية

رأت روسيا في هذه الحركات ذرائع للزحف باتجاه القسطنطينية ولايصال اسطولها الى المياه الدافئة على مدار السنة . في هذه الاثناء ، اضطرت النمسا ، التي كانت بروسيا تضغط عليها منذ ١٨١٥ لتخرجها خارج المانيا ، الى تجديد التزامها بدورها البلقاني ، وبسبب تخوفها من انبثاق القومية الجديدة في أوساط السلاف البلقانيين ، أصبحت أيضا في النصف الأول من القرن التاسع عشر حليفة وحامية لتركيا . فردّت روسيا على ذلك بدعمها لاعداء تركيا والنمسا .

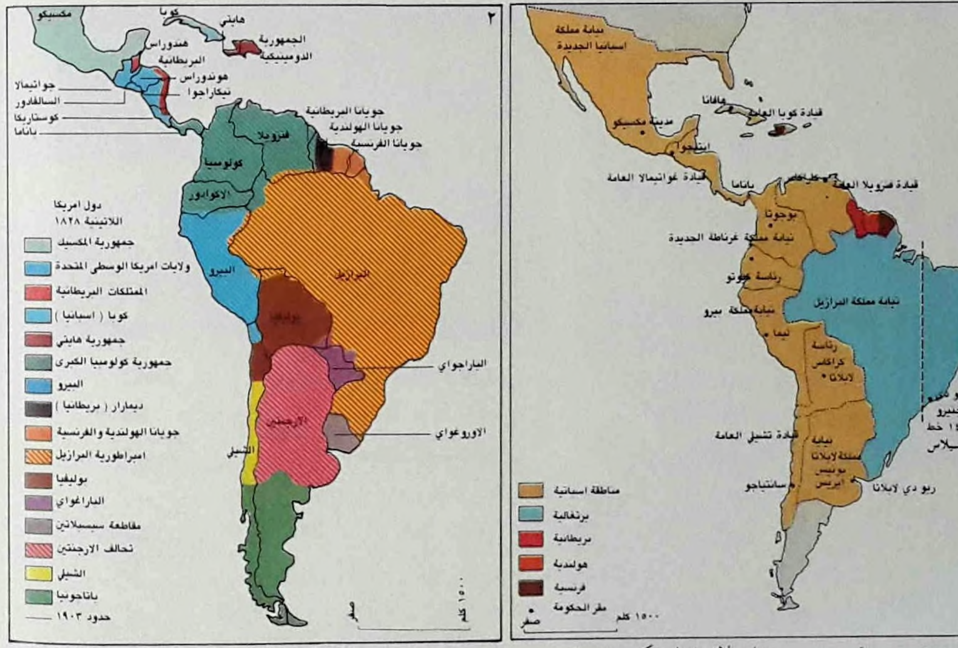
كانت تركيا مدعومة من بريطانيا ، عدوة روسيا الرئيسية ، وانضمت فرنسا اليهما في منتصف القرن التاسع عشر . في أعقاب خلاف نشأ في ٢١ يوليو ١٨٥٣ حول الاماكن المقدسة في فلسطين ، احتلت روسيا امارتي ولاخيا ومولدافيا ، وذلك لتكونا في يدها « ضمانة مادية » تؤمن بها التنازلات التركية اللازمة للاستجابة الى « مطالبها العادلة » في فلسطين .

في ٤ اكتوبر ١٨٥٣ ، أعلنت تركيا الحرب على روسيا ، وسرعان ما حذت بريطانيا وفرنسا حذوها ، لاعتقادهما بأن سلامة الامبراطورية التركية كانت مهددة . بقيت النمسا على الحياد ، لكن حيادها هذا أضرّ في روسيا ، فقوّى العداء بين الدولتين . انهك القتال القوات الروسية في شبه جزيرة القرم (٣) ، وبعد وفاة القيصر نيقولا الأول في ١٨٥٥ ، جاء خلفه الاسكندر الثاني ودخل في مفاوضات للصلح .

حركات التحرير في أمريكا اللاتينية

نالت معظم الجمهوريات العشرين ، التي تتألف منها اليوم أمريكا اللاتينية ، استقلالها بين سنتي ١٨١٠ و ١٨٢٤ ، وهي الحقبة التي بدأت حينما رفضت تجمعات الضباط في المدن الكبرى من الامبراطورية الاسبانية في أمريكا القبول بشقيق نابليون ، جوزيف ، حاكما عليها ، والتي انتهت بآخر معركة ذات شأن من أجل الحرية في اياكوتشو في البيرو .

كانت هايتي قد انتزعت استقلالها من فرنسا قبل ذلك ببضع سنوات (سنة ١٨٠٤) ، ثم فرض سكان هايتي فيما بعد سلطتهم على سان دومنجو المجاورة ، التي لم تحقق استقلالها تحت اسم



(١) ـ عشية حروب الاستقلال (حوالى ١٨٠٠)، كانت امريكا اللاتينية موزعة بين اسبانيا والبرتغال . اتفقت دولها المستقلة حديثا فيما بينها على ابقاء حدودها الوطنية مطابقة بصورة عامة للاقسام الادارية الاستعمارية القديمة . ولكن نظرا لان هذه الاقسام لم تكن واضحة المعالم في أغلب الأحيان ، كان لا مفرّ من قيام منازعات اقليمية . كانت « المنطقة الشرقية » (أي الضفة الشرقية لريو دي لابلاتا) موضع خلاف حاد بين اسبانيا والبرتغال ، واستمر الحال على ذلك بين الارجنتين

٣

مجموع التوظيف
مجموع التوظيف في سندات حكومية
مجموع التوظيف في مشاريع اقتصادية
حصة السندات الحكومية والمشاريع الاقتصادية الموظفة في الارجنتين والبرازيل والشيلي والمكسيك والبيرو والاوروغواي

(بملايين الليرات الاسترلينية)

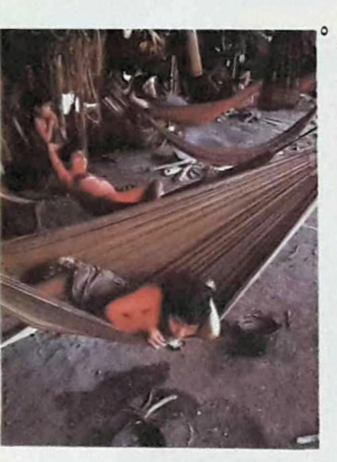
٩٩٩.٢ ، ٦٨٢.٨ ، ٥٤٠.٠ ، ٤٢٥.٧ ، ٢٥١.٣ ، ٣١٦.١ ، ١٧٩.٤ ، ١٢٣.٠ ، ١٩٤.٤ ، ٥٦.٤ ، ٢٥.٣

١٨٢٦ ، ١٨٨٠ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ ، ١٩١٣

الجمهورية الدومنيكية حتى سنة ١٨٤٤ . أصبحت البرازيل ، التابعة للامبراطورية البرتغالية في أمريكا ، مستقلة سنة ١٨٢٢ دون سفك دماء يذكر ، وتوج الوصي على العرش ، دون بدرو الأول ، امبراطورا عليها . أصبحت الاوروجواي دولة مستقلة سنة ١٨٢٨ ، بعد أن خاضت الأرجنتين والبرازيل الحرب للمطالبة بها . بقيت كوبا مقاطعة اسبانية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فأدت الحرب الاسبانية الامريكية (١٨٩٨) الى استقلالها ، لكنها بقيت مرتبطة بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة . كانت باناما مقاطعة تابعة لكولومبيا حتى ثار سكانها سنة ١٩٠٣ وحققوا استقلالهم . اجّرت حكومتها الجديدة الولايات المتحدة ، التي كانت قد ناصرت الثورة ، قطعة من أرضها عرضها ١٦ كلم ايجارا ابديا ، فشقت فيها قناة

٤

٥



والبرازيل بعد الاستقلال . في أعقاب الحرب التي نشبت بين هذين البلدين (١٨٢٥ – ١٨٢٨) والتدخل الدبلوماسي من قبل بريطانيا ، أصبحت المناطق المتنازع عليها دولة حدودية ، هي جمهورية اوروجواي الجديدة .

(٢) – كانت أمريكا اللاتينية تبدو سنة ١٩٠٣ كما تبدو اليوم تقريبا . كانت المكسيك قد تخلت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل الى الولايات المتحدة عن أكثر من نصف أراضيها الوطنية (أي نيابة ملكية « اسبانيا الجديدة ») . كانت كوبا وباناما قد اصبحتا مستقلتين اسميا ، مع انهما وقعتا بالفعل تحت حماية الولايات المتحدة ، سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٣ تباعا . أعلنت باراجواي استقلالها سنة ١٨٤٢ ، وكانت بوليفيا قد تخلت عن أراضيها الساحلية لشيلي في حرب المحيط الهادىء (١٨٧٩ – ١٨٨٣) ، فأصبحت بالتالي مقفلة على البحر . كانت أمريكا الوسطى قد تجزأت الى دولها الحالية المختلفة (كوستاريكا والسلفادور وجواتيمالا وهندوراس ونيكاراجوا) وذلك منذ ١٨٣٨ .

(٣) – كانت بريطانيا تمارس تأثيرها الرئيسي على بلدان أمريكا اللاتينية المستقلة حديثا من خلال التجارة والأعمال المالية بالدرجة الأولى . بلغ تدفق رأس المال البريطاني ذروته من (١٩٠٤ – ١٩١٣) ، حين كان يعادل ما لا يقل عن ٢٠ ٪ من التوظيفات البريطانية في الخارج .

(٤) – سيمون بوليفار (الى اليمين) يتلقى باعتزاز استسلام الاسبان في معركة بوایاکا (١٨١٩) ، مما وطد استقلال كولومبيا .

(٥) – كان الهنود الأصليون ينظرون الى الاستقلال الأمريكي اللاتيني بوجه عام على أنه استبدال سيد بآخر . أصبح كثيرون من الذين كانوا يخضعون للأشكال القديمة من العبودية الاستعمارية عمالا زراعيين في الاقطاعات الكبرى الجديدة .

باناما التي انجزت سنة ١٩١٤ .

نتائج الاستقلال

كان استقلال امريكا اللاتينية يعني بصورة جوهرية ان المتحدرين من أصل أوروبي الذين ولدوا هناك أخذوا يحلون محل أبناء شبه الجزيرة الايبرية في مراكز السلطة والامتياز . بقيت البنية الاجتماعية الموروثة عن اسبانيا والبرتغال ، المتمثلة في « الهايسيندا » او « المزرعة الكبيرة » ، دون تغيير يذكر ، واستمرت الكنيسة ، التي كانت حليفة للتاج أبان الفترة الاستعمارية ، تمارس تأثيرا محافظا قويا ، كما ظل العسكريون ، الذين استمدوا المزيد من القوة من فترات الحروب الطويلة الأمد ، طبقة اخرى ذات امتيازات تحول دون اقامة حكومة مدنية فعالة .

٦



٧



٨



(٦) ـ كان خوزه دي سان مارتين (الى اليمين) المحرر البارز للجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية . وطد استقلال الأرجنتين وحقق استقلال شيلي وجزءا من البيرو (بما فيها ليما العاصمة) . قبل ان يكتمل تحرير البيرو ، آخر معقل هام للسلطة الاسبانية ، جرى لقاء شهير بين سان مارتين وبوليفار في جواياكيل بالاكوادور في يوليو ، ١٨٢٢ ، للبحث في مستقبل أمريكا الاسبانية . بعد ذلك انسحب سان مارتين ، تاركا الميدان لبوليفار .

(٧) ـ اجتاز « جيش الانديس » ، بقيادة سان مارتين ، الجبال عبر ممرّ اوسبالاتا ، على ارتفاع ٣,٧٩٩ مترا ، وهو انجاز عسكري خارق . كان الجيش في طريقه الى تحرير شيلي بالتعاون مع زعيم شيلي الوطني ، برناردو اوهيجنز (١٧٧٨ ـ ١٨٤٢) . أخذت القوات الاسبانية على حين غرة وهزمت في معركة تشاكابوكو ، في ١٢ فبراير ١٨١٧ . في ابريل التالي ، وطد انتصار جديد في مايو استقلال شيلي .

(٨) ـ كان سيمون بوليفار ، الذي عرف في جميع أنحاء القارة « بالمحرر » ، أعظم أبطال حركة الاستقلال في أمريكا اللاتينية . لعب دورا بارزا في تحرير بلاده الأصلية ، فنزويلا ، فضلا عن كولومبيا والاكوادور والبيرو وبوليفيا ، البلد الذي دعي باسمه . وحد بوليفار البلدان الثلاثة الأولى في دولة واحدة هي جمهورية كولومبيا ، واوحى الى مؤتمر باناما (١٨٢٦) بالهدف الرئيسي القاضي باقامة حلف من الدول الاسبانية الأمريكية . الا ان هذا الحلف لم يبصر النور ، فانقسمت كولومبيا الكبرى الى الولايات التي تتألف منها ، وتوفى بوليفار مسلولا سنة ١٨٣٠ ، بعد ان أصيب بخيبة أمل كبرى .

من العوامل التي جعلت من الصعب جدا قيام حكومات مستقرة ، اتساع مساحة الكثير من الدول الجديدة ، ومشاكل المواصلات ، والتفكك الاقتصادي الناجم عن الحروب ، وانعدام الخبرة في ميدان الادارة لدى الحكام الجدد ، واميّة الجماهير . لم يتمكن الا عدد قليل من أبطال الاستقلال من ان يحكموا بلادهم بنجاح ، بعد ان خيم السلام على بلادهم . أعظم هؤلاء الأبطال ، سيمون بوليفار (١٧٨٣ - ١٨٣٠) محرر الشمال الغربي كله (٨) الذي مات في المنفى الطوعي ، وخوزه دي سان مارتين (١٧٧٨ - ١٨٥٠) (٦) ، المحرر البارز الآخر للأرجنتين ولأمريكا الاسبانية الجنوبية ،الذي تقاعدفي أوروبا . كان الحاكم النموذجي للبلدان الجديدة هو « الكاوديوّ » ، او الديكتاتور العسكري .

العلاقات بين البلدان

بصورة عامة ، لم تكن العلاقات بين البلدان الامريكية اللاتينية في أعقاب الاستقلال وثيقة او حارّة . ففي حين بقيت أمريكا البرتغالية على حالها (على شكل البرازيل) ، أخذت أمريكا الاسبانية بالتفكك تبعا للاقسام الادارية للامبراطورية الاسبانية القديمة .

تضافرت عوامل التاريخ والجغرافيا (والسياسة) لعزل دول أمريكا اللاتينية بعضها عن بعض . كانت الحواجز الطبيعية الضخمة سببا رئيسيا من أسباب هذه العزلة ، كما كانت النزعة الاقليمية داخل كل من هذه الدول سببا آخر .

الاعتماد على البلدان الأخرى

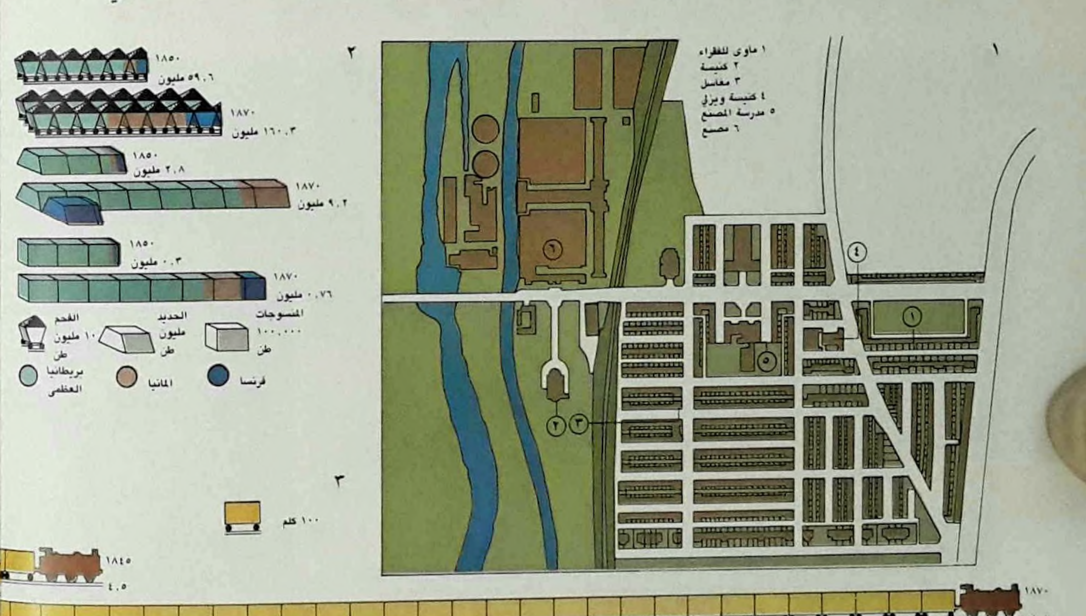
هكذا أصبحت دول أمريكا اللاتينية معتمدة ، اقتصاديا وماليا ، على بلدان خارجية قوية . خلال القرن التاسع عشر ، كانت بريطانيا هي القوة الاقتصادية الرئيسية في أمريكا اللاتينية (٣) .

في تلك الاثناء ، كانت الولايات المتحدة قد وسّعت أراضيها الى حد كبير على حساب المكسيك التي هزمت في ساحة الحرب (١٨٤٦ - ١٨٤٨) . وحتى قبل ذلك ، أي سنة ١٨٢٣ ، كان الرئيس مونرو (١٧٥٨ - ١٨٣١) قد نادى بمبدئه الشهير « امريكا للامريكيين » محذرا الدول الأوروبية من مغبة التدخل أو المزيد من الاستعمار في أمريكا اللاتينية . كان هذا المبدأ يعني في الواقع ان للولايات المتحدة علاقة خاصة بأمريكا اللاتينية .

في نهاية القرن التاسع عشر ، استطاعت الولايات المتحدة ، بفضل قوتها العسكرية ، ان تفرض احترام « مبدأ مونرو » كلما كانت مصالحها تتعرض للخطر . في الوقت نفسه ، روجت الولايات المتحدة لفكرة « الوحدة الأمريكية » التي انطوت على القول ان بلدان الامريكتين تربطها مصالح مشتركة ونظام من العلاقات الدولية ، هو النظام الامريكي المتبادل . أخيرا عقد مؤتمر من الولايات المتحدة وبلدان أمريكا اللاتينية في واشنطن (١٨٨٩ - ١٨٩٠) فأنشأ « الاتحاد الدولي للجمهوريات الأمريكية » ، الذي أعيدت تسميته سنة ١٩١٠ « بالاتحاد الأمريكي » .

الثورة الصناعية في الغرب

يظهر ان الثورة الصناعية الأوروبية بدأت في بريطانيا . فقد شهدت السنوات السبعون الأولى من القرن التاسع عشر تطورا اقتصاديا لا مثيل له في بريطانيا ، بعد ان كوّنت القوى التي فجّرت في آخر القرن الثامن عشر أول مجتمع مديني صناعي . فقد تزايد السكان ، ونمت المدن على أثر تسارع التصنيع المبني على التوسع التجاري الضخم ، وتطبيق نظام المصانع على الانتاج ، وتسخير الآلات البخارية لانجاز عدد متزايد من العمليات . كذلك استخدمت الطاقة البخارية في النقل اثر تطوير السكك الحديدية والبواخر الاولى . من جهة اخرى ، أدت الحياة في



(١) – وفرت عدة مدن صناعية ، مثل صولتير في يوركشير ، المأوى والظروف المعيشية المناسبة لاعداد كبيرة من العمال . بحلول منتصف القرن التاسع عشر ، راح أصحاب المصانع والسلطات البلدية يدخلون بعض النظام محل فوضى المدن الصناعية الاولى ، ويبنون مساكن للعمال ذات شكل مشبك عادي من الحديد تؤمّن المرافق الصحية والمائية الأساسية .

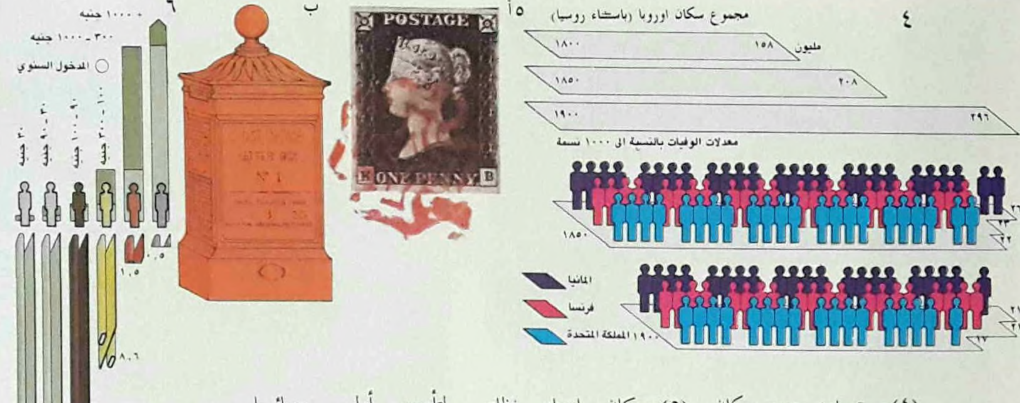
(٢) – كان الانتاج الصناعي آخذا في التصاعد في عدة انحاء من أوروبا بحلول منتصف القرن التاسع عشر . أخذت المانيا وفرنسا تسهمان بنصيب وافر في انتاج الحديد والفحم والمنسوجات ، كما أخذت البلدان الصغيرة ، مثل بلجيكا وسويسرا ، تطور قطاعات صناعية هامة . كان التصنيع في بريطانيا متقدما على التصنيع في سائر أوروبا .

(٣) – كان توسع السكك الحديدية في بلجيكا بين ١٨٣٥ و ١٨٧٠ شاهدا على التطور السريع الذي تحقق في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر وأواخره . يمثل الرسم نسبة طول الخطوط الحديدية الممدودة في غضون ٣٥ عاما .

المدن في بريطانيا الى تطوير الكثير من المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي انتشرت في بلدان أخرى فيما بعد ، بعد امتداد الثورة الصناعية الى اوروبا والولايات المتحدة .

التقدم البريطاني

كان تطور بريطانيا الاقتصادي بين سنتي ١٨٠٠ و ١٨٧٠ مدهشا ، حتى فيما لو قيس بالتقدم الذي جرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد تحققت زيادات واسعة في الانتاج ، اذ ازداد انتاج قضبان الحديد ٦٠ ضعفا ، وانتاج الفحم عشرة أضعاف ، ومجموع التجارة عشرة أضعاف . لقد حافظت بريطانيا على تقدمها على البلدان الاخرى بل ضاعفته بفضل تقدمها في ميدان المكننة وطرق الانتاج المصنعي . ويمكن القول بحق ان



(٤) – تصاعد عدد سكان أوروبا باستمرار ابان القرن التاسع عشر ، وذلك بفضل هبوط معدل الوفيات نتيجة للتحسينات التي طرأت على الطب والتغذية وأحوال المعيشة . كذلك أخذت معدلات الولادة تميل الى الارتفاع ، تبعا لحركة التصنيع والانتقال الى المدن ، وبالتالي تضاعف مجموع عدد سكان أوروبا ضعفين تقريبا في غضون القرن ، فتسارعت الهجرة من الريف الى المراكز المدينية التي أخذت تكتظ بالسكان بصورة متزايدة .

(٥) – كان ايجاد نظام بريدي زهيد التكاليف من الحسنات الاجتماعية الجديدة التي اتاحها نمو ثروة المجتمع وانتظام الحياة المدينية . ففي بريطانيا اتاحت شبكة السكك الحديدية انتقال البريد بسرعة ، وعمل بنظام « بريد البني الواحد » ، الذي ابتكره رولند هيل سنة ١٨٤٠ (أ) ، وانشأ مكتب البريد البريطاني أول صناديقه البريدية الحمراء المميزة في لندن سنة ١٨٥٥ (ب) . شاع استعمال جهاز البرق في منتصف القرن ، كما استعملت الكابلات البحرية لتأمين أولى وسائل المواصلات الدولية . بحلول ١٨٥١ كان قد تمّ مدّ ١٨,٠٠٠ كلم من الكابلات .

(٦) – تغيرت المداخيل والمكانة الاجتماعية في بريطانيا بعد ظهور الطبقة المتوسطة والمهنية وقيام طبقة جديدة من المنتجين للسلع . مع ذلك كان معدل دخل الفرد في أضخم فئة في منتصف القرن التاسع عشر لا يزال أقل من ٣٠ جنيها في السنة .

بريطانيا أصبحت « مصنع العالم » حينما جرى معرض « كريستال بالاس » سنة ١٨٥١ الذي عرضت فيه اهم انجازات الخبرة الصناعية .

أعطى تطوير سكك الحديد ، على اثر تدشين سكة حديد ستوكتون ودرلنجتون سنة ١٨٢٥ ، دفعا كبيرا للاقتصاد ، وذلك بأنه جعل من الممكن نقل البضائع الضخمة باسعار زهيدة ، كما انه حرّك صناعتي الحديد والفولاذ . كذلك اعانت سكك الحديد على زيادة تركيز الانتاج ، إذ اصبح من الممكن نقل المواد الخام على مسافات واسعة وارسال السلع المصنوعة الى موانيء بعيدة . وابّان سنوات الازدهار التي رافقت « هوس سكك الحديد » خلال سنوات ١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ (٦) ، بنيت شبكة اساسية من السكك الحديدية التي شملت المدن الرئيسية والمناطق

٧

طول يوم العمل | العمل المحظور | تشريع خاص بالعمال

١٢ ساعة | ٩ ساعات | الاولاد دون ٩ | ٣٠ , ٢٠ ـ ٣٠ , ٠٥ | ١٨٣٣ قرار المصانع

النساء | الاولاد دون ١٠ | ١٨٤٢ قرار المناجم

١٢ ساعة | ٦ 1/2 ساعات | المتدربون دون ١٠ | ١٨٤٤ قرار المصانع

١٠ ساعات | ١٠ ساعات | ١٨,٠٠ ـ ٦,٠٠ | ١٨٤٧ قرار المصانع

١٠ 1/2 ساعات | ١٨٥٠ قرار المصانع

نساء | رجال | العمل المسموح | يوم مؤلف من ٢٤ ساعة

اولاد دون ١٣ | اولاد ١٣ ـ ١٨ | يوم عمل | العمل المحظور

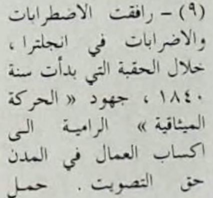
٨



٩ مصانع الحياكة مباني عملية كئيبة تضم صفوفا طويلة من الآلات الخاصة بالنسيج والحياكة التي يعمل عليها النساء والأطفال في معظم الأحيان . كانت الحياة فيها غالبا محفوفة بالمخاطر ، يتخللها عدد من الحوادث . كانت ساعات العمل طويلة والنظام صارما .

(٧) ـ استغلال الأطفال والنساء ، مع ما رافقه من ساعات عمل طويلة وأجور متدنية وأحوال سيئة ، كان من اهم مساوىء الثورة الصناعية الرئيسية .

(٨) ـ كان معمل القطن رمزا للمدينة الصناعية في القرن التاسع عشر . كان القطن أكثر القطاعات الاقتصادية تصنيعا ، وكان من أولى الصناعات التي نشأت في اوروبا . كانت



(٩) ـ رافقت الاضطرابات والاضرابات في انجلترا ، خلال الحقبة التي بدأت سنة ١٨٤٠ ، جهود « الحركة الميثاقية » الرامية الى اكساب العمال في المدن حق التصويت . حمل التصنيع معه عددا من الحركات السياسية المماثلة .

الصناعية والموانىء .

التنظيم المالي

نتيجة لتسارع خطى التوسع الصناعي ، نشأت الحاجة الى نظام مصرفي أشد تعقيدا . في بريطانيا ، حلت المصارف ذات الملكية المشتركة تدريجيا بعد ١٨٢٦ محل المصارف « الريفية » التي كانت غير موثوقة ، ووطد « قانون المصارف » لسنة ١٨٤٤ دور بنك انجلترا كسلطة مركزية تصدر أوراق العملة وتكفل سائر المصارف . فضلا عن ذلك ، وفي سبيل ضبط تمويل الشركات وتأليفها ، صدرت في منتصف القرن التاسع عشر سلسلة من القرارات لتحديد المسؤولية وتنظيم الشركات . كذلك أدّى نمو التجارة الى توسيع « البورصة » وقيام بورصات اقليمية . وبكلمة واحدة ، يمكن القول انه ، بحلول ١٨٧٠ ، لم تكن بريطانيا مركز الصناعة والتجارة العالميتين وحسب ، بل عاصمة العالم المالية ايضا . ولا غرو ان يؤدي ذلك الى تزايد سريع في الثروات الفردية (٦) .

تزايد السكان

رافق التطور الاقتصادي والصناعي في انحاء اوروبا تزايد في عدد السكان (٣) . فقد ازداد عدد سكان بريطانيا بأقصى سرعة بالغا الضعفين بين ١٨٠١ و ١٨٥١ ، وفي منتصف القرن ، لم تعد بريطانيا بلدا ريفيا بالدرجة الاولى ، اذ كان اكثر من نصف سكانها يعيشون في المدن (١) . اما في اوروبا ، فبعد ان لم يكن فيها سنة ١٨٠١ أكثر من ١٤ مدينة يربو عدد سكانها على ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، أصبح عدد هذه المدن سنة ١٨٧٠ أكثر من ١٠٠ مدينة .

اثار تطور المدن بدوره طائفة كبرى من المشاكل الاجتماعية والسياسية . لمجابهة هذه المشاكل ، دشنت بريطانيا ، بوصفها الدولة الصناعية الاولى ، عددا من المؤسسات الاجتماعية اللازمة للحياة العصرية . وهكذا أخذت عنها بلدان أخرى التدابير الرامية الى تنظيم شؤون الصحة العامة ، وتأمين المرافق الصحية والسكنية ، وحفظ النظام العام بانشاء قوة بوليس محترف . كذلك ساعد ادخال مصلحة بريدية ثابتة ورخيصة (٥) ، وظهور صحف زهيدة الثمن ، وتطوير وسائل السفر الرخيص بالقطار ، على تخفيف البؤس البشري الذي كان يصاحب التطور المديني والتقدم الصناعي في كثير من الاحيان .

من جهة اخرى ، ومنذ ١٨٣٠ ، ضبطت القرارات الخاصة بالمصانع (٧) تشغيل الأطفال والنساء ، فضلا عن ساعات العمل ، كما أخذ العمال الصناعيون بقيادة الرواد الأول اشباه روبرت اوين (١٧٧١ ـ ١٨٥٨) وروبرت ابيلجارت ، ينتظمون لتحسين أوضاعهم في اتحادات عمالية وسياسية وفي حركة التعاونيات .

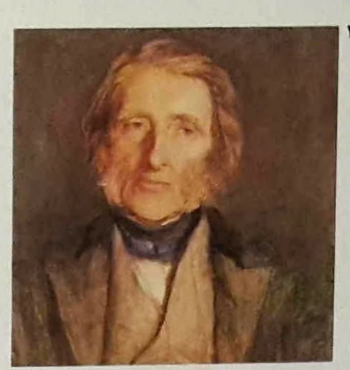
في أوروبا ، تجلت ابتداء من ١٨٧٠ خطى التطور الصناعي المتسارعة في نمو سكك الحديد (٣) ، وصناعة المنسوجات وانتاج الحديد والفحم (٢) . خطت بلجيكا وفرنسا والمانيا أوسع الخطى .

الاصلاح الاجتماعي في أوروبا (١٨٠٠-١٩١٤)

أثار التزايد السريع في السكان والمدن الصناعية الجديدة، ابان «الثورة الصناعية»، مشكلات اجتماعية ضخمة في أوروبا بدءا ببريطانيا. فقد نشأت المدن الجديدة دون رقابة، وكان عدد منها يفتقر الى المرافق الحيوية، مثل الوسائل الصحية والموارد المائية، كما كانت مشاكل الفقر والمرض والاجرام والسكنى السيئة متفشية. كذلك لم تكن المدارس متوفرة لمعظم السكان، وكان تشغيل الأولاد والنساء شائعا بانتظام في المصانع والمناجم (٥)، حتى في أصعب الاشغال واخطرها. وقد أعاق مذهب «دعه يعمل» السائد، والقائل بأنه لا

١

٢



٣

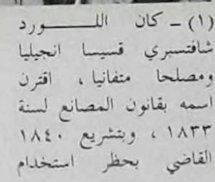
مراقبون
مساعد والمراقبين

منح حكومية
(بالوف الليرات الاسترلينية)

١٨٦٥ ١٨٦١ ١٨٥٨ ١٨٥١ ١٨٣٩

٤





(١) ـ كان اللورد شافتسبري قسيسا انجيليا ومصلحا متفانيا، اقترن اسمه بقانون المصانع لسنة ١٨٣٣، وبتشريع ١٨٤٠ القاضي بحظر استخدام الاولاد من قبل كناسي المداخن، وتشريع ١٨٤٤ القاضي بحظر استخدام النساء والاولاد في المناجم. الا ان نزعته «الابوية» الطاغية حالت دون تعاطفه مع حركة توسيع الاقتراع سنة ١٨٦٧ ومع المساعي الرامية الى زيادة التدخل الحكومي في الشؤون الاجتماعية.

(٢) ـ ذهب جون راسكين (١٨١٩-١٩٠٠) الناقد الفني والمصلح، الى ان الفن والاخلاق والظروف الاجتماعية مترابطة بصورة وثيقة. اقتبست السلطات عددا من مقترحاته فيما بعد مثل معاشات التقاعد والتعليم الحكومي.

يجوز للدولة ان تتدخل في تصرفات الاقتصاد والمجتمع ، ظهور تشريع واسع يرمي الى تحسين شروط العمل .

الفقر والقلق الاجتماعي

في غضون القرن التاسع عشر ، كانت بعض هذه الآفات قد شخصت تشخيصا وافيا ، بعد ان لفت النظر اليها معلقون اجتماعيون (٢) وروائيون ، مثل شارل ديكنز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) والسيدة جاكسيل (١٨١٠ ـ ١٨٦٥) وشارل كينزلي (١٨١٩ ـ ١٨٧٥) ؛ كما كانت لجان استقصاء برلمانية قد انشئت للنظر في المشاكل الاجتماعية . فكانت نتيجة كل ذلك صدور مجموعة ضخمة من التشاريع الاجتماعية .

كان « قانون الفقراء » موضع قلق لمصلحي القرن التاسع عشر . فقد كان

(٣) ـ كان نموّ التعليم احد سمات الاصلاح الرئيسية في القرن التاسع عشر . يبيّن الرسم الارتفاع في عدد المنح ومراقبي المدارس بين ١٨٣٩ و ١٨٦٥ .

(٤) ـ كان المقصود من « قانون الفقراء الجديد » لسنة ١٨٣٤ جعل ظروف المعيشة في المصانع مشجعة للفقراء بصورة فعالة على الاقلاع عن « الكسل » .

(٥) ـ كان استخدام الأولاد والنساء في المصانع والمناجم شائعا ابان « الثورة الصناعية » . ففي اوائل ثلاثينات القرن التاسع عشر كان نصف اليد العاملة في معامل القطن تقريبا دون السن الواحدة والعشرين ، وكان أكثر من نصف الراشدين من النساء ، وكان يتحكم بأوقات العمل وظروفه حسن طوية أرباب العمل فقط . كان أسبوع العمل الزائد عن ٩٠ ساعة شائعا ، قبل ان يصبح قانون المصانع لسنة ١٨٣٣ ساري المفعول .

(٦) ـ لم يكن للمكتبات العامة المجانية وجود قبل ١٨٤٥ . لكن عددا من المدن انشأت ، ابتداء من منتصف القرن ، مكتبات عامة تموّلها الضرائب البلدية ، لتمكن جميع الطبقات من الوصول الى الكتب والصحف .

(٧) ـ في كثير من الاحيان ، سبق الاحسان الفردي في القرن التاسع عشر التشريع الحكومي بعدة سنين . فقد بنى « مرفأ الشمس » البادي في الصورة الصناعي اللورد لفرهولم (١٨٥١ ـ ١٩٢٥) سنة ١٨٨٨ . كانت تلك أول قرية تنشأ بناء على مبادىء « المدينة الحديقة » التي كان يعتبرها آنذاك راسكين ومصلحون اجتماعيون آخرون كوسيلة لتفادي الآثار الطبيعية والاخلاقية السيئة للاكتظاظ في المدن . يتبين ذلك في تخطيط المنازل وجعل الفسحات واسعة وتأمين المرافق العامة .

٥



٦



٧



نظام الاغاثة « الخارجية » التي كانت تجبي من الضرائب الدينية في الأبرشيات ، يثقل كاهل الطبقات الملاكة . وكان توماس مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) قد ذهب ، في كتابه النافذ « مقالة في مبدأ السكان » (١٧٩٨) ، الى ان هذا القانون انما يضمن استمرار الفقر من خلال تشجيعه لتزايد السكان . من جهة أخرى ، كانت أجور العمال تموّل ، حسب نظام سبينهاملاند الصادر سنة ١٧٩٥ ، من موارد الأبرشيات على أساس مرتبط بسعر الخبز .

في سنة ١٨٣٤ ، صدر « قانون الفقراء الجديد » ، فخفف كثيرا من « الاغاثة الخارجية » . فعوضا عن الاغاثة ، أجبر جميع اولئك الاصحّاء المحتاجين اليها ان يدخلوا المشاغل ، وأقرّ نظاما صارما دقيقا فيها ، يشمل عزل الجنسين ، حتى

٨

٩



(٨) ـ كان « جيش الخلاص » ، الذي أسّسه « الجنرال » وليم بوث (١٨٢٩ ـ ١٩١٢) سنة ١٨٦٥ ، يرمي الى تقديم الخدمات الاجتماعية والروحية . كانت هذه الهيئة توفر مطابخ للحساء ومآوي ليلية وعدة تسهيلات للفقراء . مما أقلق بوت بوجه خاص الآثار السيئة لنشوء المدن وتجريد الريف من السكان . كان يأمل ان يتمكن من عكس هذا الاتجاه .

(٩) ـ حمت « قوانين الحبوب » لسنة ١٨١٥ الزراعة البريطانية ، اذ حظرت استيراد الحنطة الاجنبية . عارض هذه القوانين على نطاق واسع سكان المدن الفقراء ، فضلا عن الصناعيين ، لانه كان يظن بوجه عام انها ستؤدي الى رفع سعر الغذاء والاجور . وكان يقال ايضا ان سياسة الحماية الجمركية لا بد أن تضر بالصادرات في المدى البعيد . في سنة ١٨٣٩ انشئت « عصبة معارضي قوانين الحبوب » ، على يد ريتشارد كوبدين (١٨٠٤ ـ ١٨٦٥) وجون برايت (١٨١١ ـ ١٨٨٩) للمطالبة بالغاء تلك القوانين . اتخذت هذه الحركة طابعا اصلاحيا ، لانها كانت تهاجم الامتيازات والمصالح الفئوية الكامنة وراء تلك القوانين التي الغيت سنة ١٨٤٦ .

المتزوجين ، وكان الغرض منه ردع كل من لم يكن معوزا حقا عن العمل فيها.

أدت الظروف غير الصحية في المدن الكبيرة الى قلق عظيم حول الصحة العامة . واظهر استقصاء جرى في الاربعينات ان اكثر من نصف المدن الكبرى في بريطانيا لم تكن تتمتع بموارد مائية كافية او نقية . ثم جاءت اوبئة الكوليرا في منتصف القرن التاسع عشر ، فكان لها مفعول الحافز على قيام حركة الصحة العامة . كذلك أدى كتاب أدوين تشادويك (١٨٠٠ – ١٨٩٠) الشهير « تقرير حول الظروف الصحية للسكان العاملين » سنة ١٨٤٢ الى انشاء « مجلس الصحة » المركزي .

التشريع الخاص بالاسكان

كان اصلاح الاسكان موضوع قرارات جزئية متفرقة . فقانون اللورد شافتسبري (١٨٠١ – ١٨٨٥) (١) الخاص بالبيوت السكنية والصادر عام ١٨٥١ وضع حدا لاسوأ مفاسد « دور النوم العامة » . كان أهم من ذلك « قانون اسكان الحرفيين » الصادر عام ١٨٧٥ الذي أعطى السلطات المحلية حق اخلاء الأكواخ السكنية السيئة .

بدأ التشريع الخاص بالمصانع منذ ١٨٠٢ ، حينما ادخل روبرت بيل الأكبر (١٧٥٠ – ١٨٣٠) تشريعا يقضي بتحديد مدة تشغيل الاولاد بأقل من ١٢ ساعة يوميا . كذلك حظر « قانون المصانع » عام ١٨١٩ تشغيل الاولاد في معامل القطن اذا كانوا دون التاسعة من العمر . ثم حدّد « قانون المصانع للورد شافتسبري » الصادر عام ١٨٣٣ عدد ساعات العمل لجميع الاولاد دون الثامنة عشرة من العمر وعيّن مراقبين لتأمين التقيد بذلك ، كما وضعت أنظمة وتحديدات خاصة بساعات تشغيل النساء بموجب قانون آخر صدر عام ١٨٤٤ . ثم تمّ توسيع هذا القانون في غضون الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ليشمل جميع أنواع المصانع . وفي سنة ١٨٩١ ، صدر قانون عام جعل عمر ١١ سنة للاحداث حدا ادنى لتشغيلهم .

ظهور التعليم الحكومي

كان التعليم خليطا من المبادرة الفردية والشعور الإنساني في معظم القرن التاسع عشر . فقد أسس « الاتحاد اللانكاستري الملكي » (١٨١٠) ، و« الجمعية الانجليجانية الوطنية » (١٨١١) مئات المدارس دون تدخل الحكومة . بدأ التدخل الحكومي في الثلاثينات .

في سنة ١٨٧٠ ، وفّر « قانون فورستر التربوي » التعليم الابتدائي المجاني العام . في ١٨٨٠ أصبح التعليم حتى العاشرة الزاميا . وفي سنة ١٩٠٢ ، اقام « قانون بلفور التربوي » جهازا تربويا محليا وأصلح كليا نظام التربية الثانوي بكامله .

كانت زيادة مسؤولية الدولة عن الاسعاف الاجتماعي قد أصبحت جزءا من تشريع حكومات حزب الاحرار بعد عام ١٩٠٦ ، مما ادى الى السير بخطوات كبرى نحو اقامة نواة « لدولة الخدمات العامة » ، باتخاذ تدابير جديدة هامة ، مثل « قانون الضمان الصحي الوطني » (١٩١١) .

الرواية والصحافة في القرن التاسع عشر

خلال القرن التاسع عشر ، تمت تحسينات تقنية عديدة في الطباعة كان تأثيرها كبيرا على الصحف والروايات . فقد حوّل استخدام المطابع المعدنية والنقش الفولاذي ، ثم الطبع الصبّي والمطابع الآلية بعد ١٨٤٨، طريقة الانتاج تحويلا تاما .

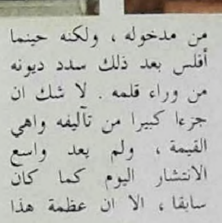
التغيرات في الرواية

لم تعان الرواية من مشاكل الضرائب قط . ولكنها تأثرت من وجوه اخرى بالتغيرات الجديدة . فالمشاكل الضخمة التي واجهتها المدن الصناعية (٨) جاءت بمواضيع جديدة كان لا بد من معالجتها

١







٢ ٣

(١) – كانت روايات سكوت حافلة بالأحداث الدرامية ، كموت أيمي روبسارت في رواية « كنيلوورث » . كان نجاحه في رواياته التاريخية عظيما . اشترى منزلا ريفيا من مدخوله ، ولكنه حينما أفلس بعد ذلك سدد ديونه من وراء قلمه . لا شك ان جزءا كبيرا من تآليفه واهي القيمة ، ولم يعد واسع الانتشار اليوم كما كان سابقا ، الا ان عظمة هذا الكاتب لا يرقى اليها شك . لم يستخدم الشخصيات التاريخية الا بحذر وتحفظ ، وقلما وضعها في مركز الصدارة ، وكان حسه المرهف بتداخل التاريخ مع تجربة عامة الناس عميقا وانسانيا لدرجة ان المعجبين الاوروبيين به وصفوا هذا الحس بأنه شكسبيري الطابع .

(٢) – ينمّ هذا التمثال الرائع لبلزاك من نحت رودان عن ضخامة وعنف رؤيا بالزاك للمجتمع الانساني . تحاول رواياته الـ ٨٥ أن تبرز خصائص جميع نواحي الحياة تقريبا في فرنسا بين ثورة ١٧٨٩ وسقوط لويس فيليب سنة ١٨٤٨ . كانت هذه المواضيع ، وفقا للمقاييس الرومنطيقية ، غير

في مناخ أوروبا الفكري الجديد في أعقاب الثورة الفرنسية . وحتى الروائيان المبكران ، جاين أوستين (١٧٧٥ – ١٨١٧) و وولتر سكوت (١٧٧١ – ١٨٣٢) (١) تجاوبا مع التغير تجاوبا واضحا ولكنه تجاوب محافظ . فهزليات جاين أوستين المنزلية ، وقد صاغتها في ست روايات ، جاءت مفعمة باللهو والجد معا . ويمكن القول عن وولتر سكوت انه اخترع بالفعل الرواية التاريخية ، كما ان نجاحه الشعبي اكسبه ثروة شخصية ضخمة .

تمتع بالنجاح الشعبي أيضا خلفاؤه الفيكتوريون : وليم مكبيس تاكيري (١٨١١ – ١٨٦٣) ، وانطوني ترولوب (١٨١٥ – ١٨٨٢) ، ولاسيما شارل ديكنز (١٨١٢ – ١٨٧٠) (٥) ، وجورج أليوت (١٨١٩ – ١٨٨٠) . أقام ديكنز



جديرة بالروائي ، ولكن بلزاك عرف كيف يجعلها تنبض بالحياة وتعكس حقيقة الوجود .

---

(٣) – حاول اميل زولا في سلسلة « روجون ماكار » تعقّب مغامرات اسرة كاملة ، ابان الثمانينات من القرن ، داعيا ذلك « تاريخ الامبراطورية الثانية الفيزيولوجي » . كانت السلسلة تتألف من ٢٠ مجلدا ذات مواضيع عصرية . ففي « دكان المسكرات » (١٨٧٧) عالج آفات الشراب ، وفي «نانا» (١٨٨٠) ، الجنس ، وفي « الارض » (١٨٨٨) ، خشونة حياة المزارعين الخانقة . كان أنصار الطبيعة يرون أن على الكاتب ان يدخل الى صميم الحياة متخطيا تفاصيلها السطحية .

---

(٤) – كان مأتم تولستوي أول مأتم روسي غير ديني ، الا ان هذا العبقري مات وقد اكتسب صيت القديس من جراء تعلقه الديني والسياسي بمثال حياة « الفلاحين البسيطة » . وفي « ما هو الفن ؟» (١٨٩٧) ، تنكر لمعظم الادب الاوروبي بما فيه آثاره وآثار شكسبير ، مع انه في سن شيخوخته المثقفة والصوفية ، استرسل الى العاطفية والمثالية المتناقضة ذاتيهما اللتين أسندهما الى ابطاله الخياليين .

---

(٥) – كانت روايات ديكنز اجزاء مصورة ومتلاحقة ، مثل « نيقولاس نيكلباي » التي يظهر بعضها هنا . كان النشر على دفعات متتالية شائعا ، مما مكن ديكنز من البقاء على صلة وثيقة بقرائه ، وتعديل رواياته اذا تدنت المبيعات . في روايته «دكان الطرائف القديمة» ، ترك العالم الناطق بالانجليزية في حال من الترقب القلق لمعرفة أمر وفاة نيل الصغيرة . مع ذلك كان فنانا جديا ، وكان له تأثير كبير على دوستويفسكي وسواه من كبار الادباء اللاحقين .

علاقة وثيقة الى حد مدهش مع قرائه في نظرته العاطفية لحياة المدن ، تلك النظرة التي كانت رائعة في اثارة الضحك حينا وجالبة لليأس والقنوط حينا آخر .

اما الكاتبة جورج أليوت ، فكانت اقليمية بمواضيعها من جهة ، وأوروبية بمدى تفكيرها وانضباطه من جهة اخرى . كذلك شهد منتصف القرن أيضا صدور روايات الأخوات برونتي . نالت شارلوت (١٨١٦ - ١٨٥٥) القسط الاوفر من النجاح في ايامها ، الا ان اميلي (١٨١٨ - ١٨٤٨) ، المؤلفة لقصائد مرموقة ، والواضعة لرواية « مرتفعات ووذرينغ» ، رأت تقديرها يتصاعد منذ ذلك التاريخ . من كبار الروائيين المتأخرين : جورج ميريديت (١٨٢٨ - ١٩٠٩) ، وجورج جيسينغ (١٨٥٧ - ١٩٠٣) ، وصموئيل بطلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) ، وتوماس

٦



THE SAVOYARD BOY.

Ah! here is a Sa-voy-ard boy, with his or-gan and his dog.

He has come to play us a tune to make us glad.

And what is that mount-ed on the dog's back?

Why, it is in-deed a lit-tle mon-key, the Sa-voy-ard's pet mon-key!

These poor boys come from

THE SAVOYARD BOY. 81

their coun-try a long way off, to gain a few pence.

Their own coun-try is not so rich as ours, and we ought not to de-ny them a few pence.

We may chance, some time or o-ther, to be left friend-less in a strange coun-try, and we shall then feel ve-ry glad if a-ny kind peo-ple take no-tice of us, and give us food, or mo-ney to buy food with.

We should al-ways give to those who are in need, and if we do so, we shall be sure to get help when we our-selves are in need.

You will some-times meet with per-sons who beg, and could do with-out beg-ging, but they like to live an i-dle life.

٧

٨



(٦) - بث « الكراس العالمي » لمؤلفه جرين روحا لاسعة من الوعظ الخلقي في دروس القراءة . في الاربعينات من القرن التاسع عشر ، كانت معدلات القراءة والكتابة عالية الى حدّ ما في المدن ، لكنها لم تكن كذلك في الارياف . كانت الامية التامة تتراوح بين ١٦ ٪ و ٢٥ ٪ ، وأصبح ثلاثة أرباع الطبقة العاملة تقريبا قادرين على القراءة والكتابة في منتصف القرن . كان معظم الناس يقرأون « الروايات من أدنى الانواع » ، مما حمل عددا من المفكرين على التساؤل عما اذا كان الادب الرفيع قادرا على البقاء .

(٧) - كان « معبد ربات الشعر » في فينزبري بلندن مكتبة «عامة» لاعارة الكتب تموّل بالضرائب البلدية . في منتصف القرن التاسع عشر ، كانت مطالعة الروايات شائعة في منازل الطبقة الوسطى والعليا في بريطانيا ، وكان الاغنياء أنفسهم يشتركون بالمكتبات الجوالة . لذا كان نجاح رواية ما او فشلها يتوقفان على حسن نية هذه المكتبات ، التي كان لها مصلحة ثابتة في ان تبقى الكتب غالية الثمن .

(٨) - يصف اميل زولا في روايته الصريحة « جرمينال » ظروف المعيشة الشائنة التي كان يقاسيها عمال المناجم في فرنسا الشمالية ، وهو يعكس في وصفه الصريح هذا التحرر من التزمت الذي كان ينعم به الروائيون الفرنسيون في تلك الحقبة . كان كينزلي وديكنز والسيدة جاكسيل قد حاولوا وصف تأثير حركة التصنيع في المجتمع .

هاردي (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) . تعبر روايات هاردي غالبا عن شعور عميق باندماج الانسان المأساوي مع الطبيعة واغترابه عنها .

الرواية في أوروبا الغربية

كانت الرواية الفرنسية في هذه الحقبة أكثر كياسة وأقل « وقارا» من الانجليزية . فقد وصف الكتاب الواقعيون : ستاندال (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) وهونوري دي بلزاك (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠) (٢) ، وجوستاف فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) ، التاريخ الفرنسي والحياة البورجوازية باسهاب عظيم وبأدق التفاصيل . لكن الرومنطيقية وجدت أجمل تعبير عن تجاربها ومواقفها العاطفية في أعمال فيكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) وجورج صاند (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) . اما الكتاب الطبيعيون ، فقد جاء زعيمهم اميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) (٣) بوصف صريح ومفعم بالتشاؤم لدور الوراثة والبيئة في الشؤون البشرية (٨) . لم يضارع النجاح الشعبي الضخم الذي لاقاه الكسندر دوما الأب (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠) ورواياته التاريخية الا نجاح ابنه ، حامل الاسم ذاته (١٨٢٤ ـ ١٨٩٥) .

يطغى اسم يوهان فولفجانج فون جوته الجبار (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) على الأدب الالماني في القرن التاسع عشر . فالنزعة الاقليمية المضادة للرومنطيقية ، التي تجلت في كتابات تيودور شتورم (١٨١٧ ـ ١٨٨٨) وفريتز رويتر (١٨١٠ ـ ١٨٧٤) ، تبدو من بعد جوته باهتة الأهمية . لم يهيمن على النثر الايطالي في هذه الحقبة كاتب واحد عظيم ، بل كتاب واحد عظيم هو « المخطوبة » لأليساندرو مانزوني (١٧٨٥ ـ ١٨٧٣) ، الذي كان رومنطيقيا شديد الشعور بالوطنية وتأثر كثيرا بسكوت . آلت مهمة تحديث الرواية الايطالية الى جيوفاني فيرجا (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) وأنطونيو فوجاتزارو (١٨٤٢ ـ ١٩١١) .

التقليد الأدبي في روسيا

كان الانجاز الروسي ، في بعض نواحيه ، أعجب الانجازات القومية في تطور الرواية . كان أول الروائيين الروس العظام ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) ونيقولاي جوجول (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢) . وقد كتب لخلفائهما ايفان تورجينيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وفيودور دوستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) وليو تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) (٤) ان يتركوا أثرا باقيا في الثقافة الاوروبية الغربية بعد ان ترجمت آثارهم الى الفرنسية والالمانية والانجليزية . فكتابا تولستوي « الحرب والسلم » و« أنا كارنينا » يعتبران من أعظم المؤلفات الادبية قاطبة .

مع ان آفاق دوستويفسكي الفكرية كانت عصرية بشكل بارز ، فان هنري جيمس (١٨٤٣ ـ ١٩١٦) هو الذي أدخل التقنات الحديثة على الرواية . ومع أنه قضى معظم حياته في اوروبا ، فقد بقي من نواح هامة أمريكيا . وسم التعقيد الشكلي والتلميح الساحر المميّزين لآثاره نتاج ناتانيال هوثورن (١٨٠٦ ـ ١٨٦٤) وهرمان ميلفيل (١٨١٩ ـ ١٨٩١) ومارك توين (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) .

الشعر والمسرح في القرن التاسع عشر

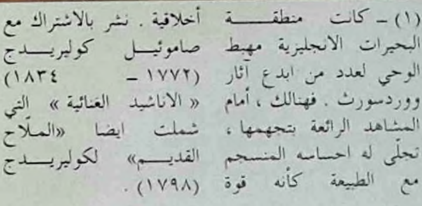
كانت الحركة الرومنطيقية في الشعر، عند اواخر القرن الثامن عشر، تعتبر عنف العاطفة أهم من الاناقة الفنية، وحرية التعبير أهم من التقيد بالقواعد. في انجلترا، كان اهم رائد للحركة وليم بلايك (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) الذي لم يكن معروفا في زمانه مثل وولتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) او توماس مور (١٧٧٩ ـ ١٨٥٢). تجلت الروح الثورية لهذه الحركة في حياة اللورد بايرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) الذي هيمن، مع فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، على الأدب الاوروبي في عشرينات القرن التاسع عشر.

١


٢


٣


٤

(١) ـ كانت منطقة البحيرات الانجليزية مهبط الوحي لعدد من ابدع آثار ووردسورث. فهنالك، أمام المشاهد الرائعة بتجهمها، تجلّى له احساسه المنسجم مع الطبيعة كأنه قوة أخلاقية. نشر بالاشتراك مع صاموئيل كوليريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) «الاناشيد الغنائية» التي شملت ايضا «الملّاح القديم» لكوليريدج (١٧٩٨).

(٢) ـ تزعم هنري ايرفنج (١٨٣٨ ـ ١٩٠٥)، الذي يلعب دور هاملت هنا، حركة عبادة شكسبير الذي كان قد اصبح مؤسسة قومية في انجلترا وذا تأثير كبير في اوروبا خلال القرن التاسع عشر. وفّر شكسبير أدوارا عظيمة للمثلين البارعين، ولكن المشاهد الطبيعية الضخمة كانت تتطلب فترات اعدادية طويلة وتقتضي احيانا بتر النص.

يمثل وليم ووردسورث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) وجون كيتس (١٧٩٥ – ١٨٢١) افضل تمثيل التغيرات التي طرأت على الشعر الانجليزي من جراء الرومنطيقية . فقد دفعت أفكار ووردسورث حول العقل والطبيعة (١) هذا الشاعر الى اقتباس اسلوب وموضوع غير مألوفين ، اذ ان عقيدته كانت تقضي بأخذ « الاشياء العادية » وابرازها على « وجه غير مألوف » ، ظنا منه ان فرحا عظيما لا بد أن ينبثق عن التناغم مع الطبيعة . كتب بيرسي بيشي شيلّي (١٧٩٢ – ١٨٢٢) بصراحة أشدّ عن قوة الفرح كعامل مؤثر ومصلح للانسان ، كما شدد كيتس على سلطان الجمال . اثّر العنف الغنائي لشعر كيتس تأثيرا عميقا في الشعراء اللاحقين .

استمرت النزعة الغنائية ، وكذلك الطبيعة والاشياء الغريبة ، تستهوي الشعراء





٦

(٣) – مهد شارل بودلير في ديوانه « ازهار الشر » (١٨٥٧) للرمزية ، من خلال بحثه عن المعنى الكامن وراء الاشياء كلها وليس الجليل منها وحسب ، وعثوره على رموز للفراغ في الجمال المنطوي على الفساد . كان مسؤولا عن شعبية ادجار ألان بو في اوروبا ، وكان ذا اثر هام في الشعر الانجليزي .

(٤) – كان اوسكار وايلد الذي سجن بعد محاكمة شهيرة دارت حول سلوكه الشخصي ، أذكى مسرحيي اواخر القرن التاسع عشر ، وشاعرا قياديا من شعراء الحركة الجمالية الانجليزية .

(٥) – انجز جابريلي دانانزيو مخطوط فيلمه الضخم « كابيريا » سنة ١٩١٣ ، وكان كاتبا مسرحيا وروائيا وزعيما سياسيا عنيفا قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها . يجب ان لا ينسينا دعمه اللاحق لموسوليني شعره الشهواني الذي نظمه في اواخر القرن الماضي ابان علاقته الغرامية بالممثلة اليانورا دوزي .

(٦) – على اثر العرض الاول « لهرناني » (١٨٣٠) التي وضعها هوجو ، وخرج فيها على قواعد الكلاسيكية ، اندلع الصخب حولها . كان يؤيد رومنطيقية هوجو بحماسة بعض الشعراء الفرنسيين الشباب ، الا ان ردة فعل ضد العاطفية وركاكة الاسلوب لم تلبث أن اعقبت ذلك ، حينما تحول الشعراء نحو مواضيع ادق وخيال اوجز .

الفيكتوريين . لجأ روبرت براونينج (١٨١٢ - ١٨٨٩) الى استخدام العوامل اللاغنائية والانغام الخشنة والمعاني الصعبة ، دون أن يفقد ولعه بالاشياء الغريبة . الا ان الايمان بالفرح والحواس أخذ في التراجع : فألفرد لورد تنيسون (١٨٠٩ - ١٨٩٢) وماتيو آرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) نظما كلاهما أشعارا قاتمة ونبيلة ، في حين كانت تراود تنيسون شكوك حقيقية بجدوى موهبته الغنائية . لكن ما مر زمن طويل حتى انطلقت ردة فعل قوية على الصرامة الخلقية المتطرفة من جانب ألجيرنون شارل سوينبورن (١٨٣٧ - ١٩٠٩) و« المتخلفين» الذين شددوا بصراحة على الجمال اللاخلقي . الا أن الشعراء البريطانيين اللاحقين ، امثال جيرالد مانلي هوبكنز (١٨٤٤ - ١٨٨٩) ، توماس هاردي (١٨٤٠ -

٧



٨



(٧) - بوشكين ، أول كاتب روسي عظيم ، أرسل الى المنفى لكتابته نكاتا ضد الحكومة الروسية . أثناء المنفى قرأ بايرون ، وابتدع بطلا بايرونيا لقصيدته « يوجين أونجين » (١٨٣١) ، وهي اسطورته الرومنطيقية الخالدة . ألف ايضا قصصانثرية شعبية .

---

(٨) - كانت نورا هيملر ، التي ترقص التارانتيلا هنا ، الشخصية الرئيسية في رواية أيبسن « بيت الدمية » (١٨٧٩) التي ثار حولها أعنف الجدل ، والتي اعتبرت فتحا في الواقعية المسرحية . لا بد أن الجمهور كان يتوقع ان تنتهي هذه الدراما الدائرة حول الابتزاز والامانة الزوجية بانتصار الفضيلة العائلية . ألا ان نورا ، في مشهد نهائي شهير ، تتخلى عن زوجها واولادها .

٩

(٩) - يخلّد وفاة شيلي غرقا هذا النصب القائم في « الكلية الجامعية » باكسفورد . كان شيلي شاعرا راديكاليا وحساسا ، فربط عافية الأدب بعافية المجتمع ، وأنكر ان يكون على الشعراء واجب التعبير عن الافكار الخلقية المعاصرة .

١٩٢٨) ، و.ب. ييتس (١٨٦٥ - ١٩٣٩) ، ثابروا على جديتهم العميقة .

الشعراء في اوروبا

تعكس مؤلفات صاموئيل تايلور كوليريدج ما اقتبسه الرومنطيقيون من المانيا ، حيث كان جوته ، داعية حركة « العاصفة والاندفاع » ، قد وطد دعائم فكرة البطل المتألم . الا ان نتاج جوته يكشف عن صعوبة التمييز الصحيح بين الرومنطيقية والكلاسيكية . فقد قام في آن واحد بتأليف « المراثي الرومانية » الكلاسيكية الطابع ، وبتقديم اغان عاطفية الى شارلوت فون شتاين .

في فرنسا ، تزعم فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) ، الشاعر والروائي والمؤلف المسرحي ، الحركة الرومنطيقية المعادية للكلاسيكية والتي شملت الفونس لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) وألفرد دي موسّيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) وثيوفيل جوتييه الشاب (١٨١١ - ١٨٧٢) . الا انه يحسن النظر الى شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧) ، مغنّي التفسخ الخلقي (٣) والشاعر الصبي أرثور رامبو (١٨٥٤ - ١٨٩١) وبول فيرلين (١٨٤٤ - ١٨٩٦) كشعراء مبكرين للرمزية ، لا كرومنطيقيين متأخرين . حاول ستيفان مالارميه (١٨٤٢ - ١٨٩٨) والرمزيون خلق شعر من الرموز للتعبير عن المعنى الكامن وراء سطح الاشياء .

من الميلودراما الى النزعة الطبيعية في الدراما

يمكن القول بصورة عامة ان الدراما الرومنطيقية واللاحقة للرومنطيقية فشلت من الناحية الادبية . فمسرحيات جوته تكشف عن تأثيرات كلاسيكية ، في حين تستعصي رائعته « فاوست » على كل تصنيف او تبويب . كذلك يصعب اليوم فهم نجاح هوجو في « هرناني » الرومنطيقية (٣) في فرنسا .

في اواخر القرن ، ظهر ثلاثة مؤلفين مسرحيين ، كرواد للمسرح الحديث . فقد انتقل هنريك ايبسن النروجي (١٨٢٨ - ١٩٠٦) من المسرحيات المنظومة شعرا الى سلسلة من المسرحيات الاجتماعية المنثورة . من ناحية اخرى ، استوحى أوجست ستريندبرج الأسوجي (١٨٤٩ - ١٩١٢) سيرته الشخصية البائسة لشحن نتاجه بعنصر من الفظاعة النفسية الجنسية ، لكنه على غرار أيبسن نحا آخر الامر منحى رمزيا . في روسيا ، تميزت مسرحيات انطون تشيكوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) بأناقتها الشكلية وواقعيتها ونفاذها الى حالات الاضطراب الشخصي .

اتجاهات جديدة في المسرح

كانت هزليات المؤلف المسرحي الارلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠) (٤) قديمة الطراز من حيث العقدة والشخصيات . الّا ان وايلد استخدم روح دعابته الفذة ليسخر ببراعة من تقاليد الميلودراما والكوميديا الرومنطيقية . استعمل برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠) ، وهو من أنصار أيبسن ، تقنيات شبيهة في وضع مسرحيات تدور على أفكار اجتماعية وخلقية .

الفن الرومنطيقي : رسم المشاهد الطبيعية

« كل شيء أصبح ألطف وأشد اشراقا من قبل ، وكل شيء أخذ يميل نحو المشاهد الطبيعية » ، هذا ما كتبه الرسام الالماني فيليب أوتو رونجي (١٧٧٧ – ١٨١٠) سنة ١٨٠٢ . كانت ملاحظته ، مع ما فيها من المبالغة ، اقرب الى الحقيقة مما كان يظن ، اذ اصبح رسم المشاهد الطبيعية في الحقيقة شائعا في بريطانيا في ذلك الوقت بمقدار ما كان شائعا في المانيا . ففي هذين البلدين لعب هذا النمط اكثر من غيره دورا جديدا اثناء الحقبة الرومنطيقية . فبعد ان كان ينظر اليه سابقا كشكل زخرفي ادنى بالرغم من ممارسة رسامين عظام له في القرن السابع عشر ،

١



٢



٣



٤



مثل بوسان وكلود ، اصبح يستخدم الآن للتعبير ، لا عن جمال الغابات والحقول والسماوات الخارجي وحسب ، بل عن الاحساس ايضا « بحياة الطبيعة الباطنة » .

الموقف الالماني من المشاهد الطبيعية

في المانيا ، حيث كانت المواقف تتأثر بالفلسفة اكثر من بريطانيا ، اسندت الى الطبيعة روح متفشية في كل شيء وهي ذات طابع مقدس تقريبا ، وليست جامدة بل تنمو وتتغير ، وتشبه الروح الانسانية . هكذا غدا الهدف من رسم المشاهد الطبيعية الرومنطيقي تمثيل حالات الطبيعة المتغيرة كرموز للمشاعر الانسانية المتنوعة .

توفي رونجي شابا ، ولم يبلغ انتاجه ، لاسيما في ميدان رسم المشاهد الطبيعية ، مرحلة من التطور كافية لان يقدم اكثر من

٥

٦



(١) ـ تم التشديد على الرابطة العاطفية بين الانسان والطبيعة من خلال حذف الاشخاص من الصورة . تعطي لوحة ج.ر. كوزنز « واد في التيرول ، بالقرب من بريكسن » (١٧٨٣ ؟) لناظرها شعورا بالهدوء والفضاء الفسيح .

(٢) ـ الهدوء والسكينة هنا ايضا من مميزات « دير كيركستال بيوركشاير » (١٨٠٠ ؟) لتوماس جيرتن . الا ان المشهد ارق وانعم . بالاضافة الى البحث عن انماط جديدة من المشاهد ، وجه الرومنطيقيون انتباههم الى الآثار القوطية .

(٣) ـ لوحة رونجي « الصباح » (١٨٠٣) ، التي تمثل طفلا في اطار مشهد طبيعي فردوسي يغمره النور ، لا ترمز الى الصباح الطبيعي وحسب ، بل الى فجر الكون ايضا وبداية كل حياة فردية .

(٤) ـ كانت رمزية لوحة فريدريك « الصليب في الجبال » (١٨٠٨) ، وهي لوحة لهيكل معبد شلوس تيتشن ، اكثر حرفية وارثوذكسية من لوحة رونجي . موضوع فريدريك هو تأثير المسيحية على التاريخ البشري وما وهبته اياه من نعمة الايمان بالله .

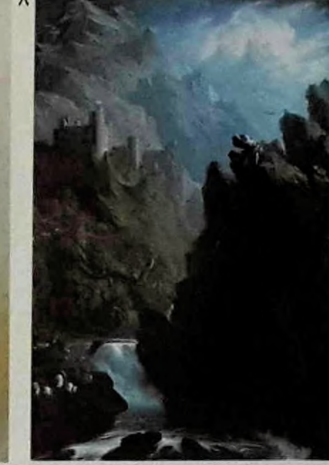
(٥) ـ شمل نتاج ج.م.و. تورنر (١٧٧٥ ـ ١٨٥١) الضخم الاطراف المتناقضة للتقليد والتجربة وللاضطراب والسكينة . كانت لوحاته الباكرة ، « كتحطم سفينة نقل » قاتمة اللون .

(٦) ـ لوحة «طاحونة فلاتفورد» (١٨١٧) ، وهي من أشهر لوحات كونستابل ، تعبّر اقوى تعبير عن نزعة هذا الفنان « الطبيعية » . فولع كونستابل الشديد «بصافولك» ريف طفولته وشعوره بالاتحاد معه، هو ما جعل منه فنانا رومنطيقيا . كان هدفه رسم الطبيعة ونورها على حقيقتهما .

تعبير مجزأ وغير مألوف ، وان كان بالغ الطرافة ، عن هذه الافكار (٣) . على ان مزاجه الخيالي وذهنه الخلاق الجريء ، جعلاه شبيها بمعاصره الانجليزي وليم بلايك (١٧٥٧ – ١٨٢٧) ، مع أنه لم يكن أي منهما يعلم بوجود الآخر على الارجح . كان اعظم رسامي المشاهد الطبيعية الرومنطيقيين الالمان كاسبار دافيد فردريك (١٧٧٤ – ١٨٤٠) الذي كان فنه يبدو في ظاهره أقرب الى التقليد ، لانه كان يصور الطبيعة كما يراها المرء من نقاط ثابتة في المكان والزمان . لكن في الحقيقة كان هو ايضا لا يرى في الطبيعة سوى التجلي الطبيعي لحياة باطنية ، او بتعبير آخر ، سوى عملية متواصلة التوقد تعكس اضطراب ذهن الفنان . تخصص في تقلبات الجو والضوء ، فرسمها بأرهاف وبمسحة كآبة رقيقة .

٧





٨

(٧) – تمثل لوحة «الشاعر» (١٨١٧) لمارتن . عظمة الجبال مقرونة بفكرة الرجل المتوحد المتحدّي لاعدائه . الموضوع مستمد من قصيدة للشاعر جراي يرثي فيها الشعراء الويلزيين .

(٨) – يتجلى اشد التعبير عن الاهتمام الرومنطيقي بالنور في نتاج تورنر المتأخر . ففي لوحته «قلعة نورهام ، شروق الشمس» (١٨٣٥ ؟ – ١٨٤٠) ، ما زالت مواضيع شجونه الباكرة ، من قلاع قديمة الى تلال وانهار ومفعول نور الشمس ، ظاهرة ، ولكنها تبدو كآثار معلقة في اللون .

٩



(٩) – كان العامل المشترك الرئيسي لرسم المشاهد الطبيعية الرومنطيقي هو المزاج الطاغي على نفسية الفنان . يعبر عن ذلك اوضح تعبير صاموئيل بالمر في رسمه لحياة الرعاة .

التراث البريطاني

اذا كانت أصفى وأرصن الاشكال في رسم المشاهد الرومنطيقية قد أنتجت في المانيا ، فقد تفردت بريطانيا في هذه الحقبة بتراث من رسم المشاهد الطبيعية كان أكثر تنوعا وامتد زمنا أطول من اي تراث آخر .

ظهرت في الفن البريطاني ايضا ، وان كان ذلك على درجات متفاوتة ، بعض الصفات التي سبقت مناقشتها في باب فن المشاهد الطبيعية الالماني ، كالتشديد على المزاج ، والاهتمام بالطبيعة ككائن متحرك لا كنظام ثابت ، والشعور بذات روحية كامنة وراء أشكال الطبيعة المرئية . لاحت هذه الصفات بادىء الامر لدى ج.ر. كوزنس (١٧٥٢ ـ ١٧٩٧) في رسومه المائية الهادئة والصافية لجبال الالب السويسرية (١) ، وفي المائيات المهيبة لأودية يوركشير (٢) التي رسمها توماس جيرتين (١٧٧٥ ـ ١٨٠٢) ، ثم تجلت على وجه اكمل في استجابة جوزيف تورنير (١٧٧٥ ـ ١٨٥١) ، لعنف العواصف البحرية وافتتانه بلمعان نور الشمس ، وفي احساس كونستابل بالقيم الخلقية والدينية المناضلة في كيان الانسان العادي .

الحركة والسماء

الا أن رسم « المَشاهد » البريطاني كان بصورة اجمالية أقل تأثرا بالصوفية وأقرب الى الواقعية الاختبارية من الرسم الالماني . فقد كان يضعف حسه بالحقيقة الالهية تداخله مع المشاغل الدنيوية كالطوبوغرافيا ، والمشاهد الباهرة ، والتفاعل بين المثالية والواقعية ، وتأثير « الاعلام القدامى » . كذلك كان اكثر ارتباطا بفكرة الرسم التخطيطي ، سواء بمعنى « التخطيطية » ، أي سرعة المعالجة ، او بمعنى رسم الطبيعة مباشرة .

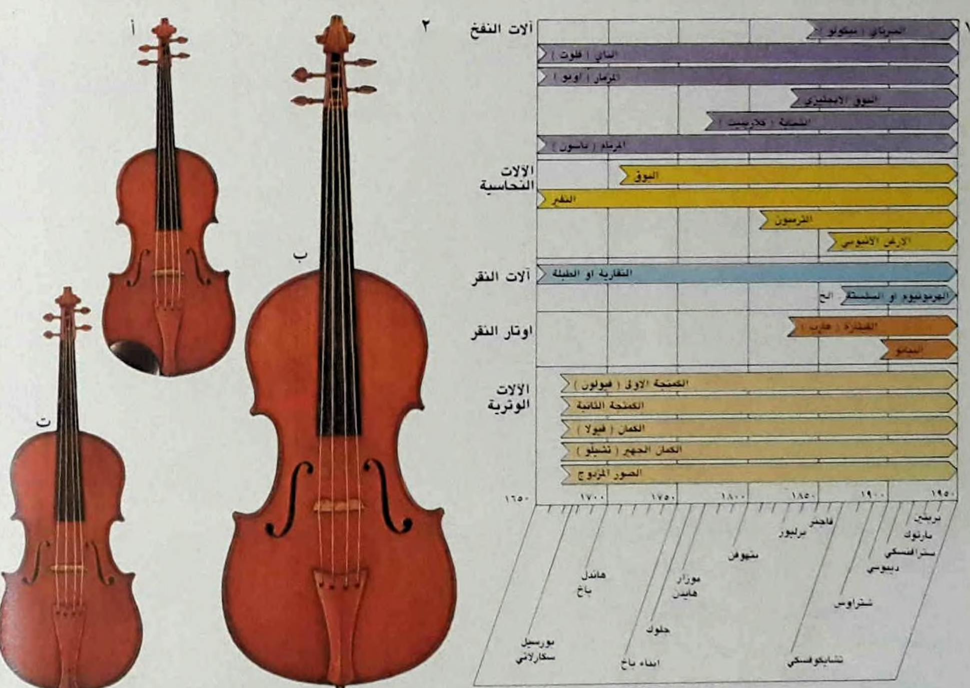
في كلا البلدين ، بل في سائر البلدان ايضا ، كانت السماء دائما محور رسم المشاهد الطبيعية الرومنطيقي . فقد كانت ، كما يصفها جون كونستابل (١٧٧٦ ـ ١٨٣٧) « عماد السلم الموسيقي وأداة العاطفة الرئيسية » . لم يكن كونستابل رسام المشاهد الطبيعية الوحيد في هذه الحقبة ، ولكنه كان اشهر من رسم دراسات للسماء ، مقرونة بمذكرات على ظهر اللوحة تحدد التاريخ والساعة المعينة من النهار واتجاه الريح . في لوحاته المكتملة لريف صافولك ، حيث ولد وترعرع ، يستخدم نور السماء ليلقي حيوية وشاعرية على المشاهد الزراعية البسيطة (٦) . حقق تورنير الشيء ذاته ، لكن في اطار أوسع من المشاهد والاحداث ، فكاد يذيب الشكل كليا آخر الأمر في ضباب من النور واللون (٨) .

انتج « الجيل الرومنطيقي » التالي والاخير نوعا من رسم المشاهد الطبيعية يعبّر بجلاء اكبر عن اختلاجات النفس ، كما في تخيلات جون مارتين (١٧٨٩ ـ ١٨٥٤) (٧) النبوية والمهيبة ، او على عكس ذلك في تصورات صاموئيل بالمر (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) الحميمة لحياة الرعاة (٩) .

تطوّر الأوركسترا

اذا توافرت ، مع حلول القرن السادس عشر ، كمية من الموسيقى الآلية الدنيوية ، فقد كانت تلك الكمية هزيلة امام وفرة نتاج الموسيقى الصوتية التي كانت الكنيسة تشرف عليها . كانت الرعاية المتزايدة للآثار الفنية الدنيوية ، لاسيما الاوبرا والباليه ، تتطلب وجود فرق آلية . لكن معظمها كان مؤقتا ، مع ان عددا من الفرق الدائمة كانت قد برزت الى حيز الوجود في اوائل القرن السابع عشر .

كانت عدة مجموعات من الآلات قد شاعت منذ القرن السادس عشر . وبعض تلك المجموعات كان يضم آلات من فصيلة واحدة ، كفصيلة الكمان الكبير



(١) ـ بدأ النمو التاريخي للاوركسترا في اواخر القرن السابع عشر ، حينما اصبحت نواة اسرة الكمنجة قياسية . كانت تضاف اليها مجموعات اخرى من الآلات حسب مراحل ظهورها ، وبمقدار ما كان الموسيقيون النافذون (المعترف بهم) يؤلفون قطعا موسيقية لها . دخلت الابواق الى الاوركسترا من خلال حقل الصيد ، والطبول والنقاريات من خلال الجيش ، والترومبون من خلال دار الاوبرا .

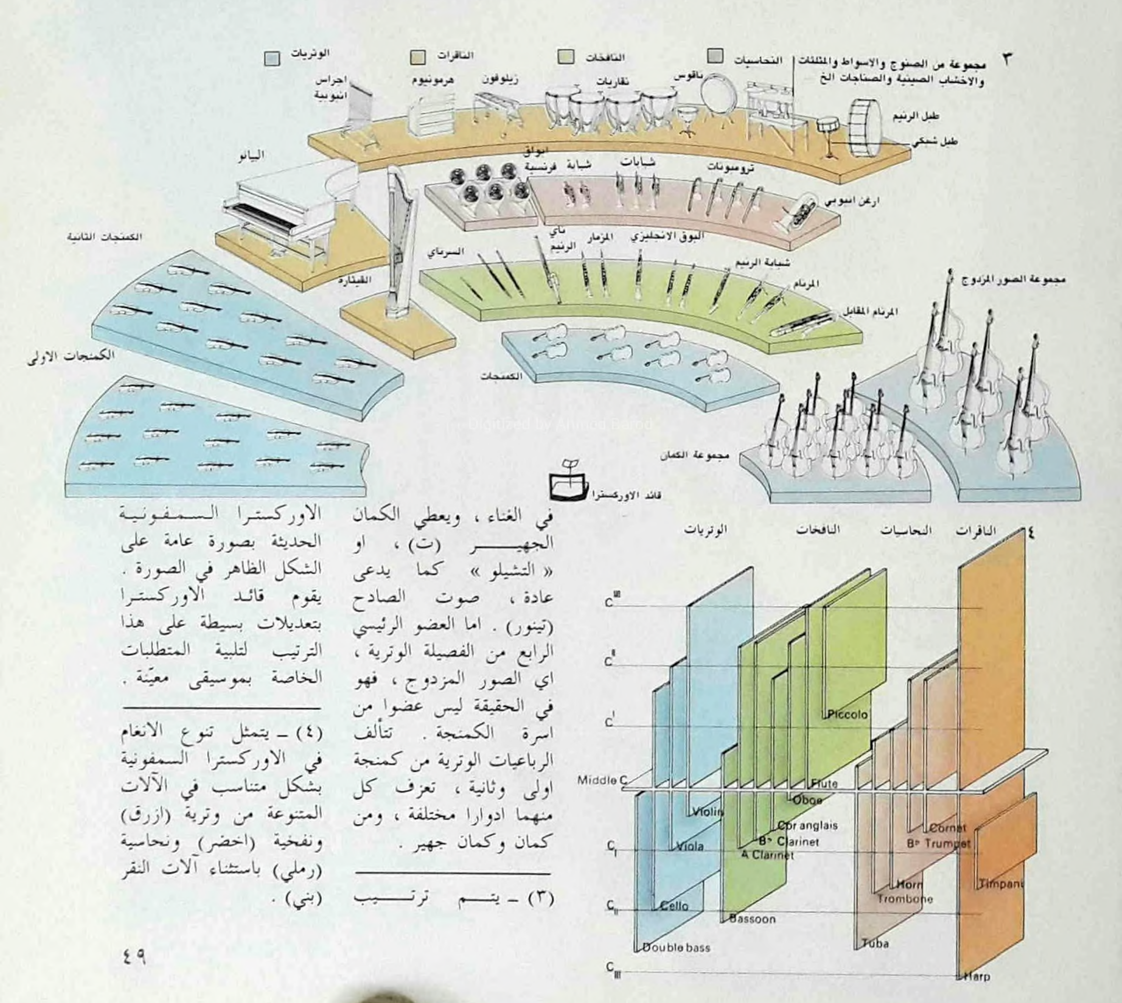
(٢) ـ تقوم الفصيلة الوترية من الاوركسترا الحديثة على اسرة الكمنجة ، اي الكمنجة والكمان والكمان الجهير . ينقسم دور الكمنجة الى قسمين : اول وثان ، مع ان الآلات المستخدمة (أ) هي ذاتها في كلا القسمين . يعطي الكمان الكبير (ب) صوتا يقابل صوت الرخيم (ألتو)

(الفيول) والناي الانجليزي . لكن بعضها الآخر كان يشتمل على آلات من فصائل متنوعة لتخفيف رتابة الصوت واعطائه شيئا من الحيوية .

حمل تطور الاوبرا في ايطاليا المؤلفين على ابتكار مجموعة من الآلات اكثر تنوعا واشد زهوا . فقد استخدم كلوديو مونتيفردي (١٥٦٧ ـ ١٦٤٣) في اوبراه «اورفيو» (١٦٠٧) أوركسترا مؤلفة من ١٥ آلة ذات دساتين تضم آلات نحاسية ووترية ونفخية ، وترك للمدير الموسيقي اختيار الآلات لكل جزء معيّن من موسيقاه ، باستثناء تلك الاجزاء التي حدّد فيها استخدام الترومبون لعزف الموسيقى المرافقة «للجحيم» .

فصيلة الآلات الوترية

طغت « الكمنجة » بنوعيتها المحسّنة



في الغناء ، ويعطي الكمان الجهير (ت) ، او « التشيلو » كما يدعى عادة ، صوت الصادح (تينور) . اما العضو الرئيسي الرابع من الفصيلة الوترية ، اي الصور المزدوج ، فهو في الحقيقة ليس عضوا من اسرة الكمنجة . تتألف الرباعيات الوترية من كمنجة اولى وثانية ، تعزف كل منهما ادوارا مختلفة ، ومن كمان وكمان جهير .

---

(٣) ـ يتم ترتيب الاوركسترا السمفونية الحديثة بصورة عامة على الشكل الظاهر في الصورة . يقوم قائد الاوركسترا بتعديلات بسيطة على هذا الترتيب لتلبية المتطلبات الخاصة بموسيقى معيّنة .

---

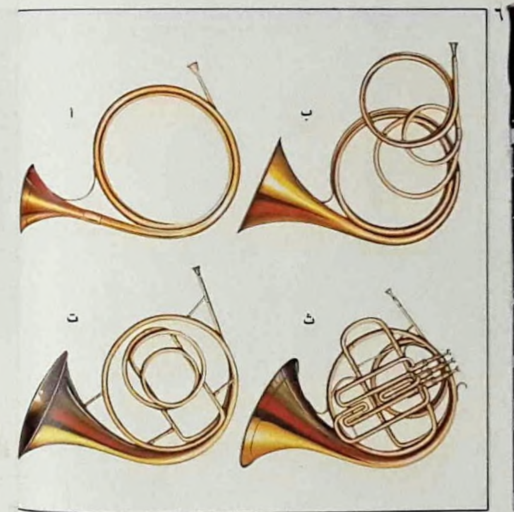
(٤) ـ يتمثل تنوع الانغام في الاوركسترا السمفونية بشكل متناسب في الآلات المتنوعة من وترية (ازرق) ونفخية (اخضر) ونحاسية (رملي) باستثناء آلات النقر (بني) .

وصوتها الرنان ، في الربع الثاني من القرن السادس عشر ، على فصيلة الكمان الكبير (الفيول) ، مع أن احد مشتقات الكمان الكبير ، وهو الصور المزدوج ، كان لا يزال على قيد الحياة . كانت فصيلة الكمنجة تولد ذلك الصوت الذي كتب له ان يكون اساس الاوركسترا السمفونية .

في اواخر القرن السابع عشر ، كانت الاوركسترا الوترية المربعة الاجزاء ، المؤلفة من الكمنجات الاولى والثانية والكمانات الكبيرة والكمانات الجهيرة ، قد اصبحت ثابتة الاركان . لكن في بادىء الامر كان الصور المزدوج يعزف سطر الكمان الجهير على طبقة موسيقية واحدة ادنى ، ثم اصبحت هذه الآلة جزءا ثابتا من الاوركسترا بحلول منتصف القرن الثامن عشر .



(٥) ـ آلات النفخ القصبية الظاهرة في الوضع العزفي المناسب هي : المرنام (أ) ، المزمار (ب) ، البوق الانجليزي (ت) ، الشبابة (ث) ، شبابة الرنيم (ج) . للشبابة فوهة اسطوانية ، ويعزف عليها بواسطة قصبة واحدة (ج) مثبتة فوق فراغ في الفوهة (ح) ، وموثقة بواسطة رباط (د) يبدو في الصورة مستعرضا (ذ) ومقطوعا (ر) . يعزف على اعضاء اسرة المزمار (أ.ب.ت) بالنفخ في قصبتين (ز) ، موثقتين حول انبوب نحاسي (س) . يوضع الانبوب في اسطوانة من الفلين (ش) ، وقد الصقت القصبتان بها (ص) ، بعد أن تكون القصبتان قد اثبتتا بكاملهما في موضعهما (ض) .



(٦) ـ البوق الفرنسي متحدر مباشرة من بوق الصيد المعكوف (أ) الذي ظهر في فرنسا حوالى ١٦٦٠ . تغير شكله ، لانه حينما استعمل للمرة الاولى في الاوركسترا ، كان العازفون يضطرون الى استبدال ابواقهم كلما تغير دستان الموسيقى . ادخلت عليه اللفات ومزيد من الانابيب (ب) ، ثم اضيف اليه فيما بعد لفات اخرى ومزلاج للدوزنة (ت) . اعطى ظهور الصمام الاسطواني (ث) في مطلع القرن التاسع عشر البوق امكانية احداث صف كامل من نصف الالحان . من آلات الاوركسترا النحاسية ايضا النفير والترومبون ذو الفوهات الاسطوانية ، وفي الطرف الادنى من سلم الالحان الارغن الانبوبي .

فصائل آلات النفخ

كانت تضاف احيانا الى الوتريات آلات مختلفة ، حتى وجد بعضها مكانا دائما له في مؤسسة الاوركسترا ، كما فعلت آلات المزمار الاول والثاني والمرنام التي اعطت للاوركسترا الايقاع النفخي في القرن السابع عشر .

ظهر الناي في الاوركستراوات الباكرة . لكن ما لبث شكله الافقي ، وهو شكل الناي الانجليزي ، ان توارى امام المزمار والناي المستعرض اللذين ادخل على آليتهما الصناع والموسيقيون الفرنسيون كثيرا من التحسينات . كانت آخر من دخل الاوركسترا من فصائل آلات النفخ اليراعة (الكلارينيت) التي « اخترعها » يوهان دينر (١٦٥٥ - ١٧٠٧) حوالى سنة ١٧٠٠ .

كان لآلات النفخ الرئيسية بعض النظائر التي احتلت مكانا دائما في الاوركسترا ، كالنفير الانجليزي (هو ابن عم المزمار) الذي ، بفضل نغمه الارخم ، راج في اوساط المؤلفين الرومنطيقيين الذين كانوا يبحثون عن ظلال جديدة من اللحن .

الفصائل النحاسية والنقرية

عندما ألف باخ « كونشرتو براندنبورج » الاول (١٧٢١) ، كان البوق الفرنسي قد انضم الى الاوركسترا . كذلك كان البوق قد احتل مكانا خاصا به من قبل ، ويعزف عادة عليه في ذروة طاقته . كانت الابواق الفرنسية تؤلف عادة ازواجا مع المزامير في قسم الآلات النافخة . ألف فولفانج موزار ١٩ من سمفونياته الاربعين من اجل اوركستراوات كانت آلات النفخ فيها تقتصر على المزامير والابواق . اما الترومبونات ، التي كانت تستخدم في اوركستراوات الاوبرا في اواخر القرن الثامن عشر ، فانها لم تدخل الاوركسترا السمفونية الا بعد ذلك بـ ٥٠ سنة .

كانت اهمية اكتشاف الصمامات الخاصة بالآلات النحاسية في المانيا حوالى ١٨١٥ تقوم في أنها تسمح لهذه الآلات بتوليد سلالم موسيقية من نصف نغمة على مداها الكامل دون الحاجة الى تغيير مقادير الانابيب كلما تغير دستان الموسيقى .

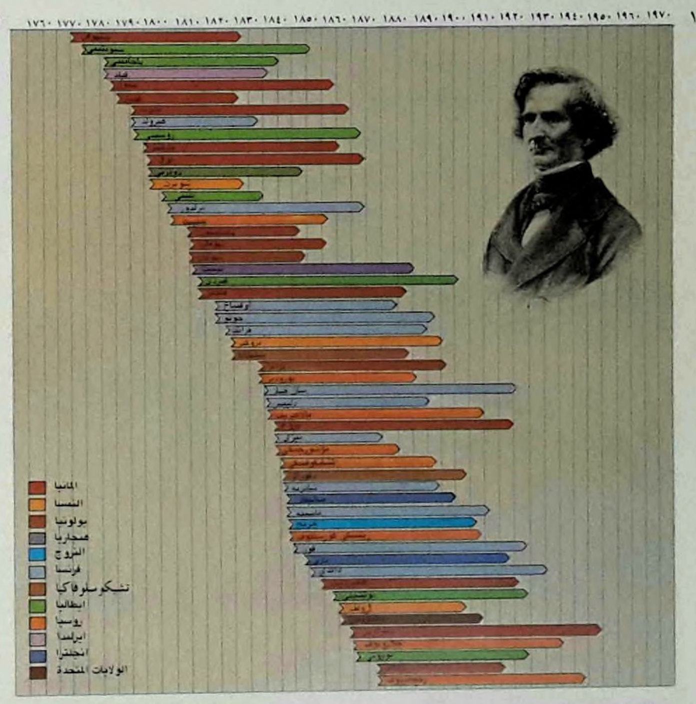
لم يكن انضباط اعضاء الاوركسترا دائما يتناسب مع المقاييس التي وضعها لها يوهان شتاميتز (١٧١٧ - ١٧٥٧) في مانهايم ، الذي وجد موزار اوركستراه أحسن بكثير من « غوغاء » عازفي الاوركسترا الخاصة به . بحلول مطلع القرن التاسع عشر ، اكتسبت قيادة الاوركسترا ، ابان العزف ، دورا اهم بكثير من الدور الذي كان يقوم به قائد الكمنجات . وفي سنة ١٨٢٠ ، فاجأ لودفيج شبور اعضاء الاوركسترا والجمهور في لندن حينما قاد الاوركسترا بواسطة العصا الموسيقية ، وكان ذلك للمرة الاولى على ما يبدو . نادى هيكتور برليوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩) وفاجنر بتحسين العزف ، وحينما تهافتت الطبقات الوسطى على قاعات الموسيقى الجديدة ، اصبح من الممكن ، من الناحية المالية ، تكريس الاوقات الطويلة اللازمة للتدريب وانشاء اوركستراوات دائمة .

الموسيقى - العصر الرومنطيقي

شهد القرن التاسع عشر ولادة الفكرة القائلة بأن مؤلف الموسيقى الغربية هو فنان ، وليس ، كما كان ينظر اليه سابقا ، مجرد محترف يقدّم الموسيقى لمن كان يرعاه ، اي للكنيسة او للنصير الارستقراطي . كان لموقف بيتهوفن (٦) الثوري ، المنادي بحزم الى التعبير الذاتي ، دورٌ اساسي في عملية التحوّل هذه .

تأثير بيتهوفن

بعد ان استوعب بيتهوفن العناصر الكلاسيكية من هايدن وبصورة خاصة من موزار الذي مهدت سمفونياته الثلاث الاخيرة السبيل للنهج الرومنطيقي الى حد



(١) - كانت الموسيقى الرومنطيقية التي استحدثها بيتهوفن لا تزال تلاقي في ثلاثينات القرن العشرين داعية قويا لها في راخمانينوف . هذا الرسم هو لبرليوز الذي عبّر اشد التعبير عن تلك الحركة .

(٢) - كانت كلية عازفي الأرغن الملكية ، التي تأسست بلندن سنة ١٨٦٤ ، أحد المعاهد والاكاديميات الموسيقية التي انتشرت على نطاق واسع في اوروبا في القرن التاسع عشر . استمدت اصولها من « الكونسرفاتوريو » الايطالي ، حيث كان الايتام يتعلمون الموسيقى . تأسس عدد من المعاهد الموسيقية (كونسرفاتوار) البارزة في باريس (١٧٨٤) وفيينا (١٨١٧) ولندن (الاكاديمية الملكية للموسيقى ١٨٢٢) وليبزيج (على يد ماندلسون ١٨٤٣) .

(٣) - اوحت «مغارة فينجال» بجزر الهبريد لماندلسون موضوعا لافتتاحية كونسرت (١٨٣٠) . عبر فيها عما اثارته المغارة في نفسه من انطباعات . كانت الموسيقى

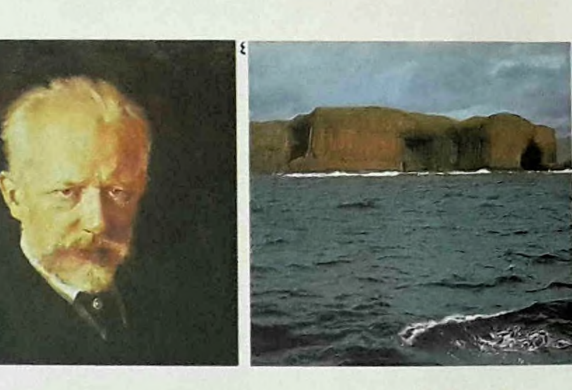
كبير ، نحا بيتهوفن منحى يمكن اعتباره موازيا في الموسيقى لمفهوم الرومنطيقيين عن الفرد المتحرر . فقد كانت سمفونيته الثالثة ، « الارويكا » (البطولية) (١٨٠٣ ـ ١٨٠٤) نموذجا رئيسيا لهذا الاتجاه ، انطوى على زخم سيتفجر في تلك القوة المميّزة لعدد من سمفونياته وكونسرتاته وصوناتاته البيانوية اللاحقة .

قيّض للموسيقى الاوروبية الجدية في القرن التاسع عشر برمتها تقريبا ان تزدهر تحت تأثير هذا الموسيقي الكبير .

العمالقة الرومنطيقيون الاوائل

يسند عادة الى كارل ماريا فون فيبر (١٧٨٦ ـ ١٨٢٦) شرف كونه اول مؤلف رومنطيقي طليق اليدين ، كما يسند اليه ايضا انه كان رائد الاوبرا الرومنطيقية الالمانية . الف موسيقاه البيانوية ، وكانت

٤ ٥



التي تصف مشاهد طبيعية او مواضيع أدبية («الموسيقى البرنامجية») شكلا شائعا من التأليف الرومنطيقي .

(٤) ـ انفصل تشايكوفسكي عن المؤلفين الوطنيين المتباهين بشعورهم القومي في روسيا في اواخر القرن التاسع عشر ، وذلك باستخدامه الدائم لاشكال موسيقية اوروبية صرف ، مثل السمفونية والكونسرت والقصيدة السمفونية . مع ذلك اتسم اسلوبه الخاص باهتمام روسي بارز بالنهج والدساتين الصغرى والايقاع الشعبي . غدت شهرته اليوم واسعة ، وهي مبنية بالدرجة الاولى على سمفونياته وكونسرتاته وموسيقاه للباليه .

(٥) ـ كان فرانز شوبرت ، وهو ابن مدرس فييني ، مؤلفا مكثرا ابّان حياته القصيرة . فقد كتب تسع سمفونيات ، وكثيرا من الموسيقى الخفيفة ، وموسيقى البيانو ، ومجموعة من الاغاني التي لا تضارع والتي تنيف على ٦٠٠ اغنية . لم يحظ بشهرة تذكر وهو حي ، ولم تعزف سمفونيته الكبرى الا بعد مرور عشر سنوات على وفاته ، وقد سلخ السنوات الاخيرة من حياته في فيينا في حال من الفقر المدقع .

٦

(٦) ـ رسم لودفيج فان بيتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) في شكل جانوس ، المعبود الاسطوري للسنة الجديدة الذي يصور بوجهين . وبيتهوفن في هذه الصورة ينظر الى الوراء نحو التراث الكلاسيكي الذي حوّره ، والى الامام نحو موسيقى القرن التاسع عشر والمؤلفين الرومنطيقيين الذين سوف يستلهمون انجازه الفذ .

سطحية في اغلب الاحيان ، من اجل الحفلات العامة المتزايدة الشعبية التي كانت تحفز وتشجع المؤلفين المتفوقين .

في الطرف المقابل ، نجد الامسيات الموسيقية الخاصة المقتصرة على النخبة التي كان يحييها فرانز شوبرت (١٧٩٧ – ١٨٢٨) (٥) في فيينا . كانت هذه « الشوبرتيات » تجمع بين الشعراء والموسيقيين ، وقد شهدت بصورة خاصة نشوء « الاغنية » التي فتحت مرافقة موسيقى شوبرت لكلامها عوالم جديدة غنية بالنغم والايقاع للشعر الغنائي .

جعل فيلكس مندلسون (١٨٠٩ – ١٨٤٧) (٣) – ولم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من العمر – من « حلم ليلة منتصف الصيف » لشكسبير موضوعا لافتتاحية احد كونسرتاته . الا ان موسيقاه الندية الوقع كانت لا تزال تستمد الكثير من

٧

٨

(٧) – تبرز هذه الصورة لمجموعة من الفنانين الرومنطيقيين الروابط الوثيقة بين الموسيقى والادب ، وهي من رسم جوزيفي دانهـــاوزر (١٨٠٥ – ١٨٤٥) . يعزف فرانز ليست على البيانو من اجل الكاتبة جورج صاند ، عشيقة شوبان ، وقد جلست الـــى جانب الروائـــي والمسرحي اسكندر دوماس الابن . يقف الى اليسار الشاعر فيكتور هوجو وعازف الكمان والمؤلف بأجانيني ، ومؤلف الاوبرا روسّيني . على قدمي ليست تجلس الكونتيسا ماري داجو ، التي كان بينها وبينه غرام طويل الامد . يبدو تمثال نصفي لبيتهوفن على البيانو ، وصورة لبايرون على الجدار .

(٨) – يشهد هذا القالب ، الذي صنع ليد شوبان اليسرى ، على الحماسة والاعجاب الشعبيين اللذين اثارتهما مهارته وحساسيته كعازف على البيانو . كان مبرزا بين مؤلفي القرن التاسع عشر في مدى سيطرته على الامكانيـــات الديناميـــة والتعبيرية للبيانو الحديث المحسّن ، وقد دعي « شاعر الدساتين » . ألّف في مطلع حياته الموسيقية قطعا من اجل البيانو والاوركسترا ، كنماذج ليبني شهرته عليها . ولكنه ، اثناء اقامته في باريس وهو في الـ ٢١ من العمر بعد ان هجر بلاده المضطربة بولونيا ، ركّز على تأليف وعزف قطع منفردة قصيرة مخصّصة لجمهـــــور الصالونات . ألّف ما مجموعه ١٥٠ قطعة من هذا النوع ، قبل وفاته عن سن باكرة تناهز ٣٩ عاما .

سحرها مما كان قد تبقى من القرن الثامن عشر من اعتدال واتزان تقليديين . من ناحية اخرى ، عبر هيكتور برليوز (١٨٠٣ ـ ١٨٦٩) (١) عن شغفه بآثار شكسبير وبيرون وسكوت وجوته وسواهم ، وقد انعكست تلك الآثار في عدد من مؤلفاته الاوركستراوية والمسرحية . ففي قطعته « السمفونيا الخارقة » (١٨٣٠) نراه يطبّق فكرة «برنامج أدبي» على قصة غرامية . كذلك استمد روبرت شومان (١٨١٠ ـ ١٨٥٦) بعض « شخصياته » من ادباء رومنطيقيين .

ذهب فرانز ليست (١٨١١ ـ ١٨٨٦) (٧) ابعد من ذلك ، فألّف ، حسب تعبيره الخاص ، « روائع من الموسيقى تستوعب روائع من الادب » ، كما انه ابتكر القصيدة السمفونية (مثل تاسّو ، ومازيبا) ، وذلك بمزج الجانبين الروائي والبسيكولوجي من القصة او القصيدة معا في الموسيقى . جاء بعده عدد من المؤلفين فبنوا على هذا الاساس ، لاسيما ريتشارد شتراوس (١٨٦٤ ـ ١٩٤٩) . كذلك انطوت الموسيقى الرائعة التي وضعها «ليست» للبيانو على عنصر أدبي ايضا .

الرومنطيقيون والشعور بالقومية

في سنة ١٨٤٨ ، سحقت الثورات في جميع انحاء اوروبا . الا انها اعطت للمشاعر القومية اتجاهات جديدة قيض لها اخيرا ان تتجلى في الموسيقى . فقد استخدم فريدريك شوبان (١٨١٠ ـ ١٨٤٩) ، وهو في المنفى ، رقصتي « المازوركا » « والبولونية » للتعبير عن حنينه الى بولونيا وآماله القومية . كذلك برز جريج ،كما برز ايضا ، بقيادة ميخائيل جلينكا (١٨٠٤ ـ ١٨٥٧) الباكرة ، « الخمسة العظام » ، وعلى رأسهم موديست موسورجسكي (١٨٣٩ ـ ١٨٨١) واسكندر بورودين (١٨٣٤ ـ ١٨٧٨) ونيقولاي ريمسكي كورساكوف (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨) . في روسيا ، بقي بيتر اليتش تشايكوفسكي (١٨٤٠ ـ ١٨٩٣) (٤) خارجا عن هذا الفريق . وفي الولايات المتحدة ، لمع ادوارد ماكدويل (١٨٦١ ـ ١٩٠٨) ، وفي المانيا ريتشارد فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) .

أصبح استخدام فاجنر للاساطير الالمانية ، بقصد ابداع دراما موسيقية متدفقة كبديل للاوبرا التقليدية ، امرا ثانويا في آخر الامر ، اذا قيس بالتأثير الكبير الذي احدثه ايقاعه النضر والمتعدد الالوان واستخدامه الحماسي الابداعي للاوركسترا ، وهو ما اعتبر ذروة الموسيقى الرومنطيقية تقريبا . الا ان بعض المؤلفين ، مثل برامز وانطون بروكنر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٦) ، أخذوا يتجهون من جديد نحو الكلاسيكية .

يتجلى الازدهار النهائي للشعور القومي الرومنطيقي في انجلترا بظهور ادوارد الجار (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) وفريدريك ديليوس . قيض للمدرسة الفرنسية الناشئة المعروفة « بالانطباعية » والتي بلغت ذروتها في آثار كلود ديبوسي (١٨٦٢ ـ ١٩١٨) ان تصبح من المؤشرات الرئيسية لظهور موسيقى القرن العشرين .

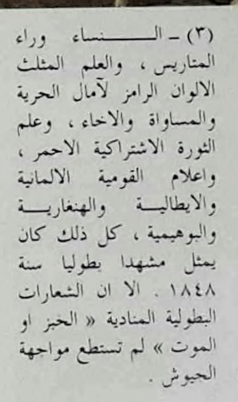
ثورات سنة ١٨٤٨

كانت سنة ١٨٤٨ سنة الثورات . فقد هزت الاضطرابات حكومات فرنسا وايطاليا واوروبا الوسطى جميعا . مع ذلك ، وخلافا لزعم المعاصرين في ذلك الوقت ، لم يكن ثمة خطة شاملة لتلك الثورات ، وكان انعدام التنسيق سببا في اخفاقها .

الاصلاح السياسي بواسطة الثورة

كانت جذور الانتفاضات في انحاء اوروبا الغربية متشابهة الى حد بعيد . فالثورة الصناعية كانت قد اجتثت انماط الحياة التقليدية ، وخلقت طبقة من البروليتاريا المدينية ، وطبقة بورجوازية

١



٢





٣



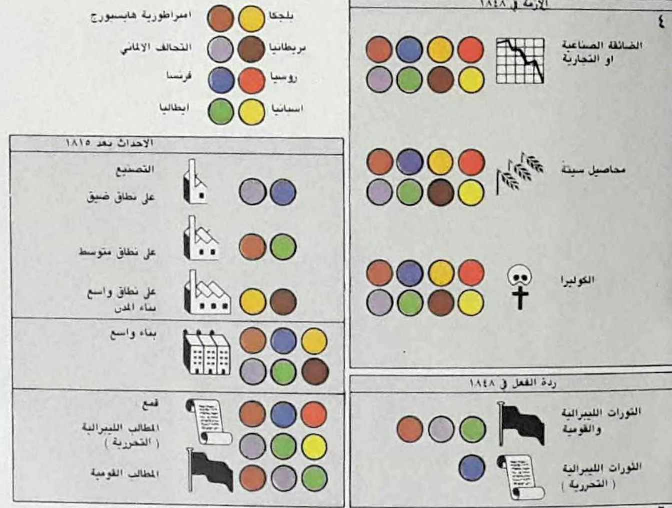
(١) – في سنة ١٨٤٩ ، انهارت الثورات الايطالية المطالبة بدساتير للدول الايطالية القائمة وبجمهوريات في روما والبندقية ، وبمملكة ايطالية شمالية .

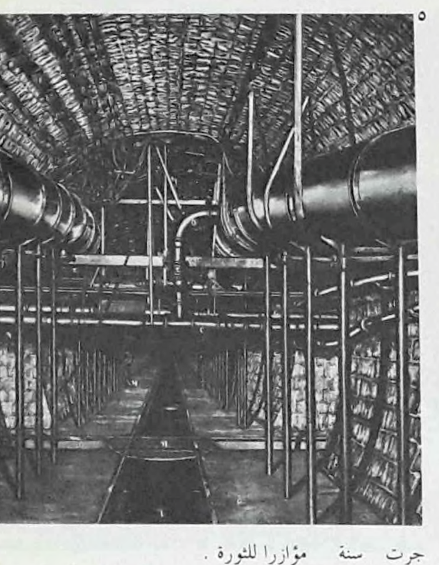
(٢) – كانت ثورات ١٨٤٨ مدينية الطابع ، اذ كان الفلاحون متقاعسين او محافظين .

(٣) – النساء وراء المتاريس ، والعلم المثلث الالوان الرامز لآمال الحرية والمساواة والاخاء ، وعلم الثورة الاشتراكية الاحمر ، واعلام القومية الالمانية والايطالية والهنغارية والبوهيمية ، كل ذلك كان يمثل مشهدا بطوليا سنة ١٨٤٨ . الا ان الشعارات البطولية المنادية « الخبز او الموت » لم تستطع مواجهة الجيوش .

كبيرة عازمة على التسلط السياسي . في الوقت نفسه ، ازداد التململ الاقتصادي والسياسي نتيجة للحكم الاستبدادي الذي ادّت اليه تسويات مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، واصبح هذا الحكم الاستبدادي مرمى هجوم المفكرين الذي كانوا ينادون بالاصلاح السياسي . كذلك فتكت المجاعة بالجماهير نتيجة لسوء المحاصيل في السنوات ١٨٤٥ و ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، مع ما رافق ذلك من تراجع في انتاج الحبوب وتلف في محاصيل البطاطا ، فدفع الجوع بالجموع اليائسة الى الشوارع للمطالبة بأي تغيير يبشر بالخلاص .

لكن ما يلفت النظر ان مراكز الاضطراب كانت المدن الكبرى (٢) . فقد كانت مناطق عديدة في اوروبا قد اخذت بالثورة الصناعية حديثا ، فتوافد الالوف من الناس على المدن ليعيشوا في







(٤) - اندلعت الثورات في معظم البلدان الاوروبية سنة ١٨٤٨ . كانت تحدوها أسباب متشابهة لكنها كانت تتفاوت عنفا وتأثيرا . في روسيا واسبانيا ، كان الاستياء السياسي يفتقر الى تأييد المصانع او المدن ، بينما كان قد سبق لبلجكا وبريطانيا ان قدمتا تنازلات على نطاق واسع خلال عملية التصنيع والتمرد فتجنبتا بذلك الهواجهات العنيفة التي جرت سنة ١٨٤٨ .

(٥) - كانت مجارير باريس ، التي بدأ ببنائها البارون هوسمان (١٨٠٩ - ١٨٩١) خلال الخمسينات في القرن التاسع عشر ، هي رد الحكومة على الانتقادات التي وجهت اليها بعجزها عن الحؤول دون انتشار الكوليرا سنة ١٨٤٨ ، بعدما لعب الخوف من الوباء دورا مؤازرا للثورة .

(٦) - أدّت الثورات الليبرالية في الدول الالمانية الـ ٣٩ الى الحصول على دساتير لم تصمد في وجه القمع الذي جرى سنة ١٨٤٩ . ظهر عجز القوميين في « جمعية فرانكفورت » ، اذ اضطروا الى الاستعانة بالجنود للمحافظة على الأمن في صفوفهم .

حال من البؤس ويعملوا في ظروف من القهر الرهيب .

موجة الانتصارات الاولى

اندلعت أولى الثورات في ايطاليا (١) . وما ان تنازل لويس فيليب (١٧٧٣ - ١٨٥٠) عن العرش الفرنسي في فبراير ، حتى استحكمت الثورة في فرنسا . وفي مارس ، ارتفعت معنويات الثوار نتيجة لاستقالة داعية الاتجاه الاوروبي المحافظ ، الامير مترنيخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩) ، مستشار امبراطورية آل هابسبورج . لم يكن بوسع الحكومات ، وقد أخذت على حين غرة وغلبت على امرها لضخامة الانفجار ، ان تتنادى من أجل التعاون . كان يبدو ان أملها الوحيد هو في اعطاء التنازلات ، فمنحت دساتير ليبرالية (٤) في كل مكان .



(٧) - وقف وراء المتاريس الباريسية في مارس ١٨٤٨ ليبراليون من الطبقة الوسطى واشتراكيون من الطبقة العاملة والعاطلون عن العمل . تنازل لويس فيليب خلال بضعة ايام متاثرا بمدى كره الشعب له .

(٨) - اصدر كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) ، الذي يبدو هنا مرسوما على شاكلة بطل الاسطورة اليونانية بروميثيوس وقد اوثق الى مطبعته ، وفريدريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) «البيان الشيوعي» في مطلع ١٨٤٨ ، كعقيدة واستراتيجية «للحلف الشيوعي» .



(٩) - كان المنقذون العسكريون لآل هابسبورج (كما يظهرون في هذا الرسم الكاريكاتوري من اليسار الى اليمين) جيلاتشيك (١٨٠١ - ١٨٥٩) الذي قاد الكرواتيين ضد المجريين في المجر المستقلة ، وراديتسكي (١٧٦٦ - ١٨٥٨) الذي وضع حدا للثورات الايطالية ، ووينديشجراتس (١٧٨٧ - ١٨٦٢) الذي اخضع فيينا وبوهيميا .

اقترنت الثورات التحررية في الوقت نفسه بانبعاث الفكرة القومية ، فبدت امبراطورية آل هابسبورج ، ومحور نفوذها ايطاليا والمانيا (٦) ، سائرة الى الانهيار . اعلنت المجر استقلالها ، والف البوهيميون حركة قومية ، كما انعقد مؤتمر سلافي للنظر في ايجاد وضع جديد للسلاف في الامبراطورية . في ايطاليا دعا جيوزيبي مازيني (١٨٠٥ - ١٨٧٢) الى الثورة من أجل خلق دولة ايطالية جديدة . في الوقت نفسه ، ارسل الملك شارل البرت ملك بيد مونت (١٧٩٨ - ١٨٤٩) جيشا لمساعدة اللومبارديين على طرد النمساويين ، على أمل تكوين مملكة ايطالية شمالية . اما « التحالف الالماني » ، فقد التأمت جمعية في فرانكفورت للاتفاق على سياسة رامية الى توحيد المانيا .

على الرغم من كل ذلك ، أوقف تيار الثورة في منتصف ١٨٤٨ . فقد تبين ان الانتصارات الاولى كانت وهمية . كذلك واصلت امبراطورية آل هابسبورج سياستها التاريخية القائمة على مبدأ « فرّق تسد » باستغلالها الخلافات العميقة في صفوف الثوار . فثار الكرواتيون والرومانيون الذين كانوا يكرهون سيادة المجر على زعيم المجر الجديد ، لويس كوسوث (١٨٠٢ - ١٨٩٤) ، فساعدت جيوشهم على تنفيذ مآرب آل هابسبورج . وفي ايطاليا اصيبت قوات شارل البرت بهزائم ساحقة على يد الجيش النمساوي في معركتين ، كما ان الولاء التقليدي للدول القائمة المستقلة حرم ذلك الامير من التأييد الايطالي الشامل .

اما في المانيا ، فقد طال الجدال بين المفكرين داخل « جمعية فرانكفورت » واخفقوا في الاتفاق على شكل المانيا الجديدة . وفي كل مكان ، خشيت الطبقات الوسطى ، التي اعطت الثورة زخمها وقيادتها ، القوى ذاتها التي كانت هي قد اطلقتها (٨) ، وحينما تحقق الناس ان الثورة تحولت الى فوضى ، رحبوا بعودة القانون والنظام . وهكذا هدأ كل شيء بحلول ١٨٤٩ ، وبدا ان قوى الرجعية قد انتصرت . ذلك انه لم يكن للجماعات غير المنظمة (٣) المقدرة على مواجهة الجيوش المحترفة (٩) التي كانت تملكها النمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا ، كما ان سياسة آل هابسبورج التقليدية القاضية بتعيين حاميات للاقاليم من جنود ينتمون الى اقاليم اخرى حالت دون انحياز الجنود الى الثوار .

ارث سنة ١٨٤٨

مع ذلك ، كانت ثمة مكاسب ذات شأن : فقد الغي نظام القنانة في امبراطورية آل هابسبورج ، واحتفظت بييه مونت وبروسيا بدستوريهما ، وفتحتا الطريق آخر الامر أمام الاتحاد في ايطاليا وفي المانيا سنة ١٨٧١ ، وراحت الحكومات تعير مصالح رعاياها المادية مزيدا من الانتباه ، وتجاهر ، ولو بالكلام ، برغبتها في دعم الحركات الديمقراطية .

الا ان القوميين تعلموا ان المثالية والحماسة الشعبية لا يكفيان ، وانه لا يمكنهم تحقيق آمالهم ما لم يقابلوا قوة خصومهم العسكرية بقوة مماثلة .

الوَحدات الألمانية والايطالية

تمّ توحيد كل من ايطاليا والمانيا بالرغم من ضعف التأييد الشعبي له ، ومن وجود ولاءات قوية للكيانات القائمة ، ومن جوار دولتين (هما امبراطورية آل هابسبورج النمساوية وفرنسا) كان يهدد مصالحهما قيام مثل هاتين الدولتين . نشأت الدولتان الجديدتان كثمرة لطموح الاقليمين القويين فيهما ، وهما اقليما بيدمونت في ايطاليا وبروسيا في المانيا وعلى يد داعيتين لامعين لسياسة الواقعية الجديدة ، هما كاميلو كافور والامير اوتو فون بسمارك .

ولادة ايطاليا الجديدة

بنى كافور (١٨١٠ - ١٨٦١) (٢) ،

١



٢



(١) - في سنة ١٨٧١ وفي فرساي ، نودي بالقيصر فيلهلم الاول ملك بروسيا « امبراطورا ألمانيا » . وصف ذلك اليوم بقوله «انه اتعس يوم في حياتي» ، اذ كان يريد لقبا افخم ، هو «امبراطور المانيا» ، فخرج من القاعة دون القاء نظرة على صانع المانيا الجديدة بسمارك . كان بسمارك (في الوسط) قد سحق جميع اشكال المعارضة «بالدم والحديد» لاعادة توحيد المانيا . كانت مهارته ورؤياه هما اللتان خلقتا المانيا ، وهو الذي كون مؤسساتها بوصفه مستشارا حتى ١٨٩٠ ، وعمل جاهدا على جعلها منيعة ، فيما كان فون مولتكي (١٨٠٠ - ١٨٩١) (الى يسار بسمارك) ، رئيس اركان القيادة البروسية العامة ، هو المخطط واليد العسكرية المنفذة للانتصارات على النمسا وفرنسا .

---

(٢) - لم يستطع كاميلو كافور قط ان يوحي بالمثالية الوطنية التي بثها مازيني وجاريبالدي في « حركة الانبعاث » . ولكنه كان

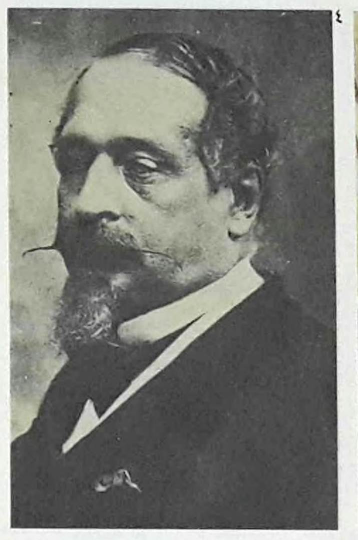
الذي كان رئيس وزراء بيدمونت منذ ١٨٥٢ ، دولته لتكون بمثابة مغنطيس يجذب سائر ايطاليا . جعل الديمقراطية البرلمانية الجديدة تعمل بجدوى ، وشجّع الزراعة والصناعة العصريتين ، وربط اقتصاد بييه مونت باقتصاد اوروبا بواسطة شبكة سكك حديدية ومرفأ جنوى العصري ، وانشأ جهازا عدليا منصفا وبيروقـراطية فعالة . وهكذا اصبحت بيدمونت، بجيشها الصغير المدرّب وملكها فكتور عمانوئيل (١٨٢٠ - ١٨٧٨) المعروف بوطنيته الايطالية ، محط الآمال القومية .

كانت المساعدة الخارجية ضرورية لطرد النمساويين ، وعرف كافور كيف يجعل من فرنسا بيدقا او «حجرا» في لعبته . فقد حصل من لويس نابليون (الامبراطور نابليون الثالث) (١٨٠٨ -

٣



٤



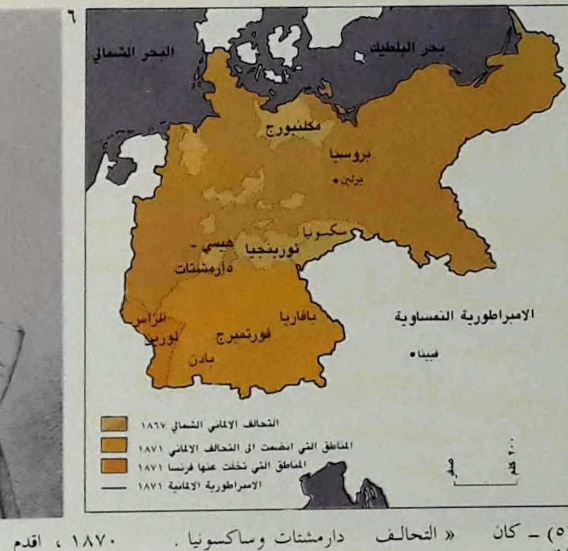
يفهم السياسة جيدا ، ويحيط بالاوضاع الدولية ، وكان يتصف بالمهارة اللازمة لاستغلال الامكانيات ، ولولا مهارته لما كان من الممكن ان يتحقق توحيد ايطاليا .

(٣) - خلّف اعلان مازيني لجمهورية روما سنة ١٨٤٩ اسطورة من البطولة حوله في ايطاليا . أسّس جيوزيبي مازيني (١٨٠٥ - ١٨٧٢) حركة «ايطاليا الجديدة» ليقود قومه نحو الديمقراطية دون مساعدة خارجية أو مساومة ، حالما بدولة «تهز روح ايطاليا» .

(٤) - استطاع كافور اولا ثم بسمارك فيما بعد استغلال نابليون الثالث امبراطور فرنسا في عمليتي توحيد ايطاليا والمانيا . فقد كان نابليون يأمل من خلال مساعدته لكافور ان يحظى بسافوا ونيس ، ويخلق منهما دولة ضعيفة تابعة له . لكن ما حصل في نهاية المطاف هو انه كاد يفقد المكافأة وشهد انشاء ايطاليا الموحدة . اما بسمارك فقد خدعه ، ولم يدرك الخطر الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان هزمت بروسيا النمسا . ولما رهن سلطته بمحاولة اكراه بسمارك على التخلي عن اي محاولة ترمي في المستقبل الى تنصيب أمير من آل هوهنزولرن على العرش الاسباني ، القى بفرنسا في غمار حرب مع بروسيا وضعت حدا لامبراطوريته .

١٨٧٣) في معاهدة بلومبيير (١٨٥٨) على وعد بالمساعدة في أي حرب مقبلة ، ثم اثار النمسا لكي تشن هجوما على بيدمونت سنة ١٨٥٩ ، مما استوجب ارسال جنود فرنسيين لمساعدة الجيش البيدمونتي . لكن بعد انتصارين في ماجنتا وسولفرينو ، اعاد لويس نابليون النظر في الامر وسحب دعمه لكافور ، الا ان مساعدته كانت قد اعطت ثمرتها .

كان يمكن ان تستقر الامور على ذلك الحال ، لولا ظهور جيوسيبي جاريبالدي (١٨٠٧ – ١٨٨٢) . فعندما ثار الصقليون على نابولي سنة ١٨٦٠ ، هبّ جاريبالدي ومعه ١٠٠٠ رجل لمساعدتهم ، وخلال اسابيع ، كان جيش نابولي قد طرد من صقلية ودخل جاريبالدي نابولي ذاتها منتصرا ، وكانت روما هدفه الثاني . لكن كافور ، اذ تخوّف من ان يؤدي هجوم



(٥) – كان « التحالف الالماني » خليطا من ٣٩ دولة ، وقد جرى توحيدها الحقيقي في « الاتحاد الجمركي » الحر سنة ١٨٤٤ . توسعت رقعة التحالف ايضا بفضل الحرب النمساوية البروسية سنة ١٨٦٦ . فقد وقفت ثورينجيا ومكلنبورج الى جانب بروسيا وانضمتا اليها ، وبعد انهزام النمسا انضمت اليها ايضا هيسّي – دارمشتات وساكسونيا .

(٦) – تعبر هذه الصورة الكاريكاتورية للبابا بيوس التاسع عن خيبة الامل التي احس بها الناس لعدم تأييده للحركات الليبرالية بشكل دائم . ولما اخذ يخسر الاراضي البابوية ، راح يدّعي سلطات روحية متزايدة للكرسي الرسولي . وفي سنة ١٨٦٤ ، ادان العقائد السياسية المعاصرة . وسنة ١٨٧٠ ، اقدم على اعلان عصمة البابا عن الخطأ .

(٧) – مع ان ايطاليا توحدت سنة ١٨٧٠ ، فقد كان تطورها السياسي وتطورها الاقتصادي غير متكافئين . فعلى الرغم من انتصارات جاريبالدي المثيرة ، بقيت ايطاليا الجنوبية متأخرة ، بالنسبة الى بيدمونت في الشمال .

جاريبالدي على روما الى تدخل فرنسا والنمسا للدفاع عن البابا ، ارسل جيشا من بيدمونت ليصد جاريبالدي عن اي تقدم آخر . عند ذلك ، وفي بادرة درامية ، تخلى جاريبالدي عن الجنوب لصالح بيدمونت .

لم يبق حينذاك الا منطقتان من ايطاليا لم تندمجا . فقد كانت البندقية تحت سلطة النمسا ، وروما مع الاراضي المحيطة بها تحت سيطرة البابا وحامية من الجنود الفرنسيين (٦) . لكن في سنة ١٨٦٦ ، انضم فيكتور عمانوئيل الى روسيا في الحرب النمساوية البروسية وحصل على البندقية لقاء ذلك . وفي سنة ١٨٧٠ ، سحبت فرنسا جنودها من روما لتحارب البروسيين ، فاصبح فيكتور عمانوئيل ملكا على ايطاليا الموحدة (٧) .

بروسيا «والمستشار الحديدي»

في اوروبا الشمالية ، كان بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) قد أصبح مستشارا لبروسيا سنة ١٨٦٢ ، رغم معارضة اكثرية ليبرالية معادية لمآربه . ولكنه استطاع ان يتدبر أمرها ويحظى آخر الامر بتأييدها لفكرة التوحيد « ولسياسته الواقعية » .

ضمنت مهارة بسمارك الدبلوماسية له فرصة خوض كل حرب من حروبه ضد خصم منفرد . ففي حرب ١٨٦٤ الدنمركية ، حارب في الظاهر لتحرير الدوقيتين الناطقتين بالالمانية ، شلزويج وهولشتاين ، من السلطة الدنمركية . لكنه بانشائه سيطرة مشتركة على الدوقيتين مع النمسا التي كانت العقبة الرئيسية امام توحيد المانيا ، خلق وضعا مثاليا للاشتباك في حرب معها .

سنحت الفرصة سنة ١٨٦٦ ، فابتاع بسمارك حياد فرنسا لقاء وعود مبهمة حول تنازلات اقليمية ، ولم يتسع الوقت امام لويس نابليون لاكتشاف خطئه (٤) . وهكذا تمكن بسمارك ، في حرب لم تدم اكثر من سبعة اسابيع ، ان يسحق الجيش النمساوي في معركة سادوفا . وفي سنة ١٨٦٧ ، سيطرت بروسيا على تحالف الماني شمالي ، وانشىء تحالف جنوبي ، لكن من دون النمسا .

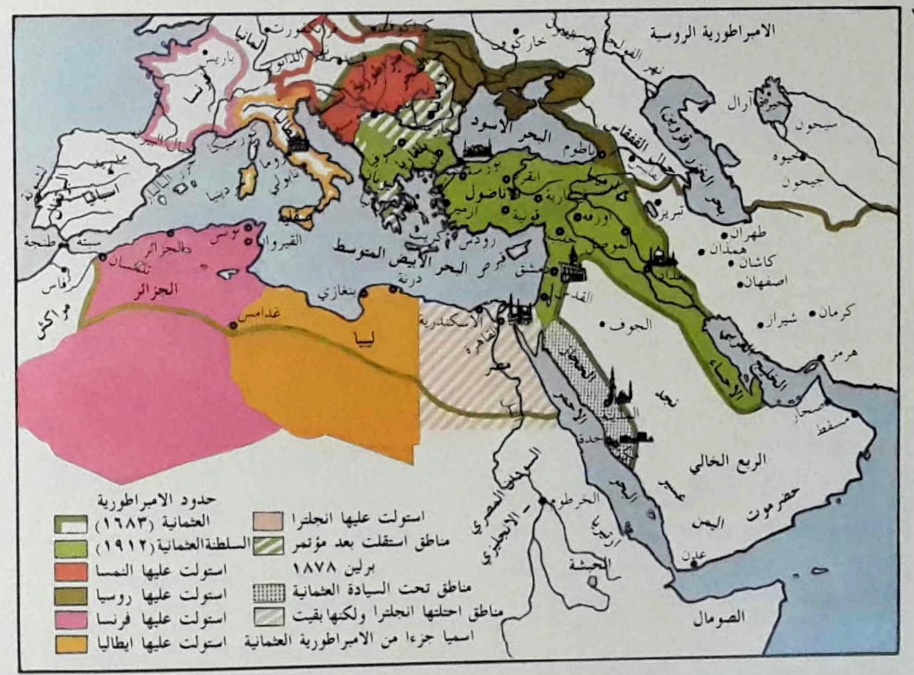
أدركت فرنسا بعد فوات الاوان الخطر الداهم على حدودها الشرقية ، وجاءت الاصلاحات الضرورية لجيشها متأخرة . ثم فاز بسمارك على نابليون في لعبة دبلوماسية دارت حول المرشحين المتنافسين على عرش اسبانيا . فقد رشح بسمارك ابن اخت ملك بروسيا الهوهنزولرني لهذا المنصب . لكن امام رد الفعل الهستيري الذي احدثه هذا الترشيح في كلا البلدين ، اعلنت فرنسا الحرب على بروسيا في يوليو ١٨٧٠ (حرب السبعين) ، وفي سبتمبر استسلم الجيش الفرنسي في سيدان ، وبحلول يناير ١٨٧١ كانت جميع اشكال المقاومة قد انهارت ودخل الالمان باريس .

على اثر ذلك ، غمرت الولايات الالمانية الجنوبية موجة من الحماسة للاتحاد مع الشمال ، وفي ١٨ يناير ١٨٧١ ، نودي بفيلهلم الاول ، ملك بروسيا ، امبراطورا على المانيا (١) في قصر فرساي نفسه .

الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر

شهدت الدولة العثمانية ، منذ اواخر القرن التاسع عشر (١) ، سلسلة من الاصلاحات كان هدفها تحديث السلطنة لدعم السلطة الحاكمة المتزايدة في الضعف والتهافت . جاءت جميع هذه الاصلاحات من اعلى . كان اول السلاطين المصلحين هو سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الذي اغتنم توقيع معاهدة ياسي مع روسيا (١٩٧٢) واشتغال القوى الاوروبية بعواصف الثورة الفرنسية (١٧٩٣) فأصدر في هاتين السنتين عدة قرارات سميت «بالنظام الجديد» ، لاصلاح المالية ، وادارة الولايات ، والتجارة ، ولايجاد جيش جديد على الطراز الاوروبي (٦) .

١



(١) ـ شملت الدولة العثمانية في أقصى اتساعها أواخر القرن السابع عشر الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مع قسم من الحوض الغربي يصل حتى اطراف المغرب . وكان لها حوض البحر الاسود الى مشارف فيينا ، مع الخليج العربي واليمن . بعد قرنين من ذلك لم تكن تسيطر على غير الاناضول ، وارمينيا مع بلاد الشام والحجاز والعراق ومشارف الخليج ، وتضم في أوروبا شريطا عريضا يمتد من اسطنبول الى البانيا .

(٢) ـ لم يكن اليونانيون مغبونين في النظام العثماني . لكن انتشار الفكر القومي بينهم ، وتشجيع الدول الأجنبية أسرعا بهم الى الثورة عام ١٨٢١ . تدخلت هذه الدول في القضية (مؤتمر فيرونا ١٨٢٢) ، واستنجد السلطان بقوى محمد علي من مصر ، فسحق الثورة

لكن الجيش القديم الانكشاري ثار على السلطان (١٨٠٧) وعزله ، ثم قتله خوفا من أن يعيد أنصاره تنصيبه .

اصلاحات محمود الثاني

لم ينفذ الاصلاح ويلغ نظام الانكشارية حتى عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذي أبادهم بالمدافع (١٨٢٦) وأعاد تشكيل النظام الجديد . ومع أن الجماهير العامة وصغار رجال الدين لم يتقبلوا بالرضى «فرنجة» الدولة ، فان كبار العلماء تقبلوها في اطار مصالحهم ، كما ان فتح المدارس امتص بالتدريج نقمة الناس وزوّد الدولة مع الأيام بالموظفين الاداريين والعسكريين الضروريين . وتمّ احصاء السكان (١٨٣١) لتجنيد الأفراد في الجيش الجديد ، وفرضت الضرائب لتمويله .

٢



٣



٤



٥



(٢) ... (١٨٢٤ — ١٨٢٧) ، لكن التدخل الاجنبي حطم الاسطول المصري . وأعلنت روسيا الحرب ودخلت أدرنة (١٨٢٨) ، وفرضت على السلطان قبول استقلال اليونان الذي تقرر في مؤتمر لندن ١٨٣٢ .

(٣) ـ قصور الحريم السلطانية كانت محوطة بأستار من السرية ، وتعتبر من اختصاص «الآغوات» الخصيان يديرون شؤونها . لكن عددا من النساء الأثيرات لدى السلاطين كن يتدخلن في شؤون الدولة . الصورة لاحدى المحظيات في كامل زينتها وملابسها .

(٤) ـ شعار الدولة العثمانية الظاهر في الصورة منقوش على الحجر في طوب قابي سراي باسطنبول ، وهو يكشف تمجيد العثمانيين للقوة العسكرية ، ولكنه يرمز لها بالأسلحة التقليدية .

(٥) ـ أثار عبد الحميد الثاني (ولد عام ١٨٤٢ ، تسلطن ١٨٧٦ ، خلع ١٩٠٩ ، توفى ١٩١٨) كثيرا من الاختلاف في أمره . تولى الحكم على أساس الدستور ، ولكنه علقه بسرعة ، وتخلص من مدحت «أبي الدستور» ، وحكم بشكل استبدادي ثلث قرن .

وألغي (١٨٣١) نظام التيمار (الاقطاع العسكري) ، كما ألغيت السباهية مع الغاء الانكشارية ، وتحولت الاقطاعات الى أملاك للدولة ، وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد .

عهد السلطان عبد الحميد الثاني

صدرت على فترات ، بعد ذلك ، سلسلة أخرى من الاصلاحات أبرزها : «خط شريف كول خانه» (١٨٣٩) من جانب السلطان عبد المجيد (١٨٨٢ ، حكم ١٨٣٩ — ١٨٦١) ، ثم «خط شريف همايون» (١٨٥٦) . بلغ الاصلاح ذروته بجهود مدحت باشا الذي استطاع اعلان الدستور في مطلع عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦) (٥) . أكد «الخطان الشريفان» المساواة بين رعايا الدولة ، وتمتع غير المسلمين بالحرية

٦ أ



ب

ت

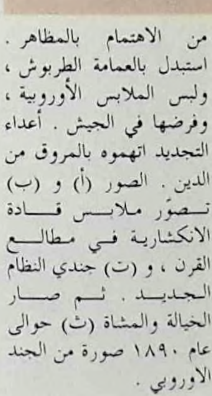


ث





(٦) ـ فكرة الاصلاح التي سيطرت على الدولة العثمانية منذ أواخر القرن ١٨ ظلت تتركز حول الجيش ، الذي كان السبب في عظمة الدولة في مراحلها الأولى ، ثم السبب في ضعفها وهزائمها بفساده . لذلك بدأ سليم الثالث الاصلاح ببناء اسطول حديث ، وتشكيل جيش «النظام الجديد» . محمود الثاني سار على النهج ذاته . زار أوروبا ليجاريها ، واكثر



من الاهتمام بالمظاهر . استبدل بالعمامة الطربوش ، ولبس الملابس الأوروبية ، وفرضها في الجيش . أعداء التجديد اتهموه بالمروق من الدين . الصور (أ) و (ب) تصوّر ملابس قادة الانكشارية في مطالع القرن ، و (ت) جندي النظام الجديد . ثم صار الخيالة والمشاة (ث) حوالى عام ١٨٩٠ صورة من الجند الاوروبي .

الدينية والمساواة أمام القانون وفي الضرائب والوظائف والانتساب للمدارس والخدمة العسكرية . لم تكن هذه الاصلاحات ناجمة عن ايمان بالتحديث ، ولكنها تمت بالدرجة الاولى لارضاء الدول الغربية في أوقات الحاجة . لذلك سرعان ما تخلى السلطان عبد الحميد عنها بزوال الظروف التي ادت اليها ، فأعلن تعليق الدستور (١٨٧٧) وبدأ عهدا من الحكم الاستبدادي المطلق استمر حتى ١٩٠٨ . لكن المعارضة للاستبداد والمطالبة بالاصلاح الجذري أخذت تنمو بقوة ، خاصة في صفوف الطبقة المثقفة . واذا كان من السهل على السلطان ان يضطهد دعاة الاصلاح من المدنيين ، فلم يكن الأمر بمثل تلك السهولة فيما يتعلق بالعسكريين الذين كانوا أول من احتك بالفكر الثوري الأوروبي . لاحظوا قبل غيرهم أن أزدياد الاستبداد رافقه سلخ أجزاء هامة من الامبراطورية العثمانية (٢) وأن السلطان تبنى لتغطية الخسائر ومقاومة الاصلاح سياسة دينية ، واتخذ لقب خليفة ليخدم أغراضه السياسية داخليا ويهدد في الخارج بريطانيا وفرنسا بالمسلمين الموجودين تحت استعمارهما . كان دعاة الاصلاح قد شكلوا (١٨٥٦) الجمعية العثمانية الفتاة التي طالبت بتقييد سلطة السلطان بالدستور . حين علق الدستور (١٨٧٦) ، حل محل هذه الجمعية تنظيم أكثر ثورية (١٨٨٩) عرف بجمعية «تركيا الفتاة» التي كانت نواتها طلاب المدرسة الحربية ، ومركزها سالونيك . شكل أتباعها جمعية «الاتحاد والترقي» التي تمكنت (١٩٠٨) من ارغام السلطان عبد الحميد على اعادة الدستور . ثم اطاحت به (١٩٠٩) لتتسلم الحكم من وراء سلطان ضعيف هو السلطان محمد رشاد . تبنى أفراد هذه الجمعية القومية الطورانية المتشددة التي تنكرت للأخوة الاسلامية وعادت الى الجذور الأثنية للأتراك . هذا ما ألّب ضدها مختلف القوميات الأخرى ، وبخاصة العرب الذين أعلنوا الثورة على العثمانيين (١٩١٦) بزعامة الشريف حسين.

الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى

دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا ، مؤملة أن تضرب نفوذ بريطانيا وفرنسا ، في الشرق الأدنى . استطاع الجيش العثماني بقيادة الألماني فون درجولتز ان يوقف تقدم الجيش البريطاني في جنوب العراق (ابريل ١٩١٦) . لكن الأنجليز تمكنوا بعد ذلك من احتلال بغداد (مارس ١٩١٧) ، كما تمكنوا ، بعد الحرب على القناة ، من الوصول الى القدس (ديسمبر ١٩١٧) . ثم تحركت قوات الثورة العربية من الحجاز ، فاحتلت دمشق (١٩١٨) . لم يثبت الاتراك الا في معارك القفقاس حيث استطاعوا التوغل بسبب انهيار النظام القيصري . لكن اربعة أعوام من القتال الدفاعي أرهقت الدولة . ونشبت الخلافات بين القادة الأتراك والألمان المتحالفين ، وأضطرت تركيا الى توقيع هدنة مودرس (١٩١٨) . واحتل الحلفاء اسطنبول بينما كان زعماء تركيا الفتاة يهربون .

الرسم الواقعي في القرن التاسع عشر

الواقعية هي اللفظة التي استعملت في وصف ابرز اسلوب مميز ظهر في الرسم ، لاسيما في فرنسا ، بين نهاية نمطي الكلاسيكية الجديدة والرومنطيقية وبين بداية « الانطباعية » . وهي تعود بالضبط الى السنوات الممتدة من ١٨٤٠ الى ١٨٧٠ ، مع أن بعض اللوحات ذات النزعة الواقعية رسمت قبل ذلك التاريخ ، وان ذلك النمط استمرّ مزدهرا حتى نهاية القرن تقريبا . من الاحداث الاخرى لهذه الحقبة ظهور الرسم الشمسي .

الاطار الاجتماعي

جاء فن التصوير الشمسي ، وهو ذروة

١



٢



(١) - تدخلنا لوحة «المضرب عن العمل» (١٨٩١) لهوبرت فون هيركومير (١٨٤٩ - ١٩١٤) الى عالم طبقة العمال الصناعيين بواقعية حية . يكشف اسلوبها عن التأثير المباشر للتصوير الشمسي .

(٢) - تقتفي لوحة «يوم الدربي» (١٨٥٦ - ١٨٥٨) لوليم باويل فريث (١٨١٩ - ١٩٠٩) أثر هوجارت ودايفيد ويلكي ، اكثر مما تقتفي أثر الرسامين السابقين للرافائيليين او الواقعيين الفرنسيين . مع ذلك ، جاءت تمثل جانبين بارزين من جوانب الحياة في القرن التاسع عشر ، حيويتها وابتذالها ، كما انها تذكرنا بصورة من صور مجلة معاصرة .

(٣) - في لوحة جوستاف كوربيه ، «اللقاء» (١٨٥٤) ، المعروفة عامة باسم «صباح الخير يا سيد كوربيه» ، يظهر الفنان نفسه يحييه على الطريق صديقه ونصيره الفرد برواياس .

(٤) - عالج جان فرنسوا ميليه بصورة واقعية الحياة في الحقول التي كانت تصور من قبل على شكل «مشاهد الرعاة» . اضاف في لوحة «صلاة الانجلوس» (١٨٥٨؟) عنصرا من العاطفية الدينية .

(٥) - كان وليم هولمان هانت (١٨٢٧ - ١٩١٠) رساما سابقا للرافائيليين . صبّ اهتمامه في «يقظة الضمير» (١٨٥٣) على الاخلاق الشخصية ، فألقى من خلال تلك اللوحة موعظة موجهة الى جمهوره المنتمي الى الطبقة الوسطى حول مساوىء الزنا وشجونه .

الواقعية التصويرية ، تحديا لفن الرسم وصدى له ومؤثرا فيه في آن واحد . في بادىء الامر ، كان الرسم هو المؤثر في التصوير الشمسي بدرجة رئيسية ، اذ بدأ عدد من المصورين الشمسيين الباكرين عملهم كرسامين ، لكن منذ حوالى ١٨٦٠ بدأ التأثير يجري في الاتجاه المعاكس (٩) .

انبثقت الواقعية عن دواع اجتماعية بمقدار ما انبثقت عن دواع جمالية ، الا ان اسبابها لم تكن واحدة في جميع البلدان . ففي بريطانيا مثلا ، حيث ظهرت اولا اذ بدأت قليلا بعد ١٨٠٠ ، كتب لها النجاح بالدرجة الاولى ، لان الفن في القرن التاسع عشر كان قد اصبح للمرة الاولى رائجا حقا في اوساط الجمهور ، بعد ان فقدت مكانتها انماط الرسم التقليدية التي كان تذوقها مقتصرا على فئة مثقفة قليلة العدد .

٣

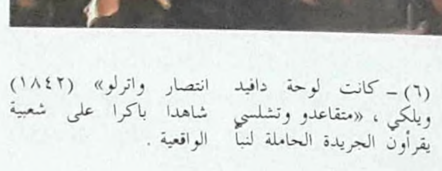
٤





٥

٦





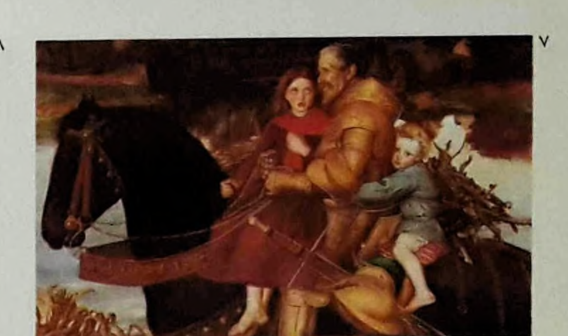
(٦) ـ كانت لوحة دافيد ويلكي ، «متقاعدو وتشلسي يقرأون الجريدة الحاملة لنبأ انتصار واترلو» (١٨٤٢) شاهدا باكرا على شعبية الواقعية .

كذلك كان الفن الجديد الذي حل محلها اشد صراحة (٢) ، ويمثل الاشياء كما هي ضمن حدود مستساغة ، وعلى شكل مبني على النماذج المتعارفة في القرن السابع عشر من الرسم الهولندي والفلاندري ، ومقرون بعنصر قوي من السرد الفكاهي والعاطفي الذي كان يجعل الصورة تقرأ كالرواية .

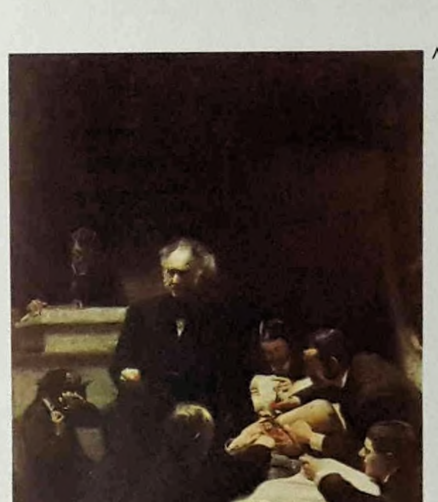
كان رائد الرسم القصصي الشعبي في بريطانيا هو دافيد ويلكي (١٧٨٥ ـ ١٨٤١) الذي انتشر فنه كثيرا في اوساط الجمهور وان كان ينعم برعاية الارستقراطية ، وذلك بفضل المعارض والنسخ المطبوعة .

اما في فرنسا فكان الوضع مختلفا . بدأت الواقعية هنا في وقت متأخر ، ولم تكن نمطا شعبيا ، كما كانت في بريطانيا ، بل على العكس كانت نمطا

٧



٨



٩



(٧) ـ حاولت اخوية قبل الرافائيلية التي تأسست سنة ١٨٤٨ ان تدمج الاخلاص للطبيعة مع طهارة الروح التي عرف بها الرسامون الايطاليون السابقون لرافائيل . تعكس هذه الصفات في لوحة جون ايفيريت ميلاديس «السير ايزوبراس عند مخاضة النهر» (١٨٥٧) .

(٨) ـ اكتشاف المخدرات الطبية والمطهّرات جعل من العمليات الجراحية (غير عمليات البضع) موضوعا صالحا للفن . اغتنم هذه الفرصة توماس ايكنز الأمريكي في «عيادة الدكتور صاموئيل جروس» (١٨٧٥) .

(٩) ـ في اعقاب ١٨٦٠ ، اصبحت المقاهي موضوعا مألوفا لدى الواقعيين ، كما شاع التلاعب بالصورة لاحداث وقع موقت ، وها هي لوحة «في المقهى» (١٨٧٨) لادوار مانيه (١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) خير شاهد على ذلك ، وهي تبين ايضا عودة الحيوية واللون الى الرسم ، بعد ان اخذت تقنية الرسام تتجه نحو الانطباعية .

جديا وملتزما ، والى حد ما ثوريا . ففي حين نشأت الواقعية في بريطانيا ونمت في نطاق « الاكاديمية » ، محور الذوق الرسمي والارستقراطي ، ظهرت في فرنسا الى حد ما كحملة على الفن الرسمي التاريخي ، الذي كانت تتبناه « مدرسة الفنون الجميلة » ، حامية القيم الاكاديمية آنذاك .

تأثير كوربيه

كان الواقعي الفرنسي البارز في تلك الفترة هو جوستاف كوربيه (١٨١٩ - ١٨٧٧) ، الذي عمل من منتصف الاربعينات حتى مطلع السبعينات . كان فنانا بوهيميا واقليميا بشكل عنيف كما كان ديمقراطيا ، ان لم نقل ثوريا ، واستحدث المذهب الذي اصبح فيما بعد شعارا حربيا للمدرسة الواقعية ، والقائل ان على الفنان ان ينتمي الى زمانه .

قلل كوربيه من عنصر السرد ، خلافا للرسامين البريطانيين ، وللمرة الاولى فعلا صوّر الناس العاديين من سكان الريف او العمال تصويرا عاديا . كان ذلك يعدّ خروجا على قواعد اللياقة . وقد اعتبرت بعض صوره ، مثل «اللقاء» (٣) التي يظهر فيها النصير البورجوازي رافعا قبعته للفنان الجوّال (كوربيه نفسه) ، مهينة وولدت كثيرا من الاستياء .

مع كوربيه ، بدأت الواقعية الفرنسية تنزع نزعة سياسية قائمة على الوعي الطبقي ، وتلتزم بمواضيع عنيفة ومخيفة .

كان القرن التاسع عشر أول قرن في التاريخ اتخذ العمل موضوعا جديا للفن ، وعالجه كنشاط متصف بالتفاني ، ومضن في الغالب بارهاقه ورتابته ، خلافا للطريقة الرمزية التي كان يتبعها رسامو حياة الرعاة . من التطورات الطريفة الاخرى التي ظهرت في ذلك الحين التصوير الواقعي لمنجزات وحياة الجراحين والمخترعين في غمرة عملهم (٨) .

الاخلاق والاساطير والتاريخ

كانت الواقعية في هذه الحقبة مرتبطة عموما بالحياة العصرية ، وتعالج مسائل الاخلاق المختصة بالمجتمع لا بالافراد ، لكن كان لكلا هاتين القاعدتين شواذ ، لاسيما في الرسم البريطاني . فهنا كان الاسلوب السابق للرافائيلي نمطا انجليزيا ازدهر في اواخر الاربعينات والخمسينات وطبق الاهداف التصويرية الواقعية على المشاكل الخلقية الشخصية (٥) والمواضيع الدينية (٧) . في كلا الحالين ، كان هذا النمط يحدث احساسا بالدهشة او الصدمة ، شبيها بما تحدثه لوحات كوربيه ، وللسبب ذاته ، وهو ان غرض الفن هو هز متذوقيه واقلاقهم وليس ادخال البهجة على نفوسهم .

أخيرا ، غزت الواقعية بشكل متزايد عالم الرسم التاريخي والاسطوري ، فحولت هذا النمط الذي كان نبيلا وثقافيا من قبل الى رحلة وهمية في ارجاء الزمن الحالي ، كما فعل ادوارد بوينتر (١٨٣٦ - ١٩١٩) وسواه في محاولاتهم المترهلة لاستعادة مشاهد الحياة اليومية التي عرفها اليونان والرومان القدماء في العصور الغابرة .

الانطباعية

كانت الانطباعية بادىء الأمر لفظة ازدراء . فقد استخدمها للمرة الاولى سنة ١٨٧٤ أحد النقاد ، لوروا ، بعد ان اذهلته واستفزته لوحة موني « انطباع ، شروق الشمس » (١) ، التي كانت معلقة في معرض مستقل عرضت فيه ٢٥١ لوحة .

الرسامون الانطباعيون

كان «ابو» الفريق الانطباعي كميل بيسارو (١٨٣٠ - ١٩٠٣) ، وكان من اعضائه ايضا : بول سيزان (١٨٣٩ - ١٩٠٦) ، ابن مصرفي من أيكس آن بروفانس ، وصديق زولا على عهد الحداثة ؛ ادجار ديجاس (١٨٣٤ -

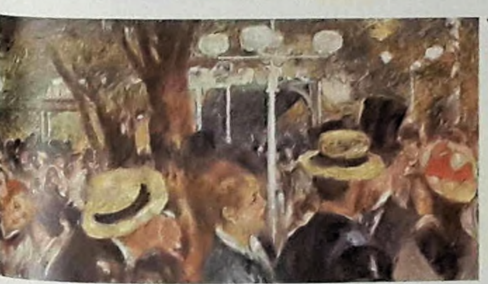
١



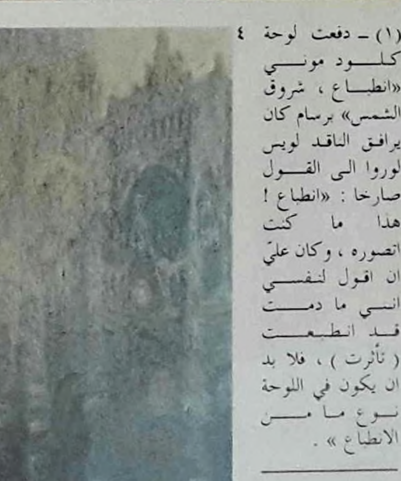
٢



٣



٤



(١) - دفعت لوحة كلود موني «انطباع ، شروق الشمس» برسام كان يرافق الناقد لويس لوروا الى القول صارخا : «انطباع ! هذا ما كنت اتصوره ، وكان عليّ ان اقول لنفسي انني ما دمت قد انطبعت (تأثرت) ، فلا بد ان يكون في اللوحة نوع ما من الانطباع » .

٥



١٩١٧) ، أحد مدمني ميادين سباق الخيل والمسرح واستوديو الباليه ؛ كلود موني (١٨٤٠ ـ ١٩٢٦) ، الذي كان يزدري جميع « الأعلام القدامى » ؛ اوجست رينوار (١٨٤١ ـ ١٩١٩) ، وكان رساما على البورسلين اصلا في مصنع ليموج ؛ الفرد سيسلي (١٨٣٩ ـ ١٨٩٩) ، ابن تاجر انجليزي ثري كان يعيش في باريس ؛ برت موريزو (١٨٤١ ـ ١٨٩٥) ، تلميذة وسلفة ماني ؛ أرمان جيومان (١٨٤١ ـ ١٩٢٧) . كان ادوار ماني (١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) «زعيم» الفريق ، وأحد المؤثرين الاكيدين على الرسامين الصغار في الستينات ، قد رفض عرض آثاره خارج «الصالون» الرسمي .

مع ان الانطباعيين لم يعترف بهم كمدرسة قائمة بذاتها حتى ١٨٧٤ ، فقد كانوا يلتقون ويعملون معا خلال العقد

٦

(٢) ـ يظهر في لوحة اوجست رينوار «الرقص في طاحونة الفطيرة» (١٨٧٦) مشهد من مشاهد ما بعد ظهر الاحد لحفلة رقص في الهواء الطلق على مقربة من احدى طواحين مونمارتر التي ما زالت قائمة . اعتبرت هذه اللوحة حلقة هامة في تاريخ الانطباعية منذ عرضها للمرة الاولى سنة ١٨٧٧ .

---

(٣) ـ تظهر في جزء من لوحة رينوار «الرقص في طاحونة الفطيرة» بقع فاقعة متزاحمة من الاخضر والازرق والاصفر والاحمر ، وقد القيت بسرعة على اللوحة . الاسود مستعمل فيها لا من اجل التظليل ، بل لابراز قبعة عالية ، ولم يوضع الابيض لاحداث اثر من الاشراق ، بل لرسم طوق قميص ، فيما اختلطت الاشكال بمحيطها للتعبير عن نور الشمس المتسرب من خلال اوراق الشجر .

---

(٤) ـ «كاتدرائية روان ، تأثير صباحي» واحد من حوالى ٤٠ مشهدا مماثلا كان قد رسمها كلود موني بحلول ١٨٩٥ . فما بين فبراير ١٨٩٢ ومارس ١٨٩٣ ، استأجر الفنان غرفة تشرف على الرواق الغربي للكاتدرائية ، لكي يسجل ملاحظاته وتخطيطاته في مختلف الظروف المناخية ، وفي اوقات متفاوتة من النهار ، ثم يكمل اللوحات فيما بعد . على غرار عمله في سلاسله الاخرى ، تمكن ، بفضل اختياره لموضوع ثابت ، ان يصب انتباهه كليا على التآليف الشكلية التي تنبثق عن ترجمة تأثيرات الضوء الى الوان .

(٥) ـ بقع منفصلة من اللون الاصلي ، مندمجة بصريا في الالوان الخافتة لصباح ضبابي على نهر السين ، هي ما يظهر في لوحة كميل بيسارو «جزيرة لاكروا ، روان» (١٨٨٨) . في سنة ١٨٨٥ ، شكا بيسارو من ان لوحاته الانطباعية اخذت تجيء «رديئة وداجنة وقاتمة ورتيبة ، ولست راضيا عنها قط» . كان رد فعله على ذلك اقتباس التقنية «التقسيمية» الجديدة لجورج سورا الذي التقاه بواسطة بول سونياك . لم يدم التزام بيسارو بهذا الاسلوب طويلا .

---

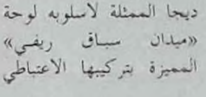
(٦) ـ كانت اول لوحة ضخمة تمثل عدة اشخاص انجزها موني كليا في الهواء الطلق ودون مخططات تمهيدية هي لوحة « نساء في الحديقة » (١٨٦٦ ـ ١٨٦٧) التي رسمها في حديقته الخاصة . يفصح استعماله للاسود والقسمة الحادة بين الضوء والظل عن تأثره الباكر بماني التقليدي .

السابق . تدرب بعضهم معا ، ورسم بعضهم الآخر جنبا لجنب المشاهد الواحدة ، فرسم موني وسيسلي ورينوار في غابة فونتنبلو سنة ١٨٦٤ ، وموني ورينوار في ملتقى الضفادع على مقربة من باريس سنة ١٨٦٩ ، وموني وماني في أرجانتوي سنة ١٨٧٤ (٩) . جمعت بين هؤلاء الفنانين ايضا محنة رفضهم المتكرر من جانب « الصالون » ، مما جعل بيعهم للوحاتهم عسيرا جدا . أضف الى ذلك انه لم يحظ اي منهم ، باستثناء ديجا ، بالثقافة المعترف بها من جانب « الصالون » ، والتي كانت تؤمنها « مدرسة الفنون الجميلة » .

الاسلوب والموضوع

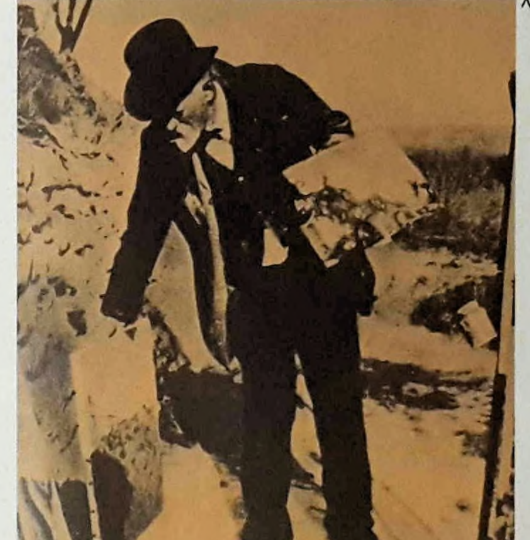
رفض الانطباعيون تصوير الاحداث التاريخية على طريقة ج.ل. دافيد ، او

٧



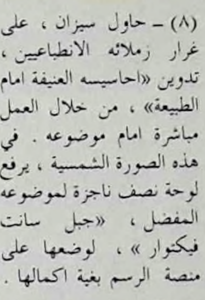
(٧) - من لوحات ادجار ديجا الممثلة لاسلوبه لوحة «ميدان سباق ريفي» المميزة بتركيبها الاعتباطي « ولقطاتها الفوتوغرافية » للحصان والعربة والعلاقة المكانية القلقة بين المقدّم والخلفية .

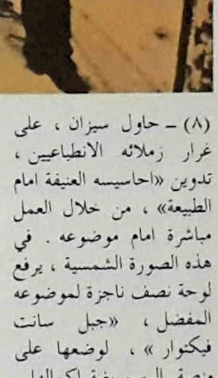
٨

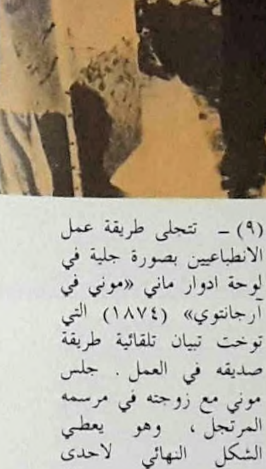


(٨) - حاول سيزان ، على غرار زملائه الانطباعيين ، تدوين «احاسيسه العنيفة امام الطبيعة» ، من خلال العمل مباشرة امام موضوعه . في هذه الصورة الشمسية ، يرفع لوحة نصف ناجزة لموضوعه المفضل ، «جبل سانت فيكتوار » ، لوضعها على منصة الرسم بغية اكمالها .

٩







(٩) - تتجلى طريقة عمل الانطباعيين بصورة جلية في لوحة ادوار ماني «موني في آرجانتوي» (١٨٧٤) التي توخت تبيان تلقائية طريقة صديقه في العمل . جلس موني مع زوجته في مرسمه المرتجل ، وهو يعطي الشكل النهائي لاحدى لوحاته دون اي مخطط تمهيدي .

المشاهد الطبيعية المفعمة بالمثالية على طريقة كلود وبوسان . بل اختاروا على العكس مواضيع يومية من منطقة باريس ونورمانديا : فرسم ديجا ميادين سباق الخيل (٧) ، ومونى مشاهد من ضفاف نهر السين او داخل محطات القطار ، ورسم رينوار اشخاصا بألوان مرقطة (٢،٣) . لكن سيزان شذّ (٨) عن القاعدة برسمه مشاهد من مقاطعة البروفانس . هذه المشاهد كان ممكن للفنان معاينتها مباشرة ورسمها توّا ، مما جعل الالتجاء الى الخيال غير وارد والتأليف المدروس مستحيلا . كانت لوحاتهم انطباعات ، « بمعنى انها لم تكن تصوّر المشهد الطبيعي ، بل الاحساس الذي يولّده المشهد » . لم يكن ذلك ابتكارا بكل معنى الكلمة . فقد رسم كوربي (١٨١٩ ـ ١٨٧٧) قبلهم مواضيع من الحياة اليومية . كذلك مارس الرسم المباشر فنانون فرنسيون في القرن الثامن عشر ، من طراز كلود جوزيف فيرني وفالنسيين ، فضلا عن كورو (١٧٩٦ ـ ١٨٧٥)وكونستابل(١٧٧٦ ـ ١٨٣٧) .

كان الفنانون التقليديون العاملون في مرسمهم يرسمون الضوء كلون واحد . اما الانطباعيون العاملون في الهواء الطلق ، فقد ادركوا ان الضوء ـ سواء كان عابرا ، كما يراه رينوار ، او مضخما للاشكال الازلية ، كما يفهمه سيزان ـ انما يتألف من الوان . فاستغلّوا هذا الاكتشاف الجديد ، وعدلوا الالوان بسرعة واكثروا منها .

أحدث التطورات والتغيرات

استغرق الاسلوب الانطباعي بعض الوقت قبل ان ينضج . فحينما كان مونيه مثلا يرسم في الستينات لوحته « نساء في الحديقة» (٦) ، كان اكثاره من ضربات الفرشاة السوداء العريضة يعوق التعبير عن حركة الضوء ، بينما نرى ، اذ اخذ موني يرسم في السبعينات لوحته « انطباع ، شروق الشمس » وبيسارو « مدخل قرية فوازان » ، ان الاسلوب الانطباعي قد بلغ رشده بضربات الفرشاة الشبيهة بالفواصل ، والاستغناء عن الاسود لاداء الظل ، والمجابهة المباشرة للموضوع .

لكن السنوات الاولى من الثمانينات شهدت تصدع وحدة الاسلوب لدى الفريق الانطباعي . فقد شكك زعيمهم الباكر زولا فيما اذا كان باستطاعة « الطبيعة المشاهدة من خلال المزاج » ان توفر مادة كافية للعمل الفني الرائع . بقي سيسلي وجيومان وموريزو محافظين على الاسلوب ، الّا ان موني راح يتحرى مواضيع جديدة والوانا اسطع على الشاطىء اللازوردي (الكوت دازور) ، وباشر فيما بعد بلوحاته « المتسلسلة » (٤) . كذلك بدأ سيزان في بروفانس تحليلا عميقا للعلاقة بين اللون والشكل ، وافضى برينوار انشغاله الدائم بالجسم البشري الى اكتشاف الصفات الشكلية للجسم العاري الكلاسيكي . قصر ديجا تآليفه على تمارين في التشكيلات ذات البعدين ، واقتبس بيسارو لفترة وجيزة تقسيمية جورج سورا (١٨٥٩ ـ ١٨٩١) الذي كان رسمه كناية عن اشكال لبقع من اللون الصرف ، والذي استنبط تحليله العلمي للضوء من صلب « الانطباعية الجديدة » (٥) .

الأوبرا في القرنين التاسع عشر والعشرين

عند منعطف القرن التاسع عشر ، شجع تكاثر الجمهور من الطبقة الوسطى الذي يرتاد حفلات الموسيقى على اقامة تلك الحفلات في دور الاوبرا . فنجمت عن ذلك ضرورة توسيع السجل الموسيقي ، مما حمل عددا من المؤلفين على التخصص بالاوبرا للمرة الاولى .

الاوبرا الجدية والهزلية

بقيت تمثيليات الاوبرا الجدية والهزلية التقليدية منفصلة بعضها عن بعض ، ولكن كان كلا الصنفين يعرضان آنذاك بانتظام في دار الاوبرا . مع الزمن ، اخذ الطابع الدرامي لهذا الصنف من التمثيل يعكس ،

٢

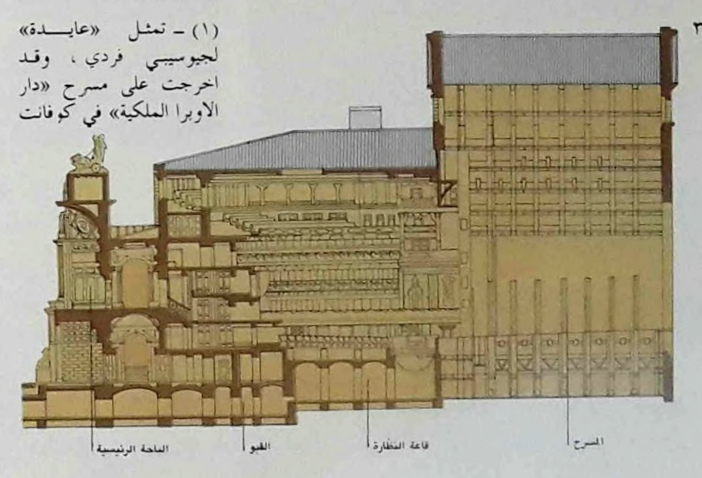


١



(١) - تمثل «عايدة» لجيوسيبي فردي ، وقد اخرجت على مسرح «دار الاوبرا الملكية» في كوفانت جاردن ، ذروة ازدهار الاوبرا الايطالية في القرن التاسع عشر ، وذلك بمشاهدها والوانها ومثلثها الغرامي الدرامي وخاتمتها المأساوية ، وكلها قد تكثفت بفعل موسيقى فردي ذات الدرامية الفذة . امر خديوي مصر بتأليف هذه الاوبرا لتكون عملا مهرجانيا للاحتفال بافتتاح قناة السويس ، ومثلت للمرة الاولى في القاهرة سنة ١٨٧١ . تجري احداثها في مصر القديمة وتروي قصة فتاة حبشية ووقوعها في غرام ضابط في الجيش المصري غرر بها حتى خانت بلادها .

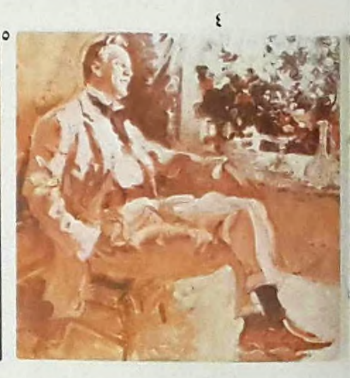
٣



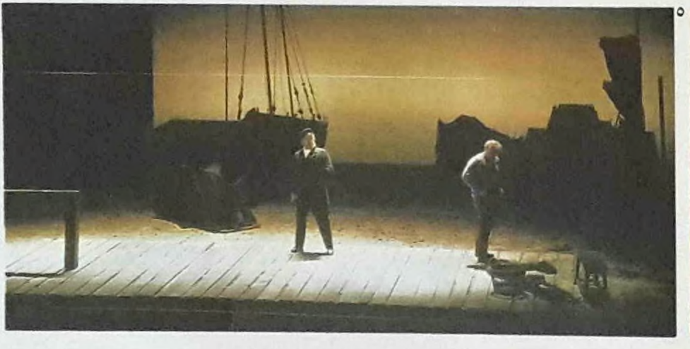
ولو بصورة خفية ، الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة ، كتوحيد ايطاليا المنشود في آثار جيوسيبي فردي (١٨١٣ ـ ١٩٠١) ، والتقاليد القومية في اعمال الاوبرا الروسية لموديست موسورجسكي (١٨٣٩ ـ ١٨٨١) وميخائيل جلينكا (١٨٠٤ ـ ١٨٥٧) ، او في آثار بدريش سميتانا (١٨٢٤ ـ ١٨٨٤) البوهيمي . ظهر آخر الامر نهج اكثر واقعية في اوبّراوت بيترو ماسكاني (١٨٦٣ ـ ١٩٤٥) «الواقعية» وروجييرو ليونكافالّو (١٨٥٨ ـ ١٩١٩) وجياكومو بوتشيني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤) .

حينما ألف فولنجانج أماديوس موزار (١٧٥٦ ـ ١٧٩١) سنة ١٧٩١ ، وهي آخر سني عمره ، اوبرا جدية بالايطالية : «رحمة تيتو» ، واوبرا هزلية او «اغنية تمثيلية» بالالمانية : «الناي المسحور» ،

٤



٥



(٢) ـ نعمت ادلينا باتي (١٨٤٣ ـ ١٩١٩) ، السوبرانو التلوينية المولودة في مدريد ، بسيرة غنائية امتدت حوالى ٦٠ سنة ، وهي تظهر هنا في دور مارجريت في «فاوست» من اعمال جونو . نودي بهذه الفنانة كآخر «مغنية اولى» في سلسلة عظيمة من كبار المغنيات اللواتي حظيت بهن الاوبرا في القرن التاسع عشر . برزت في دور روزينا في «حلاق اشبيليا» ، وقد كان روسيني نفسه هو الذي وضع لها ترتيب الموسيقى .

(٣) ـ جرى تصميم وبناء دار دريسدن للاوبرا بين ١٨٧١ و ١٨٧٨ ، لتحل محل بناية هدّمت لهذا الغرض . كان عدد من دور الاوبرا التي بنيت او اعيد بناؤها في القرنين الثامن والتاسع عشر (لاسكالا في ميلان ١٧٧٨ ، ودار الاوبرا الملكية في كوفانت جاردن ١٨٥٦) قد صممت على غرار المخطط الايطالي القديم ، المؤلف من صفوف من المقصورات المحيطة بالقاعة .

(٤) ـ احرز فيودور تشاليا ـ بين (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) ، الجهير الروسي العظيم ، شهرة عالمية في دور بوريس جودنوف في الأوبرا المسماة بهـــذا الاسم لموسورجسكي ، وقد كان اول من قام بتمثيلها خارج روسيا . جلبت له تأديته القوية وصوته الرنان ادوارا عالمية اولى في «دون كيشوتي» لماسّنيه و «خوفانتشينـــــا» لموسورجسكي . اصبح بحكم نجاحه في نيويورك ابان العشرينات الفائتة موضع اعجاب مثل كاروزو .

(٥) ـ فازت أوبرا «بيتر جريمز» لبانجمين بريتن بنجاح خارق في انحاء اوروبا وامريكا ، منذ تمثيلها للمرة الاولى سنة ١٩٤٥ ، ودشنت اهتماما جديدا بالاوبرا البريطانية . بنيت هذه الاوبرا على قصيدة لجورج كراب ، وكان البطل الرئيسي فيها الصياد بيتر جريمز ، الذي يبدو هنا مع ربان متقاعد اسمه بالسترود . يجسد جريمز شخصية تعاني الغربة في وسط مجتمعها الخاص ، وينعكس الوضع بوضوح في موسيقى بريتن الغنائية التي كانت جذابة بالرغم من اقتضابها .

كانت هذه الاوبرا الاخيرة ، التي استخدمت عناصر الغموض والسرية والفكاهة الشعبية فضلا عن اللغة الدارجة ، هي التي مهدت السبيل للتطورات اللاحقة في الاوبرا الالمانية ، المقترنة بالحرص على وحدة الموسيقى والدراما . ساهم لودفيغ فان بيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧) في اوبّراه الوحيدة «فيديليو» (١٨٠٥) مساهمة المانية جدية فعلا ، ولكنه كتب لفيبر (١٧٨٦ – ١٨٢٦) ، بلمسته الرشيقة في «القناص» (٦) ان يقوم بمهمة اعداد التراث الذي سينهل منه فاجنر (٨) .

تأثير روسّيني

كان على هذا النمو الالماني الناشىء في شتى فروع الاوبرا ان يكافح ضد الهيمنة الايطالية التقليدية وبصورة خاصة ضد الولع

٦

٨

(٦) – كان صب القذائف السحرية في « وادي الذئب » اشهر مشهد في اوبرا كارل ماريا فون فيبر ، «القناص» . تعتبر هذه الاوبرا ، التي تعني حرفيا القناص الذي يستعمل قذائف سحرية ، عملا رائدا في الحقبة الرومنطيقية ، وهي تمتاز بتأثيرات فيبر الاوركسترائية ، لاسيما اثناء التصرف الفظيع في المشهد الظاهر في الصورة .

٧



(٧) – «لولو» لألبان بيرج (١٨٨٥ – ١٩٣٥) هي احدى الاوبراوات الرئيسية في القرن العشرين ، وهي تروي قصة لولو المومس التي تقع آخر الامر ضحية «لجاك السفاح» في احد شوارع لندن . كتبت موسيقاها على نمط الايقاع الاثني عشري الذي ابتكره أرنولد شونبرج (١٨٧٤ – ١٩٥١) ، استاذ بيرج ، ولم تكن قد اكملت عند وفاة بيرج ، بل كان قد نشر منها مشهدان فقط من ثلاثة مشاهد ، وقد مثلت وهي كذلك بعد سنتين . يواصل بيرج في هذه الاوبرا اهتمامه بالكائنات البشرية الواقعة فريسة للاضطهاد .

(٨) – يصل الفـارس لوهنجرين في مركب تجره بجعة في مشهد من تمثيلية لوهنجرين من تأليف ريتشار فاجنر ، عرضت لاول مرة في فايمار سنة ١٨٥٠ بقيادة فرانز ليست . تمثـل «لوهنجرين» مرحلة وسطى في تطور موسيقى فاجنر . فهي آخر حلقة من سلسلة اوبراواته المحتوية على عناصر تقليدية من الاوبرا الجليلة ، بينما سوف تمثل اعماله اللاحقة ، وهي «تريستان وأيزولدي» و«المغنـون الأعلام» و«النيبلونـج» و«بارسيفال» ، افكـاره الخاصة بالاوبرا كدراما موسيقية متواصلة ذات ايقاع لا ينتهي .

السائد بموسيقى جيواكينو روسّيني (١٧٩٢ - ٢٨٦٨)، التي كانت قد غزت دور الاوبرا الاوروبية في اوائل القرن. فأعماله «حلاق اشبيلية»، «والفتاة الايطالية في الجزائر»، و«سندريلا»، هي شواهد على طريقته الفذة في تنظيم الاوركسترا وتأليف الموسيقى الصوتية الباهرة.

الاوبرا الجليلة وما بعد

في حين كانت تقاليد الاوبرا الهزلية في فرنسا واقعة تحت تأثير روسّيني الكبير، وجدت تقاليد الاوبرا الجليلة مجالا لتجليها منذ ١٨٣٠ في آثار جياكومو مايربير (١٧٩١ - ١٨٦٤). وكردة فعل على الفخفخة التي ستتصف بها اوبراواه «الهوجينوت» «والنبي»، ظهر اسلوب غنائي في الاوبرا في الخمسينات تمثل في شارل جونو (١٨١٨ - ١٨٩٣) وجول ماسينه (١٨٤٢ - ١٩١٢). اما هيكتور برليوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩) فكان يسلك في ذلك الوقت طريقا مستقلا.

في هذه الاثناء وفي ايطاليا سنة ١٨٤٢، ظهر على المسرح «نابوكو»، وهو اول اثر رئيسي لفردي، فاصبح اسم هذا الموسيقي مقترنا بقضية توحيد ايطاليا. في الوقت نفسه، اخذت اعماله الاوبراوية تكشف عن عنف عاطفي ونفاذ بصيرة بسيكولوجي، وقد قيض لهذه الصفات ان تبلغ ذورتها في اعماله الدرامية الرائعة: «ريجوليتو» و «التروفاتوري» و«لاترافياتا» وكثير سواها.

في روسيا، تفتق التشديد الباكر على الاوبرا القومية، الذي كان قد بدأه جلينكا، في اعمال اسكندر بورودني (١٨٣٤ - ١٨٨٧)، نيقولاي ريمسكي كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨)، موسورجسكي، بيتر اليتش تشايكوفسكي (١٨٤٠ - ١٨٩٣) الذي ألّف عشر اوبراوات. كانت «كارمن» للمؤلف الفرنسي جورج بيزيه (١٨٣٨ - ١٨٧٥) عملا رئيسيا اخر، استهل تيار الواقعية في اعمال الاوبرا. في الوقت ذاته، عارض فرنسي آخر، هو كلود ديبوسّي في «بيلياس وميليزاندي»، الاوبرا الفاجنرية.

بعد ديبوسّي، كتب للقرن العشرين ان يشهد تنوّعا كبيرا في التقنيات والاساليب الاوبراوية. ومع تبدد الاحتكار الايطالي، اخذت اعمال الاوبرا تظهر في جميع اللغات، وراح بعضها، مثل اعمال ريتشارد شتراوس (١٨٦٤ - ١٩٤٩) وليوس ياناتشيك (١٨٥٤ - ١٩٢٨) وسيرجي بروكوفييف (١٨٩١ - ١٩٥٣) يتجه اتجاهات قومية، بينما راح بعضها الآخر يعود حتى الى الاعمال الكلاسيكية، كما فعل ايجور سترافينسكي (١٨٨٢ - ١٩٧١) في اوبراه الاوراتوريو «اوديبوس الملك» الصادرة باللاتينية. كانت عملية العرض تتراوح بين البساطة (شخصان في «قلعة ذي اللحية الزرقاء» لبيلا بارتوك (١٨٨١ - ١٩٤٥) وبين تمثيل مدينة بكاملها في «المهاجوني» النقدية لكورت فايل (١٩٠٠ - ١٩٥٠). بنى بنجامين بريتين (١٩١٣ - ١٩٧٦) شهرته كمؤلف اوبرا من ارفع طراز عالمي على اوبرا «بيتر جرايمز» (٥).

فن العمارة الأوروبيّة في القرن التاسع عشر

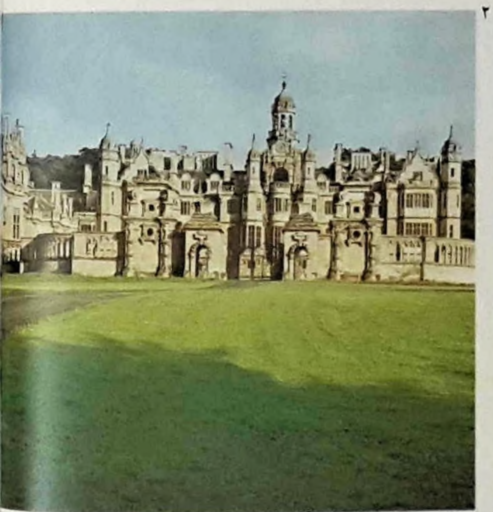
كان التقدم الصناعي مزية القرن التاسع عشر الرئيسية*، وقد رافقه تزايد في عدد السكان والبحبوحة ، وهي عوامل ادت الى ازدهار البناء . فقد شيّد عدد من المباني في هذا القرن اكثر مما شيّد في اي قرن مضى ، ونشأت نماذج حديثة ، واستخدمت مواد جديدة ، وتنافست عدة اساليب ونظريات معمارية . فضلا عن ذلك ، ظهر انسان محترف جديد ، هو المعماري .

في القرن الثامن عشر ، بوشر بتبويب الاساليب المعمارية ، الى جانب تسجيل الآثار اليونانية والرومانية بعناية . اتسعت هذه العملية في القرن التاسع عشر ،

١



٢



٣



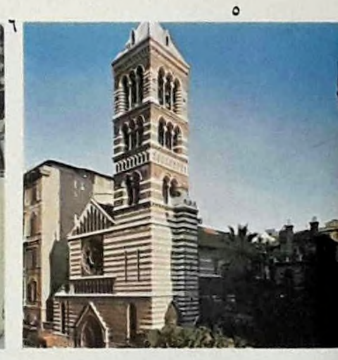
٤



فشملت المباني القوطية ومباني النهضة الايطالية والنهضة الشمالية والمباني البيزنطية . وهكذا غدا من الممكن لجورج جيلبرت سكوت سنة ١٨٥٧ ان ينقل تصميمه القوطي المعدّ لبناية وزارة الخارجية بلندن (١) الى بناية من نمط النهضة الايطالية كانت احب الى وزير الخارجية اللورد بالمرستون .

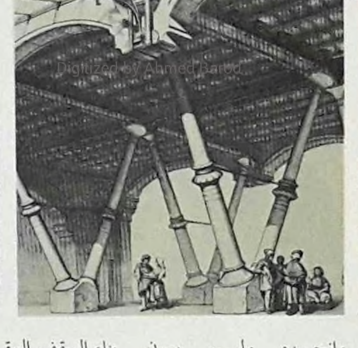
لم يكن انتقاء النمط مسألة ذوق شخصي قط ، اذ كان للانماط ملابساتها . فالمباني التجارية كانت في الغالب من نمط النهضة الايطالية ، للتذكير بثروة الاسر الايطالية ، امثال آل مديتشي . كذلك شيدت بنايتا البرلمان في لندن ، اللتان صممهما شارل باري (١٧٩٥ – ١٨٦٠) واغسطس ولبي بيوجين (١٨١٢ – ١٨٥٢) ، على طريقة القوطي العمودي لتعكسا تلك الفترة التي اخذت فيها هذه

٥





٦



٧

(١) – أدى نمو هيبة بريطانيا في مجال الشؤون الخارجية في القرن التاسع عشر الى ظهور حاجة ماسة الى مبنى وزاري جديد . في المباراة المعمارية التي اقيمت سنة ١٨٥٧ ، فاز جورج جيلبرت سكوت (١٨١١ – ١٨٧٨) بتصميمه القوطي الذي جرى تغييره فيما بعد الى نمط من انماط النهضة الايطالية .

(٢) – موّلت الثروة الجديدة المستمدة من الحديد الخام بناء مزرعة هارلكستون في لنكولنشاير بانجلترا . بدأ ببناء هذه المزرعة انطوني سالفين (١٧٩٩ – ١٨٨١) وانجزه وليم بورن (١٧٨٩ – ١٨٧٠) .

(٣) – لم يكن جيمس بوجاردوس (١٨٠٠ – ١٨٧٤) معماريا او مهندسا ، بل بنّاء ومخترعا . بنى في نيويورك سنة ١٨٤٨ معملا له من اربع طبقات صنع من حديد السكب الذي جرى تجميعه في موقع البناء . تلا ذلك صيدلية من اربع طبقات ، ثم مخازن لينج البادية في الصورة .

(٤) – استخدم حديد السكب المكشوف كارل أتزيل في ديناياد بفيينا (١٨٤١ – ١٨٤٣) لاكمال بناء السقف المقبب «للقوس الالماني المستدير» .

(٥) – بنى كنيسة القديس بولس الأمريكية بروما (١٨٧٢ – ١٨٧٦) جورج أدموند ستريت (١٨٢٤ – ١٨٨١) تلبية لحاجات الجالية الامريكية الدينية . يراعي نمطها القوطي الايطالي متطلبات الموقع ، ويتناسب في الوقت نفسه مع مذهب راسكين القائل بأن النمط القوطي هو انسب الانماط لبناء الكنائس .

(٦) – وصف فيولي ليدوك مشروعه لردهة أحد الاسواق في كتابه «أحاديث حول فن العمارة» (١٨٦٣ – ١٨٧٢) . نادى في هذا الكتاب بترك الحديد المسكوب مكشوفا في الاعمدة ودعائم السقوف .

(٧) – تمثل برودليز بوندرمير في انجلترا (١٨٩٨) نمطا من العمارة المنزلية الريفية ابتكره س.ف.أ. فويزي باقامة صلة عضوية بين المنازل وجوارها الطبيعي . في برودليز ، الحجم مريح ، والنوافذ الممتدة على طول الواجهة الجنوبية الغربية تسمح بالاضاءة القصوى وتفتح المجال لمشاهدة المنظر ، وجناح الخدمة مخبا بلباقة .

المؤسسة تحرز شأنا هاما .

صرح آوجين ايمانويل فيوليه ليدوك (١٨١٤ – ١٨٧٩)، المعماري الفرنسي والمجدد والمنظر القوطي ، بقوله : «ان الاعتقاد بأنه يمكن ابداع الجمال عن طريق الكذب هو هرطقة» . وقد نادى بهذه الرابطة الخلقية بين العمارة الجميلة والعمارة الصادقة بوجين وجون راسكين (١٨١٩ – ١٩٠٠) .

الحقيقة والأمانة

في نظر فيوليه ليدوك ، تقوم العمارة الصادقة على الاستعمال الامين للمواد : «فالحجر يجب ان يبدو حقيقة كالحجر ، والحديد كالحديد والخشب كالخشب » . لذا يجب ان لا تكسى أعمدة الحديد بالحجر ، بل تترك مكشوفة ومنسجمة مع التصميم العام . هذه الفكرة تجلّت في مشروعه الخاص بردهة احد

٨

(٨) – كانت المباريات المعمارية المقامة في القرن التاسع عشر حول المشاريع البنائية الكبرى تعكس ذلك الايمان بامكانية تحقيق الكمال الذي خلقه في النفوس ازدهار الاقتصاد الحر والرغبة في تحمل التبعة الاجتماعية والروح المهنية الجديدة في معظم الميادين . في مايو ١٨٦٥ ، دعي المعماريون من جانب شركة سكة حديد ميدلند لتقديم تصاميم لفندق ميدلند الكبير ومكاتب لمحطة سانت بانكراس بلندن . انطوى الملف المعقد على تصميم بناية من شأنها ان تحجب سقيفة محطة القطارات التي كانت قد اقيمت قبل ذلك بسنتين ، وعلى تخطيط لنوع من البناء كان قد ظهر حديثا ، هو الاوتيل الكبير . فاز جورج جيلبرت سكوت بالمباراة في يناير ١٨٦٦ ، بتصميمه الفخم .(الذي يبدو هنا في خلفية الصورة) ، مع انه اضاف طبقتين الى المطلوب ، وكان اكثر العروضات كلفة . لا شك أن الشركة ارادت من وراء ذلك ان ترويج لخدماتها .



٩

(٩) – بني متحف ريجك بامستردام (١٨٧٧ – ١٨٨٥) لحفظ مجموعة الدولة الفنية . صممه ب.ج.هـ. كويبرز (١٨٢٧ – ١٨٨٥) ، أحد زعماء حركة اصلاح الفنون والحرف الهولندية في القرن التاسع عشر .

الاسواق (٣) ، وفيما بعد على يد هيكتور جيمار (١٨٦٧ - ١٩٤٣) في «مدرسة القلب الاقدس» بباريس (١٨٩٥) . ذهب راسكين الى ان العمارة «الفاضلة» (اي الجميلة والصادقة) لا يمكن ان يصنعها الا معماري «فاضل» يعكس نتاجه مجتمعا «فاضلا» . اما التعبير المادي عن هذا المبدأ المجرد ، فيمكن مشاهدته حسيا في برنامج البناء الواسع النطاق للكنائس القوطية من «النمط العالي» ، مثل كنيسة القديس بولس لجورج ادموند ستريت بروما (٥) ، وفي متحف الجامعة باكسفورد (١٨٥٥ - ١٨٥٩) .

اخيرا ، كان التصميم «الفاضل الامين» ذلك الذي لعب دورا هاما في تحرير تخطيط المنازل وارتفاعها ، هذا التحرير الذي باشر به في بريطانيا نورمان شو (١٨٣١ - ١٩١٢) وفيليب ويب (١٨٣١ - ١٩١٥) وشارل فويزي (١٨٥٧ - ١٩٤١) ، فأصبح من الممكن للمنازل المثالية ان تبنى بحرية في تصاميم ارضية غير متناظرة وعلى ارتفاعات معتدلة ، مثل تلك التي يشاهدها المرء في برودليز عند بحيرة ويندرمير بانجلترا (٧) .

مواد البناء الجديدة

لم تثر حركة التصنيع الاهتمام بنوعية المجتمع وعمارته وحسب ، بل ادخلت ايضا مواد بناء جديدة ، مثل الحديد المسكوب والمصنّع ، والفولاذ ، وصفائح الزجاج ، وقطع الآجر الخفيفة غير القابلة للاحتراق . سمحت هذه التجديدات ببناء روائع «هندسية» مثل جسر كليفتون المعلق ببريستول (١٨٣٠ - ٦٤) لصانعه ايزامبارد كنجدوم برونيل (١٨٠٦ - ١٨٥٩) ، وجسر بروكلين بنيويورك (١٨٦٩ - ١٨٨٣) لجون أ. روبلنج ، وسوق «الهال» بباريس (١٨٥٣ - ١٨٥٨) (التي هدمت حديثا) لفيكتور بالتار . كذلك سمحت بتشييد مبان «معمارية» ايضا ، مثل دياناباد بفيينا (١٨٤١ - ١٨٤٣) (٤) لكارل أيتزيل ، وغرفة المطالعة في المكتبة الوطنية بباريس (١٨٦٢ - ١٨٦٨) للمعماري هـ. ب. ن. لابروست .

من جهة اخرى ، جعلت التغييرات التي طرأت على المجتمع انماط المباني التقليدية تصبح اضخم واوسع واكثر امتدادا وتخصصا . فمع الاهمية والتعقيد المتزايدين للحكومات المركزية والمحلية كان لا بد للمكاتب الحكومية ودور البلديات ان تصبح مباني عامة ضخمة وواسعة . وعلى هذا قام فيسكونتي ولوفويل بتوسيع اللوفر بباريس على نمط باروكي متجدد سنة ١٨٥٢ - ١٨٥٧ ، في حين اقدم الفريد ب. موليت ، عبر الاطلسي، على تزيين واشنطن العاصمة ، بتشييد بناية دائرة الحربية والبحرية على النمط الروماني المتجدد .

محطات القطار

كان من اهم تطورات العصر ظهور سكة الحديد . فقد ارتفعت محطات القطار ، وهي رموز للعصر الصناعي الجديد ، في جميع انحاء العالم .

الفن الصيني حتى القرن العشرين

مع استتباب الأمر لسلالة المينج بعد عام ١٣٦٨ ، مرّ المجتمع الصيني بطور من النهضة تجلّى بصورة خاصة في الفنون . فنمطها في القرون الثلاثة التالية كان من الجرأة والعظمة بحيث يذكّر بفن سلالة التانج ؛ وفي القصر الامبراطوري (المدينة الحرم) (٨) وأضرحة بكين الامبراطورية الكثير من مقومات هذا النمط . تشهد المباني الضخمة وجادات المواكب الاحتفالية على الثقة بالنفس ودقة الحس لدى المصممين .

الفنون في عهد سلالة المينج

ازدهرت الفنون التطبيقية أيضا ، ابان

١



٣



(١) ـ أصبح تاي تشين ، وهو من أهل تشيكيانج ، أحد فناني البلاط لفترة قصيرة ، لكنه أبعد الى هانجتشو ، حيث رسم معظم آثاره الرئيسية . وهو يعتبر زعيم مدرسة « تشي » . عنوان هذا الطامور اليدوي ، المرسوم بالحبر والألوان على الورق ، « صيادو السمك عند النهر » .

٢



(٢) ـ كان البورسلين الأبيض يصنع على انماط عديدة ، ويزخرف بالكوبالت والنحاس تحت

القرون الأولى من حكم سلالة المينج بوجه خاص . كان « اللاكر » المنقوش البديع يصنعه كبار المعلمين في مشاغل صغيرة ، فيما كانت صناعة الخزف على عكس ذلك قد بلغت درجة الانتاج الضخم (في مصانع كبرى) ، وأخذت تتركز في منطقة الأفران في تشنج تي تشين بكيانجسي .

لم تكن الخزفيات رائجة في السوق الداخلية وحسب ، بل كانت تجارتها الخارجية أيضا تتصاعد بسرعة . أدّى الولع بالبورسلين المزخرف الى ظهور تقنات لم تكن معروفة من قبل . فقد جرى ، أولا ، اتقان الطلاء التحتي بالأزرق الكوبلتي (٢) بعدة اساليب ؛ وثانيا ، بحلول القرن السادس عشر ، أدت الأطلية الملونة المشوية على نار خفيفة ، والمدهونة فوق طلاء البورسلين الأصلي ، والمشوية بعد

٤

٥



٦



الطلاء ، كما في هذا الدن للزيت المصنوع في القرن الرابع عشر في تشينج تي تشين ، بكيانجسي . كانت التقنات الحفرية تسمح في الغالب بصنع اناء مزخرف صغير داخل الدن .

(٣) ــ التزم وو تشانج شيه (١٨٤٢ ــ ١٩٢٧) طريقة الحبر العريض الشائعة في أواخر القرن التاسع عشر ، ورسم المواضيع الشائعة ، وهي العصافير والزهور .

(٤) ــ تمّ تصميم هذا الاناء الخاص بالفراشي من البامبو ، لاحتواء أقلام العالم الفنان وفراشيه ، وهو من حفر تشو سان سونج من القرن السادس عشر .

(٥) ــ كان شين تشو ينتمي الى أسرة من العلماء . في البدء اقتفى آثار الرسام هوانج كونج وانج ، ولكنه استحدث فيما بعد أسلوبه الخاص البسيط . هذه الصفحة من ألبوم صور ، وهي مرسومة بالحبر ، تحمل عنوان « الشاعر يغني في الجبل » .

(٦) ــ درس فو باو شيه (١٩٠٤ــ ١٩٦٥) ، وهو أحد كبار الرسامين الصينيين في القرن العشرين ، في اليابان في الثلاثينات ، وقد أحدث تأثيرا كبيرا حينما كان استاذا في اكاديمية نانكينج للفنون . هذه هي احدى لوحاته بعنوان « عالم بحاثة في مكتبه » .

ذلك مرة ثانية ، الى انتاج تلك الآنية المزخرفة المتعددة الألوان ذات الشهرة المتزايدة . كذلك أعطت المينا المفرّغة مفعولا زاهيا للأجسام المعدنية . كانت هذه التقنة ، وهي قديمة في الصين ، قد جاءت أصلا من الشرق الأدنى . اما النقش اليشبي الرائع في بساطته ، فقد كان لا يزال نادرا في هذه الحقبة ، لكنه كان ينم في اسلوبه عن بعض التجانس مع « اللاكر » في أوائل عهد المينج . في السنوات اللاحقة من تاريخ تلك السلالة ، جرى تقدم في اتجاه التعقيد ، تمثل في اللجوء الى الترصيع والتلبيس بالحجارة النفيسة فوق اليشب والبورسلين .

كانت الفنون الجميلة في عهد المينج تعكس أذواق ومكانة طبقة المثقفين . فبعد ان ظهرت عدة أنماط من الرسم في أول عهد السلالة ، أقدم البلاط على اعادة

٧



٨



٩



(٧) ـ كان تشبنج مينج على رأس مجموعة بارزة من الرسامين من أهل تسانج تشو . كانت طريقته أنيقة وزخرفية في آن واحد ، وكان من مواضيعها أيضا الموضوع الشعبي الظاهر هنا « اليامبــو والدفلاء » .

(٨) ـ تقع « المدينـــة الحرم » ، وهي بلاط اباطرة المينج ، ضمن مجمع مستطيل ضخم من الابنية يحيط به جدار وخندق ماء . المحور المركزي الشمالي الجنوبي مؤلف من سلسلة من قاعات الاجتماعات الضخمة التي تقوم الى جانب كل منها ممرات صغرى تحيط بها باحات فسيحة ومماش مدرجة . المباني مصنوعة من الخشب المدهون بألوان زاهية . أما الساحات المحيطة بها ، فهي مبنية من المرمر .

(٩) ـ كان شيه تاو فنانا مبتكرا في التقنية وفي الموضوع على السواء . كان متنسكا من أبناء أواخر القرن السابع عشر ، يتصل مع معاصريه بالمراسلة ، كما كان من أوسع الفنانين نفوذا وشهرة .

تأسيس أكاديمية للرسم على الطريقة التقليدية ، فنشط فيها فنانون من أمثال تاي تشين (١٣٩٠ ـ ١٤٦٠) (١) لفترة من الزمن ، ولكن سرعان ما انسحبوا منها ليصبحوا محورا لمجموعة عرفت « بمدرسة تشين » (مركزها تشيكيانج) . انتج هؤلاء الرسامون ، بفضل الألوان وفرشاة عريضة مبلولة ، لوحات رائعة من الحياة اليومية تمثل سكان الريف ومشاهد طبيعية أنيقة وابتكارات لمجموعات من البامبو .

مدرسة «وو» وخلفاؤها

كان كبار المنافسين لمدرسة تشين أعضاء مدرسة «وو» ، وعلى رأسهم شين تشو (١٤٢٧ ـ ١٥٠٩) (٥) . كان شين تشو أول رسام يستخدم أشعاره كجزء من فنه .

ظهرت في آثار وين تشنج مينج (١٤٧٠ ـ ١٥٥٩) (٧) ، تلميذ شين تشو ، صفة زخرفية معينة أصبحت نموذجا لاتجاه اقلق الناقدين المتزمتين .

كان الرسامون الذي جاؤوا بعد الرسام المتزمت تونج تشي تشانج (١٥٥٥ ـ ١٩٣٦) مهتمّين بتحاليله وآرائه الى درجة ان الفنانين الاربعة منهم الحاملين لاسم وانج (وهم فنانون كان اسمهم وانج دون قرابة بينهم) اعتبروا في الغالب من اتباع تونج .

كان من معاصري الوانجين الاقدمين الرسام شيه تاو (١٦٤١ ـ ١٧٢٠) والرسام تشوتا (١٦٢٦ ـ ١٧٠٥) . اعتمد شيه تاو على الالهام الأدبي الى حد كبير ، وكان مجددا في كيفية استعمال الحبر واللون والفرشاة .

في هذه الاثناء ، ازدهر جيل من الرسامين الرومنطيقيين . فعلى أثر ظهور البلاطات الفخمة ، كبلاطات تشنج ، كانج هسي ، يونج تشينج ، تشين لونج ، قام بدفع الفن الصيني الرومنطيقي الى الأمام الرسامون الأوروبيون اليسوعيون اتباع كاستجليوني ، وهو لانج شيننج (١٦٩٨ ـ ١٧٦٨) ، الذي أسفرت طريقته الايطالية الصينية الطريفة عما دعاه الاوروبيون فيما بعد « بالحذلقات الصينية » (الشينوازيري) .

الفن الصيني حتى يومنا هذا

في القرن السابع عشر ، كانت المدن الحديثة النعمة ، مثل سوتشو ويونج تشو ، مركزا لفئة من الرسامين المجددين الذين عرفوا « بالمتطرفين » ، اذ كانوا يقومون بالدعاية لآنيتهم ويرسمون بقصد البيع . شهد القرن الثامن عشر نزعة قوية نحو العودة الى القديم في جميع الحرف . ومع بداية القرن التاسع عشر ، يبدو أن كلا من الفنان والنصير فقدا الثقة بالنفس ، فعاد الرسم يخطو ببطء وحذر على طرق القرن السابع عشر القديمة .

في القرن العشرين ، حار الفنانون الصينيون في أمرهم بشأن الاتجاه الواجب اتباعه في الفن . فراحوا يجرّبون الأساليب الأوروبية واليابانية أولا . لكن الشيوعية اعادت توجيه الفنون نحو جدية الأهداف السياسية ، فأصبح للفن منذ ذلك الحين دور بارز في الدعاية الايديولوجية .

الاسلام في آسيا

القارة الاسيوية هي قارة الاسلام بامتياز ، ففيها اكثر من ٧٠ ٪ من المسلمين في العالم (حوالى ٦٦٠ مليونا من ٩١٠ ملايين) يتوزعون في حوالى ٣٢ قطرا ، بالاضافة الى البلاد العربية الاسيوية . واذا تركنا جانبا هذه البلاد مع تركيا (٣٨ مليون) وايران (٣٢ مليون) ، فان ابرز الجماعات الاسلامية الاخرى (٤) عددا تقوم في الباكستان (٦٥ مليون) وبنغلادش (٦٥) والهند (٧٠) واندونيسيا (١٢٦) والصين (٩٣) والاتحاد السوفيتي (٦٥) . التاريخ الحديث لهؤلاء المسلمين متصل بتاريخ الاقطار التي تضمهم وان كان لهم في ذلك التاريخ موضعهم الخاص .

١



(١) – امتداد الاسلام في جنوب شرقي آسيا هو امتداد كبير سواء من الناحية الجغرافية ، او من ناحية اعداد المسلمين ، او من الناحية الثقافية وأضحى منذ انتشر أحد العناصر الحضارية التي تكون شخصية مختلف الامم هناك .

(٢) – لاهور ثاني مدن الباكستان في الاتساع ، ولكنها المركز الثقافي الاسلامي الاول فيها . ظلت عاصمة البنجاب اكثر من ٩٠٠ سنة ، منذ اتخذها الغزنويون في القرن الحادي عشر ، ثم الغوريون ، عاصمة لهم . لكنها عرفت التألق حين استقر بها الاباطرة المغول المسلمون ، وبنوا فيها منذ ايام السلطان اكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥) ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان (١٦٢٨ – ١٦٥٨) أروع الابنية ، ومنها مسجد بادشاهي (أ) الذي بناه بالحجر الاحمر المزين

مسلمو القارة الهندية

دب الضعف في امبراطورية المغول الاسلامية (١٥٢٦ – ١٨٥٨) في الهند منذ اواسط القرن الثامن عشر (٣) . لكن حيوية الحركة الاسلامية فيها بقيت على حالها ، لا بفضل الطرق الصوفية (النقشبندية والقادرية) التي دخلت البلاد ايام المغول فحسب ، ولكن بفضل الموقف الديني والوطني ايضا الذي وقفه المسلمون ضد الاستعمار الانجليزي . في القرن الثامن عشر ظهرت بينهم حركتان للاصلاح والعودة الى الاسلام السلفي . قاد الأولى شاه ولي الله (١٧٠٣ – ١٧٦٢) وسمي أتباعه بالمجاهدين ، وقاد الثانية أحمد البريلوي (ت. ١٨٣١) الذي تأثر بحركة محمد بن عبد الوهاب السلفية في نجد .

في القرن التاسع عشر ، دعا سيد أحمد

٢أ



ب



٣

بالرخام السلطان اورنغزيب (حكم ١٦٥٨ – ١٧٠٧) .
اما الاسلام في الفيليبين فقد أتى من (جوهور) في الملايو الى جزيرة مندناو قبل القرن ١٥ . قاومه الاسبان الذين استعمروا معظم الجزر منذ عام ١٥٢١ دون طائل ، لانه صار عنصر المقاومة الوطنية . مملكة مندناو الاسلامية ظلت حتى الاحتلال الامريكي آخر القرن الماضي ملجأ الهاربين من الحكم الاسباني البغيض . معظم سكان مندناو اليوم مسلمون ويتكاثفون في مروى وزامبوانغا . مسجد تالوك صنغاى (ب) من أجمل مساجدهم هناك .

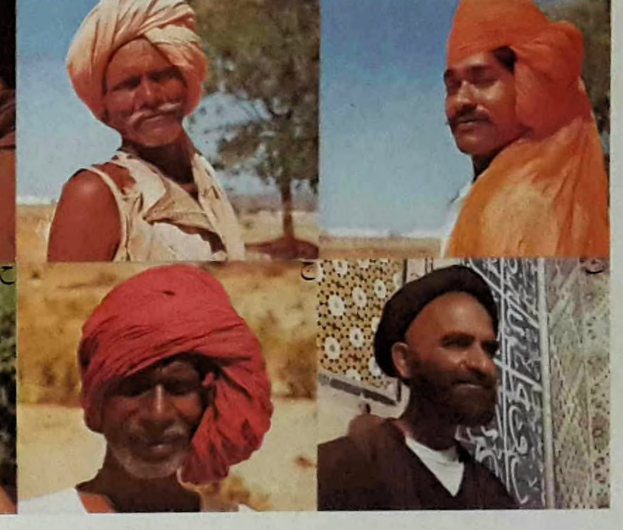
---

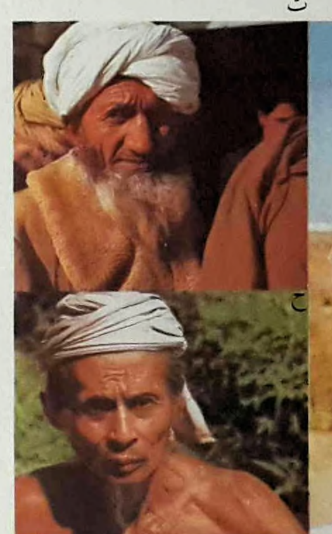
(٣) – الطريق الشمالي الذي يصل افغانستان بالهند ، وكابول مع بشاور هو ممر خيبر . في العهد الاسلامي كان ممر الاسلام بين البلدين ، سواء ايام الغزنويين أو حين غزا الامير تيمور الهند عام ١٣٩٨ ثم حين غزاها بابر عام ١٥٢٥ ثم كان طريق السلطان اكبر الى كابول .

خان (ت ١٨٥٩) الى حركة اسلامية اصلاحية متأثرة بحركة الاصلاح الاسلامي في مصر والشام يومذاك . ثم انشئت العصبة الاسلامية في الهند ، وجارت المؤتمر الهندي في المطالبة بالاستقلال (حتى ١٩٢٤) . برز خلال ذلك محمد اقبال (١٨٧٥ - ١٩٣٨) الذي طالب بأن يكون للمسلمين الهنود وطنهم الخاص . على اساس افكاره ، وجهاد محمد علي جناح ، قامت دولة الباكستان (١٩٤٧) .

الاسلام في اندونيسيا واوقيانيا

دخل الاسلام في تلك الاصقاع (١) في موجات ثلاث كلها سلمية . الاولى الى سومطرة بعد قيام سلطنة دلهي الاسلامية في الهند (١٢٠٦) ، والثانية الى ملقا في القرن الخامس عشر ، والثالثة في القرن السابع عشر توغل فيها الاسلام الى جاوا





(٤) - لا تكاد توجد في القارة الآسيوية مجموعة عرقية او ثقافية لا يؤمن قسم منها (كثير او قليل) بالاسلام الذي يشكل اليوم احد عناصر التقارب الثقافي - الروحي والسياسي بين العديد من الامم ، ويشكل العقيدة الدينية لربع سكان العالم تقريبا . الراجبوتي من الهند (أ) يلتقي في الاسلام مع الراعي الباكستاني (ب) ، والافغاني من كابول (ت) ، ومع الملا الايراني (ث) ، والفلاح من راجاستان (ج) ، وذلك الفيليبيني من جزيرة سولو (ح) . لكن بعض الجماعات الاسلامية الآسيوية صارت مغمورة الاخبار رغم اهميتها وشأنها العددي . مناطق آسيا الوسطى التركستانية ، مع الامتداد غربا حتى قازان في اواسط روسيا ، كانت مناطق اسلامية واضحة حتى اواسط القرن الماضي . غزتها القيصرية الروسية بالاستيطان تارة ، وبالقوة العسكرية التوسعية تارة اخرى ، ما بين ١٨١٦ والحرب التركمانية عام ١٨٨٤ شكلت المناطق الاسلامية التركستانية بعد الثورة السوفياتية ست جمهوريات هي : اذربيجان ، اوزبكستان ، طاجيكستان ، تركمانستان ، قازاخستان ، قرغيزيا ، بالاضافة الى الجمهوريات الاخرى التي تحوي اكثرية مسلمة مثل تاتاريا ، بشكيريا ، الداغستان . الشاشان . وفي الصين ايضا جماعات اسلامية واسعة كانت تشكل قبل النظام الشيوعي ١٠ ٪ من السكان وتتوزع على ٢٨ ولاية في المغرب والجنوب والساحل .

وجزر بورنيو وسولاويسي (سيليبس) والفيليبين . في القرن الثامن عشر كان قد انتشر ايضا في ماليزيا . لعب المتصوفة من الشيعة والسنة دورهم في نشره ، لكن الاسلام السني هو السائد . زاد من حركيته مقاومته للاستعمار من خلال المقاومة للتبشير المسيحي . صراعه كان اكثر عنفا في الفيليبين (٢) وجزر سولو ومندناو . أضحى الاسلام بذلك ، ومنذ اوائل القرن التاسع عشر ، عنصرا أساسيا في الهوية القومية ، وعنصرا في الحركة الوطنية وخاصة في اندونيسيا . في النصف الثاني من ذلك القرن تعرف المسلمون في تلك البلاد على الحركات الاسلامية الاصلاحية في المشرق العربي وحاولوا مجاراتها . كان لنشاط المؤسسات الاسلامية اثره الواضح في استقلال اندونيسيا وخلاصها من الاستعمار الهولندي (١٩٤٥ ـ ١٩٤٩) .

الاسلام في آسيا الوسطى والصين

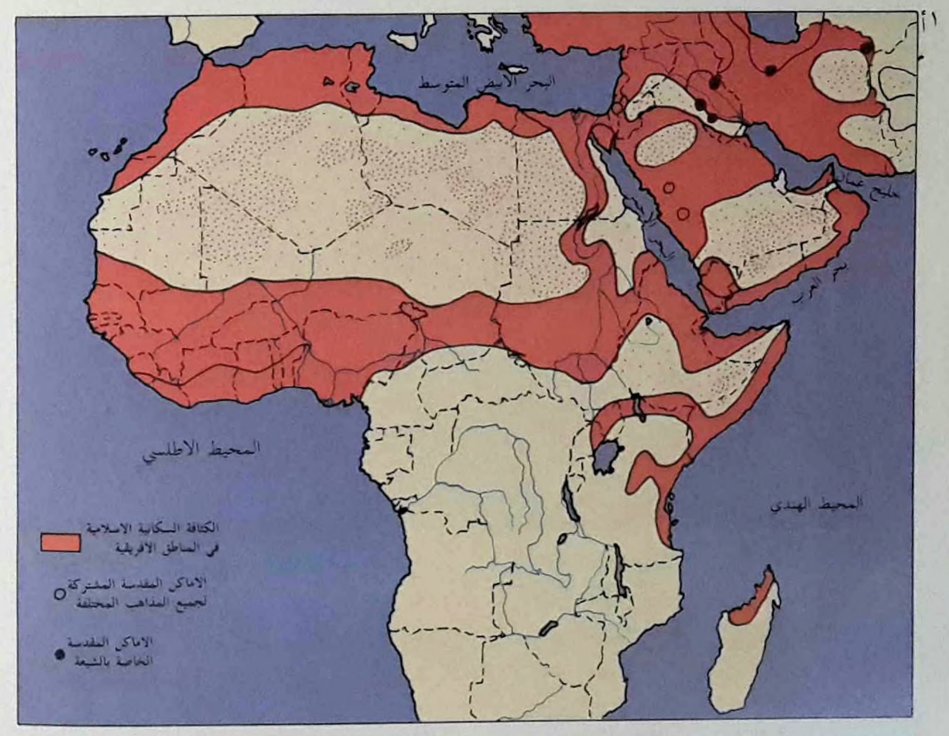
قامت روسيا القيصرية في شمال العالم الاسلامي بالدور الاستعماري الذي قامت به انجلترا في جنوبه وفرنسا في غربه ، وفي وقت واحد ، وخاصة في القرن التاسع عشر . التوسع الروسي في السهوب الاوراسية (ما بين حوض الفولغا الى آسيا الوسطى التركستانية الى جنوب سيبيريا) ادخل بالقوة هذه المناطق ـ وكلها اسلامية ـ ضمن الحكم القيصري ، وأوقف انتشار الاسلام البطيء منها ، لكنه لم يستطع ان يلغي وجوده فيها ، رغم الجهود التبشيرية . بل جرى العكس في بلاد القرغيز وبين التتار (البارابا الذين اعتنقوا الاسلام في القرن ١٨) . كانت مدينة قازان في القرن ١٩ مركزا اساسيا لنشاط الدعوة . في النصف الثاني من القرن ١٩ خاصة استطاعت القيصرية الروسية في عدة غزوات احتلالية ان تبدأ الاستعمار الاستيطاني لقرغيزيا (١٨٦٦) بعد التوسع فيها منذ ١٨١٦ ، وان تحتل بلاد تركستان بالحروب (١٨٦٧ ـ ١٨٨٤) ، عدا أخذها بلاد الداغستان والجركس من الدولة العثمانية (١٨٥٧ ـ ١٨٦٤) .

بعد اعلان مبدأ القوميات في روسيا السوفياتية (١٩٢٤) ، شكلت آسيا الوسطى (التركستانية) ست جمهوريات اسلامية ضمن نطاق الاتحاد السوفياتي بالاضافة الى جمهوريات اخرى معظمها من المسلمين .

في الصين قام المسلمون في ولاية خانسو بالثورة (١٦٤٨) ضد اسرة منشو التي بدأ عهدها (١٦٤٤) بقمعهم ، بالرغم من التسامح معهم في اواسط القرن الثامن عشر . الا انهم لقوا بعد ذلك الكثير من العنت ، كما قاموا بعدد من الثورات التي قمعت بشكل دموي . لهذا مالوا إلى الدعوة الهادئة لدينهم والى الاقلال من مظاهر التمايز عن الصينيين الآخرين . ساعد ذلك على ان يعرف الاسلام يقظة واسعة في الصين في القرن ١٩ حتى كان في بكين (١٨٩٥) ثلاثون مسجدا . عقد المسلمون الصلات مع الدولة العثمانية ونشروا الكتب .

الاسلام في افريقيا

في القرن السادس عشر ، أصيبت النظم الاسلامية في السودان الغربي بانتكاسة مؤثرة ، نتيجة تحطيم امبراطورية صونغاي وتدهور تمبكتو وقيام اسر البولالة (الفولاني) الوثنية في فوتا جالون . لكن اعتناق هؤلاء للاسلام من جهة ، وقيام دولة الفونج في السودان الشرقي من جهة اخرى ، ووجود مراكز ديناميكية من المدارس والمساجد في الصحراء وغانا ومالي وحوض النيجر ونيجيريا وهرر ، بالاضافة الى حماسة التوكولور (التكرور) في الدعوة ، كل ذلك سمح للاسلام بالمزيد من الانتشار ، وبتشكيل دول متعددة (١) كانت سريعة الزوال .



(١) – اذا استثنينا النصف الجنوبي من افريقيا (عدا السواحل الشرقية) فبقية القارة منطقة اسلامية واسعة تمتد على طرفي الصحراء الكبرى ، وتشمل الهضبة الافريقية حول منابع النيل ، ويتخللها جزر مسيحية أحيانا كما في الحبشة وليبيريا ووثنية احيانا اخرى .

المصور (ب) يعطينا الاتجاهات الثلاثة الاساسية التي مشى خلالها الاسلام الى افريقيا السودانية مع طرق التجارة عبر الصحراء والتي نجمت عنها الممالك السودانية الاسلامية بين القرنين ١١ و ١٦ . أما المصور (أ) فيعطي الكثافة الاسلامية .

الدول حتى القرن التاسع عشر

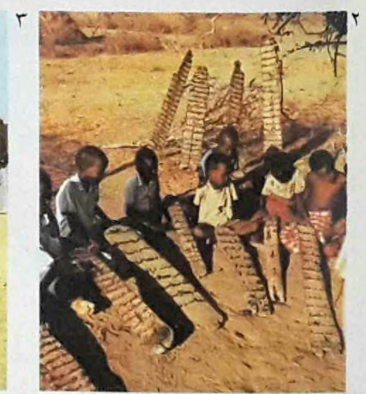
في اواخر القرن ١٦ كان البولالة قد اعتنقوا الاسلام ، وكذلك أهل السنغال السفلي والباجيرمي في وسط السودان والواداي (بعد ١٦٣٥) . وفي السودان الشرقي صارت بلاد النوبة كلها اسلامية ايضا . وأسلمت دارفور في القرن ١٧ ونقلت الاسلام الى كردفان في القرن التالي . وهكذا ما جاءت اواسط القرن ١٧ حتى كان السودان ما بين البحر الاحمر والمحيط الاطلسي مسلما في جمهرته (١ ـ أ) ، يتركز المسلمون في مدنه، كما يشملون القبائل الكبيرة المسيطرة ، وهم يستخدمون اللغة العربية (٥) في القراءة والكتابة ولهم لهجاتهم الكثيرة في الحديث .

في القرن ١٨ قامت دول اسلامية على حوضي النيجر والسنغال الاعلى تسمت كل

ب

مملكة غانة (القرن ١١ م)
مملكة مالي (القرن ١٤ م)
مملكة صونغاي (القرن ١٥ م)
طرق التجارة الرئيسية عبر الصحراء وعن طريقها انتشر الاسلام

٢



(٢) ـ رغم الصعوبات المادية يقوم الاسلام بدوره في دفع الجماعات الافريقية الاسلامية الى التعلم ، لأن معرفة القرآن ومبادىء القراءة والكتابة أساسية في الدين . الاطفال في الصومال ، كما في بعض المناطق الافريقية الاخرى، يفتقدون وسائل الكتابة ، ولكنهم مع ذلك يستخدمون قطع الاخشاب الكبيرة للتمرن على الكتابة وقراءة القرآن .

٣



(٣) ـ كانت تمبكتو ، منذ اقيمت في القرن العاشر الميلادي ، مركزا اسلاميا ، ونقطة لقاء تجاري لقوافل المبادلة بين الملح والذهب . عرفت مجدها الكبير منذ القرن ١٤ حين كانت قطعة من امبراطورية مالي . ظلت في عهد الصونغاي على تالقها التجاري والثقافي حتى القرن ١٦ . جامع أوجن غارايير بناه الماندنغو عام ١٣٢٥ .

منها بالامامة . وكانت امور واداي قد انتظمت (منذ ١٦٣٥) في مملكة مستقلة بنت اوج ثقافتها وتنظيمها وسلطانها بين ١٨٣٥ و ١٨٥٨ في ظل ابراهيم سلطان دارفور الذي اصطدم بمملكة السنغال الاسلامية التي أسسها الحاج عمر بين سنتي ١٨٣٨ و ١٨٦١ وامتدت حتى تمبكتو (٣) . وكانت للباجيرمي (جنوب تشاد) منذ القرن ١٦ دولة أفل نجمها في مطالع القرن ١٩ اثر معاركها المستديمة مع الواداي والبورنو ، في الوقت الذي كان فيه محمد بن أمين الكانمى يستنقذ هؤلاء البورنو من احتلال قبائل الفولاني ويقيم لهم نظاما من السلوك الاسلامي الصارم .

دول القرن التاسع عشر

كان الذين يحملون الاسلام وينشرونه ، مع التجار ، هم أهل الطرق الصوفية



(٤) - تتنوع المنابت العرقية للمسلمين الافريقيين الذين يشكلون الكتلة الدينية الكبرى في القارة . فبالاضافة الى السوداني النيلي (أ) والبدوي من تمبكتو (ب) وابن قفصة (ت) والنيجيري (ث) والصومالي (ج) والعربي المصري (ح) هناك شعوب اخرى تمثل الاسلام الافريقي ومنها الماندنغو والأشانتي والفلاني والحوصا وغيرهم في السودان الغربي . ومنها في شرقي افريقيا جماعات الجلا ، وحوض نياسا ، وجموع الياوس وبعض مدغشقر . وفي افريقيا الجنوبية جماعات مسلمة لم تأت من بلاد العرب او الهند ولكن من جاوا ، بين القرنين ١٧ و ١٨ ، نفاها الهولنديون مع زعيم مناضل.

(٥) - ظلت الكتابة العربية حتى هذا القرن لغة الثقافة التقليدية في بعض مناطق افريقيا الغربية سواء في التأليف او الدراسة الدينية او في بعض دواوين الامراء المحليين . الصورة لكتاب بالعربية من سلطان البورنو أمين أرسله حوالى عام ١٩٧٧ - ١٨٨٠ الى سلطان سوكوتو يوافق فيه على تصفية نزاع حدودي . ما تزال الكتابة العربية قائمة في التعليم الديني .

٥ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

خاصة . تميزت منها الطريقة القادرية التي انتشرت منذ القرن ١٦ من تمبكتو ومن هرر ، بعد أن نجحت في اثارة الحمية في اتباعها لاحياء مجد الاسلام والخلافة وتوحيد المناطق الافريقية . كان أبرز قادتها في القرن ١٩ عثمان دان فوديو الفولاني (١٧٥٤ - ١٨١٦) الذي تأثر بالافكار الوهابية واتهم الحوصا ، حكام البلاد منذ ثلاثة قرون ، بالخروج على الاسلام السوي ، ونجح في قيادة الجهاد ضدهم (١٨٠٤ - ١٨١٦) . لكنه وقع هو نفسه مع ولديه محمد بلو وعبد الله فريسة الاستبداد الذي حاربوه ، مما اضعفهم امام الزحف البريطاني من نيجيريا آخر القرن ١٩ .

زاحمت القادرية ، في اواخر القرن ١٨ ، طريقة صوفية جديدة أنشأها احمد التجاني (١٧٣٧ - ١٨١٥) ، واستطاعت ان تنجح في السودان الغربي حين تولاها الحاج عمر بن سعيد التكروري (١٧٩٧ - ١٨٦٤) الذي عاد من مكة (١٨٢٦) فتأثر بأعمال دان فوديو واستطاع ، على مثاله ، انشاء امامة في دنفوراي (١٨٤٨) قاد منها الجهاد لاقامة الحكم الاسلامي ، لكنه قتل في المعارك . لم يستطع ابنه أحمدو شيخو الا لفترة قصيرة جمع الدولة التي وقعت بين الزحفين البريطاني والفرنسي وانتهت اراضيها الى حكم فرنسا . قاد المقاومة ضد الفرنسيين في أعالي النيجر بعد ذلك أحمد صمدو (١٨٤٦ - ١٩٠٠) الذي بلغ أوج قوته عام ١٨٨١ ، وقام بسلسلة من الحروب قبل ان يؤسر (١٨٩٨) ويتوفى بعد سنتين .

في شرقي أفريقيا كسبت القادرية نفوذا واسعا حين تزعمها محمد بن أويس الصومالي الذي قاوم الاستعمار الالماني طويلا في تنغانيكا ، واستقل بطريقة صوفية عرفت باسمه . قاد الجهاد بعده في الصومال عبد الله حسن ضد الانجليز والايطاليين ، وكان على الطريقة الصالحية (المتفرعة من طريقة الفاسي نزيل مكة) . قاد الحركة الاسلامية الاصلاحية في السودان محمد عثمان الميرغني (ت ١٨٥٣) صاحب الميرغنية الادريسية ، كما قادها مع المقاومة ضد الانجليز في شمال السودان محمد أحمد الذي تلقب بالمهدي (١٨٤٣ - ١٨٨٥) .

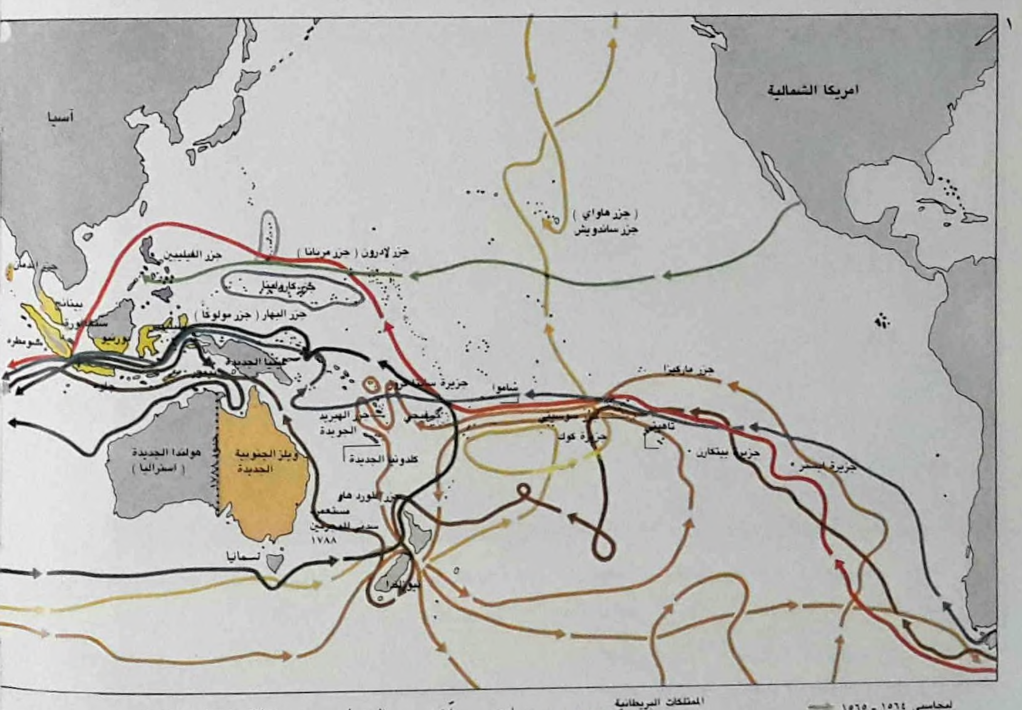
الاستعمار والاسلام في افريقيا

كانت الجماعات الاسلامية ، مع زعاماتها الدينية ، هي التي وقفت لمحاربة الاجانب في القرن ١٩ . لكن تخلفها في السلاح وهشاشة نظمها وتكاثر القوى الاوروبية ضدها هي التي هزمتها .

يشكل المسلمون الاغلبية الساحقة في السنغال وغينيا ومالي والنيجر (٤) . أكبر جماعة اسلامية (٦٥ مليون) توجد في نيجيريا . باقي المسلمين يتوزعون بين ٤٨ دولة ، منها ليبيريا وغانا وتوغو . اما في شرقي افريقيا ، فهم الاكثرية حتى زنزبار ، ويبلغون ثلث السكان في تنزانيا ، وحوالى النصف في اثيوبيا ، بالاضافة الى كينيا واوغندا وملوي وزمبيا والكونغو ، وكلهم على المذهب الشافعي تقريبا ، عدا السودان الذي هو على المذهب الحنفي .

استعمار أوقيانيا وجنوب افريقيا

كانت الاكتشافات الجغرافية نقطة انطلاق للاوروبيين للتجوال في انحاء العالم ، املا في الاهتداء الى اماكن جديدة تصلح للاستيطان او للاستغلال . فمنذ القرن السادس عشر ، اي منذ ان جاز ماجلّان المحيط الهادىء (١٥٢٠) ولقي مصرعه في الفليبين ، حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، لما وصل كوك الى استراليا وجزر المحيط الهادىء ، تعرّف المستكشفون الاوروبيون على الجنوب الافريقي وجزر الهند الشرقية والفليبين واستراليا ونيوزيلاندا وجزر المحيط الهادىء . لم يكن المقصود من هذا التعرف مجرد الزيارة وجمع الحقائق ، بل



(١) - كانت المطامع التجارية والبحث عن القارة الاستعمارية والمنافسة الجنوبية الاسطورية هي التي حملت ملّاحي الدول الاوروبية البحرية الكبرى (اسبانيا والبرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا) على استكشاف المحيط الهادىء بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر . اشتهر بين هؤلاء الملاحين ليغاسبي (الفليبين) وتسمان (تسمانيا ونيوزيلانـــدا) وبوغنفيل (اول فرنسي يبحر حول العالم) ووواليس (تاهيتي) وكوك (اكثر اجزاء المحيط الهادىء) .

كانت لكل رحلة تقريبا غاية رئيسية : البحث عن اماكن للاستغلال او للاستيطان .

تشمل المناطق التي تعرف المستعمرون الاوروبيون عليها الاقسام الجنوبية من قارة افريقيا . وكان العرب واهل الهند يعرفون اجزاءها الشرقية التي تصدّر الذهب والرقيق اليهم . فلما جاء البرتغاليون ، بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، اهتموا باستغلال الرقيق الافريقي ، فكانت البرتغال في اوائل القرن السادس عشر تنقل سنويا منهم بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ نفس . وبسبب اهتمام البرتغاليين ايضا بالتجارة مع الاقطار الآسيوية النائية ، اقاموا مستعمرة في موزمبيق (١٥٠٥ م) كانت مركزا لتجارة الذهب ، كما كانت محطة كبيرة للاتجار مع الهند بالتوابل .

كان الوضع يختلف في ارخبيل الملايو

٢



٣

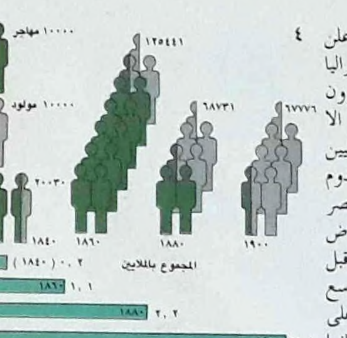


(٢) – في سنة ١٨١٦ اعلن للسكان الاصليين في استراليا بان السود والبيض متساوون في الحقوق والعقوبات . الا ان سكان استراليا الاصليين ذاقوا الامرّين من قدوم الاوروبيين . ولم يقتصر الاذى على تفشي الامراض التي لم تكن معروفة من قبل بينهم ، بل كان ثمة توسع في الزراعة والتعدين على حساب الاراضي التي كانوا يستخدمونها للصيد والقنص ، وهو توسع لم يوقفه احد عند حده . وما كادت تحل سنة ١٩٠٠ حتى كان السكان الاصليون قد نقص عددهم نقصا كبيرا جدا حتى اضحوا عدة مئات فقط .

(٣) – هذه الخارطة توضح نمو جنوب افريقيا منذ بدء قيامه في مستعمرة الرأس (الكاب) على يد شركة الهند الشرقية الهولندية ، حتى تحوّله الى اتحاد جنوب افريقيا في ٣١ مايو ١٩١٠ .

مستعمرة الرأس
١٨٥٤ ، ١٨٩٥
ناتال ١٨٥٤ ، ١٨٩٥
حدود دولة اورانج الحرة ١٨٥٤
دولة اورانج الحرة ١٨٩٥
جمهورية جنوبي افريقيا
١٨٥٤ ، ١٨٩٥
حدود اتحاد جنوبي افريقيا ١٩١٠

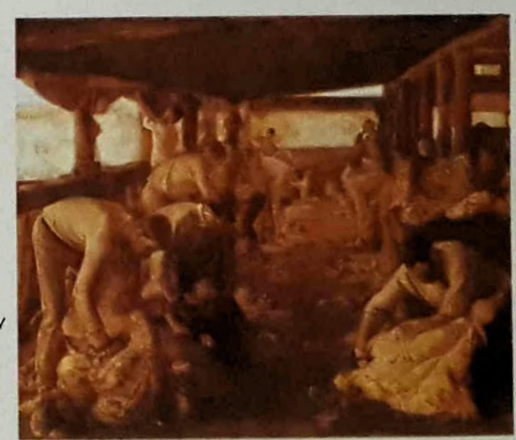
٤



(٤) – اعتمدت استراليا على الهجرة لتنمية سكانها . وضع برنامج للهجرة المنظمة والحائزة على مساعدات مالية سنة ١٨٢٩ ، وحتى سنة ١٨٦٠ كان عدد النازحين الى استراليا يشكل ثلاثة ارباع مجموع سكانها . وقد حمل اكتشاف الذهب (١٨٥١ – ١٨٥٦) اعدادا كبيرة على الهجرة الى استراليا . وبعد ذلك أخذت زيادة العدد تنتج عن ارتفاع الولادة .

(اندونيسيا الحالية). فالجزر الكبيرة فيه خاصة ـ مثل جاوه وسومطره ـ كانت لها حضارة، وتجارة واسعة مع الصين والهند ومع العرب (منذ القرن الثامن للميلاد) الذين حملوا الاسلام الى بعض الجزر منها .

اما في استراليا ، فان السكان الاصليين كانوا ، كسكان نيوزيلاندا عند وصول الاوروبيين اليهم ، لا يزالون في حضارة العصر الحجري التي كانت تقوم اصلا على الصيد والقنص . ثم اصبحت استراليا ونيوزيلندا ، بعد استقرار الاوروبيين فيهما ، مناطق صالحة لتربية الاغنام والابقار . لكن الثمن الذي دفعه سكان البلاد الاصليون كان انقراضهم (في تسمانيا) ، او تقلّص اماكن سكناهم وانعزالهم في الداخل حتى الانقراض (في استراليا) او الخضوع لسلطة اجنبية (في نيوزيلاندا) .







(٥) ـ الصورة المسماة «جز صوف الحملان» (رسم توم روبـرتس ١٨٥٦ ـ ١٩٣١) تظهر لنا منظر جز الصوف في استراليا في التسعينات من القرن الماضي . لقد استورد خروف «المرينو» الاسباني اليها من جنوب افريقيا لاول مرة في اواخر القرن الثامن عشر ، ثم من انجلترا فيما بعد . ومنذ ذلك الحين كان تطور الاقتصاد الاسترالي يتم (كما يقال) «على ظهر الخروف» .

(٦) ـ كان الماوري ، سكان نيوزيلاندا الاصليون ، يحذقون صناعة القوارب الصغيرة المكون كل منها من جذع شجرة واحدة ، ولم يكن يجاريهم احد في ذلك . انتقل اسلافهم البولينيزيون بهذه القوارب عبر المحيط الهادىء (في القرن الثالث عشر) قاطعين نحو ٣٣٠٠ كيلومتر . ترينا الصورة قاربا من النوع الذي استعمله هؤلاء القوم . كانت تحفر على قواربهم الحربية ، التي يتسع واحدها لمئة رجل ، صور من رسم فنانين كانوا يعلّمون تلامذتهم (في الحفر) الطقوس السحرية والدينية المتصلة بالصناعة . كان باستطاعـــة هذه القـــوارب ، اذا بذل المجذفون فيها اقصى جهدهم ، ان تسبق السفن الشراعية .

(٧) ـ حمل صيادو الحيتان والتجارة الى كثير من جزر المحيط الهادىء ، لما وصلوها في القرن التاسع عشر ، المدافع والامراض معهم . كانت استفادة الصيادين من صيد الحوت تعني تناقص الحيوانات في مناطق الصيد بشكل سريع جدا . قد تظهر الصورة فيها مبالغة في عدد الحيتان ، الا انها تدل على الاساليب التي كانت تستعمل في صيد الحوت ، والتي ادت الى ظهور عدد من المستوطنات الساحلية .

الانتشار واساليب الاستغلال

جاء الانتشار الاوروبي ، في المناطق التي ذكرناها ، على شكل موجات متلاحقة .

بدأت المستوطنات البريطانية في استراليا باستخدامها منفى للمجرمين . (بدأ من سنة ١٧٨٧) ، ثم تحولت تلك المناطق الى مراع غنية . كان أحد البواعث على الاهتمام بنيوزيلاندا جودة الحوت الموجود في مياهها . ثم استقرّ البريطانيون في البلاد بالاتفاق مع الماوري (سكان نيوزيلاندا الاصليين) سنة ١٨٤١ . ورافق الانتشار البريطاني هناك دخول بريطانيا الى جنوب افريقيا إذ احتلت الرأس (الكاب) أولا لمنع فرنسا من الاستيلاء عليه (١٧٩٥) ، ثم استقرت في المنطقة منذ سنة ١٨٠٦ . وزاد الاهتمام بجنوب افريقيا بعد اكتشاف الذهب والماس (١٨٦٩) فيه ، ودخلت المانيا ميدان السباق الاستعماري في افريقيا فاستولت على جنوب غرب افريقيا (١٨٨٤) .

يمكن القول اجمالا بأن القرن التاسع عشر ، ونصفه الثاني بخاصة ، كان فترة التهافت على افريقيا ، فالامر لم يتعلق بجنوب القارة فحسب ، ولكنه اصاب القارة بكاملها . ذلك ان الشمال الافريقي وقع ، بين ١٨٣٠ و ١٩١٢ ، تحت سيطرة بريطانيا (مصر) وفرنسا (الجزائر وتونس والمغرب) وايطاليا (ليبيا) ، وان لم يكن الاحتلال تاما في جميع الحالات . كما ان الصحراء والمناطق الغربية من افريقيا كانت ايضا موضوع مساومات انتهت بأن يكون لفرنسا وبريطانيا وبلجيكا والبرتغال والمانيا حصص في تقاسم الارض والموارد والسلع .

التطور حتى الحرب العالمية الاولى

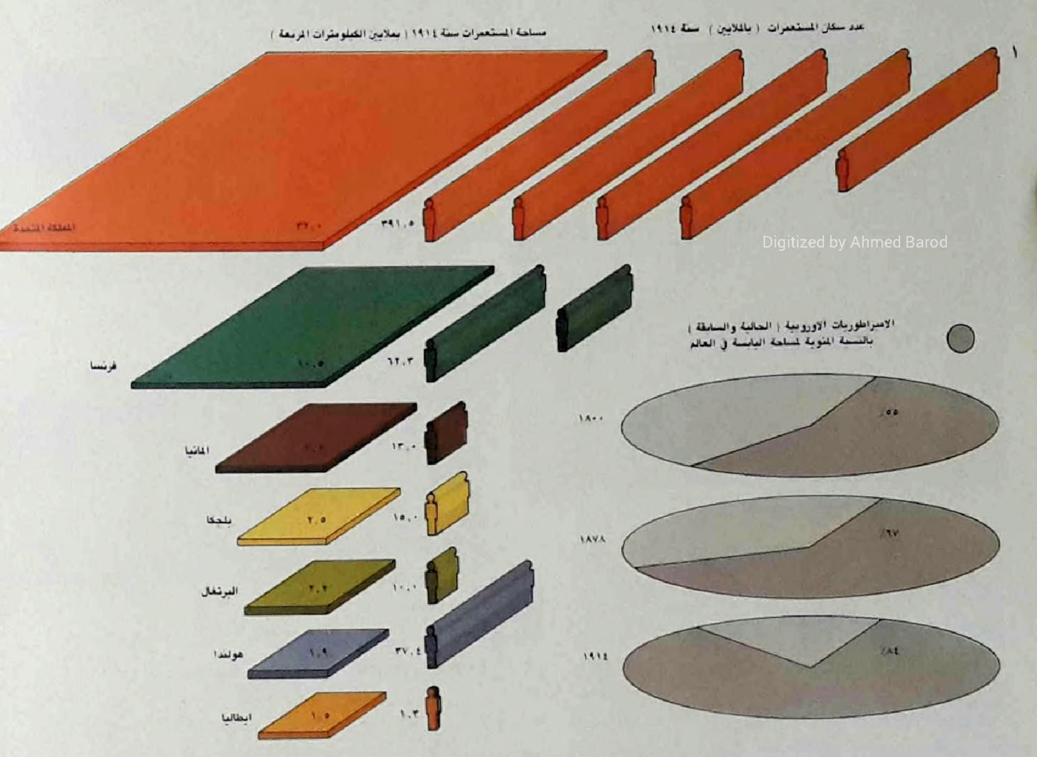
تنوّعت الاساليب التي اتبعتها الدول الاوروبية المختلفة في المناطق التي وقعت تحت نفوذها . فالهولنديون تصرفوا في ارخبيل الملايو تصرفا تعسفيا غاشما في معاملتهم لابناء البلاد ، واحتكروا جميع الخيرات دون ان يقدموا للبلاد وأهلها اي منافع مقابل ذلك . في افريقيا الجنوبية كان موقف البريطانيين متنوعا حسب تنوع البقاع . فقد كان البوير (هم سكان جنوب افريقيا من الهولنديين وغيرهم ممن سكن هناك) موضع اضطهاد من جانب بريطانيا ، مما حملهم على الهجرة الى الشمال (١٨٣٥) ، فأنشأوا الترانسفال (١٨٥٢) ودولة الاورانج الحرة (١٨٥٤) . وأخذت بريطانيا بالاستيلاء على مناطق افريقية في تلك الجهات . فاستولت على بتشوانالاند (هي بوتسوانا الآن) واعلنتها مستعمرة (١٨٨٥) ، واحتلت جزءا من بلاد الزولو (١٨٨٦) ، واصبحت نيازالند (ملوي اليوم) محمية بريطانية (١٨٨٩) . وفي سنة ١٨٩٠ رفعت بريطانيا اعلامها في روديسيا (زمبابوي اليوم) ، ثم احتلت مناطق اخرى كان آخرها شمال روديسيا (زامبيا اليوم) وذلك في سنة ١٨٩٥ .

كان لا بد من الاحتكاك بين بريطانيا والبوير ، فانتهى الى حرب البوير (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) التي كانت نتيجتها استيلاء بريطانيا على جنوب افريقيا بكامله .

الاستعمار والأمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر

شهد العالم نشوء امبراطوريات هامة في العالم القديم ، كما عرف امبراطوريات تجارية قامت في القرنين السادس والسابع عشر على ايدي الاسبان والهولنديين والبرتغاليين . الا ان القرن التاسع عشر كان عصر اكبر توسع وانتشار للاوروبيين ، اذ شهد تسلطهم على شعوب متعددة وعناصر مختلفة .

كانت بريطانيا في سنة ١٨١٥ اكبر دولة استعمارية في العالم . ذلك بأنها عوضت عن خسارتها لمستعمراتها الامريكية في اواخر القرن الثامن عشر بما حصلت عليه في امريكا الشمالية (كندا) والهند وجنوب افريقيا وجزر الكاريبي



(١) – اتسعت امبراطوريات اوروبا الاستعمارية بسرعة كبيرة بين ١٨٠٠ و ١٩١٤ . فالامبراطورية البريطانية توسعت في افريقيا وجنوب شرق آسيا ؛ واستولت فرنسا والمانيا على اراض واسعة ، وانضمت بلجيكا وايطاليا والبرتغال وهولندا الى السباق الاستعماري . بالاضافة الى المستعمرات السابقة في امريكا ، كان النفوذ الاوروبي يشمل ، عند حلول عام ١٩١٤ ، ٨٤ ٪ من مساحة اليابسة في العالم .

(٢) – كانت اهمية المستعمرات ، بوصفها «زبائن» في التجارة ، تقوم عادة على كونها مصدّرة للمواد الخام والمواد الغذائية اكثر مما كانت تقوم على

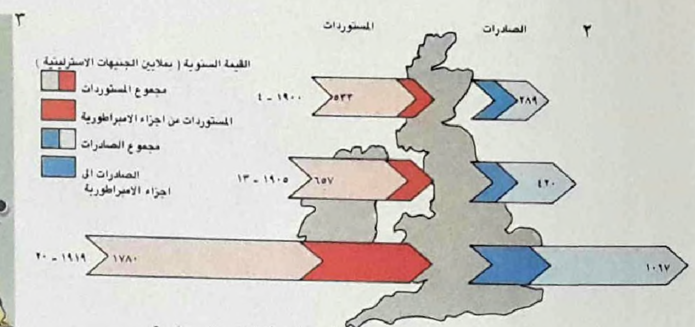
واستراليا ونيوزيلاندا من ممتلكات جديدة .

القرن التاسع عشر

خلال القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، كانت الامبراطوريات القديمة على طريق الزوال . فالثورات التي قامت في امريكا الجنوبية حررت جمهورياتها من اسبانيا . كذلك خسرت بريطانيا معظم مستعمراتها الامريكية ، كما ان البرتغال لم تعد ذات اهمية في عالم الاستعمار او الاقتصاد . لكن انكسار نابليون نهائيا ادّى الى بروز بريطانيا كأقوى دولة بحرية تسيطر على املاك واسعة .

يمكن القول بأن الاستعمار في العقود الوسطى من القرن التاسع ١عشر كان محدودا نسبيا ، بل كان ثمة ، حتى في بريطانيا ، من يقاوم فكرة الاستعمار .

٢



٣

٤

استهلاكها للبضائع الامبراطورية ، مع العلم ان بعض المستعمرات التي تم الاستيلاء عليها بعد سنة ١٨٧٠ كانت بالكاد تدفع نفقات ادارتها . لكن مستعمرات بريطانيا «البيضاء» كانت ذات قيمة خاصة كمجالات للاستثمار وكزبائن في التجارة ، وبخاصة بعد ١٩٠٠ ، لما ارتفع حجم التبادل التجاري الامبراطوري بين الدولة الأم وهذه المستعمرات الى اكثر من ثلث الحجم المنظور للتجارة البريطانية .

---

(٣) – كان من اثر المهاجرة التي شجعها المصلحون امثال ادوارد جيبون ويكفيلد (١٧٩٦ – ١٦٨٢) وتوماس كارليل (١٧٩٥ – ١٨٨١) ، ان خففت من حدة المشكلات السكانية في بريطانيا . اتجه اكثر المهاجرين الى الامريكتين . وبلغت الهجرة ذروتها في العقود المعروفة باسم «الاربعينات الجائعة» ، اذ غادر بريطانيا اكثر من مليون ونصف المليون نسمة ، وفي الخمسينات، تجاوز المليونين.

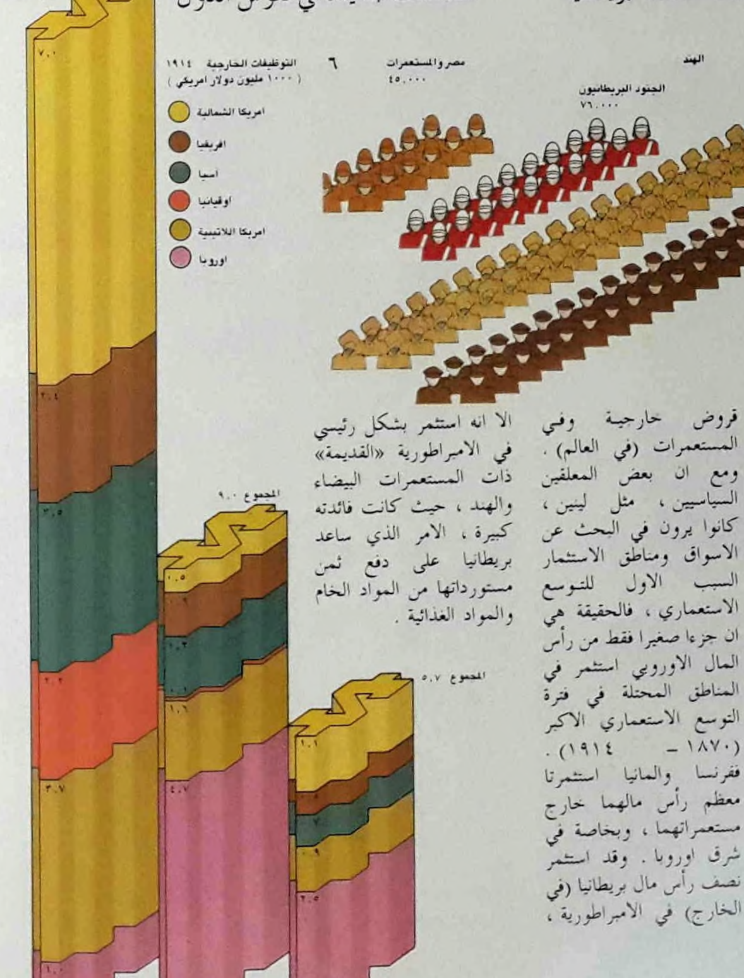
---

(٤) – كاريكاتور يمثل التسابق للاستيلاء على البلاد الواقعة ما وراء البحار : (من الشمال الى اليمين) بريطانيا والمانيا وروسيا وفرنسا واليابان تحاول اقتسام الصين (الممثلة بكعكة) فيما بينها . ظهرت في السبعينات من القرن الماضي كلمة «الشوفينية» (اي الوطنية الطامعة المتطرفة) للتعبير عن المواقف العدائية بين الدول الاستعمارية ، وقد تبنتها الصحافة الشعبية الناشئة لإسعار نار العداء . فقد تنازعت بريطانيا مع روسيا على حدود الهند الشمالية الغربية ، وتنازعت بريطانيا وفرنسا حول السودان .

مع ذلك ، عمدت بريطانيا في اواسط القرن التاسع عشر ، وكانت اكبر دولة استعمارية في ذلك الحين ، الى توطيد مراكزها في مستعمراتها ، اما عن طريق منح الحكم الذاتي (كندا) ، او عن طريق استعمال القوة (الهند بعد ثورة ١٨٥٧ ، اذ نقلت السلطة من شركة الهند الشرقية الى الحكومة البريطانية ١٨٥٨ ، فاصبحت الهند مستعمرة) . كذلك عملت بريطانيا على تركيز نفوذها في نقاط استراتيجية او تجارية : فابتاعت او احتلت سنغافورة (١٨١٩) وعدن (١٨٣٩) وساحل الذهب (١٨٥٠) ومصر (١٨٨٢) .

التهافت على افريقيا

كانت افريقيا في البدء محط انظار الرحالين والمبشرين ، ومن ثم نشأت اهتمامات جديدة في نفوس الدول



(٥) - المعسكرات والحاميات الامبراطورية (بعضها كان في ارلندا) كانت تمثل القسم الكبير من الجيش النظامي البريطاني سنة ١٩١١ . وكانت الخيالة (الصباهي) ، وهي قوات محلية هندية ، ذات وزن في القوة البريطانية العسكرية .

(٦) - بعد سنة ١٨٧٠ اصبح تطور التوظيفات الاوروبية فيما وراء البحار ظاهرة رئيسية للاستعمار . كانت بريطانيا وفرنسا والمانيا في مقدمة البلاد المصدرة لرؤوس الاموال . ولما حلت سنة ١٩١٤ كانت هذه الدول قد استثمرت ما يزيد عن ٣٠٠٠٠ مليون دولار في

قروض خارجية وفي المستعمرات (في العالم) . ومع ان بعض المعلقين السياسيين ، مثل لينين ، كانوا يرون في البحث عن الاسواق ومناطق الاستثمار السبب الاول للتوسع الاستعماري ، فالحقيقة هي ان جزءا صغيرا فقط من رأس المال الاوروبي استثمر في المناطق المحتلة في فترة التوسع الاستعماري الاكبر (١٨٧٠ - ١٩١٤) . ففرنسا والمانيا استثمرتا معظم رأس مالهما خارج مستعمراتهما ، وبخاصة في شرق اوروبا . وقد استثمر نصف رأس مال بريطانيا (في الخارج) في الامبراطورية ، الا انه استثمر بشكل رئيسي في الامبراطورية «القديمة» ذات المستعمرات البيضاء والهند ، حيث كانت فائدته كبيرة ، الامر الذي ساعد بريطانيا على دفع ثمن مستورداتها من المواد الخام والمواد الغذائية .

الاوروبية لاستعمار تلك القارة ، على اثر ما رسمه هؤلاء الرحالون من خرائط للمناطق الداخلية ووسائل المواصلات فيها . وقد ارتفعت حمى الاستيلاء على افريقيا بعد احتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) . وفي غضون خمس وعشرين سنة ، كانت القارة الافريقية الا اقلّها قد تقاسمتها الدول الاوروبية الاستعمارية .

في الثمانينات من القرن الماضي ، كانت الشركات الخاصة التي وطّدت النفوذ البريطاني في المناطق المدارية تتمتع بنوع من الحماية شبه الرسمية . وكانت الادارة الاستعمارية الامبراطورية تسير في اعقاب التغلغل التجاري . والمثل الرئيسي على ذلك في افريقيا هو سيسل رودس (١٨٥٣ - ١٩٠٢) ، صاحب المشاريع المالية الكبرى (٨) التي جذبت بريطانيا نحو الدوامة الافريقية ، فاصبح غرب الترنسفال تابعا لبريطانيا (١٨٨٥) ، واستولت بريطانيا على جنوب وشمال روديسيا (١٨٨٥) ، كما جعلت كينيا واوغندا محميتين بريطانيتين (في التسعينات) . دخلت فرنسا الميدان الافريقي سنة ١٨٣٠ (بدء احتلال الجزائر) ، واحتلت تونس (١٨٨١) . وبدأ دخول المانيا قبيل ١٩٠٠ في جنوب غرب افريقيا ، ثم تابعت مسيرتها في الكمرون بعد ذلك . وكان لبلجيكا حصة كبيرة في الكونغو . وقبيل الحرب العالمية الاولى دخلت ايطاليا ليبيا (١٩١١) ، وفرنسا المغرب (١٩١٢) .

تطور الاستعمار

يمكن التعرف على ثلاثة اتجاهات مختلفة في الاستعمار منذ الفورة الجديدة التي عرفها في اواخر القرن التاسع عشر : الاول هو محاولة استثمار رؤوس اموال اوروبية في المستعمرات وتشجيع الهجرة الى بعضها بسبب ازدياد السكان ؛ الاتجاه الثاني هو ظهور نظرية او فكرة مسؤولية الرجل الابيض في نقل المدنية الاوروبية الى الشعوب «البدائية» بقصد تمدينها . ممن كان يمثل هذه النزعة ويدافع عنها الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦) الذي جسّد في شعره وقصصه المسؤولية التمدينية للرجل الابيض ، وكان لذلك حظ من التأثير في دوائر المثقفين وفي اوساط الاحزاب السياسية .

اما الاتجاه الثالث ، فكان واضحا في تصرف بريطانيا العملي (وتصرف غيرها واقعيا ونظريا معا) : وهو التفريق بين المستعمرات البيضاء الاستيطانية ، اي التي كانت امتدادا للبريطانيين في الخارج ، وبين المستعمرات السوداء وهي التي احتلت بالقوة ولم تجذب سوى اعداد ضئيلة من المهاجرين البيض اليها . يتضح هذا في تصرف بريطانيا نحو المستعمرات التي منحتها حكما ذاتيا . فنالت نيوزيلاندا ذلك (١٨٥٢) ، وكذلك مستعمرة الرأس (الكاب) في سنة ١٨٧٢ ، وناتال (١٨٩٣) ، وانشيء اتحاد كندا (١٨٦٧) من المستعمرات الاربع التي كانت قد حصلت على نوع من الحكم الذاتي قبل ذلك . كذلك اصبح الاتحاد الاسترالي ذا حكم ذاتي سنة ١٩٠١ .

الاستعمار الأوروبي في جزر الهند الغربية وكندا

كانت نتيجة الرحلات الاربع التي قام بها كولمبوس (١٤٥١؟ - ١٥٠٦) الى البحر الكاريبي انها سمحت لاسبانيا ان توطد اقدامها في المنطقة وان تعتبر نفسها صاحبة الحق الوحيدة في استعمارها ، الامر الذي كرسه البابا . لم يعترض على اسبانيا احد في اول الامر ، اذ استقرت في كوبا وبورتوريكو وجامايكا واسبانيولا (الآن هايتي وجمهورية الدومنيك) . الا انه ، بدءا من ثلاثينات القرن السادس عشر ، أخذ البحارة الفرنسيون والهولنديون والانجليز يتحدّون اسبانيا هناك بتعاطي التجارة غير المشروعة ، ومهاجمة السفن والمستوطنات الاسبانية . وكان بحارة من

١

المستوردات

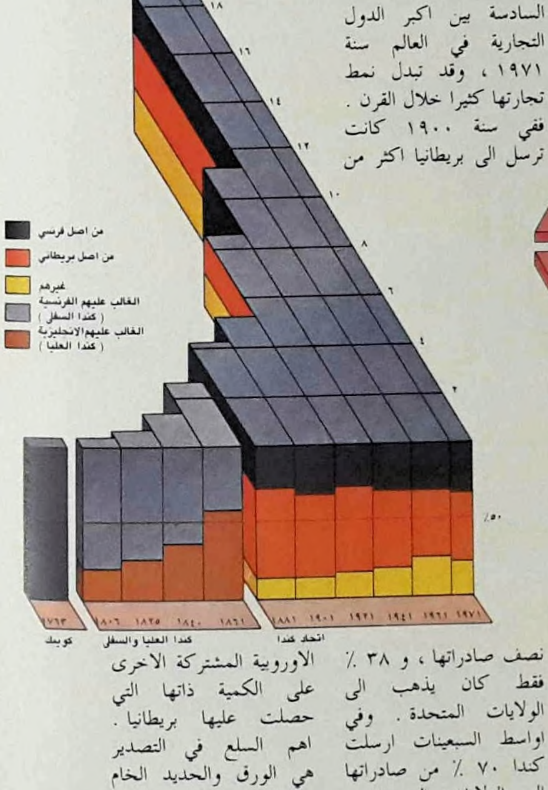
المملكة المتحدة
الولايات المتحدة
بلدان اوروبا الاخرى
آسيا
غير ذلك

الصادرات

١٨٤٠ - ٤٩ ١٨٥٠ - ٥٩ ١٨٦٠ - ٦٩ ١٨٧٠ - ٧٥

٣

صيني
هندي
٣٠٠٠ عامل مهاجر



(١) - كانت كندا السادسة بين اكبر الدول التجارية في العالم سنة ١٩٧١ ، وقد تبدل نمط تجارتها كثيرا خلال القرن . ففي سنة ١٩٠٠ كانت ترسل الى بريطانيا اكثر من نصف صادراتها ، و ٣٨ ٪ فقط كان يذهب الى الولايات المتحدة . وفي اواسط السبعينات ارسلت كندا ٧٠ ٪ من صادراتها الى الولايات المتحدة و ٧ ٪ فقط الى بريطانيا ، وقد حصلت اليابان ودول السوق الاوروبية المشتركة الاخرى على الكمية ذاتها التي حصلت عليها بريطانيا . اهم السلع في التصدير هي الورق والحديد الخام والنحاس ، واكبر المواد المستوردة تحتوي على الآلات وقطع غيار السيارات.

الانجليز قد اخذوا ينقلون الرقيق الافريقي الى جزر الهند الغربية ، كما قام اشهر القراصنة الانجليز ، السير فرنسيس دريك (١٥٤٠؟ – ١٥٩٦) ، بالاغارة على الموانىء الاسبانية هناك . وكان هذا بدء عهد القرصنة والمغامرات (٦) .

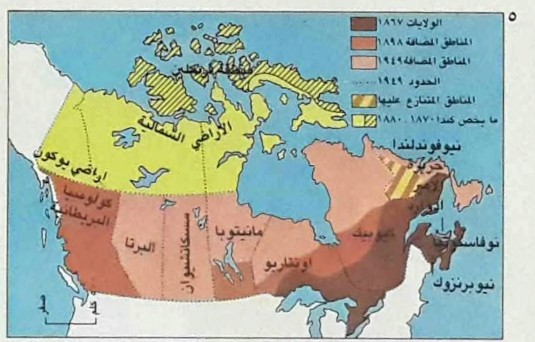
التنافس على جزر الهند الغربية

عقدت اسبانيا معاهدات في القرن السابع عشر مع منافسيها أدت الى استيطان الانجليز (بين سنتي ١٦٢٤ و ١٦٣٢) في سان كتس وبربادوس ونفيس وانتيجونا ومونسرات ، كما احتلوا جامايكا (١٦٥٥) . كذلك اخذ الفرنسيون (بين ١٦٣٥ و ١٦٥٥) جزر مارتنيك وجوادلوب وسان دومنيك ، واستقر الهولنديون والدنمريكون في اماكن اخرى .

٤



٥



(٢) – كان عدد سكان المستعمرات البريطانية في امريكا الشمالية سنة ١٨١٥ اقل من ٥٠٠٠٠٠ ، لكنه تجاوز المليونين في سنة ١٨٥٠ بسبب الهجرة الكثيفة الى تلك الجهات . ثم وصل خمسة ملايين في عام ١٩٠١ . في سنة ١٩٧٧ كان عدد السكان قد بلغ ٢١,٥ مليونا منهم ٨,٢ ملايين ولدوا في كندا بما في ذلك ٢٧٠٠٠٠ هندي و ١٧٥٠٠ من الاسكيمو . اما المولودون في بريطانيا ، فقد بلغ عددهم ٩٣٣٠٠٠ نسمة .

---

(٣) – بعد الغاء الرق ، كان المهاجرون يأتون من اماكن متعددة للعمل في جزر الهند الغربية ، وكان الهنود (الآسيويون) اكبرهم عددا . الا انه كان ثمة افارقة ينتزعهم الاسطول الملكي (البريطاني) من سفن كانت تقوم بتهريب الرقيق الى كوبا والبرازيل ، وكان بينهم برتغاليون من ماديرا ، وكان هناك صينيون وسود اعتقوا من الرق في الولايات المتحدة ، كما كان هناك هنود من جزر الهند الغربية رحلوا من بربادوس ومن الجزر المزدحمة بالسكان . وقد انتقل الصينيون والبرتغاليون من الاراضي الى العمل في التجارة غالبا .

(٤) – تبين هذه الخارطة الاستكشافات الاوروبية في كندا ، وهي التي بدأها كابوت باستكشافه الساحل الشرقي ، وكارتييه باستكشافه نهر سنت لورنس . في سنة ١٦١٠ دخل هدسون (ت ١٦١١) الخليج الذي اصبح يحمل اسمه . وكان صموئيل هيرن (١٧٤٥ – ١٧٩٢) اول رجل ابيض يجتاز الارض الممتدة من خليج هدسن الى المحيط المتجمد الشمالي . ووصل انطوني هنداي الى جبال روكي ، وعبر الكسندر مكنزي (١٧٥٥ – ١٨٢٠) الى ساحل المحيط الهادىء في سنة ١٧٩٣ .

(٥) – ظهرت كندا الاتحادية الى الوجود سنة ١٨٦٧ اذ وحدت كندا العليا (اونتاريو) وكندا السفلى (كوبيك) ونوفاسكوتيا ونيوبرونزويك ، ونظمت الاراضي الغربية ، التي ابتيعت من شركة خليج هدسن ، لتصبح الاراضي الشمالية الغربية التي كانت تدار من اوتاوا ، والتي اصبحت فيما بعد سسكاتشيوان والبرتا . ولما كانت نيوفوندلاند اقرب الى بريطانيا منها الى كندا ، فقد ظلت منفصلة عن الاتحاد الى سنة ١٩٤٩ .

كان على سكان الجزر ان يزوّدوا البلاد المستعمرة بمنتوجاتها المدارية . كان التبغ والقطن والنيلة المنتوجات الرئيسية التي ينتجها الفلاحون باشراف فئة من البيض . ولكن لما ادخل الهولنديون نظام انتاج السكر على الاراضي الزراعية الواسعة (نقلوا هذا عن البرازيل) التي يعمل فيها الرقيق ، اختفت المزارع الصغيرة وحلت محلها مزارع قصب السكر . وهكذا اصبحت جزر الهند الغربية منذ اواسط القرن السابع عشر مرتبطة الحياة بانتاج نوع واحد من المحاصيل الزراعية . تركزت صناعة السكر الجديدة في جامايكا (انجلترا) وسان دومينيك (فرنسا) التي اصبحت اكبر منتج للسكر في العالم ، حتى ثورة هايتي (١٧٩١ - ١٨٠٣) . كانت صناعة السكر في القرن الثامن عشر اكثر ما يحب المستعمرون في جزر

٦



٧



(٦) - اثار القراصنة والمغامرون الرعب في صفوف السفن التي كانت تمخر البحر الكاريبي في القرن السابع عشر . كانوا يهاجمونها على اختلاف انواعها ، فيما كان المغامرون يهاجمون السفن الاسبانية فقط . ويشنون حربا غير رسمية حتى في اوقات السلم ، نيابة عن انجلترا وفرنسا وهولندا ، التي كانت تزودهم بالقوى البشرية ، كما كانت تفيد من الاسلاب والغنائم . وقد قام هنري مورجان (١٦٣٥؟ - ١٦٨٨) ، وهو من ابعد المغامرين البريطانيين صيتا ، بسلب مدينة باناما.

(٧) - قامت جمعية مقاومة الرق ، التي اسست سنة ١٨٢٣ ، بتنظيم وتوجيه الجهود التي كانت تبذلها الفرق الدينية والمصلحون الانسانيون الذين قادوا الحملات الاولى ضد الرق . كانت الجمعية واحدة من اوائل الجماعات التي انشئت ومارست ضغوطا حول الموضوع ، وقد انشأت لها اكثر من مئتي فرع . اصدرت الجمعية مجلة مليئة بالحيوية ، ونظمت محاضرات القاها اصحاب الحملات المتحمسون ورجال التبشير العائدون ، كل هذا للمحافظة على نار الحماسة متقدة .

٨



(٨) - كان البيت الذي يقطنه مالك الارض (المزرعة) او وكيله المحامي عنه ، هو عادة البناء الوحيد المقام على الارض ، بالاضافة الى المعصرة . كانت بيوت المزرعة التي شيدت في القرن الثامن عشر ، ابان اعظم ازدهار لجزر الهند الغربية ، قصوراً فخمة اشتهرت بضيافتها السخية والصاخبة . كان يعمل فيها عدد كبير من العبيد للخدمة .

الهند الغربية السيطرة عليه ، فجذبت اليها رؤوس الاموال والرقيق الافريقي . لم تهدأ المنافسة البريطانية الفرنسية هناك ، بل استمرت في القرن التاسع عشر ، وقد امتدت الى كندا ايضا ، التي كان قد وصلها كابوت (١٤٥٠؟ - ١٥٠٠؟) واكتشف نيوفوندلاند للانجليز (١٤٩٧) ، وتبعه كارتييه فاكتشف مصب نهر سنت لورنس (١٥٣٤) لفرنسا ، ومنذ سنة ١٦٠٠ اقيمت مستوطنات وقلاع ثابتة هناك مثل بور رويال وكوبك (للفرنسيين) .

من الاستغلال الاستعماري الى الاستقلال

جاء حظر تجارة الرقيق (١٨٠٧) ومنع الرق (١٨٣٣) (٧) فحرم المستعمرين موردا للعمال في مزارع السكر . لهذا بحثوا عن مورد جديد فوجدوه في الهند بالذات . وقد نقل نحو ٣٨٠ ٠٠٠ (٤) من الهنود الى جزر الهند الغربية بين ١٨٤٥ و ١٩١٧ .

ظل الاستغلال الاستعماري يطغى على هذه البلاد الى ثلاثينات القرن الحالي حتى حمل الفقر السكان على الثورة . بعد الحرب العالمية الثانية ، منح السكان حق التصويت العام ، وعندها اخذت الممتلكات تتجه نحو الاستقلال . فكان هناك اتحاد لم يدم طويلا (١٩٥٨ — ١٩٦٢) بسبب المشاحنات الداخلية ، ثم استقلت الجزر المختلفة : جامايكا وترينيداد (١٩٦٢) وباربادوس وجويانا (١٩٦٦) وجرانادا (١٩٧٤) . ودخلت البلاد المنتجة للسكر في اتفاق اقتصادي .

كندا

اما في كندا ، فان المنافسة البريطانية الفرنسية اشتدت هناك بسبب تضارب المصالح التجارية فيها ، وانعكست عليها المنافسة البريطانية الفرنسية في البحر الكاريبي وفي اوروبا بالذات . فلما انتهت حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، وقعت الدولتان صلح باريس (وكانت بريطانيا قد انتزعت من فرنسا كوبك ومونريال اثناء الحرب) ، وبموجبها تخلت فرنسا لبريطانيا عن جميع ممتلكاتها في امريكا الواقعة الى شرق نهر المسيسبي باستثناء لويزيانا .

سمحت بريطانيا لهذه المستعمرات بأن تحتفظ بالقانون المدني الفرنسي وان تظل على كاثوليكيتها . لكن اثناء الثورة الامريكية (١٧٧٦ - ١٧٨٣) رحل كثيرون من المؤيدين لبريطانيا الى كندا . وتجنبا لاحتكاك مستمر بين الجماعتين انشأت بريطانيا (١٧٩١) كندا العليا (غالبيتها بريطانية) وكندا السفلى (غالبيتها فرنسية) . على اثر نشوب اضطرابات في المقاطعتين الكنديتين (١٨٣٧) ، كلّف اللورد درهام (١٧٩٢ - ١٨٤٠) بحث القضية من ناحيتها السياسية والاجتماعية ، فأوصى بمنح الحكم الذاتي للبلاد وتوحيد المنطقتين (تم هذا ١٨٤٠) . واخيرا (سنة ١٨٦٧) وضع دستور اتحادي للبلاد ، مع توسع في الحكم الذاتي . سارت كندا خطوات واسعة في سبيل تحقيق ذاتيتها السياسية والدولية في القرن العشرين ، فكانت اول مستعمرة بريطانية تنال استقلالها التام .

نشر المسيحيّة

انتشرت المسيحية في انحاء العالم على مراحل . شهدت المرحلة الاولى انطلاق الدين الجديد من منبعه في فلسطين ، وتغلغله في العالم الروماني الفسيح في غضون القرون القليلة الاولى للميلاد ؛ وقعت المرحلة الثانية في حقبة العصور الوسطى الباكرة ، عندما اصبحت معظم اوروبا تدين بالمسيحية ؛ بدأت المرحلة الثالثة في القرن الخامس عشر ، حينما اتجهت المسيحية نحو المناطق النائية من العالم .

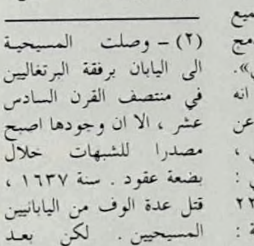
اداة الفتح

أعطى نشوء الامبراطوريتين البرتغالية









(١) – امتد النشاط الارسالي المسيحي امتدادا واسعا من ١٨١٥ حتى القرن العشرين . بالاضافة الى انتعاش الارساليات الكاثوليكية الرومانية ، كان ثمة انبجاس للنشاط البروتستانتي ، الذي تميز بدرجة ملحوظة من التعاون بين مختلف مذاهبه . بلغ هذا التعاون ذروته في «المجلس الارسالي العالمي» الذي انشىء سنة ١٩٢١ ، فعضد النشاط الارسالي وحفزه في جميع انحاء العالم ، حتى اندمج «بمجلس الكنائس العالمي» . في سنة ١٩٦٥ ، قيل انه يوجد في العالم ما ينيف عن ١٠٠٠ مليون مسيحي ، موزعين على الشكل التالي : امريكا الشمالية : ٢٢٦ مليونا ، امريكا الجنوبية : ٢٠٠ مليون ، اوروبا : ٥١٥ مليونا ، آسيا : ٩٠ مليونا ، افريقيا : ٩٠ مليونا ، اوقيانيا : ٧ ملايين .

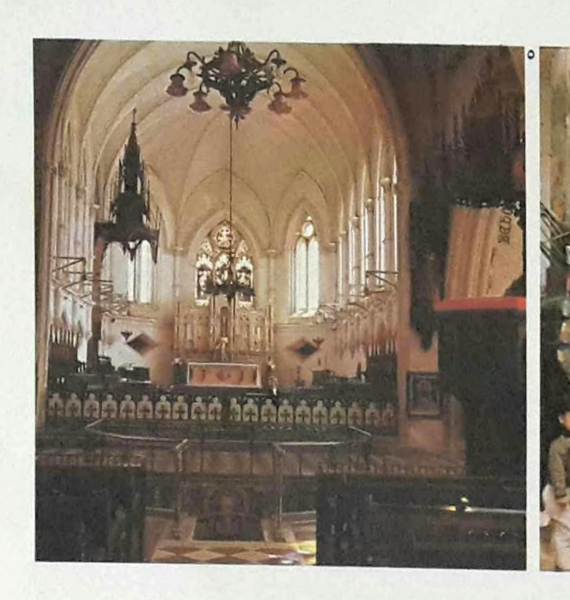
(٢) – وصلت المسيحية الى اليابان برفقة البرتغاليين في منتصف القرن السادس عشر ، الا ان وجودها اصبح مصدرا للشبهات خلال بضعة عقود . سنة ١٦٣٧ ، قتل عدة الوف من اليابانيين المسيحيين . لكن بعد انصرام فترة عزل اليابان سنة ١٨٥٨ ، استؤنف العمل الارسالي وأخذت

والاسبانية في الامريكتين في القرن الخامس عشر ، وامتدادهما على طول ساحل افريقيا وفي جزر الهند والمحيط الهادىء ، دفعا عظيما لزحف الكاثوليكية الرومانية ، فجرى تقسيم العالم بموجب مرسوم بابوي سنة ١٤٩٣ الى مناطق نفوذ خاصة بالتاجين الكاثوليكيين البرتغالي والاسباني ، واصبحت الكنيسة ذاتها اداة للفتح والاستعمار .

في بعض الاحوال ، جرى تنصير مجموعات كاملة من السكان بالقوة في المناطق المكتشفة حديثا ، فضلا عن اقدام السلطات الاستعمارية على تجاوزات اخرى . في كثير من الاحوال ، كان المرسلون الكاثوليك انفسهم من اقوى النقاد لهذه التصرفات ، وكان من اعنفهم «الحامي العام للبحر الكاريبي الاسباني» بارتولومي دي لاس كاساس (١٤٧٤ –



٤



٥

الارساليات تقوم بمجهود كبير في حقل التربية . أصبح هيوفوس ، وهو من اوائل الارساليين ، اسقفا على اوكاسا سنة ١٨٩٩ . يبدو هنا (الى اليسار) مع بعض افراد الاكليروس الوطني .

(٣) – كانت الكنيسة في البرازيل ، كما في المستعمرات الاسبانية ، على صلة وثيقة بالدولة ، رغم تأثير روما على اليسوعيين . كانت الكنائس البرتغالية ، مثل هذه الكنيسة في السلفادور ، اقل ثراء من تلك التي بناها الاسبان .

(٤) – يرمز هذا المزار ، الواقع على جانب الطريق في اوتوفالو بالاكوادور ، الى تسرب الدين حتى الى الجذور الشعبية . على الرغم من اهتمام الكنيسة بمصلحة الهنود ، فقد ساعدت على تخلفهم الثقافي من جرّاء دعمها لاستخدامهم في المناجم .

(٥) – كانت الممتلكات البريطانية في الهند محور نشاط ارسالي متزايد في اواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان يدور اصلا على نشاط الاطباء . لكن على اثر نشاط اسكندر دوف (١٨٠٦ – ١٨٧٨) في كلكوتا حوالى ١٨٣٠ ، اصبحت المسيحية قوة رئيسية ايضا في النظام التربوي الذي وضعه البريطانيون . الا انها اخفقت في منافسة الاديان القومية بشكل واسع .

١٥٦٦) . الا ان الانتشار الكاثوليكي لم يقتصر على المناطق التي كان يحكمها رسميا حكام اسبان وبرتغاليون .

كان ابرز مرسل يسوعي ، وهو فرنسوا كزافييه (١٥٠٦ - ١٥٥٢) ، قاصدا بابويا على المستوطنات الهندية البرتغالية . ثم اتجه نحو اليابان لتأسيس ارسالية فيها ، وتوفي بالقرب من ماكاو في الصين . كان يسوعي آخر ، هو ماتيو ريتشي (١٥٥٢ - ١٦١٠) مسؤولا عن ادخال الكاثوليكية الى الصين ، حيث نعمت لفترة من الزمن برعاية الاباطرة وكسبت عددا من المتنصرين . لم تنكسف سمعة الكنيسة في الصين الا في القرن الثامن عشر على اثر منازعات داخل الكنيسة ، ادت الى قمع الكاثوليكية في تلك البلاد ، فقل عدد الكاثوليك فيها الى حد كبير .

كان نجاح الارسالية في اليابان طفيفا ،



(٦) - بنيت هذه الكنيسة في ملوي (أ) قبالة المسجد (ب) ، وهي تدل على مدى اندفاع الارساليات المسيحية لكسب قلوب السكان في افريقيا الوسطى . بنتها ارسالية تابعة لكنيسة اسكتلندا في بلانتاير بملوي في اواخر القرن التاسع عشر ، وهي تكشف غنى وقوة مرسليها في افريقيا الوسطى البريطانية القديمة .



(٧) - تقبلت شعوب الأيبو في نيجيريا الجنوبية الشرقية ، على غرار عدد من الفئات العرقية الاخرى في افريقيا ، الديانة المسيحية والتربية الاوروبية في ظل النفوذ البريطاني الاستعماري والارسالي في القرن التاسع عشر . اندمج الدين المسيحي في الغالب بالاديان السائدة ، التي كانت تنطوي على الايمان بإله خالق ، فضلا عن آلهة وارواح اخرى عديدة . القناع الظاهر في الصورة يعكس هذا الدمج . حفر من الخشب ، وهو يمثل المسيح على الصليب ، محاطا بالملائكة . يجسد القناع تقليدا عريقا للايبو ما زال ممارسا بقوة حتى اليوم ، وهو يستخدم في عدة احتفالات عامة ، مثل احتفال الابتهال الى الآلهة او مراسم تقبل الدين ، فضلا عن مهرجانات مسيحية صرفة .

وابتداء من ١٥٨٧ وعلى مدى ٥٠ سنة تعرضت الكنيسة للاضطهاد الشديد ، فلم يبق سوى عدد ضئيل من المسيحيين في تلك البلاد .

نقلت الاشكال البروتستانتية من المسيحية الى تلك المناطق من العالم التي استقرت فيها اعداد ضخمة من الاوروبيين المنتمين الى هذه المذاهب ، وبخاصة امريكا الشمالية (باستثناء كندا الفرنسية ، حيث كان المستوطنون من الكاثوليك) ، وفيما بعد افريقيا الجنوبية واستراليا وزيلندا الجديدة . الا ان القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر شهدا جمود النشاط الارسالي عموما باستثناء نشاط الفئات «الورعة» المورافية والالمانية التي الهمت حميتها المرسلين البروتستانت فيما بعد .

المسيحية والنشاط الاستعماري

جاءت الانطلاقة الثانية العظمى للنشاط الارسالي في اواخر القرن الثامن عشر وابان القرن التاسع عشر ، وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتعاش البروتستانتية في اوروبا الشمالية الغربية . جرى التقدم المسيحي الجديد جنبا الى جنب مع النشاط الاوروبي الاستعماري في الاجزاء الاستوائية الكثيفة السكان ، لاسيما الهند وافريقيا . ومع غليان الثورتين الفرنسية والصناعية تألفت مجموعة من الجمعيات الحسنة التنظيم والقوية ماليا في الغالب ، منها «جمعية الارسالية المعمدانية البريطانية» سنة ١٧٩٢ ، التي ارسلت المبشرين الى الهند ، وجمعية «ارسالية لندن غير الملتزمة» سنة ١٧٩٥ ، و«جمعية الارسالية الهولندية» سنة ١٧٩٧ ، وجمعية «ارسالية كنيسة انجلترا» سنة ١٧٩٩ ، و«مجلس المفوضين الامريكيين للارساليات الاجنبية» ، سنة ١٨١٠ ، وجمعية «الارسالية الوزلية الميثودية» سنة ١٨١٣ (وقد توحد عدد من الجمعيات الاسكتلندية المسيحية حوالى هذه الحقبة) . ثم تأسست «جمعية ارسالية بازل المتعددة المذاهب» .

الانتعاش الكاثوليكي في القرن التاسع عشر

بانتهاء القرن التاسع عشر ، كان ما ينيف عن ٣٠٠ من هذه الجمعيات او المجالس قائما . لكن ما لبث ذلك ان ولّد النشاط الارسالي الكاثوليكي الذي كان انتعاشه بطيئا بادىء الامر لكنه كان ذا اثر يضاهي الاثر البروتستانتي وربما اكثر منه في عدد المتنصرين . كان من ابرز الارساليات الكاثوليكية ارسالية «الآباء البيض» ، ومعظمهم فرنسيون .

كانت نتيجة هذه الجهود الارسالية ، التي تواصلت خلال القرن التاسع عشر وحتى العشرين ، انتشار المسيحية في معظم انحاء العالم الاستوائي . غير ان المسيحية لم تحقق تقدما كبيرا في المناطق التي كانت اديان اخرى ذات طابع عالمي ، لاسيما الاسلام ، متأصلة فيها ، بل رافق انطلاقة النشاط الارسالي المسيحي في نهاية القرن السابع عشر انتعاش للاسلام الذي احرز مكاسب على تخوم معاقل الديانات الداخلية القديمة ، لاسيما في اندونيسيا وافريقيا (٦) .

الاستعمار والوطن العربي حتى القرن العشرين

وقع الوطن العربي ، منذ اواخر القرن الخامس عشر ، ضحية الغزو الاستعماري الاوروبي الغربي الذي شمل مختلف قارات العالم . كان ذلك تتمة للحروب الصليبية من جهة ، وامتدادا لحركة التوسع والنهب لثروات العالم من جهة اخرى . اتخذ هذا الغزو اشكالا عديدة ، ومراحل متتالية بدأها البرتغاليون والاسبان ، وتابعها منذ القرن السابع عشر الهولنديون لفترة قصيرة والانجليز والفرنسيون ثلاثة قرون .

المرحلة البرتغالية ـ الاسبانية

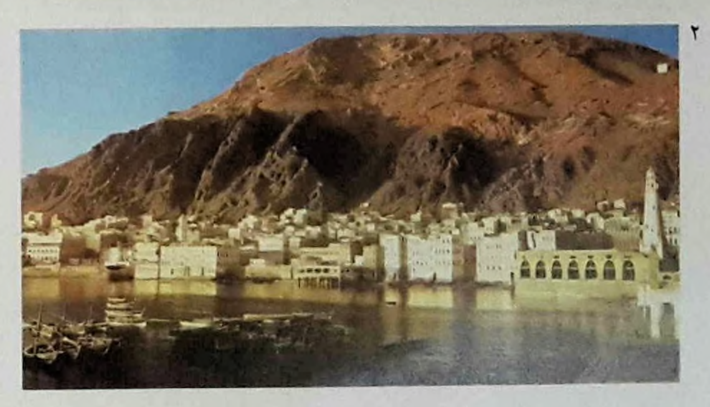
أغلقت قوى الاستعمار البرتغالي ـ الاسباني أولا مضيق جبل طارق على

١



(١) ـ أضحت انجلترا في مطالع القرن ١٩ سيدة المحيط الهندي بعد ان تعاهدت مع عمان ، وتخلصت من المنافسة الفرنسية هناك . لم يكن يقلقها سوى القوة البحرية التي استطاعت قبائل القواسم وغيرها ان تبنيها على الساحل العماني في الخليج ، ومركزها (رأس الخيمة) . كان ملاحو الخليج بحارة متمرسين . وكان القواسم يدافعون عن تجاراتهم وأمنهم بمطاردة السفن الاوروبية . اعتبر الانجليز ذلك قرصنة ، وشنوا على القواسم حملات مدمرة . البطولات الانتحارية التي تجلت في دفاع القواسم لم تمنع تدمير اساطيلهم في النهاية . الصورة لمعركة رأس الخيمة (١٣ نوفمبر ١٨٠٨) من رسم ر. تامبل .

٢



(٢) ـ مرفأ مكلا واحد من ثلاثة مرافىء في الجنوب العربي ، (مع عدن ومسقط) ، وقفت للاستعماريـن البرتغالـي والانجليزي .

الاساطيل العربية الاسلامية في البحر المتوسط في اواخر القرن الخامس عشر ، كما قطعت في الوقت نفسه طرق التجارة على هذه الاساطيل في المحيط الهندي . من أجل ذلك هاجمت واحتلت اطراف البلاد العربية في المنطقتين ، في المغرب وفي الجنوب . واذا استطاعت الدولة العثمانية في البحر المتوسط من جانب ، والدولة السعدية التي قامت في المغرب (١٥١١ ـ ١٦٥٩) من جانب اخر ، أن تطردا المحتلين من موانىء الغرب الاسلامي (الا في نقطتين او ثلاث) (٣) خلال النصف الاول من القرن ١٦ ، فان البرتغاليين بقوا على الاطراف المشرقية في جزيرة العرب حتى النصف الاول من القرن ١٧ ، حين طردتهم القوى المحلية (٥) بالتعاون مع الهولنديين والانجليز . الا ان هذه القوى ما لبثت ان وجدت نفسها في

٣ أ



(٣) ـ ظل هم الاستعمار الاسباني منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢) غزو السواحل المغربية والاستيلاء عليها . من النقاط التي هاجمها مبكرا (وهران) . قام بذلك الكاردينال خيمينيز (١٤٣٦ ـ ١٥١٧) المسؤول الاول عن محاكم التفتيش الاسبانية ، والمحارب الصليبي المتعصب . الصورة (أ) تمثل دخوله الى وهران غازيا عام١٥٠٨. أما تطوان (ب) فكانت مع الريف من آخر ما هاجمه الاسبان .

ب



٤



(٤) ـ وصلت فرنسا في استعمارها لافريقيا الغربية اواخر القرن الماضي الى بحيرة تشاد ، حيث أقامت محطة عسكرية (هذه صورتها عام ١٩٠٣) للامتداد منها الى السودان المصري ، ومنابع النيل . وصل الضابط الفرنسي مارشان عام ١٨٩٨ من الكونغو الى بلدة فاشودة بأعالي النيل ، ورفع العلم الفرنسي . اعتبرت انجلترا ذلك عدوانا على حقوقها وطردته .

قبضة هؤلاء الغزاة الجدد . ثم جرى تطويق العالم الاسلامي (العثماني – الايراني – التركي) من الشمال بامتداد القيصرية الروسية تدريجيا من بحر الخزر الى السهوب السيبيرية في القرنين ١٧ و ١٨ حتى وصلت في النهاية الى فلاديفوستك .

المرحلة الانجليزية – الفرنسية :

تطور الاستعمار بعد ذلك مع سرعة تطور الثورة الصناعية في اوروبا منذ اواخر القرن الثامن عشر . كسبت الرأسمالية الاستعمارية ديناميكية خاصة نتيجة الاستقرار الذي فرضته اتفاقيات مؤتمر فيينا (١٨١٥) . ولما كانت بريطانيا قد خسرت الولايات المتحدة في امريكا (١٧٨٣) ، وكانت فرنسا قد فشلت في العالم الجديد ، فقد وجدت الدولتان مجال التعويض الواسع في الاسواق والمادة الخام

٥

٦



(٥) – حين وصل البرتغاليون الى الجنوب العربي وعمان والخليج (اواخر القرن ١٥) تناولوا قواها وتجارتها ومدنها بالتدمير والنهب . المقاومة العربية تعاونت اولا مع القوى الاستعمارية المنافسة (هولندا وانجلترا) . تزعم المقاومة دولة اليعاربة في عمان . سلطان بن سيف قضى نهائيا على القاعدة البرتغالية في مسقط عام ١٦٥١ ، وفي ديو عام ١٦٥٥ والهند . أصبحت البحرية العمانية بذلك أقوى قوة ملاحية في المحيط الهندي بكامله ، وطردت الهولنديين عام ١٧٦٥ ، وتنافس على التحالف معها الفرنسيون والانجليز . لكن قوة البحرية الانجليزية المتزايدة جعلت من عمان تحت رحمة النفوذ الانجليزي ، وخاصة بعد عقد معاهدة مسقط عام ١٧٩٨ و ١٨٠٠ .

---

(٦) – كانت حرب القرم عام ١٨٥٦ ابرز ما كشف الاطماع الروسية في املاك «الرجل المريض» . استغلت روسيا التنافس الكاثوليكي – الارثوذكسي على مفاتيح الاماكن المقدسة في القدس ، فأنذرت السلطان بقبول حمايتها للمسيحيين العثمانيين . فلما رفض الانذار شنت الحرب التي دخلها ضدها الفرنسيون والانجليز مع السلطان . كانت من ابشع الحروب (الصورة) وانتهت بمعاهدة ١٨٥٦ .

في افريقيا وآسيا . لحقت بهما بعد ذلك المانيا وايطاليا بعد تحقيق وحدتيهما . كان طبيعيا ان يقوم التنافس بين المستعمرين في نقاط التماس الجغرافي بينهم (٤) وأن يزداد توتره بمقدار عمق المصالح الاستعمارية المهددة . واذا كان ابرز المتنافسين على المناطق العربية هما بريطانيا وفرنسا ، فقد ركز الانجليز جهودهم على المشرق خاصة لانه طريق الهند ، فيما توجه الفرنسيون الى المغرب المقابل لهم على المتوسط . شاركتهما روسيا من بعيد (٦) ، والمانيا وايطاليا بعد ذلك ، مما جعل العملية الاستعمارية موضع مساومات ومؤتمرات دولية معقدة . هكذا كان الاستعمار ، في النصف الاول من القرن ١٩ ، يعمد الى الاحتلال العسكري المباشر (الجزائر ١٨٣٠ ، عدن ١٨٣٩) . أما بعد حرب القرم (١٨٥٦) ، فالتدويل والمساومات السرية كانت تسبق الاحتلال ، كما جرى في أمر تونس (١٨٨١) ، ومصر (١٨٨٢) ، والمغرب (١٩٠٧) ، وليبيا (١٩١١) .

وسائل وطرائق الاستعمار

تعددت الوسائل والطرائق حسب المراحل :

١) أسست القوى الغربية (الانجليزية والهولندية ثم الفرنسية) شركات تجارية (شركات الهند) منذ مطلع القرن السابع عشر (١٦٠٠ ، ١٦٠٢ ، ١٦٦٠) ، وأصبح لهذه الشركات مع الوقت وكالات تجارية في الخليج والبصرة وبغداد وحلب والقاهرة والاسكندرية ، وكانت تعمل ، بخدمتها للقنصليات ، وبواسطة المصارف التي تستغل العمليات المالية ، على احكام الاستغلال الاقتصادي ، كما كان لهذه الشركات ـ الموانىء مواقع استراتيجية ، وحصون واساطيل للتجارة والقتال ، وامتيازات جمركية ، ومعاهدات أمنت لها السيطرة على القوى المحلية (١) .

٢) فتحت المدارس التبشيرية منذ مطلع القرن الثامن عشر . اشترك في ذلك جميع القوى الاستعمارية . واذا استثنينا الجزائر التي انفردت فيها فرنسا بالتبشير الكاثوليكي خاصة ، فان معظم النشاط التبشيري كان يتركز في بلاد الشام (القدس ، الناصرة ، بيروت ، حلب) . وتميزت مدارس كل فريق بالدعوة لمذهبها الخاص من كاثوليكية وبروتستانتية وانجليكانية وارثوذكسية . واستغلت هذه الاعمال التبشيرية ، ومعها الطوائف الدينية المحلية ، في المنافسات السياسية بين الدول الاستعمارية نفسها من جهة ، وفي التأثير على السلطة العثمانية المتزايدة في الضعف من جهة اخرى .

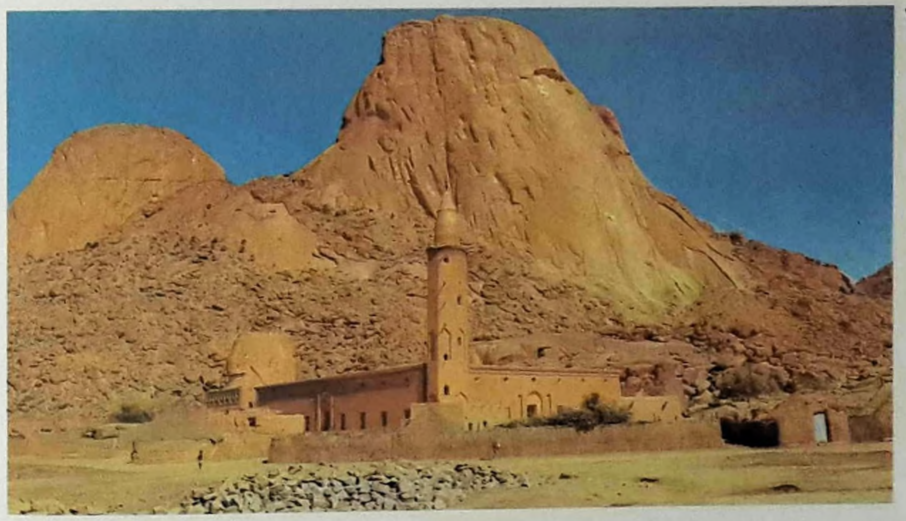
٣) توغلت القوى الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر في المناطق العربية بالمشاريع الاقتصادية (سكك حديد دمشق ـ المدينة ، واسطنبول ـ بغداد ، قناة السويس ، البنك العثماني) . كان من وسائلها ايضا اغراق دول المنطقة بالديون .

٤) وأخيرا كانت تنتهي هذه الاعمال بالاحتلال العسكري المباشر في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبعض البلاد العربية احتلت قبل ذلك بكثير .

حركات الاصلاح الاسلاميّة

منذ مطلع القرن الثامن عشر تعاونت عوامل عديدة على ايقاظ المجتمع الاسلامي الذي كان يحكمه العثمانيون . فقوة الجيش الانكشاري كانت قد تفسخت ، والنظم الادارية التقليدية نخرها الفساد ، والمتمردون المحليون تكاثروا في مواقع عديدة ودمروا هيبة الدولة . وجاء دور الانحطاط الطويل منذ اواخر القرن ١٧ ليجهز على ما بقي للسلطان من نفوذ داخلي او خارجي . فبعد الهزائم المحدودة امام اوروبا ، جاءت في اواخر القرن ١٨ ومطلع القرن ١٩ المعاهدات والاحداث المذلة وما سمي بالمسألة الشرقية . احدث كل ذلك رد فعل عنيفا

١



٢



(١) – دخلت الميرغنية (وتسمى الختامية ايضا) الى السودان مع محمد عثمان الميرغني (١٧٩٣ – ١٨٥٣) من اهل الطائف ، (تلميذ ابن ادريس الزعيم الروحي لجماعة الصوفية الخضرية في مكة) . استقر في الختامية جنوبي كسلا . انتشرت طريقته – ولا تزال – في شرقي السودان ، وبلاد النوبة بين أسوان الى دنقلة ، وفي كردفان حيث اقام طويلا ، ونشر الاسلام بين الوثنيين . توفي بالطائف . الصورة لجامع الختامية في كسلا .

(٢) – انتشرت في شرقي افريقيا وعلى اطراف الصحراء الكبرى عدة طرق صوفية كان لها شأن كالسمانية والاحمدية والتيجانية . غير أن الطريقة التي عرفت اوسع الانتشار في القرن الماضي هي السنوسية . تميزت بتنظيمها الشامل. وهذا مايفسر انتشارها

في المجتمع الاسلامي الذي كانت بناه التقليدية قد اخذت بدورها تتزعزع تحت ضغط الاتصال بالغرب ، وكان قد أخذ يبحث عن سبب العجز والهزائم . كان الجواب قيام عدد من دعوات الاصلاح الاسلامي عملت كل منها في طريق .

حركة محمد بن عبد الوهاب

أول حركات الاصلاح كانت في نجد ، في اواسط القرن السابع عشر . عرفت باسم صاحبها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) الذي نادى باعادة الاسلام الى صفائه السلفي الاول والقيام باركانه ، كما دعا الى نبذ الخرافات والنذور وشفاعات الاولياء . لقيت دعوته السند القوي حين تبنّاها آل سعود . واسفر اللقاء بين القوتين الدينية والسياسية عن قيام كيان سياسي فيما بين

٣



٤



٥



الواضح على المصور .

فبقي عنده حتى توفي .

(٣) ـ ولد جمال الدين الافغاني في أسد اباد بافغانستان . تولى رئاسة الوزارة في بلاده . ثم تنقل بين الهند ومصر ثم الاستانة (بدعوة من السلطان) . اختلف مع شيخ الاسلام فعاد الى مصر . نفاه الخديوي توفيق فذهب الى باريس ، وأنشأ مع تلميذه محمد عبده مجلة «العروة الوثقى» . تولى وزارة الحربية لشاه ايران ١٨٨٦ ، ثم فارقه متنقلا في اوروبا ، حتى استدعاه السلطان عبد الحميد ١٨٩٢

(٤) ـ محمد عبده تصوف وشارك في مناصرة الثورة العرابية فنفي الى الشام ١٨٨١ ، ثم سافر الى باريس حيث التقى بالافغاني . عاد فاشتغل بالتدريس في بيروت ثم دخل مصر ١٨٨٨ فعمل في القضاء قبل ان يصبح مفتي الديار المصرية (١٨٩٩) الى ان توفي بالاسكندرية . تتلخص رسالة حياته في امرين : الدعوة الى تحرير الفكر الاسلامي ، وحق الشعب في العدالة .

(٥) ـ ولد عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٨٥٤ في اسرة عربية في حلب . وتلقى علومه في المدرسة على ايدي عدد من مشاهير العلماء . طاف في الجزيرة العربية وشرقي افريقيا والهند والشرق الاقصى ، على اثر تعرضه للاضطهاد والسجن ومصادرة املاكه ، بسبب افكاره الحرة ، حتى استقر في مصر . توفي في القاهرة متأثرا بسم دس له سنة ١٩٠٢ ودفن فيها . اثر تأثيرا عميقا في كبار رجال الفكر والشعر والادب بكتبه التي الفها ، ومنها كتاب «ام القرى» . وله كتاب «طبائع الاستبداد» المعرَّب ، وكتاب «العظمة لله» ، و «صحائف قريش» . مزج الكواكبي بين الاصلاح الاسلامي والسياسي . اهم ما حاول ان يهدمه هو النظام السياسي للامبراطورية العثمانية الذي اعتبره وراء تقهقر الامة الاسلامية . دعا الى انتزاع الخلافة من العثمانيين ، وحصرها في العرب وحدهم ، والى الاخذ بمنجزات الحضارة الغربية ، والنظم الدستورية البرلمانية ، مع معاداة الاستعمار . لذلك يعتبر اول داع للنزعة التحررية الاستقلالية .

نجد والاحساء ، اتهم العثمانيين بالتهاون في الدين والعجز امام اعداء الاسلام .
حاولت الدولة العثمانية قمع الحركة . استعانت بجيوش والي مصر محمد علي (حكم ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) . ولكن نجاحه العسكري لم يمنع الحركة من ان تعاود النشاط بقوة بعد انسحاب جيوشه (١٨٤١) . لم يقتصر اثرها على رقعتها الجغرافية ، فقد كان لها اصداء قوية وحركات تقتفي اثرها في الهند (شريعة الله ، وسيد احمد) ، وفي اندونيسيا ،وفي قلب افريقيا ،و السودان .

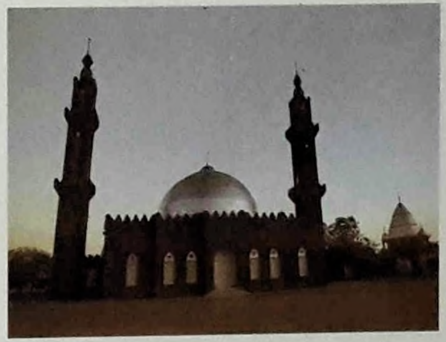
السنوسية والمهدية والميرغنية

كانت من حركات الاصلاح التي أخذت منهج الطرق الصوفية . تنسب السنوسية (٢) لمحمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩) . ولد بالجزائر وتعلم

٦ أ



ب

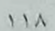


ت

ث



(٦) ـ صاحب المهدية (أ) محمد بن احمد بن عبد الله (١٨٤٣ ـ ١٨٨٥) ولد قرب دنقلة في السودان لاب فقيه ، وتعلم عنده ، ثم عمل في تجارة السفن، وتصوّف على الطريقة السمانية . انقطع في جزيرة آبا ١٥ سنة للعبادة والتدريس . قويت حركته بالمريدين (الذين عرفوا بالدراويش) ، وبقبيلة «البقارة» التي تزوج منها . وجد في التصوف الطريق لمحاربة الحكم البريطاني ـ المصري وما رافقه خاصة من فساد وظلم ، فتلقب ١٨٨١ بالمهدي ، وكتب الى الفقهاء يدعوهم للجهاد معه . استدعاه حاكم السودان الى الخرطوم فامتنع ، وفتك اتباعه بالقوة التي جاءت لاخذه . توالت انتصاراته حتى سقطت الخرطوم بيده ، وقتل القائد الانجليزي فيها (غوردون) . استقر المهدي بجوارها في ام درمان . انسحبت الحاميات الانجليزية والمصرية من السودان الذي خلا له، فكتب الى الخديوي والسلطان والملكة فكتوريا يشعرهم بدولته ، كما ضرب النقود باسمه . لكنه لم يلبث ان مات بالجدري ، ودفن في قبة بجانب الجامع (ب) . أوصى المهدي بدولته لصديقه وابرز انصاره عبد الله التعايشي ، ولم يكن مثله سياسة وتأثيرا . حاول تحقيق مشروع المهدي بغزو مصر ففشلت حملته في اسوان ١٨٨٩ . على ان الانجليز الطامعين في السودان لم يتركوه طويلا . وجرد السردار كتشنر (ت) القائد العام للجيش المصري حملة سحقت الدولة وصاحبها في ام درمان (١٨٩٨) في معركة فاجعة . ما تزال المهدية قوة هامة في السودان ، ولاتباعها احتفالات اسبوعية من الذكر ، بعضها ظاهر ام درمان (ث) .



في جامعة القرويين وفي القاهرة والحجاز . أسس زاويته الاولى على الساحل الليبي (الزاوية البيضاء) سنة ١٨٤٣ . اضاف الى مبادىء الدعوة الوهابية افكار التصوف والكشف . في سنة ١٨٥٦ نقل مركز الدعوة الى واحة جغبوب . في عهد ابنه المهدي (١٨٥٩ - ١٩٠٢) ، بلغت السنوسية ذروة نشاطها . كان عدد الزوايا عند موته ١٤٦ زاوية تمتد من السودان ومصر الى فزان والجزائر .

أما الميرغنية (١) والمهدية ، فقد ظهرتا في السودان على نهج الافكار الوهابية والسنوسية بتحرير الاسلام من الشوائب واعادة نقائه الاول . أسس الاولى محمد عثمان الميرغني سنة ١٨٢٦ في شرق السودان ، ونجح في النوبة وفي كردفان النجاح الرائع . تولى اولاده الطائفة بعد موته (١٨٥٣) .

وقامت المهدية (٦) بعد ذلك على يد محمد بن احمد المهدي (١٨٤٤ - ١٨٨٥) الذي جمع الانصار لطريقته الصوفية ولدعوته الى العودة بالاسلام الى عهد الرسالة وتوحيد المذاهب فيه وتحريم زيارة الاولياء واستنكار الفساد الذي ظهر في المجتمع الاسلامي . وحين آلمه ما يلقى الناس من وحشية الحكم البريطاني وظلمه (الذي كان يتستر وراء الحكم الثنائي مع مصر) ، اعلن ان تصوف المهدية يعني الحرب والاعتماد على الله لا المذلة والخنوع ، وقدم الجهاد على فريضة الحج . وهكذا دخل بحركته العمل السياسي العسكري ، وقاد انصاره الى عدد من الانتصارات العسكرية سنة ١٨٨٥ ، ودخل ام درمان والخرطوم طاردا البريطانيين من البلاد .

لكن دولة المهدية انتهت سنة ١٨٩٨ حين عاد البريطانيون (وهم يجرون معهم الجيش المصري) الى العاصمة ام درمان ، وقتلوا في المعركة الدامية عبد الله التعايشي خليفة المهدي نفسه . لكن الدعوة استمرت عقيدة دينية سياسية الى اليوم .

الحركات الاصلاحية الاخرى

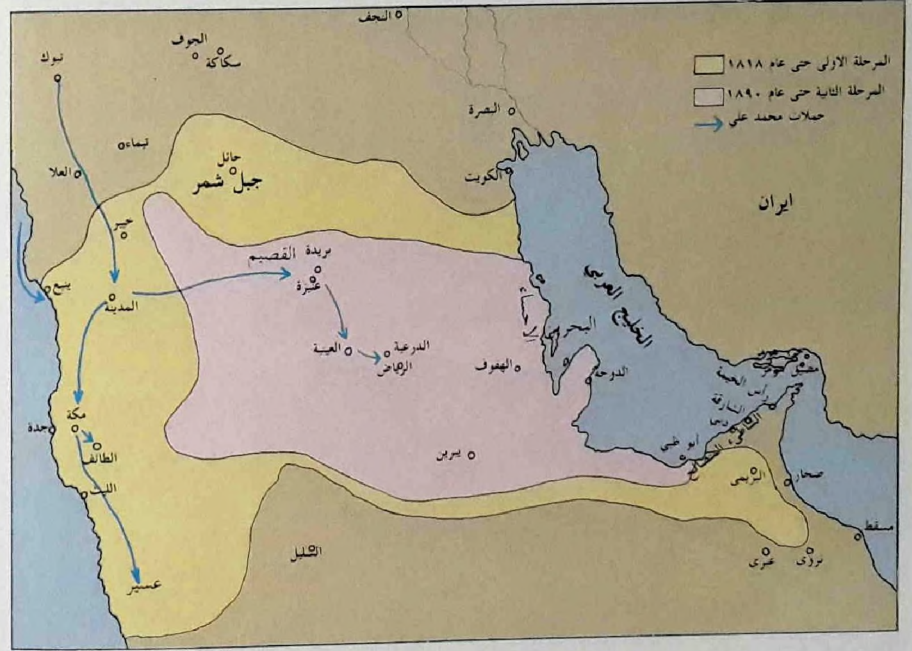
ظهر في القرن التاسع عشر مصلحون اسلاميون اخرون حاولوا التوفيق ما بين النظام الاسلامي ونظم العالم الحديث . كان ابرزهم :

- جمال الدين الافغاني (٣) (١٨٣٨ - ١٨٩٧) الذي دعا الى يقظة المسلمين ، والى الجامعة الاسلامية ، والتخلص من التدخل الاجنبي ، ورفض الحكم المطلق . وحظيت دعوته باصداء واسعة في العالمين الاسلامي والعربي . تابعه في افكاره تلميذه محمد عبده (٤) (١٨٤٥ - ١٩٠٥) ، ومحمد رشيد رضا .
- خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٩٩) الذي حاول تحقيق شكل الدولة الغربي في تونس ، ونشر في ذلك كتابه «اقوم المسالك» . لكنه انتهى منفيا في اسطنبول .
- عبد الرحمن الكواكبي (٥) (١٨٥٤ - ١٩٠٣) الذي فر من الارهاب الحميدي في الشام الى مصر ونشر الكتب في الدعوة للحياة الدستورية ورفض الاستبداد .

المشرق العربي والاستعمار في الجزيرة والخليج وعُمان

خلال السنوات السبعين ، التي مرت بين انكسار نابليون أمام عكا (١٧٩٩) وشق قناة السويس (١٨٦٩) ، أصابت حمّى الاستعمار الاوروبي المداخل الجنوبية الشرقية للبلاد العربية . فتحت الحملة أعين المستعمرين على الضعف العثماني ، بينما كان قد ثبت قبل ذلك بزمن فشل رأس الرجاء الصالح كطريق أفضل الى الهند ، فازداد الزحام الانجليزي الفرنسي على الممر البري ـ البحري بين البحر المتوسط والخليج (٢) . كان النفوذ العثماني في القرن الثامن عشر لا يجاوز الحجاز والحرمين وأعلى الخليج ، وكان أهل الخليج ذوي نفوذ ملّاحي تجاري

١



(١) ـ مرت الدولة السعودية بثلاث مراحل : بدأت الاولى بتحالف محمد عبد الوهاب صاحب الدعوة مع أمير الدرعية محمد بن سعود فشملت معظم أنحاء نجد ، ثم استولت على الاحساء ، وبلغت اقصى اتساعها في عهد سعود بن عبد العزيز. اضطربت الدولة العثمانية ، وحاولت قمع الحركة . استعان السلطان بمحمد علي الذي تمكن ، بعد ثلاث حملات (١٨١١ ـ ١٨١٨) قاد احداها بنفسه ، ان يدمر الدرعية ، ويرسل أميرها أسيرا الى الآستانة . المرحلة الثانية امتدت حتى سنة ١٨٩٠ عادت خلالها الامارة الى الظهور في الرياض واقسام من نجد والاحساء . ثم استطاع محمد آل الرشيد أمير حائل ، بمساعدة العثمانيين ، أن يحتل الرياض ، ويقضي عليها . المرحلة الثالثة بدأت باسترداد عبد العزيز آل سعود الرياض عام ١٩٠٢ بمساعدة الشيخ مبارك صاحب الكويت مع المساندة البريطانية .

وشهرة بصيد اللؤلؤ (٣) .

الامارة السعودية

كانت مشيخات الخليج تتبع اسميا السلطان العثماني ، لكنها مع امامة عمان كانت رهن النفوذ الانجليزي المسيطر . الامارة الوحيدة التي تعرضت لمناوأة العثمانيين ولتلقي الضربات منهم هي الامارة السعودية ، بسبب موقفها الديني – السياسي الذي بلغ بها حد مهاجمة مكة (١٨٠٣) . سلّط العثمانيون محمد علي وقواه على هذه الامارة فانهزمت ، ودخل ابراهيم باشا الدرعية (١) (١٨١٨) . لكن الاحوال السياسية اضطربت بعد ذلك في نجد وشرقي الجزيرة بسبب تغلغل الصراع الاستعماري فيهما . تبنى الانجليز مساعدة السعوديين ، بينما عمل العثمانيون ثم الالمان معهم على مساندة آل الرشيد في

٢ أ



ب



(٢) – تنتشر القلاع والحصون في سواحل عمان والخليج العربي والكثير منها يرجع الى العصر الاستعماري مما أنشأه البرتغاليون والهولنديون والانجليز توطيدا لاحتلالاتهم . مكان الكويت الاقدم مثلا ادرك البرتغاليون شأنه وبنوا حصنا فيه على جزيرة صغيرة تدعى القرين . وفي ساحل الاحساء والبحرين وقطر والامارات حصون اخرى رمم الآن بعضها مثل قلعة زبارة (أ) في قطر . وفي عمان ما يقارب ٥٠٠ قلعة او حصن او برج . بعضها قديم مثل بهلاء والرستاق ، وبعضها قصور محصنة مثل قلعة الحزم وقلعة جبرين شيدت في الاصل مقرا للحكام ، وبعضها من بقايا الاحتلال الاستعماري مثل قلعة جلالى (ب) وهي احدى قلعتين متقابلتين بناهما البرتغاليون فوق الخليج الصغير الذي تقوم فيه مدينة مسقط . بنيت عام ١٥٨٧ وسميت قلعة سان خوان ، وتستخدم الآن سجنا . القلعة الاخرى ميرانى اكبر من الاولى .

حائل (زعماء شمر) أملا في اقصاء آل سعود وحلفائهم آل الصباح المعتمدين على المساعدة الانجليزية . تمكن آل الرشيد في أواخر القرن التاسع عشر من السيطرة على شمال الجزيرة العربية (١٨٨٤ و ١٨٩١) ، وسارع الانجليز الى تكوين حلف برئاسة عبد العزيز آل سعود ومن ورائه مبارك (٤) شيخ الكويت . لقي هذا الحلف عدة هزائم ، قبل ان يستطيع عبد العزيز دخول الرياض ، وقتل عامل ال الرشيد فيها (١٩٠٢) . ثم توطد أمره بعد انتصاره على امير آل الرشيد نفسه ابن متعب ومصرعه (١٩٠٦) ، فعقد آل شمر صلحا مع آل سعود اعترفوا فيه بدولتهم في نجد .

باقرار السلطان عبد الحميد لهذه الاتفاقية صارت دولة آل سعود واقعا سياسيا في الجزيرة ما لبث ان ضم الاحساء

٣ أ

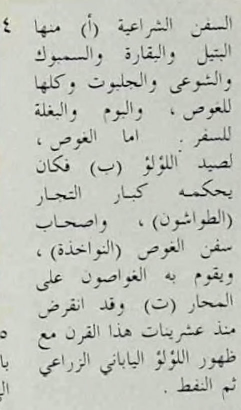


ب



ت

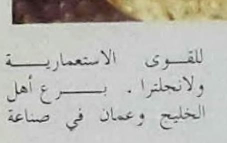




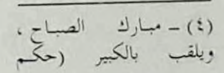
٤ السفن الشراعية (أ) منها البتيل والبقارة والسمبوك والشوعى والجلبوت وكلها للغوص ، والبوم والبغلة للسفر . اما الغوص ، لصيد اللؤلؤ (ب) فكان يحكمه كبار التجار (الطواشون) ، واصحاب سفن الغوص (النواخذة) ، ويقوم به الغواصون على المحار (ت) وقد انقرض منذ عشرينات هذا القرن مع ظهور اللؤلؤ الياباني الزراعي ثم النفط .



١٨٩٥ ـ ١٩١٥) . عرف بالدهاء والطموح . استند الى الدعم الانجليزي في مقاومة النفوذ العثماني في بلده ، ووقع مع انجلترا معاهدة عام ١٨٩٩ .



(٣) ـ كانت منطقة الخليج قبل القرن الحالي مجرد ممر بحري استراتيجي بالنسبة للقوى الاستعمارية ولانجلترا . برع أهل الخليج وعمان في صناعة



(٤) ـ مبارك الصباح ، ويلقب بالكبير (حكم

ثم شمل (بعد الحرب الاولى) حائل والحجاز وعسير ايضا .

الخليج العربي

كان الخليج أكثر شأنا لدى بريطانيا من نجد ، ففيه قواعد الاسطول وطرق التجارة الى الهند ، وكانت شركة الهند الشرقية تعتبره ملكا لها . حين جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الانجليزية تتوطد فيه ، وفي عدن وعمان ، رغم العثمانيين والمنافسة الفرنسية . أقام البريطانيون وكالة لهم في البصرة اعتبرت قنصلية (١٧٦٤) ، ووطدوا علاقات شركة الهند مع الكويت (١٧٧٥) ، وعقدوا معاهدة تجارية مع عمان (١٧٩٨) ، ثم حطموا الاساطيل التجارية الخليجية (بين ١٨٠٩ و ١٨٢٠) بحجة مقاومة القرصنة وتجارة الرقيق . ولما هزم السعوديون في الدرعية سارعت انجلترا الى ارسال سفنها الى عمان والبحرين ، وأجبرت مشايخ السواحل الجنوبية والبحرين على توقيع معاهدة سلام وسيطرة جردتهم من قواهم البحرية ومن حق التصرف بقرارهم السياسي ، فأصبح الخليج بحيرة انجليزية يديرها المعتمد البريطاني المقيم في بوشهر . ثم أكدت بريطانيا وجودها ، بعد الغاء شركة الهند الشرقية (١٨٥٨ عقب ٢٥٧ سنة من العمل) ، بمعاهدات حماية اخرى فرضتها على البحرين (١٨٦١) وقطر (١٨٦٨ و ١٩١٦) والكويت (١٨٩٩) ، فضمنت أمن تجارتها مع التسلط الاقتصادي والسياسي حتى اواسط القرن العشرين .

عمان

حين ضعف الائمة اليعاربة ، حكام عمان منذ ١٩٢٤ ، بايع الناس بالامامة أحمد بن سعيد (١٧٤١ ـ ١٨٨٣) الذي بدأت به اسرة البوسعيد الحاكمة في عمان حتى اليوم . أمامتهم في عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٧ ـ ١٨٥٦) كانت امبراطورية ملاحية عاصمتها مسقط ويتبعها شريط ساحلي يمتد من بلوجستان الى عمان ويلحق بها اجزاء من شرق افريقيا (زنجبار) ، ولها اسطول من ٦٠٠ سفينة .

تنافست فرنسا مع انجلترا ، أيام نابليون ، على النفوذ في عمان . كانت انجلترا هي الأقوى مركزا وأطماعا وحذرا ، فعقدت مع عمان أول معاهدة بين دولة عربية وبين بريطانيا في العصر الحديث .

المعاهدة تجعل عمان حليفة لها ضد الهولنديين والفرنسيين ، وتفتح احد موانئها لحامية بريطانية . ضيقت بعد ذلك على تجارة عمان واسطولها بحجة منع القرصنة والرقيق . استغلت المنافسة بين عمان وتجار الخليج لتحريضهم ضدها . ساهم ذلك مع عوامل اخرى في تدهور الاقتصاد العماني . واخيرا استغلت تنافس اخوين من الاسرة على الحكم لتتدخل في الفصل بينهما بقسمة المملكة الى قسم عماني وآخر افريقي ، ولتأخذ الاسطول العماني ثمنا للتحكيم . تسلطت بريطانيا بعد ذلك على عمان مع تدهور تجارتها واقتصادها ، واستطاعت رغم المنافسة الفرنسية ان توقع معها معاهدة (١٨٩١) اعتبرت بمثابة معاهدة حماية .

مصر ومحمد علي (١٨٠٠-١٨٣١)

بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١ (٣)، عين العثمانيون خسرو باشا واليا عليها. الا ان ثورات المماليك المتعددة لاسترجاع حكمهم على البلاد من جهة، وثورات الجند الذين تأخرت رواتبهم من جهة ثانية، اجبرته على ترك المنصب.

استغل محمد علي، احد الضباط الالبان الذين جاؤوا لمحاربة الفرنسيين، مقتل قائد الحملة الالبانية وفوضى الاحداث التي وقعت بها البلاد، فاتفق مع المماليك ورجال الدين على توليه قيادة الفرقة الالبانية. الا انه ما لبث ان كسب عطف الشعب وزعمائه ضد خورشيد باشا الوالي

١



(١) ـ كان محمد علي من مواليد بلدة قولة في مقدونيا، وليس معروفا بالتأكيد تاريخ مولده، لكنه كان معجبا بنابوليون، ويقول انهما ولدا في تاريخ واحد عام ١٧٦٩. كان أميا عمل في جمع الضرائب، وفي تجارة التبغ، قبل ان يتطوع ضابطا في الحملة التي شكلتها الدولة العثمانية عام ١٧٩٨ لاخراج الحملة الفرنسية من مصر. ظهر دهاؤه السياسي في سلسلة الاعمال التي وصل بها الى الحكم دون سابقة في الحرب او السياسة. تحالف مع المماليك ضد ولاة السلطان، ثم مع الزعماء الشعبيين ضد المماليك، واستغل هؤلاء الزعماء حتى وصل المنصب، ثم سحقهم وشردهم. كانت نقطة الارتكاز في فكر محمد علي هي القوة العسكرية. انتصارات نابليون في اوروبا اقنعته بضرورة الاستناد الى جيش اوروبي التنظيم والتجهيز. استعان في ذلك بالخبراء الفرنسيين خاصة، فأقام الاسطول الحربي، وانشأ مدارس الفرسان والمدفعية والبحرية واركان الحرب. واقام المصانع التي تخدم العملية العسكرية. لسد النفقات صادر الاراضي، واحتكر الانتاج الزراعي كله. كان يحلم كما ذكر تقرير الكونت النمسوي بروكش أوستن ان يتولى الخلافة ويؤسس امبراطورية عربية. يرى في الصورة وهو يتباحث مع الكولونيل باتريك كامبل وفريق من المهندسين.

العثماني الجديد ، فاضطر السلطان العثماني ان يساير الرغبة الشعبية ، فاصدر مرسوما سنة ١٨٠٥ يعترف فيه بولاية محمد علي على مصر .

محمد علي بين الانجليز والفرنسيين

رأى الانجليز في محمد علي حاكما قويا يمكن ان يهدد اطماعهم في مصر ، فانزلوا حملة (مارس ١٨٠٦) في الاسكندرية فشلت في دخول البلاد ، لذلك عمدوا الى تأليب المماليك ضده الذين كانوا يعتبرون انفسهم اصحاب الحق في حكم مصر . لكن محمد علي اغتنم فرصة سفر ابنه لحرب الوهابيين في نجد تلبية لدعوة السلطان ، فأقام لزعماء المماليك مأدبة في القلعة وقتلهم عند خروجهم منها . وهكذا جمع محمد علي باشا السلطة في يده واستطاع نشر

٢



٣



(٢) ـ تطوع مع ثورة اليونان الاستقلالية كثير من الاوروبيين . استغلت بريطانيا وفرنسا وروسيا الثورة لانتزاع المكاسب من الدولة العثمانية . حين استعان السلطان بقوى محمد علي وأخمد الثورة تقريبا . تدخلت تلك الدول ، وأغرقت الاسطول المصري في نافارينو (١٨٢٧) .

(٣) ـ احلام نابليون الشرقية اصطدمت بالمقاومة المحلية والعثمانية بجانب التدخل الانجليزي . وبعد خسارة اسطوله وثورة القاهرة شهد نابليون الهزيمة في فلسطين حين ذبح الأسرى في يافا (٣ آلاف) ، وحين صمدت عكا لحصاره شهرين ، ثم حين خسر نصف رجاله بالطاعون . الصورة وهو يتفقدهم .

الامن ، وتقوية الجيش ، وايقاف التدخل الانجليزي ، وكسب رضى السلطان العثماني ، فأصبح بذلك من اهم ولاة الدولة العثمانية ، وذراعها القوي في اخماد حركات العصيان ضدها (١) .

كان محمد علي يسعى ، منذ ان تولى مصر ، الى جعلها دولة حديثة على النمط الاوروبي ، متأثرا باصداء الحملة الفرنسية خاصة . وجد تشجيعا من دول اوروبا ، ولاسيما من فرنسا التي اعتمد على رجالها لبناء اسس دولة متقدمة تقنيا وعسكريا . فزودته بالسلاح ، واعارته الضباط لتدريب جيشه ، وقدمت له الفنيين والخبراء والمهندسين الماهرين لاقامة صناعته الحربية ، وكذلك شجعته على الاستيلاء على سوريا ، أملا منها في تفكيك الدولة العثمانية واضعافها وجعل طريق الهند تحت رحمتها .

٤



(٤) – طبع العصر المملوكي أحياء القاهرة القديمة حتى اليوم بطابعه العمراني الخاص من المآذن والقباب والمدارس والاضرحة والطرق الضيقة . لم يغير العهد العثماني كله من ذلك الطابع ، ولم يضف اليها بناء هاما . في عصر محمد علي حافظت القاهرة على طابعها القديم نفسه ، لانه اهتم خاصة بمقره في القلعة القديمة (وهي من بناء صلاح الدين) فرممها وزاد تحصينها حتى عرفت باسمه ، واقام فيها جامعه الذي انهدم (١٨٢٤) وجدده سعيد باشا (١٨٥٧) كجوامع اسطنبول . الجديد الذي عرفته القاهرة هو المصانع الحربية ، والمدارس ، وتحرك الاسواق القديمة بتجارة المرور .

٥



(٥) – اهتمّ محمد علي ، منذ بدء ولايته على مصر ، ببناء قوة عسكرية كبيرة تستخدم اسلحة حديثة من بنادق ومدافع . لهذا انشأ في قلعة القاهرة ترسانة لصب المدافع ، وصنع البنادق والرماح ، وما يتبع ذلك من حمائل السيوف ومواسير البناديق وسروج الخيل والبارود وما اشبه . كانت مصانعه تنتج من ثلاثة الى اربعة مدافع كل ثلاثة اشهر من عيار اربعة او ثمانية ارطال ، ويعمل فيها حوالي ١٥٠٠ عامل . كذلك انشأ محمد علي مخازن للبارود والقنابل على سفح المقطم ، وجزيرة الروضة . كما انه توسّع فيما بعد في انتاج البنادق فأسس مصنعا آخر حوالى ١٩٣١ كان ينتج ٩٠٠ بندقية في الشهر ويعمل فيه حوالى ١٢٠٠ عامل . والصورة لأحد المدافع من صنع مصر .

محمد علي والجيش

أراد محمد علي أن يجعل من الجيش الدعامة الاولى لحكمه . فانصرف منذ سنة ١٨٢٠ الى بناء جيش نظامي على النسق الاوروبي ، مستفيدا من تجربة المؤسسة الانكشارية في الدولة العثمانية . فاستدعى من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش ، وعلى رأسهم الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) ، كما ارسل البعثات الى اوروبا لاتمام الدراسة العسكرية ، واستلام المدارس الحربية . انشأ نظارة للحربية عرفت باسم ديوان الجهادية ، وفرض الجندية الالزامية رغم التذمر الذي اثارته هذه « السخرة » الجديدة لدى الشعب .

أما الاسطول ، فقد بدأ ببنائه على النيل ، ثم نقله الى البحر المتوسط ، واشترى عددا من السفن الحربية الاوروبية . الا ان اسطوله تحطم على ساحل اليونان (موقعة نافارينو سنة ١٨٢٧) (٢) . فصمم على انشاء اسطول جديد ، وشيد دارا للصناعة في الاسكندرية ، وأسس مدرسة حربية لتخريج الضباط مستعينا بالخبراء الاجانب ، وسرعان ما بلغ اسطوله ٣٠ قطعة حربية .

المنجزات الاخرى

اهتم محمد علي بالتعليم ، لخدمة الجهاز الاداري والحربي خاصة . فانشأ المدارس الابتدائية والعالية ، (الهندسة ١٨١٦ ، والطب ١٨٢٧) ومدارس للصيدلة واللغات والفنون . كما اوفد البعثات الى اوروبا لتكوين فئة مثقفة ومتصلة بعلوم اوروبا المختلفة .

أسس مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ ، وأصدر صحيفة الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ التي شكلت تجربة صحفية عربية . فنشطت اعمال الترجمة والتأليف في جميع الحقول العلمية .

في الزراعة ، أمر محمد علي بمسح الاراضي ، ثم توزيعها على الفلاحين ، على ان يزرعوها لحساب الباشا الذي يحدد نوع الزراعة ، ويحتكر لنفسه بيع المحصول ، بعد ان يمد الفلاحين بالآلات والمواشي .

كذلك عني محمد علي ببناء الترع والجسور ، ومنها القناطر الخيرية ، لرفع مياه النيل وري الاراضي الزراعية . وازدهرت في عهده زراعة القطن خاصة والنيلة والقنب .

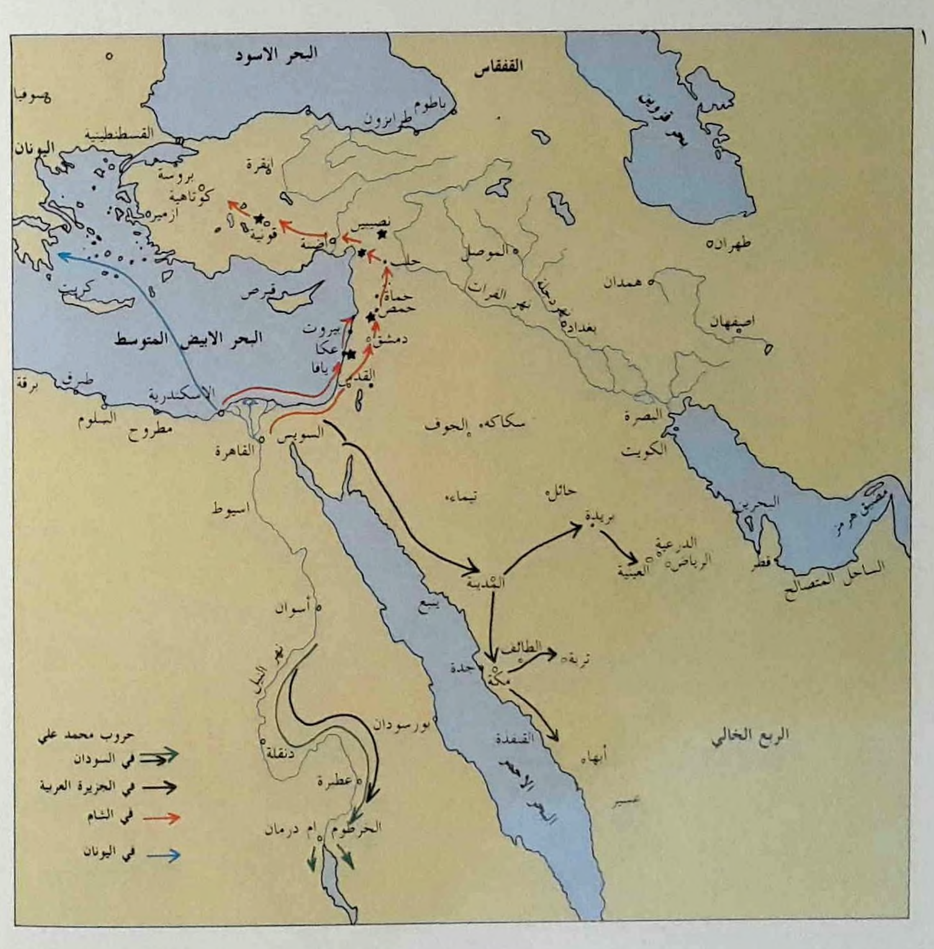
أسس محمد علي ، بالاضافة الى المصانع الحربية ، عددا من المصانع لانتاج حاجات الجيش (٥) من الاقمشة القطنية والصوفية ، والحبال ، وسبك الحديد ، وانتاج السكر . ادار هذه المصانع خبراء اوروبيون من مختلف الجنسيات .

لكن معظمها أغلق في أواخر عهده ، حين تحدد عدد الجيش بمعاهدة لندن وضاع امله في التوسع . من اهم اعماله ايضا احتكار التجارة ، وتنظيم المواصلات بين اوروبا والهند عن طريق السويس ، وفتح ترعة المحمودية بين الاسكندرية وفرع رشيد كي تتمكن السفن النيلية من الوصول اليها .

محمد علي والشام (١٨٣١-١٨٥٠)

كانت بلاد الشام بالنسبة لمحمد علي ذات اهمية اقتصادية كبيرة . ففيها كل ما تحتاجه مصانعه من الاخشاب والحرير والجلود والمعادن ، كما كانت ذات شأن استراتيجي عسكري بالنسبة لمصر . وحين وجد نفسه يمتلك كل خيرات مصر المتزايدة ولديه جيش قوي يستعين به السلطان في كل مكان (في الجزيرة وفي اليونان) ، امتدت احلامه لضم بلاد الشام اليه ، مستغلا ضعف السلطنة ونقمة الناس على السلطان «المتفرنج» . ولعله حلم بمملكة واسعة مستقلة . وقد انتهز انشغال السلطان بثورة بلاد البوسنة ، فاتخذ من خلافه مع عبد الله الجزار والي عكا (٢)

١



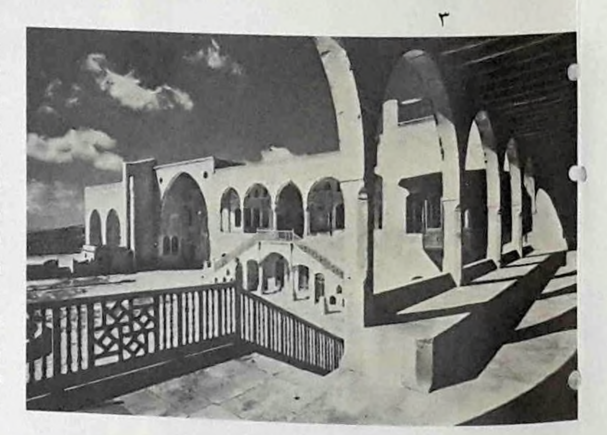
حجة لسوق جيشه الى الشام (١٨٣١) .

الحملة العسكرية

تحركت الحملة بقيادة ابراهيم ابن محمد علي وقائده العسكري الاول أواخر اكتوبر ١٨٣١ . تألفت من ثلاثين الف مقاتل في البر والبحر مع ما يكفيهم من الذخائر والمؤن . استولى ابراهيم على غزة ويافا ، وضرب الحصار على عكا ، وفتح القدس وطرابلس وصور وبيروت ، ثم سقطت عكا (اواخر مايو ١٨٣٢) بعد حصار دام ستة اشهر . بعد ذلك اتجه نحو دمشق ، فدخلها ، وهزم القوات العثمانية عند حمص بمساعدة جيوش حليفه الامير بشير الثاني (٥) ، واستولى على حماه وحلب . ثم اجتازت الحملة حدود سوريا الشمالية (معركة بيلان) ، واحتلت ولاية اضنه وطرطوس ومرعش وقيصرية .

٢

٣



(١) ـ خاض محمد علي (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩) أربع حروب . واحدة لمصلحته المادية شنها في السودان عام ١٨٢٠ وأدخل السودان في الحكم المصري ، وبنى العاصمة الخرطوم بدل شندى التي دمرها جيشه . وخاض حربين في خدمة السلطان : الاولى عام ١٨١١ اختبر فيها جيشه الجديد في الحجاز ونجد ضد الوهابيين سبع سنين ، حتى دخل ابنه ابراهيم الدرعية ، وأرسل اميرها عبد الله بن سعود ليقتل في اسطنبول . والحرب الثانية دفع فيها باسطوله وجيشه معا (١٨٢١ ـ ١٨٢٧) ضد ثورة اليونان ، وخسر فيها الاسطول في نافارينو بتآمر الدول عليه (١٨٢٧) . اما الحرب الرابعة فقادته اليها اطماعه في اقامة مملكة مستقلة في بلاد العرب . اخترق جيشه الشام ووصل قرب كوتاهية (١٨٣١ ـ ١٨٣٢) ولكن المؤامرات الدولية اضطرته للانسحاب (١٨٤٠) والاكتفاء بمصر . في سنواته الاخيرة فشل عدد من مشاريعه ايضا .

(٢) ـ جامع الجزار ما يزال من معالم عكا منذ قرنين . لكن صاحبه أحمد الجزار (١٧٣٠ ـ ١٨٠٤) لم يكن ذلك التقي الرحيم . انه مغامر بشناقي من اولئك الذين وصلوا المناصب العثمانية بالمغامرة والدهاء والرشوة . كسب لقب الجزار في خدمة علي بك الكبير في مصر بسبب وحشيته في قتل البدو الثائرين . ثم قضى حياة شاقة في لبنان قبل ان ينال حكم بيروت . خدم العثمانيين فكافأوه بولاية صيدا ، ثم ضموا اليه عكا بعد مقتل ظاهر العمر . ولعب بالولاة والامراء من حوله ، وان بقي على صلة طيبة بالسلطنة . كانت اعظم خدماته لها وقوفه في وجه نابليون عام ١٧٩٩ . حين مات اعقبه وال آخر تلقب بالجزار ايضا هو عبد الله الجزار .

---

(٣) ـ قصر بيت الدين ليس بالفخم لولا بعض قاعاته المنشأة بالخشب المزين . اشتهر ايام صاحبه الامير بشير الشهابي الذي تعاون مع محمد علي .

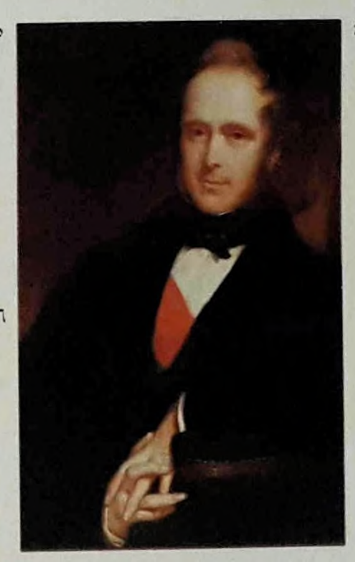
وانتصر ابراهيم على الجيش العثماني في قونية في ديسمبر ١٨٣٢ ، وصار طريق الاستانة مفتوحا امام الجيش المصري (١) .

مطامع الدول ونتائجها

لم تزلزل انتصارات الجيش المصري عرش السلطان فحسب ، ولكنها اقضت مضاجع الدول الاوروبية ايضا ، وفتحت باب المسألة الشرقية على مصراعيه . اختلفت مواقف هذه الدول حسب مصالحها :

كانت روسيا اكثر الدول قلقا وتخوفا من توسعات محمد علي ، اذ كانت تحلم بالسيطرة على اراضي الدولة العثمانية وبخاصة القسطنطينية ، فبعثت باسطولها الى مياه البوسفور بحجة حماية القسطنطينية ومساندة السلطان . خافت

٤



٥



٦





٧

(٤) ـ بالمرستون (١٧٨٤ـ ١٨٦٥) من أدهى وأعند الاستعماريين الانجليز والخصوم لمحمد علي . لخص سياسته بقوله « انا مواطن بريطاني » .

(٥) ـ تاريخ جبل لبنان في النصف الأول من القرن الماضي يتلخص في تاريخ الامير بشير الثاني الشهابي (١٧٩٠ ـ ١٨٥٠) الذي حكمه نصف قرن (١٧٩٠ ـ ١٨٤٠) ، وهرب خلال ذلك مرتين . تنصر ليرضي الموارنة . خاصم الجزار الاول ، ومالأ الثاني ، ثم اتفق مع محمد علي ضد العثمانيين ، وانتهى منفيا بعد عام ١٨٤٠ حتى توفي .

(٦) ـ يبرز اسم ابراهيم باشا (١٧٨٩ ـ ١٨٤٨) بجانب اسم ابيه محمد علي في جميع مشاريعه العسكرية . كان يده المنفذة . ساهم في سحق المماليك وحرب السودان ونجح في حرب الوهابيين ، وكان قائد الجيش في اليونان ، وكان اخيرا فاتح بلاد الشام وحاكمها .

(٧) ـ عرف لبنان في العهد العثماني نوعا من النظام الاجتماعي يستند الى التكوين القبلي ـ الأسروي من جهة ، والى التوزيع الطائفي من جهة اخرى ، والى النظام الاقطاعي من جهة ثالثة . رؤوس هذا النظام هم «المقاطعجية» الاساسيون . ويحمل أحدهم لقب شيخ واحيانا مير ، لا بمعنى الدين او الامارة ولكن الرئاسة . الصورة تمثل احدهم بملابسه الرسمية .

بريطانيا احتمال قيام دولة قوية على طريق الهند ، وسارعت مع دول اوروبا للضغط على محمد علي لعقد صلح مع السلطان .

تمت المفاوضات باعلان اتفاقية كوتاهية ١٨٣٣ التي اعطت محمد علي بلاد الشام واقليم اضنه ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز ، مقابل ان يجلو الجيش المصري عن باقي الاناضول .

قبل السلطان العثماني بصلح كوتاهية كسبا للوقت ، وقام توا بعقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا عرفت بمعاهدة هنكيار اسكله سي ، التزمت كل دولة بمقتضاها ان تساعد الدولة الاخرى اذا استهدفت لخطر خارجي او داخلي ، كما تعهد السلطان فيها ايضا بفتح مضائق البوسفور والدردنيل امام الاسطول الروسي واغلاقها في وجه الدول المعادية لروسيا .

اجتمع التحريض الانجليزي مع معاهدة هنكيار اسكله سي على دفع السلطان العثماني الى معاودة القتال . لكن الجيش العثماني هزم شر هزيمة عند نصيبين ١٨٣٩ .

لم تتحمل دول اوروبا هذه الهزيمة ، فارسلت مذكرة الى السلطان اشتركت فيها كل من انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا تطلب منه الا يتفق مع محمد علي الا بموافقتها . غدت المسألة الشرقية ومسألة التوازن الدولي موضع بحث للمرة الثانية خلال عقد واحد من السنين .

اتفقت الدول عدا فرنسا في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ (٤) على ان يعرض السلطان على محمد علي حكم مصر وراثيا مع ولاية عكا (دون المدينة) مدى الحياة ، فان لم يقبل خلال عشرة ايام خسر ولاية عكا ، واذا تأخر عشرة ايام اخرى ، كان للسلطان ان يتبع الطرق التي تكفل مصالحه ، وتمليها نصائح حلفائه (٤) .

رفض محمد علي شروط معاهدة لندن بتحريض من فرنسا . فارسل الحلفاء (تركيا وانجلترا والنمسا) اسطولا الى سواحل الشام ، واحتلوا عكا ، واشعلوا الثورات ضد الحكم المصري ، فاضطر جيش محمد علي الى انسحاب كلّفه الكثير من الخسائر . انتهت القضية بقبول محمد علي حكم مصر الوراثي (١٨٤١) .

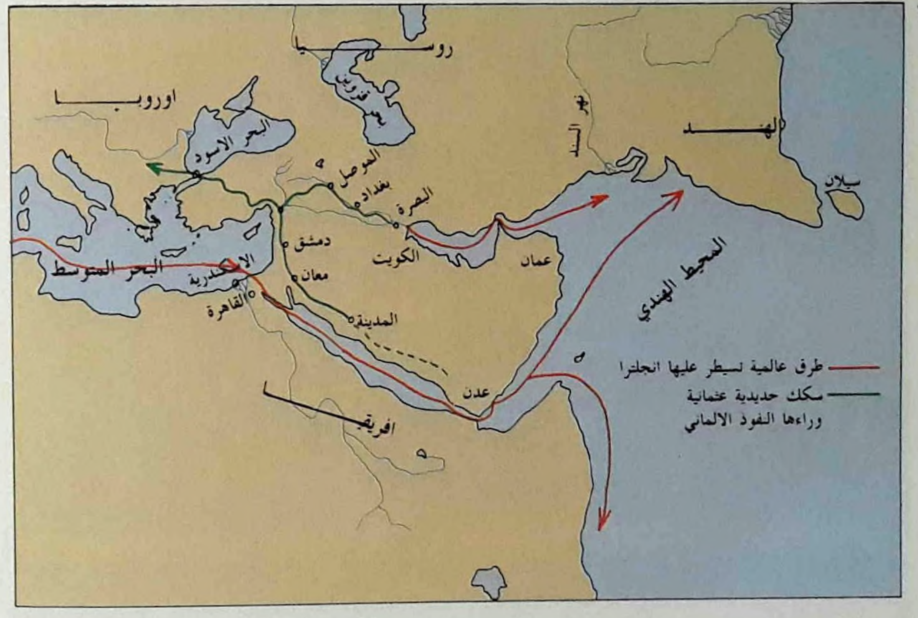
اعمال الحكم المصري في الشام

تركت الحملة المصرية آثارها الواضحة على جميع الاصعدة السياسية والادارية والاجتماعية والاقتصادية . نظم ابراهيم باشا المجالس الملية والعسكرية ورتب المالية ، وعامل الرعايا بالمساواة ، وابطل المصادرات ، ووطد الامن . وانتعشت في عهده الزراعة والتعدين والتجارة ، لكن الادارة المصرية اصطدمت بثورات محلية نشبت بسبب احتكار التجارة ، وفرض ضريبة الرؤوس ، والتجنيد الاجباري ، ونزع السلاح . وقد استغل ذلك الزعماء التقليديون وعملاء السلطان وقناصل الدول الاجنبية . فانتهت طموحات محمد علي الى الانهيار .

بلاد الشام والعراق (١٨٥٠-١٩١٤)

عرفت بلاد الشام تغيرات ادارية عديدة خلال الحكم العثماني بسبب تغيير الولاة والمتصرفين او عزلهم المتواصل. ومع صعوبة تحديد خط جغرافي واضح لمنطقة بلاد الشام، فان الحولية الرسمية (النامة) التي صدرت سنة ١٩٠٤ عن الدولة العثمانية تعتبر هذه المنطقة مؤلفة من ثلاث ولايات (دمشق - بيروت - حلب) يضم كل منها عدة الوية واقضية ونواح، ومن ثلاث متصرفيات (القدس الشريف، دير الزور، جبل لبنان)، وهي متصرفيات مستقلة تتبع مباشرة وزارة الداخلية، وتنفرد منها متصرفية جبل لبنان بكونها متصرفية ممتازة تدار وفق نظام خاص

١



(١) - ظهرت المزاحمة الالمانية الاستعمارية لانجلترا في أواخر القرن ١٩، فقام تقارب الماني عثماني كان من نتائجه زيارة الامبراطور غليوم لاسطنبول ودمشق والقدس، وتشجيع المانيا للخط الحديدي الحجازي (دمشق - المدينة)، وحصول البنك الالماني على امتياز الخط الحديدي اسطنبول - بغداد ليصل الى الخليج. وقفت انجلترا لهذه المنافسة، ورمت بثقلها السياسي والاقتصادي لايقاف الخط الحديدي عن الوصول للخليج، فتوقف عند البصرة.

(٢) - النظام الاساسي الذي اقر بصيغته النهائية (١٨٦٤) نظم الحكم في لبنان على أساس أن يتولى ادارته متصرف مسيحي تعينه الدولة العثمانية، وتوافق عليه دول اوروبا، يحفظ النظام، ويعين القضاة، ويجبي الضرائب، ويكون تابعا مباشرة للباب العالي. ويتكون في جبل لبنان مجلس ادارة من اثني عشر عضوا (٤ موارنة، ٣ دروز، ٢ روم ارثوذكس وواحد لكل من السنة والشيعة والروم الكاثوليك) مهمته توزيع الضرائب، وتنظيم الاقتصاد، وابداء

يعرف بالنظام الاساسي لسنة ١٨٦٤ .

اما العراق ، فقد كان يضم هذه السنة بالذات (١٩٠٤) ثلاث ولايات ، هي البصرة وبغداد والموصل ، يتبع كلا منها ايضا عدة الوية واقضية ونواح .

الامتيازات الأجنبية في المشرق العربي

«الامتيازات» التي منحها سليمان القانوني بشكل تسهيلات تجارية وأفضلية لتجار البندقية ولفرنسا (١٥٣٥) منحت فيما بعد لجميع الرعايا الاوروبيين تقريبا . مع ضعف الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ، أصبحت هذه الامتيازات حقوقا شرعية تستغلها الدول الاجنبية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة ، وبسط حمايتها على طوائف دينية معينة وفئات اجتماعية من رعايا السلطان . فرنسا مثلا أخذت لنفسها حق حماية الكاثوليك ، وروسيا



الرأي في القضايا التي يعرضها المتصرف . وقرر النظام الغاء جميع الامتيازات الاقطاعية ، والمساواة امام القانون وتقسيم جبل لبنان الى سبعة اقضية (أ) . على اساس هذا النظام حكم لبنان حتى ١٩١٤ احد عشر متصرفا اولهم داوود باشا (١٨٦١ – ١٨٦٨) ثم جاء فرنكو باشا الحلبي (١٨٦٨ – ٧٣) فغرس الغابات ، ومد الطرق ، وشجع التعليم (ب) . ومنهم واصا باشا الالباني (١٨٨٣ – ٩٢) الذي شيد الجسور ، ومد سكة حديد بيروت – المعاملتين ، وانتشرت الرشوة أيامه (ت) ومنهم يوسف فرنكو ان السابق (١٩٠٧ – ١٩١٢) . وكان آخرهم اوهانس باشا (ث) الارمني (١٩١٢ – ١٩١٥) .

---

(٣) – مدحت باشا (١٨٢٤ – ١٨٨٢) زعيم حركة الاصلاح العثمانية تقلب بين الولايات (بلغاريا ، بغداد ، دمشق) وترك بها عددا من الاصلاحات . صار رئيس مجلس الشورى والصدر الاعظم . وهو الذي اعلن الدستور ١٨٧٦ . لكن السلطان عبد الحميد عزله ١٨٧٧ ، ثم نفاه .

تمثيل الارثوذكس . صارت امتيازات الدول «حصان طروادة» لأطماعها ، وميدانا للصراع العميق فيما بينها حول مناطق النفوذ في اراضي الدولة العثمانية ، كما في حروب البلقان والقرم (٥) ، وفي المنافسة الالمانية الانجلو ـ فرنسية .

بلاد الشام

عرف الشام قبل القرن التاسع عشر ظهور امراء وولاة أقوياء كانوا على الولاء عامة للدولة ، وان وقف بعضهم أحيانا في وجهها . ومع أن القرن التاسع عشر بدأ والشام خارج من عاصفة الهجوم النابوليوني على عكا ١٧٩٩ ومصر ، فان القوى العثمانية التقليدية بقيت على التحكم في البلاد ، وبقي التنازع الفوضوي بين الحكام ، وخاصة بين الامير بشير الشهابي (١٧٩٠ ـ ١٨٤٠) في امارة جبل لبنان ،

٤



(٤) ـ كانت قافلة الحج الاساسية تخرج من دمشق مع المحمل الشامي وممثل السلطان . وجد السلطان عبد الحميد ان يعزز مكانته الاسلامية بتمديد سكة حديدية تصل دمشق بالمدينة ، بدل القوافل المضنية والخطرة . نفذ المشروع مهندسون المان (١٩٠٠ ـ ١٩٠٨) . بلغت نفقاته ٣ ملايين ليرة ذهبية تبرع بثلثها المسلمون .

٥



(٥) ـ كان السبب الحقيقي لحرب القرم رغبة روسيا في تمزيق السلطنة العثمانية لكن الدول الاخرى وبخاصة انجلترا وفرنسا تحالفت مع العثمانيين ومنعت انتصار الروس . مؤتمر باريس الذي عقد ١٨٥٦ لانهاء النزاع اكد سيادة تركيا دوليا على رعاياها جميعا شرط القيام بالاصلاح . أطال ذلك في سلامة الاراضي العثمانية عشرين سنة .

وعبد الله الجزار (١٨١٩ ـ ١٨٣٢) في عكا . زادت في الوقت نفسه الدسائس الاجنبية عن طريق القناصل والطوائف . لكن الشام اصيب بعاصفة هزته اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، كما هزت القوى الاستعمارية ، فيما بين سنة ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ بدخول قوى «محمد علي» ونظمه اليه . عرفت هذه الهزة بالمسألة السورية .

حين اخرجت هذه القوى بتحالف القوى الاوروبية مع العثمانية ضدها ، حل محلها التدخل الاجنبي السافر في البلاد . ولما كانت السلطنة اسلامية ، فقد حرض الفرنسيون الطوائف الكاثوليكية وسلحوها ، كما دعم الانجليز الطوائف الدرزية واعطوها الاسلحة . وصلت الدسائس اوجها ١٨٦٠ باصطدام الطوائف بعضها ببعض ، مما مهد للتدخل الاوروبي ، فوضعت صيغة جديدة للحكم في لبنان ، وافقت عليها الدول ايضا سنة ١٨٦١ ، وعرفت «بالنظام الاساسي» (٢) الذي استمر قائما حتى الحرب العالمية الاولى .

أما باقي بلاد الشام ، فقد عرفت بوارق من الاصلاح ما لبثت أن اختفت ، وذلك اثناء ولاية مدحت باشا (٣) في دمشق سنة ١٨٧٩ ، وولاية ناظم باشا في مطلع القرن الحالي . كما ارتبطت دمشق مع المدينة بسكة حديدية (٤) . تأسس في الشام كله خلال القرن التاسع عشر ٣٣ مطبعة و ٢٤ صحيفة ومجلة ، وتوالى عليه ما بين ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ في ولاية دمشق ٥٨ واليا ، وحلب ٣٠ ، وصيدا وبيروت ٣٠ ، ومتصرفو جبل لبنان ١١ منذ سنة ١٨٦١ .

العراق :

تعاقب على بغداد بين ١٦٣٨ ـ ١٧٠٤ اربعة وثلاثون واليا أهمهم حسن باشا (١٦٥٧ ـ ١٧٢٤) الذي تولى مماليكه حكم بغداد منذ سنة ١٧٤٧ حتى سنة ١٨٣١ . كان ابرزهم سليمان باشا الكبير (حكم ١٧٨٠ ـ ١٨٠٢) وداوود باشا (١٨٨٦ ـ ١٨٣١) الذي نظم الجيش والمواصلات وشجع التعليم والصناعات .

أما في الموصل وشمال العراق ، فكان الحكم في الاغلب لاسرة الجليلي (١٧٢٦ ـ ١٨٣٤) . توطد الحكم العثماني في العراق بازاحة هذه الاسرة من جهة ، والقضاء على مماليك بغداد سنة ١٨٣١ من جهة اخرى . لكنه لم يسلم من التنافس الاستعماري . بريطانيا كانت اسبق الدول للاهتمام ببسط نفوذها في العراق . مدّت خطوط البريد والبرق في العراق ، وانشأت شركة الملاحة والتجارة في شط العرب . تنبه الالمان الى موقع العراق الاستراتيجي على طريق الهند ، فحاولوا توطيد مصالحهم فيه ، والكيد لبريطانيا . أهم ما فازوا به من السلطان عبد الحميد تمديد سكة حديد اسطنبول ـ بغداد ـ البصرة ، التي بذلت بريطانيا كل جهدها لمنع وصولها الى الخليج ، وللاستيلاء على البترول حين تبين وجوده في العراق . وما لبث البريطانيون ان استغلوا الحرب العالمية الاولى لاحتلال البلاد .

الغزو الاستعماري لمصر والسودان وليبيا

وصف نقولا الاول قيصر روسيا (حكم ١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) الدولة العثمانية ، في حديث له عام (١٨٥٣) مع السفير البريطاني ، بأنها «الرجل المريض» . كان ارث هذا الرجل ، قبل ذلك بكثير ، قد أضحى مشكلة دولية ، بسبب تصاعد الحمّى الاستعمارية ، ورغبة كل فريق (روسيا ، النمسا ، المانيا ، ايطاليا ، فرنسا ، انجلترا) في اقتطاع المنطقة التي تهمّه من الاملاك العثمانية . تعدد هذه الاطراف وتصادم أطماعها واختلاف تحالفاتها وقواها اطال في عمر الدولة المنهارة ، لكنه لم يمنع من اقتطاع اطرافها قطعة بعد اخرى بكل الوسائل . واذا

١



(١) ـ كانت المواجهة بين القوى الاوروبية المتعددة والقوى العربية غير متكافئة دوما ، وكانت بالتالي محتومة النتائج . المقاتل العربي ببندقيته ، وأحيانا على فرس او جمل (١) ، كان يلتقي بقوى العدوان الاستعماري المجهزة بالطائرات (٢) والمصفحات (٣) والرشاشات (٤) وبمدد لا ينتهي من الذخائر ووسائط النقل والتموين . هذا اللقاء المأسوي حدد مصائر البلاد العربية .

(٢) ـ الخديوي اسماعيل (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥) هو الابن الاكبر لابراهيم باشا . تولى ١٨٦٣ . اسرافه الشديد اغرق مصر في الديون ، وأدى الى عزله (١٨٧٩) ، وتولية ابنه توفيق .

(٣) ـ احمد عرابي (١٨٤١ ـ ١٩١١) فلاح مصري بدأ جنديا ، ووصل رتبة اللواء . عين ناظرا

٢

٣



ركزت فرنسا اطماعها في المغرب ، فقد توجهت انجلترا الى مصر وقناة السويس ، بينما لم يبق امام ايطاليا سوى ليبيا فأخذتها .

مصر بعد محمد علي

فشلت مشاريع محمد علي قبل موته (١٨٤٩) . لم يكن حفيده عباس (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤) على مثاله . فقد أغلق المدارس والمعامل ، وقلص الجيش ، وصادر الاراضي لحسابه وحساب كبار الملاكين ، وكان يحتقر الغرب ، ويتعلّق بالوصاية التي استخدمت ستارا لتغطية الهيمنة الاجنبية على مصر وتسلط القناصل . عباس بالذات كان أسير السياسة الانجليزية . منح الانجليز (١٨٥١) امتيازا لمد سكة حديدية من الاسكندرية الى القاهرة فالسويس ، أنجزت عام ١٨٥٧ ،



للحربية ، وتزعم ثورة الجيش ١٨٨٢ . هزمته الخيانة في معركة التل الكبير . حكم بالاعدام ثم بدل به النفي الى سيلان . عاد الى مصر ١٩٠١ .

(٤) ـ أرسلت انجلترا وفرنسا باسطولهما الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة حربية تشد أزر الخديوي توفيق ضد الضباط الاحرار الذين يرفضون بزعامة احمد عرابي وزير الحرب وجود المراقبين الاجانب . ثار في الاسكندرية غليان شعبي أدى ، بعد خصومة بين أجنبي ومكاري ، الى انفجار الحوادث الدموية (١١ حزيران ١٨٨٢) . خشي عرابي استغلالها للتدخل ، فأمر بتحصين الاسكندرية . أنذره الاسطولان بوقف التحصين ، فلما رفض بدأ الاحتلال الانجليزي .

(٥) ـ حكم طرابلس الغرب القره منليون احفاد طرغود (أ) قرنا وربع القرن ومنهم سيدي عثمان (ب) وعلي باشا (ت) وحسن بك (ث) . منذ القرن ١٩ وجدت فرنسا وبريطانيا موطىء قدم هناك .







فأصبحت مصر قاعدة مرور للبضائع الانجليزية من الهند واليها .

مقابل ذلك ، كان سعيد (عم عباس) الذي حكم بين ١٨٥٤ و ١٨٦٣ ميّالا للفرنسيين وصديقا للمهندس دوليسبس ، فأعطاه امتياز قناة السويس التي جعلت مصر «بوسفور» آخر ، وزادت تبعيتها للدول الاوروبية ، وعجلت فى احتلالها . أدى حفر القناة الى ارهاق مصر بالديون .

الاحتلال الانجليزي لمصر والسودان

اضطر الخديوي اسماعيل (٢) الى بيع أسهم مصر في القناة ، فاشترتها انجلترا (١٨٧٢) . مع ذلك لم تتحسن الحالة المالية . فاستغلت انجلترا وفرنسا هذه الفرصة ، وفرضتا على الخديوي لجنة ثنائية تراقب مالية مصر لاستيفاء الديون . حين حاول اسماعيل مجابهة التدخل ، ضغطت الدولتان على السلطان العثماني لعزله

٦



(٦) – استخدام سفن المدفعية النهرية في مختلف انحاء العالم كان اسلوبا من الاساليب الانجليزية في احماد الثورات المحلية . استخدمت تلك السفن لارسال النجدات في النيل ١٨٨٤ حين حاصر المهديون الخرطوم . وصلت بعد سقوطها بيومين . كان يدافع عنها القائد الانجليزي تشارلز غوردون (١٨٣٣ – ١٨٨٥) أحد أعمدة الاستعمار البريطاني الذي اشترك في حرب القرم ، وحرب الافيون الثانية في الصين (١٨٦٠ – ١٨٦٤) حتى سمي غوردون الصيني . عناده الاستعماري جعل الحصار يستمر ٣١٧ يوما ، حتى قتل على سلم قصره .

---

(٧) – كان أخطر ما في الاستعماريين الفرنسي والايطالي ، بالاضافة الى الاخطار الاخرى ، امرين : الاستعمار الثقافي بتبديل هوية البلاد الثقافية ونشر لغة المستعمرين وتاريخهم فيها ، والامر الثاني تنظيم الهجرة من الارض الاصلية الى البلاد المستعمرة ، ومصادرة الاراضي الخصبة فيها ، ومنحها لمن كانوا يسمونهم «بالمعمرين» . في الجدول صورة عن هذا النهب المنظم لاراضي المغرب العربي .

٧

عمليات انتزاع الاراضي

البلاد	التاريخ	مساحة الاراضي المنتزعة	عدد المستعمرين
الجزائر	من ١٨٣١ الى ١٩٥٠	٢ ٧٠٠ ٠٠٠ هكتار	منحت الى ٩١٧ ٨٠٠ مستعمر
تونس	من ١٨٨١ الى ١٩٥٦	١ ٦٠٩ ٠٠٠ هكتار	منحت الى ٢٤٨ ٠٠٠ مستعمر
المغرب	من ١٩١٢ الى ١٩٥٥	١ ٠٠٠ ٠٠٠ هكتار	منحت الى ٢٩ ٥٠٠ مستعمر
ليبيا	من ١٩١٢ الى ١٩٣٩	٥٧٠ ٠٠٠ هكتار	منحت الى ١٠٠ ٠٠٠ مستعمر

١٨٧٩) . جاء بعده ابنه توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) الذي تخاذل أمام الاجانب ، وازدرى أهل البلاد ، مما أدى بضباط الجيش الى النقمة . برز منهم أحمد عرابي (٣) الذي استطاع ، بتأييد بعض فرق الجيش ، ارغام الخديوي على تكوين حكومة دستورية ، ثم تسلم وزارة الحرب . اختلف الخديوي مع الحكومة ، فاتخذت بريطانيا ذلك حجة للتدخل . وقف اسطول مشترك انجليزي فرنسي تجاه الاسكندرية (٤) وقدم انذارا بعزل الحكومة .

رفض عرابي الانذار ، فانتهز القائد البريطاني فرصة بعض الاضطرابات (يونيو ١٨٨٢) ، وضرب حصون الاسكندرية ثم احتلها مع الساحل حتى قناة السويس . ثم اصطدم مع قوات عرابي في معركة التل الكبير (سبتمبر ١٨٨٢) . واحتل الانجليز بعدها مصر .

وجهت انجلترا الاقتصاد المصري لخدمتها . لكن وضع مصر الدولي والشرعي كجزء من الامبراطورية العثمانية بقي على حاله حتى عام ١٩١٤ . وبقي الخديوي على رأس السلطة ، ولكن الحكم الحقيقي كان في يد المعتمد البريطاني يارنغ (اللورد كرومر ١٨٨٣ - ١٩٠٧) ، الذي قاوم بالارهاب الحركة الوطنية حين اشتدت بزعامة مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) ففشل وعزل بعد حادثة دنشواي . في تلك الفترة ، قاد الانجليز جيشا مشتركا مع مصر فأعادوا احتلالهم للسودان (٦) (معركة ام درمان سبتمبر ١٨٩٨) .

ليبيا

في عام ١٧١١ ، تمكّن احمد القره منلي (وهو أحد أحفاد طرغود (٥) موطد الحكم العثماني في ليبيا) من استلام منصبي الباشا والداي معا ، مؤسسا بذلك في ليبيا عهد الاسرة القره منلية الذي استمر قرنا وربع القرن . بدأ عهده بمذبحة (في قصره ١٧١٢) تخلص بها من الضباط والموظفين المناوئين . لكن كسبت البلاد ، في الايام القره منلية بعده ، شهرة واسعة بالغزو البحري الذي كان ضربا من الجهاد . كانت الدولة تقاسم الغزاة الغنائم ، مما ادخلها في نزاع متواصل مع فرنسا (التي هاجمت طرابلس عام ١٧٢٨) ومع بريطانيا (١٧٥٢) والبندقية وهولندا (١٧٨٦) والسويد ، ومع الولايات المتحدة (١٨٠١ ، ١٨٠٥ ، ١٨١١) . وحين اتفقت الدول الاوروبية ضد الغزو البحري (مؤتمر ايكس لاشابيل ، ١٨١٨) ، تحول القره منليون الى تشجيع التجارة عبر الصحراء . لكنهم وقعوا ضحية التنازع الاستعماري بين فرنسا وانجلترا ، حتى استطاع الاسطول العثماني احتلال طرابلس (١٨٣٥) وانهاء الحكم القره منلي ، بتحريض من انجلترا ورغبة منها في تطويق محمد علي بمصر . ربطت ولاية برقة باسطنبول ، لكن تاريخ ليبيا حتى عام ١٩١١ تميز بالثورات (ثورة غومة ١٨٥٥ - ١٨٥٨) وبسيطرة الحركة السنوسية على أوجه الحياة والادارة . على ان ايطاليا وجهت اطماعها الى ليبيا واستطاعت ان تبدأ احتلالها لطرابلس وباقي البلاد منذ عام ١٩١١ .

المغرب العربي والاستعمار حتى مطالع القرن العشرين

اذا كان القطر المغربي قد بقي مستقلا بأمره منذ ايام المرابطين ، فقد كان باقي الشمال الافريقي حتى مصر على علاقة مختلفة القوة والشكل مع الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر . وقد دافعت عنه وحمته من الغزو الاوروبي المتكرر في ذلك القرن . لكنه اتجه الى الاستقلال بشؤونه في القرن السابع عشر ، مع فساد الانكشارية والبحرية العثمانية والادارة وكثرة الاضطرابات . في القرن الثامن عشر ، شهدت اقاليم الجزائر وتونس وطرابلس أسر حاكمة ، تشبه الملكيات المحلية ، استمدت قوتها من جمع السلطات في يدها ، وقيامها في الداخل

أ



ب



ت



والخارج بملء الفراغ السياسي والاقتصادي الغربي الذي تركه في مناطقها انحطاط الدولة العثمانية .

الجزائر

بدأ عهد الدايات في حكم الجزائر بجانب الباشوات عام ١٦٧١ ، لكنهم انفردوا بالحكم منذ استطاع الداي العاشر (سنة ١٧١١) ضمّ منصب الباشوية اليه ، على ما جرى في طرابلس وتونس . بقي دايات الجزائر يعترفون بسيادة السلطان الاسمية ، ودعموا الاسطول العثماني في اكثر من مناسبة . كان الداي مسؤولا عن بيلكية الجزائر . وكان هناك باي في الشرق (قسنطينة) وآخر في الوسط (ميدية) وثالث في الغرب (وهران بعد ان اخلتها اسبانيا عام ١٧٩٢) .

تمتعت الجزائر باقتصاد تجاري زراعي

٢

٣



(١) ـ بعد حصار سنتين لشواطىء الجزائر ، قاد وزير الحرب الفرنسي حملة من ٣٦ الف مقاتل غزت البلاد (٥ يوليو ١٨٣٠) . استسلم الداي بعد شهر . لكن المقاومة انفجرت بقيادة الامير عبد القادر (١٨٠٧ – ١٨٨٣) (ب) الشاب المتصوف الذي استطاع حتى ١٨٤٠ ان يفرض الهزائم على الفرنسيين ويدفعهم الى توقيع الهدنات معه . نظم عبد القادر جيشه وجهزه بالاسلحة الحديثة واقام معملا لصب المدافع ودورا للاسلحة فلجأ الفرنسيون الى حرب التدمير والابادة الوحشية . قام بها الجنرال بوجو مع مائتي الف مقاتل . اصيب معسكر عبد القادر بهجمات كان اقساها هجمة الدوق دومال عليه ١٨٤٣ (أ) وهي من رسم هيبوليت بيلا نجيه . لكن المقاومة استمرت الى ان اضطر عبد القادر الى الاستسلام (ديسمبر ١٨٤٧) . اسر في فرنسا خمس سنوات . حين اطلق اختار الاقامة بدمشق .

(٢) ـ كان سلطان مراكش ايام غزو الجزائر هو مولاي عبد الرحمن (١٨٢٢ – ١٨٥٩) (ويرى بباب مكناس من رسم دولاكروا). كان مع سياسة العزلة واضطرته الحاجة المالية الى فتح الموانىء (١٨٢٨) للاجانب لكنه احتكر التجارة . الغزو جعله يحس بالخطر الاستعماري فتعاون مع عبد القادر . لكن فرنسا حاربته (هزيمة ايسلي ١٨٤٤) فاضطر للتخلي عنه . اجبرته انجلترا (١٨٥٦) على قبول ما سمي بمعاهدة نانكين المراكشية . وفتحت البلاد نهائيا للتجار الانجليز . الحرب الاسبانية (١٨٦٠ – ١٨٦١) والاتفاقية الفرنسية (١٨٦٣) اعطتا البلدين الامتيازات ذاتها .

(٣) ـ دخلت المانيا التنافس الاستعماري اواخر القرن الماضي . زار الامبراطور غليوم عدة مناطق لاثبات الوجود . من ذلك طنجة (الصورة ـ ١٩٠٥) وصرح بتأييد استقلال مراكش مما دفع الى عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء (١٩٠٦) للتسوية .

ناجح وسلطة قوية على المناطق المجاورة وفي البحر . حين انحطت مؤسستا الجيش والملاحة ، وقويت اساطيل اوروبا منذ اواخر القرن الثامن عشر ، تعرضت البلاد للاضطرابات والضائقة المالية . وبعد أن حكم ٦ دايات ما بين ١٧٢٤ – ١٧٩١ ، استلم الحكم عن طريق الثورة ٧ دايات حكموا ما بين ١٧٩٨ – ١٨١٦ . ضعف انكشارية الجزائر جدا في اعقاب قضاء السلطان عليهم في المشرق (١٨٢٦) ، مما سهل لفرنسا غزو الجزائر (١٨٣٠) بحجة ان الداي حسين (١٨١٨ – ١٨٣٠) أهان قنصلها وهو يطالبه بدفع ديون فرنسا لبلاده . احتلت فرنسا مدينة الجزائر (١٨٣٠) ، لكنها لم تستطع الاستيلاء على البلاد ، رغم الارهاب الوحشي ، الا بعد حوالى ٦٠ سنة . اعتبرت فرنسا الجزائر كلها جزءا من ارض



(٤) . وقف الباي حسين (١٨٢٤ – ١٨٣٥) (أ) على الحياد ضد غزو الجزائر . أخوه مصطفى (١٨٣٥ – ٣٧) (ب) وقف مع الرأي العام صد الغزو . أحمد باي (١٨٣٧ – ١٨٥٩) (ت) حاول تحديث البلاد وانشاء جيش نظامي . محمد الصادق (١٨٥٩ – ١٨٢٨) (ث) نشر عهد الامان . في العهد الفرنسي توالى علي باشا (١٨٨٢ – ١٩٠٢) (ج) ومحمد الهادي (١٩٠٢ – ١٩٠٦) (ح) . الاخيران هما : أحمد الثاني (١٩٢٩ – ١٩٤٢) (ح) والامين باشا (١٩٤٣ – ١٩٥٧) (د) .

فرنسا ، لكنها عاملت اهلها كمستعمرين . انتزعت الارض من اصحابها واعطتها للمهاجرين (المعمرين) الفرنسيين الذين سهلت هجرتهم اليها باعداد كبيرة . نشرت اللغة الفرنسية والتبشير ، وادارت الجزء الجنوبي من البلاد ادارة عسكرية . قاوم الجزائريون الاحتلال أولا بقيادة الامير عبد القادر (١) (بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٧) ثم استمروا في القيام بالثورات التي انتهت بعد الثورة الكبرى(١٩٥٦ـ١٩٦١) بالاستقلال .

تونس

في مطالع القرن الثامن عشر ، وبعد فترة من الاضطراب ، وصل حسين الاكبر بن علي الى الحكم (١٧٠٥) في تونس ، وهو جد الاسرة التي ظلت تحكمها حتى ١٩٥٧ . نجح في التقرب الى الشعب بمشاريعه العمرانية والزراعية واعترافه باوّلية القضاء المالكي ودفاعه عن البلاد . في عهد الباي علي (١٧٥٩ ـ ١٧٧٧) والباي حموده (١٧٧٧ ـ ١٨١٣) ، أضحت تونس قوة هامة في البحر المتوسط ، وصمدت امام فرنسا (١٧٧٠) وامام البنادقة (١٧٨٤ ـ ١٧٨٦) . كانت تعتبر الغزو البحري جهادا حتى قضى مؤتمر ايكس لاشابيل على مصادر رزقها . كان البايات مستقلين ، لكن العلاقة الرسمية مع السلطان العثماني (في الخطبة والسكة واللقب) كانت تدفعهم لمعونته في الحروب . بعد اواسط القرن التاسع عشر ، بدأت تونس عهد الاصلاح ، وبرز فيها المصلح خير الدين الذي تسلم رئاسة الوزراء فيما بعد (١٨٧٣) . ولكن البلاد وقعت عام ١٨٦٤ في ازمة مالية تلتها ثورة وأوبئة وتكاثر اجنبي وديون . فاستغلت فرنسا هذه الظروف لاعلان الحماية على البلاد (معاهدة باردو ١٨٨١) .

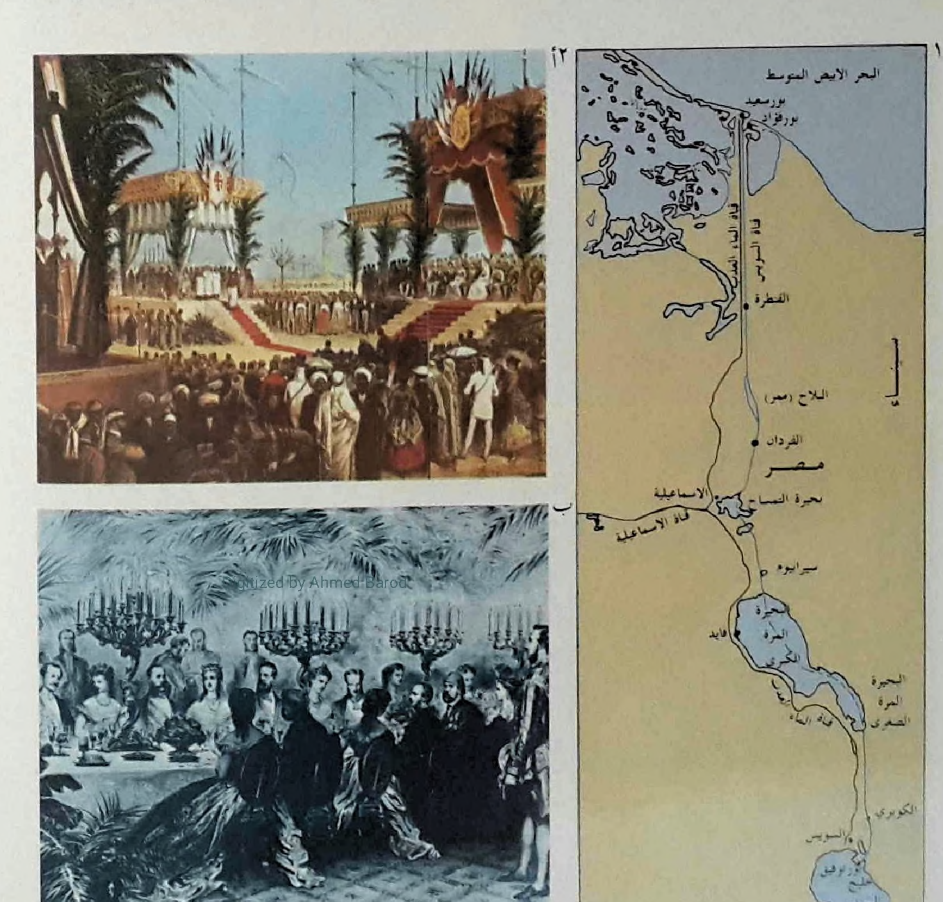
المغرب

تحكم المغرب منذ سنة ١٦٣٨ الاسرة العلوية . استطاعت حتى مطالع القرن التاسع عشر ان توطد سلطتها فيما عرف ببلاد المخزن اي مناطق فاس ومراكش وما بينهما حتى جبال الاطلس . مع اشتداد الحمّى الاستعمارية ، اخذ التدخل الاوروبي يزداد في البلاد . كان الحكم ايام السلطان عبد الرحمن (٢) (١٨٢٢ ـ ١٨٥٩) يعالج ذلك بالعزلة والانغلاق ، لانه كان عاجزا عن الاصلاح . حين احتل الفرنسيون الجزائر ، دخل السلطان في نزاعات مع فرنسا اضطرته لكسب تأييد بريطانيا بمنحها حرية التجارة (١٨٥٦) . ثم دخلت السلطنة في حرب مع اسبانيا (١٨٥٩ ـ ١٨٦٠) كلفتها ، ايام السلطان محمد (١٨٥٩ ـ ١٨٧٣) ، مع الهزيمة كثيرا من الاعباء المالية ، والتخلي عن ساحل الريف ، عدا الثورات المعارضة الداخلية . لعب مولاي الحسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) بعد ذلك دوره في الحفاظ على وحدة البلاد وادخال الاصلاحات الحديثة على الجيش . لكن اطماع الدول الاوروبية كانت قد تفاقمت لدرجة التهديد بالاحتلال . بعد الوفاق الودّي (١٩٠٤) ومؤتمر الجزيرة (١٩٠٦) ، اطلقت يد فرنسا في المغرب ، بينما أخذت اسبانيا حصتها في الريف .

قناة السويس

«لما كان صديقنا المسيو فرديناند دو ليسبس قد وجه نظرنا الى الفائدة التي سوف تعود على مصر من ايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر» ، لذا منحنا صديقنا بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ «حق انشاء وادارة شركة عالمية لحفر قناة تخترق برزخ السويس (١) ، وحق استغلال هذه القناة في الملاحة الدولية ، وحق انشاء مينائين عند مدخل هذه القناة ...» .

لم يكن المشروع وليد صداقة بين والي مصر وقنصل فرنسا السابق فيها وحسب ، بل كان المشروع قديما . فقد فتح الفراعنة من قبل طريقا مائيا بين البحر المتوسط



والبحر الاحمر ، واعاد البطالمة ثم العرب المسلمون فتحه ، ودرس نابليون أمره وهو في مصر ، ورفض محمد علي مشروعه لاسباب امنية ، وأسست في باريس ١٨٤٦ «جمعية دراسات قناة السويس» .

مشروع دوليسبس وشركة القناة

حين جاء سعيد باشا الى الحكم بعد ابن اخيه عباس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) ، وكان معجبا بالحياة الاوروبية الحديثة والحرية التجارية ، شجع الاجانب على المجيء الى مصر والاستثمار فيها ، فانقضوا عليها . وجاء مع القادمين صديقه فرديناند دوليسبس (٣) بعد أن تقاعد عن الخدمة وفشل في التجارة والسياسة . بعد اسبوعين من وصوله قدّم الى سعيد باشا تقريره عن فوائد مشروع القناة . قبل نهاية الشهر ، كان سعيد قد وافق على

٣

٤


171,674
CANAL MARITIME DE SUEZ
Action de Cinq Cents Francs au Porteur

(١) ـ يذكرون ان نابليون فكر في فتح القناة (لقطع طريق الهند على انجلترا) لكن علماء الحملة قرروا عدم امكان ذلك لتوهمهم ارتفاع مستوى البحر الاحمر عن المتوسط . وبرزخ السويس لم يكن برزخا كاملا ولكنه كان يتقطع بعدة بحيرات . ذلك كله ، بالاضافة الى انبساط الارض بصورة عامة وتوفر الايدي العاملة المجانية هو الذي ضمن نجاح المشروع في ١١ سنة . طول القناة ١٧٠ كم . عرضها كان ٦٠ م عند الافتتاح فصار ١٥٠ مترا تقريبا عند تأميمها وعمقها زاد من ٨ الى ١٠ م.

(٢) ـ كان افتتاح القناة فرصة ثمينة للخديوي اسماعيل لممارسة سياسة البذخ والتبذير التي اشتهر بها ، والتي ادت بمصر الى الافلاس ، والى الاحتلال . سلسلة الاحتفالات كانت من اروع وافخم ما عرفه العالم ، دعي اليها عظماء الدول وحضرها عدد كبير منهم كامبراطورة فرنسا اوجيني (وهي ابنة عمة دوليسبس) ، وامبراطور النمسا فرنسوا جوزيف . بنى الخديوي من اجلهم عددا من الابنية ، ومنها دار الاوبرا ، وطلب من الموسيقي الشهير (فردي) ان يؤلف له اوبرا «عايدة» التي عرضت للمرة الاولى في القاهرة عام ١٨٧٠ . برنامج الاحتفالات كان يتضمن عددا متنوعا من الحفلات منها الاحتفال الاساسي (أ) في الهواء الطلق عند القناة . ومنها الولائم (ب) الباذخة .

(٣) ـ بعد فتح القناة صار اسم دولسبس اسطورة وخاصة في فرنسا . بعض صور الكاريكاتور رسمته في صورة شمشون الجبار وهو يبعد بيديه قارة آسيا عن افريقيا .

(٤) ـ شهادة تملّك لاسهم شركة قناة السويس التي كان اسمها «الشركة العالمية لقناة السويس البحرية» . طبعت الشهادة باللغتين : التركية (لغة الدولة العثمانية) والفرنسية (لغة الشركة) . لكن مبلغ الاسهم كان بالفرنكات الفرنسية .

المشروع ، ووقّع الامتياز الاولي . في الخامس من يناير (١٨٥٦) ، أي ابّان انشغال الدول بحرب القرم ، صدر الامتياز النهائي .

بدأ دوليسبس العمل لتأسيس شركة عالمية لحفر القناة (٤) ، رغم المعارضة التي واجهها المشروع في اسطنبول (التي كان يجب ان تصادق على الامتياز) وفي لندن التي ازعجها وقوع الامتياز بيد الفرنسيين . أتم دوليسبس تأسيس الشركة عام ١٨٥٨ ، وطرح اسهمها (٤) لمدة شهر واحد (نوفمبر ١٨٥٨) . تألفت الشركة من ٤٠٠٠٠٠ سهم ، قيمة السهم ٥٠٠ فرنك فرنسي (٢٠ جنيها مصريا) . وزعت الاسهم نظريا على الشكل التالي : فرنسا ٢٠٧١٦٠ سهما (٥١,٨ ٪ من الاسهم) ، انجلترا (٨٥,٥ الف) ، الدولة العثمانية ومصر (٩٦,٥ الف) ، الاكتتاب

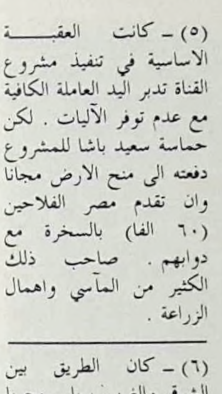
٥



أ٦







(٥) ـ كانت العقبة الاساسية في تنفيذ مشروع القناة تدبر اليد العاملة الكافية مع عدم توفر الآليات . لكن حماسة سعيد باشا للمشروع دفعته الى منح الارض مجانا وان تقدم مصر الفلاحين (٦٠ الفا) بالسخرة مع دوابهم . صاحب ذلك الكثير من المآسي واهمال الزراعة .

(٦) ـ كان الطريق بين الشرق والغرب بريا ـ بحريا دوما حتى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فصار لاول مرة بحريا فقط . الا انه كان طويل الوقت ، كثير المخاطر ، بعيد المسافات . وحين ازدادت الحاجة الى الاسواق والمواد الخام صارت قناة السويس ضرورة اقتصادية . وحين فتحت اختصرت الطريق (أ) بين مرسيليا وبومباي من ١٦٦٠٠ كم الى ٧٣٠٠ كم . المشاريع القديمة للقناة كانت كلها تستخدم النيل (ب) مع قناة تصل بينه وبين البحيرات المرة والسويس .

العام (١٠,٨ الف) .

لكن لم تتم تغطية اكثر من ثلث الاسهم خلال الفترة المحددة . فقد عارضت بريطانيا المشروع ، ولم توافق عليه حكومة السلطان العثماني . لذا وجد دوليسبس ان الحل المناسب له ولشركته هو اعطاء رصيد الاسهم لمصر التي اصبحت تملك ٤٤,٤ ٪ منها . ولكن احوال مصر المالية لم تسمح لها بدفع الثمن (٢,٥ مليون جنيه) . لذا بدأ تراكم الفوائد بنسبة ٥ ٪ سنويا حسب أحكام المادة ١٤ من نظام الشركة . تم هذا كله بدون موافقة رسمية من الوالي سعيد باشا ولكن برضاه وتشجيعه .

حفر القناة

بدأ الحفر في ابريل ١٨٥٩ ، بالسخرة (٥) ، رغم عدم مصادقة الباب العالي على الامتياز . واصدر سعيد باشا (٩ يونيو ١٨٥٩) أمرا بوقف العمل ، ثم اكده في اكتوبر ، بناء على اوامر مشددة من الباب العالي . واعترض الانجليز على المشروع واستنكروا السخرة . لكن العمل استمر رغم كل ذلك ، وبقي سعيد باشا متحمسا للمشروع ، مصرّا على تقديم كل عون لانجازه ، فغض النظر عن تجاهل الشركة لاوامر وقف العمل ، ووافق سنة ١٨٦٠ على صفقة الاسهم التي سجلها فرديناند باسمه سنة ١٨٥٨ ، وفي ١٨٦١ باع للشركة بثمن بخس حق تفتيش الطمبلات .

قبل موته باشهر ، كانت مياه المتوسط قد وصلت بحيرة التمساح (نوفمبر ١٨٦٢) . لكن الوالي (الخديوي) اسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩) حاول ان يحد من امتيازات الشركة فحملها على التخلي عن قناة الماء العذب والعمّال المسخرين ، والمساحات الواسعة ، والاعفاءات الجمركية ، مقابل تعويضات . حين نالت الشركة اخيرا موافقة السلطان على امتيازها (مارس ١٨٦٦) ، كانت قد انجزت القسم الاكبر من المشروع . تم افتتاح القناة (١٧ نوفمبر ١٨٦٩) باحتفالات ضخمة باذخة (٢) حضرها ممثل السلطان العثماني ، وامبراطورة فرنسا ، وعدد كبير من شخصيات اوروبا .

القوى الكبرى وحرية الملاحة

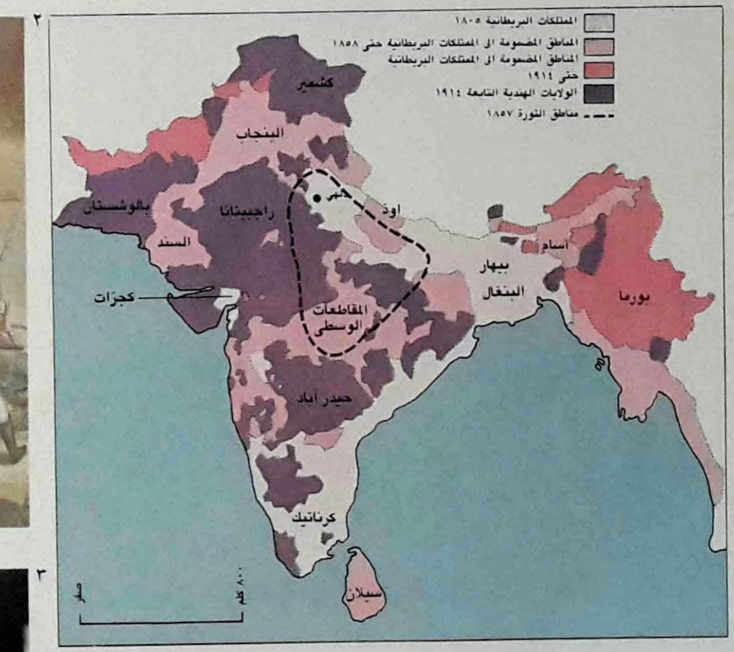
فتحت القناة أقصر طريق بحري بين اوروبا والشرق البعيد (٦) ، فاهتمت الدول الكبرى بضمان حرية الملاحة فيها ، لان ذلك في مصلحتها جميعا . نصت المادة ١٤ من عقد الامتياز على حياد القناة ، واباحتها لجميع السفن التجارية ، ايا كانت جنسيتها . احترمت فرنسا والمانيا هذا الحياد في حربهما عام ١٨٧٠ ، وحذرت بريطانيا الحكومة الروسية من الاضرار بالقناة في حربها مع العثمانيين سنة ١٨٧٧ . لكنها كانت اول من خرق حيادها بعد ذلك عام ١٨٨٢ ، وخلال الحربين العالميتين . ضمنت معاهدة الاستانة (اكتوبر ١٨٨٨) هذا الحياد ، وأيدته معاهدة لوزان (١٩١٣) ، على ان يكون لمصر حق اتخاذ الوسائل الدفاعية عن القناة .

الهند في القرن التاسع عشر

في نهاية القرن التاسع عشر ، كانت غالبية الانجليز تعتبر الهند مرتبطة ببريطانيا ارتباطا لا انفصام فيه كأنها يوركشير او بلاد الويلز ، وكانت فكرة الهند المستقلة بعيدة عن الاذهان حتى لكأنه يستحيل تصورها . تمّ تكوين الامبراطورية الهندية البريطانية بين عامي ١٨٠٠ و ١٨٦٠ ، واعتبرها الكثيرون من معاصري الملكة فيكتوريا انجاز بريطانيا الاعظم ، وخطوة جوهرية في تسنم بريطانيا مركز الدولة العالمية .

مكاسب بريطانيا الاقليمية

بعد ١٨٠٠ ، صمّم البريطانيون على



(١) ـ تطورت السيطرة البريطانية على الهند من بدايات متواضعة في محطات تجارية ساحلية صغيرة الى امبراطورية جعلت من بريطانيا احدى القوى العظمى في آسيا . بالاضافة الى الادارة المباشرة للمقاطعات الكبرى ، اشرفت بريطانيا على حوالى ٦٠٠ امارة كانت تتمتع بشيء من الحكم الذاتي ، ولكن كان من المحظور عليها كليا مصادقة دولة استعمارية اخرى او تهديد سلطة البريطانيين .



(٢) ـ كان تيبو صاحب ، سلطان ميسور ، حاكما نشيطا ميالا الى التوسع ، فاصبح شوكة في جنب البريطانيين في جنوب الهند ، حتى انه تحالف مع نابليون . مات وهو يقاتل البريطانيين سنة ١٧٩٩ .



متابعة عملية توسيع رقعة الاقاليم المحتلة التي كان قد بدأها كلايف في منتصف القرن الثامن عشر (١) . ففي ١٨٢٠ وسعوا ممتلكاتهم في جنوب الهند كثيرا ووطدوا مواقعهم ضد يقظة الامراءالوطنيين مثل سلطان تيبو (٢) . وفي شمال الهند ، تمت العملية ذاتها ببطء اكثر ، ولكن بنفس التصميم ، حتى بلغت ذروتها في انتزاع البنجاب من السيخ سنة ١٨٤٩ ، وضم اوذ سنة ١٨٥٦ .

لم يكن الجشع هو السبب الوحيد لهذه الغزوات الضخمة . بل كانت تنبع ايضا من رغبة « شركة الهند الشرقية » (التي كانت أداة السلطة البريطانية في الهند حتى استيلاء الحكومة البريطانية عليها سنة ١٨٥٨) في ان تحمي نفسها من الاخطار التي كانت تهدد تجارتها . فمع انحلال الامبراطورية المغولية ، انبثقت دولة جديدة

٤



٥

(٣) ـ لم يطرأ على حياة الهند الاقتصادية في الارياف اي تغيير يذكر ابان الحكم البريطاني . لكن تحسن المواصلات ساعد على نمو مدن ضخمة مثل كلكوتا وبومباي .

(٤) ـ كان الجنود البريطانيون والهنود منتشرين على الحدود الشمالية الغربية باعداد كبيرة في محاولات رامية الى صد الغزوات التاريخية للقبائل الافغانية باتجاه سهول الهند الشمالية . عندما اصبح البريطانيون حكاما على الهند ، صمموا على اخضاع المناطق الجبلية . كانوا يخشون ايضا ان يعمد منافسوهم في آسيا الوسطى (اي الروس) الى نسف سلطتهم في الهند باستخدام افغانستان كحليفة لهم . اللوحة الظاهرة للرسام و.ب. ووليين والتي عنوانها «الوقفة الأخيرة للفوج ٤٤ في جانداموك» تمثل احدى المعارك اليائسة التي خاضها البريطانيون في افغانستان .

(٥) ـ كان اللورد كورزون ، نائب الملك في الهند من ١٨٩٨ حتى ١٩٠٥ ، رمز العظمة الامبراطورية التي اتصف بها الحكم البريطاني للهند . مع انه كان اداريا لا يكل ، فقد وجد مهمة حكم الهند مرهقة وكانت اساليبه الاستبدادية بغيضة .

اقل استقرارا ، واقل صداقة للشركة ، مما حملها على الاعتماد على قوتها المسلحة عوضا عن الدبلوماسية . كان بناء الجيوش في الهند يفرض على الشركة انتزاع اراض جديدة ، والتحكم اكثر فاكثر بالشعب ، وجباية المزيد من الدخل الذي شكلت الجزية التي يدفعها المزارعون تقليديا الى الحاكم الجزء الاكبر منه . وهكذا كانت نتيجة كل حرب جديدة ضم اراض جديدة لتأمين تكاليف جيوش الشركة ومنع الراجات « والنواب » من الاقدام على مهاجمتها .

حين اصبحت الهند كليا تحت سيطرة البريطانيين ، اخذوا يستغلون مواردها ولاسيما جيشها (الذي كان الشعب الهندي يغطي نفقاته) في سبيل اهدافهم الاوسع في آسيا التي كان منها اكراه الصينيين على فتح موانئهم للتجارة







(٦) – كانت دورة التفتيش التي يقوم بها المأمور البريطاني عنصرا اساسيا من عناصر السلطة ، وكان الاتصال بالزعماء المحليين وسواهم من وجهاء الهنود في المناطق الريفية ذا اهمية كبرى .

(٧) – كان البريطانيون يشترون الافيون الهندي لقاء سلع مصنوعة ، ويبيعونه في الصين لقاء الحرائر والبهارات والشاي ، وهي البضائع التي كان يطلبها المستهلكون البريطانيون .

(٨) – تميزت الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ – ١٨٥٨ بعدة معارك عنيفة قبل وصول الامدادات البريطانية والانتصار على الجنود الهنود . مع ان الانتفاضة فشلت لانعدام القيادة الموحدة ، فقد اخذت بريطانيا على حين غرة وخلفت وراءها ارثا من عدم الثقة ، كما زعزعت صلابة موقف البريطانيين من الهنود .

البريطانية (٧) . كذلك اصبح امتلاك الهند ضروريا للمحافظة على مكانة بريطانيا كدولة عظمى في شرقي السويس . اما في الهند نفسها ، فكان على البريطانيين ابتكار نظام يمكّنهم من ادارة مساحتها الشاسعة وسكانها الكثيري العدد بطريقة فعالة وقليلة الكلفة . كانت تلك مشكلة جديدة عليهم ، اذ لم يضطروا في اي مكان آخر من قبل ان يحكموا شعبا يختلف عنهم ذلك الاختلاف في اللغة والثقافة والدين . وكان ينبغي القيام بذلك ايضا باستخدام عدد محدود جدا من الاداريين البريطانيين (٦) .

كان على البريطانيين ، رغم مظاهر الغطرسة الاستعمارية ، ان يتعاونوا مع الهنود : فتركوا امر ادارة الارياف الى صغار الموظفين الهنود الى حد كبير ، كما حرصوا على التعاون مع الوجهاء الريفيين الذين كان يقع عليهم العبء الرئيسي في المحافظة على الامن والنظام في الريف .

الثورة الهندية : اسبابها

لم يتم بسط السيطرة البريطانية دون رد فعل عنيف من قبل الهنود ، ولاسيما في ثورة ١٨٥٧ - ١٨٥٨ (٨) . ومع ان الثورة نشبت اصلا بسبب رفض الجنود الهنود عض الخرطوشات المفتوحة والمشحمة بدهن حيواني محرم على كلا المسلمين والهندوس ، فقد تحولت بسرعة الى ثورة واسعة النطاق على مظاهر هيمنة شركة الهند الشرقية ، كالضرائب العالية ، وتجريد الوجهاء الهنود من سلطاتهم ، وسن قوانين من شأنها احداث تغيير مفاجيء في نظام ملكية الاراضي وتأجيرها ودفع ايجاراتها .

تزعزعت السلطة البريطانية لفترة من الزمن في جميع انحاء الهند الشمالية والوسطى ، فتمّ اجتياح لوكنو ومحاصرة كونبور . لكن البريطانيين اعادوا توطيد سلطتهم بدفعهم جيشا ضخما الى المعركة ، وتدميرهم كليا للقوات الهندية المعادية ، وانزال عقاب وحشي بجميع من اعتبروهم من الثوار .

في اعقاب الثورة ، اصبح البريطانيون اكثر حذرا . فاستُبدِلت ادارة الشركة بسلطة حكومية ، ووُضِع حد للتغييرات المفاجئة للقانون او للطابع الاقتصادي للحياة الريفية ، والغيت الانظمة الضرائبية الجديدة او جرى الابطاء في فرضها . كذلك اوقفت عملية التدمير الشامل للامارات الباقية ، وأُعطي التعهد للراجات والامراء بالعيش بأمان ، مقابل ادائهم قسم الولاء للملكة فكتوريا .

طلائع الاستقلال

في اواخر القرن التاسع عشر ، كانت روح الحكم البريطاني للهند قد تغيرت كليا . فالهند فتحت ابوابها على العالم الخارجي ، واخذ يتدفق عليها سيل من البضائع والافكار . وفي المدن الكبرى ظهرت من جراء التغيير الاقتصادي فئة من الهنود الغربيي النزعة أخذت تطالب بحق الاشتراك في الحكم . وفي سنة ١٨٨٥ ، أسس رجال من هذا الطراز المؤتمر الوطني الهندي ، وبدأوا صراعهم الطويل من اجل الاستقلال .

افريقيا في القرن التاسع عشر

كان القرن التاسع عشر حقبة تغيير عظيم ، وفي الغالب سريع ، بالنسبة الى جزء كبير من افريقيا . بدأ هذه الحقبة الافريقيون انفسهم او الاجانب ، ولاسيما الاوروبيون ، وتم خلالها اقتسام معظم القارة تقريبا فيما بين سبع دول اوروبية في السنوات العشرين الاخيرة من ذلك القرن . اما الثمانون سنة السابقة ، فقد شهدت عموما استمرار الاتجاهات المستتبّة منذ زمن بعيد . «فالمصانع» التجارية (او القلاع) ، التي اقامها تجار الرقيق الاوروبيون ، كانت مزروعة على طول الساحل الغربي لافريقيا من «الرأس الاخضر» حتى مصب نهر الكونجو (١) ،

١



(١) - كانت الممتلكات الاوروبية في افريقيا سنة ١٨٣٠ قليلة . كانت فرنسا قد غزت الجزائر (سنة ١٨٣٠) وبدأ بعض المستوطنين البوير (الهولنديين) يتقاطرون من مستعمرة الرأس البريطانية الى داخل افريقيا الجنوبية . كان لفرنسا وبريطانيا بعض المستعمرات الصغيرة جدا في افريقيا الغربية ، هي السنغال وسيراليون وساحل الذهب . باستثناء الاوروبيين المقيمين في محطات تجارية ، كان للبرتغاليين دون سواهم مستعمرات قديمة العهد في الانحاء الساحلية من انجولا وعلى طول وادي الزامبيزي في الموزامبيك . مع ان المصريين كانوا قد احتلوا السودان سنة ١٨٢١ ، فقد كان سائر القارة يتألف من



٢ امبراطوريات وممالك وشعوب افريقية بقيت حتى ذلك الحين محتفظة باستقلالها .

(٢) - يمكن اعتبار موشويشوي (١٧٨٦؟ - ١٨٧٠) ، مؤسس أمة سوتو (ليسوتو) في افريقيا الجنوبية ، مثلا على اقتباس الحكام الافريقيين للمارسات والعادات التي ادخلها الاوروبيون . برز موشويشوي كزعيم للسوتو الذين كانوا جماعة قليلة العدد من الناس لجأت الى جبال دراكنسبرج من الممالك المحاربة في حدود العام ١٨٢٠ .



٣

(٣) - حافظ الامبراطور منيليك (١٨٤٤ - ١٩١٣) على استقلال الحبشة في وجه العدوان الاوروبي .

(٤) - يظهر في الصورة الرحالة البريطاني جون سبيك (١٨٢٧ - ١٨٦٤) في حديث مع موتيسا ، ملك بوجاندا . لعب المستكشفون امثال سبيك ، الذي اكتشف مصب النيل

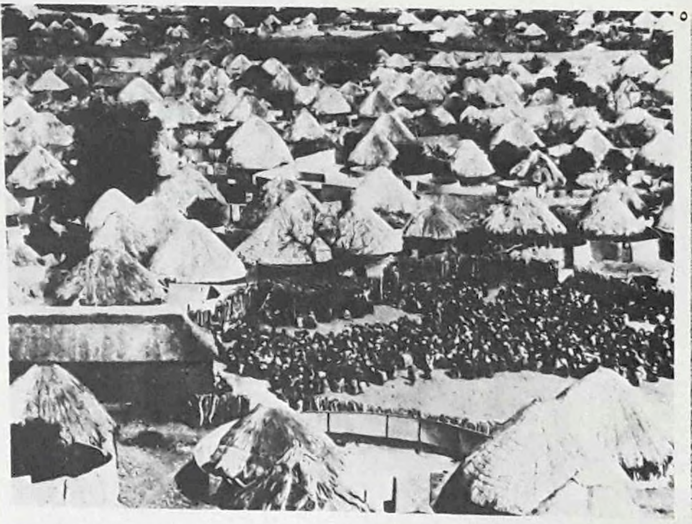
وفي الطرف الجنوبي للقارة كانت بريطانيا تحكم مستوطنة «شركة الهند الشرقية الهولندية» عند رأس الرجاء الصالح .

تذوق طعم التوسع

تمّ بسط النفوذ الاوروبي تدريجيا : ففي ١٨٢٠ – ١٨٢٢ تمكنت مصر ، التي كانت بالاسم ولاية عثمانية ، من احتلال السودان ؛ وفي سنة ١٨٣٠ ، غزا الفرنسيون الجزائر ، وكانت ايضا ولاية عثمانية ، وبدأوا عملية فتحها الطويلة والباهظة ؛ وفي اواخر الثلاثينات تغلغل المزارعون الهولنديون المعروفون بالبوير الى داخل افريقيا الجنوبية بعيدا عن السيطرة البريطانية .

عندما الغيت تجارة الرقيق من جانب معظم البلدان الاوروبية في اواخر الثمانينات ، حلّت محلها الى حد كبير في

٤

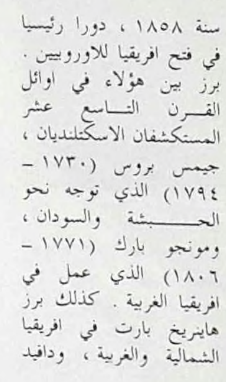


٥



٦





سنة ١٨٥٨ ، دورا رئيسيا في فتح افريقيا للاوروبيين . برز بين هؤلاء في اوائل القرن التاسع عشر المستكشفان الاسكتلنديان ، جيمس بروس (١٧٣٠ – ١٧٩٤) الذي توجه نحو الحبشة والسودان ، ومونجو بارك (١٧٧١ – ١٨٠٦) الذي عمل في افريقيا الغربية . كذلك برز هاينريخ بارت في افريقيا الشمالية والغربية ، ودافيد ليفينجستون في افريقيا الوسطى والشرقية ، وهـ.م. ستانلي الذي التقى بليفنجستون سنة ١٨٧٢ ، فابحرا معا عبر نهر زائير (الكونجو) .

(٥) – كانت موتشودي في بوتسوانا احدى المدن الكبيرة التي نشأت قبل قدوم الاوروبيين خصوصا في الحزام السوداني وفي بوروبالند في افريقيا الغربية وفي بوتسوانا وافريقيا الجنوبية .

(٦) – كانت فريتاون ، عاصمة سيراليوني، نموذجا للمدن التي انشأها الاوروبيون على الساحل في افريقيا الغربية الاستوائية . بنيت على الطراز الاستعماري ، بكنائسها ومراكزها التجارية ومناطقها المحددة لعزل البيض عن السود .

افريقيا الغربية تجارة زيت النخيل وسواه من المنتوجات الاستوائية . توسع الفرنسيون دون سواهم على نهر السنغال ، فتغلغلوا بعض الشيء في عمق الداخل . لكن المبشرين كانوا ناشطين ايضا ، ولاسيما في المناطق التي استقر فيها العبيد المعتَقون ، مثل سيراليوني (٦) .

كان الاسلام قد انتشر منذ زمن طويل في ما يعرف بالحزام السوداني من افريقيا ، حتى بات في مطلع القرن التاسع عشر افريقي الطابع كليا . فقد اجتاحت جزءا كبيرا من هذه المنطقة ، منذ القرن الثامن عشر ، موجة من الانبعاث الديني مهّدت لها سلسلة من «حروب الجهاد» . فاستولى المجاهدون سنة ١٨٠٤ بسرعة على مدن الهاوسا ، مثل كانو وما وراءها ، واسسوا امبراطورية ضخمة هي «خلافة سوكوتو» التي دامت حتى استيلاء

٧

طنجة
تونس
المغرب
الجزائر
ليبيا
مصر
غامبيا
السنغال
افريقيا الجنوبية الفرنسية
افريقيا الاستوائية الفرنسية
السودان المصري البريطاني
اريتريا
الصومال الفرنسي
الصومال البريطاني
الصومال الايطالي
الحبشة
غينيا البرتغالية
سير اليوني
ليبيريا
ساحل العاج
الساحل الذهبي
التوغو
نيجيريا
الكاميرون
غينيا الاسبانية
الغابون
الكونغو
اوغندا
كينيا
افريقيا الشرقية الالمانية
انغولا
روديسيا
موزمبيق
افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية
بتشوانالند
افريقيا الجنوبية
مدغشقر

الممتلكات البريطانية
الممتلكات الفرنسية
الممتلكات الالمانية
الممتلكات البلجكية
الممتلكات الاسبانية
الممتلكات البرتغالية
الممتلكات الايطالية
الدول المستقلة

(٧) – تبين خارطة افريقيا سنة ١٩١٤ كيف اصبحت هذه القارة مقسمة بين سبعة بلدان اوروبية . كان هذا التقسيم عملية سريعة حصلت خلال العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر . بقيت الحبشة وليبيريا دون سواهما مستقلتين عن الحكم الاوروبي . ومع ان بعض المناطق كانت تدعى محميات (مثل اوجندا او المغرب) لا مستعمرات ، فقد كان الاوروبيون يسيطرون سيطرة تامة عليها . كانت المستعمرات الاربع التي كان يحكمها البيض في افريقيا الجنوبية قد شكلت «اتحادا» فيما بينها سنة ١٩١٠ ، ولكنها بقيت خاضعة للحكم البريطاني . كانت الحدود الاستعمارية خطوطا مستقيمة على الخارطة في اكثر الاحيان .

٨



٩



(٨) – هذه القرية الحبشية لم يطرأ عليها اي تغيير يذكر منذ القرن الماضي . كانت آنذاك تضم جماعة من المزارعين تنتج ما يكاد يكفي لتأمين القوت .

(٩) – نمت يوهانسبرج في افريقيا الجنوبية من مزرعة واقعة على طرف السهل حتى غدت مدينة . أدى اكتشاف الذهب الى تطور سريع للبلاد .

البريطانيين عليها في نيجيريا الشمالية سنة ١٩٠٣ . اقيمت امبراطوريات اسلامية اخرى على نهر النيجر الاوسط ، وفي ما يدعى اليوم بغينيا ، وفي ساحل العاج حيث لقي الغزاة الفرنسيون مقاومة طويلة الامد في الثمانينات . والى الجنوب من الحزام السوداني ، واصلت مجموعة من الممالك ، مثل الاشانتي والداهومي ، توسعها وازدهارها ، مقاومة البريطانيين والفرنسيين على التوالي بقوة ، في حين أخذت ممالك اخرى في التفكك .

ظهور الحبشة

في الحبشة ، وبعد فترة متطاولة من الوهن والركود ، اخذت الامبراطورية الامهرية المسيحية القديمة بالانبعاث تدريجيا وبصعوبة في عهد ثلاثة من الاباطرة الاقوياء ، هم ثيودور (ملك ١٨٥٥ - ١٨٦٨) ، ويوحنا الرابع (١٨٦٨ - ١٨٨٩) ومنيليك (١٨٨٩ - ١٩١١) . وطد هؤلاء الحكام سلطتهم في وجه الطبقة الارستقراطية الملاكة المتجبرة والكنيسة القبطية ، ولم يكتف منيليك (٣) بالمحافظة على مركزه ضد الاشراف الشماليين الاقوياء وتوسيع رقعة الحبشة كثيرا في الجنوب وحسب ، بل صد أيضا محاولة ايطالية لفتح مملكته في معركة «عدوة» (١٨٩٦) .

مستكشفون ومستعمرون

في اواسط القرن التاسع عشر ، كانت افريقيا قد اصبحت تدريجيا معروفة على شكل افضل من جانب الاوروبيين ، بواسطة الجهود التي بذلها عدد من المستكشفين (٤) ، مثل العالم الالماني هاينريخ بارت (١٨٢١ - ١٨٦٥) في الاقاليم السودانية ، والاسكتلندي دافيد ليفنجستون (١٨١٣ - ١٨٧٣) في افريقيا الوسطى والشرقية .

في تلك الاثناء ، نشبت خلافات حادة بين بريطانيا وفرنسا في افريقيا الغربية ، بسبب الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . بدأ التهافت على المستعمرات الافريقية ، بحكم حافز سياسي بالدرجة الاولى ، وكانت بريطانيا وفرنسا في المقدمة ، يليهما بلجيكا والمانيا ، ثم البرتغال واسبانيا وايطاليا . وفي عدد من المناطق ، جوبه الغزو الاوروبي بمقاومة قوية ، وشنت على الافريقيين حروب شرسة لاخضاعهم . الا ان المقاومة لم تتجاوز الاطار المحلي الا فيما ندر .

في افريقيا الجنوبية والوسطى ، كان الحافز الرئيسي للتوسع البريطاني من صنع سيسيل رودس (١٨٥٣ - ١٩٠٢) الذي اقتطع امبراطورية واسعة خاصة به ، انطلاقا من قاعدته في «مستعمرة الرأس» (كما فعل الملك ليوبولد في زائير - الكونجو) . جرى فيما بعد ضم جمهوريتي ترانسفال ودولة اورنج الحرة البويريتين الى الممتلكات البريطانية في حرب وطدت سلطة الجيش البريطاني في هذه المنطقة كليا (الحرب الانجليزية البويرية من ١٨٩٩ الى ١٩٠٢) . بنهاية القرن ، كانت افريقيا برمتها ، باستثناء الحبشة وليبيريا ، واقعة تحت الحكم الاوروبي (٧) .

الصين والهجوم الاستعماري

حدث تغييران في الصين في القرن التاسع عشر حملا تلك البلاد على الاندفاع نحو الثورة التي انفجرت في القرن العشرين . التغيير الاول لم يكن جديدا في التاريخ الصيني ، وهو انحلال الاسرة الحاكمة ، سلالة المانشو (التشينج) التي تأسست سنة ١٦٤٤ . اما التغيير الجديد والمقلق ، والذي فجر الاوضاع في نهاية المطاف ، فكان التحدي المنطلق من القوة والتقنية الغربيتين .

«المعاهدات غير المتكافئة»

بدأ الفتح الغربي للمجتمع الصيني الكنفوشي المغلق والزراعي مع اندلاع



(١) - كان تزايد عدد سكان الصين بين ١٧٥٠ و ١٨٥٠ هائلا ، مع ان الارقام غير موثوقة . اقترن التعطش المتزايد لاقتناء الارض في اقتصاد قائم رئيسيا على الزراعة بادارة كانت تزداد سوءا .

(٢) - أحدثت مجاعة ١٨٧٦ - ١٨٧٩ ملايين الوفيات بالمرض في الصين . جاءت هذه المجاعة عقب ثورة تايبنج وثورتين اسلاميتين .

(٣) - اثار بعض المبشرين حقد الصينيين وتسببوا في بعث الروح القومية ، الا ان بعضهم الآخر ، مثل المبشر الانجليزي تيموتي ريتشارد ، حملوا الى الصينيين افكارا جديدة وكسبوا احترامهم لاخلاصهم في تقديم المعونة اليهم .

(٤) - بدأ الطلاب الصينيون يفدون على امريكا منذ سنة ١٨٧٢ ، الا ان التدفق الحقيقي على الجامعات الغربية لم يبدأ الا بعد ١٩١٩ . قبل ذلك التاريخ ، كانت اليابان هي مصدر الفكر العصري لجيل كامل من الصينيين .

النفوذ الروسي
النفوذ البريطاني
النفوذ الفرنسي
النفوذ الياباني
النفوذ الالماني
الممتلكات الروسية
الممتلكات البريطانية
الممتلكات الفرنسية
الممتلكات اليابانية
الممتلكات الالمانية
الجدار الكبير
ثورة البوكسر ١٩٠٠
سكك حديدية
موانىء المعاهدة الاولى ١٨٤٢
موانىء المعاهدة اللاحقة
ارساليات مسيحية

«حرب الافيون» الاولى (١٨٣٩ – ١٨٤٢)، التي سحقت خلالها بريطانيا محاولة حكومة المانشو لوقف التجارة الممنوعة للافيون عبر مرفأ كانتون، الذي كان آنذاك نقطة الاحتكاك الصيني الوحيدة بالاقتصاد الغربي. كانت معاهدة نانكنج، التي ختمت تلك الحرب والتي اعطت بريطانيا موطىء قدم في هونج كونج، اول المعاهدات المعروفة بلقب «المعاهدات غير المتكافئة» المعقودة مع الصين. اكرهت هذه المعاهدات الصين في نهاية المطاف على منح الدول الغربية حقوقا تجارية واقليمية، وعلى اباحة الاتجار بالافيون، والسماح للمبشرين (٣) بنشر المسيحية في جميع انحاء البلاد. وعلى اثر ضغط مارسته فرنسا وبريطانيا بين ١٨٥٦ و ١٨٦٠، اضطرت الصين ايضا الى منح الاوروبيين «حيا دبلوماسيا» في

٦



(٦) – على اثر الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٤ – ١٨٩٥، التمست الصين الصلح (كما نرى في هذه اللوحة اليابانية). انضم اليابانيون الى الدول الغربية في المطالب التي فرضوها على الصين، كما الغوا منطقة نفوذ الصين في كوريا. في الحرب التي تلت ذلك، هزم الصينيون بسهولة وتنازلوا لليابان عن فورموزا. جلبت تلك الهزيمة الخزى للصينيين، واثارت الروح القومية في نفوسهم اكثر من كل الهزائم السالفة التي انزلتها بهم بريطانيا وفرنسا، لان الصينيين كانوا ينظرون الى اليابانيين دوما كشعب احط منهم اقتبس الثقافة الصينية منذ الف سنة فقط. لكن تحديث اليابان بعد ١٨٦٨ جعل قوتها العسكرية متفوقة كثيرا على الصينيين.

٧



(٥) – لم يبلغ النفوذ الاجنبي قط مرحلة الحكم في الصين. الا ان موانىء المعاهدات، مثل شانجهاي وتيين تسين وسواهما في الداخل، كانت تحت ادارة وحراسة الاجانب ونظامهم الضرائبي. كان الصينيون الذين يعيشون داخلها غير خاضعين لسلطة حكومتهم. وكان الحي الدبلوماسي في بكين نفسها تحت الادارة الاجنبية حتى ١٩٤٧. في نهاية القرن التاسع عشر، تم تقسيم المناطق الرئيسية الى «مناطق نفوذ». كانت البعثات والقنصليات الاجنبية وفيرة العدد. وفي حين نعمت المدن الساحلية بالرخاء، لحق بالاقتصاد الزراعي الصيني الاذى بسبب المستوردات الاجنبية. خلت المناطق الريفية من اصحاب المواهب وتزايدت مطالب ملاكي الاراضي المتغيبين.

(٧) – يتجلى كره الصينيين للاجانب في رسم كاريكاتوري يمثل خنزيرا على شكل صيني مسيحي وماعزا على شكل اجانب مثلوا للذبح.

بكين ، مما كان تنازلا هاما من بلاد كان امبراطورها حاميا للحضارة منذ الوف السنين وتؤدي له واجب الطاعة البلدان «البربرية» الاقل شأنا .

فضلا عن التأثير الغربي ، الذي فكّك انماط الحياة الصينية التقليدية ، كان الريف يتخبط في وضع فوضوي . فالبؤس كان قد ازداد في الريف بسبب تزايد ضخم لعدد السكان في القرن الثامن عشر (١) ، مقترنا بادارة ضعيفة وفاسدة اهملت واجباتها في تأمين اعمال الري والكميات الاحتياطية اللازمة من الحبوب . وكردة فعل على ذلك ، اجتاحت الصين سلسلة من الثورات على اسرة المانشو ، ابتداء بثورة تايبنج (١٨٥٠ – ١٨٦٤) . لم تقمع هذه الثورة ، التي كانت بالفعل حربا اهلية ، الا بالقضاء على ما لا يقل عن ٢٥ مليونا من السكان من مقاطعات اليانجستي

٨



٩



١٠

(٨) – لعب قادة الفكر دورا حيويا في تغيير مواقف الصينيين من بنية الحكومة والمجتمع ، بعد ان جرف الصين القديمة الاضطراب الذي عقب وفاة الامبراطورة العجوز سنة ١٩٠٨ . في العقد التالي ، تشابكت خيوط القومية والتغيير الثقافي والثورة . كان صن ياتسين (ب) دخيلا على التراث الصيني الكلاسيكي وعالم «الماندرين» . تأثر بالتقدم الغربي ، فاراد تحديث الصين . جذبت شخصيته خليطا من الاتباع الى الالتفاف حوله في جمعيات سرية . بعد ان لقي دعما من اليابان وترحيبا من الغرب ، حيث اعانته مسيحيته وانجليزيته الجيدة ، توصّل آخر الامر بحكم صلابته الى كسب التأييد الشعبي بعد ١٩١٩ . كان تشين توهسيو (أ) رجل فكر ثوروي حينما اسس سنة ١٩١٥ حركة « الفتى الجديد » . وبحلول ١٩٢١ برز كأول زعيم للحزب الشيوعي الصيني الصاعد .

(٩) – نشأ في الصين وعي ثوري بسبب تعاليم رجال مثل هوشيه (ب) الذي دعا الى نبذ الكتابة الكلاسيكية (التي كانت تعزل المثقفين عن الجماهير) وتبني اللغة العامية بدلا منها . كان هوشيه مفكرا عمليا ، وقد درس في الولايات المتحدة وبقي الداعية الرئيسي للتفكير الغربي الليبرالي ، لكنه اثر تأثيرا كبيرا ايضا في الشاب ماوتسي تونج (أ) (١٨٩٣ – ١٩٧٦) الذي اصبح زعيم الصين الشيوعية فيما بعد والذي كان أساتذة جامعة بكين يتكبرون عليه عندما كان مساعدا لأمين المكتبة .

(١٠) – أصبح لي هونج تشانج (١٨٢٣ – ١٩٠١) وزير خارجية الصين وذاع صيته بعد ان قاد جيشا ضد الثوار في ثورة تايبنج . اسس الأسطول الصيني ، ودفع بمصالح الصين الى الامام .

الادنى (٢) . تلا ذلك ثورات اخرى ، مثل ثورة النيانيين في الصين الشمالية الوسطى ، وثورة المسلمين الصينيين في المناطق الغربية الشمالية والجنوبية ، وقد قمعت هذه الثورات حوالى ١٨٧٥ .

التقدم التقني البطيء

لكن «حركة التقوية الذاتية» ، التي رافقت فترة «التجديد» ، اخذت ببناء مصانع للاسلحة وسككا حديدية ومصانع للسفن في الستينات ، واقدمت على اولى محاولات التصنيع في السبعينات (كانت هذه الحركة بطيئة وغير واثقة من اتجاهها اذا قيست بحركة التصنيع اليابانية السريعة) . في الوقت ذاته ، نما الشعور المعادي للغرب ، الذي كان يزيد في تسعرة العداء الصيني للصينيين المسيحيين «مسيحي الرز» الذين كانوا يستغلون ما يحلو لهم من الامتيازات الممنوحة للاجانب ، فأدت الحوادث التي هوجم فيها الغربيون الى تدهور العلاقات بين الحكومة الصينية والدول الاجنبية . لكن لم يرسخ الاقتناع بالحاجة للتعلّم من الغرب ولادخال التغييرات الاساسية على نطاق واسع الا في سنة ١٨٩٥ ، عندما انزلت اليابان بالصين انكسارا مشينا (٦) .

نهاية الصين القديمة

أخذ الاستعماريون الاوروبيون المتنافسون آنذاك يهددون بتقسيم الصين ، ولم يوقف هذا الاتجاه الا سياسة «الباب المفتوح» التي وضعتها امريكا والتي قبلت الدول الغربية بموجبها ان تحد من مطامعها الاقليمية في الصين لقاء التمتع بحرية التجارة . في هذه الاثناء ، انفجرت اضطرابات معادية للاجانب سنة ١٩٠٠ كانت قد نظمتها جمعية «القبضة البارة المنسجمة» السرية ضد الغربيين . عرفت هذه الانتفاضة «بثورة الملاكمين» وأودت بحياة حوالى ٢٥٠ مبشرا والوف الصينيين المسيحيين ، قبل ان يقمعها جيش دولي .

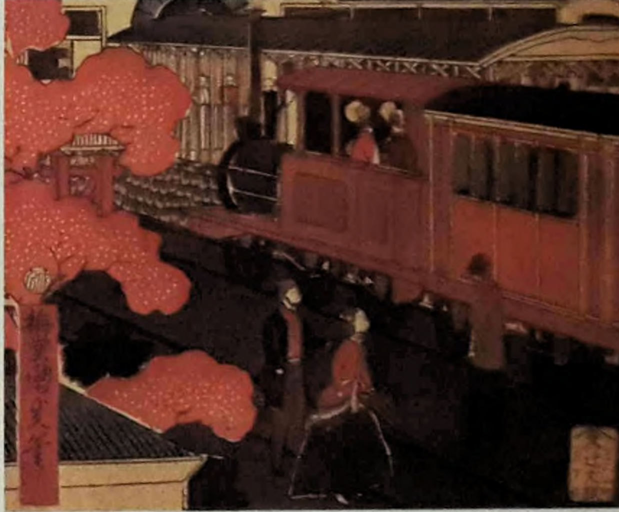
الا ان الصين القديمة كانت قد انتهت وتجاوزها الزمن ، ولم تعد ذات شأن . فقد الغي سنة ١٩٠٥ النظام القديم لامتحان الموظفين المدنيين ، وتخلت سلالة المانشو عن العرش بسرعة على اثر ثورة اقليمية سنة ١٩١١ . لم تكن قد ظهرت بعد صيغة لجمهورية صينية قابلة للحياة ، وسرعان ما تنازل البرلمان الذي كان يرأسه صن ياتسين عن صلاحياته لمصلحة قائد سابق من المانشو ، هو يو يوان شيه كاي (١٨٥٩ ـ ١٩١٦) .

ثم اخذ يظهر الاجماع الفكري المطلوب للتغيير . فأعاد صن ياتسين (٨) تشكيل حركته باسم «حزب الكومينتانج» وتأثر الوف من التلامذة ، الذي تثقفوا في الخارج (٤) او في الجامعات الجديدة ، باساتذتهم الليبراليين مثل تشين توهسيو (١٨٧٩ ـ ١٩٤٢) وهو شيه (١٨٩١ ـ ١٩٦٢) (٩) . وعندما وافقت حكومة الصين الضعيفة على التنازلات لليابان التي فرضت عليها على اثر الحرب العالمية الاولى (التي لم تشترك فيها الصين الا جزئيا) ، اطلقت حركة الاحتجاج الطلابي في مايو ١٩١٩ شعورا قوميا ثوريا (٩) اشعل الصين بكاملها .

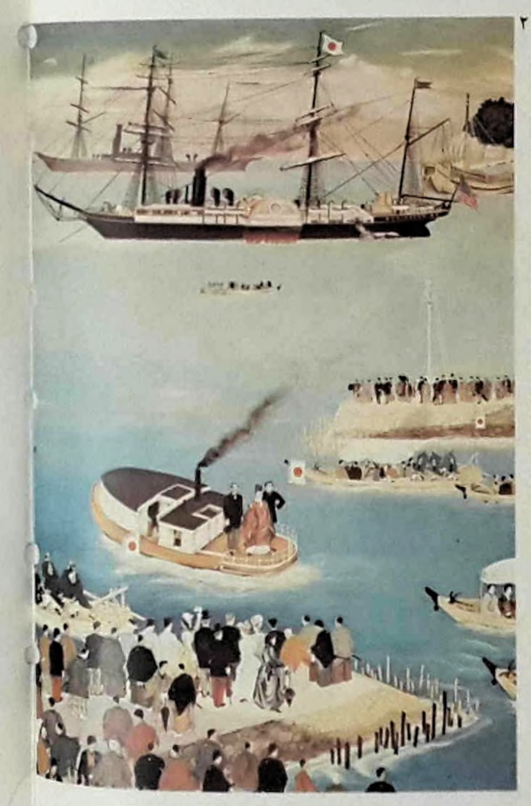
نهضة اليابان :
(اصلاحات الأمبراطور ميجي)

حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ظلت اليابان مغلقة على العالم الخارجي طيلة ما يربو على ٢٠٠ سنة . كان الصينيون والهولنديون دون سواهم قد حصلوا على حق الاتصال التجاري المحدود بميناء واحد فيها ، هو ناغازاكي . غير ان الكومودور ماتيو بيري استطاع ، على رأس سرب من البوارج الامريكية اثناء زيارتين في ١٨٥٣ و ١٨٥٤ ، ان يرغم حكومة اليابان العسكرية المترددة على ان تفتح ميناءين امام الملاحة الامريكية . اقتفت الدول الاخرى دون ابطاء أثر امريكا ، ولم تمض بضع سنوات حتى كانت عزلة اليابان الذاتية قد انتهت .

١



٢



٣



(١) ـ أول سكة حديدية يابانية (انجزت سنة ١٨٧٢) بناها مهندسون بريطانيون ، وكانت تمتد مسافة ٢٩ كلم بين العاصمة طوكيو

الحرب الاهلية والعاصمة الجديدة

ألحق دخول العالم الغربي الى اليابان ضررا مميتا بهيبة حكومة طوكوجاوا العسكرية التي اضطرت تحت الضغط الى توقيع عدة معاهدات منحت بموجبها الدول الاجنبية حقوقا استثنائية ، وامتيازات جمركية مختلفة (٢) . ولما كان البلاط الامبراطوري في كيوتو موضع اجلال عام دون ان تكون له سلطة فعلية ، فقد انتقل محور الولاء الى اولئك المحاربين (الساموراي) الذين كانوا ينادون بطرد «البرابرة» الاجانب . بعد مرور عدة سنوات من الصراع الداخلي المعقد ، تمّ التخلص من الحكومة العسكرية سنة ١٨٦٨ ، على يد حلف ضم الاشراف الاقليميين والمحاربين القادمين من مناطق واقعة في غرب اليابان الجنوبي ، وقد شنوا جميعهم حربهم الاهلية المظفرة باسم



ويوكوهاما . لعبت السكك الحديدية دورا رئيسيا في تحديث اليابان ، لانه لم يكن في اليابان قبل عهد الامبراطور مايجي مركبات تستحق الذكر تسير على الطرقات . كانت البضائع المتبادلة بين المراكز الرئيسية في البلاد تنقل بالطرق البحرية . تمّ نمو شبكة السكك الحديدية بسرعة خلال ٣٢ سنة : فسنة ١٨٨٦ ، كان ثمة ٦٩٢ كلم من الخطوط ، فارتفعت سنة ١٨٩٦ ، الى ٤٠٠٧ كلم والى ٨٤٩٤ كلم في سنة ١٩٠٦ . بحلول ١٩١٨ كان المجموع ينيف على ١٤٤٨٠ كلم من الخطوط الحديدية العاملة .

---

(٢) - قاد اول بعثة دبلوماسية الى الخارج سنة ١٨٧١ الامير ايواكورا . في الولايات المتحدة واوروبا ، كان هدف البعثة اقناع امريكا والدول الاوروبية باعادة النظر في «المعاهدات غير المتكافئة» التي وقعوها مع اليابان . لكن كان على اليابانيين انتظار ٣٠ سنة اخرى ليحصلوا على اعادة النظر المطلوبة ويحققوا بذلك استقلالهم الجمركي والغاء الامتيازات الاستثنائية للاجانب . تمثل هذه الصورة الامير ايواكورا وهو في طريقه الى يوكوهاما .

المجتمع الياباني كان في طوره الانتقالي . فبعض الرجال يرتدون بذلات غربية ، بينما ما زال رفاقهم يفضلون ازياء الشعر المعقود الى اعلى ويتقلدون سيوف الساموراي .

---

(٣) - تمّ التوسع الياباني في نهاية القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين بفضل الحرب والمعاهدات معا . ففي سنة ١٨٧٥ استولت اليابان على جزر الكوريل من روسيا بموجب معاهدة ، لقاء تنازل اليابان عن مطالبها الخاصة بساخالين . فازت بفورموزا في الحرب الصينية اليابانية ، وبساخالين الجنوبية وبورت أرثر وببعض الحقوق في منشوريا في الحرب الروسية اليابانية ، وضمت كوريا سنة ١٩١٠ .

---

(٤) - آذنت وفاة الامبراطور مايجي سنة ١٩١٢ بنهاية عصر اليابان الذهبي . سار الموكب الجنائزي في طوكيو ليلا ، وقد حمل التابوت على عربة تجرها الثيران من البلاط حتى محطة طوكيو . ركعت حشود ضخمة صامتة بخشوع لدى مروره . جرى الدفن في موموياما بالقرب من كيوتو . اشتركت في الموكب الجنائزي فصيلة من البحرية البريطانية .

الامبراطور الشاب مايجي (أي الحكم النير) ، الذي جرى تنصيبه في قلعة الشوغون في بيدو التي اعيد اليها اسم طوكيو وأصبحت العاصمة الجديدة .

من خلال هذا الانقلاب السياسي الذي عرف «باصلاحات مايجي» ، اعيدت سلطات الحكم الى الاسرة الامبراطورية ، ولو ان ذلك كان اسميا فقط . اعتبرت هذه التدابير بداية تحول اليابان من مجتمع اقطاعي الى دولة عصرية . عقدت الحكومة الجديدة العزم ، وكانت اوليغاركية من الساموراي الفتيان ، على رفع اليابان الى مستوى اوروبا والولايات المتحدة التقني .

ثورة اليابان الصناعية

دعي الى اليابان اساتذة واختصاصيون أجانب من المحنكين في تقنيات الحضارة



(٥) — جاءت اعظم مساهمة في تحديث اليابان من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية والمانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا . دربت بريطانيا الاسطول الياباني ؛ اثرت الولايات المتحدة بصورة خاصة في الاعمال والتربية ؛ دربت فرنسا والمانيا الجيش ؛ واثرت روسيا وايطاليا في الفنون .

(٦) – كانت الحرب التي شنتها اليابان على روسيا واعتمادها على المساعدة العسكرية الاجنبية موضع سخرية في هذا الرسم الكاريكاتوري الروسي الذي ظهر سنة ١٩٠٤ . مع ان بريطانيا دعمت اليابان دبلوماسيا ومدتها بالاسلحة ، فان الولايات المتحدة لم تكن بالفعل ضالعة بشكل مباشر .

(٧) – بنيت البارجة اليابانية كاشيما (١٦٦٦٠ طنا وأربعة مدافع عيار ١٢ بوصة) في احواض ألزويك ودشّنت في نيوكاسيل سنة ١٩٠٥ . قبل الحرب الروسية اليابانية ، كانت جميع بوارج اليابان الكبرى تبنى في الخارج ، ومعظمها في بريطانيا . دشنت السفينة الاخيرة ، وهي الطراد «كونجو» على يد فيكرز ارمسترنج في بارو – إن – فيورنس سنة ١٩١٣ .

الغربية ، كما سافر يابانيون باعداد كبيرة الى الخارج لاجل الدراسة (٥) . تحقق تقدم بارز في عملية التحديث خلال عقدين (١) ، وتعتبر صناعة غزل القطن دليلا صارخا على ذلك . ففي سبعينات القرن الماضي ، كان الانتاج السنوي، المتزايد سنويا . يكاد لا يربو على ٢٠٠٠ بالة . اما الرقم في ١٨٨٩ ، فكان ١٤٢٠٠٠ بالة ، واصبح بعد عشر سنوات ٧٥٠٠٠٠ بالة .

اكتملت ثورة اليابان الصناعية بصورة عامة عشية الحرب العالمية الاولى ، وعلى ايام بعض الشخصيات البارزة في حركة «اصلاحات مايجي» . تمثل التغير السياسي في دستور ١٨٨٩ ، الذي اقام برلمانا (دييت) ذا مجلسين . لكن دستور الامبراطور مايجي كان في الحقيقة استبداديا في المعنى والمبنى . فالعضوية في المجلس الاعلى من «الدييت» لم تكن انتخابية ، وحتى في اعقاب الحرب العالمية الاولى كان اعضاء المجلس الادنى ينتخبون على اساس نظام اقتراع محدود . كان الوزراء مسؤولين تجاه الامبراطور فقط ، لا تجاه «الدييت» ، وكان وزراء الحربية والبحرية دائما من الجنرالات والاميرالات الذين كانوا يمثلون القوات المشبعة بروح الساموراي العسكرية .

كانت الروح ذاتها ايضا شائعة في اوساط الشعب عامة .

التفوق العسكري والبحري

في كلا الحربين ، ادهش اليابانيون العالم بانتصاراتهم في البر والبحر . وكان أبرزها تدمير الاسطول الروسي عند شاطىء تسوشيما في مايو ١٩٠٥ ، على يد الاميرال توجو (١٨٤٧ - ١٩٣٤) .

كانت الحرب الصينية اليابانية قد نشأت بسبب التنافس في كوريا . أعطى انتصار اليابان في تلك الحرب فورموزا لليابان وقضى على النفوذ الصيني في كوريا . وفي سنة ١٩٠٤ ، غدت كوريا ايضا السبب الرئيسي لحرب اخرى . بموجب معاهدة بورتسموث (ولاية نيوها مبشاير) المعقودة في الولايات المتحدة ، وهي المعاهدة التي وضعت حدا للحرب الروسية اليابانية ، استولت اليابان على ساخالين الجنوبية ، وورثت عقد ايجار بورث ارثر من روسيا وحقوقها ومصالحها الهامة في منشوريا الجنوبية . قضى هذا التراجع في نفوذ روسيا في الشرق الاقصى على مصير كوريا ، فضمتها اليابان اليها نهائيا سنة ١٩١٠ (٣) .

توفي الامبراطور مايجي سنة ١٩١٢ (٤) . كان الحاكم الجديد (تايشو) عبارة عن دمية بسبب سوء صحته . أدى التحالف البريطاني الياباني ، الذي عقد بادىء الامر سنة ١٩٠٢ كبادرة تضامن ضد مطامع روسيا في آسيا ، الى جر اليابان الى الحرب العالمية الاولى بجانب بريطانيا .

عند انعقاد مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ ، اعطيت اليابان مقعدا دائما في مجلس عصبة الامم الحديثة العهد ، وكان ذلك يعني اعترافا تاما بمركز اليابان كقوة عالمية . وهكذا ، بعد مرور ٥٠ سنة ، كانت أهداف المصلحين الاوائل في حركة مايجي قد تحققت .

الولايات المتحدة
من الاستقلال الى الحرب العالمية الثانية

في مدى قرن ونصف القرن ، قفزت الولايات المتحدة من مجموعة صغيرة من ثلاث عشرة ولاية على سواحل المحيط الاطلسي الى واحدة من اكبر دول الارض غنى وتقدما وسيطرة . الاحداث البارزة في هذه القفزة هي توسع تلك الولايات غربا حتى المحيط الهادىء وحرب الانفصال التي وطدت الاتحاد ، واخيرا التقدم الصناعي والعلمي .

التوسع غربا

بعض المغامرين ، كانوا قد بدأوا ، حتى قبل الثورة الامريكية ، باجتياز جبال الابالاش متطلعين نحو اراض جديدة ،

١

الولايات المتحدة ١٧٨٩
الولايات المضمومة ١٧٨٩ - ١٨٤٢
عدد السكان ١٨٤٠
١٠.٧
٦.٠٤
(كل رجل يمثل مليونا واحدا)
الولايات الشرقية
الولايات الوسطى

٢ أ



الحدود بناء على اعلان ١٧٦٣
اراضي الولايات المتحدة ١٧٨٣
الاراضي التي خسرها الهنود حتى ١٧٨٤

ب

الولايات المتحدة
نهر المسيسبي
الاراضي التي خسرها الهنود حتى ١٨٧٠

ت

٣

الولايات المتحدة ١٨٤٢
الولايات التي قبلت في الاتحاد بين ١٨٤٢ و ١٨٧٦
عدد السكان ١٨٧٠
١٨.٤
١٩.٤
(الشخص يمثل مليونا واحداً)
١.٠
الولايات الشرقية
الولايات الوسطى
الولايات الغربية

٤





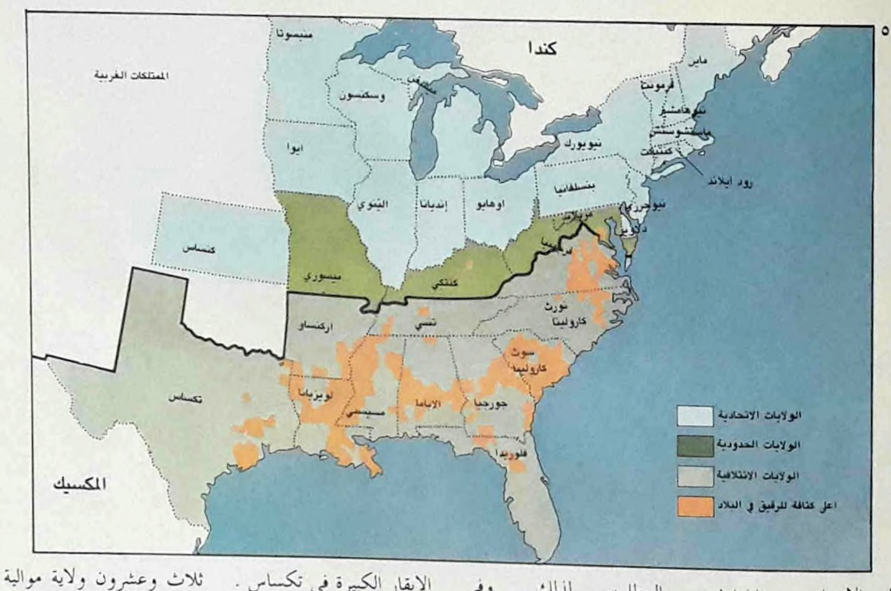
(١) – في سنة ١٨٤٢ كان الاتجاه نحو الغرب قد بلغ شدة لا يستهان بها ، فكانت الاراضي الزراعية تفتح وتستغل ، فيما كانت جماعات من المهاجرين الاوروبيين ، وبخاصة من بريطانيا والمانيا ، تتجه نحو الجزء الشمالي الشرقي .

(٢) – كان انتزاع الارض من الهنود متلازما مع التوسع غربا . لكن الخط الذي حدده اعلان ١٧٩٣ لحماية اراضي صيد الهنود بين اليغاني ونهر المسيسبي تجاوزه المتاجرون بالارض (أ) . وبعد الاستقلال عقدت معاهدات مع الهنود ، كانوا يطردون بموجبها الى الغرب المرة بعد الاخرى . ولم يبق للهنود اي ملكية للارض في سنة ١٨٩٠ ، كما ان السكان اقتيد اكثرهم الى حظائر كبيرة تقام على ارض فقيرة (ب) . وكانوا ، اذا قاوموا ذلك ، يغلبون على امرهم في حروب ابادة متعددة . اشتهرت الحملة الكبرى التي قادها الجنرال كستر (وقتل فيها) لوضع حد لثورة شعب سيو التي تزعمها سيتنج بل (ت) فهاجم فرسان الولايات المتحدة لانهم كانوا قد اعتدوا على ارض صيده .

(٣) – بسبب انتشار السكك الحديدية انضمت فلوريدا والولايات الوسطى والولايات الغربية القصوى

لكن المغامرات الجدية الواسعة لم تبدأ الا بعد الاستقلال . فقد وصل «رجال الحدود» ، كما كانوا يسمون ، الى نهر المسيسبي واجتازوه . وتبعهم المستوطنون الذي خرجوا يبحثون عن اراض جديدة يحرثونها . وقد تضخم عدد هؤلاء بسبب سيل المهاجرين الاوروبيين ، الساعين الى الحرية الدينية والسياسية فضلا عن الرخاء الاقتصادي . ازاحوا بالابادة التدريجية السكان الهنود وبنوا المستوطنات التي تحولت الى قرى ومدن . ووضع مجلس الامة الامريكي تشريعا يسمح بأن تصبح الرقعة التي يبلغ عدد سكانها الاحرار (من الذكور) ستين الفا ولاية .

في سنة ١٨٠٣ كانت مساحة الولايات المتحدة قد تضاعفت في نحو عشرين سنة ، وخاصة بعد شراء لويزيانا من فرنسا . هنا بدأ الامتداد «من البحر الى البحر» .



الى الاتحاد بين ١٨٤٢ و ١٨٧٦ : اذ ان السكك الحديدية يسرت قيام مستوطنات مكثفة . فكليفورنيا كانت قد ضمت سنة ١٨٤٨ ، ثم اصبحت ولاية سنة ١٨٤٩ ، اي بعد الضم بسنتين ، وذلك ان اكتشاف الذهب ادى الى انتقال عدد كبير من السكان اليها ، فزاد عدد سكانها عن ٦٠٠٠٠ ، وهو الحد الادنى المطلوب لذلك . وفي الوقت ذاته استمرت المهاجرة من اوروبا (ما يزيد عن ستة ملايين من ١٨٤٠ الى ١٨٧٠) ، وكان كثير من المهاجرين قد هربوا من القحط الذي اصاب ارلندا .

---

(٤) – يعود الى الكاوبوي ، وهم فئة حنكها ركوب الخيل والعمل الشاق ، الفضل في اقامة مجمعات الابقار الكبيرة في تكساس . وقد قاموا ، فيما بعد ، بفتح المراعي الكبيرة في ويومنج ومونتانا وكولورادو .

---

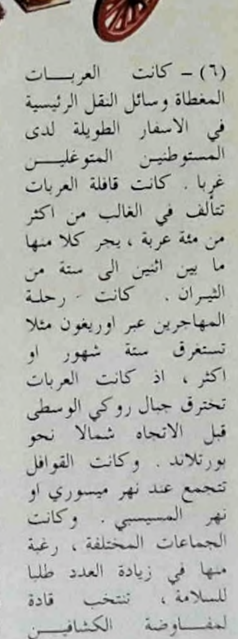
(٥) – الولاءات بالنسبة الى الجنوب او الشمال تخطت حدود الولايات وقسمت الاسر اثناء الحرب الاهلية . فقد قتل ثلاثة من انسباء ابراهام لنكولن وهم يقاتلون الى جانب الجنوب . كانت ثلاث وعشرون ولاية موالية للوحدة الامريكية ، بما في ذلك كليفورنيا واوريغون . وكان القرار الاصعب في الانتماء هو الذي وقع على « الولايات الحدودية » اي الولايات التي يكثر فيها الرق وهي كنتكي ومريلاند وميسوري . لكن ولاءها «للنجوم والخطوط» (اشارة الى العلم) كان اقوى من ولائها للمصالح المحلية .

توطن آلاف من الامريكيين في ولاية تكساس المكسيكية ، ثم ثاروا على الحكومة المكسيكية (١٨٥٣) وساندتهم الولايات المتحدة فحاربت المكسيك (١٨٤٦ - ١٨٤٨) وضمت نيومكسيكو واريزونا وكليفورنيا الى ممتلكاتها .

ثم اكتشف الذهب في كليفورنيا (١٨٤٨) ، فزحف عشرات الالوف الى تلك المقاطعة . واستقر المورمون في اوتا ، وجعلوا من ارضها الجرداء مستوطنات مزدهرة .

في سنة ١٨٦٢ ، سن مجلس الامة قانونا تعهدت بموجبه الحكومة ان تقدم الارض مجانا للفلاحين . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، على حساب الهنود الذين انتزعت منهم اراضيهم وطردوا بالقوة واخيرا جمعوا في مناطق محدودة حظر عليهم مغادرتها .

٦



(٦) - كانت العربات المغطاة وسائل النقل الرئيسية في الاسفار الطويلة لدى المستوطنين المتوغلين غربا . كانت قافلة العربات تتألف في الغالب من اكثر من مئة عربة ، يجر كلا منها ما بين اثنين الى ستة من الثيران . كانت رحلة المهاجرين عبر اوريغون مثلا تستغرق ستة شهور او اكثر ، اذ كانت العربات تخترق جبال روكي الوسطى قبل الاتجاه شمالا نحو بورتلاند . وكانت القوافل تتجمع عند نهر ميسوري او نهر المسيسبي . وكانت الجماعات المختلفة ، رغبة منها في زيادة العدد طلبا للسلامة ، تنتخب قادة لمفاوضة الكشافين المأجورين حول خير الطرق ، وللتحكيم في اي خلاف قد ينشب .

٧

(٧) - تبين هذه الخارطة كيف اصبحت الولايات المتحدة تشمل كل شبه القارة في مدة تسعين سنة (١٧٦٣ - ١٨٥٣) ، وذلك بواسطة الضم او الابتياع او المعاهدات . وبهذه الوسيلة حالت دون عودة نفوذ بريطانيا او فرنسا ، فتمكن مبدأ مونرو (١٨٢٣) بذلك من ان يصبح ذا اهمية . والمبدأ يقول «امريكا للامريكيين»

٨

(٨) - كان عدد العبيد من سكان الجنوب (في الولايات المتحدة) اكثر من ثلث السكان عند بدء الحرب الاهلية .

الحرب الاهلية (١٨٦١ - ١٨٦٣)

نشبت هذه الحرب نتيجة تضارب المصالح بين شطري البلاد الشمالي والجنوبي . كان الشمال منطقة صناعية وتجارية هامة يرى وجوب قيام دولة مركزية تدعم النمو الصناعي وتحميه بالرسوم الجمركية ، كما كانت صناعته تستوعب الاعداد المتزايدة من العمال ، بينما كان الجنوب زراعيا يعتمد على القطن ، ويؤيد اللامركزية ، وخفض الجمارك ، وعصب الزراعة فيه هو الاعداد الكبيرة من الرقيق . وقد انفجر الخلاف ، في النهاية ، بين الطرفين حول قضية الرقيق التي اضحت اكبر مشكلة سياسية في الولايات المتحدة (حول ١٨٥٠) . كان الجنوب يرى نظام الرق امرا عاديا وضروريا ، بينما كان الشمال يعتبره شائنا ، ويعزو اليه مسؤولية تأخر المنطقة الجنوبية . وقد انقسم الحزبان الرئيسيان حول هذه القضية المعقدة . ولما تولى ابراهام لنكولن رئاسة الجمهورية (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) ، كان يعارض الرق ، فخشيت بعض الولايات المتحدة الجنوبية على نفسها ، فكونت الولايات المنشقة (١٨٦١) حكومة ، واعلنت هذه الولايات (كارولينا الجنوبية والمسيسبي وفلوريدا والاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس) قيام «الولايات الامريكية التآلفة» . لم يقبل لنكولن بذلك ، واراد رأب الصدع . لكن الذي وقع كان حربا اهلية ، انتصر فيها الشمال على شجاعة الجنوب (١٨٦٣) ، لانه اكبر عددا وتقدما . فاستسلم قائد الجنوبيين لي (١٨٠٧ ـ ١٨٧٠) في معركة ابوماتوكس (فرجينيا) في ابريل ١٨٦٣ .

من الريف الى المصنع

خرجت الولايات المتحدة من الحرب الاهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٣) وهي لا تزال بلادا زراعية . الا ان طفرتها نحو الصناعة كانت قوية ، بسبب تزايد السكان الكبير ، واكتشاف معدني الفحم والحديد الخام والمعادن الاخرى ، بالاضافة الى البترول . يضاف الى ذلك الاختراعات العديدة التي ادت الى زيادة الانتاج .

كان لانتشار السكك الحديدية ، في اتجاهات مختلفة ، الاثر الكبير في الربط بين الصناعة والزراعة وبين اسواقهما الرئيسية . وقد وصل طول سكك الحديد في سنة ١٩١٦ الى ٤٢٥ كم .

وبسبب من سوء الاحوال السكنية وانخفاض الاجور بدأت حركة نقابية في البلاد على يد فرسان العمل (١٨٦٩) اولا ، ثم على يد الاتحاد العمالي الامريكي (١٨٨٦) فيما بعد ، الذي سيطر على الحياة العمالية والنقابية . واخذت الولايات المتحدة تتطلع الى الخارج ، فاتخذت من سوء المعاملة التي كان يلقاها الكوبيون على ايدي المستعمرين الاسبان ذريعة للاشتباك في حرب مع اسبانيا (١٨٩٨) ، فانتزعت منها كوبا والفيليبين وغوام وبورتوريكو . وبذلك دخلت حلبة الاستعمار . كانت الولايات المتحدة سنة ١٩٠٠ قد اصبحت جبارا اقتصاديا ، وفي سنة ١٩١٤ أصبحت دولة عالمية تامة المواصفات .

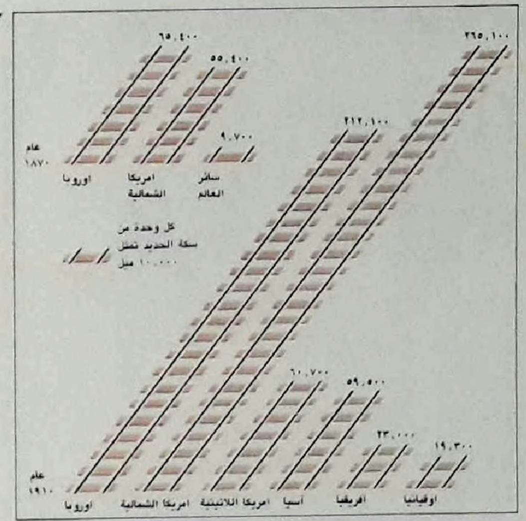
تأثير البخار

أدى استخدام الطاقة البخارية ، في القرن التاسع عشر ، في النقل البري والبحري والصناعة والزراعة (٧) ، الى قلب نظام التجارة العالمي رأسا على عقب . ضاعفت الطاقة البخارية أيضا قدرة الشعوب الغربية على التحرك وزادت من هيمنتها على مناطق العالم المتخلفة اقتصاديا . من بين جميع عوامل التغيير ، كان لسكة الحديد التأثير الاعظم .

القومية وسكة الحديد

في المرحلة الاولى من تطور سكك الحديد (حتى حوالى ١٨٧٠) ، ساعدت هذه السكك على تقوية الاسواق القومية

١



٢



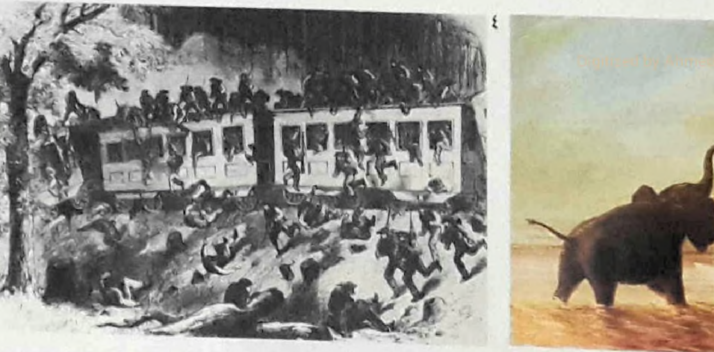
(١) – اول من قام بصنع السكك الحديدية البخارية هما بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية . فقد جاء بعد اول سكة حديدية عامة تجرها قاطرة بخارية ، وهي قطار ليفربول ومانشستر (١٨٣٠) ، قطار بلتيمور واوهايو . طيلة الاربعين سنة التالية ، تركز بناء السكك الحديدية بالدرجة الاولى في اوروبا وامريكا الشمالية ، حيث كانت الرساميل والمهارة الهندسية متوافرة ، وحيث ربطت مراكز الصناعة والتجارة بعضها ببعض . بين العامين ١٨٣٢ و١٨٣٨ ، بوشر ببناء السكك الحديدية في فرنسا وبلجيكا وبافاريا والنمسا وكندا . في اعقاب ١٨٧٠ ، بنيت سكك الحديد في القارة الامريكية غالبا بقصد فتح اراض جديدة واستغلال طاقاتها التجارية . اهم نشاط لبناء السكك في آسيا بذل في اليابان والهند .

---

(٢) – استخدمت الدول الغربية البوارج الحربية المسيرة بالطاقة البخارية لاخراج اليابان من سياسة الاعتزال التي التزمت بها طويلا . ففي يوليو ١٨٥٣ ، قام رئيس الولايات المتحدة ، خوفا من ان تسبقه روسيا ، بارسال الكومودور ماتيو بيري على رأس اربع بوارج (كانت اثنتان منهما بخاريتين) الى اوراجا ، وتحميله رسالة موجهة الى الحكومة العسكرية تطالب بتنازلات تجارية ، بما في ذلك محطات للتزود بالفحم . في فبراير ١٨٥٤ ، عاد بيري مرة اخرى على رأس سبع سفن واصر على الجواب . فاستحوذ الخوف على الحكومة العسكرية من «السفن السوداء» الراسية في

وتوسيعها ، وتوطيد دعائم الدولة القومية . فقد أدى افتتاح اول سكة حديد عابرة للقارة سنة ١٨٦٩ الى ربط ولاية كليفورنيا وسائر انحاء الولايات المتحدة الامريكية بطوق من حديد . كذلك عملت سكة الحديد على توحيد كل من المانيا وايطاليا ونمو اقتصادياتهما القومية . وكان الشرط الذي وضعته المقاطعات البحرية (نوفا سكوشيا ونيوبرونزويك وجزيرة الامير ادوارد ونيوفاوندلند)لقبولها بالنظام الكندي الكونفدرالي سنة ١٨٦٧ هو بناء سكة حديدية تربط بينها وبين المقاطعات الداخلية من كندا . ووضعت مقاطعة كولومبيا البريطانية شرطا مماثلا عندما انضمت الى الكونفدرالية الكندية سنة ١٨٧١ .

كان للتطورات التي لحقت بسكك الحديد فيما بعد تأثير اكبر على الاقتصاد



الميناء فاذعنت . ادت معاهدة كاناجاوا ، التي وقعت في ٣١ مارس ١٨٥٤ ، الى فتح مرفأين امام السفن الامريكية .

(٣) - لعبت الزوارق البخارية الصغيرة دورا هاما في اكتشاف افريقيا بين العامين ١٨٥٥ و ١٨٨٥ ، كما لعبت دورا هاما بعد ذلك في حماية المناطق المستعمرة وادارتها . ففي هذا الزورق البخاري ، «الماروبرت» ، استكشف دافيد ليفنجستون نهر الزامبيزي سنة ١٨٥٠ ، كما استكشف نهر الروفيما في الزورق البخاري «بايونير» سنة ١٨٦٠ . بعد ذلك بأربع سنوات ، استخدم هـ.م. ستانلي الزورق البخاري «ليدي أليس» ليدور حول بحيرة فكتوريا ويساعد في البحث عن منبع الكونجو . استخدم الاداريون الاستعماريون في افريقيا الغربية الزوارق البخارية بين المحطات النهائية للسكك الحديدية الواقعة على طول نهري السنغال والنيجر .

(٤) - كانت الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) أول حرب رئيسية لعبت سكك الحديد فيها دورا حاسما . تظهر الصورة قطارا يحمل الامدادات الى الجنرال جونستون ، وقد خرج عن الخط في غابات المسيسبي في فرجينيا سنة .

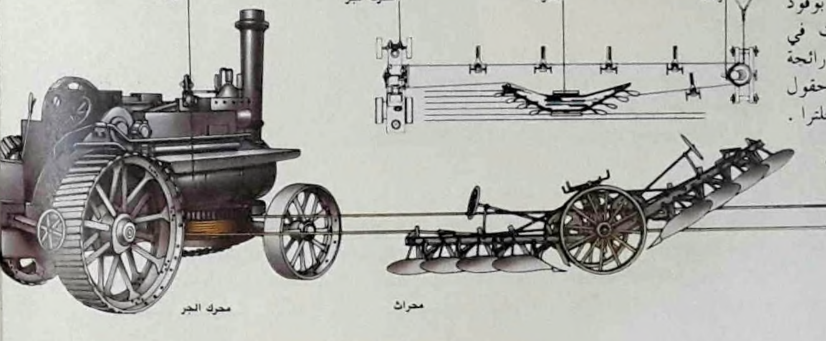
(٥) - بنيت سكة الحديد التشيلية بين فالباريزو وسانتياجو بين العامين ١٨٥٣ و١٨٦٤ ، وكانت اول سكة حديدية هامة في امريكا الجنوبية . كان بناؤها عبر جبال الانديس انجازا هندسيا عظيما . حملت هذه السكك التطور الى مناطق نائية .

العالمي ، ولاسيما في مجال زيادة حجم المبادلات بالسلع . فمد السكك الحديدية الى مروج امريكا الشمالية والجنوبية (بواسطة شركات من طراز شركتي «سكة الحديد الكندية للمحيط الهادىء» و«سكة الحديد الارجنتينية») ، وفتح نوافذ روسيا الغربية (أي ريجا واوديسا) عبر سكك حديدية ممتدة الى الاراضي الداخلية الصالحة لزراعة الحبوب ، وحتى فلاديفوستك ، فضلا عن بناء خطوط تمتد الى سهول البنجاب والبنجال الخصبة في الهند ، كل ذلك عمل على توسيع نطاق الاسواق العالمية للسلع الاساسية .

قبل عصر السكك الحديدية ، كانت الاقتصاديات القومية مكتفية بذاتها الى حد كبير . الا ان استيراد الدول الصناعية كميات ضخمة من المواد الغذائية الاساسية والمواد الخام الضرورية دفع بهذه الدول



(٦) - كانت السفينة «ذي جريت ايسترن» ، التي تزن ١٨٩١٥ طنا ويبلغ طولها ٢١٠,٩م وتسير بالمجاديف واللوالب والاشرعة ، اكبر من ان تدفعها المحركات البحرية الضعيفة المعاصرة . مع ذلك توصلت ، في يوليو ١٨٦٦ ، الى ارساء اول كابل برقي عبر الاطلسي .



(٧) - يعتبر الاستخدام الزراعي للطاقة البخارية شاهدا على الحماسة التي رافقت استخدامها في قطاعات عديدة في القرن التاسع عشر . لم تستخدم آلات الحراثة البخارية على نطاق واسع لانها كانت مزعجة ، ولان الصعوبات الناجمة عن تزويدها بوقود الفحم الحجري زادت في كلفة تشغيلها . كانت رائجة الى ابعد حد في حقول الحبوب في شرق انجلترا .

في عصر البخار الى التركيز على انتاج السلع المصنعة بواسطة الطاقة البخارية على نطاق واسع .

كان توفير الاموال اللازمة لبناء سكك حديدية بخارية من اهم الاسباب المفضية الى نمو سوق مالية عالمية ، وكانت لندن مركز هذه السوق الرئيسي قبل ١٩١٤ .

الهجرة والاستيطان

كانت شركات البواخر والسكك الحديدية تجني الارباح من خلال تشجيع هجرة اليد العاملة على نطاق واسع . كانت عدة شركات تفضل نقل البشر المتحركين بأنفسهم على نقل البضائع التي لا بد من تحميلها وتفريغها .

لولا البوارج الحربية وسكك الحديد ، لاستحالت السيطرة العسكرية والسياسية على المناطق المستعمرة من جانب الدول الكبرى (٢) . ففي الثمانينات ، جهز الفرنسيون عدة حملات عسكرية الى الجزائر لقمع ثورة شاملة بقيادة المجاهد بوعمامة . قمعت هذه الثورة آخر الامر باللجوء الى بناء سكة حديدية في قلب منطقة الثورة . وفي اعقاب قمع البريطانيين لثورة الأشانتي في ساحل الذهب (غانا اليوم) سنة ١٩٠٠ ، أدى بناء سكة حديدية في تلك البلاد الى السيطرة البريطانية التامة عليها .

قبل ١٨٦٠ ، كانت البواخر تستهلك كميات ضخمة من الفحم الحجري ، مما حصر مدى عملياتها في الطرق الساحلية والبحرية القصيرة . يستثنى من ذلك خط الاطلسي الشمالي الذي كانت ترتاده حركة ركاب واسعة . تمّ ادخال التحسينات التقنية على المحركات البحرية ببطء اكبر منه في المحركات البرية . ففي سنة ١٨٤٠ قامت الباخرة «بريطانيا» ، التي كانت تزن ١١٣٩ طنا ، بنقل ٩٠ راكبا و٢٢٥ طنا من البضائع فقط ، لانها كانت تحتاج الى ٦٤٠ طنا من الوقود المختزن لقطع الاطلسي . لكن استخدام المحرك البحري المركب الجديد في الستينات أدى الى توفير ٤٠ بالمائة من استهلاك الوقود . اما في سنة ١٩١٤ ، فقد كانت الباخرة «بوثنيا» ، التي كانت تزن ٤٥٥٦ طنا ، تنقل من البضائع ما يوازي ثلاثة اضعاف ما كانت تحمله من الوقود ، ولا تتسع لاكثر من ٣٤٠ راكبا .

اتاح ادخال الفولاذ في بناء السفن في الثمانينات والعنفات البخارية في العقد التالي ، استخدام السفن للابحار في عرض البحار حتى استراليا وزيلندا الجديدة .

الصناعة والزراعة

قبل ١٩١٤ ، كان استعمال الطاقة البخارية المحركة لآليات النسيج محصورا الى حد كبير في اوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية التي كانت تنتج فيما بينها ٨٠ بالمائة من منسوجات المصانع . لكن انتشار هذه الآليات أدى الى خطوات سريعة في حقل التصنيع في الهند واليابان واستراليا ومصر . كانت الطاقة البخارية تستخدم في جميع مراحل انتاج الحديد والفولاذ ، لكن انتشار الطاقة البخارية خارج المناطق الصناعية القديمة بقي بطيئا .

ركائز علم القرن العشرين

في القرن الماضي ، كانت عدة حقول علمية تبدو سائرة في ما يمكن تسميته بالتقدم الصحيح ، أي تحقيق سلسلة من الاكتشافات التي يمكن ادراجها بانسجام في صلب النظرة العلمية الرسمية الى الطبيعة .

مع ذلك ، فاننا اذا نظرنا الى الوراء ، نجد ان بعض هذه الاكتشافات كان من شأنها ان تؤدي الى تغييرات اساسية في الصورة العلمية المعتمدة .

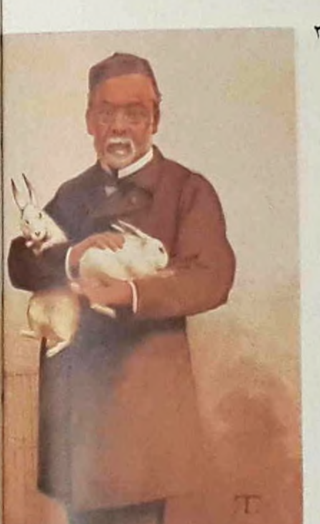
علم الحياة والطب

كان علم الحياة يبدو سائرا في طريقه بوضوح وأمان حتى هزه وأذهله شارل

١



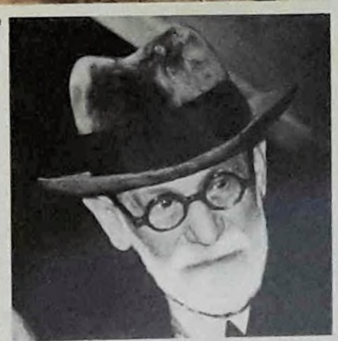
٢



٣



٤



٥



داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) وغريغور ماندل (١٨٢٢ - ١٨٨٤) (٣) . فعندما نشر داروين كتابه «اصل الانواع» سنة ١٨٥٩ ، مدرجا الانسان مع الحيوانات ضمن عملية التطور القائمة ، في نظره ، على مبدأ الانتقاء الطبيعي ، انفجرت عاصفة من الجدل لم تهدأ كليا حتى بعد مرور اكثر من قرن على ذلك . اما ابحاث ماندل حول عوامل الوراثة ، فلم يأبه لها العلماء حين صدورها في الستينات ، ولكنها لعبت حوالى ١٩٠٠ دورا اساسيا في ارساء قواعد علم الوراثة .

كذلك تقدم علم الطب . فدرس كلود برنار (١٨١٣ - ١٨٧٨) الخصائص الكيميائية للجهاز الهضمي ، وطرأ تحسين على معالجة الالتهابات بفضل الافكار الجديدة التي اتى بها لويس باستور (١٨٢٢ - ١٨٩٥) (٢) .

٦

---

(١) - انجبت جامعة جوتينجن ، التي اشتهرت بمرافقها لتعليم الرياضيات والطبيعيات ، عددا من رواد الدراسات الفيزيائية في المانيا ابان القرن التاسع عشر .

(٢) - هذا الرسم للويس باستور مأخوذ من كاريكاتور نشر في مجلة «سوق الغرور» سنة ١٨٨٧ . بحث باستور في التخمير وفي تحمّض الحليب وفي التعفن ثم في مرض يصيب دودة القز . اثبت ان كل ذلك ناجم عن وجود جسيمات عضوية وبرهن انها تنتقل بالهواء . ثم درس امراضا حيوانية اخرى ، وابتكر طريقة لاعطاء الجسم مناعة تزيد في مقاومته لانواع تلك الجسيمات الاشد ضراوة .

(٣) - لم يقنع جريجور ماندل بالتفاسير الشائعة في ايامه حول كيفية حدوث التغييرات في الكائنات الحية التي تؤدي الى ظهور انواع جديدة . فبدأ في ستينات القرن التاسع عشر تجاربه في تطعيم البازلاء ، فاكتشف وجود نوعين مما يدعى اليوم الجينة او المورثة ، هما المورثة السائدة والمورثة المتراجعة ، وهكذا ، بتطعيمه النبتة بنوع طويل من البازلاء ثم بنوع قصير حصل ، لا على هجين نصف طويل ، كما كانت النظريات السائدة تتوقع ، بل على هجين طويل . فاستنتج من ذلك ان عنصر الطول هو المورثة السائدة . ثم جاء ربع نبتات الجيل الثاني من القصار ، فاستنتج ان مورثة القصر المتراجعة قد عادت الى الظهور . اخيرا اثبت بالتهجين المتواصل انه من الممكن توليد الهجين القصير من القصار ، مبيّنا كيف تتغيّر النسب في الاجيال المتعاقبة .

(٤) - استحدث سيجموند فرويد (من فيينا) نظرية خاصة بالنفس مستعملا بادىء الامر التنويم المغنطيسي في معالجة الهستيريا ، وفيما بعد طريقة توارد الخواطر الحر . استخدمت الطريقتان لتقصّي عالم اللاوعي وقدرته على التأثير في السلوك . شدد فرويد ايضا على الدافع الجنسي الكامن وراء الكثير من اشكال السلوك البشري .

(٥) - اظهرت دراسة البرت ايشتاين حول النسبية الخاصة سنة ١٩٠٥ انه من المحال قياس جميع المقادير الطبيعية قياسا مطلقا ، وان تلك المقادير نسبية تتوقف على المرجع او المسند ، الا انه لم يأخذ الجاذبية بعين الاعتبار . ثم نشر سنة ١٩١٥ نظريته في النسبية العامة التي وسعت نطاق الفكرة حتى اصبحت تشمل الجاذبية والحركة المتسارعة .

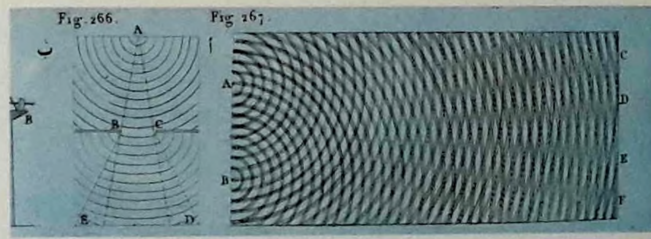
(٦) - بنى فاراداي (١٧٩١ - ١٨٦٧) حلقته الشهيرة لاستخدامها في احدى تجاربه الاساسية المتعلقة بماهية الكهرباء المغنطيسية في لندن سنة ١٨٣١ . كان فاراداي يعرف ان للكهرباء السارية في سلك حقل مغنطيسي مرتبط بها . فذهب الى ان المغنطيس لا بد أن يولّد (بالانتقال) تيارا كهربائيا في سلك يوضع على مقربة منه . ثم اثبت ان ذلك يحدث فعلا اذا كان المغنطيس متحركا ، وهكذا اكتشف الانتقال الذاتي .

النظرية الذرية

اخيرا قطعت الكيمياء الحديثة آخر ما تبقى لها من روابط بكيمياء القرون الوسطى ونزعتها الصوفية ، وتحولت الى دراسة عملية وعلمية حقيقية قائمة على الاسس التي وضعها لها لافوازيه (١٧٣٤ ـ ١٧٩٤) . كان محور تقدمها النظرية الذرية ، التي جاء بها في شكلها الحديث ، في مستهل القرن التاسع عشر ، جون دالتون (١٧٦٦ ـ ١٨٤٤) .

مر بعض الوقت قبل ان يسلم العلماء بهذه النظرية ، اذ اعتبر اثباتها مربوطا بعدد من البراهين غير المتوفرة في ذلك الحين . لكن القرائن والبراهين التجريبية المطلوبة ما لبثت ان تجلت في ابحاث أماديو أفوجادرو (١٧٧٦ ـ ١٨٥٦) وستانسلاو كانيزارو (١٨٢٦ ـ ١٩١٠) وجون بيرزيليوس (١٧٩٩ ـ ١٨٤٨) ، التي

٧



٩



٨



(٧) ـ بين ١٨٠٠ و ١٨٠٩ ، احيا توماس يونغ نظرية الموجات الضوئية التي كانت تناقض نظرية نيوتن الجزيئية . في القرن السابع عشر ، ذهب الفيزيائي الهولندي هويجنز الى ان الضوء ينجم عن امواج تندفع الى الخارج (امواج طولية) انطلاقا من مصدر ما . الا ان يونغ جاء بفكرة الامواج الصاعدة الهابطة (اي العرضية) ، التي شرحها في كتابه «سلسلة محاضرات في الفلسفة الطبيعية» .

(٨) ـ في سنة ١٨٩٦ ، اكتشف ان الاورانيوم يرسل اشعاعات اقوى من الاشعة السينية ، وان هذه الاشعاعات تمكن الغازات من نقل الكهرباء . قام بدرس هذا الحقل فيما بعد ماري وبيار كوري ، اللذان وجدا ان هناك مواد ثقيلة اخرى ترسل هذه الاشعة (اشعة جاما) . حللا احد مركبات الاورانيوم ، فوجدا انه يحتوي على البلوتونيوم والراديوم ، وهذا الاخير مرسل اشعاعي قوي . ادركا ان الارسال لا بد ان يكون ناجما عن سلوك الذرات داخل هذه المواد ، فدعيا هذا السلوك النشاط الذري . تبين الصورة يد ماري كوري كما ظهرت في صورة استخدم فيها مصدر لاشعة جاما .

(٩) ـ لم يكن بوسع جيمس ديوار (١٨٤٢ ـ ١٩٢٣) ان يقوم بهذا العرض ، الذي اثبت فيه امكانية سكب الهيدروجين السائل ، دون ابحاث القرن التاسع عشر في حقل الحركة الحرارية . كان قانون ثبات الطاقة واعتبار الحرارة نوعا من انواع الطاقة تطورين اساسيين . فقد ادت الفكرة القائلة ان حرارة الجسم تتوقف على حركة جزيئاته الى مفهوم الصفر المطلق ، وهي فكرة اساسية بالنسبة الى مفهوم المادة في القرن العشرين .

ساعدت على ترسيخ نظرية ذرية المادة . تلا ذلك اكتشافات اخرى في الكيمياء العضوية لم تكن اقل شأنا . نجمت هذه التطورات بشكل خاص عن ابحاث جوستوس فون ليبيج (١٨٠٣ - ١٨٧٣) في الكيمياء الزراعية والاسمدة ، وعن اعمال فريدريك كيكولي (١٨٢٩ - ١٨٩٦) الذي اكتشف البنية الشبيهة بالحلقة للذرات في جزيء البنزين وسواه من المركبات .

في علم الفيزياء ، تم تحقيق مقدار كبير من التقدم في فهم الكهرباء . بدأ ذلك سنة ١٨٠٠ ، حين جرى تركيب الخلية ، المعروفة بالحاشدة الفلطية ، على يد اليساندرو فولتا (١٧٤٥ - ١٨٢٧) ، فأمكن الحصول بواسطتها على تيار كهربائي متواصل للمرة الاولى . جرت ثمة بحوث ايضا قام بها آخرون ، مثل همفري ديفي (١٧٧٨ - ١٨٢٩) في موضوع التأثيرات الكيميائية للكهرباء ، ومايكل فاراداي (٦) في موضوع العلاقة بين الكهرباء والمغنطيس . ثم قام جيمس كلارك مكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩) ، الذي درس الخصائص الرياضية للحقل الكهربائي المغنطيسي ، بتبني افكار فاراداي ومضى بها قدما ، وتنبأ بوجود اشكال اخرى من الاشعاع الكهربائي المغنطيسي بالاضافة الى الضوء .

التجارب الخاصة بالضوء

استخدم مكسويل النظرية القائلة ان الضوء ينقل بواسطة موجات ، والتي كانت قد ظهرت من خلال التجارب الخاصة بقياس التداخل التي قام بها توماس يونج (١٧٧٣ - ١٨٢٩) . ثم ازداد الاهتمام بطبيعة الضوء نتيجة لظهور طريقة لقياس الطيف اخترعها جوزيف فون فراونهوفر (١٧٨٧ - ١٨٢٦) وطورها فيما بعد جوستاف كيرشهوف (١٨٢٤ - ١٨٨٧) . ثم تبيّن ان هذه الطريقة تشكل وسيلة دقيقة للتحليل الكيميائي ، وسرعان ما اصبحت اداة ثورية في حقل الابحاث الفلكية . في القرن التاسع عشر ، بقيت سائدة الفرضية القائلة ان الضوء ينتقل عبر مادة غير منظورة تعرف بالاثير ، وان لم يكن قد توفر اي دليل على وجود تلك المادة ، حتى جاءت تجربة اجراها أ . مايكلسون (١٨٥٢ - ١٩٣١) وأ.و. مورلي (١٨٣٨ - ١٩٢٣) في سنة ١٨٨٧ فأثبتت عدم وجود هذه المادة . تركت هذه التجربة علم الفيزياء في حالة بلبلة ، حتى قام البرت اينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) بنشر النظرية الخاصة بالنسبية سنة ١٩٠٥ (٥) .

في حقول اخرى ايضا ، ادت الدراسات الجديدة في نهاية القرن التاسع عشر الى فتوح هامة . فقد ادى البحث في انتقال الكهرباء عبر الغازات الى نتائج مدهشة ، منها ان وليم كروكس (١٨٣٢ - ١٩١٩) اكتشف اشعة الكاثود ، وان ج.ج. طومسون (١٨٥٦ - ١٩٤٠) اكتشف الالكترون . وضع هذان الاكتشافان ، بالاضافة الى نظرية ماكس بلانك (١٨٥٨ - ١٩٤٧) المتعلقة بالكانتوم ، اسس الفيزياء الذرية والنووية الحديثة .

حركة التصنيع (١٨٧٠-١٩١٤)

كان نمو حركة التصنيع وانتشارها في انحاء اوروبا واجزاء اخرى من العالم ، مثل اليابان والولايات المتحدة ، من ابرز ميزات النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان لظهور الاقتصاد الصناعي في اوروبا الغربية نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة الاثر . ففي اعقاب النمو السريع للمدن والقرى ، اصبح المجتمع اكثر تعقيدا من الناحية السياسية ، وبدأت تتألف جماعات جديدة من الناس ، ولاسيما من الطبقات الوسطى والعاملة ، واخذت تمارس نفوذا سياسيا اوسع من السابق .

انتشار التصنيع

في سنة ١٨٥٠ ، كانت بريطانيا هي



(١) - ارتفع الانتاج الصناعي بسرعة في النصف الاخير من القرن التاسع عشر بفضل التقدم في الخبرة الهندسية والمالية . اتاحت طريقة توماس - جيلكرايست (سنة ١٨٧٨) صنع الفولاذ من الحديد الخام الفوسفوري ، فمكنت بذلك فرنسا والمانيا من اقامة توسعهما الصناعي على مناجمهما الغنية بالحديد الخام . يبين الرسم معدل الانتاج السنوي بين الاعوام ١٨٧٠ و ١٨٧٤ وبين ١٩١٠ و ١٩١٤ .

(٢) - كانت الدراجة اول سلعة «كمالية» حظيت بسوق واسعة . جرى الترويج لها بواسطة اعلانات ملونة مثل هذا الاعلان الذي ظهر على بناية ميشلان في لندن ، فبيعت باعداد كبيرة ، بحيث ادرك صانعوها ان سوقا جديدة واسعة قد نشأت .

البلد الوحيد الذي يمكن وصفه بأنه ذو اقتصاد صناعي (٨) . لكن التطور الصناعي امتد الى بلجيكا وفرنسا والمانيا بحلول ١٨٧٠ ، كما استتب في العقود الاخيرة من القرن الماضي في بلدان اخرى ، مثل السويد وروسيا .

اخذت بلجيكا بسياسة التصنيع بسرعة ، وبحلول ١٨٧٠ كانت تنعم باقتصاد مزدهر في اوروبا . اما في فرنسا ، فكانت التجارة وانتاج الحديد والمنسوجات مزدهرين في الجزء الاخير من القرن ، وبين ١٨٧٠ و ١٨٩٠ لعب الابتكار التقني الفرنسي دورا هاما في تطور عدد من المنتجات الهندسية .

بحلول ١٩٠٠ ، كان اقتصاد المانيا اهم اقتصاد صناعي في القارة الاوروبية ، اذ رافق توحيدها سنة ١٨٧١ تراكم رأسمال ضخم وتطور شبكة مواصلات .

٥



(٣) ـ تركز قسم كبير من الثروة التي ولدتها الثورة الصناعية في أيدي الطبقات العليا . ففي بريطانيا مثلا ، كما يبدو في الرسم ، كانت مجموعة ضئيلة من الصناعيين الارستقراطيين سنة ١٩١١ تملك جزءا كبيرا من المدخول القومي ، بينما كان الجزء الآخر يتكاثر في ايدي صناعيين ومهنيين اقل شأنا .

(٤) ـ يعتبر نمو برلين نموذجا لنمو عدة مدن في القرن التاسع عشر . فحتى ستينات القرن الماضي ، كان اتساعها يدور بالدرجة الاولى على مركز المدينة القديم . ولكن في غمرة نمو الدولة الالمانية ، تطورت لتصبح عاصمة البلاد ومركزا صناعيا مهما وتحولت الى مدينة اوروبية كبرى . وكما جرى في عدد من المدن الاخرى توزع سكان برلين المتزايدون ، فأنشأوا ضواحي محيطة بالمدينة تضم معا قرى كانت من قبل منفصلة .

(٥) ـ كانت العائلات من مختلف الطبقات ايام الملكة فكتوريا تتألف من عدد كبير من الافراد بسبب ارتفاع معدل الولادة وتدني معدل الوفيات ، نتيجة لتحسن العناية الطبية والتغذية ومستويات الحياة العامة . لكن في الاوساط الفقيرة من المجتمع ، بقي معدل وفاة الاطفال مرتفعا بسبب الامراض المنتقلة بالعدوى ، وكان عدد النساء الحوامل عادة يربو على عدد المواليد الذين تكتب لهم الحياة ، فيما كانت حياة اسر الطبقة العليا مبنية على وحدات ضخمة تضم العديد من الخدم والاولاد . كان عدد الخدم اثنين او ثلاثة ، وهو حد ادنى لأسرة محترمة من الطبقة الوسطى . في منازل الارستقراطيين الذين كانوا يعيشون في الاقطاعات الريفية الكبرى ، لم يكن غريبا ان يجد المرء اكثر من ١٠٠ خادم . كان المنزل الفيكتوري الرحب لا يصلح للعيش الا اذا امن الخدمة فيه عدد كبير من المستخدمين .

بين ١٨٥٠ و ١٨٨٠ ، ضاعفت المانيا انتاجها من الفحم الحجري عشرة اضعاف ، ونتيجة لاستيلائها على مناجم الحديد الخام في منطقة الالزاس واللورين من فرنسا سنة ١٨٧١ ، تصاعد انتاج الحديد والفولاذ فيها بسرعة (١) . مع حلول ١٩٠٠ ، اخذت بلدان اخرى مثل السويد وروسيا وسويسرا والنمسا تشارك في هذا التطور الصناعي .

التقنية والتجارة

اعتمد التصنيع الاوروبي على تطبيق التقنية التي ظهرت اولا في بريطانيا ، ولكنه صار فيما بعد يستخدم تقنيات ارقى ، كطريقة بيسمر لصنع الفولاذ المخترعة سنة ١٨٥٦ ، والتي اتاحت انتاج مادة اقوى من الحديد بكلفة زهيدة . كذلك اصبح صنع الفولاذ من الخام الفوسفوري المتوافر في اوروبا ممكنا بفضل طريقة توماس

٦



٧



الصحف الشعبية على خلق رأي عام قوي حساس في العقود الاخيرة من القرن ، عندما ادت المغامرات الامبريالية والتنافس الاستعماري الى ظهور العنجهية الوطنية التي كانت تتجلى في الادب العدواني والتظاهرات والاغاني الحماسية المثيرة .

٨

	١٨٥٠	١٨٧٠	١٨٩٠
بريطانيا	المدينة ٪٦٠ – الريف ٪٤٠	٪٧٠ – ٪٣٠	٪٧٢ – ٪٢٨
فرنسا	٪٢٥ – ٪٧٥	٪٣١ – ٪٦٩	٪٣٧ – ٪٦٣
المانيا	٪٢٧ – ٪٧٣	٪٣٩ – ٪٦١	٪٤٧ – ٪٥٣

(٦) – كانت دور الاوبرا ، مثل دار الاوبرا في فيينا ، جزءا من الثقافة المدينية اللامعة التي احدثتها الثروة المتزايدة في عدد من المدن الاوروبية . فقد بنت هذه المدن قاعات الموسيقى والمتاحف الفنية والاثرية ، فضلا عن مبان للبلدية وأجهزة صحية افضل وقامت بانارة الشوارع ورصفها . ادت التحسينات في مساكن الطبقة الوسطى الى ظهور النقل المشترك .

(٧) – احتفلت لندن بالانتصارات التي احرزتها سنة ١٩٠٠ ابان حرب البوير بفورة من الكبرياء القومية التي الهبتها التقارير الواسعة عن الحرب في الصحف الشعبية . ساعد ظهور

(٨) – انتقل السكان من الارياف الى المدن بسرعة مع انتشار التصنيع . فباستثناء بريطانيا ، كان ثلاثة ارباع السكان في اوروبا يقيمون في الارياف في اواسط القرن الماضي .

جيلكرايست بعد ١٨٧٨ ، كما شاع استعمال الفولاذ الرخيص الثمن لصنع الآلات ولبناء السفن ، وبذلك تمّ وضع الاساس لتوسيع الصناعات الهندسية السريع في جميع انحاء اوروبا . بحلول ١٩٠٠ ، ظهرت صناعات اخرى نتيجة للابحاث العلمية في الظواهر الكيميائية والكهربائية ، واخذت اولى الاجهزة الكهربائية والكيميائيات الصناعية تظهر ولاسيما في المانيا . كان تطوير المحرك الذي يعمل بالاحتراق الداخلي قد بلغ مرحلة متقدمة في اواخر القرن ، وكانت التحسينات في الهندسة الميكانيكية هي الحافز لظهور فيض من المنتجات التي تستغني عن اليد العاملة ، من آلات الخياطة الى المكانس الكهربائية والآلات الكاتبة .

اتسع مدى التجارة بسرعة خلال اواخر القرن التاسع عشر ، وساعد على ذلك استعمال البواخر المصنوعة من الفولاذ والحديد بشكل متزايد . كذلك حفزت حركة الاستعمار البحث عن اسواق ومواد خام جديدة ، الا ان معظم الحركة التجارية بقيت محصورة بين الاسواق الاوروبية والامريكية . لعبت المواد الغذائية الرخيصة المستوردة من امريكا الشمالية بعد ١٨٧٠ دورا هاما في خفض اسعار المواد الغذائية في اوروبا ، في حين ادت الى جمود الزراعة المحلية .

التغييرات الاجتماعية البعيدة المدى

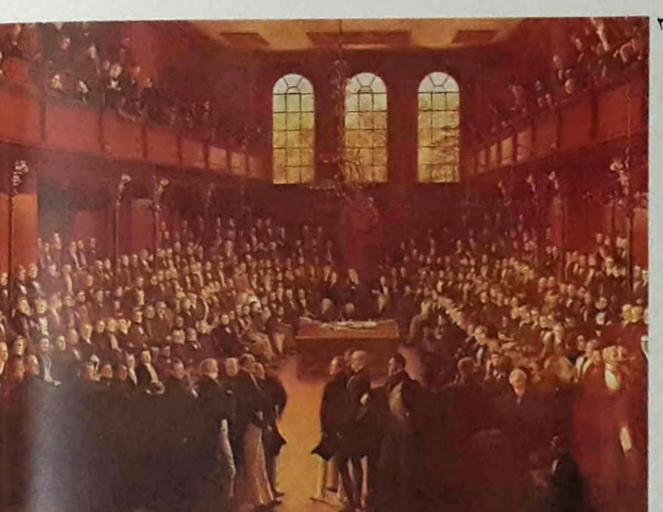
أدّى التطور الصناعي والتزايد المستمر في عدد سكان اوروبا مع حركة النزوح الى المدن (٤) الى تغييرات اجتماعية اساسية . فقد ازدادت ثروة الطبقة الوسطى زيادة عظيمة نجمت في احيان كثيرة عن التوظيف في الاسهم والحصص (٣) ، كما ان الطبقات الفقيرة نفسها استفادت ايضا بعض الفائدة من الاجور المتصاعدة .

كانت ظروف المعيشة في المدن والقرى الاوروبية النامية قاسية وعسيرة ، ولكنها كانت تتحسن تدريجيا . تبنت بعض الدول تدابير خاصة بالضمان الاجتماعي ، مثل المانيا في عهد بسمارك ، كما امنت النشاطات الخيرية في بلدان مثل بريطانيا بعض الرفاهية لاشد الناس حرمانا . ازدادت الهجرة من البلدان الاوروبية الفقيرة ، ولاسيما ايرلندا وروسيا والامبراطورية النمساوية المجرية ، وبخاصة الى امريكا الشمالية ، مع ان بعض المهاجرين اختاروا المستعمرات البريطانية وخصوصا استراليا .

حوالى ١٩٠٠ ، انعكس التحسن في مستويات المعيشة في ظهور اولى ميزات المجتمع الاستهلاكي الشامل . فان تزايد عدد الصحف الزهيدة السعر ، وظهور الاعلانات على نطاق واسع ، وبيع السلع الاستهلاكية مثل الدراجات بكثرة (٢) ، وازدياد الترفيه الشعبي في حقول الرياضة والفنون ورحلات الاستجمام ، كل ذلك كان من الدلائل على ان الطبقات العاملة اخذت تتمتع ببعض ثمار التصنيع ، خصوصا تلك الأسر الكبيرة من ابناء الطبقة الوسطى (٥) التي اضفت على الجزء الاخير من القرن التاسع عشر طابعه الرصين المتناقض مع التغييرات الحاصلة في المجتمع .

النضال من أجل الاقتراع

كان النظام البرلماني في بريطانيا في اوائل القرن التاسع عشر ينطوي على عدة مفارقات . كان حق الاقتراع خاضعا لمجموعة معقدة من الحقوق والامتيازات التقليدية ، التي لم تكن قد تغيرت تغيرا يذكر منذ منتصف القرن السابع عشر . كان عدد من البلديات تنتخب نوابها على أساس حلقة صغيرة من الناخبين ، وكان بعضها قد تقلّص الى حدّ انها لقّبت بالبلديات «الخربة» ، اذ كان انتخاب النائب فيها يتوقف كليا تقريبا على نفوذ الملاك المحلي . اضف الى ذلك ان نمو السكان الهائل ابان الثورة الصناعية كان قد خلق وضعا شاذًا بحيث لم يكن لبعض



٢



١



٤



٣

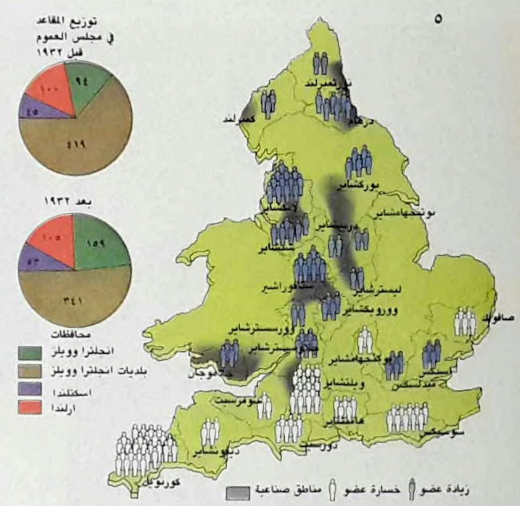
المدن الكبيرة المزدهرة أي تمثيل نيابي في البرلمان .

الاصلاح المزدوج

كان لاصلاح البرلمان والحالة هذه جانبان رئيسيان : التوسيع التدريجي لدائرة الاقتراع بحيث تشمل جميع الرجال ، وفيما بعد النساء ، واعادة توزيع المقاعد لتقويم اعوجاجات مجلس العموم .

بدأت حركات الاصلاح في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، عندما لاقى الخطيب الغوغائي الراديكالي جون ويلكز (١٧٢٧ - ١٧٩٧) تأييدا شعبيا ضخما في لندن ابان العقدين السادس والسابع . الا ان الخوف من الوقوع في الفوضى أخّر الاصلاح جيلا آخر .

أدى نمو المدن الصناعية ، ابّان الحروب النابوليونية ، الى المطالبة بالتمثيل



٦

النسبة المئوية للناخبين من عدد السكان البالغين ٢٠ سنة وما وفوق
النسبة المئوية للناخبين من عدد السكان البالغين ١٧ سنة وما فوق

١٩٧٠	١٩٤٨	١٩٢٨	١٩١٨	١٨٨٤	١٨٦٧	١٨٣٢	قبل ١٨٣٢
٩٦,٥	٩٦,٧	٩٦,٩	٧٤	٢٨	١٦	٧	٥

(١) - تعبر لافتة انتخابية معاصرة بشكل فصيح عن الصراع الذي نشب سنة ١٩٠٩ بين مجلس اللوردات الذي كان يسيطر عليه المحافظون وبين الحكومة الليبرالية ، وقد بلغ ذروته حينما رفض مجلس اللوردات ميزانية الحكومة . في دورتين انتخابيتين استعمل العنف ، وفي كلا الحالتين فاز الليبراليون .

(٢) - اصبح البرلمان ، فور «اصلاحه» بعد ١٨٣٢ ، يشمل اعضاء من المدن الصناعية التي لم تكن ممثلة من قبل ، وذلك على حساب البلديات الصغيرة «الخربة» وبعض البلديات «الهامشية» .

(٣) - الشرطة تنتزع السيدة أميلين بانكهورست ، زعيمة المجاهدات من أجل الاقتراع ، من احدى المظاهرات . في اعقاب ١٩٠٥ ، تبنت المجاهدات سياسة العنف ، مما أدى الى عدد من الاعتقالات وأحكام بالسجن .

(٤) - طالب «انصار الدستور» الظاهرون هنا في اجتماعهم الكبير الاخير سنة ١٨٤٨ ، باصلاحات انتخابية شاملة .

(٥) - كان أول مشروع قانون اصلاحي خطوة محافظة في جوهره . فقد اكتفى بتصحيح الاختلالات الناجمة عن التغيرات السكانية في المائة سنة السالفة ، ومنح حق الاقتراع للطبقات العليا والوسطى فقط .

(٦) - لم يتزايد عدد الناخبين تدريجيا الا بعد صدور قوانين الاصلاح لسنة ١٨٣٢ و ١٨٦٧ و ١٨٨٤ . جلب الرخاء الاقتصادي المتزايد للكثيرين فرصة التمتع بالمؤهلات الانتخابية دون حاجة الى التشريع . ففي سنة ١٩١٨ ، منح الرجال البالغون سن ٢١ والنساء البالغات سن ٣٠ حق الاقتراع . في سنة ١٩٢٨ ، منح جميع النساء البالغات سن ٢١ حق الاقتراع . وسنة ١٩٤٨ ، الغيت آخر بقايا التصويت المتعدد .

الشعبي . اخيرا حملت النقمة على الادارات المحافظة (طوري) الليبراليين (هويغ) الى سدة الحكم سنة ١٨٣٠ .

قدم سنة ١٨٣١ مشروع قانون الى مجلس اللوردات ، ولكنه سقط ، وامام التهديد بخلق مقاعد جديدة للوردات ، جرت المصادقة على مشروع قرار الاصلاح سنة ١٨٣٢ . احل قرار الاصلاح الاول نظاما اشد انتظاما محل الفوضى التي كانت تتعثر فيها مسألة المؤهلات الانتخابية . الا ان عدد الناخبين لم يتعد ٦٥٢٠٠٠ ، وبقيت السلطة محصورة في يد الطبقات العليا والوسطى . كان اهم من ذلك اعادة توزيع ١٤٣ مقعدا ونقلها من اسوأ البلديات «الخربة» التي لا شكل لها الى كبريات المدن الصناعية مثل لندن والى المحافظات (٢ ، ٥) .

كان قانون الاصلاح لسنة ١٨٣٢

٧

٨



٩

(٧) – كان اقرار الاقتراع السري (١٨٧٢) احد الاصلاحات المتعددة التي ازالت مساوىء النظام الانتخابي حوالي نهاية القرن التاسع عشر . الا ان النساء اللواتي كن يؤلفن نصف السكان لم يتمتعن حينذاك بحق الاقتراع . بعد ١٨٨٤ ، اصبح اكثر من نصف الذكور الراشدين يتمتعون بحق التصويت ، وذلك بعد ان صححت اعادة توزيع المقاعد أسوأ احتلال ناجم عن نمو المدن الصناعية في غضون الثورة الصناعية . كان من نتائج هذه الاصلاحات وسواها ، مثل الغاء شرط الملكية بالنسبة الى النواب (١٨٥٨) ، ظهور حزب العمال .

(٨) – أصبح موضوع التصويت من قبل النساء مسألة بارزة في السنوات العشر السابقة لعام ١٩١٤ ، عندما تألفت مجموعات نسائية لتكافح من أجل «حق الاقتراع» . لم يتحقق ذلك كليا بالنسبة الى النساء اللواتي اربين على ٢١ حتى ١٩٢٨ .

(٩) – في هذا الرسم الكاريكاتوري في مجلة «بانش» ، يظهر دزرائيلي يقود «السباق من أجل الاصلاح الانتخابي» . جرت الموافقة على مشروع قانون الاصلاح الثاني سنة ١٨٦٧ .

محافظ الطابع من عدة جهات ، حتى ان الليبراليين انفسهم اعتبروه مجرد وسيلة عابرة لمعالجة مساوىء النظام الانتخابي القائم .

حق الاقتراع والعمّال

مع حلول العقد السادس أدخل الرخاء المتزايد المزيد من الناس في اطار المؤهلات الاقتراعية المنصوص عليها سنة ١٨٣٢ . وتخوفا من خطوة اصلاحية جديدة تصرّف الزعيمان المحافظان ، لورد دربي (١٧٩٩ ـ ١٨٦٩) وبنجامين دزرائيلي (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) ، والزعيم الليبرالي وليم جلادستون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨) بالمقترحات الجديدة تصرّفا لبقا لكسب التأييد لحزبيهما . كتب لدزرائيلي ان يحافظ على تماسك حزبه آخر الامر ، واليه ينسب القانون الاصلاحي الثاني لسنة ١٨٦٧ . اعطى هذا القانون حوالى مليون من عمال المدن حق الاقتراع ، مما ادى الى اعادة توزيع المقاعد مرة اخرى .

اقرّ قانون الاقتراع لسنة ١٨٧٢ الاقتراع السري ، وسنة ١٨٨٣ ، جعلت اسوأ جوانب الفساد الانتخابي مخالفة للقانون . وفي سنة ١٨٨٤ ، توصل الليبراليون الى اقرار القانون الاصلاحي الثالث ، مما اعطى العمال الزراعيين حق الاقتراع ، وزاد عدد الناخبين من حوالى ثلاثة ملايين الى خمسة ملايين تقريبا . في السنة التالية ، قضت اعادة توزيع المقاعد مرة اخرى على ما تبقى من بلديات الملاكين . واخيرا نال جميع الرجال الذين يربون على سن ٢١ حق الاقتراع (٦) .

حركة الناخبات

كانت النساء مستثنيات من الاقتراع في جميع القوانين الاصلاحية حتى سنة ١٩١٨ . وكانت حقوقهن في الملكية غير ثابتة ، وكنّ يعتبرن على نطاق واسع غير جديرات بممارسة مسؤولية السلطة السياسية (٨) . تأسس «اتحاد النساء الاجتماعي والسياسي» في مانشستر سنة ١٩٠٣ ، للكفاح من أجل حق الاقتراع ، بزعامة السيدة أميلين بانكهرست (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨) (٣) . عرفت النساء الداخلات في هذه المؤسسة باسم المطالبات بالاقتراع ، واقلعن تدريجيا عن اساليب المظاهرات والدعاية المعادية وتحولن الى العنف ، كتكسير النوافد واحراق المباني وربط انفسهن بالدرابزينات ومقاومة الاعتقال .

عندما هزم اقتراح معتدل يؤيد اقتراع الاناث سنة ١٩١٢ ، اصيبت معركة الحقوق النسائية مؤقتا بنكسة . الا ان الحرب العالمية الاولى رفعت من مكانة النساء ، اذ لعبن دورا ضخما في المجهود الحربي . فقد عملن في مصانع الذخيرة ، وقمن بالمهام التي كان الرجال يهيمنون عليها من قبل . في سنة ١٩١٨ ، منحت النساء فوق الثلاثين من العمر حق الاقتراع ، ثم تمّ تعميم هذا الحق سنة ١٩٢٨ على جميع النساء فوق ٢١ من العمر .

الغي الاقتراع المتعدد المرتبط بالملكية او الاعمال في عدة دوائر سنة ١٩٠٦ . وزال من حيز الوجود اخيرا سنة ١٩٤٨ بالغاء المقاعد الجامعية في اكسفورد وكمبريدج .

روسيا في القرن التاسع عشر

على مدى سنوات عدة تلت حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) (٤)، اقلعت بريطانيا وفرنسا عن اعتبار روسيا دولة صديقة. ومع ان روسيا كانت تملك اضخم قوات برية في القارة الاوروبية، فقد اثبتت حرب القرم انها لم تكن قادرة على مواجهة تحالف انجليزي ـ فرنسي، وان جهودها الرامية الى عزل نفسها عن التغييرات السياسية الجارية في سائر اوروبا كانت لها مصدر ضعف لا مصدر قوة، وانه لم يكن بوسع اقتصادها ونظامها الاجتماعي تحمل صدمة الحرب. فكان عليها اذن، فيما لو شاءت ان تستعيد مكانتها كدولة رئيسية، ان تقتدي بالدول

١

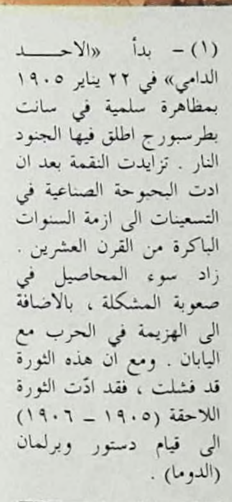


٢



٣





(١) ـ بدأ «الاحد الدامي» في ٢٢ يناير ١٩٠٥ بمظاهرة سلمية في سانت بطرسبورج اطلق فيها الجنود النار. تزايدت النقمة بعد ان ادت البحبوحة الصناعية في التسعينات الى ازمة السنوات الباكرة من القرن العشرين. زاد سوء المحاصيل في صعوبة المشكلة، بالاضافة الى الهزيمة في الحرب مع اليابان. ومع ان هذه الثورة قد فشلت، فقد ادّت الثورة اللاحقة (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) الى قيام دستور وبرلمان (الدوما).

(٢) ـ كان العمل الذليل

الغربية وتقتبس اشكال حكمها .

تحرير العبيد

كان القيصر اسكندر الثاني (١٨١٨ ـ ١٨٨١) ، الذي اعتلى العرش سنة ١٨٥٥ ، على استعداد لادخال الاصلاحات الضرورية ، وقد حذر الاشراف انه ما لم يأت الاصلاح من فوق ، فمن المحتّم انه سيأتي من تحت .

وفي فبراير ١٨٦١ ، كان «قرار التحرير» جاهزا .

ضمن هذا القرار الحرية الشخصية للملايين من الفلاحين ، وادخل نظام «الزمستفو» الانتخابي ، وهو اداة للحكم المحلي كتب له ان يصبح ذا شأن هام في الريف . تلت ذلك اصلاحات رئيسية اخرى سنة ١٨٦٤ ، فاعلنت المساواة امام القانون ، والمقاضاة بواسطة هيئة من

٤



٥

هو النمط المألوف لحياة الملايين من الروس في القرن التاسع عشر ، مع ان بعض التغييرات قد حدثت نتيجة للتطور الصناعي والانفجار السكاني . كان ثمة ٤١٢٠٠٠ عامل لتسيير الزوارق على نهر الفولجا سنة ١٨٣٠ ، ولكن في ١٨٥١ ، تدنى هذا العدد الى ١٥٠٠٠٠ ، اذ حلت الباخرة محلهم . كان يوجد حوالى ٤٠ مليون فلاح (٨٠٪ من السكان) في روسيا عشية التحرير ، وكان حوالى نصفهم مستعبدين شخصيا للاعيان . كانت حالتهم البائسة تهيمن على الحياة الاقتصادية .

(٣) ـ كان توسع روسيا في اواخر القرن التاسع عشر مدهشا . فقد مدت سلطانها الى آسيا الوسطى واستولت على اراض لا يزال الصينيون يطالبون بها الى اليوم . ادى الانفجار السكاني في روسيا الى هجرة سبعة ملايين من الفلاحين شرقا واجتياز جبال الاورال ، وفي هذه الاثناء بين سنتي ١٨٨٠ ـ ١٩١٤ هاجر مليونا يهودي الى الولايات المتحدة الامريكية و ٢٠٠٠٠٠ آخرون الى بريطانيا . تمكنت روسيا ، بفضل الخط الحديدي عبر سيبريا حتى فلاديفوستك (وقد بني بين ١٨٩١ و ١٩٠٤) من الاخذ بسياسة ناشطة في الشرق الاقصى ، اي تجاه اليابان ، مع تحقيق هدفها الثانوي ، وهو الحصول على ميناء دافىء على المحيط الهادىء . اقلق زحف روسيا شرقا ونفوذها في منشوريا اليابانيين فخاضوا الحرب ضدها سنة ١٩٠٤ .

---

(٤) ـ بعد الاستيلاء على سيباستوبول وهزيمة روسيا في حرب القرم ، تحولت هذه الدولة الى قوة من الدرجة الثانية . انقلبت بريطانيا وفرنسا عليها وفضحتا تخلف اقتصادها وهشاشة جيشها .

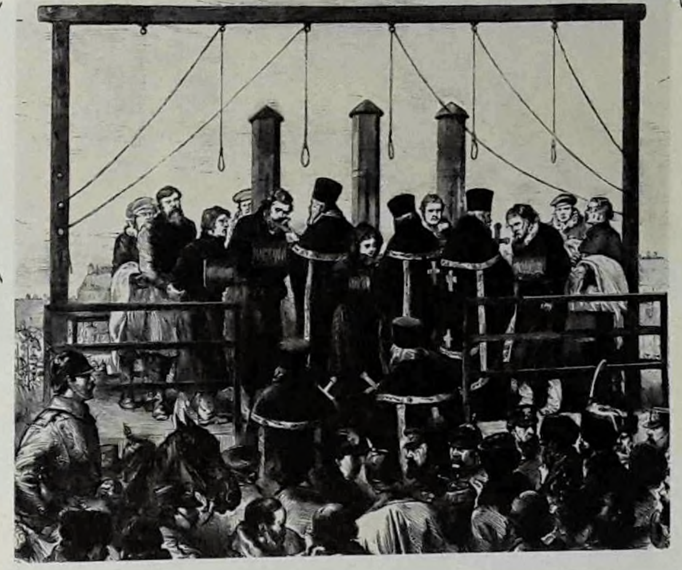
---

(٥) ـ تلقى الفلاحون اراضي غير كافية بموجب «قرار التحرير» (الذي يتلى في الصورة على فلاحي جورجيا) ، ولم يحصلوا على الاراضي مجانا ، بل كان على معظمهم ان يدفعوا مبلغا سنويا معينا للدولة التي كانت تعوض بدورها على الملاكين السابقين عن طريق سندات حكومية . وكانت هذه المدفوعات تقسط على مدى ٤٩ سنة ، وكانت اعلى من القيمة الفعلية للارض . كانت النتيجة ان الفلاحين حصلوا على مساحات من الارض اقل مما كان لديهم في السابق (بحوالي ٢٠ ٪) .

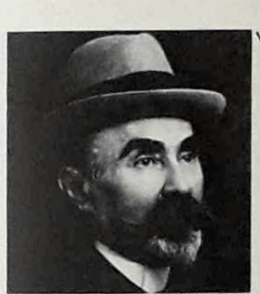
المحلفين ، واستقلال المحاكم والقضاة . كذلك جاءت تشريعات ١٨٦٣ و ١٨٦٤ فوسعت قاعدة التربية ، وانشأ «القانون الحكومي» لسنة ١٨٧٠ مؤسسات بلدية جديدة ، واقرت اصلاحات الجيش سنة ١٨٧٤ مبدأ الخدمة العسكرية العامة ، وخفضت الخدمة الفعلية من ٢٥ سنة الى ست سنوات . الا ان الفلاحين بقوا خاضعين لقانون العرف .

لذلك جاء «التحرير» مخيبا لآمال معظم الفلاحين ومؤيديهم . وحينما ارتفع عدد السكان من ٧٠ مليونا سنة ١٨٦٣ الى ١٥٥ مليونا سنة ١٩١٣ (باستثناء فنلندا وبولونيا) ، ازدادت وطأة الفقر الريفي . خففت الهجرة من حدة المشاكل بعض الشيء ، لكن الحاجة الملحة الى الارض ازدادت تفاقما بسبب التلكؤ في اقتباس الاساليب الزراعية الحديثة .

٦



٧



٨



(٦) – تجلى في اعدام الارهابيين – الذين خططوا لاغتيال القيصر اسكندر الثاني بواسطة قنبلة في مارس ١٨٨١ على امل ان يؤدي ذلك الى انهيار النظام الامبراطوري برمته – عجز السياسة الثورية في القرن التاسع عشر . ادت خيبة الامل الحادة التي شعر بها الفلاحون والمفكرون على اثر ظهور «قرار التحرير» الى التشاؤم حول امكان الاصلاح من فوق . كان عدد من الراديكاليين ، المعروفين بالشعبيين او الاشتراكيين الزراعيين ، يعتقدون ان الفلاحين لا بد ان ينتفضوا انتفاضة شاملة ويقضوا على الحكم الاستبدادي البغيض ، وانه يجب انتظار تلك الانتفاضة . لكن غيرهم ملوا الانتظار ، فلجأوا الى الاساليب الارهابية .

(٧) – بدأ جيورجي بليخانوف (١٨٥٧ – ١٩١٨) ، ابو الماركسية الروسية ، حياته السياسية في الحركة الشعبية . كان يعارض الارهاب ، لكنه اضطر الى مغادرة البلاد الى جنيف سنة ١٨٨٠ .

(٨) – كان بيتر ستوليبين (١٨٦٢ – ١٩١١) سياسيا لامعا ، وهو الذي قام بالاصلاحات الزراعية . الغى الملكية المشتركة وشجع الفلاحين على توحيد ممتلكاتهم . لكن اساليبه الاستبدادية حرمته من دعم الليبراليين .

بذور الثورة

اثار القصور الذي اتصفت به اصلاحات القيصر اسكندر الثاني النقمة والاستياء ايضا في اوساط ابناء الاعيان وسواهم من الذين كانوا قد حصلوا على شيء من الثقافة . شجعت خيبة الامل من الاصلاحات الروح «العدمية» بادىء الامر . كان «العدميون» يعتقدون ان النظام القائم عاجز عن اصلاح ذاته ، وساهموا مساهمة هامة في تراث الحركات السياسية الثورية في روسيا . وفي السبعينات ، نشأت حركة شعبية دعت الى اشتراكية زراعية اكثر ايجابية .

كان من الصعب تحويل الحركة الشعبية الزراعية الى حركة سياسية ، كما ان بزوغ حركة التصنيع في اواخر الثمانينات والازدهار الذي شهدته التسعينات خففا من اهميتها . اصبحت الماركسية ، التي وضعت ثقتها في العامل الصناعي المديني عوضا عن العامل الريفي ، اكثر انسجاما مع الظروف الروسية المعاصرة . في هذا الجو ، ظهر الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، الذي مهد للحزب الشيوعي ، لكنه كان يجتذب المثقفين اكثر من الطبقات العاملة .

قام الجناح الارهابي للحركة الشعبية آخر الامر باغتيال القيصر اسكندر الثاني ، ولكن النظام الاستبدادي لم يسقط معه ، بل ردّ بضرب معارضيه .

نهاية مرحلة

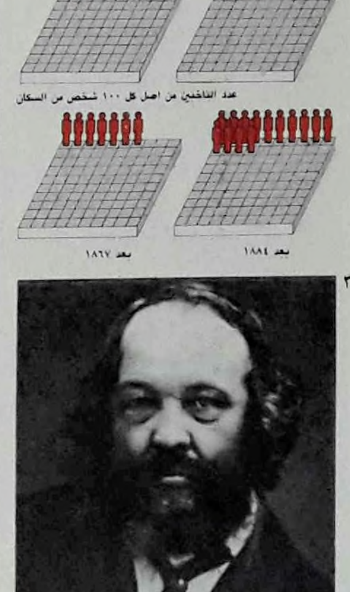
كان اسكندر الثالث (١٨٤٥ - ١٨٩٤) ، الذي اعتلى العرش سنة ١٨٨١ ، في غاية الرجعية ، فنقضت سياساته عددا من الاصلاحات الليبرالية التي قام بها سلفه .

جاء اعتلاء نيقولا الثاني (١٨٦٨ - ١٩١٨) العرش في فترة من التقدم الاقتصادي السريع . عملت تدابير سرجي ويتي (١٨٤٩ - ١٩١٥) ، وزير المالية من ١٨٩٢ الى ١٩٠٣ ، على ابقاء الاقتصاد مندفعا حتى السنوات الاولى من القرن العشرين . لكن سوء المحاصيل والازمات الصناعية ادت الى الاضطراب المدني ، فهزت ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ اسس النظام الاستبدادي (١) حتى اعلن الدستور واقيم البرلمان (الدوما) .

شهدت السنوات ١٩٠٣ - ١٩١٣ (٨) ازدهارا في الصناعة والزراعة ، مما ساعد الحكومة ، بقيادة رئيسها بيتر ستوليبين (١٨٦٢ - ١٩١١) ، على مقاومة المطالب المتزايدة بالاصلاحات السياسية والاجتماعية التي كان ينادي بها ، في الدوما ، الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الكاديت (الليبرالي) . ولما كانت روسيا قد انهزمت في الشرق الاقصى ، فقد اتجهت في اعقاب ١٩٠٦ نحو البلقان ، حيث تابعت دعمها للدول السلافية ضد الامبراطورية العثمانية المتداعية . لكن الدول الكبرى تدخلت وحالت دون تقدم روسيا نحو البحر المتوسط . كانت امبراطورية النمسا - المجر هي المنافس الرئيسي لروسيا في البلقان ، ولهذا السبب شعرت روسيا بأنها مضطرة لدعم بلاد الصرب ضد النمسا في اغسطس ١٩١٤ .

الفكر السياسي الغربي في القرن التاسع عشر

في منتصف القرن التاسع عشر ، كانت غالبية الناس التي تملك درجة من الوعي السياسي ، في اوروبا ، تجنح الى وصف نفسها بأنها اما «ليبرالية» او «محافظة» . لم يلاق المحافظون ادنى صعوبة في شرح موقفهم او المبادىء التي يؤمنون بها ، اي المحافظة على الوضع الراهن . فهم كانوا يعارضون بحزم التغيير الجذري ويلتزمون بالخط الذي رسمه ادموند بورك (١٧٢٩ ـ ١٧٩٧) في كتابه «تأملات في الثورة الفرنسية» ، الذي ظهر سنة ١٧٩٠ . اصرّ في هذا الكتاب على ان الدولة والشعب هما نتاجان للنمو الطبيعي والعضوي غير الملحوظ ، وان التغيير



(١) ـ تم وضع نظام انتخابي بريطاني جديد بين ١٨٣٢ و ١٨٨٥ بفضل سلسلة من قرارات البرلمان . كانت النتيجة ان ثلثي الراشدين من اهالي انجلترا وبلاد الويلز وثلاثة اخماس اسكتلندا صاروا يتمتعون

الاصطناعي المبني على النظريات العامة هدام لنفسه بنفسه .

مع ذلك ، لم يكن من السهل في ميدان السياسة العملية المناداة بالفلسفة المحافظة وممارستها ، ولاسيما بعد سقوط السياسي النمساوي الامير ميترنيخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩) في ثورة ١٨٤٨ . كان ميترنيخ يرفض اي نوع من التغيير ، حتى وان كان مناورة تكتيكية للحؤول دون تطورات اعمق ، فاضطر آخر الامر الى الهرب واللجوء الى انجلترا .

كان سقوط ميترنيخ احد العوامل التي شجعت رئيس الوزارة البريطانية المحنك بنجامين دزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١) على ان يقدم للبلاد مشروع قانونه الاصلاحي الثاني . في هذه الاثناء ، ادخل الامير اوتو فون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) في المانيا الاقتراع الشامل ، كما ادخل بعض

٤



(٣) - استقبال ميخائيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) ، وهو ارستقراطي روسي ، من منصبه في الحرس الامبراطوري ليصبح اكبر فوضوي اوروبا . حفلت حياته بالاحداث ، فحكم عليه بالاعدام من جانب النمساويين والبروسيين ، ونفي الى سيبيريا من جانب بلاده ذاتها . فرّ سنة ١٨٦١ ، وقضى بقية حياته يناصر الفكرة الفوضوية في اوروبا الغربية . خلافاً للاشتراكيين ، كان يرى ان المجتمع لا يمكن قلبه الا بالثورة الفردية .

بحق الادلاء السري بصوتهم عام ١٨٨٦ . جاء هذا الوضع نتيجة للقانون المتعلق بالتمثيل الشعبي ، ولقانون الاقتراع ، وللقانونين القاضيين باعادة توزيع المقاعد والحد من الفساد .

(٢) - تبين لوحة «الجمهورية» ، وهي لوحة رمزية للفنان دوميه (١٨٠٨ - ١٨٧٩) ، المثالية التي كانت تعزى الى شكل الحكم الجمهوري .

قبل الثورة الفرنسية ، كانت الجمهوريات تعتبر شرعية مثل اي نظام ملكي . ولكن بعد ١٨١٥ ، لم تعد الفكرة رائجة واصبحت اوروبا اكثر ميلا الى النظام الملكي . وحينما تكونت دول جديدة ، مثل بلجيكا واليونان ورومانيا وبلغاريا ، تكونت معها ملكيات جديدة . مع ان الملكية لم تعد الهية ، فقد كانت تعتبر نظام الحكم الاقرب الى فهم الرجل العادي . كان يقال ان الملكية دون سواها قادرة على توحيد جميع الفئات وجميع الطبقات . وحتى فرنسا لم تشذ عن ذلك ، فقد حكمها ملوك او اباطرة طيلة معظم القرن ، واقرّت الجمهورية الثالثة سنة ١٨٧٥ باكثرية صوت واحد فقط ، على اعتبار انها نظام الحكم الذي يؤدي الى الحد الادنى من الانقسام بين الفرنسيين .

(٤) - سادت القرن التاسع عشر احوال اجتماعية مخيفة نتيجة لتطور الصناعة وتركزها وتزايد السكان ، وفي عام ١٨٤٨ ، اخذت «المسألة الاجتماعية» تثير القلق . لم تقم الحكومات ولا الافراد بعمل شيء يذكر لمعالجة المشكلة ، انما ظهرت حركة الاصلاح المعروفة «بالميثاقية» كقوة يعتد بها في بريطانيا ، فيما كانت روح الثورة القديمة في اوروبا تؤذن بالظهور .

التشريعات الخاصة بالضمان الاجتماعي . في فرنسا ، كان نابليون الثالث (١٨٠٨ – ١٨٧٣) قد باشر نشاطا مماثلا .

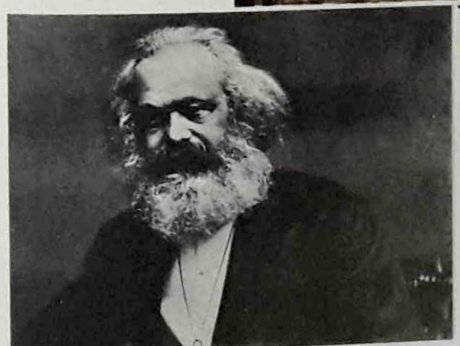
تراجع الليبرالية

كان يميز الليبراليين الاعتقاد بأن التقدم يمكن تحقيقه بواسطة «المؤسسات الحرة» . في بريطانيا وفرنسا ، كان ذلك يشير الى برلمان منتخب بحرية ، ووزراء مسؤولين تجاهه ، وقضاء مستقل ، وحرية التعبير والمعتقد الديني ، وعدم التوقيف التعسفي ، وحرية التملّك ، والمحافظة على الملكية .

اما في روسيا ، فكان «الليبرالي» هو اي شخص ينادي بمجلس له صلاحية اسداء المشورة الى القيصر . ولكن حتى في فرنسا ، كان ثمة «ليبراليون» ممن يعتقدون ، كالسياسي والمؤرخ فرنسوا

٥

(٥) – تأسس اول اتحادات عمالية في العالم في بريطانيا ، حيث اصبحت شرعية سنة ١٨٢٥ . كان ذلك سبقا كبيرا على معظم البلدان . فقد سمح للمرة الاولى بانشاء اتحادات للعمال في فرنسا سنة ١٨٦٤ ، ولم تصبح شرعية حتى ١٨٨٤ ، بينما لم تسمح المانيا بها حتى التسعينات . كانت عضوية الاتحادات العمالية البريطانية ، مثل «الجمعية الودية لساكبي الحديد والفولاذ» ، مقصورة على اصحاب الحرف المحليين الماهرين . كان اول اتحاد ضخم هو «الجمعية المتحدة للمهندسين» التي تأسست سنة ١٨٥١ ، ولكنها كانت تهتم بالمرافق الاجتماعية اكثر من اهتمامها بالمنازعات المهنية . حوالى العام ١٨٧٥ ، كانت الاتحادات قد استقرت ، كما توضحت القوانين الخاصة بالاضرابات والمظاهرات والواجبات التعاقدية .



٦

(٦) – كان كارل ماركس ابا الاشتراكية الحديثة . بسط آراءه السياسية في «البيان الشيوعي» ، وآراءه في الاقتصاد السياسي في كتاب «رأس المال» .

جيــزو (١٧٨٧ – ١٨٧٤) ، ان المؤسسات كانت حرة بقدر ما تستطيع ان تكون حرة ، وهو اعتقاد جعلهم يظهرون بمظهر كبار المحافظين .

كان تراجع الليبرالية كقوة سياسية حقيقية في اوروبا في القرن التاسع عشر من المواضيع التاريخية المثيرة للاهتمام . كان السبب الرئيسي لهذا الانهيار هو ما يلي : مع ان الهدف الليبرالي القاضي باقامة جهاز من المؤسسات الحرة كان نتيجة لحركة «التنور» ، الا انه ما ان اقيمت هذه المؤسسات حتى اصبحت قلاعا تحصنت الطبقات المالكة وراءها لحماية مصالحها ؛ وفي الاضطرابات التي عمت القارة الاوروبية سنة ١٨٤٨ ، تخلى كثير من ليبراليي الطبقة الوسطى عن اهدافهم حينما واجهتهم امكانية الاشتراك في الحكم مع فئات من المجتمع كانت اقل منهم دخلا او ثقافة .

بروز الاشتراكية

كانت الاشتراكية هي العقيدة التي اخذت تروق للكثيرين من اولئك الذين تخلت عنهم الليبرالية ، وكان اعظم مفكر اشتراكي في ذلك القرن هو بدون اي شك كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) (٦) . استمد ماركس الشاب في النصف الاول من القرن افكاره من مصادر متنوعة جدا ، الا ان اساس معتقداته كان القناعة التي استمدها من الفيلسوف الالماني جورج هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) بأن التاريخ يمضي قدما ، وانه ينطوي على معنى موضوعي ، وان من شأنه ان يكشف عن ذلك المعنى من خلال سلسلة من الطفرات الثورية .

كان «البيان الشيوعي» لسنة ١٨٤٨ يعكس ايمان ماركس بنجاح الثورات الاوروبية لتلك السنة . لكن لما آلت هذه الثورات الى الفشل ، راح ماركس يلحّ على النواحي الحتمية من تفكيره ، فتنبأ بأن المجتمع البورجوازي لا بد ان ينهار تحت وطأة تناقضاته الداخلية ، وان الرأسمال لا بد ان يتجمع في عدد اقل فأقل من الايدي حتى تضطر الطبقات المحرومة الى الثورة على مستغليها ، وعندها تبرز «ديكتاتورية البروليتاريا» لتمهد السبيل لنمط من الانسجام الاجتماعي يجعل الدولة غير ضرورية فتتلاشى . احيت « كومونة » باريس ايمانه بالنشاط الثوري ، وفي السبعينات داعب فكره امكان قلب النظام الاجتماعي سلميا .

تطور الفكرة القومية

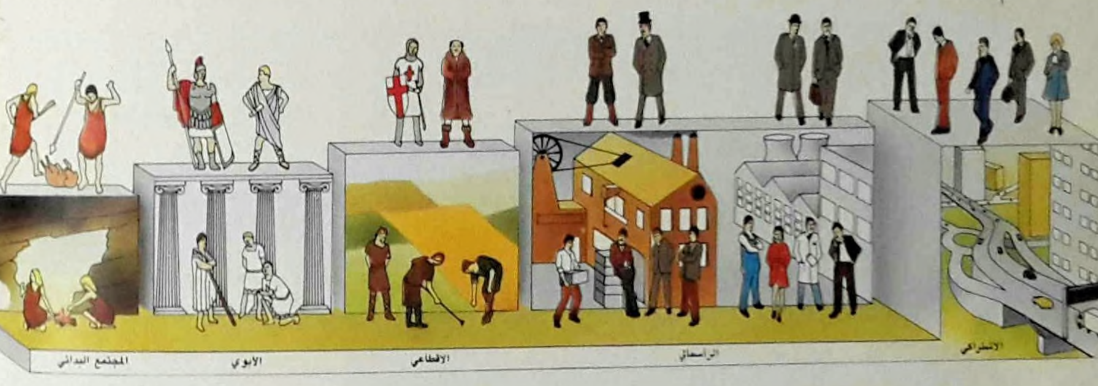
مع ذلك ، لم تكن افكار ماركس هي التي هيمنت على القرن التاسع عشر . فقد كانت القومية اعظم قوة على الاطلاق ، وتمكنت من الانتصار على الليبراليين والاشتراكيين معا .

في سنة ١٨١٥ ، كانت الفكرة القومية لا تزال ضعيفة في اوروبا ، لكن بعد مرور ٤٥ سنة فقط ، كان بوسع الفيلسوف والعالم الاقتصادي جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) أن يقول : «انه شرط ضروري للمؤسسات الحرة ، بصورة عامة ، ان تنطبق حدود الحكومات عامة على حدود القوميات» .

اركان علم الاجتماع

كانت الحاجة لفهم ولادة المجتمع الصناعي (٣) حافزا لتطوير علم الاجتماع في اوروبا في القرن التاسع عشر . كان المجتمع الزراعي التقليدي ، القائم على طبقة الملاكين والكنيسة ، في طور الانحلال ، وكان نظام جديد آخذا في الظهور ليحل محله ، يرمز اليه المصنع والطبقة العاملة الواسعة الانتشار في المدن (٦) . ذلك ان البنية الثقافية السياسية ، التي كانت متماسكة في الماضي ، اخذت تتراجع امام سلسلة من الاوضاع الاقتصادية المتناقضة وامام الصراع الطبقي . في هذا الجو راح المفكرون يبحثون عن التفسيرات لما كان يجري في المجتمع .

١



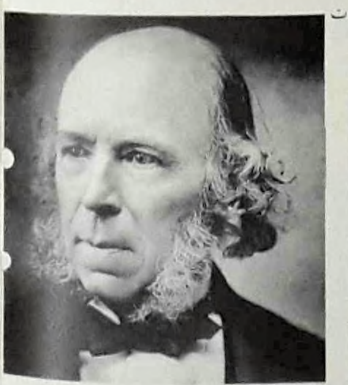
٢ أ



ب



ت



(١) – ذهب كارل ماركس الى ان المجتمع البشري تطور وفقا لرغبة الانسان في سد حاجاته المادية . الا ان الحاجات نفسها واصلت تطورها . بالنتيجة ، لم يكن بوسع الشكل السائد من البنية الاجتماعية ان يلبي هذه الحاجات المتصاعدة ، فكان لا بد له من الانهيار ، بحيث يحل محله شكل جديد من البنية الاجتماعية قادر على سد الحاجات المتزايدة . اما الطور الاخير ، فيبرز عندما تنجح الرأسمالية البورجوازية في حصر الثروة في عدد قليل من الايدي ودفع الجماهير الى هاوية الفقر . عندها لا بد ان تثور الطبقة العاملة الجائعة ، التي لم تسد

التراث البريطاني

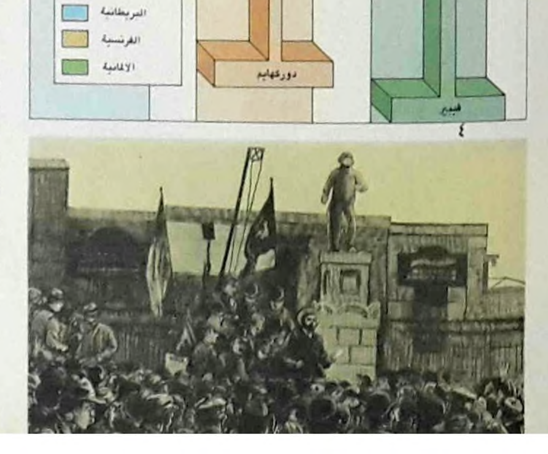
في بريطانيا ، لم يثر التصنيع بصورة عامة قلقا عظيما . فحتى نهاية القرن ، كان معظم الانجليز يشعرون ان المصنع يمثل قوة من الخير المحض سائرة ببلادهم نحو الكمال . كان من نتائج هذا التسليم الاعمى لمفهوم التقدم ان بريطانيا لم تنتج نظريات مبتكرة في علم الاجتماع . والحقيقة ان التراث النظري البريطاني الرئيسي كان قد اقتبس دون تمحيص عن تفاؤل مفكري عصر «التنوير» في القرن السابق . كانت مقومات هذا التفاؤل ان المجتمع يتألف من افراد مستقلين ، كل واحد منهم ينطوي بطبيعته على الخير ، وان «يدا خفية» تكمن وراء النشاط البشري وتدفع به نحو جوٍّ من الحرية يستطيع الفرد ان يعبّر في اطاره عن طبيعته الفطرية الطيبة ، وان على العلوم الاجتماعية

مصادر الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر

٣

التنور الفرنسي
كانت
هيردير
هيجل
ماركس
فيبر
دي بونالد
كونت
دوركهايم
داروين
سبنسر
ردات الفعل
البريطانية
الفرنسية
الالمانية

٤



حاجاتها الاساسية ، فتنتزع وسائل الانتاج ، وتخلق مجتمعا لا تناقض فيه قوى الانتاج مع البنية الاجتماعية .

(٢) - بعض كبار علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر هم : ماكس فيبر (أ) ، الذي حاول مزج التجريبية والكانتية الجديدة في كتابه «الخلفيات البروتستانتية وروح الرأسمالية» (١٩٠٥) ؛ اوجست كونت (ب) ، صاحب المدرسة الوضعية التي ظهرت أسسها في كتابه «نظام من السياسة الوضعية» (١٨٥١ - ١٨٥٤) ؛ هربرت سبنسر (ت) ، الذي وحّد علم الاجتماع التقليدي مع مبادىء التطور الداروينية في كتابه «مبادىء الخلقيات» (١٨٧٩ - ١٨٩٣) .

(٣) - كانت افكار عصر «التنوير» هي المنهل المشترك لعلم الاجتماع الاوروبي ، وقد استجابت التقاليد القومية المختلفة باشكال شتى «للتنوير» . كان التجديد البريطاني الوحيد هو تكييف سبنسر للنموذج الدارويني للتطور البيولوجي من اجل تفسير التغيير الاجتماعي . اما في فرنسا ، فقد رفض رد الفعل المحافظ النماذج النووية للمجتمع (الدائرة على الفرد) وشك بسلامة الاستقصاء التجريبي (المبني على التجربة الحسية) . ولكن بظهور اوجست كونت ، عادت تجريبية «التنوير» الى حظيرة علم الاجتماع الفرنسي . في المانيا ، اضاف كانت وهيجل رؤى جديدة الى هذه الافكار . فلم يعد من الجائز بعدهما النظر الى الانسان كموضوع تحركه قوانين لاشخصية او قوى اجتماعية ، بل اصبح القول واجبا بان وعيه الذاتي نفسه هو الذي يخلق العلاقات الاجتماعية التي يعيش ضمنها .

(٤) - يرمز هؤلاء الرجال المضربون عن العمل سنة ١٨٨٩ (في ارصفة الهند الشرقية والغربية في ميناء لندن) الى الصراع الطبقي والثقافي الناجم عن التصنيع . زاد ذلك الصراع في خطورة الانقسام الثقافي وفي الفروق الطبقية ، وادى الى الاضطرابات .

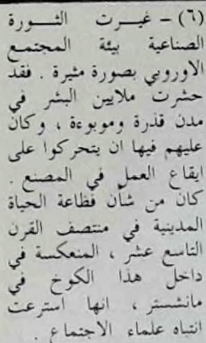
ان تسعى عن طريق العقل الى اكتشاف القوانين الموضوعية التي تعمل تلك اليد بموجبها ، وبالتالي الى تسهيل عمل هذه القوانين .

كان المفكر الوحيد الذي اضاف شيئا جديدا الى هذه الافكار هو هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) (٢ ت) ، الذي ادرك ان ذلك التفكير الاجتماعي التقليدي كان يفترض التغيير دون ان يفسره . مع ذلك ، لم يتنكر سبنسر لافكار عصر «التنوير» ، بل نظر اليها من خلال نموذج للتغير الاجتماعي استمد معظمه من كتاب داروين «اصل الانواع» . كان سبنسر يعتقد ان المجتمعات تندفع قدما نحو اشكال ارفع واشد تعقيدا بحكم تنازع البقاء بين الافراد ، وان هذا التنازع قد ولّد في بريطانيا مجتمع الاقتصاد الصناعي الحر الذي اعتبره اسمى شكل من اشكال





(٥) ـ التفسيرات الشتى للثورات الاوروبية التي وقعت في السنتين ١٨٤٨ و ١٨٧٠ ابرزت الاتجاهات المختلفة لعلم الاجتماع الفرنسي والانجليزي والالماني . تبين الصورة الكاريكارتورية (ب) الرئيس الفرنسي تير (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) برفقة جندي بروسي ينظر الى مرجل باريس وهو يغلي .



(٦) ـ غيرت الثورة الصناعية بيئة المجتمع الاوروبي بصورة مثيرة . فقد حشرت ملايين البشر في مدن قذرة وموبوءة ، وكان عليهم فيها ان يتحركوا على ايقاع العمل في المصنع . كان من شأن فظاعة الحياة المدينية في منتصف القرن التاسع عشر ، المنعكسة في داخل هذا الكوخ في مانشستر ، انها استرعت انتباه علماء الاجتماع .



المجتمع حتى ذلك الوقت . مع ان استنتاجات سبنسر كانت موضع اخذ ورد ، فقد احدث منهجه تأثيرا كبيرا . ففي غضون السنوات الخمسين التالية ، حاول علماء الاجتماع البريطانيون ، بتأثير منه ، تفسير المؤسسات الاجتماعية بالرجوع الى تاريخها .

التراث الفرنسي

في فرنسا ، ادت الحقبة اللاحقة للثورة الى رد فعل ضد التفكير «التنويري» . فقد ذهب الفيكونت دي بونالد (١٧٥٤ ـ ١٨٤٠) الى انه ينبغي النظر الى المجتمع ، لا كمجموعة من الافراد ، بل ككل عضوي ، وان التغيير في جزء منه (الذي تقوم به طبقة اجتماعية معينة) لا بد وان يؤثر في الكائن العضوي في مجمله .

واصل هذا التقليد «العضوي» اوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) (٢ ب) ، لا من اجل تنظيم التغيير والتحكم به فحسب ، بل من اجل فهمه ايضا . اخذ كونت برأي حركة «التنوير» القائل بأن ثمة قوانين موضوعية للتقدم الاجتماعي يمكن اكتشافها . ولكنه اصر على ان هذه القوانين تفعل في اطار المجتمع بكامله ، وليس في اطار الافراد . فالناس ، بحكم تكيفهم في المجتمع ، هم من صنع قوانين لا يقدرون على تغييرها ، وان عليهم ادراك هذا الواقع ، والقبول بمكانتهم الاجتماعية المحددة .

هذب فلسفة كونت «الوضعية» هذه الى حد بعيد واحد من اوسع العلماء تأثيرا في تاريخ علم الاجتماع برمته ، هو اميل دوركهايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) . تميز علم الاجتماع الفرنسي بما يسمى «بالجماعة المنهجية» ، وهي النظرة التي كانت تكتفي بدرس الظواهر التي يتبين من خلالها كيف يتأثر الناس بمجتمعهم . اعتمد ايضا ذلك العلم على التفاسير الوظائفية ، التي تحاول ان تفسر المؤسسات الاجتماعية من خلال وظائفها داخل النظام الاجتماعي بكامله ، لا من خلال تاريخها . واخيرا ، كان هذا العلم يلحّ على ضرورة استتباب النظام حيثما يكون التغيير نتيجة سوء تصرّف في المجتمع .

التراث الالماني

في المانيا ، اضيف الى ارث العقلانية «التنويرية» عاملان فكريان آخران : فثورة عمانوئيل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) الفلسفية كانت لا تعترف بوجود قوانين طبيعية الا في اذهان البشر ، فيما جاءت حركة يوهان هيردير (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) تشدد على الاهمية الخلاقة للغة والثقافة .

كان اول مفكر الماني اجتماعي عظيم هو ج.و.ف. هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) ، الذي اعتبر ان التحول الاجتماعي هو من نتاج العقل البشري الذي تدفعه قدما الى الامام حاجته لمعرفة العالم المحيط به والتغلب عليه . وسع كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) (١) افكار هيجل ووافق معه على الرأي القائل بأن القوة الكامنة وراء التغيير الاجتماعي هي سعي الانسان لفهم بيئته والسيطرة عليها . الا ان اهم نشاط قام به ماركس نجم عن ايمانه بالقاعدة الاقتصادية للبنية الاجتماعية وعن اقتناعه بضرورة التغييرات الاجتماعية الرئيسية .

مدارس الرسم الحديث ـ ١ (الوحوشية والتعبيرية)

ابتدع جورج سورا (١٨٥٩ ـ ١٨٩١)، اسلوب «التقسيمية» او «التنقيطية»، اي بناء صورة من خلال عدة نقاط ملونة تندمج في نظر المشاهد بحيث يتولد عنها اللون المطلوب. ضخّم بول سينياك (١٨٦٣ ـ ١٩٣٥) كل نقطة حتى اصبحت كتلة حقيقية من اللون. على هذا الوجه، أخذ اللون يفقد وظيفته التمثيلية.

تحرير اللون

سلكت مدرسة «جسر آفين» طريقا مختلفة لزيادة تحرير اللون. كان من اشهر ممثليها بول جوجان (١٨٤٨ ـ ١٩٠٣) (١) وأميل برنار (١٨٦٨ ـ ١٩٤١)

١



٢



٣



٤



اللذان توصلا الى اسلوب عرف «بالتسويرية» او الحواجز ، يقوم على حصر الاشكال داخل خطوط سوداء هي التي تتحمل العبء الكامل للتعبير عن هيئة الموضوع ، وأغنت عن الحاجة الى التظليل باللون الفاتح او القاتم . كان يعني ذلك انه اصبح بوسع الفنان ان يشتغل على مساحات مسطحة وواسعة من الالوان ، فيولد مثلا هيأة نافذة ملونة الزجاج ، دون ان تخفف من بريقها متطلبات تخطيط النموذج .

اصبح التحرير الكامل للون من الشكل ، بحيث بات يعمل مستقلا عنه ، من السمات المميزة لمجموعة من الرسامين الفرنسيين المختلفين المعروفين باسم «الوحوش» ، الذي عرضوا آثارهم معا سنة ١٩٠٥ في «صالون الخريف» .

كان اقتباس ألمع «الوحوش» ، هنري

٥



٦

(١) ـ بسّطت لوحة بول جوجان «تا ماتيت» (١٨٩٣) الواقع ، فجعلته طنفا ملونا وزخرفيا . في حين استلهم هذا الرسام حياة تاهيتي مصدرا لمواضيعه ، فهذا الاثر يعكس من حيث الاسلوب الفن المصري في وقفات شخصياته .

(٢) ـ اللون «الوحوشي» زاه في لوحة اندريه ديران «بركة لندن» (١٩٠٦) ، المتسمة بعدم الاكتراث بالواقعية الظاهر في تصوير مشهد لا بد انه كان قاتما ورتيبا جدا . تساعد النقطة المرتفعة المأخوذ منها المشهد على تسطيح الفضاء ، وبالتالي على تحويل الصورة الى نموذج .

(٣) ـ بنيت لوحة «سنيكيو» (١٩٢٢) لبول كلي على ضرب من الهندسة المؤنسنة ، اذ ان كلي كان يتقصّى الشكل بصورة منتظمة .

(٤) ـ تستخدم لوحة «روز شابيرو» لكارل شميت روتلوف بعض المصطلحات التكعيبية ، مثل الاشكال الهندسية وملامح الوجه المؤسلبة ، وذلك لاعطاء صورة مباشرة وحادة لا تعرقلها تفاصيل غير ضرورية . لكنه استخدم ايضا ، في حرصه على الانسجام مع غرضه التعبيري ، المنظورية الحادة ، كما يتجلى ذلك في الطاولة او النافذة .

(٥) ـ ليست لوحة فرانز مارك ، «مصير الحيوانات» ، مجرد مشهد غابة وحسب ، بل هي ايضا تفسر أخطر مظاهر الطبيعة . لم يكن التعبيريون يكتفون بتصوير الجزئيات .

(٦) ـ تخلق لوحة فرانسيس بيكون ، «شخص جالس» (١٩٧٤) جوا مزعجا ، وينتج ذلك عن الاوضاع الواهية والمعالجة العنيفة للدهان ، اكثر مما ينتج عن التشويه او استخدام اللون الفاقع ، اللذين فقدا اهميتهما «كوسائل تعبيرية» .

ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤) ، لاسلوب «التقسيمية» سطحيا فقط في لوحته «الترف والهدوء والشهرة» (١٩٠٥) التي اعجب بها سينياك واشتراها . اما ما جعل ماتيس يهتم في الواقع بهذا الاسلوب ، فلم تكن امكانيات تحليل اللون التي يوفرها للرسام ، بل امكانيات هذا الاسلوب الزخرفية .

في آخر العقد ، تخلى ماتيس عن «التقسيمية» كليا وانتج تآليف تسودها مساحات من اللون المتساوي المسطح والمتواصل (٨) ، معطيا بذلك الاهمية بكاملها لسطح الصورة بحد ذاته ، عوضا عن اعتباره مجرد نافذة ينظر المشاهد من خلالها .

كان اهم اعضاء المجموعة الآخرين أندريه ديران (١٨٨٠ - ١٩٥٤) وموريس فلامينك (١٨٧٦ - ١٩٥٨) . يبدو تأثير

٧

٨

(٧) - تعالج لوحة ادفارد مونش «ليلة في شارع كارل يوهان ، أوسلو» (١٨٩٢) موضوعا يوميا كان يمكن ان يروق «للانطباعيين» . الا ان اهتمامه ليس بالعالم البصري ، بل بالكشف عن شجون ابن المدينة . يمكنك ان تلاحظ كيف تظهر النوافذ المضيئة في المؤخرة كأن وجودها شؤم مرعب .

(٨) - في لوحة ماتيس ، «التناسق في الاحمر» (١٩٠٨ - ١٩٠٩) ، وهي لوحة زخرفية ضخمة ، تظهر الاشكال على ورق الجدران والقماش بالاهمية نفسها التي تظهر بها السيدة الجالسة على الكرسي . يولغ في تسطيح اللوحة الى حد ان المشهد الظاهر من خلال النافذة يبدو وكأنه صورة معلقة على الحائط .

٩

(٩) - في لوحة «الليل» (١٩١٨ - ١٩١٩) ، يتبين ان فن ماكس بيكمان «تعبيري» في عنفه ، الا ان قوته تكمن في ابهامه .

سينياك في هذين الفنانين في تجزئة ضربات فرشاتهم (٢) ، مع ان جو لوحاتهما يعود اكثر الى تأثير فنسانت فان جوج (١٨٥٣ - ١٨٩٠) . تتصف لوحاتهما ، في افضل حالاتها ، بعنفوان عاطفي متأصل في «الآنية» او «الفورية» التي توحي للمشاهد الشعور بأنه كان مشاركا في ابداع اللوحة .

اللون والعاطفة

هذه الرغبة في تأدية العاطفة او نقلها الى المشاهد هي ما يربط ديران وفلامينك بالمدرسة «التعبيرية» . الا ان «التعبيرية» ليست لفظة دقيقة تاريخيا مثل «الوحوشية» . فهي تنطبق على ميدان واسع من الفن يعنى بصورة عامة بالتعبير اكثر مما يعنى بالجمال ، ويشوّه الموضوع في سبيل تلك الغاية .

جاءت اهم التأثيرات على التعبيرية في القرن العشرين من جانب فان جوج والنروجي ادفارد مونش (١٨٦٣ - ١٩٤٤) في ايحاءاته العنيفة والعصبية للتوترات الكامنة تحت مظاهر الحياة اليومية (٧) .

تأسست في دريسدن سنة ١٩٠٥ مجموعة «الجسر» التي كانت تضم لودفيج كيرشنير (١٨٨٠ - ١٩٣٨) وكارل شميدت روتلوف (١٨٨٤ -) (٤) وأريك هيكل (١٨٨٣ - ١٩٧٠) ، الذين تأثروا بألوان المدرسة «الوحوشية» الغامقة والعنيفة ، الا ان محتوى فنهم كان تعبيريا خالصا . استمر الفريق الفرنسي حتى في عنف «وحشيته» على نهجه «التعبيري» ، ناقلا الفرح بالطبيعة والنور .

التجريد والنقد الاجتماعي

اتخذ فاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦ - ١٩٤٤) وفرانز مارك (١٨٨٠ - ١٩١٦) (٥) ، اللذان كانا يعملان معا في ميونيخ ابان السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، موقفا مماثلا من التنكر للمادية ، ودفعا بتشويه الموضوع نحو التجريد التام . نشرا معا تقويما بعنوان «الفارس الازرق» ساهم فيه مؤلفون موسيقيون ونقاد ، فضلا عن فنانين آخرين .

في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، انبثقت نزعة جديدة في تاريخ الرسم الالماني ، دعاها المعاصرون «الموضوعية الجديدة» ، اذ خرج رسامون من امثال اوتو ديكس (١٨٩١ - ١٩٦٩) وجورج جروس (١٨٩٣ - ١٩٥٩) على التقنية واللون الناشزين اللذين اعتمدهما التعبيريون الباكرون .

يصنّف ماكس بيكمان (١٨٨٤ - ١٩٥٠) عادة بين هؤلاء الرسامين ، الّا ان نتاجه جاء اقرب الى الحياة الخاصة في تصاويره (٩) . تـردّد بـول كـلـي السويسري (١٨٧٩ - ١٩٤٠) ، وهو زميل مقرب من كاندينسكي ، بين التجريد والتخيلات الصبيانية الطابع (٣) . اوقف ظهور هتلر تماما تطور الفن الحديث في المانيا حتى نهاية الحرب . الا ان النزعة التعبيرية استمرت عالميا . من ممارسيها البارزين اليوم الرسام البريطاني فرنسيس بيكون (١٩١٠ -) ، الذي لا يدين فنه الا بالقليل الى الفنانين الآنفي الذكر .

مدارس الرسم الحديث - ٢
(التكعيبية والمستقبلية)

كانت التكعيبية لفظة تنم عن الزراية اخترعها عشوائيا ناقد متبرّم ، هو لويس فوكسيل ، لكنها اصبحت تعني حركة عالمية ما زال تأثيرها سائدا ليس في الرسم وحسب ، بل في النحت والعمارة ايضا .

ومما لا شك فيه ان بابلو بيكاسو هو الذي جعل ذلك ممكنا . كان بيكاسو يحب ان يصدم او يهز الناس ، وهي رغبة لديه تعود الى فلسفة نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ، ودعوته الى الهجوم الفردي على جميع الاعراف والتقاليد . التقاه جورج براك (١٨٨٢ - ١٩٦٣) سنة ١٩٠٧ ، فصدم حقيقة بنتاجه في بادىء الامر ، لكنه انصاع الى فنه فيما بعد ، فرسم لوحة

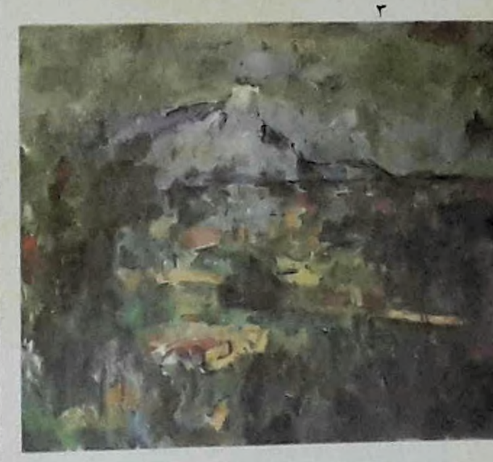
١



٢



٣



٤



طموحة هي «العارية الضخمة» (١٩٠٨) (٥) .

الملامح الاساسية للتكعيبية بادية تماما في هذه اللوحة : فقد جرى ، اولا ، تشويه العارية بدمج اكثر من مشهد واحد من اجزائها في صورة واحدة ؛ ثانيا ، عولجت الصورة كمجموعة اشكال رتبت لتعطي سطحيا صورة مجسمة ، ولم تعالج كشكل ثلاثي الابعاد كليا .

بين ١٩٠٨ و ١٩١١ ، اضيفت صفة اخرى الى الرسم التكعيبي . فقد جمّدت المساحة بحيث غدت الصورة ترتيبا واحدا لمساحات مسطحة . كان براك اول من اتجه هذا الاتجاه ، متأثرا بمحاولة بول سيزان في معالجة العالم كفسيفساء من بقع مسطحة من اللون (٣) ، ولم يقتف بيكاسو اثر براك الا سنة ١٩٠٩ ، حينما عاد ايضا الى سيزان ليستوحيه ، وذلك في

٥



٦



(١) – كان بابلو بيكاسو (١٨٨١ – ١٩٧٣) في اجازة في جبال البيرينه الاسبانية حينما رسم هذه اللوحة الزيتية ، «مشهد طبيعي ، هورتا دي سان خوان» سنة ١٩٠٩ . يجعل المنظور المعكوس السقوف مسطحة في حين تبدو السماء صلبة . رسم براك سنة ١٩٠٨ – ١٩٠٩ مشاهد طبيعية مماثلة ، لكنها كانت اكثر برودة . هذه المشاهد ورسوم الحياة الجامدة المتأثرة بسيزان هي التي دفعت النقادة لويس فوكسيل الى تشبيه هذا العمل «بمكعبات صغيرة» ، مما ادى فيما بعد الى تسمية هذا النمط «بالتكعيبية» . الا ان هذه اللوحة لا تمثل شكلا كامل التطور من التكعيبية ، لان الفنان لا يزال مثابرا فيها على استخدام اشكال الفضاء التصويري التقليدية للدلالة على الابعاد الثلاثة ، وان كان ذلك على شكل مشوه .

---

(٢) – جمع كارلو كارا (١٨٨١ – ١٩٦٦) في لوحته الزيتية «جنازة الفوضوي جالّي» (١٩١١ – ١٩١٢) بين منظر شغب / ومنظر جنازة . كان استعمال الصورة المتكررة لتمثيل الاطراف المتحركة من مميزات الرسم «المستقبلي» في هذه الحقبة .

---

(٣) – رسم بول سيزان (١٨٣٩ – ١٩٠٦) مرارا موضوع هذه اللوحة الزيتية «جبل سانت فكتوار» التي ترقى الى ١٩٠٤ – ١٩٠٦ . اراد ان يبين فيها كيف يتجلى الحجم والفضاء من خلال سقوط الضوء على السطح في الوان دافئة حيث تسطع الشمس .

---

(٤) – حقق خوان جري (١٨٨٧ – ١٩٢٧) توازنا تاما بين التأليف والموضوع في ملصقته لسنة ١٩١٣ «الكمنجة والنقش» . عرض من الاشياء نواحيها المتعددة ، واحدة واحدة ، كي تعطي هذه النواحي المجزأة مجتمعة فكرة كاملة عن الاشياء . فالحياة الجامدة ممثلة هنا فعلا على شكل أكمل مما تمثّل في الرسم التقليدي الوهمي ، مع ان كل ناحية جزئية تندمج بقوة في اطار تأليف من الشرائح العمودية . على هذا النحو يخلق جري بنية اصطناعية على مساحة مسطحة ليخلق بنية اخرى من ثلاثة ابعاد ، هي الحياة الجامدة .

---

(٥) – التشويه الظاهر في لوحة جورج براك «عارية ضخمة» (١٩٠٨) يكاد يكون تكعيبيا تاما . فالردف يظهر في آن واحد من جانب ومن خلف ، والجانب الايسر من الظهر يظهر مشدودا الى الامام ، فيما ادير الرأس كي يتطلع الى خارج الصورة .

---

(٦) – في نظر «المستقبليين» ، يمكن حتى لرسم غير متحرك ان يبدو ديناميا ، بحكم حركته البسيكولوجية التي لا تنقطع وطاقته الكامنة عل الحركة . على هذا رسم بوتشيوني امه في وضع ثابت في لوحته «مادة ١٩١٢» التي يظهر هنا بعض تفاصيلها .

سلسلة من المشاهد الطبيعية تبدو السماء فيها كبنية بلورية تكاد تلتصق بالابنية الواقعة تحتها (١) .

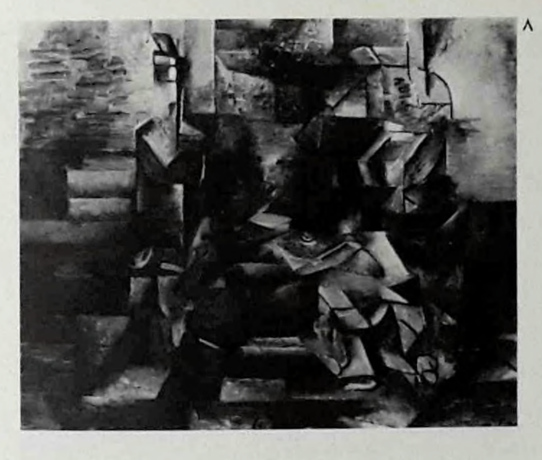
اختراع الملصقات

قادت عملية التجزئة التي اقتبسها بيكاسو وبراك هذين الفنانين الى حافة الفن التجريدي ، ولكنهما احتفظا دوما في لوحاتهما بتفاصيل يمكن التعرف اليها ، لان عصب المسألة بالنسبة اليهما كان ابداع مشاركة مرنة او عملية متبادلة من الاخذ والعطاء بين تذوق المشاهد للبنية المرسومة بحد ذاتها ، وتذكره لبنية الاشكال والاشياء كما هي في الطبيعة . ثم جاء اختراع الملصقات (وهي مواد تلصق على قماش اللوحة) ، فمكنهما من احداث هيئة كانت في آن واحد اكثر تسطحا واوضح اشارة الى ملابسات الموضوع .

٧



٨



٩

(٧) - جاءت ملصقات بيكاسو ، مثل «الكمنجة» المرسومة في ١٩١٣ ، اقل دقة من ملصقات جري . كان يجمع التوافه ويلتذ بفكرة صنع شيء نافع من اشياء لا قيمة لها . كجمع قصاصات لصور يأخذها من الجرائد والمجلات مع صحن مشوه معمول من الورق . هنا يتعقب سلسلة من المتناقضات ، فيضع قصاصات صور ملونة للفاكهة (واقعية جدا) على قسيمة من صحيفة قصت بصورة غير واقعية على شكل تقريبي لصحن من الفواكه ، وجعل رأس الكمنجة الصلب يتوج جسما لا مادة له .

(٨) - في لوحة جورج براك ، «اشياء جامدة مع سمك» (١٩١٠) ، بلغت تجزئة الاشياء واندماجها بالاطار الخطي العام حدا كادت معه ان تتحول الى نوع من الفن التجريدي تقريبا . تسمح الزجاجة ورؤوس الاسماك التي يمكن التعرف اليها للمرء ان «يقرأ» الاشياء الجامدة ، وان يرى ايضا الى اي حد يكون المشهد نتيجة لتشويه الاشياء المشاهدة .

(٩) - مكنن اومبرتو بوتشيوني (١٨٨٢ - ١٩١٢) الشكل البشري في برونزيته لسنة ١٩١٣ «اشكال فريدة من اتصالية الفضاء» ، داعما نبوءة مارينتي بظهور صنف انساني ميكانيكي . كان بوتشيوني يرمي من وراء ذلك الى تحديد وتجميد الاشكال التي تعبر الى ابعد حد عن استمرار الحركة عبر الفضاء لرجل يمشي بخطى واسعة .

ومع ان بيكاسو (٧) وبراك كانا اول من ابتكر الملصقات ، فان الرسام الذي استخدم الملصقات على اوضح وجه لخلق صراع بين الموضوعات وبنية الرسم هو خوان جري ، اقرب حلفائهما المبكرين اليهما (٤) .

اعلام رسامي التكعيبية

كان بيكاسو وبراك وجري هم من ابتكروا خط التكعيبية الرئيسي ، ودفعوا به قدما بعد ١٩١٨ ، وان كان لكل منهم اتجاه شخصي راح يتزايد مع الزمن .

بقي هؤلاء التكعيبيون غير مبالين بالاتصال بجمهور واسع ، الى ان اخذ نتاجهم يروج ابان العشرينات . لكن منذ ١٩٠٩ ، اقتبس التكعيبية فنانون ممن كانوا شديدي الحرص على الاتصال بالرأي العام ، فاستمدوا مواضيعهم في الغالب من اشهر نواحي المجتمع الصناعي الناشىء . في باريس ، ظهر الرسامون جان متزينجر (١٨٨٣ - ١٩٥٦) ، والبرت جليز (١٨٨١ - ١٩٥٣) ، والاخوان دوشان ، والزوجان روبرت (١٨٨٥ - ١٩٤١) وصوفيا ديلوني (١٨٨٥ -) ، وكلهم حاولوا ان يدمجوا الاهتمام باللون مع الحس التكعيبي للبنية . كان المعهم جميعا الرسام النورمندي فرنان ليجيه (١٨٨١ - ١٩٥٥) .

خارج باريس ، ولّدت التكعيبية طائفة من الحركات الرائدة : «الزوبعية» في لندن والتكعيبية الروسية والتشيكية ، وأهم من هذه جميعا في الفن الحديث الحركة الايطالية المعروفة «بالمستقبلية» .

المستقبلية

ابتكر المستقبلية الشاعر فيليبو توماسو مارينيتي (١٨٧٦ - ١٩٤٤) ، الذي كان ينظر الى الحياة كتحول دائم ، والى الافراد كجزء من سلسلة من القوى الدينامية المحركة للتقدم . جاءت منجزات العصر الحديثة داعمة لهذه الرؤيا ، فقد حصلت تغييرات درامية واصبحت الآلة قادرة على سرعة خارقة . انصرف الرسامون الذين تبناهم مارينيتي - وهم اومبرتو بوتشيوني ، كارلو كارا ، لويجي روسولو ، جياكومو بالّا (١٨٧١ - ١٩٥٨) وجينو سيفريني (١٨٨٣ - ١٩٦٦) الى التركيز على التعبير عن السرعة والتغير كما يتجليان في الاحداث العصرية والمشاهد المدينية (٢) . في ١٩١١ - ١٩١٢ ، تبنى المستقبليون التشويه التكعيبي وازالة الحواجز بين الاجسام الصلبة والفضاء ، بحيث توصل بوتشيوني ، وبوسائل تكعيبية في اساسها ، الى الربط والتوحيد بين الاشخاص والاطار في لوحته «المادّة ١٩١٢» (٦) . لا يرقى شك الى اصالة الكثير من اشكال الفن المستقبلي .

استخدمت المستقبلية الافكار التكعيبية لمآربها الخاصة . يشير نجاحها في هذا المضمار الى الارث الرئيسي للتكعيبية ، القائم في حرية خلق مواضيع العالم ومشاهده على نهج جديد . لم تكن التكعيبية نمطا ، بل كانت حركة جعلت قيام عدد من الانماط ممكنا ، لانها سمحت للفنانين لا برسم الاشياء التي كانوا يشاهدونها وحسب ، بل برسم الافكار ايضا .

أوروبا (١٨٧٠-١٩١٤)

شهدت الفترة التي عقبت توحيد كل من ايطاليا والمانيا ترعرع ونمو الدول القومية الكبرى في اوروبا . فقد ادى ازدياد السكان المطرد ، ونمو الصناعة ، وقيام حكومات قوية ، الى عهد عرف بديناميته الفائقة والى تنافس قومي شديد . كذلك شجع نشوء المؤسسات الديمقراطية في العديد من اجزاء اوروبا ، وتطور النقابات العمالية ، على صدور المزيد من التشريع الاجتماعي ، مثل برامج الانعاش الاجتماعي . ومع الحرب العالمية الاولى ، ظهرت الاحزاب الاشتراكية .

تصاعد قوة المانيا ونفوذها

في اواخر القرن التاسع عشر ، بات من

١

القوات الحكومية

قوات الكومونة

٢٥٠٠ =

٧.٤

المصابون (بالالوف)

المحكوم عليهم (بالالوف)

١.٢ المقتولون

٢.٠ الآخرون

٣.٤ المساجين

٣.٤ المفقودون

٢

١٨٨٠ ١٨٩٠ ١٩٠٠ ١٩١٠ ١٩١٣

٢٨٠٣ ٢٩٢٣ ٣٣٢٧ ٤١٤٦ ٤٦١١ ٥٧٦٦ ٧٤٧٥ ٨٩٣٤ ١٠٠٩٧ ١٠٧٧٠

الصادر المستورد (بملايين الماركات)

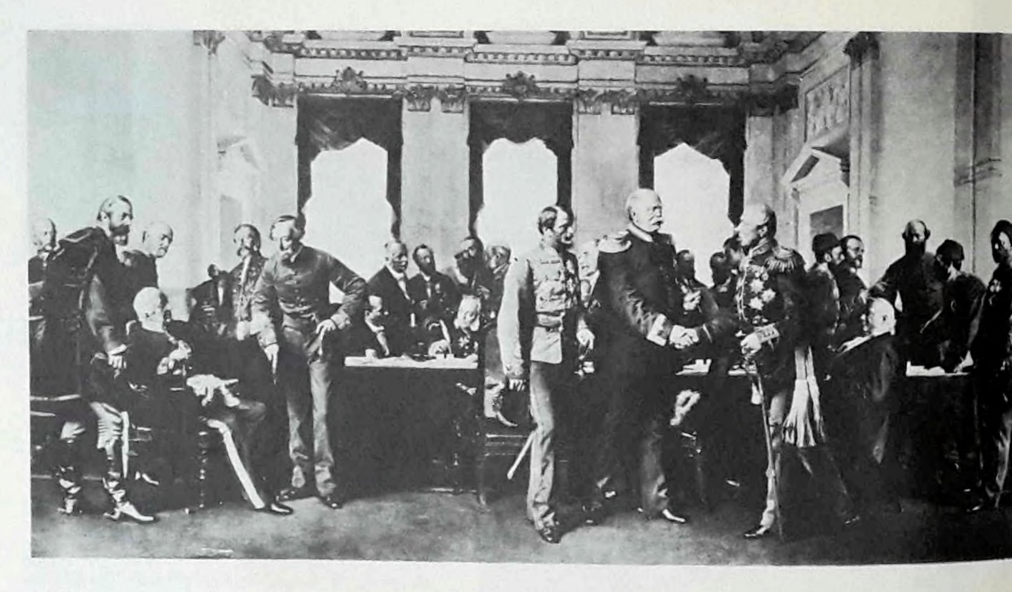
٣



(١) - ظهرت «كومونة» باريس في اعقاب الحرمان والعوز ايام حصار باريس ، اثناء الحرب الفرنسية - البروسية . وعندما قامت الحكومة الجديدة في بوردو برفع ايجارات المساكن في باريس ، ثارت الطبقة المتوسطة الدنيا والعمالية واستطاعت ، رغم التفوق عليها في العدد وفي المدفعية ، ان تسيطر على المدينة من مارس الى مايو ١٨٧١ ، مؤسسة نظاما شبه اشتراكي استمر الى ان قمعته القوات الحكومية بوحشية .

(٢) - غدت الامبراطورية الالمانية الموحدة اعظم قوة صناعية في اوروبا في سنوات ما قبل الحرب العالمية الاولى ، وكانت متفوقة على بريطانيا في فروع عدة من الصناعة . ومع حلول العام ١٩٠٠ تعاظمت تجارة المانيا ، وزادت المستوردات والصادرات اكثر من ثلاثة اضعاف في عام ١٩١٣ .

الواضح ان المانيا القيصرية كانت قد اصبحت اقوى الدول الاوروبية (٢) سواء في عدد السكان او في التجارة والصناعة والقوات المسلحة. وكان اجتياحها السهل لفرنسا في الحرب الفرنسية ـ البروسية في ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ شاهداً على قوتها العسكرية (٦). وبعد الحرب، عمل المستشار الالماني الكونت اوتو فون بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) على خلق جوّ دبلوماسي مستقر، تستطيع فيه المانيا ان توطد مكاسبها وتبني قوتها الدولية وهيبتها. كان الغرض من معاهدة التحالف الثنائي مع النمسا ـ المجر ١٨٧٩ ومن معاهدة الضمان المتبادل مع روسيا ١٨٨٧ الحؤول دون تصادم هذين البلدين في البلقان. صمد اسلوب بسمارك الدبلوماسي امام كثير من الازمات المتكررة حول هذه القضية (٤) لحين استقالته.



(٣) ـ كان الكونت بسمارك استاذا في لعبة الشطرنج الدبلوماسية، فرد على وثائق الحرم التي اصدرها البابا بيوس التاسع (١٧٩٢ ـ ١٨٧٨) بوضع تشريعات معادية للاديرة، كما يظهر في هذا الرسم الكاريكاتوري من ذلك العهد. قاد بسمارك عملية توحيد المانيا، موجها سياستها الخارجية والداخلية ببراعة ودهاء، الى ان استقال كمستشار سنة ١٨٩٠ عقب اختلافه مع القيصر الجديد فلهلم الثاني. اصبحت تجمعات الكاثوليك والاشتراكيين على ايامه خاضعة لمصالح الدولة.

---

(٤) ـ اشتركت جميع الدول الكبرى في مؤتمر برلين في ١٨٧٨. كان مصير الامبراطورية العثمانية والبلدان التابعة لها في البلقان هو مصدر النزاع الرئيسي الذي اشتبكت فيه مصالح النمسا ـ المجر (التي مثلها كارولي، في اقصى اليسار من الصورة) مع مصالح روسيا (شوفالوف، في مقدمة الصورة الى اليمين وهو يصافح المستشار الالماني بسمارك). اقر المؤتمر استقلال عدد من دول البلقان، لكنه انتزع منها بعض الاراضي التي كانت قد كسبتها من تركيا بمساعدة روسيا. سمح للنمسا باحتلال البوسنة ـ الهرسك، وحصلت كل من بريطانيا وفرنسا على مكاسب. مع ذلك، كان الجميع غير راضين.

تحول «الحلف الثنائي» الى «الحلف الثلاثي» حينما انضمت اليه ايطاليا سنة ١٨٨٢ . ونشأ مواجها له الحلف الفرنسي - الروسي سنة ١٨٩١ . كذلك عقدت بريطانيا مع فرنسا «الاتفاق الودي» سنة ١٩٠٤ ، وتم التوقيع على معاهدة انجلو - روسية سنة ١٩٠٧ ، فتشكل بذلك حلف «الاتفاق الثلاثي» .

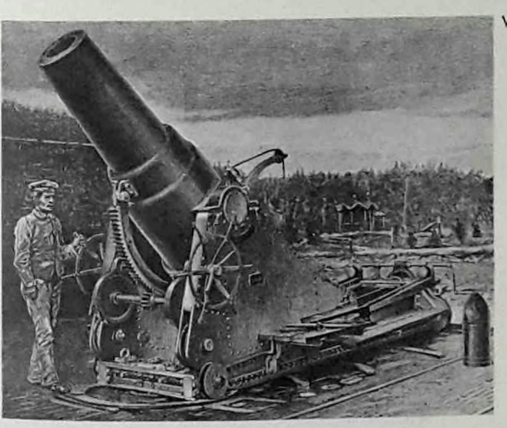
في السياسة الداخلية ، حققت كثير من الدول الاوروبية تقدما كبيرا وهاما . فقد اتسع حق الانتخاب في بريطانيا سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٤ ، فاصبح يتمتع به الكثيرون من العمال . انتهجت فرنسا ايضا نهجا ديمقراطيا برلمانيا . ومع ان المانيا القيصرية كانت لا تزال في الغالب دولة اوتقراطية ، فقد كان لها حكومة دستورية ، ونشأت فيها مجموعات سياسية تطورت بسرعة ، وكان من بينها حزب



(٥) - جيوفاني جيوليتي (١٨٤٢ - ١٩٢٨) ترأس الوزارة في ايطاليا خمس مرات ما بين عام ١٨٩٢ و ١٩٢١ ، واستطاع ان يحقق فترات شبه مستقرة شهدت مقدارا لا بأس به من التقدم الصناعي ، في وقت كانت ايطاليا فيه متأخرة اجتماعيا واقتصاديا . في اغلب الاحيان ، كان من الصعب ممارسة الديمقراطية البرلمانية في الدولة المتحدة حديثا ، وكانت الاضرابات السياسية وحوادث الشغب بسبب الجوع من الامور العادية قبل عام ١٩١٤ .



(٦) - دخول الجيوش البروسية الى باريس ، اثر انتهاء الحرب الفرنسية - البروسية سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، اعطى دليلا واضحا على قوة الدولة الالمانية المتحدة حديثا تحت حكم سلالة هوهنزولرن وقيادة بسمارك . تلاشت سيطرة فرنسا على اوروبا كأعظم قوة في القارة الاوروبية ، وحل محلها جبروت المانيا القيصرية المتصاعد التي قامت جيوشها باستخدام سكك الحديد الالمانية ومدافع كروب على افضل وجه . ادى انكسار فرنسا الى سقوط الامبراطورية الثانية لنابليون الثالث . وبعد «كومونة» باريس بزغ فجر الجمهورية الثالثة .



(٧) - استطاعت صناعة الاسلحة الآخذة في النمو ان تنتج في نهاية القرن التاسع عشر اسلحة مماثلة لهذا الهاوتزر الالماني الذي كان يطلق قذائف زنتها ٤٥ كلغ . ادى توحيد الدول القومية وبروز الحركات الوطنية المتأججة الى اعتماد مبدأي التجنيد الالزامي والتصنيع للجيوش الضخمة التي اعدتها الدول الاوروبية ليواجه بعضها بعضا في سنة ١٩١٤ .

اشتراكي قوي .

اما في جنوب اوروبا ، فلم يظهر النظام الديمقراطي البرلماني الا بدرجة محدودة فقط . فقد كانت ايطاليا (٥) مهددة بفقرها النسبي وبفترات متكررة من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي . وفي شبه الجزيرة الايبيرية ، كانت السيطرة القوية لكل من الطبقة المتوسطة والكنيسة الكاثوليكية تعني استمرار التأخر السياسي .

الصراع بين الكنيسة والدولة

ادى نمو قوة الحكومات القومية وازدياد مدى تدخل الدولة في ميداني التعليم العام والخدمات الاجتماعية الى صراع مع الكنيسة الكاثوليكية . فقد هوجمت الكنيسة في عديد من البلدان بسبب تمسكها بسياسة محافظة ولمقاومتها للتطلعات الليبرالية والقومية . كان محور الصراع في فرنسا حول التعليم ، حيث كان للكنيسة سيطرة كبيرة . تعززت الاهداف الجمهورية على يد رجل الدولة جول فيري (١٨٣٣ـ ١٨٩٣) الذي ازال الصبغة الدينية عن التعليم بالتشريعات التي ظهرت في السنتين ١٨٨٢ و ١٨٨٦ . رغم فترة التفاهم النسبي بين الكنيسة والدولة في الحقبة التي تلت ، وهي الحقبة المعروفة باسم «التقارب» ، فجّرت قضية دريفوس مرة اخرى التوترات القديمة ، مثيرة مشاعر معادية مريرة ضد النفوذ الكنسي . نتيجة لهذا ، الغيت معاهدة الكونكوردا بين الكنيسة والدولة سنة ١٩٠٥ .

وفي المانيا ، بين السنتين ١٨٧٠ و ١٨٨٠ ، شن بسمارك ما يعرف « بالكفاح الثقافي » ، وهي حملة نتج عنها طرد اليسوعيين وحل الرهبانيات ، مع فرض الزواج المدني ووضع تشريعات اخرى ضد الكثلكة (٣) . اما في ايطاليا وبلجيكا وفي بلدان كاثوليكية اخرى ، فجرت اصطدامات مشابهة ولكن على مقياس اصغر .

مناشدة الروح الوطنية والقومية

سعت دول عديدة ، عن طريق التشريعات الاجتماعية ، الى تلبية المطالب المتزايدة للطبقة العامة . ففي بريطانيا ، قام بنجامين دزرائيلي (١٨٠٤ – ١٨٨١) وبعده ديفيد لويد جورج (١٨٦٣ – ١٩٤٥) بانشاء الضمان الاجتماعي الذي قلدا به برامج التأمينات الاجتماعية الشاملة التي وضعها بسمارك . اما في فرنسا ، فرغم انه كان من شأن العداء للاكليريكية وقضايا اخرى عالقة من الزمن السابق اثارة المشاعر القومية ، الا ان السياسة ظلت قائمة في الغالب على حماية المصالح المكرسة ولم تشجع التشريعات الاجتماعية في كل مكان ،ومالت الحكومة الى حشد الرأي العام باثارة المشاعر الوطنية ، وادى انتشار التعليم والازدهار وسهولة المواصلات الى تعزيز الروح القومية ، وسهّلت الجيوش القائمة على التجنيد الالزامي والمسلحة باسلحة الاقتصاد الصناعي الحديث ظهور مؤسسات حربية قادرة على شن حروب لم يشهد مثلها العالم من قبل .

النهضة العربية الحديثة ـ ١ (الرواد)

بدأت تباشير النهضة العربية الحديثة قبل القرن التاسع عشر بعدة عقود من السنين ، لكنها تسارعت في النصف الثاني من هذا القرن ، واتخذت عدة مسارات وأشكال نتيجة عوامل عديدة أثرت على المجتمعات العربية في المشرق اولا ثم في المغرب . اختلفت النهضة قوة وابعادا وعمقا من قطر الى آخر . كانت اوضح ما تكون في مصر والشام ، ثم العراق وتونس والمغرب .

عوامل النهضة

مهد لهذه النهضة عوامل عدة متباينة تدور كلها حول عجز الاوضاع التقليدية عن مواجهة قوى العصر وضرورة التغيير

١


٢


٣


٤


٩


١٠


(١) ـ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) ولد في طهطا والتحق بالجامع الازهر ، حيث حصل على درجة العالمية . رافق اول بعثة علمية مصرية الى فرنسا عام ١٩٢٦ . تعلم اللغة الفرنسية ، وترجم العديد من المؤلفات الفرنسية . عاد الى مصر عام ١٨٣١ . اشرف على تحرير صحيفة «الوقائع المصرية» عام ١٩٤٢ . اشهر مؤلفاته «تخليص الابريز في تلخيص باريز» .

(٢) ـ علي مبارك (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣) من الوزراء والمؤرخين العلماء . ولد في الدقهلية بمصر ، وسافر في بعثة عسكرية الى باريس ١٨٤٤ . خدم في الجيش المصري قبل ان يصبح وزيرا للاوقاف والمعارف . انشأ مدارس كثيرة وأسس دار الكتب المصرية . استقال من الوزارة اثر ثورة عرابي . له مؤلفات كثيرة منها الخطط التوفيقية في ٢٠ جزءا .

(٣) ـ محمود سامي البارودي (١٨٣٩ ـ ١٩٠٤) من ابرز شعراء النهضة الاولين والمجددين . ولد وتوفي في القاهرة . درس العسكرية في الاستانة . كان من قواد الحملتين لمساعدة تركيا في كريت ١٨٦٨ والحرب الروسية ١٨٧٧ . تسلم رئاسة النظار (الوزارة) وانحاز للحركة العرابية ، فسجن ثم نفي الى سيلان ١٧ سنة . عاد الى مصر مكفوفا ١٨٩٩ .

(٤) ـ احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) من رواد الصحافة العربية ولد في عشقوت بلبنان لابوين مارونيين ، ورحل الى مصر فدرس على علمائها ، ثم قصد مالطة واوروبا للعمل في الطباعة . اعتنق الاسلام في تونس ، واستدعي الى الاستانة ، فاصدر جريدة الجوائب (١٨٦١) التي استمرت تصدر ٢٣ سنة . توفي بالاستانة . له مؤلفات عديدة ، منها الجاسوس على القاموس .

(٥) ـ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) أديب شاعر ولد في كفرشيما ،

والاصلاح . بعض العوامل كان نتيجة للنهضة وسببا لها في وقت واحد . من تلك العوامل :

١ ــ رفض الهزائم المتكررة والمعاهدات المذلة التي منيت بها الدولة العثمانية الحاكمة منذ اواخر القرن ١٨ .

٢ ــ الغزوات العسكرية (الانجليزية والفرنسية خاصة) للارض العربية (١٢) .
انها فتحت أطماع الغرب على المنطقة ، كما فتحت أعين العرب على نهضة الغرب .

٣ ــ اصلاحات السلاطين واعمال محمد علي خلال نصف قرن في المشرق العربي في الجيش والتعليم والادارة .

٤ ــ عودة النشاط التجاري والصلات بين البلاد العربية وبين الغرب ، وخاصة بعد فتح قناة السويس .

٥ ــ الانفتاح العلمي على الغرب

٥

٦



٧



٨



واتخذه الامير بشير كاتبا (ومن هنا لقبه) . انقطع للتدريس في السنوات الثلاثين الاخيرة من عمره ، وله باع في النحو واللغة والمخطوطات . وابنه ابراهيم (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) صاحب الصورة ، ولد في بيروت وتعلم على ابيه ، وأصبح من أئمة النهضة الادبية واللغوية .

---

(٦) ـ بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) من رجال النهضة البارزين ويعرف بالمعلم . ولد في الدبية بلبنان ، وتعلم في عين ورقة . برع في عدة لغات . انشأ المدرسة الوطنية في بيروت ١٨٦٣ ، ونادى بتعليم المرأة . كان من رواد الصحافة الاولين . انشأ منفردا (ومع ابنه سليم) اربع صحف منذ ١٨٦٠ أهمها الجنان . وله دائرة معارف باسمه .

---

(٧) ـ سليمان البستاني ابن بطرس (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) ولد في بكشتين بلبنان . كان رجل علم وأدب ، ورجل دولة . صار وزيرا في الاستانة . اشتهر بتعريب الالياذة شعرا عن اليونانية . أخوه سليم (١٨٤٧ ـ ١٨٨٤) ولد في عبية وتتلمذ على ناصيف اليازجي واعان اباه في الصحافة ودائرة المعارف ، وله كتب في التاريخ والاجتماع والقصص .

---

(٨) ـ يعتبر جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) من الرعيل الاول من الباحثين المؤرخين على النهج الحديث . ولد في بيروت ، وهاجر الى القاهرة حيث أسس مجلة الهلال ودار الهلال (الموجودتين الى اليوم) . كان على اتصال بالاستشراق . له عدد من الكتب منها تاريخ التمدن الاسلامي . وقد كتب تاريخ الاسلام بشكل روائي .

---

(٩) ـ سليم تقلا (١٨٤٩ ـ ١٨٩٢) وأخوه بشارة (الصورة ١٨٥٢ ـ ١٩٠١) أخوان من كفرشيما بلبنان ، هاجرا الى مصر ، وعملا في الادب والصحافة ، وأسسا جريدة (الاهرام) في الاسكندرية ١٨٧٦ ، ثم نقلاها الى القاهرة . اصدرها بشارة بالفرنسية ايضا ١٩٠٠ واحتجبت ١٩١٤ . وكان للاهرام اثرها في نشر الوعي الوطني ، والنهضة الفكرية .

---

(١٠) ـ ولي الدين يكن (١٨٧٣ ـ ١٩٢١) أديب وصحفي مصري ولد في الاستانة وتعلم بمصر ، حيث اشتهر وتوفي . انشأ جريدة الاستقامة . كان مناهضا لاستبداد السلطان عبد الحميد ، ومطالبا بالحرية والمساواة للجميع ، وبحقوق المرأة ، فنفي الى سيواس . ثم عفي عنه فعاد الى مصر . له ديوان من الشعر ، وبعض الكتب السياسية

وخاصة من خلال البعثات والتجار والسائحين ، وترجمة المؤلفات العلمية والادبية الى العربية .

٦ ــ انتشار المدارس .

٧ ــ تأسيس الجمعيات العلمية والادبية في عدد من الاقطار .

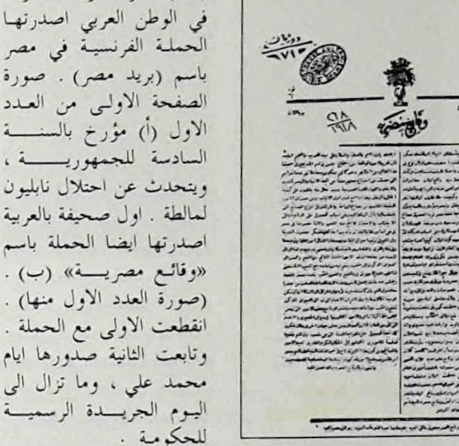
٨ ــ انتشار الطباعة واسهامها في احياء التراث العربي ونشر المؤلفات والترجمات .

٩ ــ نمو الصحافة وتكاثرها المطرد . تكوّن بذلك رأي عام عربي متنور (٤) (٦) (٨) و (١١) .

١٠ ــ ظهور مجموعة من الرواد للفكر الحديث أثروا في طول البلاد العربية وعرضها .

المشرق العربي
منذ اواسط القرن التاسع عشر

١١ أ ب



COURIER DE L'EGYPTE.

NOUVELLES.

وقائع مصرية

(١١) ـ أول جريدة صدرت في الوطن العربي اصدرتها الحملة الفرنسية في مصر باسم (بريد مصر) . صورة الصفحة الاولى من العدد الاول (أ) مؤرخ بالسنة السادسة للجمهورية ، ويتحدث عن احتلال نابليون لمالطة . اول صحيفة بالعربية اصدرتها ايضا الحملة باسم «وقائع مصرية» (ب) . (صورة العدد الاول منها) . انقطعت الاولى مع الحملة . وتابعت الثانية صدورها ايام محمد علي ، وما تزال الى اليوم الجريدة الرسمية للحكومة .

١٢

(١٢) ـ كان النفوذ الاجنبي يستغل البعثات التبشيرية من بروتستانتية وكاثوليكية وانجيلية وارثوذكسية . وكانت تتنافس فيما بينها عن طريق المدارس ، ونشر الكتب بالعربية ، وتنمية الارتباط بالغرب . من اقدمها في المشرق عينطورة (١٧٢٨) ومن اهمها الكلية البروتستانتية ١٨٦٦ . في الصورة تلميذات مدرسة منها في بيت لحم آخر القرن الماضي .

شاعت المطالبة بالشورى والدستور والدعوة للاخذ بأسباب العلوم الحديثة وللتجديد الادبي والفكري . ظهر ذلك في افكار الرواد الأوائل امثال رفاعة الطهطاوي (١) (١٨٠١ - ١٨٧٣) في مصر ، ومحمود شكري الألوسي (١٨٠٢ - ١٨٥٣) في العراق ، واتخذت افكار وكتابات هؤلاء شكل عملية تنوير ، اشترك فيها عدد من المتنورين اللبنانيين المتصلين بالمدارس التبشيرية ممن عملوا في مصر او في لبنان (٧) (٨) (٩) (١٠) . في الوقت نفسه ظهرت الفرق المسرحية ، والمحافل الادبية ، وتكاثرت المطبوعات والصحف والمجلات ، وبرز عدد من كبار الكتّاب والشعراء ، ومن اصحاب الفكر .

المغرب العربي

يقظة المغرب العربي تأخرت في الزمن عن يقظة المشرق . لكن مطالع القرن العشرين شهدت دخول المغرب كله في طور النهضة العامة . وكانت فكرة العروبة هناك تسير في ظل الاسلام ممتزجة معه . واذا كان جامعا الزيتونة في تونس والقرويين في فاس يقومان بدور الأزهر في مصر ، ويزيدان من صلابة المشاعر الاسلامية ومن المقاومة للمحتلين ، فان الافكار السلفية الوهابية قد شاعت في المغرب ، كما ان افكار المصلحين الاسلاميين كمحمد عبده الذي زار الجزائر وتونس ، وشكيب ارسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦) قد وجدت الاصداء القوية .

في تونس ، ظهر ما بين ١٨٦٠ - ١٨٨٠ الشيخ محمد بيرم (١٨٤٠ - ١٨٨٩) الذي اخذ يناهض الاستبداد ، وبرز خاصة خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٩٠) الذي وضع دستورا للبلاد سنة ١٨٦٧ . لعبت الجمعية الخلدونية (أسست ١٨٩٦) دورها في الدعوة للنهضة ، وكذلك الحزب التقدمي (١٩٠٧) ، وحزب تونس الفتاة والحزب الحر الدستوري (١٩١٩) وابرز الزعماء عبد العزيز الثعالبي .

في الجزائر ، تجلت اليقظة في الثورات ضد المحتلين . قامت ثورة اولاد سيدي الشيخ (منذ ١٨٦٤) ومحمد المقراني (١٨٧١) ووهران (١٩٠١) والاوراس (١٩١٦) . وطالب الامير خالد ، حفيد عبد القادر ، بتقرير المصير سنة ١٩١٨ في مؤتمر الصلح ، ثم حمل دعوة الاصلاح بعد ذلك العلماء (الذين سموا بالوهابيين الجدد) وبرز بينهم عبد الحميد بن باديس (ت ١٩٤٠) .

في المغرب ، رغم الأثر الجماهيري للزوايا الصوفية ، أخذت اليقظة طريق المشرق ، فارسلت البعوث العلمية الى مصر واوروبا في النصف الثاني من القرن ١٩ لتكوين جهاز الدولة ، ودخلت المطبعة من مصر ، وظهرت اول جريدة في طنجة (١٨٩٩) لبعض أهل لبنان ، وانتشرت فكرة الاصلاح والدستور (الذي صدر سنة ١٩٠٨) ، وظهرت بعض الكتب الطبية بالعربية ، وبرز من المصلحين أحمد بن خالد الناصري (ت ١٨٩٧) والشيخ محمد الكتاني (ت ١٩٠٩) الداعية للاصلاح ولرفض الاجنبي .

النهضة العربية الحديثة - ٢
(الاتجاهات)

أخذت النهضة العربية الحديثة شكلها الواضح في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت تتفاعل الى فترة الحرب العالمية الاولى . الطابع الظاهر فيها كان محاولة الانفتاح على العصر . لكن هذا الانفتاح ، رغم ظهور الملامح الدينية فيه ، لم يكن دينيا فحسب ، ولكنه كان عسكريا وسياسيا ايضا ، وكان علميا وادبيا بقدر ما كان اجتماعيا واقتصاديا . نواحي الحياة العربية المختلفة كلها تأثرت في بناها التقليدية وتكويناتها الموروثة جميعا بالحضارة الغربية وبوسائلها المادية (١٠) التي اخذت تغزو العرب والمسلمين بشكل قهري وطوعي في عقر دارهم .

١



٢


٣


٤


(١) - علي اليوسف (١٨٦٣ - ١٩١٣) : ولد في اعمال جرجا (بمصر) ثم انتقل الى الازهر عام ١٨٨١ فأتم دروسه . اصدر صحيفة المؤيد (١٨٨٩) فكانت لسان الوطنيين المصريين الذين ينادون بجلاء الانجليز واستقلال مصر . صار شيخ الصحافة .

(٢) - مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) ولد بالقاهرة . تخرج من مدرسة الحقوق . زار فرنسا واوروبا للمطالبة بجلاء الانجليز . انشأ صحيفة اللواء ١٩٠٠ . ثم أصدرها بالفرنسية والانجليزية. أسس الحزب الوطني ١٩٠٧.وهوصاحب مبدأ «مصر للمصريين» .

(٣) - شكيب ارسلان (١٨٧١ - جنيف ١٩٤٦) من كبار الكتاب ورجال السياسة المناضلين . ولد في الشويفات بلبنان ، وتعلم بها . لكنه قضى معظم حياته في اوروبا ، وخاصة جنيف ، يكتب ويتابع القضايا العربية والاسلامية .

(٤) - محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) ولد قرب طرابلس الشام ودرس في مدارسها . ارتحل الى مصر عام ١٨٩٧ واتصل بالشيخ محمد عبده . أصدر في العام التالي مجلة «المنار» التي حلت محل «العروة الوثقى» في التجديد الديني .

(٥) - عبد الحميد بن باديس (١٨٨٧ - ١٩٤٠) رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر . ومن رجال المقاومة الصلبة لفرنسة الجزائر . ولد وتوفي في قسنطينة ، وأتم دراسته في الزيتونة بتونس . اصدر مجلة الشهاب فكانت منبرا للحملة على الاستعمار. له تفسير القرآن الكريم .

(٦) - روحي الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣) أديب سياسي من مواليد القدس ، درس في باريس العلوم السياسية والفلسفة الاسلامية . عين قنصلا للدولة العثمانية عام ١٨٩٩ في بوردو (فرنسا) . وصار عضوا في مجلس المبعوثان . له عدة كتب منها (المقدمة في المسألة الشرقية) . توفي في القدس .

(٧) - محمود شوكت باشا (١٨٥٩ - ١٩١٣) من مواليد بغداد . انخرط بالجيش العثماني وبلغ رتبة عالية فيه . دخل في جمعية الاتحاد والترقي . وهو الذي زحف على الاستانة عنوة بقواته بعد الانقلاب الذي قام به السلطان عبد الحميد على الدستور في ١٣ نيسان ١٩٠٩ ، فخلع السلطان وأبقى الدستور .

(٨) - كان احمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) ينعت باستاذ الجيل لاثره الفكري الواسع . ولد في قرية برقين بمصر . درس الحقوق في القاهرة وعمل في المحاماة والسياسة . تولى عدة وزارات ، وعين نائبا لرئيس مجلس الوزراء

تيارات الفكر السياسي

تعرف العرب ، من خلال الاتصال بالغرب ، على الفكر السياسي الحديث ، وحاولوا ايجاد الصيغ للتوفيق بينه وبين ما لديهم من تراث فكري وسياسي . وهكذا ولدت افكار الاصلاحات والتنظيمات والحديث عن الدستور (المشروطية) ، والحريات العامة ، والعدالة والمساواة . ابرز مفكري هذا الاتجاه رفاعة الطهطاوي ، وخير الدين التونسي ، وجمال الدين الافغاني ، وعبد الله النديم ، وعبد الرحمن الكواكبي . بعض المفكرين نحوا منحى علمانيا خالصا في تناولهم للافكار السياسية الجديدة ، امثال شبلي شميل ، وانطون فرح .

خلال العهد الحميدي وحتى اواخره ، لم يكن الانفصال بين مشاعر العرب والاتراك واضحا . كان يغطي عليه الشعور

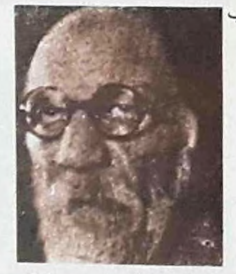
٥ ٦ ٧ ٨

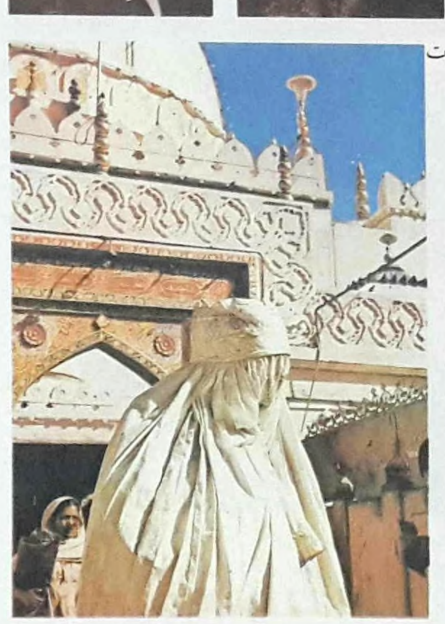




٩أ ب ت







(١٩٤٦) ، وعضوا في مجلس الشيوخ ، ورئيسا لمجمع اللغة العربية .

---

(٩) – في اواخر القرن الماضي طرحت قضية المرأة العربية المسلمة طرحا متزايد الالحاح نتيجة الافكار الاوروبية ، وتطور الطبقات المتنورة . ظاهر المشكلة تناول قضية الحجاب (ت) ، ولكنها في اعماقها تتصل



بمساواتها بالرجل . من اوائل المنادين بتحريرها الكاتب قاسم امين (١٨٦٥ – ١٩٠٨) (أ) كان تلميذا للافغاني ومحمد عبده واصدر كتاب تحرير المرأة (١٨٩٩) وألحقه بكتاب (المرأة الجديدة) ١٩٠١ فكان للكتابين ضجة واسعة . ممن دافعوا عن الرأي نفسه الشاعر جميل الزهاوي (١٨٦٣ – ١٩٣٦) (ب) .

الاسلامي الجامع . لكنه كان يتوضح باطراد تحت ضغط الاستبداد وزيادة التنور وشيوع الافكار القومية الغربية . حين اعلن الدستور العثماني (١٩٠٨) من جديد ، استبشر العرب بعهد جديد ، لكنهم ادركوا ، بعد مرور عامين فقط ، ان اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذي تسلموا الحكم لا يتجهون الى الاخوّة الاسلامية ولكن الى التتريك والطورانية . كان رد الفعل على ذلك ازدياد قوة المشاعر العربية القومية وازدياد قوة الجمعيات السرية والعلنية . ظهرت تيارات سياسية اربعة ، وان كانت بدورها متداخلة :

١ – تيار الجامعة الاسلامية ، الذي اعتبر الاسلام المنطلق الاول لنهضة العرب والمسلمين ، وأكد على وحدة المسلمين ونهضتهم في مجابهة الاستعمار الغربي بالعلم والتجديد وصفاء الاسلام . ابرز قادة

١٠أ



ب



(١٠) – منذ مطالع القرن ١٩ ازداد زحف الغرب على الشرق بحضارته المادية وقيمه . أخذ هذا الزحف شكل الضربات المأساوية الحربية في الاحتلالات للبلاد العربية وفي الهزائم التي قضت على الدولة العثمانية . الوجه الآخر السلبي للنهضة يكمن في هذا الوجه المادي المتفوق الذي ظهر به الغرب امام العرب ، والذي تفتحت عليه العيون ، وحاولت مجاراته واقتباسه . بالرغم من ان بعض رجال النهضة تعلق بالامور السياسية ووصل الى صيغة (عدالة ، مساواة واخاء) ، والى طلب الدستور والتمثيل النيابي ، وتعلق بعضهم الآخر بالعلوم الحديثة ، ودافع حتى عن نظرية التطور (مثل شبلي شميل ١٨٦٠ – ١٩١٧) ، وبعضهم حاول التحديث من خلال الدين ، او من خلال المظاهر والملابس ، او المسرح ، الا ان اشد ما هزّ البنى التقليدية الاجتماعية والاقتصادية ودفعها الى التطور هو المنجزات المادية الغربية وبخاصة : ١ـ الاسلحة الحربية . ٢ـ المعامل لبعض المواد كالنسيج ولبعض المناجم ، كالفوسفات (أ) في قفصة . ٣ – وسائط النقل الحديثة كالسكك الحديدية والبواخر والسيارة التي وصلت قبيل الحرب العالمية الاولى (ب) والطائرة التي كان أول اتصال بها مأساة اذ سقط الطياران العثمانيان الاولان على ساحل عكا ، ودفنا بدمشق (١٩١٣) .

هذا الاتجاه شكيب ارسلان (٣) ومحمد رشيد رضا (٤) وابن باديس (٥) وعلي يوسف (١) .

٢ ــ تيار الرابطة العثمانية ، الذي دعا الى التمسك بالدولة العثمانية والدفاع عنها في صراعها مع الدول الاوروبية . بعضهم اعتبر بقاء الدولة العثمانية ضرورة للمجتمع الدولي او اعتبر الولاء لها جزءا من العقيدة ، ومنهم محمد فريد ومصطفى كامل (٢) من مصر ، ومحمد بن اسماعيل من الجزائر ، وعبد العزيز الثعالبي من تونس ، وابو الهدى الصيادي وروحي الخالدي (٦) من سوريا .

٣ ــ تيار الوطنية الاقليمية ، الذي دعا الى الوحدة الوطنية في بعض الاقطار العربية والتشبث بكيانها السياسي ، وخاصة في مصر ولبنان والمغرب الاقصى .

٤ ــ تيار القومية العربية ، الذي تبلور في بلاد الشام والعراق . نادى بانصاف العرب في الدولة العثمانية ، واشتراكهم في الادارة والسلطة ، وجعل العربية اللغة الرسمية . تمثل هذا التيار خاصة في عدة جمعيات سياسية مثل المنتدى الادبي ، والجمعية القحطانية ، والجامعة العربية ، والعربية الفتاة ، وحزب اللامركزية العثماني ، وجمعية العهد ، وتبلورت مطالب هذا التيار في مقررات المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس (يونيو ١٩١٣) .

التغير الاجتماعي

اصيبت البنى الاجتماعية التقليدية في المجتمع العربي العثماني بهزات عنيفة خلال القرن التاسع عشر .

سيطرت على الطبقات المتنورة فكرة «التمدن» . وبدأت الطبقات الاجتماعية بالتحول من شكل الطوائف (الدينية) والاقطاع (للارض والوظائف) والحرف (المتوارثة) الى الدخول في التطبق البورجوازي . وشاعت فكرة الوطن (المرتبطة بالارض) مع فكرة القومية (المرتبطة بالأمة) على حساب فكرة الجماعة الدينية وتطورت القيم الاخلاقية . ظهر التغيير واضحا ، لا في الافكار فحسب ، ولكن في جوانب الحياة المادية ايضا بشيوع الملابس الفرنجية والاثاث الغربي والبناء . من اهم مظاهر التغير ما اصاب موضوع المرأة . فقد شاعت الدعوة لانصافها وتعليمها ، ودعا فريق من المتنورين (امثال قاسم امين (٩) وجميل صدقي الزهاوي) الى تحريرها الكامل والغاء الحجاب .

النقد الفكري

مطالع التطور الفكري العربي ظهرت منذ اواسط القرن التاسع عشر رغم الامية السائدة . كان من اول مظاهرها معاودة الاهتمام باللغة العربية وبتغيير اساليب الكتابة التقليدية تدريجيا . ظهر التجديد في الشعر ايضا ، ودخلت النزعة العلمانية على الفكر العام بدل الطابع الديني السابق .

في الوقت نفسه ، انفتح الناس على دراسة التاريخ العربي ، وتوسعت دراسة القانون والطب خاصة ، وتعرف الناس على النظريات العلمية الحديثة ، كنظرية التطور مثلا ، وعلى مبتكرات العلم الحديث .

البلقنة والقومية السلافية

كانت النمسا ـ المجر وروسيا الدولتين الرئيسيتين في الصراع الدائر لوراثة الدولة العثمانية ، «رجل اوروبا المريض» (٣) ، وللسيطرة على البلقان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كانت هذه السيطرة هدف روسيا التاريخي للتحكم في مضيقي البوسفور والدردنيل ، والاستيلاء على القسطنطينية ، وتأمين منفذ دائم لها الى المياه الدافئة . اما النمسا ـ المجر ، فكان اهتمامها الرئيسي منع روسيا من تثبيت قدميها في البلقان كحامية لمجموعة من دويلات تطمح باراض لها في امبراطورية آل هابسبورج . دعم كل من بريطانيا والمانيا سياسة النمسا ـ المجر .



(١) ـ تعكس هذه الصورة التي تدعى «الانبعاث الأليري» الروح القومية السلافية . رسمها رسام كرواتي من القرن التاسع عشر ، هو فلاهو بوكوفاك . كان المأمول ان تصبح أليريا اتحادا مستقلا من السلاف الجنوبيين بقيادة الكروات . لكن الصرب ، الذين تمكنوا من تحرير انفسهم من الحكم التركي عام ١٨٣٠ وصاروا مملكة عام ١٨٨٢ ، صارت لهم اليد العليا ، بينما بقيت كرواتيا وسلوفينيا تابعتين لامبراطورية النمسا ـ المجر .

(٢) ـ في اسطمبول عام ١٨٧٦ ، اعلن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) تحت ضغط رجال الحكم ذوي الثقافة الغربية دستورا لاصلاح الامبراطورية الرجعية وتحديثها . لكنه ما لبث ان الغى الدستور الى ان اضطرته حركة تركيا الفتاة الى اعادته عام ١٩٠٨ ، والى دعوة البرمان ، والغاء المراقبة على الصحف . وعندما كان يعد العدة لرد فعل معاكس عام ١٩٠٩ ، خلع عن العرش واستبدل به سلطان آخر .

(٣) ـ سان ستيفانو هو الاسم الظاهر على العلم الذي تحمله الفتاة في هذا الملصق البلغاري ، وهو يلخص جهود بلغاريا ومحاولاتها لاستعادة ما كسبته من جيرانها في معاهدة سان ستيفانو ، وما خسرته في برلين . لاجل هذه الغاية حاربت بلغاريا وانتصرت على صربيا عام ١٨٨٥ ، ولكنها اضطرت للانسحاب بعد تدخل النمسا . في شهر اكتوبر ١٩١٥ ، تحالفت بلغاريا مع النمسا والمانيا واعلنت الحرب على صربيا .

تعثر المطامح الروسية

في سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ، وقفت روسيا الى جانب صربيا والجبل الاسود ضد تركيا ، لدعم المسيحيين السلافيين في مقاطعة الهرسك الذين كانوا قد اصطدموا مع الاتراك لامتناعهم عن دفع الضرائب والقيام بخدمات العمل المعهودة . دحرت قوة تركية ارسلت عام ١٨٧٥ لقمع حركتهم ، وذلك بفضل مساعدة بعض المتعاطفين معهم من الصرب والجبل الاسود ومقاطعة الكروات في دالماتيا ، وهي جزء من الدولة النمساوية ـ المجرية . ثم امتدت الثورة الى بلغاريا عام ١٨٧٦ حيث قدر عدد القتلى من البلغار على يد الجنود الاتراك غير النظاميين بما بين ١٢٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ .

ومع ان الجيوش الروسية وصلت الى ضواحي مدينة القسطنطينية عام ١٨٧٨ ،



(٤) ـ دول البلقان الجديدة ، التي تشكلت نتيجة لاندحار تركيا وانسحابها من اوروبا ، كانت تتنازع الواحدة مع الاخرى : بلاد الصرب وبلغاريا حول مقدونيا ، رومانيا وبلغاريا حول دوبروجا ، رومانيا والنمسا ـ المجر حول ترانسلفانيا . لكن اعظم النزاعات وقع بين بلاد الصرب والنمسا ـ المجر بسبب دعم الصرب للاعمال الارهابية بين السلافيين الذين كانوا يعيشون تحت حكم النمسا ـ المجر . وقعت اخطر هذه الاعمال في البوسنة ـ الهرسك ، وهي مقاطعة للكرواتيين والصرب والسلافيين المسلمين احتلتها النمسا ـ المجر سنة ١٨٧٨ وضمتها رسميا عام ١٩٠٨ . قاومت النمسا ـ المجر ايضا محاولات الصرب للحصول على منفذ مباشر لها على بحر الادرياتيك ، وذلك بتشجيعها على قيام دولة البانيا التي نودي بها كدولة عام ١٩١٢

(٥) ـ شعوب من اعراق كثيرة مختلفة سكنت البلقان . فالكروات يكتبون لغتهم باللاتينية وينتمون الى الكنيسة الكاثوليكية . اما الصربيون والبلغاريون وسكان الجبل الاسود والمقدونيون ، فيكتبون بالخط السرليكي وينتمون الى الكنيسة الارثوذكسية . وقد حافظت الكنيسة الارثوذكسية تحت حكم الاتراك على استقلالها الذاتي ، وكان لها دور في الانتعاش القومي للشعوب البلقانية . خلفت تركيا في اوروبا بلدين اسلاميين هما البوسنة (البشناق) والبانيا .

الا ان دبلوماسية بريطانيا والنمسا ـ المجر عرقلت هدف روسيا الرئيسي . لكن في مؤتمر برلين ، نجحت روسيا في تأمين توسع الصرب والجبل الاسود واستقلال بلغاريا . كذلك سمح للنمسا ـ المجر (التي وقفت على الحياد) ان تحتل مقاطعة البوسنة الهرسك ، ومنعت بلغاريا من الحصول على منفذ على بحر ايجه . اما مقاطعة مقدونيا ، التي كانت تطمح كل من صربيا وبلغاريا (٣) الى الاستيلاء عليها ، فقد اعيدت الى تركيا .

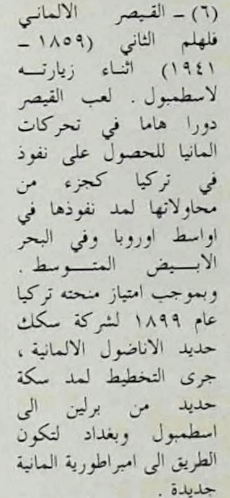
ألهب نجاح الصربيين وأهل الجبل الاسود في الحرب خيال الشعوب السلافية في امبراطورية النمسا ـ المجر ، ولاسيما شعوب الجنوب : وهم الكرواتيون والسلوفينيون والصربيون الذين يعيشون في البوسنة وكرواتيا والمجر . وفي صربيا ذاتها ، شجعت الحكومة سرا جماعات

٦

٧

(٧) - تحركت الجيوش البلغارية (التي تشاهد في الصورة بالقرب من حدود صربيا) نحو صربيا في يونيو عام ١٩١٣ ، وبهذا ، بدأت الحرب البلقانية الثانية . ادى هذا الهجوم الى تفشيل خطط صربيا لضم اجزاء من مقدونيا كانت تحت حكم بلغاريا منذ انتهاء الحرب البلقانية الاولى . لكن بلغاريا تعرضت للهزيمة في الحرب في شهر اغسطس ، عندما تحالف ضدها جميع جيرانها . ربحت صربيا في التسوية اكبر نصيب ، بينما حصلت كل من تركيا واليونان ورومانيا على بعض الاراضي .

(٦) ـ القيصر الالماني فلهلم الثاني (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) اثناء زيارته لاسطمبول . لعب القيصر دورا هاما في تحركات المانيا للحصول على نفوذ في تركيا كجزء من محاولاتها لمد نفوذها في اواسط اوروبا وفي البحر الابيض المتوسط . وبموجب امتياز منحته تركيا عام ١٨٩٩ لشركة سكك حديد الاناضول الالمانية ، جرى التخطيط لمد سكة حديد من برلين الى اسطمبول وبغداد لتكون الطريق الى امبراطورية المانية جديدة .



٨



(٨) ـ اول جندي بلغاري قتل في حرب البلقان الاولى ، وهو محاط بالنادبين عليه . مع ان القتال لم يبدأ الا في شهر اكتوبر ١٩١٢ ، فان بذور النزاع كانت قد القيت منذ المعاهدة السرية بين صربيا وبلغاريا في شهر مارس . خططت الدولتان لمهاجمة تركيا واقتسام الغنائم .

تعمل لاتحاد سلافي في الجنوب وذلك بمدّها بالاموال والتشجيع المعنوي ، كما قامت جماعات غير رسمية بتقديم المساعدات علنا لتلك الجماعات .

الجمعيات الثورية

نظر الكرواتيون ، وسلافيون آخرون يعيشون في النصف المجري من امبراطورية آل هابسبورج ، الى فكرة الوحدة مع صربيا بتخوف وحذر ، مفضلين دولة سلافية جنوبية تحت قيادة اسرة هابسبورج . لكن كثيرين منهم اصبحوا من الثوار في اواخر القرن التاسع عشر بسبب نفورهم من سيطرة المجريين . ولما شعر آل هابسبورج بالخطر على امبراطوريتهم المتعددة القوميات ، ضاعفوا جهودهم للسيطرة على صربيا وقهرها ، اذ كانت في نظرهم مصدر المشاكل في دولتهم . كان ضم البوسنة ـ الهرسك سنة ١٩٠٨ نتيجة لهذه السياسة ، اذ كانت محاولة لاحباط القومية السلافية الجنوبية ، وشل فعاليتها بضم المنطقة المتنازع عليها الى الامبراطورية . وقد تمكنت النمسا ـ المجر من تحقيق ذلك ، دون التعرض لرد فعل روسي ، بسبب ضعف روسيا الناجم عن كارثة انكسارها في حربها مع اليابان سنة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ .

الحروب البلقانية

بعد ضم البوسنة الى الامبراطورية ، تحول اندفاع القومية الصربية في بادىء الامر جنوبا تجاه البانيا وجنوب شرق مقدونيا ، فطالبت كل من صربيا وبلغاريا واليونان بهما ، لكن مؤتمر برلين اعادهما الى تركيا . اقامت الدول البلقانية الاربع ، وهي اليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الاسود ، ما يسمى بعصبة البلقان ، واعلنت الحرب على تركيا في اكتوبر ١٩١٢ (٧ و ٨) (الحرب البلقانية الاولى) مستغلة انهماك تركيا في الحرب مع ايطاليا في ليبيا سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢ . ومع ان هذه القوى البلقانية قد استطاعت دحر تركيا ، الا ان مساعيها احبطت مرة ثانية بسبب دبلوماسية الدول الكبرى .

تعثرت آمال آل هابسبورج في ان يؤدي ضم البوسنة الى وضع اكثر هدوءا . فقد ازداد الهيجان القومي (٨) الداعي الى اتحاد جميع السلاف الجنوبيين ، وازداد قوة بسبب انتصارات الصرب في الحرب البلقانية ، وصارت الاغتيالات من جانب الجمعيات السرية في البوسنة وغيرها امرا مألوفا . دفع هذا المأزق السياسي قادة النمسا ـ المجر الى التفكير مرة ثانية بالحل العسكري ، على اعتبار انهم ، اذا تمكنوا من اخضاع صربيا وتحييدها ، وهي منبع الهيجان القومي ، فسيسود الهدوء في باقي اوروبا ، وقوّى الدعم الالماني غير المحدود تقريبا لسياسات النمسا ـ المجر هذا الاتجاه لدى بعض القادة النمساويين العسكريين والمدنيين . ثم جاء اغتيال وريث عرش آل هابسبورج ، الارشيدوق فرانز فرديناند ، في سراجيفو في البوسنة في يونيو ١٩١٤ على يد جماعة ثورية ، فاعطى لهؤلاء العسكريين الذريعة لشن الحرب .

أسباب الحرب العالمية الأولى

في تسعينات القرن الماضي ، تخلت الطبقة الحاكمة في المانيا ، تحت زعامة القيصر الالماني فلهلم الثاني (١٨٥٩ – ١٩٤١) الذي عرف بذكائه ولكن بتردده ايضا ، عن سياسة بسمارك الخارجية الحذرة ، مفضلة عليها سياسة اكثر دينامية وممثلة لقوة المانيا العسكرية والصناعية . ارادت المانيا لنفسها امبراطورية استعمارية واسعة الارجاء ، وذلك ليس لدوافع اقتصادية وحسب ، بل لنشر نفوذها ايضا . وتحقيقا لهذا الغرض ، صدرت قوانين عديدة ، كان اولها قانون ١٨٩٨ لزيادة عدد قطع الاسطول . كان الغرض من الاسطول الجديد تحدّي تفوق بريطانيا

١

جدول الاحداث الزمنية للايام التي سبقت الحرب بين ٢٨ يونيو و ٤ اغسطس ١٩١٤

١٩١٤	النمسا – المجر	المانيا	بريطانيا	روسيا	فرنسا
٢٨ يونيو	اغتيال الارشيدوق فرديناند				
٥ يوليو		المانيا تتعهد بدعم النمسا عسكريا ضد الصرب			
٢٣	تقديم الانذار النمساوي الى الصرب				
٢٥			المانيا ترفض وساطة الحلفاء		
٢٧	الصرب تقبل المطالب النمساوية جزئيا				
٢٨	النمسا ترفض الجواب الصربي وتعلن الحرب				
٢٩		المانيا تفشل في تحييد بريطانيا			
٣٠				نقولا الثاني يعلن تعبئة الجيش الروسي	
٣١	النمسا تعلن التعبئة	المانيا تنذر روسيا وفرنسا بايقاف الاستعدادات للحرب			
١ اغسطس		المانيا تعلن الحرب على روسيا وتباشر التعبئة			فرنسا تعلن التعبئة
٢		المانيا تغزو لوكسمبورج وتطالب بالمرور عبر بلجيكا	بلجيكا تطلب الدعم البريطاني		
٣		المانيا تعلن الحرب على فرنسا	بريطانيا تنذر المانيا بالانسحاب من بلجيكا		
٤			المانيا لا ترد . فتعلن بريطانيا الحرب		

(٢) – عكس سباق التسلح بين القوى العظمى قبل سنة ١٩١٤ تزايد التوتر في اوروبا وزاده تفاقما . بالاضافة الى ان المانيا بنت اسطولا بحريا كبيرا ، فقد كان لها اعظم جيش في اوروبا . بقي حجم هذا الجيش ثابتا نوعا ما من عام ١٩٠٠ الى ١٩١٠ ، الا ان تدهور وضع المانيا الدبلوماسي دفعها الى زيادة قواتها العسكرية .

(٣) – جافريلو برنسيب (١٨٩٣ – ١٩١٨) دفع بسلسلة الاحداث التي ادت الى الحرب حينما اطلق الرصاص على وريث عرش النمسا – المجر الارشيدوق فرانز فرديناند وزوجته اثناء قيامهما بزيارة سيراجيفو عاصمة البوسنة في ٢٨ يونيو ١٩١٤ . كان واحدا من جماعة من المتآمرين البوشناق الذين كانت صربيا تقدم لهم المساعدة .

(٤) – مستشار المانيا بيثمان هولفيج (في اليسار) ووزير الخارجية جوتليب فون جاجو (١٨٦٣ – ١٩٣٥) اساءا تقدير عزم بريطانيا على دخول الحرب بسبب «قصاصة من الورق» تضمن حياد بلجيكا ، فراهنا على انتصار دبلوماسي لدول الوسط حين شجعا النمسا على التحرك ضد صربيا في يوليو ١٩١٤ بوعدها بالمساندة العسكرية الالمانية .

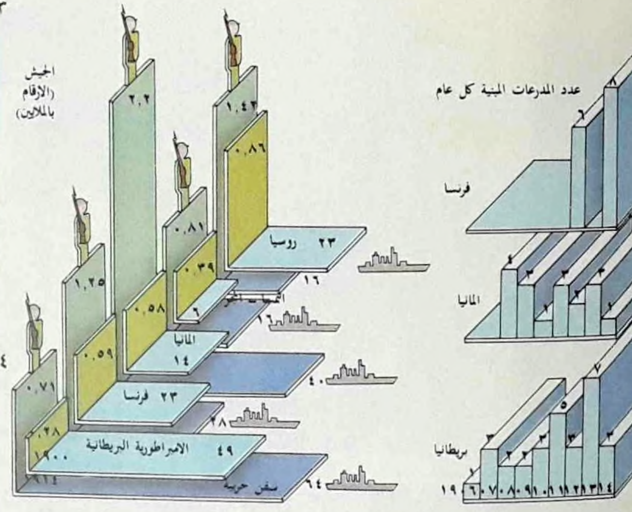
(٥) – صورة في زمن الحرب للقيصر (ويظهر في الوسط) مع جنرالاته يتبين فيها مدى شغفه بالحياة العسكرية . بما انه كان هو المسؤول عن سياسة المانيا الخارجية ، فالقرار النهائي للتعبئة للحرب في الاول من اغسطس قد صدر عنه .

البحري (١) اولا ، ثم حمل بريطانيا ، التي كانت تواجه عداء فرنسيا - روسيا متواصلا ، على الاسهام في عملية اعادة تقسيم شاملة للاراضي المستعمرة .

نكسات المانيا الدبلوماسية

جاءت اولى نكسات «سياسة المانيا العالمية» عام ١٩٠٤ ، حينما سوّت بريطانيا وفرنسا خلافاتهما حول المستعمرات . وفي سنة ١٩٠٧ ، سوّت بريطانيا نزاعاتها الطويلة الامد حول اواسط آسيا مع روسيا ، التي كانت حليفة لفرنسا منذ العام ١٨٩٤ . لكن في سنة ١٩٠٥ ، استغلت المانيا هزيمة روسيا امام اليابان ، فتحدت نفوذ فرنسا المتزايد في المغرب (٨) واجبرتها على الاشتراك في مؤتمر دولي في يناير ١٩٠٦ في الجزيرة الخضراء لتسوية القضية المغربية وفقا للشروط

٢



٣



٤



٥

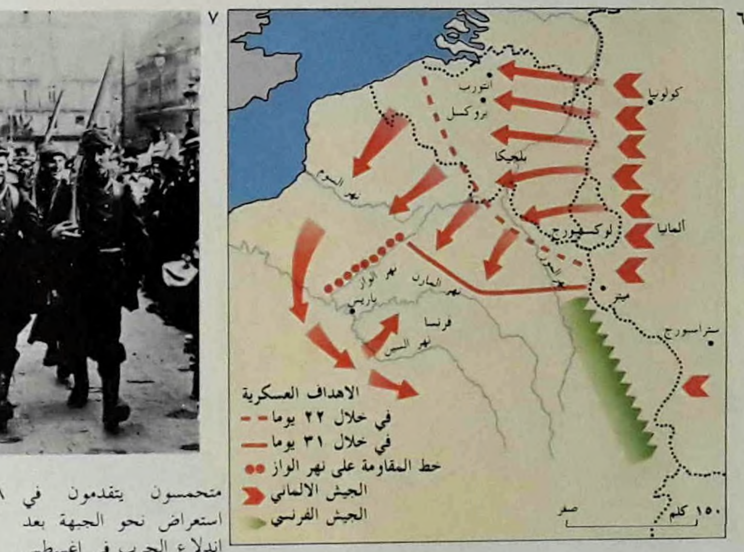


الالمانية . لكن المانيا لاقت في ذلك المؤتمر هزيمة دبلوماسية ، اذ لم يدعم خططها المتعلقة بالمغرب سوى امبراطورية النمسا ـ المجر .

شرعت المانيا بعد هذا في العمل على تعكير علاقاتها مع روسيا . فاصرّت سنة ١٩٠٩ ، تحت تهديد مبطن بالحرب ، على ان تعترف روسيا بضم امبراطورية النمسا ـ المجر لمقاطعة البوسنة ـ الهرسك التركية في سنة ١٩٠٨ ، وان تتخلى عن مساندتها لمطالب صربيا بالتعويض .

في الوقت نفسه ، تأزم الوضع الدولي ، على اثر ارسال المانيا لسفينة حربية الى ميناء اغادير في المغرب في يوليو ١٩١١ في محاولة للحصول على تعويضات استعمارية من فرنسا التي كانت قد سيطرت كليا على المغرب .

٦



(٦) ـ كانت خطة شليفن مبنية على وجود جبهتين حربيتين ، واحدة مع فرنسا والاخرى مع روسيا ، اللتين كانتا متحالفتين منذ ١٨٩٤ . قضت الخطة بشن هجوم الماني كاسح عبر هولندا (استثنيت في وقت لاحق) ، وبلجيكا ، بقصد الالتفاف حول الجيش الفرنسي ، وبأن تدافع القوات النمساوية والالمانية في هذه الاثناء عن الحدود الشرقية ، ريثما يتسنى لقوات الجيش الالماني الرئيسية ضرب فرنسا واخراجها من ساحة المعركة ثم التحرك بسرعة لمواجهة الروس المتقدمين ببطء . لكن خرق حياد بلجيكا كان من شأنه ان يزيد من خطر تدخل بريطانيا .

٧



(٧) ـ جنود فرنسيون متحمسون يتقدمون في استعراض نحو الجبهة بعد اندلاع الحرب في اغسطس ١٩١٤ . توضح هذه الصورة حماس جميع الدول المتحاربة ، المبني على روح قومية متشددة وعلى الاعتقاد بأن الحرب ستكون قصيرة ومجيدة .

٨



(٨) ـ حينما زار القيصر الالماني طنجة في شهر مارس ١٩٠٥ ، تعهد بأن يحافظ على استقلال المغرب . نتيجة لذلك ، بقي استقلال المغرب مصانا لغاية سنة ١٩١١ ، ثم ادت الدبلوماسية الالمانية المتعثرة الى تقارب فرنسا وبريطانيا .

عدم الاستقرار في البلقان

لكن اسباب الحرب العالمية الاولى نجمت مباشرة عن الاحداث في البلقان. ففي عام ١٩١٢، قام حلف دول البلقان (المؤلف من صربيا واليونان والجبل الاسود وبلغاريا) باخراج تركيا من اكثر الممتلكات الاوروبية المتبقية لها. وفي السنة التي اعقبتها، هزمت بلغاريا على يد حليفتيها السابقتين، اليونان وصربيا، وخسرت لصربيا اكثر مغانمها في مقدونيا، وهي المغانم التي كسبتها في حرب ١٩١٢. وهكذا واجهت امبراطورية النمسا ـ المجر دولة صربية كبيرة وطموحة ومصممة على ان السلافيين الذين يعيشون ضمن حدود امبراطورية آل هابسبورج يجب ان ينضمّوا تحت سلطانها.

كانت حصيلة جميع هذه الازمات ازدياد التأهب للحرب. في الحقيقة، كانت المانيا قد اعدت من عهد بعيد مخططا للحرب والنصر.

جاء اغتيال وريث عرش آل هابسبورج فرانز فرديناند (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) في سيراجيفو في ٢٨ يونيو ١٩١٤ بمثابة الذروة لسلسلة الاستفزازات الصربية للنمسا. خشيت برلين، اذا ما فشلت النمسا ـ المجر في استغلال حادث القتل لادخال صربيا في فلكها، ان تتهاوى تلك الامبراطورية المتعددة القوميات، وتصبح المانيا معزولة. لهذا راحت النمسا، تحت ضغط الماني، تعمل ضد الصرب، مع وعد بمساندة المانيا العسكرية لها في حالة نشوب الحرب. ولاسباب عديدة، من بينها تتابع الهزائم الدبلوماسية الالمانية، وشعور المانيا «بمحاصرة» بريطانيا وفرنسا وروسيا لها، وتزايد قوة روسيا المستمرة، والانقسامات العميقة داخل المجتمع الالماني، كل ذلك اقنع النخبة الحاكمة في المانيا بجدوى الحرب للمحافظة، على الاقل، على مبدأ الهيمنة الالمانية على اوروبا الوسطى. ومع ان المستشار الالماني تيوبالد فون بيتمان هولفيج (١٨٥٦ ـ ١٩٢١) كان شديد الحذر، الا انه راهن على حياد كل من روسيا وبريطانيا (٤)، آملا ان يبقى النزاع الصربي ـ النمسوي نزاعا محليا، وذلك بالرغم من نظام الاحلاف المتشدد.

الخطوات الاخيرة نحو الحرب

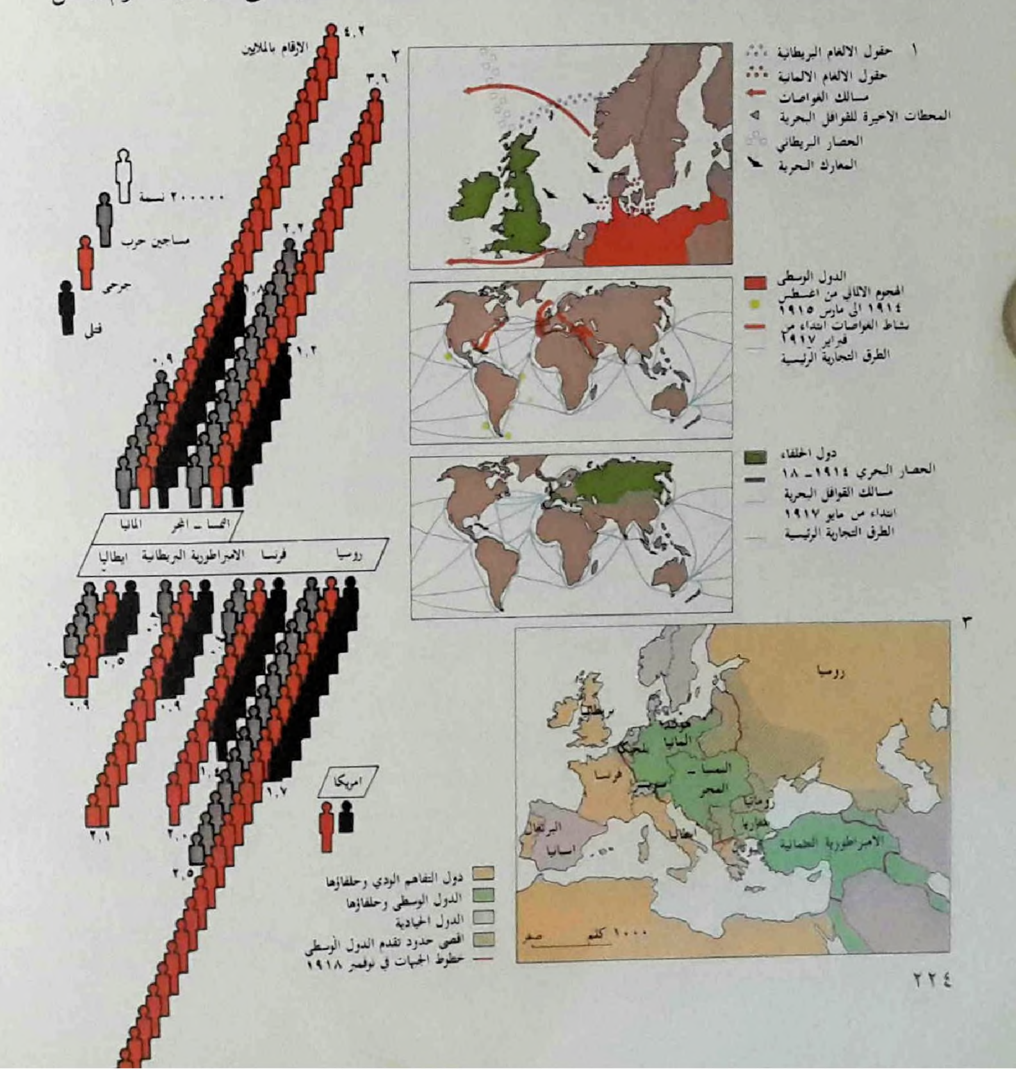
اخيرا، بعثت النمسا الى صربيا انذارا تطالب فيه بالحق في الاشتراك في التحقيق مع الارهابيين الصربيين. وعندما رفضت صربيا تلبية هذا الطلب، اعلنت النمسا الحرب عليها في ٢٨ يوليو ١٩١٤. لم يكن في وسع روسيا ان تقف على الحياد، كما انها واجهت مشاعر سلافية متصاعدة، ولهذا اعلن قيصرها نقولا الثاني (١٩٦٨ ـ ١٩١٨) التعبئة العامة. فشلت الوساطة البريطانية في اقناع النمسا والمانيا بالقبول بحل وسط. وحينما رفضت فرنسا ان تترك روسيا لوحدها، وضعت خطة شليفن موضع التنفيذ، وتتابعت الاحداث بسرعة (٧) نحو الحرب بين قوى الوسط (المانيا والنمسا ـ المجر وتركيا) والحلفاء (روسيا وصربيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا).

الحربُ العالميّة الأولى

في ٢٨ يونيو ١٩١٤ ، اغتيل وريث عرش النمسا ـ المجر ، الارشيدوق فرانز فرديناند (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) في سيراجيفو في مقاطعة البوسنة . كان القاتل طالبا مواليا لصربيا اسمه جافريلو برنسيب (١٨٩٣ ـ ١٩١٨) ، اثار بعمله هذا سلسلة المناورات الدبلوماسية التي ادت في آخر المطاف الى الحرب . كانت بلاد البلقان منذ وقت طويل مركزا للنزاع . وكانت القومية الصربية تهدد امبراطورية النمسا ـ المجر المزعزعة ، والتي كان تفككها سيؤدي الى عزل حليفتها المانيا .

المعارك الاولى على الجبهتين

ضغطت المانيا على حليفتها لتقوم بعمل



حازم ، فاعلنت النمسا ـ المجر الحرب على صربيا في ٢٨ يوليو . بعد ذلك بيومين ، اعلنت روسيا تعبئة جيوشها ، فردت المانيا على ذلك باعلان الحرب على روسيا في الاول من شهر اغسطس . كانت خطة شليفن ، التي رسمت بقصد تفادي الحرب على جبهتين في آن واحد ، تقضي بأن تقوم المانيا بهجوم سريع شامل عن طريق بلجيكا لسحق فرنسا ، حليفة روسيا ، ولهذا السبب ، اعلنت المانيا الحرب على فرنسا في ٣ اغسطس ، وقامت بغزو بلجيكا في اليوم التالي . نتيجة لهذا ، تدخلت بريطانيا للدفاع عن بلجيكا .

في ٩ سبتمبر ، كانت القوات الالمانية قد تقدمت نحو نهر المارن ، لكن القوات البريطانية والفرنسية استطاعت ايقافها . وفي نهاية شهر اكتوبر ، كان كل فريق

٤

الغواصات

الطرادات

السفن الحربية

الجنود (بالملايين)

الامبراطورية البريطانية

فرنسا

روسيا

المانيا

النمسا ـ المجر

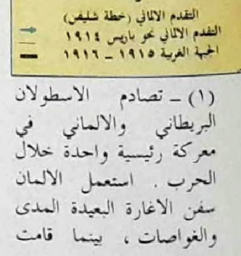
الغواصات: ٦٤ ، ٧٣ ، ٢٩ ، ٢٣ ، ٦

الطرادات: ١٢١ ، ٣٤ ، ١٤ ، ٥٧ ، ١٢

السفن الحربية: ٦٤ ، ٢٨ ، ١٦ ، ٤٠ ، ١٦

الجنود (بالملايين): ١,٢ ، ١,٤ ، ٢,٢ ، ٠,٨

٥



(١) ـ تصادم الاسطولان البريطاني والالماني في معركة رئيسية واحدة خلال الحرب . استعمل الالمان سفن الاغارة البعيدة المدى والغواصات ، بينما قامت السفن الحربية البريطانية بفرض حصار على الموانىء الالمانية .

(٢) ـ كانت الاصابات العسكرية في الدول العظمى فادحة . تحملت فرنسا اكبر دمار وافدح خسارة مدنية وعسكرية . لم يسبق ان قتلت الحروب هذا العدد من الناس في مثل هذا الوقت القصير . قضت الحرب على جيل كامل من الشباب وتركت اوروبا جريحة طوال العشرين عاما التالية .

(٣) ـ معظم القتال جرى في اوروبا ، فكانت ساحات المعارك الرئيسية في شمال فرنسا وبلجيكا وبولندا وروسيا وايطاليا . اما القتال الذي جرى خارج اوروبا ، فكانت ساحاته العراق وشرق المتوسط والمستعمرات الالمانية في افريقيا .

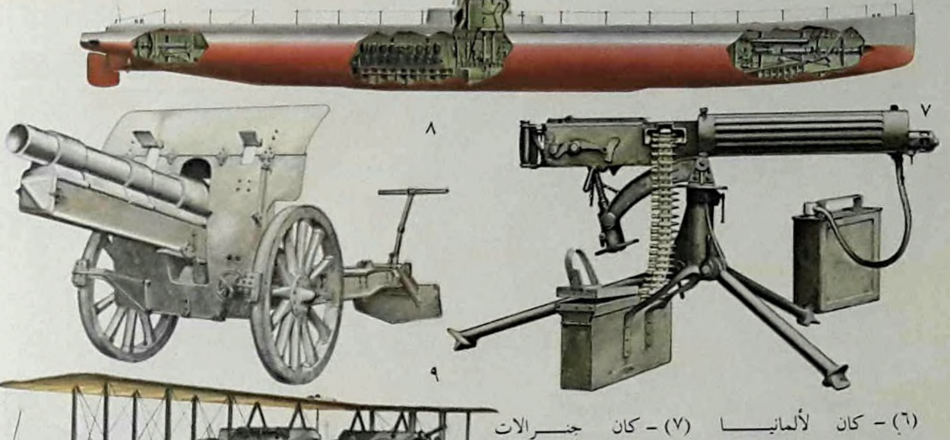
(٤) ـ كانت قوة الفريقين المتحاربين متوازنة ، فما كان ينقص بريطانيا من حيث ضخامة الجيش عوضت عنه في قوة اسطولها البحري . هذا التوازن هو الذي جعل من الحرب العالمية الاولى حرب استنزاف تسببت في خسارة هائلة في الرجال وفي دمار شامل . الارقام المقتبسة هنا هي عن الجيوش الدائمة . اما القوات المدعوة تحت السلاح في التعبئة فكانت كما يلي : بريطانيا ٧١١ ٠٠٠ ، فرنسا ٣,٥ مليون ، روسيا ٤,٤ مليون ، المانيا ٣,٨ مليون ـ ٨,٥ مليون كحد اقصى .

(٥) ـ كانت الجبهة الغربية ساحة القتال الفاصلة في الحرب . ما ان فشلت خطة شليفن لاخراج فرنسا من حلبة القتال ، حتى نشبت هناك اشد المعارك ضراوة ووحشية ، اذ قام الطرفان بدفع الرجال والعتاد بغزارة من اجل تحقيق اختراق رئيسي في الجبهة . اخيرا كان اندفاع الحلفاء ، الذين دعموا بجيوش امريكية ، في هجوم جديد عام ١٩١٨ ، هو الذي اقنع الالمان بأنهم خسروا الحرب حتى قبل وصول الحلفاء اليهم .

يواجه الآخر في خنادق تمتد من القنال الانجليزي الى الحدود السويسرية . اما في الجبهة الشرقية ، فقام الجيش الروسي الضخم ، الضعيف التسليح ، بالتدفق على بروسيا الشرقية حيث حلت به هزيمة ساحقة في ٢٠ اغسطس في معركة تاننبرج .

دخلت تركيا الحرب الى جانب قوى الوسط في اكتوبر سنة ١٩١٤ . بعد هجوم بحري باهظ التكاليف قام به الحلفاء في جاليبولي عند مدخل الدردنيل ، حاول ٧٥ ألف من الاستراليين والنيوزيلانديين والانجليز والفرنسيين فتح جبهة جديدة على الاراضي التركية . فشلت الحملة ، وانقطعت بذلك امدادات الحلفاء عن روسيا .

حول نهاية العام ١٩١٥ ، ادرك الجانبان ان الحرب ستكون طويلة الامد .



(٦) – كان لألمانيا غواصات اكثر عددا من بريطانيا في مستهل الحرب . هذه الغواصة هي من الفئة ٣١ –٣٧ يو . كان طولها ٦٤,٧ م ووزنها ٨٨٠ طنا ، وكانت مجهزة بـ ٢٤ طوربيدا من عيار ٥٠٠ ملم تطلق من اربعة انابيب . لم يكن للهجمات على السفن البريطانية تأثير يذكر خلال العامين ١٩١٥ و ١٩١٦ . لكن بعد ١٩١٧ ، كاد الالمان ان ينجحوا في تجويع بريطانيا وبالتالي اخضاعها .

---

(٧) – كان جنرالات ١٩١٤ قد نشأوا وتدربوا على فكرة الحرب الهجومية المتحركة . ولكن الرشاشات المتوسطة الجديدة من صنع شركة فيكرز البريطانية كان من شأنها ، باصاباتها المميتة في صفوف المشاة غير المحميين ، ان تغيّر هذه الفكرة لديهم . فبعد ان اتمت الجيوش المرهقة حفر الخنادق ، تكفلت المدفعية والرشاشات بجعل حرب الخنادق تستمر . حاول القادة كسر الجمود في الفترة المتبقية من الحرب ، لكن الهجمات الشاملة للمشاة قد اثبتت انها عديمة الجدوى .

---

(٨) – الهاوتزر الالماني عيار ١٥٠ ملم هو نموذج عن المدفعية الثقيلة التي استعملت في محاولة تدمير التحصينات المعادية . استعملت كميات هائلة من المدافع والذخيرة في عمليات القصف الطويلة .

(٩) – الطائرة جوتا ١١١ الالمانية كانت تستعمل للاستكشاف المسلح فوق ارض المعركة ولالقاء القنابل . صنعت لتحل محل مناطيد زبلين في ضرب المدن البريطانية بالقنابل ، ولكنها دخلت الحرب متأخرة ، وبالتالي لم يكن لها اثر هام . بعد ان هاجمت انجلترا انتقلت الى الميدان الفرنسي .

الحرب في البحار

في بداية الحرب ، فرض الاسطول البريطاني حصارا بحريا على الموانىء الالمانية ، معيدا السفن المحايدة الى حيث جاءت (١). رد الالمان على هذا بهجوم الغواصات (٦) ، ولكنهم لم يحرزوا نجاحا كبيرا في السنتين ١٩١٥ و ١٩١٦ ، لان اغراق السفن المحايدة كان محظورا . حصلت مواجهة واحدة بين الاسطولين البريطاني والالماني ، وذلك في معركة جوتلند في ٣١ مايو ١٩١٦ . لم تسفر المعركة عن نتيجة حاسمة ، لكن الاسطول الالماني ظل على اثرها في موانئه حتى نهاية الحرب . خلال عام ١٩١٦ ، سبّب الحصار البحري لالمانيا نقصا حادا في المواد الغذائية ، مما ادى الى قيام اضطرابات ، فشن الالمان في ٣١ يناير ١٩١٧ حرب غواصات دون هوادة اغرقوا فيها سفنا للولايات المتحدة ، فجروها بذلك الى حلبة الحرب .

الهجوم الاخير وانتصار الحلفاء

في الجبهة الغربية ، كان الفرنسيون قد بدأوا سلسلة معارك هجومية ، واذ لم يحققوا اي نجاح ، قامت بعض عناصر الجيش الفرنسي بعصيان في مايو ١٩١٧ ، ولكن تمت السيطرة عليها وضبطها في يونيو تحت قيادة الماريشال هنري بيتان (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) .

استعملت الدبابات في معركة كامبراي في ٢٠ نوفمبر ، ولكن لم تحصل أية متابعة للنجاحات الاولى . كانت ايطاليا قد دخلت الحرب الى جانب الحلفاء في ٢٦ ابريل ١٩١٥ ، وحاربت بشكل غير حاسم ضد النمسا ـ المجر ، الى ان لحقت بها هزيمة ساحقة في كاربوريتو في ٢٤ اكتوبر ١٩١٧ كادت تخرجها من ساحة الحرب .

اما في روسيا ، فقد ادى موقف الجماهير المعادي للحرب الى خلع القيصر في مارس ١٩١٧ . شنت الحكومة المؤقتة هجوما آخر . بعد تعثر ذلك الهجوم ، استولى الحزب الشيوعي (البلشفيك) على الحكم في نوفمبر وسعوا للصلح . اعطت معاهدة برست ليتوفسك في مارس ١٩١٨ المانيا مساحات هائلة في غرب روسيا كغنيمة حرب .

ادرك الالمان ان عليهم ان يتبعوا نجاحهم في الشرق بانتصار في الغرب ، وذلك قبل وصول المدد الامريكي بكل قوته . لذلك شنوا سلسلة من الهجمات تحت قيادة الجنرال اريك لودندورف (١٨٦٥ ـ ١٩٣٧) بين مارس ويوليو ١٩١٨ ، فاستطاعوا بذلك رد الحلفاء الى المارن ، ولكن تم ايقافهم مرة ثانية هناك . وبعد وصول الجيوش الامريكية ، قام الحلفاء بهجوم معاكس اثناء شهر اغسطس ، ثم بهجوم كبير واسع النطاق في ٢٦ سبتمبر اقنع القيادة العليا الالمانية انها خسرت الحرب ، فطلبت الصلح . وفي مطلع نوفمبر ، قامت في المانيا حركات تمرد مناهضة للحرب ومؤيدة للبلشفيك ، فتنازل القيصر عن العرش في ٩ نوفمبر ، ووقعت هدنة في ١١ نوفمبر . كذلك سقطت النمسا ـ المجر في نوفمبر بعد هجوم شنه الحلفاء .

البلاد العربيّة خلال الحرب الأولى

قبل بدء الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، كانت البلاد العربية الافريقية كلها وأطراف المنطقة العربية الآسيوية قد وقعت في قبضة السيطرة الاستعمارية . انجلترا وفرنسا مع ذلك كانتا تطمعان ايضا بالاراضي العربية الباقية بيد العثمانيين ، وخاصة المنطقة الاستراتيجية ما بين الخليج العربي والبحر المتوسط : الشام والعراق . القضية العربية انحصرت خلال تلك الحرب في هذه المنطقة . استطاع «الحلفاء» خداع مشاعر العرب القومية وآمالهم في الاستقلال لوضع ايديهم اخيرا عليها ، رغم ما قدمه العرب لقضية الحلفاء من عون وما أخذوه من وعود .

أ



ب



ت



(١) – في ١٠ يونيو ١٩١٦ أطلق الشريف حسين الرصاصة الاولى من قصره نحو ثكنة الترك في مكة ، معلنا بدء الثورة العربية . قبل ذلك كانت مفاوضات سرية قد تمت بين اللورد كتشنر (معتمد بريطانيا في مصر قبل الحماية) وبين الشريف عبد الله ، ومراسلات اجريت مع السير دينغت حاكم السودان العام بواسطة علي الميرغني ، واتصالات اخرى قام بها الشريف فيصل بنفسه مع الزعماء العرب في دمشق واسطنبول . وكانت آخر الاتصالات هي المراسلات التي تبادلها الحسين مع هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في القاهرة بشأن المساعدات ، وحدود الدولة العربية المقبلة . بعد ثلاثة ايام من اعلان الثورة كانت الحامية التركية في مكة قد استسلمت وتحررت جدة والطائف وينبع . ومع ان حامية المدينة صمدت حتى آخر الحرب ، فقد مشى جيش الثورة بقيادة الشريف فيصل (ب) نحو الوجه (أ) ، ودخل قسم منه العقبة (ت) وقطع الخط الحجازي .

العرب في المرحلة الاولى من الحرب

مع نشوب الحرب (اغسطس ١٩١٤) واشتراك الدولة العثمانية فيها (نوفمبر ١٩١٤)، اصبحت بقاع عديدة من الوطن العربي ارض معركة . اعلنت انجلترا على الفور الحماية على مصر ، بينما كانت حملة انجليزية من الهند تنزل جنوب العراق وتحتل البصرة ، محاولة شق الطريق الى بغداد في وجه مقاومة تركية قاسية .

بالمقابل تحرك الجيش العثماني ـ الالماني للهجوم على القناة بقيادة جمال باشا (فبراير ١٩١٥) . بعد اشهر وباسم الجهاد كان السنوسيون يرهقون القوات البريطانية على حدود مصر الغربية . ثم قام سلطان دارفور (١٩١٦) بانتفاضة ضد الانجليز وبالهجوم على السودان . اما الفرنسيون ، فجندوا مئات الالوف من ابناء المغرب العربي وقودا للمعارك الاوروبية .

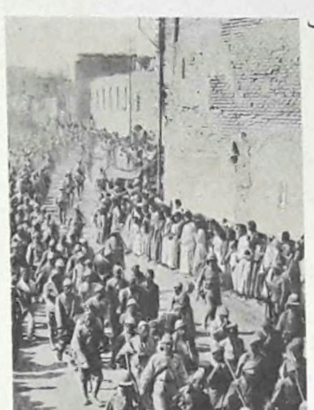
٢



٣ أ



ب



(٢) ـ نقل فيصل مركزه الى العقبة بعد سقوطها في هجوم مفاجىء (يوليو ١٩١٧) . انضمت اليه فيها قوات بدوية كثيرة . لعب ضابط المخابرات البريطاني دوره في كل ذلك . حين دخل اللنبي القدس تحركت قوات الثورة شمالا حتى دخلت دمشق (١ اكتوبر ١٩١٨) . لحقت بها لتدخلها معها فرقة انجليزية من رماة البنغال . ونراها امام الثكنة العسكرية .

(٣) ـ ما كادت تعلن الحرب حتى احتل الانجليز المحمرة بحجة حماية بترولهم الايراني . ثم انزلوا جيشهم الهندي في الفاو (نوفمبر ١٩١٤) ، ووصلوا العمارة (يوليو ١٩١٥) . لكنهم خسروا معركة الكوت امام الهجوم المعاكس ، واضطر قائدهم طاونشند للاستسلام (ابريل ١٩١٦) . النجدات من الهند سمحت لهم بدخول بغداد (أ) وبسوق الاسرى فيها (ب) .

لم تكن جماهير العرب عامة منحازة ضد الدولة العثمانية ، لكن الاتحاديين المسيطرين على الحكم اثاروا كره العرب ونقمتهم بسياستهم الطورانية ، واصطناعهم القمع والارهاب والنفي والاعدام للمتنورين (شهداء ٦ مايو ١٩١٦) (٥). زاد في قسوة هذه الاعمال ما رافقها من تدابير تعسفية ، كمصادرة المحاصيل وقطع الشجر لوقود القاطرات وفرض السخرة . وزاد الامر سوءا تفشي الامراض واستفحال المجاعة في كثير من البقاع .

الثورة العربية

استغل الانجليز هذه الظروف السيئة ليفتحوا على العثمانيين الجبهة الداخلية ، فاتصلوا بالشريف حسين في مكة ، وكانت له مكانته الدينية والقومية ، وقدموا له تعهدات غامضة بضمان استقلال العرب ان

٤



٥أ



ب



LA VERITE

SUR

LA QUESTION SYRIENNE

STANBOUL

1916

٦



(٤) ـ كانت القوات التركية الالمانية التي حشدت في سوريا تأمل في اختراق القناة ١٩١٥ لضرب المواصلات البريطانية ، ولكن الهجوم فشل لتتلقى الهجوم المعاكس بقيادة الجنرال اللنبي (١٨٦١ ـ ١٩٣٦) . مهد الانجليز للهجوم بتحريك الثورة العربية في الحجاز وبالحصار التمويني للشام . فلم تستطع ثلاثة جيوش تركية : السابع (وكان بقيادة مصطفى كمال اتاتورك نفسه) والثامن والرابع ان تقف لقوات اللنبي التي دخلت القدس ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، ووقف اللنبي على جبل الزيتون ينظر المدينة .

(٥) ـ مع مطلع الحرب عين لحكم سوريا وقيادة الجيش الرابع فيها احمد جمال باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢) (أ) أحد الاتحاديين المعروفين بسفك الدماء والمؤامرات ، ومدبر المذابح للارمن . أظهر لاحرار العرب انه مختلف مع حزبه ، فانخدعوا به ، ثم قبض عليهم ، وأعدم بعضهم (شهداء ٦ مايو ١٩١٦) ، ونفى بعضهم الآخر ، وأصدر كتابا بالفرنسية وبالعربية (ب) يتهمهم بالخيانة .

(٦) ـ الكولونيل توماس لورنس (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) أحد ضباط المخابرات البريطانية . كان همزة الوصل مع الثورة العربية التي اعلنها الشريف حسين ، يغذيها بالمال والسلاح . رافق الشريف فيصل ، وكان وراء عدد من الاعمال العسكرية والقرارات السياسية الهامة التي اتخذها. كتب مغامراته في عدة كتب فضح فيها دوره ونفسه . أهمها أعمدة الحكمة السبعة .

وقفوا بجانب الحلفاء. تبادل معهم الرسائل التوضيحية (مراسلات مكماهون)، في الوقت الذي اتجهت فيه انظار المتنورين في الشام والعراق ومصر اليه للتحرك. لم يمض شهر على شهداء الشام حتى اعلن الثورة (١٠ يونيو ١٩١٦). أخذ لقب ملك العرب (اكتوبر ١٩١٦)، فاكتفى الحلفاء بتلقيبه بملك الحجاز. انضم اليه الكثير من ضباط العرب ومن المتطوعين ومن قبائل البدو. امتعض من الثورة عدد من الدوائر الاسلامية في مصر والمغرب العربي وحتى بلاد الشام. لكن العثمانيين فجعوا بها، لانها كانت اوّل تحدّ عسكري عربي لسيادتهم، ولانها فتحت عليهم جبهة غير منتظرة.

امدّ الانجليز جيش الثورة بالسلاح والمال والتنظيم، فاستطاع بعد معارك قاسية ان يخرج العثمانيين من الحجاز كله، بقيادة الامير فيصل بن الحسين (١)، يساعده الضابط الانجليزي لورنس (٦). حين وصلت القوى العربية الى العقبة (يوليو ١٩١٧)، كان الانجليز بالاتفاق مع ايطاليا قد قضوا على الحركة السنوسية (يوليو ١٩١٦)، ثم على سلطنة دارفور (نوفمبر ١٩١٦)، واستطاعوا، بعد هزيمتهم في الكوت (ابريل ١٩١٦)، ان يعاودوا المسير الى بغداد فيدخلوها (٣) (مارس ١٩١٧)، وان يعبروا سيناء الى فلسطين (يناير ١٩١٧). بهذا الشكل صار جيش الثورة العربية هو الجناح الايمن للقوات البريطانية التي تواجه الجيش العثماني في الشام. بعد أن دخل الجنرال اللنبي القدس (٤) (ديسمبر ١٩١٧)، نزلت القوات الفرنسية في الساحل السوري، واخترقت القوات العربية شرقي الاردن الى دمشق (٢) (سبتمبر ١٩١٨). بعد ذلك بشهر أعلن الامير فيصل تأسيس حكومة عربية فيها. المعركة الاخيرة مع القوات العثمانية في مرج دابق في شمال سوريا (اكتوبر ١٩١٨) حررت آخر الاراضي العربية من الاتراك.

اللعبة الاستعمارية

ظن العرب ان انتصاراتهم العسكرية مع وعود الحلفاء تكفي لضمان الاستقلال والوحدة لهم. لكنهم، حتى وهم لا يزالون في العقبة، بدأوا في اكتشاف الخداع الاستعماري. فالثورة الروسية (اكتوبر ١٩١٧) فضحت وثائق الاتفاق الانجليزي - الفرنسي - الروسي لتقاسم المشرق العربي. عرفت تلك الوثائق باتفاقية سايكس بيكو التي تقضي بأن يكون النصف الشمالي من سوريا لفرنسا وباقيها في الجنوب (فلسطين والاردن) مع العراق لبريطانيا.

لم يكن ذلك هو الخداع الوحيد. فقد كانت بريطانيا ايضا قد اصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريحا سريا للحركة الصهيونية باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وعرف ذلك التصريح بوعد بلفور. بذلت الدبلوماسية الانجليزية جهدها للتمويه على ذلك كله اثناء العمليات العسكرية. لكن حين وضعت الحرب اوزارها، اخذت الاطماع الاستعمارية كل ابعادها في التنفيذ.

صلح باريس

افتتح مؤتمر «صلح باريس» رسميا في ١٨ يناير سنة ١٩١٩ ، وقد هيمنت عليه الدول الخمس العظمى المنتصرة في الحرب العالمية الاولى ، وهي الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وايطاليا واليابان ، واستثنيت الدول التي خسرت الحرب وروسيا من المفاوضات .

مطالب متضاربة

كان الوفد الفرنسي ، بقيادة رئيس الوزراء جورج كليمنصو (١٨٤١ - ١٩٢٩) يعاني من عقدة الخطر الالماني الدائم المتمثل في تفوق المانيا في عدد سكانها وامكاناتها الصناعية ، فطالب



(١) - خسائر المانيا ومكاسبها بين ١٩١٩ الى ١٩٣٨ تظهر على هذه الخارطة . حاول المجلس الاعلى تسوية حدود المانيا على اساس القومية . كانت خسائر المانيا في الاراضي ، وخصوصا في شرقها ، سببا لنفور الالمان من المعاهدة . كان انقسام الحلفاء وضعفهم سنة ١٩٣٨ عاملا مكّن هتلر من ضم النمسا الى الرايخ .

بمعاهدة قاسية من شأنها منع المانيا من القيام بأي عدوان على فرنسا في المستقبل . تعارض هذا الهدف الفرنسي مع اهداف رئيس الولايات المتحدة وودرو ولسن (١٨٥٦ - ١٩٢٤) الذي دعا في نقاطه الاربع عشرة (والتي قبلت بشيء من التحفظ من قبل بريطانيا وفرنسا في الرابع من نوفمبر سنة ١٩١٨) الى تسوية سلمية تقوم على حق تقرير المصير الوطني وانشاء عصبة امم .

اما مطالب بريطانيا الاساسية ، فكانت قد لبيت باستسلام الاسطول الالماني ، وباحتلال بريطانيا لاكثر المستعمرات الالمانية ، ومعظم بلدان الشرق الاوسط التي كانت تحت الحكم التركي . قام ولسن بضغط كبير لكي تقوم عصبة الامم بادارة هذه المناطق مباشرة ، الا ان الامبراطورية البريطانية احتفظت بها تحت

٤



(٢) - نشأت دول اوروبا الشرقية الجديدة على حطام امبراطوريات المانيا والنمسا - المجر وروسيا . ومع انها انشئت على اساس تقرير المصير القومي ، الا انها شملت ايضا اقليات من جنسيات غريبة ، مثل الالمان في تشيكوسلوفاكيا . كانت الاقليات مصدر اضطراب دائم بعد العام ١٩١٩ . اقتسمت بريطانيا وفرنسا الشرق الاوسط الذي كان تحت حكم الاتراك العثمانيين ، ولكنهما واجهتا قومية عربية متصاعدة ، كما واجهت بريطانيا معارضة عربية شديدة ضد وعد بلفور في فلسطين .

(٣) - خسرت المانيا جميع مستعمراتها في نهاية الحرب العالمية الاولى . كان وودرو ولسن يأمل ان تدار المستعمرات الالمانية من جانب عصبة الامم مباشرة . عارضت ذلك بريطانيا واليابان ، اللتان كانتا قد احتلتا هذه المستعمرات . تمّ الاتفاق اخيرا على حل وسط يقوم على انشاء نظام انتداب من نوع «أ» و «ب» و «ج» . كان الانتداب من نوع «ج» لا يختلف كثيرا عن الضم . وهكذا اخفقت مثالية ولسن مرة اخرى بسبب الدول الاخرى .

(٤) - كان ما دفعته المانيا كتعويضات عائقا رئيسيا بوجه اعادة بناء اقتصادها ، كما انه اضعف اقتصاد اوروبا كلها في العشرينات . لكن بعد هجوم فرنسا على الرور والتضخم المالي الهائل في المانيا عام ١٩٢٣ ، نشأت القناعة بالحاجة الى اقتصاد الماني قوي ، مما ادى الى استثمارات متزايدة ، لاسيما من جانب الولايات المتحدة . لكن قسما كبيرا من هذه الاستثمارات صرف على المباني العامة .

(٥) - اراد وودرو ولسن ان تكون عصبة الامم اساسا لنظام عالمي جديد يسوده السلام . لكن رفض الولايات المتحدة الانضمام اليها عام ١٩٢٠ واستثناء كل من المانيا وروسيا السوفيتية منها (لغاية ١٩٣٤) قلل من نفوذها وهيبتها . بعد قبول المانيا فيها سنة ١٩٢٦ ، صارت ناجحة نوعا ما ، الى ان اخفقت في منع اليابانيين من احتلال منشوريا عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ وفي منع ايطاليا من احتلال الحبشة عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ .

نظام انتداب معقد صادر عن عصبة الامم (٣) . وهكذا كان رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج في وضع يمكنه من الوساطة بين الفرنسيين والامريكيين .

طالبت ايطاليا بتلبية مطالبها التي نصت عليها معاهدة لندن سنة ١٩١٥ والمتعلقة بالتيرول وتريستا ، وجزء كبير من ساحل دلماتيا المأهول بالسلافيين بما في ذلك فيومي . لم يتمكن الوفد الايطالي من اقناع ولسن بالموافقة على مطالبته بمدينة فيومي ، فاعطيت ليوغسلافيا ، بينما اخذت ايطاليا تريستا والتيرول (٦) .

حصلت اليابان على الممتلكات الالمانية في شانتونج الصينية التي كانت قد وعدت بها في اتفاق سنة ١٩١٧ .

تنازلات عن مبادىء ولسن

كان لانتصار الحزب الجمهوري في



٧

٨

(٦) – كان اختتام اعمال مؤتمر السلام ضروريا لفسح المجال لاعادة بناء اوروبا . مع ان معظم الشعوب والحكومات حضرت المؤتمر ، الا ان بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة كانت هي المسيطرة عليه .

(٧) – وقعت اتفاقية الهدنة في ١١ اكتوبر ١٩١٨ في مقر قيادة الجيش الفرنسي في غابة كومبيين . وقع الماريشال فوش بالنيابة عن الحلفاء . ضمنت المعاهدة احلاء المانيا للاراضي التي استولت عليها وايقاف جميع العمليات الحربية .

(٨) – تشكيلات من القوات البريطانية وهي تمشي للاحتفال بمناسبة توقيع معاهدة فرساي .

انتخابات الكونجرس الامريكية في شهر نوفمبر اثره في اضعاف مكانة ولسن ، فاضطر للتنازل عن بعض نقاطه الاربع عشرة ليتمكن من جذب بعض القادة الآخرين الى فريقه في ميثاق عصبة الامم . على كل حال ، رفض هو ولويد جورج قبول المطلب الفرنسي في اقامة دولة فاصلة في اراضي الراين تحت حكم عسكري فرنسي ، لان هذا سيكون خرقا واضحا لمبدأ حق تقرير المصير الوطني ، كما انه ، في نظر لويد جورج ، سيؤدي على الارجح الى نقمة المانيا لامد بعيد . قبل الفرنسيون بحل وسط في ١٤ ابريل يقضي بأن يحتل الحلفاء اراضي الراين المجردة من السلاح ومواقع الجسور على الراين لخمسة عشر عاما ، مع تعهد بريطاني – امريكي في حماية فرنسا من اي اعتداء الماني . كذلك حصل الفرنسيون على اذن باستغلال مناجم الفحم الحجري الغنية في منطقة السار .

ورغم معارضة ولسن الشديدة ايضا ، طالبت فرنسا بتعويضات ضخمة من المانيا ، وذلك كتعويض ليس عما الحقته المانيا بها من دمار كبير اثناء الحرب وحسب ، بل كوسيلة ايضا لاضعاف المانيا اقتصاديا (٤) . في نهاية مارس ، اصبح لويد جورج قلقا من مطالب الحلفاء المتزايدة الشدة من المانيا ، لانه خاف ان تؤدي تلك المطالب الى عرقلة نهوض المانيا اقتصاديا وتحويلها بالتالي الى دولة شيوعية .

اخيرا تم التوصل الى حل وسط يقضي بأن تقوم لجنة مشتركة من الحلفاء في سنة ١٩٢١ بتحديد مجموع التعويضات المستحقة على المانيا ، على ان تعترف المانيا في هذه الاثناء بمسؤوليتها في نشوء الحرب . كذلك فرض الحلفاء على المانيا قدرا كبيرا من تدابير نزع السلاح في البر والبحر والجو .

التنازلات النهائية

لم يتمكن القادة الثلاثة من الاتفاق على تسوية بخصوص حدود المانيا الشرقية . فقد أيدت فرنسا اعطاء الدول الاوروبية الشرقية الناشئة حديثا ، ولاسيما بولندا ، مساحات كبيرة من اراضي المانيا . وبعد جهد كبير ، تمكن لويد جورج ان يقلل من مكاسب بولندا ، بتشديده على ان يكون ميناء دانزيج حرا تحت اشراف عصبة الامم ، وان يصار الى تقليص الممر البولندي ، وان يجري استفتاء عام في سيليزيا العليا . احتفظت تشيكوسلوفاكيا بأرض السوديت الالمانية . اما النمسا ، فبعد ان جردت من امبراطوريتها ، منعت من الاتحاد مع المانيا . وفي سنة ١٩٢٠ ، تخلت المجر لجيرانها عن كل الاراضي التي يسكنها غير المجريين ، وفرض على تركيا صلح قاس (٢) جرّدها خاصة من جميع الاراضي العربية لمصلحة انجلترا وفرنسا وايطاليا .

اخيرا قدم الحلفاء في ٧ مايو مسودة المعاهدة الى المانيا وامهلوها خمسة عشر يوما لتأتي باقتراحات مقابلة ، لكن مصير معظم هذه كان الرفض . بعد تأخيرات عدة ، وقعت المانيا المعاهدة في فرساي في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ .

مؤتمر السِّلم والوطن العربي

رغم ما نثر الحلفاء من الوعود والاحلام للعرب خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد انتهت هذه الحرب (١٩١٨/١١/١١) والأجزاء العربية من افريقيا (من مصر والسودان حتى المغرب الأقصى) باقية تحت الاحتلال الأوروبي . أما في آسيا العربية ، فقد احتلت بريطانيا ، بالاضافة الى ما كانت تحتله من أطراف الجزيرة الجنوبية والشرقية ، فلسطين والعراق ، واحتلت فرنسا الساحل السوري مع لبنان . صحيح أن الأمير فيصل ، قائد الثورة العربية ، أقام حكومة عربية مستقلة في سوريا الداخلية مركزها دمشق ، لكنها كانت عمليا تحت اشراف اللنبي القائد

١



(١) – أخذت اتفاقية سايكس – بيكو اسمها من اسمي ممثلي انجلترا وفرنسا اللذين وضعاها سرا (مايو ١٩١٦) ، ودخلا بذلك في تاريخ المنطقة الاستعماري . بقيت سرية حتى فضحتها الثورة الشيوعية ١٩١٧ ، وبعثها جمال باشا مع رسول خاص الى الشريف فيصل ، وهو مع جيش الثورة العربية في العقبة . استفسر الحسين من انجلترا عن الأمر فابرقت (٨ فبراير ١٩١٨) تؤكد مساعدتها للعرب في النضال للحرية ، وان الاتفاقية لا تنقض الوعود المقطوعة ، مع أنها وضعت في الواقع الخطوط الاولى لما سوف يكون دول المنطقة . قسمت الهلال الخصيب مع كيليليا منطقتين : زرقاء لفرنسا وحمراء لبريطانيا . وتصبح فلسطين دولية (ارضاء لروسيا) ، على ان يبقى مرفآ حيفا وعكا لبريطانيا . المناطق الداخلية قسمت الى منطقتين : أ و ب . لفرنسا المقام الممتاز في (أ) ، ولانجلترا المقام نفسه في (ب) ويعني ذلك حق الانفراد في المشاريع الاقتصادية ، وتقديم المستشارين .

(٢) – رجال الدولة الذين لعبوا الدور الرئيسي في مؤتمر الصلح (فرساي ١٩١٩) كانوا ثلاثة : ويلسون رئيس الولايات المتحدة ، ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، وجورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا . ويرون وسط قاعة المؤتمر .

(٣) – ما كاد مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ يقرر الانتداب حتى ثارت فلسطين فورا ، ورفضته . لكن انجلترا سارعت بارسال مندوب سام صهيوني الى فلسطين هو هربرت صموئيل لتطبيق الانتداب، وتنفيذ وعد بلفور .

العام لقوات الحلفاء .

لم يبق من بلاد العرب خارج القبضة الاستعمارية سوى الحجاز ، وفيه الملك الحسين الذي كان يحلم حسب الوعود التي اعطيت له بأن تكون دولته نواة الدولة العربية الكبرى المستقلة ، وبقي اليمن الذي استردته امامة الزيدية من العثمانيين ، والامارة السعودية في نجد مع امتدادها في الاحساء وعسير .

مؤتمر السلم والقضية العربية

انتظر العرب ، كسائر الشعوب الصغيرة ، ان يطبق مؤتمر السلم (افتتح رسميا في باريس في يناير ١٩١٩) مبادىء ويلسون (٥) في تقرير المصير ، خاصة وان تصريحات الحلفاء خلال الحرب كانت تعد بمكافأتهم على أسهامهم فيها . لكن جميع المناطق العربية المحتلة قبل الحرب كانت خارج نطاق البحث ، رغم

٢



٣



٤



٥



(٤) ـ الملك فيصل (الطائف ـ جنيف ١٩٣٣) بدأ قائدا للثورة العربية ١٩١٦ ، ثم اميرا وملكا على سوريا (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ، ثم ملكا على العراق بالاتفاق مع البريطانيين (٢١-١٩٣٣) .

(٥) ـ أعطى الرئيس الامريكي ودرو ويلسون (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) بمبادئه الـ ١٤ التغطية المثالية لاطماع وتسويات مؤتمر الصلح ١٩١٩ .

الوفود الوطنية التي وصلت باريس من مصر وتونس والجزائر والمغرب . المنطقة الوحيدة التي كانت موضع بحث ، وبهدف الاستعمار لا الاستقلال ، هي منطقة الهلال الخصيب التي احتلت خلال الحرب . ولهذا كانت موضع التآمر والشحناء والتسويات بين قطبي المؤتمر : لويد جورج وكليمنصو (٢) .

تمسك الطرفان وخاصة فرنسا باتفاقية سايكس بيكو (١) ، وتمسكت بريطانيا بوعد بلفور (٦) ، وحاولت التملص من جميع تعهدات الحلفاء السابقة . سمح للأمير فيصل ان يتحدث (فبراير ١٩١٩) امام مجلس العشرة (الذي يشرف على المؤتمر) بوصفه ممثلا لملك الحجاز فقط . ولم يأبه أحد للمذكرات التي قدمها ، ولا لتقرير لجنة التحقيق الأمريكية (أغسطس ١٩١٩) الذي القي به جانبا لأنه

٦

فلسطين

La Palestine

Prop. and Responsible Editor

Jaffa, March 25th, 1925 — Wednesday

A Special Edition in English issued on the occasion of the visit to Palestine of LORD BALFOUR, the statesman with whose name is associated the Declaration which to the Arabs signifies the death knell of all the hopes they cherished when the victorious British Armies entered their country in 1918

(٦) – زار اللورد بلفور صاحب الوعد المعروف عددا من بلاد المشرق العربي ١٩٢٢ و ١٩٢٥ ، ولقي المظاهرات ضده والاستياء في كل مكان . أصدرت جريدة فلسطين في يافا عددا خاصا بالانجليزية حين زار فلسطين (٢٥ مارس ١٩٢٥) .

٧



(٧) – وصول مصطفى كمال اتاتورك (١٨٨١ – ١٩٣٨) الى الحكم في تركيا ١٩٢٠ قطع جميع صلاتها بالبلاد العربية ، وبخاصة بعد العلمانية وترك الكتابة العربية والغاء الخلافة .

٨



(٨) – في معركة ميسلون (٢٤ تموز ١٩٢٠) التي وقفت فيها سوريا للاحتلال الفرنسي قتل قائد المعركة وزير الحربية يومذاك يوسف بن ابراهيم العظمه (١٨٨٤ – ١٩٢٠) . ولد وتعلم بدمشق ، وتخرج من المدرسة الحربية في الأستانة (١٩٠٦) ، وبعد ان تنقل في الاعمال العسكرية في الشام ارسل للتخصص في المانيا سنتين . عمل خلال الحرب العالمية الاولى رئيسا لاركان حرب بعض الفرق في بلغاريا وغاليسيا ورومانيا والقفقاس . اختاره فيصل بعد اعلان الملكية في سوريا (١٩٢٠) وزيرا .

أكد تمسك البلاد بطلب الاستقلال .

فشلت القضية العربية ، وفشل فيصل (٤) أمام المؤتمر في ضمان الحد الأدنى من الحكم الذاتي في سوريا . فقد أبلغه لويد جورج (سبتمبر ١٩١٩) اتفاقية مؤقتة مع كليمنصو بتوسيع منطقة الاحتلال الفرنسي الى سوريا الشمالية . وتغطية لهذا الاتفاق ، ابتكر مؤتمر السلم مبدأ الانتداب ، أي وضع بعض الشعوب المغلوبة (بحجة تأهيلها للاستقلال) في عهدة بعض الدول تحت اشراف عصبة الأمم (المنظمة المرتقبة لاقرار السلم العالمي) . كان هذا القرار أساسا للمادة ٢٢ من ميثاق العصبة بفرض الانتداب على بعض البلدان العربية .

الموقف العربي

دعت الحركة الوطنية في سوريا لانتخاب مؤتمر سوري عام (مطلع يونيو ١٩١٩) واجتمع ممثلو البلاد من فلسطين وسوريا الداخلية والشمالية فأكدوا الاستقلال التام لسوريا ضمن وحدة عربية مستقلة ، ورفض اتفاقات التجزئة وتصريح بلفور وفكرة الانتداب بينما كان مؤتمر السلم يقرر ما يشاء . واستدعي الأمير فيصل الى لندن لابلاغه قرارات المؤتمر . لم يفده الاحتجاج والتذكير بالعهود والمبادىء ، فاضطر الى قبول عدد من التنازلات (يناير ١٩٢٠) ، منها قبول الانتداب الفرنسي على لبنان وافضلية فرنسا في ارسال الخبراء والمستشارين لسوريا . لكن هذه التنازلات رفضت بعنف من جانب المؤتمر السوري الذي أراد وضع الحلفاء والاستعمار أمام الأمر الواقع ، فأعلن (٨ مارس ١٩٢٠) استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ، وتتويج فيصل ملكا دستوريا عليها ، وتأكيد استقلال العراق ، ورفض الانتداب . رفضت فرنسا وانجلترا الاعتراف بالمملكة الناشئة بحجة أن مصير أراضي الدولة العثمانية لم يقرر بعد .

مؤتمر سان ريمو وتوطيد الاحتلال

عقد الحلفاء مجلسهم الثاني في سان ريمو (ايطاليا — ابريل ١٩٢٠) لوضع مشروع المعاهدة مع تركيا . فقرروا فرض الانتداب من الفئة (أ) على البلاد العربية المقتطعة منها . فأعطيت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان ، وبريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين وشرقي الاردن .

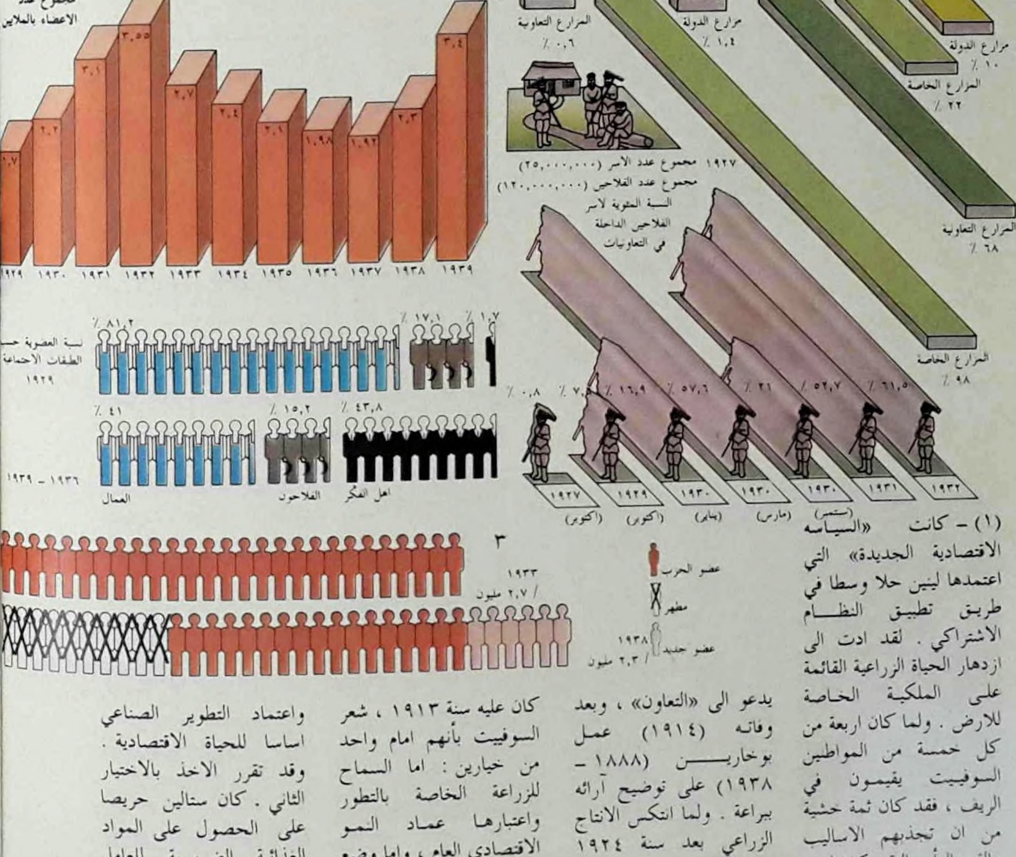
اشترط حلفاء سان ريمو ، للاعتراف بملكية فيصل ، أن يعترف بالانتداب ، وبفصل موضوع فلسطين لالتزام بريطانيا بوعد بلفور . ومع انه كان مستعدا للتساهل ، فان العلاقات بين حكومة دمشق والقوى الفرنسية المحتلة في لبنان بقيادة الجنرال غورو تأزمت . واذ لم يستطع فيصل في سان ريمو ان يأخذ الموافقة على لجنة تحكيم دولي ، فانه لم يستطع أن يوفق في دمشق بين الطموحات الوطنية وبين المطالب الفرنسية المتزايدة للتدخل في البلاد . وبينما اكتفت بريطانيا باخماد التحركات الثورية في جنوب العراق ، والحركات الشعبية في فلسطين لتوطيد احتلالها ، تحركت القوى الفرنسية ، بعد انذار مهين ، ضد دمشق ، فدخلتها (معركة ميسلون ٢٤ يوليو ١٩٢٠) (٨) .

روسيا من الثورة البلشفية الى الحرب العالمية الثانية

دخلت روسيا الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) دون ان يكون لجيشها من القوة ما يقابل جيش المانيا القيصرية . وقد كان البولشفيك ، الذين استلموا الحكم اثناء الحرب ، يقاومون فكرة الحرب بعنف ، وكان قائد البلاشفة فلاديمير لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) يرى في انكسار روسيا عسكريا الفرصة المناسبة لتحقيق الاهداف الثوروية .

الحرب والثورة

لقي الجيش الروسي انكسارا كبيرا على يد الجيش الالماني في معركة تاننبرج ، وتكشفت ابعاد الضعف والفوضى في ادارة



(١) - كانت «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي اعتمدها لينين حلا وسطا في طريق تطبيق النظام الاشتراكي . لقد ادت الى ازدهار الحياة الزراعية القائمة على الملكية الخاصة للارض . ولما كان اربعة من كل خمسة من المواطنين السوفييت يقيمون في الريف ، فقد كان ثمة خشية من ان تجذبهم الاساليب والقيم الرأسمالية . كان لينين يدعو الى «التعاون» ، وبعد وفاته (١٩١٤) عمل بوخارين (١٨٨٨ - ١٩٣٨) على توضيح آرائه ببراعة . ولما انتكس الانتاج الزراعي بعد سنة ١٩٢٤ وعاد الى المستوى الذي كان عليه سنة ١٩١٣ ، شعر السوفييت بأنهم امام واحد من خيارين : اما السماح للزراعة الخاصة بالتطور واعتبارها عماد النمو الاقتصادي العام ، واما وضع الزراعة تحت نظام اشتراكي واعتماد التطوير الصناعي اساسا للحياة الاقتصادية . وقد تقرر الاخذ بالاختيار الثاني . كان ستالين حريصا على الحصول على المواد الغذائية الضرورية للعامل المقيم في المدينة .

البلاد اثناء الحرب وقامت ثورة مارس ١٩١٧ (بحسب الحساب القديم مؤرخة في فبراير من السنة ذاتها) ، فنقلت السلطة من القيصر نيقولا الثاني (١٨٦٨ - ١٩١٨) الى ايدي حكومة مؤقتة . لكن هذه الحكومة المؤقتة الاولى (فقد جاءت بعدها ثلاث حكومات مؤقتة) عجزت عن انهاء الحرب . اذ ان المشكلة التي واجهت المسؤولين كانت الارتباط بين توزيع الارض وتسريح الجنود . فاذا وزعت الارض على الجنود (وهم اصلا فلاحون في الغالب) ، ترك الجنود القتال واستقروا في الارض . اما اذا انسحبت روسيا من الحرب وخرج الجنود من صفوف القتال ، فانهم يستولون على الارض دون ان يتمّ توزيعها . وقد انشئت في ذلك الوقت في كل من بتروجراد (لينينجراد اليوم) وموسكو مجالس

٥



٤

(٢) -لقد تبدل تركيب العضوية في الحزب الشيوعي كثيرا بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٩ . ففي سنة ١٩٢٩ كان اربعة اخماس الاعضاء من العمال ، فهبطت النسبة الى خُمْسَين سنة ١٩٣٩ . وقد عوض عن ذلك بقبول انضمام جماعي للمتعلمين واهل الفكر يمكن رده الى سببين : الاول هو الحملة التي كانت تنادي باختيار افضل الاشخاص للحزب ، والثاني هو ان «البطاقة» الحزبية اصبحت لازمة للوصول الى عدد من المناصب الهامة في الصناعة وفي الادارة . اما نسبة الاعضاء من الفلاحين ، فقد ظلت على حالها تقريبا . يعكس هذا التبدل الدرامي في العضوية تلك السياسة التي اقدمت على التطهير بين ١٩٣٣ و ١٩٣٨ ، كما يعكس آثار ذلك التطهير ايضا .

(٣) - كان التطهير الحزبي (في ثلاثينات القرن الحالي) يتمثل فيه عمليات مختلفة ، تجمعت وبلغت ذروتها في عملية يزفشينا (نسبة الى يزوف الذي كان برأس الشؤون الداخلية) في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ . جرى اول تطهير قام به الحزب في يناير سنة ١٩٣٣ . وفي سنة ١٩٣٥ صدر امر بالتحقيق في الوثائق الحزبية . وقد طرد ، نتيجة لذلك ، ما يعادل عضو واحد من كل خمسة اعضاء ، بما في ذلك الذين انضموا حديثا من العمال والفلاحين . وقد كان نحو ٩ ٪ من الاعضاء قد اخرجوا قبل ان تبدأ «المحاكمات الصورية» التي كانت مدخلا للتطهير الكبير المدمّر (١٩٣٦ - ١٩٣٨) الذي ذهب ضحيته الملايين من اعضاء الحزب والسكان على السواء .

(٤) - في ١٥ آذار (مارس) ١٩١٧ اقنع القيصر نيقولا الثاني بالتنازل عن العرش (وهو يظهر في الصورة مع اسرته) ، فقامت الحكومة المؤقتة الاولى في بتروجراد (لينينجراد اليوم) .

(٥) - كان اجتياح المجاعة لمنطقة الفولجا في شتاء ١٩٢١ - ١٩٢٢ سببا في القضاء على نحو خمسة ملايين نسمة ، وقد جاءت هذه المصيبة لتكمل تدهور الاقتصاد الروسي سنة ١٩٢١ ، بعد ان كان «الجيش الابيض» قد انكسر والحلفاء قد انسحبوا في اواخر سنة ١٩٢٠ .

ديمقراطية (سمي كل منها سوفييت = مجلس) ، ثم ظهر مثلها في جبهات مختلفة من البلاد . كانت الحكومات المؤقتة تتعرض لمقاومة عنيفة من لينين والبلاشفة . وقد هرب لينين الى فنلاندا بسبب اتهامه بأنه تلقى عونا ماليا من المانيا . وتولى كيرنسكي (١٨٨١ – ١٩٧٠) رئاسة الوزراء ، وحاول اعادة النظام الى العاصمة . الا ان ليون تروتسكي (١٨٧٩ – ١٩٤٠) نظم جماعة ثورية ، فعاد آنئذ لينين الى روسيا ، وفي اكتوبر ١٩١٧ ، قام مع البلاشفة بالثورة التي تولت السلطة . الا ان حكومته لقيت معارضة واسعة النطاق في البلاد (لم يكن عدد البلاشفة قد بلغ ٣٠٠ ٠٠٠ بعيد الثورة بقليل) . ومع ان المانيا عقدت مع روسيا معاهدة برست ليتوفسك في مارس ١٩١٨ ، فقد قامت ، في صيف العام

٦



٧



٨



٩

(٦) – على اثر نوبة قلبية اصابت لينين (١٨٧٠ – ١٩٢٤) سنة ١٩٢٢ ، توفي هذا القائد العظيم سنة ١٩٢٤ ، فقام حكم ثلاثي في روسيا كان اعضاؤه زينوفييف (١٨٨٣ – ١٩٣٦) وكامينيف (١٨٨٣ – ١٩٣٦) وستالين . كانت مهمة هذه الثلاثية (ترويكا) الاستمرار في قيادة الحركة الشيوعية . كان لينين لا يثق بستالين ، وكان تروتسكي ينافس ستالين على وراثة لينين في الحكم . الا ان ستالين ، بسبب سيطرته على آلة الحزب ، ولمقدرته في ضرب التحزبات واحدها بالآخر ، تمكن من عزل تروتسكي (وقد تمّ ذلك في سنة ١٩٢٥) وسار نحو السيطرة الشخصية والدكتاتورية المطلقة .

(٧) – استولى البلاشفة على القصر الشتوي في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ . كان لينين قد عاد خلسة الى بتروجراد ليقود الحركة البلشفية للقضاء على الحكومة المؤقتة ، التي كان سقوطها متوقعا بسبب ازدياد الاضطراب . تم الاستيلاء على القصر الشتوي بدون قتال تقريبا .

(٨) – كان تروتسكي (١٨٧٩ – ١٩٤٠) منظرا بارزا ، لكنه كان سياسيا ضعيفا ، وكانت الامور الادارية التفصيلية تضايقه . ومع انه كان من المنتظر ان يخلف لينين ، فانه لم يحذق فن الدجل السياسي ففشل .

(٩) – لعب اسكندر كيرنسكي (١٨٨١ – ١٩٧٠) دورا بارزا في تخطيط سياسة الحكومات المؤقتة في سنة ١٩١٧ . فقد كان وزيرا في الحكومتين المؤقتتين الاولى والثانية ، ورئيسا للوزراء منذ يوليو .

ذاته ، حرب اهلية بين «الحمر» (البلاشفة) و«البيض» (خصوم الشيوعيين) . وتدخل الحلفاء في خريف تلك السنة ، واخذوا يساعدون «البيض» . وفي سنة ١٩١٨ اعدم البلاشفة القيصر السجين مع عائلته . وقد دامت الحرب الاهلية الى اواخر سنة ١٩٢٠ ، وتكشفت عن انتصار الجيش الاحمر والحزب الشيوعي .

روسيا الجديدة وزعامتها

خلال سبع سنوات من الحرب والثورة والاقتتال الاهلي ، عانت روسيا الامرّين في اقتصادها وحياتها العامة . لذلك تبنّى لينين (١٩٢١) سياسة اقتصادية جديدة تقوم على وضع قمم الاقتصاد الشاهقة تحت سلطة الدولة ، فيما تترك الارض عموما ملكا خاصا للفلاحين ، الذين كانوا نحو ٨٠ ٪ من السكان . تحسن الوضع الاقتصادي بسبب هذه السياسة الجديدة .

كانت روسيا قد خسرت ، بسبب الحرب ، فنلاندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وقسما من اوكرانيا وبسارابيا . لكن انسحاب بريطانيا من القفقاس (ديسمبر ١٩١٩) اتاح الفرصة للبلاشفة للدخول الى تلك المنطقة (تم ذلك على يد الجيش الاحمر في ابريل ١٩٢١) .

كان لينين يعرف اهمية توطيد دعائم الثورة ، وقد قام ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) باعداد السبيل لذلك : فقد اقر العنف الثوري الذي كانت التشيكا تلجأ اليه ، ووسع سيطرة الحزب في شؤون الدولة . وكان يرى ان على جميع الاحزاب الشيوعية الاجنبية ان تكون تابعة للمصالح السوفييتية (عن طريق الشيوعية الدولية : الكومنترن) .

ولجأ الى محاكمات شكلية لمن اعتبرهم اعداء للثورة . جاءت اولى هذه المحاكمات في سنة ١٩٢٢ ، وكانت موجهة ضد الثوريين الاشتراكيين .

ومع ان لينين وستالين كانا يعملان معا ، فثمة فروق رئيسية بين الرجلين . كان لينين رجل فكر ممتاز ، اما ستالين فقد كان بعيدا عن الفكر ، ولم يكن يستطيع مناقشة خصومه مواجهة . لكن ستالين ادخل عنصرين جديدين في الحياة الاقتصادية ، هما التعاونيات الزراعية والصناعات الثقيلة . بموجب انشاء التعاونيات ، خسر الفلاحون ملكيتهم للارض والمواشي وجعلوا جميعا تحت سلطة الدولة التامة . اما الصناعات الثقيلة ، فقد تقدمت في عهده ، وانصب الاهتمام الاول على الصناعات العسكرية .

روسيا والحرب العالمية الثانية

كان ستالين بحاجة الى وقت طويل ليتقن لعبة السياسة الخارجية : فقد اعان هتلر على انتزاع السلطة من خصومه في المانيا ، ثم رأى الخطر فيه ، فاعان الجبهة الشعبية (فرنسا في ايام بلوم) ، ثم وضع ثقته ثانية في المانيا النازية ، الامر الذي كاد ان يفقده الجيش الروسي لما هاجمت المانيا روسيا سنة ١٩٤١ . لكنه استعاد صوابه في آخر الامر ونجح في حمل الجيش الروسي على الصمود . وقد كان له في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) اثر كبير .

نشأة الفيلم

بدأت الصور المتحركة كبدعة تقنية مبنية على عجز النظر عن ملاحظات الثغرات القائمة بين الصور المتتالية في سلسلة من الصور المتحركة بسرعة . لم يخطر لأحد في البدء ان هذه الظاهرة البسيطة ستصبح أساسا لأهم وسائل الاتصال والترفيه والفن في القرن العشرين .

الحركة الوهمية

لا شك ان مسرحيات «خيال الظل» الاسيوية ، وحفلات الفانوس السحري الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والآلات الشبيهة بالبراكسينو سكوب لاميل رينو الذي كان يبث صورا

١



٣



٢





٤



من طارة تدور ، كانت اساليب باكرة لتوليد الحركة الوهمية على الشاشة بواسطة انارة الخلفية والتكبير . اما في العصر الحديث ، فبعد تسجيل بكرة فيلم ايستمان سنة ١٨٩١ ، اصبح من السهل على د.ك. ديكسون ، المنتمي الى مختبر اديسون ، ان يصوّر على فيلم مثقب مشاهد استعراضية بمعدل ٤٦ صورة في الثانية وان يعيد استعراضها عكسيا على آلة للعرض الخاطف اسمها كينتوسكوب . ثم قام لويس لوميير (١٨٦٤ - ١٩٤٨) وأخوه أوغست (١٨٦٢ - ١٩٥٤) بدمج هذه الطريقة بتقنات الفانوس السحري ، فتوصلا بذلك الى عرض اول مشهد سينمائي في باريس في ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥ .

في غضون السنوات الخمس التالية ، اكتشفت جميع التقنات الضرورية للعرض

٥

(١) - احدثت احدى ملصقات جورج ميلياس عن فيلمه سنة ١٩٠١ «الرجل ذو الرأس المصنوع من مطاط» درجة من الاغتباط بالتجديد والسحر حملت ميلياس على ابتكار عدد كبير من الحيل السينمائية . كان ميلياس صاحب مسرح ، فنظر الى الفيلم كوسيلة جديدة عجيبة من وسائل الايهام كنفخ رأس الى درجة الانفجار مثلا . كان يتمتع ايضا بمواهب فذة في ميدان التخيل والكوميديا ، بدت على افضل وجه في فيلمه «رحلة الى القمر» .

(٢) - خلق تقابل الصور في فيلم أدوين بورتر «سلب القطار الشهير» حسا بالحركة والسرعة حول تقنية الافلام تحويلا كبيرا ، وحمل الكثيرين على تقليده في محاولات عديدة . كان ينتقل من مشاهد خارجية للصوص فارين بغنيمتهم (الى اعلى) الى مشاهد داخلية تصور مثلا عامل التلغراف ، بعد اطلاق سراحه ، يندفع الى داخل قاعة رقص لانذار المواطنين العاديين ، والسير على رأس حملة مطاردة (الى اسفل) . كانت الحرية التي كان بها يحرك بورتر الكاميرا ويدمج الصور الفردية المنفصلة في صلب الموضوع كبيرة لدرجة انها كانت تدهش المشاهدين الذين كانوا الفوا فقط تتبع الاحداث المتتالية داخل مشهد ثابت .

(٣) - كان دافيد وارك جريفيث (في الوسط) سيد الافلام الصامتة دون منازع سنة ١٩١٩ ، حينما اخذت له هذه الصورة مع اثنين من نجوم تلك الحقبة كانا يتقاضيان اعلى الاجور ، هما ماري بيكفورد ودوجلاس فيربانكس . ففي «ولادة امة» و «التسامح» ، استغل جريفيث موارد السينما على نطاق واسع وبزخم عاطفي ، مما اثر تأثيرا عميقا في سواه من المديرين . ومع انه لجأ الى التجارب بكثرة وبجرأة ، فقد كانت اعظم خصائصه تلك المقدرة التعبيرية التي كان يعرف بها كيف يسرد القصة على الشاشة .

(٤) - كان اول فيلم ملحمي اصيل هو «كابيريا» (١٩١٤) ، الذي كان يعرض لمدة اربع ساعات مستخدما موارد سينمائية ضخمة لاستعادة روعة روما القديمة . جاء تتويجا لذلك الاهتمام الذي اولته السينما الايطالية للمواضيع التاريخية قبل الحرب ، والذي كان من نتاجه فيلم «الى اين ؟» في تسع بكرات ، وهو الفيلم الذي اقنع المنتجين الامريكيين بأن الجمهور يحب الافلام الطويلة الدائرة حول موضوع رئيسي اكثر من الافلام القصيرة المؤلفة من بكرة او بكرتين . من الحق القول ان مدير «كابيريا» ، جيوفاني باستروني ، قد اعطى العالم فيلما صامتا من الدرجة الاولى .

(٥) - كان المتسول الصغير الكئيب الحال في «اضواء المدينة» لشارلي تشابلن اول شخصية خالدة على الشاشة . بدأ تشابلن سنة ١٩١٣ ، فهز الملايين بفضل براعته الفنية الخارقة .

المزدوج ، وللحركة السريعة والبطيئة للعرض المعكوس ، وللانحسار والذوبان والمواجهة . اكتشف عددا من هذه التقنات جورج ميلياس (١٨٦١ ـ ١٩٣٨) الذي سطا عليه سحر الافلام حينما كان يصوّر مشهدا في احد الشوارع وتعطلت آلة تصويره في الدقيقة ذاتها التي كانت فيها حافلة تصدم عربة موتى . سار ميلياس على قاعدة التصوير من نقطة ثابتة ، فابتكر بذلك تخيلات سينمائية قريبة من حيل المسرح (١) .

كان ادوين بورتر (١٨٦٩ ـ ١٩٤٤) اول من ادرك من بين صانعي الافلام ان بوسع الكاميرا ان تتحرك بحرية تامة ، فتساعد على تأليف القصة بواسطة نوع من الاختزال البصري .

المصانع الاولى للافلام

بدأت صناعة الافلام الامريكية بمسارح

٦

٧



(٦) ـ بدأت هوليوود ، على حد ما يروى في اساطير الشاشة ، في عنبر وضيع أدار منه سيسيل ب. دي ميل (الجالس على صندوق بسيط) «الرجل الهندي» سنة ١٩١٣ . كان العنبر قد استخدم بالفعل لتصوير افلام قصيرة باكرة ، (وقد كرس فيما بعد كجزء من ارض شركة باراماونت) ، الا ان «الرجل الهندي» كان اول نجاح ضخم يصور هناك .

(٧) ـ كان تتابع خطوات «الاوديسا» انطلاقا من «بارجة بوتمكين» (١٩٢٥) ، حدثا بارزا في تاريخ الفيلم كفن . كان سيرجي ايزنشتاين يجعل صور الكوزاك الزاحفين تتداخل وتتقاطع مع صور وجاهية لنتائج عياراتهم النارية (كامرأة فقدت نظرها وعربة اطفال تدحرجت) ، وذلك للاعراب عن دراما الثورة وفظاعتها .

(٨) ـ نشأت الاعيب الفيلم وتهاريجه في استوديو كيستون ، لماك سينيت (١٨٨٠ ـ ١٩٦٠) الذي حشد معا بعض الممثلين الهزليين السابقين من ممثلي قاعات الموسيقى ، وبعض البهلوانيين ، ورعاة البقر ، والمجازفين ، وسواهم من المغامرين فكساهم بزات البوليس وأرسلهم في مغامرات سريالية لامتناهية ، «كبوليس كيستون» .

٨



كانت افلام سينيت المؤلفة من بكرة واحدة تمثل احداثا سريعة وصاخبة ومضحكة ، ومحفوفة بالاخطار ايضا ، وكانت تنتهي بحفلة مطاردة .

القرش الرخيصة التي كان يتردد عليها المهاجرون الفقراء من سكان مدن امريكا ، وسرعان ما اصبحت اداة للترفيه الجماعي . حاولت الصناعات الاوروبية الناشئة التوصل الى درجة اعلى من الانتاج الفني باستخدام كبار الممثلين المسرحيين لتأدية المسرحيات الكلاسيكية على الشاشة . لكن ما لبث بعض الممثلين الهزليين في استوديوهات «باتي» الكبرى بفرنسا ، امثال ماكس ليندر (١٨٨٣ - ١٩٢٥) ، ان يحرروا السينما من هذا الشكل الادبي الصرف ، واضعين الاسس لذلك النمط من التهريج البصري الذي سيحمل شارلي تشابلن (٥) وباستر كيتون (١٨٩٥ - ١٩٦٦) الى ذروة الشهرة . وفي ايطاليا ، راجت فكرة الافلام الطويلة والدائرة حول موضوع رئيسي (٤) بفضل نجاح فيلم «الى اين» (كوفاديس ؟) (١٩١٢) المؤلف من تسع بكرات ، وفيلم «كابيريا» (١٩١٤) الذي كان اشد اثارة منه (٤) . اما في امريكا ، فقد اقدم د.و. جريفيث (١٨٧٥ - ١٩٤٨) (٣) على صنع فيلم «ولادة امة» (١٩١٥) ، وهو اداء ضخم للحرب الاهلية انطوى على تقنات كان هو واقرانه يعملون على تطويرها منذ ١٩٠٨ .

وهكذا غدت هوليوود (٦) عاصمة العالم السينمائية ، وقد استفادت من شهوانية عصر الجاز الانهزامية . وفي منتصف العشرينات ، كانت هوليوود قد اصبحت قادرة ماليا ان تغزو اوروبا لاقتناص المديرين الموهوبين الذين ابرزتهم حقبة ازدهار فن الافلام بعد الحرب .

احتلت المانيا بتأثير من رساميها «التعبيريين» ، مركزا مرموقا ساعدها على تسنمه مدراء بارعون امثال ج.و. بابست ، وارنست لوبتش ، وفريتز لانج و ف.و. مورنا ، الذي ادهش اوساط هوليوود فيلمه «الضحكة الاخيرة» (١٩٢٤) بحذلقته التقنية وعمقه البسيكولوجي . كذلك كان للسريالية والدادائية والانطباعية جميعا اثرها على التراث السينمائي الفرنسي الذي كان قد اصبح اشد تفننا ، والذي اخذ أبيل جانس يوجه تطوراته ، ورينه كلير ولويس بونويل يعملان فيه .

في السويد ، كان موريتز ستيلر وفيكتور سيوستروم قد تقصيا امكانيات تصوير الافلام في اطارات طبيعية . وفي روسيا ، ادى اعلان لينين ان السينما «هي اهم الفنون» الى اول تأميم لصناعة الافلام .

ظهور السينما الناطقة

لدى انتشار الراديو ، أدركت هوليوود في منتصف العشرينات ان على السينما ، للاحتفاظ بجمهورها ، ان تكون على درجة من العمق تتعدى ما يمكن بلوغه بواسطة التشخيص المقرون بالشروح او بموسيقى الاوركسترا او البيانو . كانت بعض الانظمة الصوتية العملية موجودة منذ اوائل عهد الفيلم ، الا ان انظمة التسجيل والتكبير اصبحت الآن من الفعالية بحيث غدا من الممكن ضبط الصوت المرافق للفيلم . وفي غضون ثلاث سنوات ، تحولت صناعة الافلام الامريكية الى السينما الناطقة .

دادا والسرياليّة وميراثها

كان للحرب العالمية الاولى تأثير ذو شقين على تطور فن القرن العشرين . فقد تحولت مراكز النشاط من فرنسا والمانيا الى نيويورك وسويسرا المحايدة . وفي هذه الاثناء اكتسب موقف رفض القيم الفنية السائدة آنذاك (والتي وضع أسسها التكعيبيون والتعبيريون) فحوى سياسة جديدة في ضوء الحرب رأى فيها عدد من المفكرين التتويج المنطقي لروحية القرن التاسع عشر برمتها .

يجب صدم البورجوازية

كانت الدادا ، وهي حركة عالمية معقدة، حملة على التقاليد الفنية والسياسية

١



٢



٣

٤



(١) – لوحة ماكس ارنست ، «ولدان يهددهما عندليب» (١٩٢٤) هي محاولة سوريالية باكرة للتعبير بواسطة الدهان عما يعانيه المرء في الحلم . يستعمل ارنست الدهان والخشب النافر ، جاعلا الخشب يخرج من الفضاء الوهمي لسطح الصورة ويمتد الى جوانب الاطار ، وربما كان ذلك اشارة الى الانتقال من الكابوس الى حال اليقظة . تشكل الطيور موضوعا ملازما لفن ارنست .

معا . ما زالت تدور مشادة حول نشأة هذا الاسم ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يستخدم في منتصف ١٩١٦ لوصف نشاطات «حانة فولتير» بزوريخ ، التي كانت تشمل تمثيليات وقراءات تستهدف التهجم على الاعراف والتقاليد . من اوائل المشاركين في هذه الحركة الفنان الفرنسي الالماني جان (هانز) آرب (١٨٨٧ - ١٩٦٦) من لاجئي الحرب ، وكان يضع رسوما نافرة مبنية على اشكال عضوية مبسطة الى درجة انها كانت تبدو مضحكة ، و «ترمي» على حد قوله ، «الى اطلاع البورجوازي على بلاهة عالمه» . في هذه الاثناء كان مارسيل دوشان (١٨٨٧ - ١٩٦٨) في نيويورك يضع موضع التساؤل الطرق الفنية السائدة ، والمحيط الذي كانت تمارس فيه . وكان يتوصل الى ذلك بعرضه

٥



٦



(٢) - «اغنية الحب» (١٩١٤) لجيورجيو دي تشيريكو (١٨٨٨ -) هي أحد المشاهد المحفوفة بالاسرار التي مهدت لصور الاحلام عند السورياليين . ومع ذلك رفض هذا الفنان تأويلهم النفساني لفنه ، وراح يحاول خلق وعي «ميتافيزيقي» رفيع لحقيقة الواقع ، دون أي رغبة في صدم الجمهور .

(٣) - تبين لنا لوحة ميرو «ولادة العالم» ، بالتعاكس اللبق الذي تقيمه بين الاشكال الحادة الاطراف ومساحات الالوان المجردة ، كم كان فعالا ذلك المفهوم السوريالي القاضي بأن يطلق الرسام العنان لمخيلته اثناء الرسم دون أي تصور سابق للنتيجة النهائية .

(٤) - ترفع لوحة رينه ماجريت «على عتبة الحرية» التناقض الى درجة تتداعى عندها الى حد كبير مفاهيمنا الخاصة بالطريقة التي نفهم بها الصورة . انظر الى الفتحات في الفضاء المحيط كيف تبدو متناقضة . فجذع المرأة والسماء الغائمة لا يمكن ان يكونا كلاهما واقعيين ، واذا صح ان احدهما يمثل الحرية ، فأيهما يمثلها في الحقيقة ؟ قد تكون جميعها مجرد لوحات مطلية على جدار سجن ، والطريقة الوحيدة للتحقق من ذلك هي اطلاق المدفع .

(٥) - لوحة «الاحتضار» (١٩٤٧) هي من رسم ارشيل جوركي . تأثر جوركي الارمني المولد كثيرا بميرو الذي التقاه كلاجىء في نيويورك اثناء الحرب العالمية الثانية . في ١٩٤٤ ، كان جوركي قد توصل الى اسلوب اشد اصالة ، مبني على طرائق اوتوماتية ، مع احتفاظه بايحاءات الشكل العضوي .

(٦) - تكاد لوحة روبرت راوشنبرج «مونوجرام» (١٩٦١) ان تكون تلخيصا «بعد الوفاة» للمشاغل السوريالية . كان الحيوان المحنط بصورة غير عادية يعرض احيانا في المعارض السوريالية بمثابة «شيء عثر عليه» ، كما وضع هنا في اطار غريب ايضا . يتبين مما يوحيه تجاور العنزة والعجلة ، ثم الدهان الاحمر على الوجه ، ان الموضوع هو ولادة دامية .

مجموعة من «الاشياء الجاهزة» مثل رف للزجاجات او مبولة .

بعد انتهاء الحرب ، امتدت حركة الدادا الى مراكز اخرى ، وهي تحاول التعبير ، تحت مظاهر شتى ، عن شيء واحد مشترك ، هو النزعة العدمية والرغبة في هز النفوس بجميع الوسائل الممكنة .

استخدم عدد من الدادائيين ، في سبيل مآربهم هذه ، تقنية الملصقات التي استحدثها بيكاسو وبراك ، فصنع كورت شفيترز (١٨٨٧ ــ ١٩٤٨) قطعا فنية من النفايات (٧) ، فيما راح ماكس ارنست (١٨٩١ ــ ١٩٧٦) يصل معا اجزاء من رسوم شعبية ومنقوشات لابتكار اشكال غير معقولة ، مما ادى به في آخر الامر الى العودة الى فن الرسم ، فشرع سنة ١٩٢١ برسم سلسلة من اللوحات على طريقة اكاديمية ايهامية ظهرت فيها تآليف من

٧



(٧) ــ صنع كورت شفيترز ، وهو دادائي من هانوفر ، صوره «المرتزية» ، مثل «صورة النجمة» (١٩٢٠) ، من النفايات . وهي تختلف الى حد التناقض عن ملصقات التكعيبيين الانيقة ، لكن تركيبها كان غنيا وتصميمها قويا .

٨



(٨) ــ في لوحة «التكسي الممطر» لسلفادور دالي (١٩٣٨) ، نرى حلزونات حية تزحف على وجه عارضة الأزياء وصدرها . فالاثارة الجنسية المقلقة المميزة للسوريالية مع براعة دالي الخاصة هنا ، بالاضافة الى عبقريته في باب الدعاية والترويج لانتاجه ، كل هذا جعل من هذا الفنان زعيم السوريالية في نظر الجمهور ، حتى بعد تخليه عن تلك الحركة .

٩



(٩) ــ لم ينتم بابلو بيكاسو قط الى زمرة السورياليين ، ولكن لوحته «امرأة في حديقة» ، كانت عبارة عن ذلك التحول الذي راق جدا للسورياليين . كانوا حريصين كثيرا على اعتباره رائدا وحليفا لهم ، لشهرته ، وولعه بالاستعارة البصرية ، والمحتوى الشهواني القوي للكثير من رسومه . تجلت هذه العوامل بصورة خاصة في اواخر العشرينات حينما تحول نتاجه نحو التعبير الشديد العنف بعد فترة من الكلاسيكية الهادئة .

الصور المتقابلة المثيرة للقلق والغنية بالايحاءات .

ما ان انحسرت مظاهر الدادا ، حتى تحلّق في باريس عدد من الكتاب والرسامين ، منهم (ارنست) و (أرب) ، حول الشاعر اندريه بريتون (١٨٩٦ – ١٩٦٦) . وفي حين كانوا يشاطرون حركة الدادا اشمئزازها من القيم البورجوازية ، فانهم رفضوا عدميتها ، واقتبسوا فلسفة ايجابية مستوحاة من نظريات سيجموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) البسيكولوجية .

كانوا يرون أن المجتمع يكبت طبيعة الانسان الحقيقية ، وأنه من الضروري ، في ميدان الحياة وميدان الفن معا ، أن يطلق العنان للمخيلة . في «البيان السوريالي الاول» الصادر سنة ١٩٢٤ ، عرّف بريتون السوريالية «بالتلقائية النفسية الخالصة» ، معلنا «أن الأديب السوريالي يجب ان يكتب حينما تكون ضوابط الوعي راقدة فيه» .

الصدفة والمخيلة

بتطبيق هذه الطريقة على الرسم ، أبعدت السوريالية عن الايهامية . ففي اللوحات التي رسمها سنة ١٩٢٥ جون مايرو (١٨٩٣ –) ، كان هذا الفنان يكتفي بصب دهان على القماشة بطريقة اعتباطية لا تظهر الا الخطوط فقط التي منها تتكون اللوحة حينما يضبطها الوعي (٣) . كذلك كان ارنست يستلهم تعرقات الخشب التي كان يجعلها بالحكّ تصل الى سطح رسومه . كان كلا الرسامين يستغلان الصدفة بغية حث المخيلة على الانطلاق في اتجاهات جديدة .

في اواخر العقد ، كانت السوريالية قد عادت الى ايهامية أرنست في عهده الأول ، كنتيجة بالدرجة الاولى للتأثير الذي أحدثه فيها نتاج سلفادور دالي (٨) (١٩٠٤ –) الذي رسم موضوعات مثيرة مستمدة من علم التحليل النفسي على منهج اكاديمي محكم جدا .

أرغمت الحرب العالمية الثانية بريتون وعددا من السورياليين الآخرين على الفرار الى الولايات المتحدة . فاهتم الرسامون الشباب هناك ، ولاسيما أرشيل جوركي (١٩٠٥ – ١٩٤٨) اهتماما كبيرا بالجانب الاوتوماتي من السوريالية ، وبالطريقة التي كان يمكن فيها للاشكال نصف المجردة ، كآثار ارنست ومايرو ، ان تحمل شحنة جنسية قوية (٥) ، مما ادى بجوركي الى ابتكار اسلوب شخصي جدا قائم على اشكال متشنجة مرسومة بخفة .

السوريالية اليوم

في اعقاب الحرب ، عاد بريتون الى باريس وواصل تنظيم المعارض السوريالية ، الا ان الارث الحقيقي لتلك الحركة برز في مكان آخر . فقد انطوت «اللوحات المركبة» ، التي رسمها روبيرت راوشنبرج (١٩٢٥ –) (٦) ، على الصوابية اللاعقلية ذاتها التي اتصفت بها افضل المواضيع السوريالية ، في حين واصل حملة الدادا على الفن والمجتمع جان تنجيلي (١٩٢٥ –) بآلاته المدمرة لذاتها .

الفن التجريدي

كان الفن التجريدي اقوى مظهر درامي لمحاولة رسامي القرن العشرين دحض النظرية القائلة بأن على الفن ان يمثل مظاهر الاشياء . مع حلول ١٩٠٠ ، كان التصوير الشمسي قد اخذ يحل محل الرسم الواقعي ، فأدى الرواج المتزايد للتصوير الشمسي ، وقد اقترن بافكار جديدة خاصة بطاقة الرسم والنحت التعبيرية ، الى ولادة التجريد .

بدايات الفن التجريدي

نشأ الفن التجريدي بين ١٩١٠ و ١٩١٨ في عدة امكنة . ففي ميونيخ ، توصل فاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦ ـ



(١) ـ استمد كاندينسكي لوحته «تأليف ٤» سنة ١٩١١ من مشهد في احدى قصص الجنّيات . في الوسط ، جبل ازرق تتوجه خطوط قصر معرجة . الى اليسار ، يتقاتل الفرسان ، وقد اخذت خيولهم يقفز بعضها على بعضها الآخر من فوق قوس قزح . مع ان الاشكال يمكن تأويلها على هذا الوجه ، فقد كتب كاندينسكي سنة ١٩١٣ قائلا انه لا يريدنا ان نبحث عن قصة فيها . القصة هي عبارة عن صراع بين عناصر تجريدية : اصفر فاقع ضد ازرق غامق ، وقوس منتفخ ضد حركة خطية ذات زوايا .

(٢) ـ سنة ١٩١٥ ، رسم كازيمير ماليفتش مربّعا اسود بسيطا على خلفية بيضاء . اللوحة الظاهرة هنا «الرسم المتفوّق» (١٩١٥) تجمع بين اشكال هندسية تخلق من خلال تداخلاتها واحجامها والوانها المختلفة حركة وهمية في الفضاء .

(٣) ـ «قميص سرّة ورأس» لوحة من الخشب المعاكس النافر لجان ارب ، تبشر بمنحوتاته الحرة اللاحقة . ظهر عمله الثلاثي الابعاد الاول ، «رأس مع ثلاثة اشياء مزعجة» ، سنة ١٩٣٠ . كان ارب يرمي الى رسم اشياء تبدو حيّة ، وتكون من صنع اليد والعين والحدس ، دون ان تمثل مع ذلك اي كائن حي معروف . لم يلجأ الى التجريد عن اشكال منظورة قط ، بل كان يكره عبارة «الفن التجريدي» . مما ساعده على التقرب من

١٩٤٤) الى انجاز رسم يكاد يكون لاتمثيليا خالصا سنة ١٩١٢ . كان هذا الفنان يعرف نتاج جوهان ، وفان جوج ، والانطباعيين الجديدين ، معرفة مباشرة ، فضلا عن اعجابه العميق بالرسم البافاري على الزجاج وبالايقونات الروسية .

لكن في امستردام وموسكو ، بدأ الفنانون للمرة الاولى ينتجون آثارا مركبة من اشكال «خالصة» لم تكن مستمدة بوعي من الطبيعة . ففي موسكو ، جاءت تآليف كازيمير ماليفيتش (١٨٧٨ - ١٩٣٥) «المتفوقة» لسنوات ١٩١٥ - ١٩١٩ (٢) نتيجة لمحاولته تحديد «ابجدية» لاشكال هندسية بسيطة كانت تبدو ، اذا وضعت على خلفية بيضاء ، مشبعة بالحركة في الفضاء اللامتناهي .

في الوقت نفسه ، ابتكر فلاديمير تاتلين (١٨٨٥ - ١٩٥٣) «البنائية» بأبنيته

٣

٤

٦

الحركة السوريالية نفوره من العقل والروية ، وطريقته العفوية في الرسم .

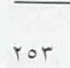
(٤) - سنة ١٩٣١ ، بدأ هنري مور (١٨٩٨ -) في استخدام العظام والصوان وقطع الخشب كمصدر الهام لمنحوتاته ، التي كانت تتوخى ايحاء الجسد البشري . كان يرسم على صفائح من ورق لتقصّي الامكانيات التشكيلية لهذه الاشكال الطبيعية ، حتى يتوصل الى صور لا يلبث ان يحفرها في الحجر ، او في احيان نادرة في الخشب (الزان) ، كما في هذا الشكل الصغير لسنة ١٩٣١ . كان عدد من اعماله اكثر تجريدا من هذه المنحوتة .

(٥) - هذه نسخة عن تصميم «النصب المهدى الى الاممية الثالثة» (١٩١٩) لفلاديمير تاتلين ، الذي اثر في النحت بمقدار ما اثر في العمارة .

٥



(٦) - «تأليف ١ ، بالاحمر والاصفر والازرق» هي احدى اللوحات التي وطد من خلالها بيات موندريان اسلوبه التجريدي الكامل سنة ١٩٢١ . كان موندريان يرى ان الحياة هي تغير ، وان التغير تخلقه «المصالحة» بين قوى متضادة . لذا حوّل الرسم عن عمد الى صراع بين أهم التناقضات البصرية .



الدينامية المركبة من قطع من الزجاج والمعدن والاسلاك ، معلقة أحيانا من زاوية الى اخرى . كانت هذه الآثار خلوا من اي مضمون صوفي ، وأفضت بتاتلين الى فن قائم على الصفات الملموسة للمواد المجمعة في اطار المكان. مع حلول ١٩٢١ - ١٩٢٢ ، كان تاتلين ، وقد انضم اليه الرسام والطباع الروسي الكسندر رودشنكو (١٨٩١ -) وسواه ، يصنع بنيات تمتّ مباشرة الى الهندسة ، وتمجد المجتمع الاشتراكي الصناعي الناشىء . استوحي عدد من البنيات من قالب خشبي كان تاتلين قد صنعه نموذجا لبنية معدنية (لم تظهر ابدا الى الوجود) كان ينوي ان يجعلها نصبا أعلى من برج ايفيل ليقدمه الى «الاممية الثالثة» (٥) .

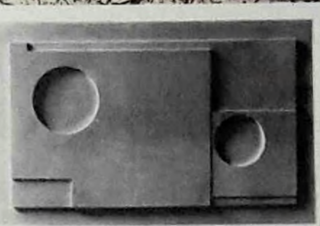
كان بيات موندريان (١٨٧٢ - ١٩٤٤) في هولندا الفنان الآخر الذي

٧



(٧) - استعمل - جاكسون بولوك ، في محاولاته الاولى للخلـق المـوصوف «بالاوتوماتي» المنعتق من الضبط العقلي الواعي ، رموز يونغ النموذجية البدائية كمنطلق له . ولكن هنا في «ايقـاع الخريـف» (١٩٥٠) ، لم يحتج الى حافز الصور الرمزية ، فانتج من خلال حركة اليد والذراع السريعة خطوطا كاسحة من الدهان تتقاطع بحيث تشكل شبكة عاصفة من الحركة . ويرى بعض النقاد ان ما يعطي هذه اللوحات قوتها التعبيرية يعود الى حركة يد الرسام التي خطت خطوطها ، ومن هنا تسميتها احيانا «بالرسم الحركي» . اما في نظر سواهم من النقاد ، فيعود ذلك الى نموذجها الجديد من التأليف التجريدي الخالي من اي موضوع او خلفية .

٨



(٨) - حفر ورسم بن نيكلسون هذه «الصورة النافرة البيضاء» سنة ١٩٣٥ . كان قد زار موندريان بباريس سنة ١٩٣٣ ، فجاء ما في اللوحة من اشكال هندسية ضيقة ومن بساطة وتوازن تام منسجما مع نمط موندريان .

توصل الى فن تجريدي لم يكن مستمدا من الاشياء الطبيعية . كان اصدقاؤه في حركة ستيجل المتمركزة في امستردام قد اعطوا اشكالا هندسية للاشياء المشاهدة ، الا ان موندريان بدأ ما بين ١٩١٧ و ١٩١٨ يركّب رسوما من خطوط مستقيمة سوداء وبقع ملونة .

اساليب حيوية الشكل وهندسية

الى جانب هذه التطورات ، قام الفنان الالزاسي جان (هانز) أرب (١٨٨٧ - ١٩٦٦) برسم الاشكال العضوية باسلوب تجريدي ، يدعى «الاسلوب الحيوي الشكل» (البيومورفي) . كان قد صنع سلسلة من المحفورات الخشبية النافرة ، حينما كان دادائيا في زوريخ (١٩١٦ - ١٩١٨) ، فقادته شراسته الدادائية الباكرة الى اطلاق القاب مضحكة على رسومه النافرة ومنحوتاته ، مثل «قميص السرة والرأس» (٣) ، كما ادخلت علاقاته مع السورياليين في باريس بعد ١٩٢٤ اتجاها «حيوي الشكل» داخل السوريالية .

بعد ١٩٢٢ ، أخذت «البنائية» الروسية وجهة انتفاعية ، وترك فن ماليفيتش الصوفي يلاقي حتفه . لكن في ذلك الوقت ذاته ، كان بعض الفنانين في المانيا من امثال لازلو موهولي ناجي (١٨٩٥ - ١٩٤٦) يدعمون التطورات «البنائية» ، وانطلق كاندينسكي ايضا باتجاه الهندسة . في فرنسا ، تبنّى فنانون من امثال سيزار دوميلا (١٩٠٠ -) وجان جوران الخط الاشد جمودا الذي سلكه موندريان ، في حين استحدث بن نيكلسون (١٨٩٤ -) في لندن اسلوبا هندسيا (٥) ابتداء من ١٩٣٣ ، كما فعل ايضا بورجوين ديلر وفريتز جلارنر (١٨٩٩ -) في نيويورك .

التعبيرية التجريدية

حافظ اسلوب التجريد الهندسي والاسلوب الحيوي الشكل (البيومورفي) على وجودهما ابان الاربعينات . الا انه ظهر في نيويورك تطور رئيسي جديد في الفن التجريدي ، هو «التعبيرية التجريدية» . لم يكن ذلك اسلوبا واحدا قائما بذاته ، بل مجموعة من الاساليب الفردية كان اوسع اصحابها اثرا بعد ١٩٤٣ جاكسون بولوك (١٩١٢ - ١٩٥٦) ، وبعد ١٩٤٧ فيليم دي كونيج (١٩٠٤ -) . كان يكمن وراء هذا التطور الرغبة في التأكيد السوريالي على العملية الابداعية نفسها المقترنة برغبة الانعتاق من القيود الضيقة للفن الهندسي التجريدي والبنية التكعيبية .

بعد ١٩٤٧ ، جذبت «اللوحات السائلة» (٨) لبولوك الانتباه الى حركة يد الفنان ، وتحدّت بصورة حاسمة الاشكال التجريدية الضيقة التي سادت العشرينات والثلاثينات ، سواء أكانت بيومورفية ام هندسية . وهكذا ظهر نوع جديد كليا من الرسم التجريدي . كان من الفنانين الذين اقتفوا اثر بولوك ، مع المحافظة على استقلالهم الفردي ، فرانز كلاين (١٩١١ - ١٩٦٢) الذي بدأ سنة ١٩٥٠ بانتاج لوحات من الابيض والاسود ، مثل «الزعيم» .

العمارة الغربية الحديثة بعد سنة ١٩٣٠

في عشرينات القرن الحاضر ، توصل المعماريون في فرنسا والمانيا وهولندا الى مفهوم معماري جديد اصبح يعرف فيما بعد «بالاسلوب العالمي» . من ملامح هذا الاسلوب الرئيسية الترتيب اللامتناظر للاشكال الهندسية البسيطة ، والتزجيج السخي الذي كثيرا ما يكوّر الزوايا ، والتصميم المرسل ، وهي جميعا ملامح مكّنت من تحقيقها التطورات التي حصلت في استخدام الفولاذ والاسمنت المسلح والزجاج . في غضون بضع سنوات ، انتشر هذا الاسلوب في انحاء اوروبا وعبر القارات ، لا لبناء المنازل وحسب ، بل لاقامة انواع اخرى من الابنية ايضا ، مثل

١



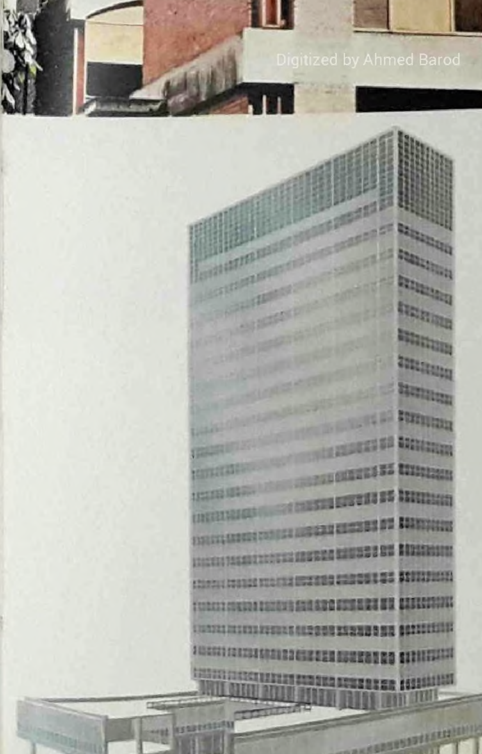
٢



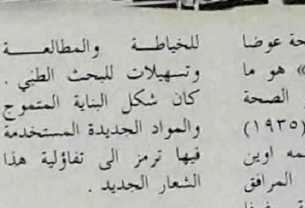
٣



٤



٥



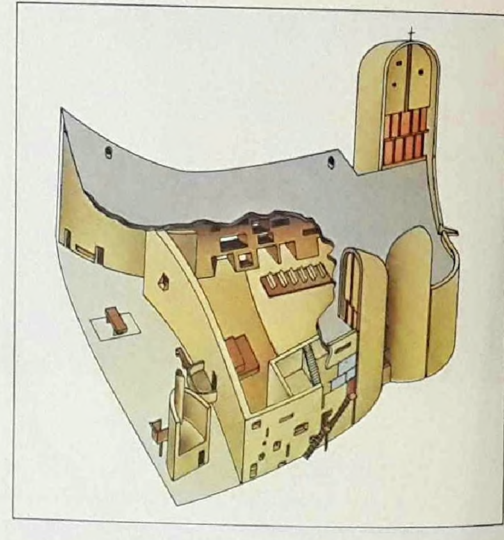
(١) ـ «حفظ الصحة عوضا عن شفاء الامراض» هو ما كان شعار «مركز الصحة العامة الرائد» (١٩٣٥) بلندن ، الذي صممه اوين وليامز . كانت المرافق تشمل بركة سباحة وغرفا للخياطة والمطالعة وتسهيلات للبحث الطبي . كان شكل البناية المتموج والمواد الجديدة المستخدمة فيها ترمز الى تفاؤلية هذا الشعار الجديد .

«المركز الصحي الرائد» في بيكهام بلندن لأوين وليمز (١) سنة ١٩٣٥ ، «ومصح بايميو» بفنلندا لألفار آلتو (١٩٢٩ – ١٩٣٣) ، و «بناية جمعية فيلادلفيا لصندوق التوفير» في الولايات المتحدة (١٩٣٢) لهاو ورفيقه ليكاز .

الاسكان اشعبي وعمارته

ادت الحرب العالمية الثانية الى توقف حركة العمارة في معظم اوروبا ، فيما ثابرت امريكا الجنوبية (لاسيما البرازيل) في المقابل على استيعاب «الاسلوب العالمي» وتطويره . كان لوكوربوزييه (١٨٨٧ – ١٩٦٥) قد زار البرازيل سنة ١٩٣٦ ، واثر تأثيرا حاسما في لوسيو كوستا ، الذي تمثل بناية وزارة الصحة والتربية (١٩٣٧ – ١٨٤٣) في مدينة ريو دي جانيرو التي بناها بداية عهد الحداثة في

٦



(٢) – صمم «متحف صولومون ر. جوجنهايم» بنيويورك المعماري فرانك لويد رايت ، على شكل منصة لولبية متواصلة تحيط بينبوع مكشوف . يتسع قطر اللولب تدريجيا في ارتفاعه نحو قبة زجاجية تعلو ٢٨ مترا عن سطح الارض . القبة مصدر رئيسي للضوء الطبيعي الضروري لانارة المعارض . كان رايت يرى ان جدران المتحف المقوسة ، العادية جدا من داخل ومن خارج ، هي افضل السطوح لعرض الصور ، ومع ان بعض النقد وجه ضد البناية ، فالشعور العام هو انها تناسب غرضها . صبت من الباطون الناعم السطح . مع ان سيولة الشكل تبدو ، كما في معبد لوكوربوزييه في رونشان ، وكأنها انتقاص من القيم الصناعية ، فقد كان انجاز البناء مستحيلا لولا تقنية القرن العشرين .

(٣) – كانت «منازل جاوول» بباريس التي صممها لوكوربوزييه عبارة عن منزلين على موقع مستطيل . اعتمد هذا النمط من البناء ، في الداخل وفي الخارج ، على المواد الخشنة وقطع الآجرّ غير المصقول وبلاط الاسمنت الشريطي ، ممهدا بذلك لظهور «الخشونية العالمية» . جاءت شقق ستيرلنج ورفيقه جووان في هام كومون بلندن (١٩٥٦) بأول نماذج صريحة لهذا الاسلوب . تعكس الاقواس النصفية في الخارج العقود المغطاة بالآجر في الداخل .

(٤) – بنيت دار البلدية في لوراشيكي باليابان ، لمصممها كنزو تانجي ، من الباطون الخشن المعتَمَد في «الخشونية العالمية» ، وقد تضمنت بعض الخصائص للوكوربوزييه . مما يدعو الى الاستغراب ان تكون العمارة اليابانية قد مالت الى تفضيل خشونة لوكوربوزييه على الخطوط البسيطة للنمط الميزي .

(٥) – جاءت بناية «ليفرهاوس» بنيويورك التي صممها جوردون بونشافت من مؤسسة سكيدمور اوينجز ومريل ، شاهدا جليلا على الجدار الستائري المزجّج . البرج الرئيسي يقاطع الشارع على زوايا مستقيمة ، ويقوم على جزء فقط من المساحة المخصصة للبناء ، مولدا هكذا فسحته الخاصة في المدينة . تنتصب الجدران الخفيفة المحيطة بالفسحة على اعمدة لتفسح المجال واسعا للمارة .

(٦) – كان معبد «سيدة العلاء» في رونشان ذروة نزعة لوكوربوزييه نحو «الشكلية» التي ظهرت من قبل في فيلا سافوا وسقف «وحدة» مرسيليا . ففي حين كانت الابنية الاخرى مرصوصة ضمن اطار هندسي محدد ، كانت المنحنيات المتمورة طاغية في هذا البناء . شيد هذا البناء من الباطون المسلح واقيم في وسط التلال ، فراح تصميم البناء يعكس اشكال المشهد الطبيعي المحيط به .

امريكا الجنوبية .

في سنة ١٩٤٥ ، كانت اوروبا بحاجة الى حوالى ٤٠ مليون بيت جديد ، ولاسيما في لندن وبرلين وفرسوفيا وروتردام وسواها من المدن التي دمرتها الحرب . كان الاهم هو تشييد البيوت الجديدة بسرعة ، لذلك اتى الابتكار في الاساليب في المرتبة الثانية . كانت الصيغة العامة تقوم على تكرار الوحدات الكبيرة الحجم ، وهو اسلوب اخذ رواجه في الخمسينات . من الشواهد على هذا التغير «مشروع قطاع الهانزا في برلين الغربية» ، و «مزرعة ألتون» في روهامبتون بلندن .

كان لا بد للمهندس المعماري المكلّف ببناء مدن جديدة بكاملها ان يقوم اكثر فاكثر بدور المخطط للمدن .

تعطي «وحدة السكن» في مرسيليا (١٩٤٦ – ١٩٥٢) للوكوربوزيه

٧

٨



(٧) – تتألف «شقق جادة ضفة البحيرة» في شيكاغو ، لميز فان دير روهي ، من برجين متشابهين قائمين على طرفي زاوية مستقيمة . لكل بناية ٢٦ طبقة ، بنيت الشقق فيها حول فسحة مركزية يحتلها الدرج والمصعد . البناء عبارة عن اطار فولاذي يحمل ثقل البناية ، طلي بالخرسانة لجعله صامدا للحريق وغطيت فجواته بالزجاج . يلقي الاطار الاسود والستائر الخافتة وراء الزجاج مسحة من الطرافة على الواجهة غير الشخصية . خلافا «لوحدة» لوكوربوزيه ، تتميز هذه البناية رئيسيا بتقنية فعالة جدا وبأشكال بسيطة ، وهو تطور هام في البناء ، لكون القطع مما تنتجه المصانع ، ولان البناية حققت مثالا جديدا كان يصبو المعماريون اليه طيلة العشرين سنة الماضية . ومما كان له مغزى عظيم فيها انها تمثل مفهوما جديدا للمنزل ، وهو المنزل القائم داخل صندوقة لا اسم لها ، تصميمها مرن وخدماتها ميكانيكية .

(٨) – تدل «بناية الهندسة» بجامعة ليسستر كيف يمكن اظهار وظائف اجزاء البناية المختلفة بواسطة اشكالها ، وهي فكرة من صميم «الخشونية العالمية» . يظهر في الصورة ، من اليسار الى اليمين ، مختبرات واسطوانة المصعد وبرج هيئة الادارة وواحدة من قاعتين للمحاضرات . يعكس انعدام التناظر الميل المعاصر الشديد نحو تنوع الاشكال الهندسية ، وهو تعاطف مع روحية اوائل القرن العشرين .

و«شقق جادة ضفاف البحيرة» في شيكاغو (١٩٤٨ – ١٩٥١) (٧) لميز فان دير روهي (١٨٨٦ – ١٩٦٩) مثلين رئيسيين عن عمارة فترة ما بعد الحرب . خلافا للسطح الابيض من الاسمنت المصقول الذي ساد العشرينات ، فضل لوكوربوزييه وقد ثابر على استخدام الاسمنت ، ان يستغل طبيعة المواد ، فتركها على ما هي عليه بعد رفع قالب الخشب عنها . وحينما نالت هذه الطريقة الاستحسان ، تغير جذريا مظهر العمارة في العالم .

البنية والوظيفة

كشفت «شقق جادة ضفة البحيرة» بالدرجة الاولى عن استهداف المعماري الضبط الدقيق في الزجاج والفولاذ ، بحيث تصبح ضخامة البناية تطغى على وظيفتها . تولد عن هذه الرغبة البرج الذي لا اسم له والذي يمكن ان يستخدم للمكاتب او المنازل دون تغيير خارجي .

مع حلول منتصف الخمسينات ، لم يبق بناء ناطحات السحاب مقصورا على الولايات المتحدة ، بل اخذ ايضا ينتشر انتشارا واسعا في العالم ، مع تطورات بارزة في فنزويلا والمكسيك . من خلال «ليفيرهاوس» بنيويورك (١٩٥١ – ١٩٥٢) (٥) ، كان سكيدمور وأوينز ومريل قد وضعوا الاسس لشكل مبنى المكاتب ، كبرج قائم على منصة ، كثيرا ما تحيط بقاعدته ساحة فسيحة تصله بالشارع العام .

في سنة ١٩٥٣ ، ظهرت نزعة «الخشونية» – المستمدة على الارجح من الباطون (الخرسانة) «الخشن» للوكوربوزييه – كمفهوم جديد اطلقه بادىء الامر اليسون وبيتر سميثسون وابرزاه الى حيز الوجود في مدرستهما الثانوية في هنستانتون بانجلترا (١٩٤٩ – ١٩٥٤) . في تلك المرحلة ، كانت غاية «الخشونة» الرئيسية التوصل الى تحقيق الامانة البصرية . فقد كانت هذه النزعة تقضي بأن يعكس شكل البناية الغاية منها ، وترفض بالتالي اخفاء العناصر الوظيفية ، مثل الانابيب والاسلاك الكهربائية . لكن منذ حوالى ١٩٥٨ ، حولت حركة الخشونية العالمية اهتمامها عن شكل البناء ككل الى زيادة الاعتناء بالتفاصيل ، مستوحية في ذلك لوكوربوزييه ومنازل جاوول التي صممها بباريس (١٩٥٤ – ١٩٥٦) (٣) . تميزت حركة الخشونية العالمية اولا بالخشونة في معالجة المواد ، كما في دار بلدية تانجي في كوراشيكي باليابان (١٩٥٨ – ١٩٦٠) (٤) ، وثانيا بفصل العناصر الوظيفية المختلفة بعضها عن بعضها الآخر .

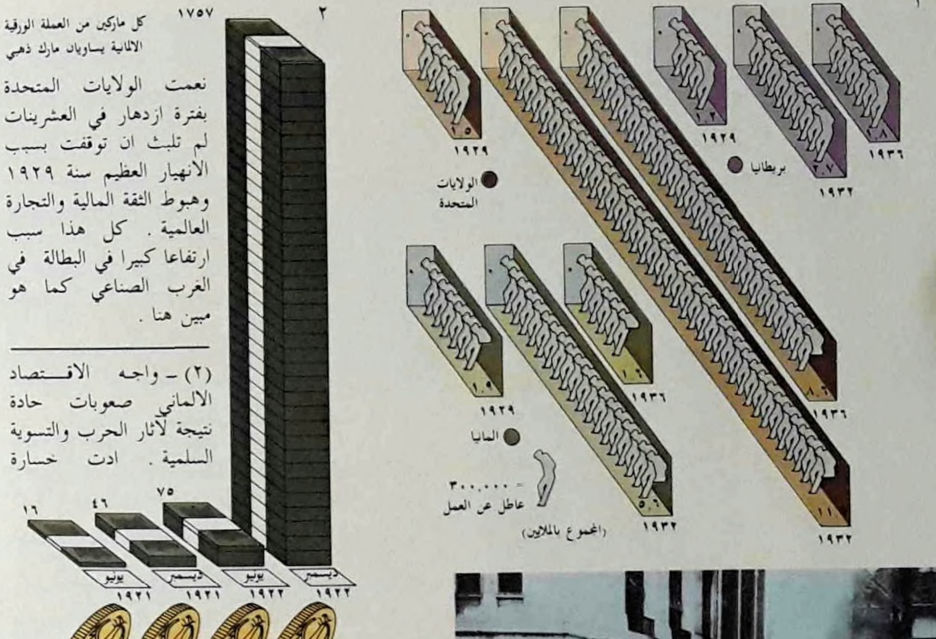
الجمال والوظيفة

ليست «الشكلية» و«الخشونية» متعارضتين كليا ، فالفروق بينهما تكميلية ، ولا تظهر ملامح التعبيرية في العشرينات الا في الاشكال الحرة من نتاج اعلام المعماريين ، كما نرى مثلا في «معبد رونشان» (١٩٥٠ – ١٩٥٥) (٣) للوكوربوزييه ، وفي متحف جوجنهايم (١٩٥٧ – ١٩٥٩) (٢) لفرانك لويد رايت (١٨٦٩ – ١٩٥٩) في نيويورك .

العشرينات والضائقة الاقتصادية

سيطرت على الفترة الممتدة من ١٩١٩ الى ١٩٣٨ ضائقة اقتصادية سببت مشاكل عديدة لاوروبا ، واثرت على سائر العالم تأثيرا شديدا ، ولاسيما في الثلاثينات .

تميزت الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى بالسعي لاعادة الامور الى وضعها الطبيعي ، او الى «تطبيعها» ، وهو تعبير صاغه الرئيس الامريكي وارن هاردنج (١٨٦٥ - ١٩٢٣) . في بريطانيا ، شهدت السنوات التي عقبت الحرب مباشرة فترة ازدهار عظيم في الانتاج الصناعي وفي مستوى المعيشة . لكن بعد سنة ١٩٢٢ ، تقلصت الحركة التجارية والصناعية ، ونشأت البطالة في معظم



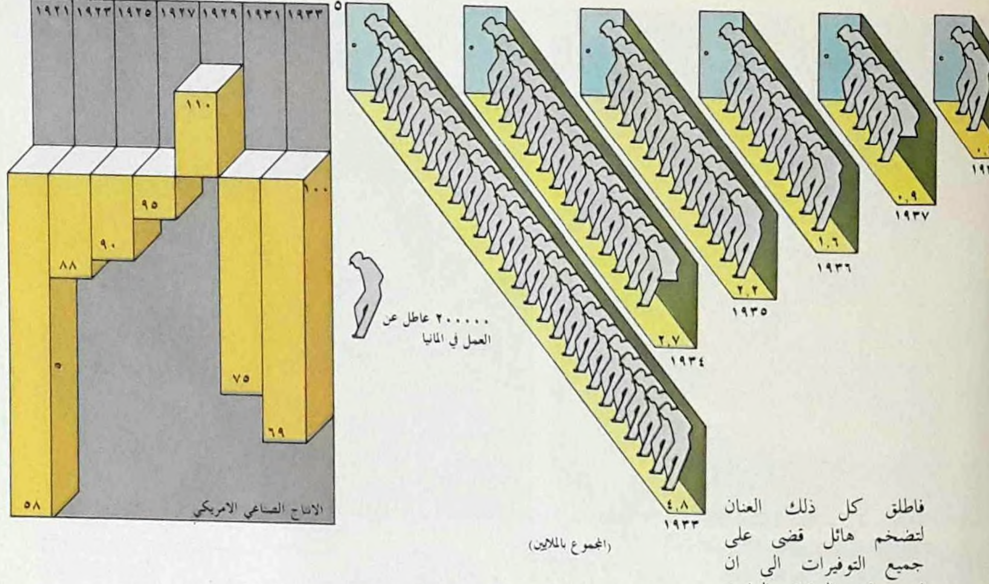
(١) - بعد الحرب العالية الاولى ، عانت بريطانيا من هبوط صناعاتها الاساسية ومن تصاعد المنافسة ، بينما احتاجت المانيا الى سنوات عديدة لتستعيد عافيتها بعد الحرب ومحنة التعويضات .

(٢) - واجه الاقتصاد الالماني صعوبات حادة نتيجة لآثار الحرب والتسوية السلمية . ادت خسارة المناطق الصناعية الرئيسية وواجب التعويضات الى انكماش الاقتصاد وقيام العوامل المؤدية الى التضخم ، ثم جاء احتلال الفرنسيين للرور بداعي تأخر المانيا في دفع التعويضات ،

نعمت الولايات المتحدة بفترة ازدهار في العشرينات لم تلبث ان توقفت بسبب الانهيار العظيم سنة ١٩٢٩ وهبوط الثقة المالية والتجارة العالمية . كل هذا سبب ارتفاعا كبيرا في البطالة في الغرب الصناعي كما هو مبين هنا .

الصناعات الثقيلة في الاقتصاد البريطاني (١) . اما المانيا ، اي الدولة الاقتصادية الكبرى الاخرى في اوروبا ، فلم تستطع ان تتغلب على تأثيرات الحرب وما فرض عليها من عقوبات بموجب معاهدة السلام (٢) ، فكانت النتيجة ان كسادا حل في اقتصاد اوروبا الذي كان بحاجة الى انتعاش الصناعة الالمانية . لكن هذا الانتعاش الالماني لم يبدأ الا بعد منتصف العشرينات ، وذلك بسبب المشاكل الناتجة عن التضخم المالي وعدم الاستقرار السياسي والتعويضات الباهظة .

تركت الولايات المتحدة الحرب كأعظم دولة مالية دائنة ، آخذة بذلك المكانة التي كانت تحتلها بريطانيا من قبل . تجمعت نسبة كبيرة من احتياط الذهب العالمي في فورت نوكس ، فتأمنت بذلك قاعدة لتوسع كبير في الانتاج



فاطلق كل ذلك العنان لتضخم هائل قضى على جميع التوفيرات الى ان اصبح ثمن الرغيف الواحد ملايين الماركات .

---

(٣) ـ هرع الآلاف لبيع اسهمهم في وول ستريت في «فوضى البيع» في عام ١٩٢٩ . خلال شهرين سقطت قيمة الاسهم الى الثلث . اقترن نمو الاقتصاد الامريكي بزيادة هائلة في المضاربات في اسعار الاسهم شملت المستثمرين الصغار والمجموعات المالية الكبيرة . مع قدوم عام ١٩٢٩ ، بدأ الانتاج الصناعي يتناقص ، واسعار الاسهم تهبط حتى عمت الفوضى .

---

(٤) ـ منذ عام ١٩٣٣ ، بدأ الابلال في امريكا واوروبا . فهبط عدد العاطلين عن العمل ورجعت الثقة في الاعمال التجارية والاقتصاد . اقترن تسلم هتلر للسلطة بانتعاش في الاقتصاد . خلق النازيون وظائف في الحزب وفي القوات المسلحة وفي المصانع الحربية . وهذا ما خفض البطالة لدرجة كبيرة ، كما يظهر هنا في الرسم البياني .

---

(٥) ـ ازدهر الاقتصاد الامريكي في العشرينات ، ورافقه نمو سريع في الصناعات الثقيلة . مؤشر الانتاج الصناعي الظاهر هنا يعطي معدل ١٠٠ للانتاج ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ . كان ازدياد الاستهلاك والقروض السهلة سبب الازدهار لغاية ١٩٢٩ .

الامريكي . ادت الزيادة في التسليف والاستهلاك التي اتاحها هذا الاحتياطي من الذهب الى انتعاش كبير في الانتاج الصناعي (٥) .

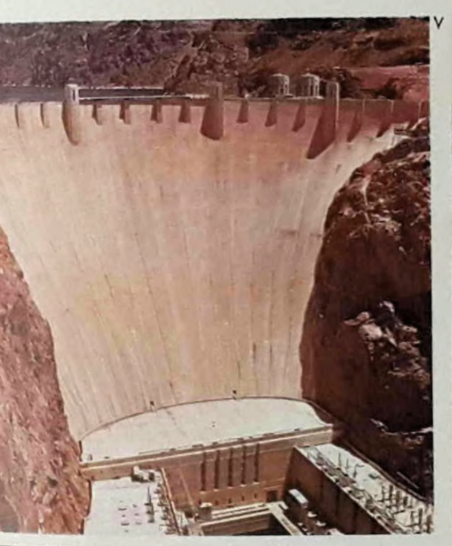
هكذا شهدت العشرينات موجة من الازدهار في الولايات المتحدة . ورافق هذا الازدهار شعور بالارتياح بعد سني الحرب خلق جوا مليئا بالنشاط عرف «بالعشرينات الصاخبة» . وعلى نطاق اضيق ، ساد هذا الجو بالذات اوروبا حوالى نهاية العقد ، حينما ساعد الانتعاش الاقتصادي على انتشار كل ما هو امريكي من موسيقى ورقص وافلام .

مظاهر الحياة الاجتماعية

من الناحية الاجتماعية ، ساد العشرينات جو من التناقض . فمن جهة ، بشَّر انتهاء الحرب بحريات جديدة ، ولاسيما



٦



٧



٨

(٦) - ادت الضائقة الاقتصادية في بريطانيا الى «مسيرات الجوع» ، كالتي حدثت عام ١٩٣٦ عندما سار ٢٠٠ رجل من منطقة جارو الى لندن طلبا للعمل . في امريكا ، سار المسرحون من الجيش ، الذين كانوا بدون عمل سنة ١٩٣٢ ، الى واشنطن . ادى قيام الشرطة بتفريقهم الى مصرع بعضهم ، مما سبب الكثير من النقمة .

(٧) - شملت خطوة روزفلت المسماة «البرنامج الجديد» عددا من المشاريع الطموحة بقصد خلق اعمال للعاطلين عن العمل ولتنشيط الاقتصاد . كان الهدف من انشاء «سلطة وادي تنيسي» تنشيط الاقتصاد وتحسين الظروف المعيشية لمنطقة بكاملها بمشاريع هامة وفخمة كسد هوفر الذي يظهر هنا في الصورة .

(٨) - نمت صناعة السيارات لتحتل اهمية كبرى خلال فترة ما بين الحربين . مع ان السيارات اخترعت وانتجت قبل العام ١٩١٤ ، فالسيارات بقيت من وسائل الرفاهية الباهظة الثمن . مع حلول العام ١٩٣٢ ، كان على خطوط تجميع السيارات التي كانت تنتج السيارات الرخيصة ان تتوقف وان تخلف وراءها آلافا من العاطلين عن العمل .

للمرأة . فالمرأة كانت قد عملت في وظائف واعمال كثيرة جديدة اثناء الحرب ، وبدأت تحصد الآن الفوائد من ذلك عن طريق التحرر السياسي والاجتماعي . من جهة اخرى ، اصبحت الازياء عملية اكثر ، وازدادت المعرفة بتحديد النسل ، وكانت هناك مجالات واسعة لفرص العمل . لكن شهدت العشرينات ايضا تحريم بيع المشروبات الكحولية في امريكا ، الامر الذي سبب حركة بيع غير مشروعة لهذه المشروبات .

الازمة والانكماش

وصل التفاؤل الاقتصادي الذي ساد اواخر العشرينات الى نهايته بسبب فاجعة تدهور سوق الاسهم في وول ستريت في اكتوبر ١٩٢٩ . كان الانتعاش الامريكي قد بدأ يتعثر مع مجيء صيف ١٩٢٩ ، وتحول الهبوط في اسعار الاسهم الذي عقب ذلك الى انهيار (٣) ، فارتفعت نسبة البطالة في امريكا ، واختفى التسليف ، وخف الاستهلاك ، وتضاعفت حالات الافلاس والصرف من الخدمة .

لمدة سنتين ، تعمقت الضائقة في العالم الصناعي . ومع حلول العام ١٩٣٢ ، وصل عدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة الى ١٢ مليونا ، وشلت جماعات بكاملها اقتصاديا . انزل الانهيار الاقتصادي اضرارا كبيرة ايضا في اقتصاديات دول اوروبا ، التي كان كثير منها يعتمد على قروض الولايات المتحدة . كان الرأي السائد في الفكر الاقتصادي المعاصر حينئذ ان مثل هذه الازمة لا يحلها الا انكماش شديد في حجم العملة المتداولة .

قامت حكومة فرانز فون بابن (١٨٧٩ - ١٩٦٩) في المانيا بفرض سياسة انكماشية متشددة ، وهذا ما فعلته ايضا في بريطانيا الحكومة الائتلافية التي ترأسها رمزي مكدونالد (١٨٦٦ - ١٩٣٧) ، وفي الولايات المتحدة حكومة الرئيس هربرت هوفر (١٨٧٤ - ١٩٦٤) .

ردود الفعل السياسية

كان للضائقة الاقتصادية اصداء سياسية هامة في الولايات المتحدة . فقد ادى عدم الرضا بنهج الرئيس هوفر في الحكم وفي معالجته للازمة الاقتصادية الى انتصار فرانكلين د. روزفلت (١٨٨٢ - ١٩٤٥) ، الذي دعا الى ما يعرف «بالبرنامج الجديد» (٧) . وفي بريطانيا ، ادت المضاعفات المتزايدة للضائقة في سنة ١٩٣٠ الى ازمة مالية سياسية لحكومة رمزي مكدونالد العمالية . بعد الانتخابات العامة لسنة ١٩٣١ ، تألفت حكومة ائتلافية طغت عليها اكثرية محافظة ، ولكنها بقيت تحت قيادة مكدونالد وجماعة صغيرة من اتباع حزب العمال . في المانيا ، ولدت البطالة المتصاعدة ، والخوف من التفكك الاجتماعي ، تأييدا للحزب النازي وهدمت اسس جمهورية فايمار (٨) . اما اثر الضائقة في فرنسا ، فقد جاء متأخرا ، فالبطالة لم تظهر فيها ، لانها كانت متخفية تحت ستار القطاع الزراعي الكبير ، كما ان قاعدة فرنسا الصناعية كانت اصغر من باقي الاقطار .

الاشتراكية في الغرب

نشأت الاشتراكية على يد جماعة من المفكرين ، ولاسيما روبرت اوين (١٧٧١ ـ ١٨٥٨) وهنري دي سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) وشارل فورييه (١٧٧٢ ـ ١٨٣٧) ، الذين انتقدوا حركة التصنيع لما تسببه من شقاء ومتاعب للطبقة العاملة . ولكن الاشتراكية لم تصبح حركة جماهيرية الا في منتصف القرن التاسع عشر ، وذلك كنتيجة مباشرة لنمو الصناعة في اقطار اوروبية عدة وقيام طبقة عاملة في المدن .

التطورات المبكرة

كانت بريطانيا اول دولة صناعية ،

١



٢



٣



٤



(١) ـ كيّف المصلحان سيدني (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧) وبياتريس ويب (١٨٥٨ ـ ١٩٤٣) الاشتراكية لجعلها تنسجم مع قضية الاصلاح الاجتماعي الذي حاولا تحقيقه تدريجيا عن طريق المناهج الديمقراطية . اسسا الجمعية «الفابية» عام ١٨٨٤ ، فجذبت هذه الجمعية الكثيرين من الطبقة الوسطى ومن المفكرين البارزين امثال جورج برنارد شو . تبنى حزب العمال البريطاني المثالية الفابية كأساس لفلسفته .

(٢) ـ شجعت الحركة الفوضوية في روسيا معارضي الحكم القيصري على القيام بحملة ارهابية شملت اغتيال القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٨١ . نشأت الحركة الفوضوية من افكار بيير برودون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) وغيره ، فرفضت جميع اشكال السلطة في سعيها وراء مثالية مستقلة تحقق

فسبقت سواها في قيام المنظمات العمالية (٥) .

اما في اوروبا نفسها حيث كان التقدم الصناعي بطيئا ، فقد تأخر نمو الحركات الاشتراكية المنظمة . بقيت النقابات العمالية في فرنسا غير شرعية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وانقسم الجمهور الاشتراكي ببين اتباع للقادة الثوريين او الاصلاحيين او الفوضويين . ومع ان العمال اشتركوا في اسقاط الملك لويس فيليب (١٧٧٣ - ١٨٥٠) في عام ١٨٤٨ ، فلم يكن هناك اي تنظيم يوحدهم . في المانيا ايضا ، بقي العمال الذين وقفوا الى جانب ثورة ١٨٤٨ منقسمين وتحت سيطرة الليبراليين من الطبقة المتوسطة . مع ذلك ، شهدت الانتفاضات في المانيا سنة ١٨٤٨ اطلال الماركسية من خلال «البيان الشيوعي»

٥

انماء الانسان حتى اكتماله . اشهر من عبر عن ذلك في القرن التاسع عشر كانوا من الروس ، وخصوصا ميخائيل باكونين ، والامير بيتر كروبوتكين (١٨٤٢ - ١٩٢١) . اندمجت الفوضوية في فرنسا مع الحركة النقابية . وفي اسبانيا ، لعبت الجماعات الفوضوية دورا هاما في الانتفاضات السياسية في مستهل القرن العشرين ، بما في ذلك الحرب الاهلية الاسبانية .

(٣) - تميزت سنوات ما قبل الحرب العالمية الاولى بنشاط عمالي مجاهد واضرابات عنيفة في اوروبا كلها وفي الولايات المتحدة . في بريطانيا ، جرت موجة من المنازعات المريرة حملت الجيش على التدخل في ويلز الجنوبية اثناء اضراب الفحم عام ١٩١٢ . من عوامل الاضطراب قيام حركة عمالية منظمة ، وانتشار الافكار الثورية ، وتراجع في مستويات المعيشة بعد فترة من التحسن .

(٤) - على غرار هؤلاء اللندنيين ، احتج الليبراليون في كل مكان عام ١٩٢٧ على حكم الاعدام الذي صدر ضد اثنين من الفوضويين في الولايات المتحدة ، وهما نيكولا ساكو (١٨٩١ - ١٩٢٧) وبارتولميو فانزيتي (١٨٨٨ - ١٩٢٧) . اعتقد كثيرون ان اصدار الحكم عليهما بتهمة القتل كان بدافع سياسي .

(٥) - قبل عام ١٩١٤ ، كانت هناك موجة عارمة للدخول في النقابات . فقد ازداد عدد النقابيين في بريطانيا باكثر من الضعف ما بين ١٩٠٥ و ١٩١٤ نتيجة لتنظيم العمال المتخصصين والمتخصصين جزئيا ، مثل عمال الموانىء وسكك الحديد ، بينما كانت عضوية النقابات تقتصر قبل ذلك الوقت على الذين اسسوا النقابات . في عام ١٨٩٣ ، تأسس حزب العمال المستقل الذي اصبح فيما بعد حزب العمال البريطاني (١٩٠٦) .

(٦) - كانت الحرب الاهلية في اسبانيا (١٩٣٦ - ١٩٣٩) محور تجمع للقوى اليسارية في اوروبا . ادت محاولة قوات الجنرال فرانكو لاسقاط الجمهورية الاسبانية بمساعدة كل من ايطاليا والمانيا الى تعاون العديد من الاحزاب الشيوعية والاشتراكية المنقسمة . مع ان الحرب كانت قتالا معقدا بين مختلف الجماعات الاسبانية ، فقد بدت للعديد من الاشتراكيين رمزا للتهديد الفاشي ونداء الى ضرورة مواجهته بصف موحد .

٦



الذي كتبه كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفردريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) .

الدولية الاولى

مع ان الافكار الاشتراكية لم تلعب دورا هاما في ثورات ١٨٤٨ ، وان حركة الميثاقيين في بريطانيا قد هزمت في العام ذاته ، فان تلك الافكار وتلك الحركة كانت نقطة انطلاق لاولى الحركات العمالية الجماهيرية الهامة في اوروبا . ففي سنة ١٨٦٤ انضوت الجماعات الاشتراكية الهامة تحت لواء «الدولية الاولى» . رغم تمزق هذا المؤتمر بالنزاعات الحادة والانقسامات ، فانه كان وسيلة لنشر الافكار الماركسية وتشجيع الجماعات الاشتراكية في سائر انحاء اوروبا . ففي فرنسا ، كانت انتفاضة عمال باريس





(٧) - نتيجة للخوف على الجمهورية الاسبانية من السقوط على يد الجماعات اليسارية ، تألف «اللواء الدولي» للاشتراك في الحرب في اسبانيا . جاء الذين التحقوا به من مختلف الجنسيات ، وكان اكثرهم اعضاء في الحزب الشيوعي ومن النقابات العمالية ومن المفكرين المتعاطفين مع اليسار . تم تجنيد اللواء بواسطة الحزب الشيوعي الذي نظم التدريب والتجهيز والسفر الى اسبانيا . لعب المتطوعون دورا هاما في منع قوات فرانكو من احراز فوز مبكر بمساندة حلفائها الالمان والطليان . ومع ان المتطوعين تكبدوا خسائر فادحة ، لكن دورهم كان يرمز الى المعنى الاوسع الذي اخذته الحرب الاهلية الاسبانية والى ما كان لها من تأثير عاطفي في جيل بكامله .

(٨) - انتشرت فكرة الاضراب العام في سنوات القرن العشرين الاولى بتأثير من الافكار النقابية . في بريطانيا ، ادت الطبيعة الاصلاحية لمؤتمر النقابات الذي تأسس عام ١٨٦٨ الى جعله مترددا في استعمال الاضراب العام كسلاح ، ولكنه اقدم عام ١٩٢٦ على اعلان الاضراب العام لمساندة العمال في نزاع مرير في صناعة الفحم . بعد مجابهة شديدة مع حكومة ستانلي بولدوين (١٨٦٧ - ١٩٤٧) المحافظة ، فشل الاضراب . تخوفت الحكومة من ان تصبح مخزونات الاغذية عرضة للنهب ، فنقلت البضائع من احواض ميناء لندن .

والجماعات ذات الدخل الادنى من الطبقة المتوسطة في «الكومونة» سنة ١٨٧١ دليلا على القوة المتزايدة للافكار الاشتراكية . لكن تمّ حلّ «الدولية الاولى» عام ١٨٧٦ على اثر نزاعات بين الفوضويين وماركس . اما في الاقطار الاقل تطورا في اوروبا ، وخصوصا اسبانيا وايطاليا وروسيا ، فقد لاقت الافكار الفوضوية التي دعا اليها ميخائيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) قبولا قويا ، وادت الى ثورات في اسبانيا والى اعمال ارهابية في روسيا (٢) . اصبحت الحركة الاشتراكية الالمانية بعد عام ١٨٧٠ اقوى حركة في اوروبا . كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٨٩٠ اكبر الاحزاب في الرايخ رغم القوانين التي كانت تحد من نشاطه . ورغم انقسام الاشتراكيين بين ماركسيين و «تعديليين» ، فقد استمروا في تقدمهم حتى عام ١٩١٤ . لكن بعد هزيمة المانيا ، تألف حلف بين الاشتراكيين - الديمقراطيين والجيش لاقامة حكومة فايمار والوقوف بوجه الماركسيين «السبارتاسيين» الذين كان يقودهم كل من كارل ليبكنخت (١٨٧١ - ١٩١٩) وروزا لوكسمبرج (١٨٧١ - ١٩١٩) في فرنسا ، بقيت الحركة الاشتراكية مفتتة .

الدولية الثانية

انقسمت «الدولية الثانية» التي تألفت عام ١٨٨٩ ، انقساما شديدا بين فئات الثوريين وفئات الاصلاحيين ، ولم تكن قوتها الاجمالية كافية لمنع نشوب الحرب العالمية الاولى . بالرغم من هذا ، كانت الاشتراكية ، بحلول العام ١٩١٤ ، قوة سياسية فعالة في اوروبا ، كما انها انتشرت في امريكا اللاتينية والولايات المتحدة . ومع ان الاشتراكية لم تبلغ في الولايات المتحدة من القوة ما بلغته في اوروبا ، فقد حصل مرشح اشتراكي لرئاسة الجمهورية ، هو يوجين دبس (١٨٥٥ - ١٩٢٦) ، على ٩٠٠٠٠٠ صوت سنة ١٩١٢ ، بينما استطاع اتحاد عمال العالم الصناعيين ان يقوم بسلسلة من الاضرابات الكبيرة . كانت الحرب سببا في وضع نهاية للحركة الاشتراكية الدولية ، لانه توجب على اعضائها ان يختاروا بين الوطنية وبين الولاء للافكار والقيم الاشتراكية .

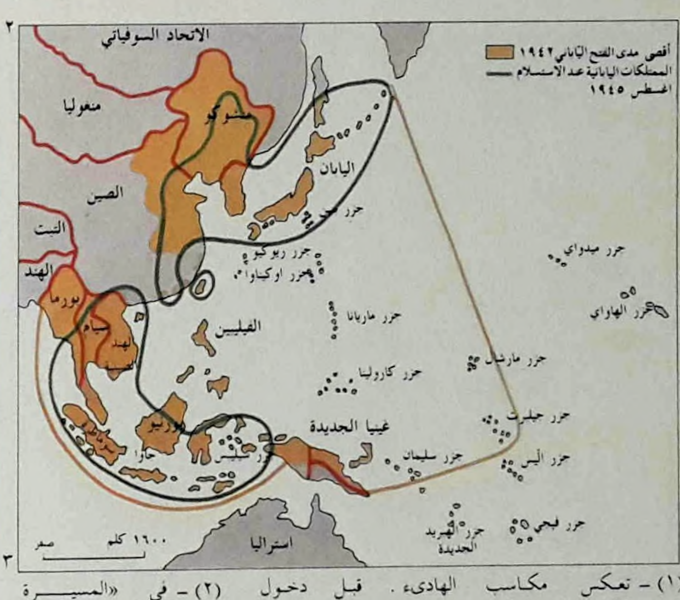
جاء انتعاش الجناح اليساري الثوروي ، في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، نتيجة للثورة الروسية ، ولكن فترة ما بين الحربين شهدت ايضا قيام احزاب اشتراكية في بريطانيا وفرنسا والمانيا لعبت دورا هاما في السياسات البرلمانية ، كما شهدت انتصار الاحزاب الاشتراكية في اسكندنافيا . مع ان الضائقة الاقتصادية وقيام الفاشية اديا الى سياسة قمع الاشتراكية ، كما حدث في المانيا وايطاليا واسبانيا ، فقد اديا ايضا الى احيائها في اوساط الطبقة المتوسطة وطبقة المفكرين . اعطت الحرب الاسبانية الاهلية (٦ و ١٠) محورا لليساريين يلتفون حوله ، كما وفر انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية للاحزاب الاشتراكية الفرصة لاحتلال مركز بارز في جميع البلدان الاوروبية تقريبا .

شرق آسيا (١٩١٩-١٩٤٥)

يسيطر على تاريخ شرقي آسيا من ١٩١٩ حتى ١٩٤٥ حدثان متصلان : ظهور القومية الصينية في عشرينات القرن الحالي ، وامتداد الامبريالية اليابانية بعد ١٩٣١ . تأثر كلا هذين الحدثين بالحضور الامبريالي الغربي في المنطقة .

ظهور القومية الصينية

كانت سنة ١٩١٩ سنة حاسمة في التاريخ الصيني . فالمظاهرات ضد منح مؤتمر باريس للسلام الممتلكات الالمانية في الصين لليابان ، وهو ما قبلت به الحكومة الصينية،تحولت الى حركة قومية لا سابق لها عندما احس صن





(١) - تعكس مكاسب اليابان الاقليمية في الحرب العالمية الثانية اهدافها الاصلية ، وهي القضاء على الصين للتمكن من التصدي للاتحاد السوفياتي ومن السيطرة على المحيط الهادىء الجنوبي الغربي . تعدل برنامج الاولويات العسكرية فيما بعد ، فعززت اليابان الهند عوضا عن الدفاع عن جزر المحيط الهادىء . قبل دخول الحلفاء الحرب ضد اليابان ، كانت الصين في حربها مع اليابان تبادل الوقت بالمسافات . فما ان توغل الجنود اليابانيون داخل الاراضي الصينية وسيطروا فيها على معظم المناطق الصناعية ، حتى وجدوا انفسهم محاطين بريف معاد لهم .

(٢) - في «المسيرة الطويلة» ، غادر حوالى ٨٥٠٠٠ جندي شيوعي و ١٥٠٠٠موظف مقاطعة كيانجسي تحت ضغط شيانغ كاي شيك سنة ١٩٣٤ . في السنة التالية ، تجمع بالقرب من ينان ٣٠٠٠٠ من الذين نجوا بعد مسيرة ٨٠٠٠ كلم . اضطر الجيشان الشيوعيان ايضا أن يعيدا تنظيمهما .

ياتسين بالمزاج الثوري السائد ، اعاد تنظيم «حزبه القومي» ليصبح حزب «الكومنتانج» . كان هذا الحزب ، الذي يدين بايديولوجية اشتراكية ويعتمد على جيش موال له بزعامة شيانج كاي شيك (٣) ، يتلقى المساعدة من الكومنترن ، ويتعاون مع الحزب الشيوعي الصيني الناشىء المؤسس سنة ١٩٢١ .

قاد شيانج كاي شيك حملة في الشمال لتوحيد الصين تحت سلطة الحكومة الوطنية التي انشئت في كانتون . سنة ١٩٢٧ ، اصطدم شيانج بيساريي الحزب ، لاسيما الكتلة الشيوعية داخل «الكومنتانج» ، وبعد ان طهر المناطق الخاضعة لسلطته (٥) نجح في اعادة توحيد حزب «الكومنتانج» على حساب اليسار والحزب الشيوعي الصيني ، واقام حكومة خاصة به في نانكنج ، وسيطر على

٤

	غوّاصات	مدمّرات	سفن حربية وطرّادات
بنتها اليابان ١٩١٩ ـ ١٩٢٠	٩	١٧	٤
بنتها ١٩٢١ ـ ١٩٢٤	٣٢	٣٤	١٢
بنتها ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨	١٩	٢١	٨
بنتها ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢	١٢	١٧	٧

٥



(٣) – مع حلول ١٩١٩ ، كان شيانج كاي شيك (١٨٨٧ – ١٩٧٥) المساعد العسكري البارز لسون يات سين . لدى وفاة سون سنة ١٩٢٥ ، هيمن على الكومنتانج واصبح رئيسا لجمهورية الصين التي استعادت وحدتها الى حد كبير سنة ١٩٢٨ . الا ان الحزب الشيوعي نازعه السلطة . اعترف الحلفاء بشيانج كاي شيك زعيما على الصين ابان الحرب ، فالغى الامتيازات الاجنبية في الصين سنة ١٩٤٣ ، وفي سنة ١٩٤٥ فاز بمقعد للصين في مجلس الامن التابع للامم المتحدة . ادى الصراع المتجدد مع الشيوعيين بعد الحرب الى هزيمته ، وانسحاب حكومته الى فورموزا (تايوان اليوم) سنة ١٩٤٩ .

(٤) – نمت قوة اليابان البحرية بسرعة في شرق آسيا بعد ١٩١٩ ، على الرغم من معاهدة ١٩٢٢ البحرية التي فرضت على الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان ان لا تستبدل ببواخرها الكبرى القديمة بواخر جديدة الا بنسبة ٥:٥:٣ . اما النسبة الخاصة بالبواخر الرديفة ، فقد حددت سنة ١٩٣٠ كما يلي : الطرادات الثقيلة ١٠:١٠:٦ ، الطرادات الخفيفة والمدمرات ١٠:١٠:٦ . اما الغواصات فتبنى بالتكافؤ .

(٥) – ابيد الشيوعيون في مجزرة شانجهاي في ١٢ ابريل ١٩٢٧ ، بعد ان قام «الوطنيون» بجنودهم وشرطتهم وعملائهم السريين بتجريد العمال ومنظمي الاضراب من سلاحهم ، وبحل اتحادات العمال .

بكين وقسم كبير من الصين سنة ١٩٢٨ .

التوسع الامبريالي الياباني

كانت تسود اليابان في العشرينات رأسمالية متشددة تنطوي على ديمقراطية محدودة في الداخل ، وعلى سياسة التعاون مع الدول الكبرى في الخارج . لكن في الثلاثينات ظهرت فيها قومية متطرفة وروح عسكرية شجعتا على انتشار فكرة الامبراطورية الاقتصادية المكتفية ذاتيا ، كرد على «الضائقة» التي كانت قد ازّمت التوترات داخل المجتمع الياباني . ثم اخذت الثقة بالسياسيين تتضاءل ، بينما راح ينمو ويتزايد التأييد الشعبي للعسكريين الذين كانوا مقربين من الامبراطور هيروهيتو (٨) . استغل الضباط اليابانيون في منشوريا حادث موكدن سنة ١٩٣١ (٧) لخلق وضع ادى سنة ١٩٣٢ الى اقامة







(٦) - تمّ توقيع استسلام اليابان على متن البارجة الامريكية ميسوري في خليج طوكيو في ٢ سبتمبر ١٩٤٥ ، وكان الجنرال دوجلاس ماكارثر يمثل الحلفاء . صدر القرار الياباني بالاستسلام في ١٤ اغسطس ١٩٤٥ عن الامبراطور .

(٧) - زحف الجنود اليابان على منشوريا بعد حادث موكدن الذي وقع في ١٨ سبتمبر ١٩٣١ . احتلت القوات اليابانية موكدن دون تفويض من الحكومة ، متذرعة بانفجار قنبلة على سكة الحديد المنشورية الجنوبية التي كان يديرها اليابانيون ، وبمناوشة مع الحراس الصينيين . تبع ذلك احتلال منشوريا بسرعة ، كما يبدو في الصورة .

(٨) - اعتلى الامبراطور هيروهيتو العرش الياباني سنة ١٩٢٦ ، بعد ان كان وصيا على العرش منذ سنة ١٩٢١ . كان منصبه بموجب الدستور المايجي مقدسا ومطلقا ، لكن لم تظهر أدلة كبيرة على الدور الذي لعبه الامبراطور فعلا في السياسات اليابانية .

(٩) - بعد سقوط نانكنج عاصمة شيانج كاي شيك ، في ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ ، أباد اليابانيون حوالى ١٠٠٠٠٠ نسمة من الصينيين .

دولة يابانية شكلية فيها ، هي مانشوكوو . كان احد الاهداف من التوسع الياباني نحو الجنوب سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ اقامة صين شمالية موالية تستخدم لحماية مؤخرة اليابان في حال نشوب حرب مع الاتحاد السوفياتي .

جلب تعدّي اليابان هذا هدنة مؤقتة بين «الكومنتانج» والحزب الشيوعي الصيني سنة ١٩٣٦ . كان شيانج قد اخرج الشيوعيين من قواعدهم الريفية الجنوبية واكرههم على القيام «بالمسيرة الطويلة» (٢) . الا ان زعيم الحزب الشيوعي ، ماوتسي تونج (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) عمل ، بتحريض من روسيا ، على اقامة جبهة موحدة ضد اليابان ، فاضطر شيانغ للموافقة . عندما اندلع القتال على نطاق واسع بين اليابان والصين سنة ١٩٣٧ ، اكره الجيش الياباني القوي قوات «الكومنتانج» على التراجع حتى تشانكنج في الجنوب الغربي . على اثر سقوط نانكنج في ديسمبر (٩) ، اعلنت اليابان سنة ١٩٣٨ قيام «النظام الجديد الياباني» بامرة الجيش الياباني في الاجزاء المحتلة من الصين ، وحكومة شكلية في نانكنج (١٩٤٠) .

امبراطورية اليابان
في الحرب العالمية الثانية .

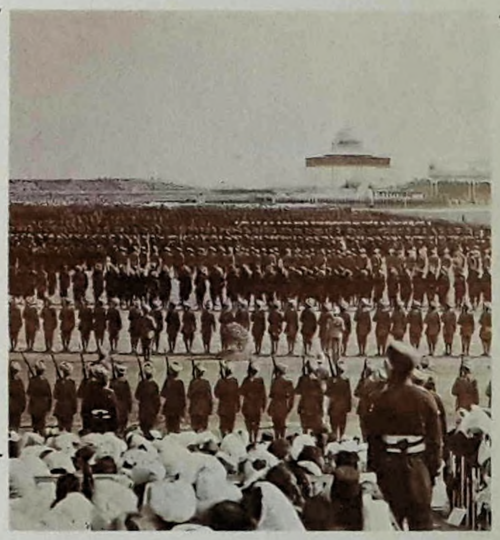
لتأمين الوصول الى مواد الخام الآسيوية الجنوبية الشرقية وللحؤول دون المساعدة الغربية لشيانج ، دخلت الجيوش اليابانية الهند الصينية سنة ١٩٤٠ ، وزحفت جنوبا سنة ١٩٤١ ، فردت امريكا وبريطانيا وهولندا بحظر شبه كامل على الصادرات الى اليابان في يوليو ١٩٤١ ، مخفضة بهذا الشكل موارد اليابان من النفط بنسبة ٩٠ بالمائة. لم تلبث اليابان ان تحالفت مع المانيا وحاولت ابعاد امريكا عن المنطقة باقدامها المفاجيء على اغراق «اسطول البحر الهادىء» في بيرل هاربر في ٧ ديسمبر ١٩٤١ .

مع حلول اغسطس ١٩٤٢ ، كانت اليابان قد استولت على امبراطورية برية وبحرية واسعة (١) ، ولم تتمكن قوة الحلفاء البحرية من الرد على هذه الانتصارات حتى اوائل ١٩٤٤ . في حين تمكن الوطنيون والشيوعيون الصينيون من تجميد اعداد ضخمة من القوات اليابانية في حرب استنزاف على اراضيهم ، وبعد ان اعيد بناء خطوط المواصلات الحليفة في بورما ، استطاعت الهجمات الامريكية البرمائية في الفيليبين وجزر جيلبرت ان تقيم قواعد لها فيها ، مما مكن القوة الجوية الامريكية من الوصول الى اليابان نفسها . بعد ان دمرت القنابل الذرية هيروشيما (٦ اغسطس) وناجازاكي (٩ اغسطس) من سنة ١٩٤٥ ، وافقت اليابان على الاستسلام غير المشروط في ٢ سبتمبر (٦) .

أدت هزيمة اليابان الى انقسام الصين بين «حكومة وطنية» كانت الحرب قد اضعفتها كثيرا وما لبثت ان انكمشت في فورموزا وبين الشيوعيين الذين اكتسبوا مزيدا من القوة ثم ما لبثوا ان استولوا على الصين كلها . تحولت اليابان في ظل الاحتلال الامريكي الى دولة ديمقراطية .

الحركة الوطنية الهندية

في سنة ١٩٠٠ ، كان حكم بريطانيا للهند يبدو اكثر رسوخا من اي وقت مضى ، وكان بقاء اللورد كرزون الاوتوقراطي الحكم نائبا للملك في الهند من ١٨٩٨ الى ١٩٠٥ دليلا على عزم البريطانيين على الاستئثار بحكمها ، كما ان تقويتهم للادارة الحكومية وتأمينهم للهدوء والنظام ومدهم لخطوط سكة الحديد وخطوط البرق جاءت توثق قبضة بريطانيا القوية على البلاد . كذلك كانت سياسة بريطانيا الخارجية ، على الصعيد العالمي ، قائمة على فكرة الاحتفاظ بالامبراطورية الهندية كالقاعدة الكبرى الثانية (بعد بريطانيا نفسها) لقوة





(١) – بالاضافة الى الولايات التي حكمها البريطانيون حكما مباشرا ، فانهم ظلوا المرجع الاخير للسلطة في اكثر من ٦٠٠ من الامارات ذات الاستقلال الذاتي . منذ ايام الملكة فيكتوريا ، حول البريطانيون «الدربار» (وهو تقليد هندي يقوم فيه اصحاب الاقطاعات الصغيرة بتقديم الولاء لسيدهم) الى رمز يعبر عن ولاء الامراء الهنود للعاهل البريطاني . حضر الملك جورج الخامس شخصيا «الدربار» الذي جرى في العام ١٩١١ .

(٢) – تبنى غاندي شعار المغزل سنة ١٩٢٠ . كان يدعو الهند الى صناعة ما تحتاجه من الالبسة بنفسها ، فهدد بذلك تصدير المنسوجات من بريطانيا الى الهند ، واعطى الهنود شعور الثقة بالنفس الضروري للاستقلال .

بريطانيا في العالم . مع ذلك ، ففي خلال خمسين عاما ، انقسمت هذه الامبراطورية الهندية على نفسها ، واخرج الحكام البريطانيون منها .

نمو الروح الوطنية

يرجع بعض السبب في هذا الى نمو الروح الوطنية التي الهبت قلوب الهنود في جميع انحاء شبه القارة . بدأت هذه الحركة الوطنية بداية متواضعة في اواخر القرن التاسع عشر مع تأسيس حزب المؤتمر الوطني الهندي ، ونالت تحبيذ البريطانيين في بادىء الامر ، لمحاولتها تجاوز الانقسامات الطبقية والدينية والاقليمية التي كانت تخنق الجهود الرامية الى تحويل الهند الى بلد عصري . لكن لم يمض وقت طويل ، حتى رأى البريطانيون في هذه الحركة تهديدا خطرا لسلطتهم ومصدرا للقلاقل والفوضى . وحين

٦



٥

(٣) – كان جواهر لال نهرو (١٨٨٩ – ١٩٦٤) ، اول رئيس وزراء للهند المستقلة . تلقى علومه في انجلترا وظهر كشخصية قيادية في حزب المؤتمر في الثلاثينات وكخلف لغاندي .

(٤) – محمد علي جناح (١٨٧٦ – ١٩٤٨) كان مؤسس باكستان التي نشأت اثر تقسيم الهند القديمة الموحدة الى دولتين . كان يؤمن ان هذه هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على مصالح المسلمين .

(٥) – في امريتسار في ١٣ ابريل ١٩١٩ ، قتل الجنود البريطانيون اكثر من ٣٠٠ من الهنود العزل رميا بالرصاص اثناء احدى التظاهرات الممنوعة . ارغمت السلطات البريطانية الهنود على الاعتذار علنا بعد المظاهرة ، لان البريطانيين ظنوا ان ذلك مما سيشجع الهنود على الانصياع الى النظام . تظهر الصورة احد السيخ اثناء القاء القبض عليه .

(٦) – كان الجيش الهندي مصدر نفع كبير للبريطانيين في الدفاع عن امبراطوريتهم الشاسعة . حاربت الفرق الهندية في الحرب العالمية الاولى على الجبهة الغربية ، بينما استخدمت بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ في بورما والشرق الاوسط والبحر المتوسط وشرق افريقيا . كان فقدان خدمات الهنود بعد الاستقلال عام ١٩٤٧ خسارة كبيرة لقوات بريطانيا العسكرية .

تصاعدت اعمال العنف ضد البريطانيين الاستعماريين قبل سنة ١٩١٤ ، كان ذلك سببا في ازدياد عداء هؤلاء للحركة الوطنية لاسيما وهي ترمي الى توسيع مدى اشتراك اهل البلاد في الحكم .

جاء اول انتصار للحركة الوطنية الهندية في السنين التي تلت الحرب العالمية الاولى مباشرة ، وذلك بظهور المهاتما غاندي (١٨٦٩ - ١٩٤٨) (٢) كقائد ملهم وكرائد لسياسة عدم التعاون مع البريطانيين واللاعنف ومعارضة الحكومة بالمظاهرات السلمية ورفض دفع الضرائب . مما ساعد غاندي على ان يثبت للبريطانيين ان غالبية الهنود ترفض حكمهم ، هي تلك الاضرار التي لحقت بالهند من جراء اشتراك الهنود في الحرب العالمية الاولى .

الانقسامات بين الهنود

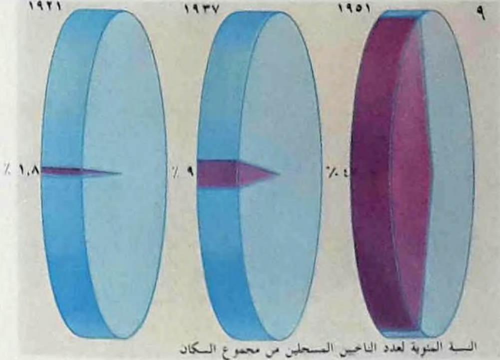
رغم جميع انتصارات الحركة الوطنية



(٧) - باقتراب الاستقلال ، اشتد التوتر والاصطدامات بين مختلف الطوائف في الهند . كان اخطرها ما جرى بين الهندوس والمسلمين ، ولاسيما في المناطق التي كانت فيها اعداد الطرفين متساوية تقريبا . سبب اقتراح التقسيم مرارة شديدة . تمثل الصورة هنا حصيلة ما بعد الاضطرابات المؤسفة في كلكتا سنة ١٩٤٦ ، عندما مات ما لا يقل عن ٤٠٠٠ شخص في الاقتتال الطائفي .

(٨) - كان جنود «الجورخا» اصلا ولا يزالون عنصرا مميزا في الجيش البريطاني . جاؤوا من القبائل الجبلية من النيبال التي كانت قد هزمت في الحرب مع البريطانيين في حروب الجورخا ١٨١٤ - ١٨١٦ .

(٩) - توسعت الديمقراطية السياسية في الهند في اصلاحات العامين ١٩١٩ و ١٩٣٥ التي اخذ الهنود بموجبها حق الاشتراك في الحكم . حصل الهنود على حق الاقتراع العام سنة ١٩٤٧ .



النسبة المئوية لعدد الناخبين المسجلين من مجموع السكان

بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ ، فقد واجهت هذه الحركة صعوبات كبيرة في سعيها لازاحة السلطة البريطانية . فما كادت الهند تستقر بعد الحرب العالمية الاولى ، حتى تبددت سياسة عدم التعاون مع البريطانيين . فقد كان الكثيرون من الهنود قد بدأت تراودهم شكوك عميقة حيال الساسة الذين قادوا حزب المؤتمر . من ناحية اخرى ، كان ملاكو الارض في الارياف ، الحريصون على ابقاء الوضع الاجتماعي الراهن ، يمقتون في الاساس ساسة المدن المفرنجين والمسيطرين على الحركة الوطنية ، اذ كانوا يخشون انه في حالة تصاعد قوة هؤلاء الساسة وتمكنهم من طرد البريطانيين ، فسيكون هدفهم التالي الايقاع باصحاب الاملاك المحافظين والمتمتعين بقوة كبيرة في الارياف . كذلك لم يرغب كثير من الهنود في الديمقراطية ونظام الصوت الواحد للانسان الواحد ، كما خاف الهنود الذين يسكنون اقاليم اكثريتها من طائفة غير طائفتهم من ان يؤدي قيام حكومة شعبية الى تهديد مصالحهم وربما حياتهم .

هكذا بقيت المبادرة في يد البريطانيين الذين صاروا يحاولون الالتفاف حول الحركة الوطنية بمنح الهنود قسطا كبيرا من المشاركة في تسيير امورهم الداخلية ، كما انهم اكتشفوا ان تفويض السلطات للهنود هو اسلوب فعّال لمنع اتحاد جميع الهنود ضدهم . وكانوا يرمون من وراء كل ذلك الى ابقاء الهند ضمن اتحاد فدرالي معهم ، بحيث تظل مرتبطة ارتباطا وثيقا ببريطانيا في الشؤون الدولية . وبحيث يستطيعون الاستمرار في الاستفادة من الجيش الهندي ، ومن ثروات الهند .

نسف هذه الحسابات الاستعمارية «حادثان» . الاول نشوب الحرب العالمية الثانية ، التي اشتركت فيها الهند مرة اخرى ، والتي اثارت نقمة الهنود اكثر من نقمتهم في الحرب العالمية الاولى . وفي غضون ذلك ، كانت سمعة بريطانيا تتقوض بسبب الهزائم المهينة التي منيت بها على يد اليابانيين . اما «الحادث» الثاني ، فكان اصرار قادة الجماعات المسلمة الكبيرة في شمال الهند على خلق باكستان كدولة اسلامية مستقلة عن الهند .

الاستقلال

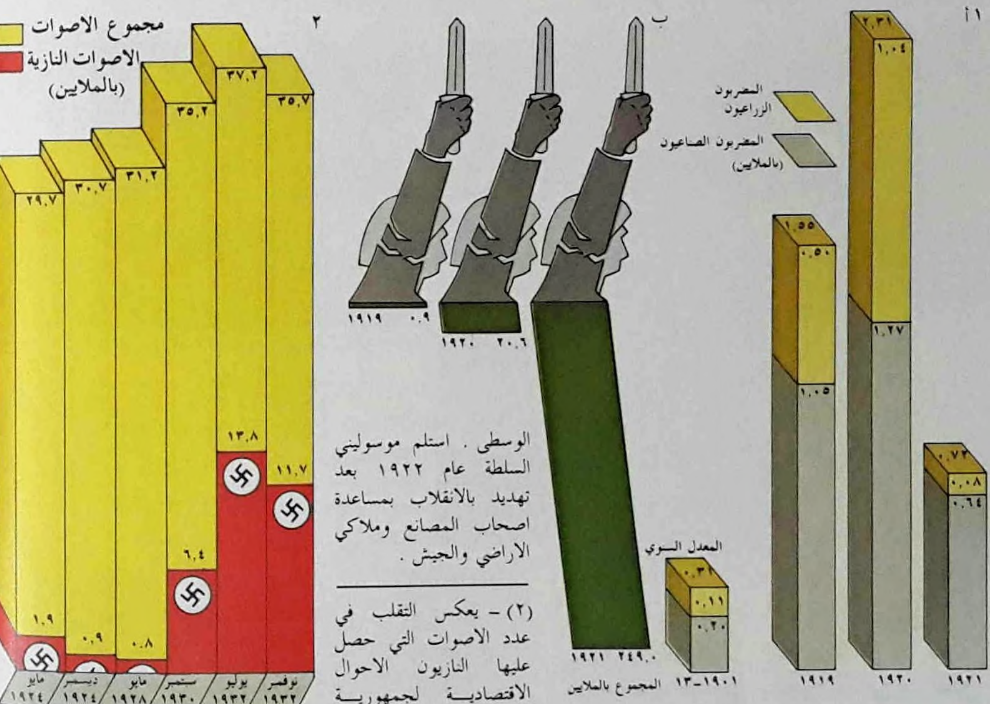
حصلت الهند على استقلالها بطريقة لم يتعمدها البريطانيون . فتقسيم شبه القارة الهندية حطم النظام الفدرالي الدقيق الذي كان البريطانيون يعتمدونه للاستفادة من دور الهند الدولي كعماد للامبراطورية (الكومنولث) ، كما ان فقدانهم للهند جعلهم يختفون من العالم الواقع شرق السويس في اقل من ٢٠ عاما . في الهند نفسها ، واجه الاستقلال مشاكل هائلة بقيت بدون حل : التضخم السكاني في الريف الهندي ، الاخفاق في زيادة المحصول الغذائي بالقدر الكافي ، الفقر المدقع في كل من القرية والمدينة . ولهذا السبب يجب اعتبار النصر الذي حققته الحركة الوطنية الهندية سنة ١٩٤٧ مجرد بداية . اما بناء الدولة الحديثة ، فهو من مسؤولية المستقبل .

قيام الفاشية

نشأت الفاشية في السنوات التي جاءت بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ونمت لتصبح قوة ايديولوجية وسياسية رئيسية في كثير من البلدان الاوروبية ، وعلى الاخص في ايطاليا والمانيا . بدت كأنها تعبير عن شعور حاد بالقومية ترافقه في الغالب اصداء اجتماعية وجماهيرية قوية ، فلاقت تأييدا من جماعات مختلفة في البلدان التي عانت من انهيار تام في اقتصادها ومجتمعها ، او في البلدان التي بدت مهددة بمثل هذا الانهيار .

الايديولوجية الفاشية

مع ان الفاشية كانت تشارك القومية



(١) – في سنة ١٩١٩ ، انهارت ايطاليا بسبب خسائر الحرب والتضخم والبطالة . نمت الفاشية كرد فعل على الخوف من قيام ثورة يسارية تشعلها الاضرابات المتزايدة

(أ) . ارتفعت عضوية الحزب الفاشي (ب) من اقل من ١٠٠٠ في سنة ١٩١٩ الى ٢٤٩٠٠٠ في سنة ١٩٢١ . وجاء الاعضاء في الغالب من الطبقات الوسطى . استلم موسوليني السلطة عام ١٩٢٢ بعد تهديد بالانقلاب بمساعدة اصحاب المصانع وملاكي الاراضي والجيش .

(٢) – يعكس التقلب في عدد الاصوات التي حصل عليها النازيون الاحوال الاقتصادية لجمهورية فايمار . فقد ربح النازيون ١,٩ مليون صوت و ٣٢ مقعدا في الرايخستاج في مايو ١٩٢٤ . وحينما تغلبت جمهورية فايمار على الصعوبات التي خلفتها الحرب وعلى التضخم العام ١٩٢٣ ، هبطت اصوات النازيين الى ادنى نقطة عام ١٩٢٨ ، اذ لم يحصلوا على اكثر من ١٢ مقعدا في الرايخستاج . لكن تحت ضغط الركود الاقتصادي

الرجعية والانظمة الديكتاتورية المحافظة في كثير من خصائصها ، فقد كان لها خصائص مميزة انفردت بها ، وقد استمدتها من رفضها لليبرالية القرن التاسع عشر الفردية .

تبنت الايديولوجية الفاشية افكار عدد من المفكرين ، ولكنها كانت في الغالب تشوه هذه الافكار او تسيء تطبيقها . من المؤكد ان الفاشية لم تكن في يوم من الايام ايديولوجية واضحة كما كانت الماركسية ، لكنها بقيت منفتحة لعدد من التفسيرات المتباينة ، التي كانت تختلف فيما بينها في مدى تركيزها على ناحية او اخرى من مقومات الايديولوجية . أهم الذين اسهموا في تكوين الافكار الفاشية هم فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الذي ركّز على الحاجة الى دينامية «السوبرمان» ، وهنري برجسون

٣

طليان ٥٠٠٠٠

برتغاليون ٢٠٠٠٠

ألمان ١٠٠٠٠ - ١٦٠٠٠

ارلنديون ٦٠٠

= ١٠٠٠

٤

المساعدة للفاشيست الاسبان ١٩٣٦-١٩٣٩

المساعدة المالية (بملايين الليرات الاسترلينية)

الايطالية ٨٠

الالمانية ٤٣

PARAIT LE 15 DE CHAQUE MOIS

lisez LE CAHIER JAUNE

بعد العام ١٩٢٩ ، ومع تصاعد البطالة واستقطاب الطبقات الوسطى ، ارتفع عدد اصوات النازيين بسرعة . مع حلول العام ١٩٣٢ ، كان الحزب النازي اكبر الاحزاب ، اذ حصل على ١٣,٨ مليون صوت . اصبح هتلر مستشارا للرايخ في يناير ١٩٣٣ .

(٣) - مع حلول العام ١٩٣٦ ، وسعت كل من ايطاليا والمانيا نفوذهما في السياسات الدولية . واعطى اندلاع الحرب الاهلية في اسبانيا فوائد دبلوماسية وعسكرية لكلا البلدين . كان موسوليني يأمل بالحصول على قواعد عسكرية في غرب المتوسط . في عام ١٩٣٧ ، بدأ الوهن يدب في الانتاج الحربي الايطالي . ظن هتلر ان بامكانه ان يزرع بذور النزاع بين بريطانيا وفرنسا وان يزيد ، في الوقت ذاته ، ارتباط ايطاليا به . استعمل اسبانيا لتدريب قواته الجوية بما في ذلك «فرقة الكوندور» ، وهي قوة مؤلفة من ٦٥٠٠ فرد معظمهم من القوات الجوية . منذ ١٩٣٧ ، اصبحت اسبانيا مجرد مشهد جانبي .

(٤) - ساعد عدم الاستقرار السياسي في فرنسا على تفجير الشعور «باللاسامية» ، فتجلى في المنشورات كمجلة «الدفتر الاصفر» الظاهر في الرسم هنا . تعني «اللاسامية» تلك الحركة المعادية لليهود التي كانت تظهر احيانا في الغرب كرد فعل على نقص الولاء القومي عند اليهود للاوطان التي كانوا يعيشون فيها .

(١٨٥٩ ـ ١٩٤١) الذي اطرى الغريزة ووضعها فوق العقل ، وجورج سوريل (١٨٤٧ ـ ١٩٢٢) ، الذي شدّد على قيمة العمل الاخلاقية .

الفاشية الايطالية وموسوليني

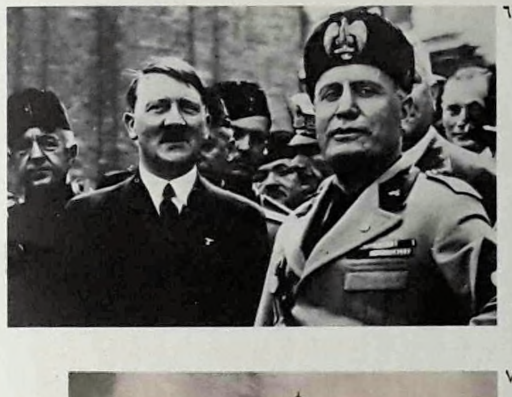
خرجت ايطاليا من الحرب العالمية الاولى في حالة فشل ويأس من جراء خسائرها في الحرب ، ولان تسوية فرساي لم تحقق لها الوعود التي كانت اعربت بها لدخول الحرب . ثم جاءت البطالة والاضرابات وأعمال العنف (١) تدعم تلك العوامل ، فأدت الى انهيار الحكم البرلماني .

في مثل هذا الوضع ، قام بنيتو موسوليني (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥) (٦) ، وكان معلم مدرسة من دعاة الاشتراكية سابقا ، بتنظيم جماعات (فاشيو) مناهضة

٥



٦



(٥) ـ الفيلد مارشال بول فون هندنبرج (١٨٤٧ ـ ١٩٣٤) ، خرج من الحرب العالمية الاولى بطلا قوميا ، وصار رئيسا لجمهورية فايمار في سنة ١٩٢٥ . لكنه تحت ضغط القوميين ، عيّن هتلر مستشارا للرايخ .

(٦) ـ مع حلول العام ١٩٣٤ ، كانت ايطاليا والمانيا تحت حكم ديكتاتورين فاشيين . تسلم موسوليني (الى اليمين) زمام السلطة قبل هتلر (الى اليسار) بمدة طويلة . ولكن الاخير سيطر على السياسات الدولية . تأسس محور روما ـ برلين عام ١٩٣٦ .

٧



(٧) ـ لم يكن وصول هتلر الى سدة المستشارية الا نصف الطريق . فاخذ يترقب الظروف المؤاتية لفرض نظام الطوارىء من اجل تعزيز مركزه ، فسنحت الفرصة حينما اقدم شاب هولندي اسمه مارينوس فان درلوبي على اضرام حريقة الرايخستاج في ٢٧ فبراير ١٩٣٣ . ظن الكثيرون في بادىء الامر ان النازيين هم الذين اشعلوا النار ، لكن تبين فيما بعد انهم استغلوا الحريقة لاصدار قانون الطوارىء كي يتمكنوا بواسطته من حل الاحزاب المنافسة لهم وزجّ اخصامهم السياسيين في السجون وحصر السلطة في يد هتلر والحزب النازي . وهذا ما فعلوه .

للاشتراكية لمحاربة الجماعات اليسارية باساليب العنف ، فلاقى تأييدا من عناصر محافظة مختلفة . وفي سنة ١٩٢١ ، كان لديه أكثر من ٨٠٠ فرع لمنظمته «القمصان السود» . استغل سوء تنظيم القوى اليسارية ، ونظّم «المسيرة الى روما» ، التي انتهت بتنصيبه رئيسا للوزراء في اكتوبر ١٩٢٢ .

صبّ موسوليني اهتمامه على تصفية مقاوميه وارهابهم ، وايصال الحزب الفاشي الى سدة الحكم ، ودعم مركزه الشخصي . وضع الصحافة والمحاكم والنقابات تحت سيطرته ، وعقد اتفاقية مع كنيسة روما الكاثوليكية . بادر بالقيام بمشاريع اشغال عامة ، كتجفيف مستنقعات البونتين ، وبدأ بحملة لتحقيق الاكتفاء الذاتي لايطاليا . تميزت سياسته الاقتصادية بعد سنة ١٩٢٥ بتدخل الدولة المتزايد ، حينما حاول انشاء «دولة تعاونية» يتعاون فيها اصحاب الصناعات والعمال لمصلحة الدولة . ارفق هذه السياسات بسياسة خارجية استعمارية تمثلت في حرب الحبشة ، وفي تورطه في اسبانيا لمساعدة فرنسيسكو فرانكو .

هتلر والفاشية الالمانية

تأسس الحزب النازي في المانيا (الحزب القومي الاشتراكي) في فترة خيبة الامل والفوضى الاقتصادية التي سادت سنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى . التحق ادولف هتلر (١٨٨٩ – ١٩٤٥) (٦) بالحزب ، فوسعه واجرى تعديلات جذرية فيه ، ونال الحزب بعض المقاعد في الرايخستاج (٣) . سنة ١٩٢٣ ، حاول هتلر قلب حكومة بافاريا في «انقلاب ميونيخ» ، ولكنه فشل واودع في السجن .

في اواسط العشرينات واواخرها ، تناقص التأييد للحزب النازي بانتعاش جمهورية فايمار . ولكن تفاقم حالة الكساد الاقتصادي التي بلغت الذروة بعد عام ١٩٢٩ ، ملأ صفوف الحزب بالشباب والعاطلين عن العمل وبعناصر الطبقة الوسطى المذعورة وبالعناصر المحافظة . كان اليهود متسلطين على كثير من مرافق المانيا الاقتصادية، لذلك كان العداء لليهود (٣) ، في نظر هتلر وبعض اتباعه ، جزءا هاما من برنامج العمل ، اذ اعتبروا اليهود السبب في مصائب المانيا وانهم دخلاء على الشعب الالماني الآري .

بدا ان التأييد للنازية قد بلغ اقصى مداه بنهاية عام ١٩٣٢ . فقد أخذ الحزب يعاني صعوبات مالية بتوقف المساعدات المالية من رجال الصناعة الكبار . وفي يناير ١٩٣٣ تسلم هتلر منصب المستشار بائتلاف مع الجناح اليميني للحزب القومي الاشتراكي الذين اعتقدوا انهم سيتمكنون من ضبط هتلر . بعد حادث احتراق الرايخستاج (٧) ، استطاع هتلر ان يمارس سلطة ديكتاتورية . لكن حكم الارهاب الذي مارسه الجستابو جعل ذلك العهد اكثر شراسة وقسوة من حكم موسوليني في ايطاليا . وقد نهجت النازية على غرار فاشية موسوليني سياسة خارجية توسعية في اوروبا ، واعطت حلا لمشكلة البطالة عن طريق الاشغال العامة والتسلح .

البلاد العربيّة بين الحربين - ١ (المشرق العربي)

كانت فترة السنوات العشرين التي انقضت بين الحربين العالميتين (١٩١٩ - ١٩٣٩) فترة مريرة في تاريخ الوطن العربي في المشرق والمغرب على السواء ، لانها امتلأت من جهة بالثورات والدماء والنضال ، كما امتلأت من جهة اخرى بكل مظالم الاستعمار الذي بلغ في تلك الفترة اوج تسلطه واستغلاله للشعوب . تفنن المستعمرون في ابتكار التسميات المختلفة لتسلطهم: فهو استعمار او حماية او انتداب او دمينيون او الحاق او ضم ، والفروق بين هذه التسميات قانوني شكلي . اما الادارة فكانت في كل الاحوال متشابهة تقوم على استغلال

١



٢



٣



٤



٥



(١) - ابقى الانجليز المنطقة الواقعة شرقي نهر الاردن خارج نطاق وعد بلفور لاسباب استراتيجية . وفي لقاء بين تشرشل والشريف عبد الله به الحسين بالقدس (ابريل ١٩٢١) اقيمت الامارة الاردنية . في الصورة الامير عبد الله يهدي المستشار الانجليزي (بيك)

الموارد والاسواق والمواقع الاستراتيجية ، وخنق الارادة الحرة للسكان ، وتسيير البلاد في شؤون الدفاع والخارجية والمال والاقتصاد والتجارة الخارجية ضمن حاجات ومصالح الدولة المستعمرة (٧) .

الدول المستقلة

دولتان عربيتان فقط نجتا من الاستعمار وان لم تنجيا من تدخلاته ومحاولاته هما :

المملكة العربية السعودية واليمن . استطاع سلطان نجد عبد العزيز آل سعود ، وهو يضمن التأييد الانجليزي ، ان يستولى على امارة حائل من خصومه آل الرشيد سنة ١٩٢١ ثم ان يحارب الحسين «ملك الحجاز» (١٩٢٣ ـ ١٩٢٥) وابنه ويحتل مكة ، ثم ان يضم امارة عسير اليه ، ويعلن توحيد هذه المناطق باسم المملكة العربية السعودية (اواخر سنة ١٩٣٢) . وربط

٦



باشا سيفا مرصعا .

(٢) ـ حاولت فرنسا تمزيق سوريا عقب احتلالها ١٩٢٠ فجعلتها ، بعد ضم ٤ اقضية منها الى لبنان ، اربع دول ومنحت سنجق الاسكندرونة وضعا خاصا . وجندت بعض الاقليات المحلية لقمع الثورات . الصورة لطليعة الكتيبة الشركسية بدمشق عام ١٩٤١ .

(٣) ـ تولى فيصل الثاني (١٩٣٥ ـ ١٩٥٨) حكم العراق عشرين سنة . توج رسميا عام ١٩٥٣ . قتل في الانقلاب العسكري عام ١٩٥٨ .

(٤) ـ بين ١٩٢١ ـ ١٩٥٠ حكم الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح . جرت في عهده محاولات لايجاد نوع من مشاركة الشعب في الحكم ، وأسست الدوائر الحكومية ، وتفجر البترول عام ١٩٤٦ .

(٥) ـ قامت سلسلة واسعة من الثورات ضد الحكم الفرنسي . الثورة السورية الكبرى قامت ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ . تولى قيادتها سلطان الاطرش (١٨٨٥ ـ ١٩٨٢).

(٦) ـ كانت الهيئة العربية العليا التي شكلت في فلسطين عام ١٩٢٠ هي التي تمثل وجهة النظر العربية وتقود النضال حتى عام ١٩٤٨ .

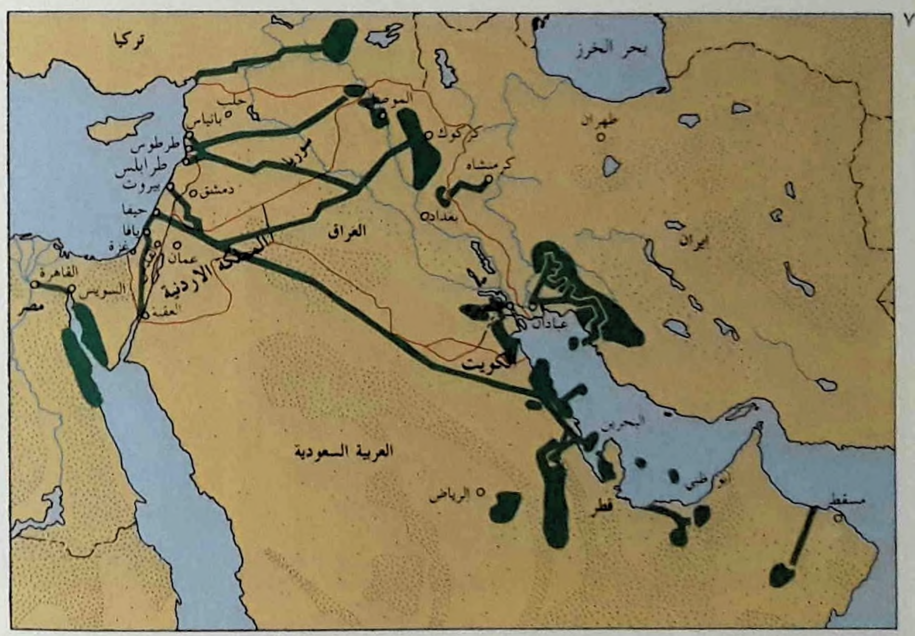
المملكة بعضها ببعض بشبكة قوية من الاتصالات ، كما تمكن من اقامة تنظيم اداري مركزي ، وعلاقات خارجية .

الدولة المستقلة الثانية كانت امامة اليمن التي تخلصت من الربقة العثمانية منذ سنة ١٨٩٠ . حكمها منذ ١٩٠٤ حتى ١٩٤٨ الامام يحي حميد الدين حكما اوتوقراطيا دينيا . وسار بها في طريق العزلة الشديدة ، بحجة صيانتها من التدخل الاجنبي . بعد ان اصطدم مع المملكة السعودية سنة ١٩٣٤ بشأن الحدود عمد الى تحديث الجيش .

مقاومة الاستعمار الانجليزي

كان الاستعمار الانجليزي يمتد بشكل طوق حول الجزيرة العربية من عدن الى عمان الى الخليج الى العراق الى الاردن وفلسطين ومصر والسودان . دعمت

٧



(٧) ـ بمعاهدة سيفر بين الحلفاء وتركيا (١٠ اغسطس ١٩٢٠) ، ثم بمعاهدة لوزان التي عدلتها (٢٤ يوليو عام ١٩٢٣) ، فصلت آخر الاراضي العربية (وهي الهلال الخصيب) عن تركيا لتسقط في ايدي الاستعماريين الانجليزي والفرنسي . استقرت آخر خطوط الحدود التي فرضتها التسويات الاستعمارية في تلك الاراضي (اعتمادا على اتفاقية سايكس بيكو) على الشكل الذي يرى في المصور . وهكذا أضحت المنطقة الممتدة بين جبال طوروس وخليجي العقبة والبصرة خمس دول فرض عليها الانتداب فرضا (١٩٢٠) . لعبت الاطماع النفطية (نفط العراق خاصة) والاستراتيجية والسياسية دورها الاساسي والوحيد في رسم الحدود دون حساب للشعوب . بذلك كمل التقسيم الاستعماري للبلاد العربية التي ليس في حدودها الحالية من الخليج الى المحيط اي حد وضعه عربي او اشترك فيه عربي (سوى حدود اليمن ـ السعودية ، مايو ١٩٣٤) .

بريطانيا سلطتها في عمان بتأييدها سلاطين بوسعيد ضد الامامة الاباضية . لم يكن لدى امارات الخليج ما تقف به ضد بريطانيا التي كانت تديرها بواسطة المقيم البريطاني العام . حكم الكويت ما بين الحربين الشيخ احمد الجابر الصباح (١٩٢١ - ١٩٥٠) (٤) بينما كان الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة يحكم البحرين (١٩٢٣ - ١٩٤٢) التي ظهر فيها النفط سنة ١٩٣٢ . وكان الحاكم في قطر هو عبد الله بن قاسم آل ثاني (١٩١٣ - ١٩٤٩) . اما مشيخات الساحل الجنوبي فكان فيها شخبوط بن سلطان (١٩٢٨ - ١٩٦٧) في ابو ظبي ، وسعيد آل مكتوم في دبي (١٩١٢ - ١٩٥٨) ، وشيوخ القواسم في الشارقة .

زاد تشبث بريطانيا بالخليج فيما بين الحربين بظهور الثروة النفطية على اطرافه الشرقية في فارس والشمالية في العراق والغربية فيما بين الكويت حتى امارات الجنوب . نافستها الاحتكارات الامريكية على النفط ، ولكن لم تكن سلطتها مهددة في الخليج ، لذلك انصرفت الى توطيدها في العراق . الثورة التي قامت في جنوبه سنة ١٩٢٠ اجبرت بريطانيا على وضع صيغة للحكم تستر به احتلالها ، فتوجت الملك فيصل بن الحسين على العراق (١٨٨٥ - ١٩٣٢) ، وجرت الحركة الوطنية الى الدوران في سلسلة المعاهدات التي كانت تقترحها ، ثم تعدلها حتى الحرب العالمية الثانية .

خلال ذلك توفي الملك فيصل (١٩٣٢) ثم توفي ابنه غازي (١٩١٢ - ١٩٣٨) ونصب على العرش الحفيد فيصل الثاني الطفل (٣) بوصاية خاله الامير عبد الآله بن علي . حاول الوطنيون التمرد على سياسة المفاوضة ، لكن الانقلاب الذي قام به بكر صدقي (١٩٣٦) فشل بمقتله في السنة التالية . كما ان ثورة رشيد عالي الكيلاني ايام الحرب (١٩٤١) فشلت بدورها .

في سورية الجنوبية فصل الانجليز فلسطين عن الاردن . خططوا للاولى مصيرها الصهيوني ولقوا في ذلك الثورات والاضطرابات المتصلة ، بينما اقاموا في الاردن امارة اعطوها للامير (الملك فيما بعد) عبد الله بن الحسين ، وجعلوا جيشها وادارتها في ايديهم (١) .

مقاومة الاستعمار الفرنسي

نزل الفرنسيون في لبنان اواخر الحرب العالمية الاولى دون عناء . لكنهم لقوا المقاومة الشديدة في داخل سوريا بعد ان خنقوا الحكم الاستقلالي الوطني فيها بمعركة ميسلون (يوليو ١٩٢٠) . قامت ضدهم الثورات المتصلة التي بلغت اوجها في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ (٥) . لجأ الفرنسيون الى سياسة المفاوضات والتفرقة (٢) . اقاموا جمهورية تحت ايديهم في سورية (١٩٣٢) كانوا نظموا مثلها في لبنان (١٩٢٦) . حين ازدادت الاضطرابات في سورية ، فاوضوا الوطنيين على معاهدة ١٩٣٦ ، وفاضوا لبنان على مثلها ، وان بقيت المعاهدتان دون تنفيذ حتى الحرب العالمية الثانية .

البلاد العربيّة بين الحربين -٢ (افريقية العربيّة)

كان الاستعمار في المشرق العربي بين الحربين (١٩١٩ - ١٩٣٩) ثنائيا فرنسيا وانجليزيا لكنه كان في افريقيا العربية رباعيا . كان هناك استعمار ثالث : ايطالي في ليبيا وأريتريا والصومال ، واستعمار رابع اسباني في الريف المغربي والصحراء المغربية . وفي كل مكان ، اعتبارا من القرن الافريقي الى وادي النيل وحتى اقصى المغرب ، كانت التحركات والثورات ضد القبضة الاستعمارية تتوالى ، وان يكن دون كبير نجاح .

الثورات على الاستعمار

عرفت المنطقة العربية الافريقية عددا

١



٢



(١) - قضى الايطاليون عشرين سنة (١٩١٢ - ١٩٣١) يحاربون الشعب الليبي في عشرات المعارك المشهودة . آخرها كانت محاكمة عمر المختار (ولد ١٨٥٨ في ١٥ سبتمبر ١٩٣١) (اللوحة من رسم عوض اعبيدة طبقا لصور المحاكمة الاصلية) . وقع به جواده في معركة وادي بوطاقة (١١ سبتمبر

من الانتفاضات الثورية ضد الاستعمار كان ابرزها ثورة ليبيا وثورة الريف .

١ ــ غزا الاسطول الايطالي سواحل ليبيا سنة ١٩١١ . انسحبت الدولة العثمانية من البلاد سنة ١٩١٢ فوقع عبء الدفاع على أهلها . كادت المقاومة الليبية تطرد الايطاليين من البلاد سنة ١٩١٥ . لكن الانجليز وضعوا ثقلهم ضد القوات الوطنية خوفا على قناة السويس فأجبروها على وقف القتال سنة ١٩١٧ في برقة . اما طرابلس فأقامت نظاما جمهوريا سنة ١٩١٨ . في سنة ١٩٢٠ هادنت ايطاليا الطرفين بسبب اضطراب اوضاعها الداخلية . حين وصل موسوليني والفاشية الى الحكم اعلن ان ليبيا ايطالية ، وكان ذلك ايذانا بعودة المقاومة . انسحب ادريس السنوسي لاجئا سياسيا الى مصر ، بينما نظم المقاومة وقادها عمر المختار ،

٣أ

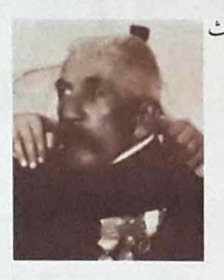


ب

ت



ث



١٩٣١) فاسر ، ونقل في طراد حربي من سوسة الى بنغازي . صدر الحكم بالاعدام ، ونفذ في اليوم التالي ببلدة سلوق ، امام ٢٠ الف شاهد .

---

(٢) ـ برز سعد زغلول (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧) كزعيم اول لمصر بعد تشكيل «الوفد» ، والمطالبة بالاستقلال (١٩١٩) . ساقتهم السلطات الى مالطة (مارس) ، فثارت البلاد . فالغيت الحماية (فبراير ١٩٢٢) ، ونشر الدستور (ابريل ١٩٢٣) . وتسلم سعد الوزارة (يناير ١٩٢٤) . لكنه استقال رافضا استغلال الانجليز لمقتل سردار الجيش المصري (لي ستارك) وطلبهم انسحاب الجيش المصري من السودان .

---

(٣) ـ وقع مولاي حافظ سلطان مراكش معاهدة الحماية مع فرنسا (مارس ١٩١٢) ووافقت عليها اسبانيا في نوفمبر) ، ثم تنازل عن العرش لاخيه مولاي يوسف ، واختار المنفى . سمي المارشال ليوتي (١٨٥٤ ـ ١٩٣٤) (ث) مقيما عاما (بقي حتى ١٩٢٥) فقمع بقسوة الاضطرابات التي اعقبت التنازل في فاس وغيرها . لكنه عجز عن اخماد المقاومة في الشمال والجنوب والجبال . اشتدت الحركة بثورة عبد الكريم الخطابي (ت) في الريف ، وهزيمته للاسبان عدة هزائم أهمها (انوال ١٩٢١) . كاد رجاله (أ) يحتلون فاس . المدافع الاسبانية ، كهذه التي نصبت في تطوان (ب) كانت عاجزة . عند ذلك تعاون الفرنسيون والاسبان . حشدوا ٢٨٠ الف جندي حتى قمعوا الثورة . استمر الفرنسيون في قتال الحركات الاخرى حتى ١٩٣٤ ، فتحولت المقاومة الى حركة وطنية اثارت احداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ .

رغم شيخوخته ، تسع سنوات قاست خلالها ليبيا اعنف الارهاب والقمع الوحشي . قتل ثلث شباب برقة . ابيدت تسعة اعشار مواشيها . شرد السكان في الصحارى . صودرت الاراضي الزراعية ووزعت على المستعمرين ، حتى وقع عمر المختار اخيرا في الاسر (١) ثم اعدم سنة ١٩٣١ وتوقفت الثورة الى حين .

٢ ــ ثورة الريف في المغرب قادها عبد الكريم الخطابي ١٩٢٠ ضد اسبانيا المحتلة ثم ضد فرنسا ايضا . هزم القوى الاسبانية سنة ١٩٢٣ حتى اضطرها للمفاوضة على الجلاء . لكن فرنسا خشيت عواقب ذلك ، فأمدت الاسبان بقوات ضخمة ظل عبد الكريم يقاومها مقاومة رائعة ، قبل ان يضطر للتسليم ١٩٢٧ . نفته فرنسا الى جزيرة (قرب مدغشقر) حيث ظل عشرين سنة .

٥



٤



(٤) ـ ولد عبد الكريم الخطابي في أجْدِر بالريف ١٨٨٢ . استقرت قبيلته هناك منذ زمن . حين ثار على الاسبان ١٩٢١ انضمت اليه معظم قبائل شمال المغرب . ألقى السلاح (فبراير ١٩٢٦) فنفي الى مرسيليا ثم جزر ريونيون (قرب مدغشقر) . سمح له بالعودة لفرنسا ١٩٤٧ . لجأ في بورسعيد الى مصر حيث توفي ١٩٦٣ . كان لاستسلامه ضجة استعمارية سجلتها صحف الغرب كهذه الصحيفة .

---

(٥) ـ تمثلت الحركة الوطنية في تونس بين الحزبين في الحزب الحر الدستوري الذي نفي زعيمه الثعالبي منذ ١٩٢٣ فلما عاد ١٩٣٧ كان شباب الحزب قد انفصلوا وألفوا الحزب الدستوري الجديد (مؤتمر مارس ١٩٣٤) ليكون اكثر ايديولوجية وعلمانية وعقلانية . بعد فترة من التفاهم مع الفرنسيين (١٩٣٦) عاد التوتر السياسي ، وتصلبت مواقف الشباب بعودة الثعالبي ، مما ادى الى اضطرابات دموية واعتقالات . فحل المقيم العام الفرنسي (وهو الحاكم الفعلي للبلاد) الحزبين . باي تونس احمد باشا كان مكتفيا بالمظاهر . استقبالاته الفخمة مع حاشيته ، في زياراته لباريس (كهذه ١٩٣٠) ، لم تكن تعني الوزن السياسي . المرة الوحيدة التي اصبح فيها منصب الباي شعبيا وطنيا هي حين تولاه المنصف (يونيو ١٩٤٢) ، وانذر الفرنسيين بالمطالب الوطنية . فعزل (مايو ١٩٣٤) ، ونفي الى (بو) حيث توفي ١٩٤٨ .

السياسة الاستعمارية

كانت السياسة الانجليزية في وادي النيل مكتفية بالسيطرة وبتأمين مصالح الامبراطورية ، اما فرنسا وايطاليا فأرادتا من مستعمراتهما العربية ان تكون مستوطنات للمعمرين من البلدين . عملتا على نهب الاراضي الزراعية بكل وسيلة لمنحها للمهاجرين من البلدين . ايطاليا قامت بالعمل نفسه في ليبيا . كان يرافق نهب الارض منح المساعدات الفنية والمالية من خزينة المستعمرة للمعمرين الغرباء ، بجانب منحهم الامتيازات المعدنية والصناعية والموانىء . ومع ان الحفاظ على الامية السائدة كان السياسة المقررة لكنهما حاولتا فرض اللغة الفرنسية والايطالية ، وفتح ابواب التبشير على مصراعيها .

التطورات السياسية

اعلنت بريطانيا الحماية على مصر سنة ١٩١٤ . ما كادت الحرب تنتهي حتى تقدم «وفد» من بعض كبار المصريين يتقدمهم سعد زغلول (٢) الى المعتمد البريطاني يطالب بالاستقلال . قبضت السلطات على الوفد ونفته ، فثارت البلاد (ثورة ١٩١٩) . حين اطلق سراحه فشل امام مؤتمر الصلح الذي اقر الحماية البريطانية على مصر . اضطرت بريطانيا لانهائها (١٩٢٢) بسبب التحركات الوطنية في مصر والسودان ، واعترفت بحقهما في الاستقلال والدستور . لكن ذلك كان شكليا فقط لان بريطانيا استغلت (سنة ١٩٢٤) مقتل سردار الجيش المصري ، حاكم السودان العام ، لاحكام قبضتها على البلدين ، بازاحة سعد زغلول من الحكم ، وسحق حركة (اللواء الابيض) (والاتحاد السوداني) في السودان . اتخذ السلطان احمد فؤاد (حكم ١٩١٧ - ١٩٣٦) لقب ملك مصر والسودان وصاحب كردفان ودارفور سنة ١٩٢٢ . لكن الحكم في البلدين كان للمقيم البريطاني . قاد حزب الوفد الحركة الوطنية التي تزعمها بعد وفاة سعد زغلول ١٩٢٧ مصطفى النحاس .

في ليبيا والجزائر كان الحكم الاستعماري مباشرا يعتبر البلدين جزءا من بلد الاستعمار . مع ذلك قاد الليبيون خارج البلاد نضال ليبيا . كما اسس الجزائريون الاحزاب في الخارج (نجمة شمال افريقيا سنة ١٩٢٦ ثم حزب الشعب الجزائري ١٩٣٧ بزعامة مصالي الحاج) . اما تونس والمغرب فكانتا ضمن نظام الحماية مما سمح فيهما ببعض التطورات السياسية . في تونس قاد الحركة الوطنية اولا الحزب الدستوري منذ سنة ١٩١٩ وبرزت زعامة عبد العزيز الثعالبي . في سنة ١٩٣٤ أسس بعض الشباب الحزب الدستوري الجديد (٥) . في المغرب ، قاومت البلاد المارشال ليوتي (٣) الذي حكمها ١٤ سنة (١٩١٢ - ١٩٢٥) . بعد خمود ثورة الريف برزت المقاومة الشعبية في حركة الظهير البربري سنة ١٩٣٠ الذي حاولت فرنسا فيه تفريق العرب عن البربر . تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك في كتلة العمل بزعامة علال الفاسي ، ثم في الحزب الوطني (١٩٣٧) .

أسباب الحرب العالمية الثانية

شهدت سنوات ما بين الحربين تبوأ ديكتاتوريين فاشيين (٩) للحكم في كل من ايطاليا والمانيا قوضت سياساتهما التوسعية الثقة في جدوى المفاوضات كما هددت الدول الاستعمارية الغربية .

قيام الديكتاتوريين

خلفت الحرب العالمية الاولى وراءها آثارا مريرة من جراء ما نصت عليه معاهدة فرساي (١٩١٩) من تعويضات مرهقة وتقسيم اعتباطي للاقطار ، فأدى ذلك الى ظهور بنيتو موسوليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥) وادولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) وتسنمهما ذروة السلطة .

عانت ايطاليا كثيرا من خسائرها في

١


٢


(١) - قتل مستشار النمسا دولفوس عام ١٩٣٤ بأمر من هتلر ، كمرحلة اولى لضم النمسا الى المانيا . تحققت السيطرة الالمانية التامة تقريبا على النمسا عام ١٩٣٦ ، ثم جاء الضم في عام ١٩٣٨ .

(٢) - حرّمت معاهدة فرساي على القوات الالمانية دخول منطقة الراين . لكن في مارس ١٩٣٦ ، احتلت الجيوش الالمانية المنطقة ، متحدية بذلك فرنسا وبريطانيا ، اللتين لم تكونا يومذاك مستعدتين للدخول في حرب لمنع ذلك .

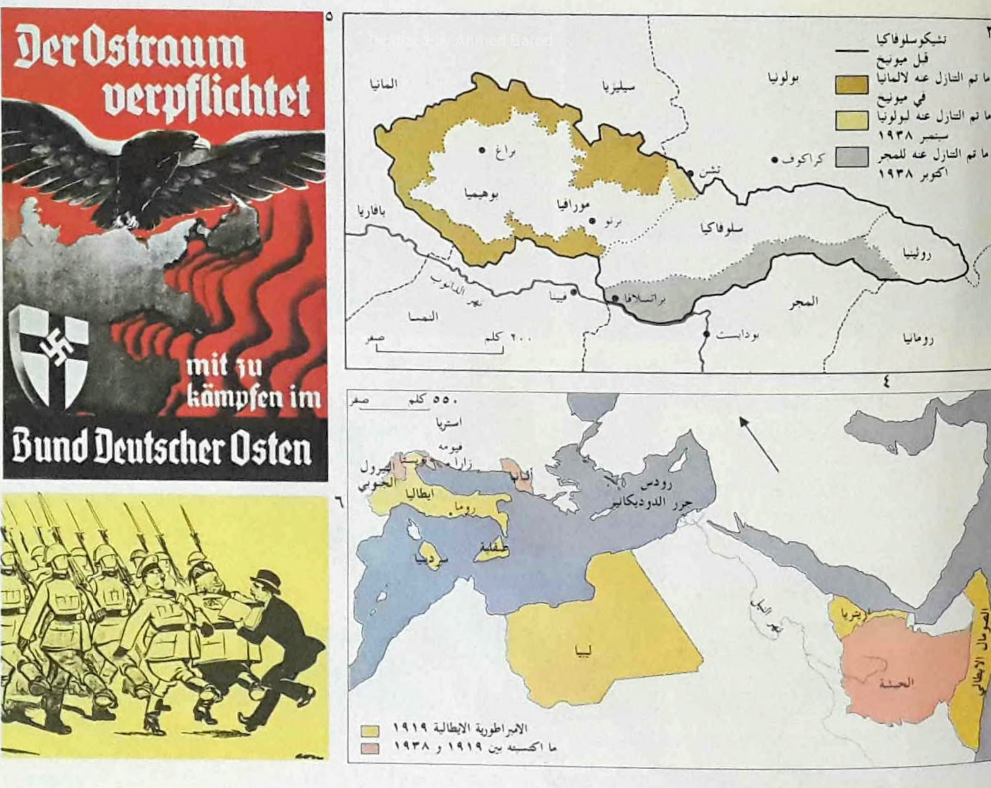
(٣) - السعي الالماني لابتلاع الاجزاء الناطقة بالالمانية من تشيكوسلوفاكيا - أرض (السوديت) - دفع باوروبا الى حافة الحرب . في عام ١٩٣٨ ، ضحت بريطانيا وفرنسا في ميونيخ بصناعة تشيكوسلوفاكيا ودفاعها ، في محاولة لاسترضاء الألمان .

(٤) - كان هدف موسوليني الرئيسي منذ تعيينه عام ١٩٢٢ هو زيادة هيبة ايطاليا ونفوذها وتعزيز مكانتها «كدولة عظمى» عن طريق الاحتلال الخارجي والدبلوماسية العدوانية . شددت ايطاليا قبضتها على مرفأ فيومي وجنوب التيرول وجزر الدوديكانيز بعد عام ١٩٢٢ . لم تنجح الاحتجاجات والعقوبات من جانب عصبة الامم في منع الحرب مع الحبشة عام ١٩٣٥ وضمها السريع الى ايطاليا . كذلك تدخلت ايطاليا في اسبانيا عام ١٩٣٦ ، مما قادها الى وفاق امتن مع المانيا . اعطي هذا الميثاق شكله الرسمي عام ١٩٣٩ ، بما يعرف باسم «الميثاق الفولاذي» .

(٥) - وضع هتلر كتاب «كفاحي» حينما كان في السجن بعد فشل انقلابه عام ١٩٢٣ المعروف باسم «انقلاب بيرهول» . طالب هتلر فيه «بالمدى الحيوي» (ليبنز راوم) لشعوب المانيا في الشرق . كان التوسع في شرق اوروبا وقهر الاتحاد السوفياتي جزءا دائما من تفكير الجناح اليميني في المانيا ، وقد تبناه هتلر كعنصر هام لنهجه السياسي . لا تزال اهمية هذا الامر وموقعه الحقيقي في خططه السياسية موضع جدل لكن «فتوحاته» في شرق اوروبا ، بالطرق الدبلوماسية ثم بالحرب ، قد حققت هذه السياسة التي دعا لها في كتابه .

الحرب العالمية الاولى ومن خيبة املها في تسوية فرساي السلمية . لذلك يرجع الكثير من التأييد الذي تمتع به موسوليني الى سياسته القومية النضالية التي كان لا بد لها ان تخلق توترا في عالم ما بعد الحرب (٥) . كذلك كسب هتلر التأييد بفضل سياسته القومية المتطرفة المصممة على الغاء البنود المجحفة من معاهدة فرساي وعلى توحيد الشعوب الناطقة بالالمانية في وسط وشرق اوروبا (٤) .

ادت عزلة الولايات المتحدة الى القاء المسؤولية الرئيسية في المحافظة على «سلم» معاهدة فرساي على كاهل بريطانيا وفرنسا بوصفهما اعظم دولتين في اوروبا . كان كل من الدولتين يخشى وقوع الحرب مجددا ، ويشعر ان حرب ١٩١٤ انما جاءت نتيجة لعجز النظام الدبلوماسي عن معالجة الازمات الدولية ، ولهذا اعتقدتا ان



(٦) ـ نشأت سياسة الترضية التي انتهجتها بريطانيا وفرنسا من الخوف من تجدد الحرب وبسبب الاعتقاد ان مطالب هتلر وموسوليني يمكن تسويتها عن طريق المفاوضات والتنازلات . لكن اخذ القلق يزداد من ان مثل هذا «الضعف» انما يشجع على المزيد من المطالب .

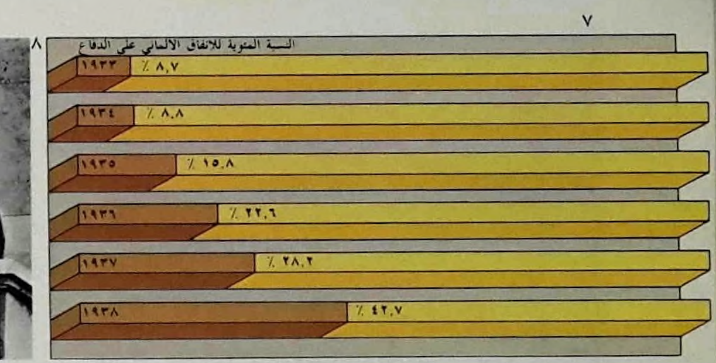
عليهما واجب الدخول في مفاوضات مع هتلر .

في العشرينات ، كانت الثقة موضوعة في عصبة الامم وفي سياسة نزع السلاح التي انهارت فيما بعد بسبب انعدام الثقة المتبادلة بين الدول الكبرى في اوروبا . وفي مطلع الثلاثينات ، اتضح بشكل متزايد ان عصبة الامم لن يكون بمقدورها القيام بدور يذكر لحفظ السلام . فقد كان في غزو اليابان لمنشوريا ، وعلى نحو اكثر خطورة في ازمة الحبشة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) ، ثم في الحرب الاهلية في اسبانيا (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ، مؤشرات واضحة أن عصبة الامم عاجزة في الحقيقة عن الحؤول دون الاعتداءات الدولية التي تقوم بها الدول العظمى .

سياسة الترضية

اعتقد ساسة فرنسا وبريطانيا ، خلال

٧



٨

٩



(٧) ـ ازدادت نفقات الدفاع خمسة اضعاف في المانيا الهتلرية بين العامين ١٩٣٣ و ١٩٣٨ . وصلت النفقات ذروتها في المراحل الاخيرة من الحرب العالمية الثانية . بدأت المانيا تسلح نفسها مباشرة بعد استلام هتلر زمام السلطة ، ولكن هذه السياسة لم تنل الاولوية القصوى الا بعد عام ١٩٣٦ . وعندما تم تبني خطة الاربع سنوات للتسلح ، اصبح توجه اقتصاد المانيا للحرب اكثر من اية دولة اوروبية اخرى .

(٨) ـ ماتسووكا (الى اليسار) وزير خارجية اليابان من ١٩٤٠ الى ١٩٤١ ، كان مسؤولا الى حد كبير عن ميثاق اليابان الثلاثي مع المانيا وايطاليا . كانت اليابان قد عقدت مع المانيا ميثاقا ضد الكومنترن عام ١٩٣٦ . انتهجت اليابان خلال الثلاثينات سياسة خارجية عدوانية : احتلت منشوريا عام ١٩٣١ ، وبذلك زادت حدة التوتر في الشرق الاقصى حيث كانت عصبة الامم في الواقع عديمة الفعالية . وفي عام ١٩٣٧ خاضت اليابان الحرب ضد الصين واستولت على مساحات كبيرة من البر الصيني . فشلت اوروبا وامريكا في حل النزاع او ضبطه مما شجع اليابان على الاستمرار في العدوان .

(٩) ـ كان دخول هتلر راكبا سيارة الى فيينا على رأس الجيوش الالمانية رمزا لسيطرة الديكتاتوريين على اوروبا .

معظم الثلاثينات ، ان سياسات هتلر لم تكن تستهدف سوى تحقيق مطالب المانيا الشرعية لتعديل تسوية فرساي . ورغم عودة المانيا الى اراضي الراين في ١٩٣٦ (٢) وسيطرتها شبه التامة على النمسا (١) ، ظلت بريطانيا بشكل خاص متشبثة بأمل تجنب الحرب عن طريق التنازلات . كذلك لاقت جهود كل من ستانلي بالدوين (١٨٦٧ - ١٩٤٧) ونيفيل تشمبرلن (١٨٦٩ - ١٩٤٠) للتفاوض مع هتلر تأييد غالبية الناس الذين كانوا يخافون من حرب اخرى ، ويعارضون نفقات التسلح في وقت كانت فيه البلاد تعاني ضائقة اقتصادية .

ومع انه لا يمكن تقدير اهداف هتلر البعيدة المدى بدقة ، فمن الثابت انه استغل الفوضى والضعف عند الدول الغربية الكبرى لتمزيق معاهدة فرساي وتعزيز خططه لغزو المناطق الشرقية من اوروبا . فقد اتبع احتلال الراين بضم النمسا (الانشلوس) والمطالبة بفصل الاجزاء الناطقة بالالمانية عن تشيكوسلوفاكيا .

بعد ان هدد بالحرب ، استرضي باتفاق عام ١٩٣٨ ، الذي قطع اوصال تشيكوسلوفاكيا تقريبا لقاء وعود من هتلر بعدم احتلال المناطق غير الناطقة بالالمانية من ذلك البلد .

تأثير الدول الجانبية

اختلط امر مقاومة الدول الغربية لهتلر بتشكيكها في نوايا الاتحاد السوفياتي . فقد صب الاتحاد السوفياتي اهتمامه ، بعد خروجه من عزلته في منتصف الثلاثينات ، على منع التحالف بين الدول الغربية ضده . ولكن مخاوفه ازدادت اثر قيام الفاشية في المانيا ، وما انطوت عليه من تهديد له . سعى الاتحاد السوفياتي ليقيم حلفا من الدول الاوروبية لمناهضة الفاشية ، ولكنه اخفق بسبب ركون الاوساط المحافظة الى سياسة الترضية ولانتشار عدم الثقة لديها بالاتحاد السوفياتي . فكان ما قامت به بريطانيا وفرنسا من اعمال تجاه تشيكوسلوفاكيا مشجعا للاتحاد السوفياتي على عقد معاهدة عدم اعتداء مع المانيا ١٩٣٩ .

اما في الشرق الاقصى ، فكان ظهور اليابان كدولة عسكرية عدوانية عاملا اضافيا لزيادة الوهن في حالة السلم الواهية (٨) . فقد كان احتلال اليابان لمنشوريا ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، ثم حربها مع الصين في اواسط الثلاثينات ، دليلا واضحا على ضعف عصبة الامم ، وعلى مقدار ثقة اليابان بنفسها ومدى مطامعها الاقليمية .

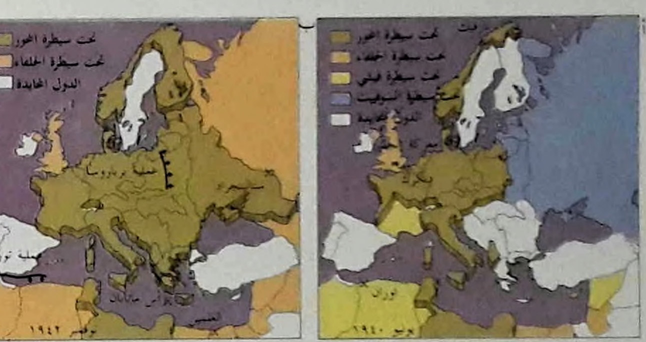
كانت ضمانات بريطانيا عام ١٩٣٩ لبولندا ولرومانيا هي المحاولة الاخيرة منها للحد من اعمال هتلر . ولكنه كان قد اتفق مع السوفيات على اقتسام بولندا ، بحجة انه يريد ضم الممر البولندي ، معللا نفسه بالامل في ان تتراجع بريطانيا وفرنسا مرة اخرى كما سبق وفعلتا في ميونيخ . ولكنهما بدلا من هذا ، طالبتا هتلر بوجوب الانسحاب من بولندا . وعندما انتهى موعد الانذار البريطاني في ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ ، اعلنت بريطانيا الحرب على المانيا ، وتبعتها فرنسا بعد ذلك بساعات قليلة .

الحرب العالمية الثانية

في سبتمبر ١٩٣٩ ، غزت الجيوش الالمانية بولندا ، التي كانت بريطانيا وفرنسا قد تعهدتا بمساندتها ، فاعلنتا الحرب على المانيا بعد يومين من تاريخ الغزو . استطاع الالمان ، باللجوء الى اسلوب الحرب الخاطفة ، دحر الجيش البولندي المتخلف عسكريا في مدة ١٨ يوما ، وقسمت البلاد بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، الذي كانت المانيا قد وقعت معه معاهدة عدم اعتداء . اجتاز جيش بريطاني القنال الى فرنسا .

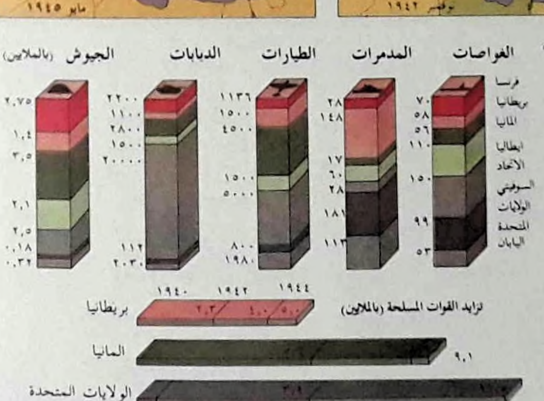
الانتصارات الالمانية واليابانية

اكتسحت المانيا كلا من النرويج



(١) ـ كانت ساحة الحرب الرئيسية في اوروبا ، مثلما كانت في الحرب العالمية الاولى : (أ) سيطرت قوات المحور على غرب اوروبا كلها تقريبا بحلول يونيو ١٩٤٠ ، ثم وسعت المانيا النزاع بهجومها على الاتحاد السوفياتي بعد سنة . (ب) بلغ ما احتلته قوات المحور حده الاعلى في اكتوبر عام ١٩٤٢ . (ت) بحلول مايو ١٩٤٥ هزمت المانيا على اثر هجوم روسي مضاد ونزول جيوش الحلفاء في فرنسا وايطاليا .

(٢) ـ ظهرت اسلحة حرب جديدة متطورة مع مضي الحرب قدما : (أ) فقد احرز الالمان انتصاراتهم الاولى بتفوقهم في حرب الدبابات وطائرات الانقضاض (الشتوكا) . (ب) حملت الطائرات القاذفة للقنابل الموت والدمار الى عمق الاراضي الالمانية ، ولكنها فشلت في تحطيم معنويات الالمان . (ت) كان على الحلفاء اختراع واتقان اساليب الحرب البرمائية تمهيدا لغزو «قلعة اوروبا» .



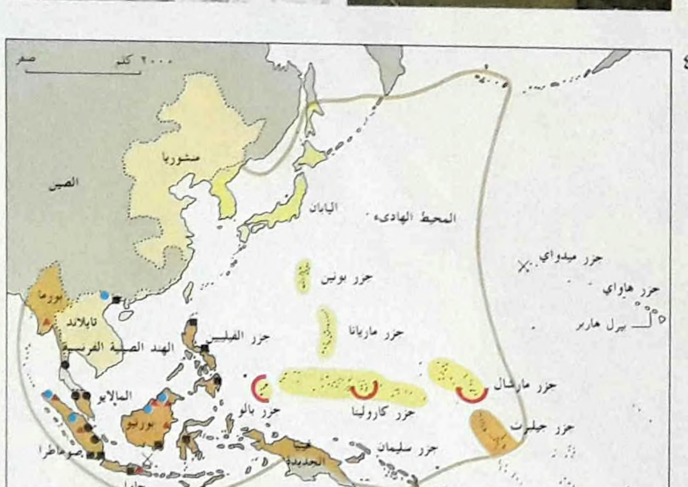
(٣) ـ تبيّن هذه المقارنة بين القوات العسكرية في ابتداء الحرب انه ، على الرغم من ان المانيا كانت تملك عددا اكبر من الطائرات عام ١٩٣٩ ، ففرنسا وبريطانيا مجتمعتين كانتا اقوى من المانيا في الرجال والعدة . يظهر حجم القوات السوفياتية الهائل كم افاد ميثاق ستالين المانيا الهتلرية . كانت الحاجة الى الاعداد البشرية كبيرة جدا ، وفي ادنى الرسم البياني يظهر ازدياد القوات المسلحة .

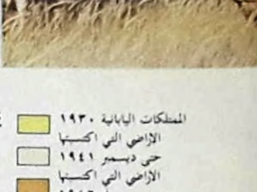
والدنمرك في ابريل ١٩٥٠ . وفي العاشر من مايو ، هاجمت قوات المانية هولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ ، وهي بلدان محايدة . وعندما تحركت قوات الحلفاء لملاقاتها ، قامت الدبابات الالمانية بهجوم اخترقت فيه خط الاردين (ماجينو) المحصن الذي كان يعتقد انه لا يخرق ، ووصلت الى القنال الانجليزي (بحر المانش) ، مرغمة جيوش الحلفاء في الشمال على التراجع الى منطقة دنكرك . تمكن حوالى ٣٣٨٢٢٦ جنديا من البريطانيين والفرنسيين ان ينجوا في عملية عبور بحري الى انجلترا بين ٢٩ مايو و ٣ يونيو . احتلت المانيا معظم فرنسا ، الا الجزء الجنوبي الغربي ، الذي بقي تحت حكومة فيشي الشكلية برئاسة المارشال هنري بيتان (١٨٥٦ – ١٩٥١) .

توقع زعيم المانيا ، ادولف هتلر





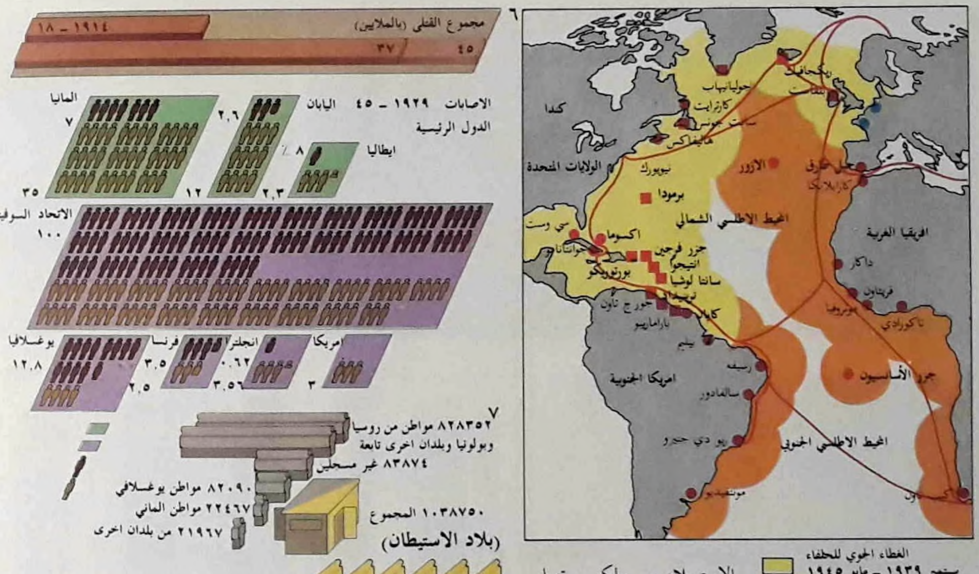




(٤) – توسع اليابانيون في المحيط الهادىء ليضمنوا لانفسهم امدادات النفط ومعادن جنوب آسيا ، ولبناء خط دفاعي ضد هجمات الحلفاء المضادة .

(١٨٨٩ – ١٩٤٥)، ان تعقد بريطانيا صلحا معه. لكنها استمرت في الحرب بقيادة ونستون تشرتشل (١٨٧٤ – ١٩٦٥). حاول السلاح الجوي الالماني، بقيادة هرمان جورنج (١٨٩٣ – ١٩٤٦)، ان يحطم السلاح الجوي البريطاني، تمهيدا لغزو بريطانيا. ولكن الالمان هزموا في «معركة بريطانيا» التي دارت بين اغسطس واكتوبر من عام ١٩٤٠.

دخلت ايطاليا الحرب في يونيو من عام ١٩٤٠، ولكنها منيت بالهزائم في اليونان وليبيا. ارسلت المانيا قوات تحت امرة ارفين رومل (١٨٩١ – ١٩٤٤) لمساعدة الطليان في شمال افريقيا، كما قامت بمنتهى السرعة باحتلال يوغوسلافيا واليونان وكريت في ابريل ومايو من عام ١٩٤١.



(٥) – اصبحت معركة الاطلسي معركة حيوية لبريطانيا بعد زوال خطر الغزو الالماني. كانت الغواصات الالمانية تبتغي تجويع بريطانيا لارغامها على الاستسلام، ولكي تزيل بذلك خطر التعرض لهجوم مضاد في الغرب.

(٦) – كانت الحرب العالمية الثانية افظع حرب مدمرة في التاريخ: فمن الممكن ان يكون مجموع القتلى قد بلغ ٤٥ مليون انسان. لكن ضخامة القصف بالقنابل والتدابير الالمانية المتخذة ضد المدنيين في الاراضي المحتلة جعلت عدد الضحايا من المدنيين اكثر بكثير.

(٧) – في نهاية الحرب، كان هناك اكثر من مليون شخص يعيشون في مخيمات اللاجئين في مختلف انحاء اوروبا. كان معظمهم مواطنين سوفيات او من بلدان اوروبا الشرقية. يظهر هذا الرسم الامكنة التي جاء منها لاجئو اوروبا الشرقية وأين اسكنتهم منظمة اللاجئين الدولية.

في ٢٢ يونيو ١٩٤١ ، وخرقا للمعاهدة المعقودة سابقا ، زحفت الجيوش الالمانية على الاتحاد السوفياتي ، محققة بذلك مفاجأة كبرى . بعد خمسة اشهر ، وصلت الجيوش الالمانية على مقربة ٣٠ كلم من موسكو ، ولكن الشتاء القاسي والمقاومة الروسية العنيدة اوقفتا زحفها . وفي ٧ ديسمبر من عام ١٩٤١ ، وفي الانقضاض الرئيسي الثاني للحرب ، قامت اليابان بهجوم مفاجىء على الاسطول البحري الامريكي في بيرل هاربر . ودخلت الولايات المتحدة الحرب بجانب الحلفاء .

شهد النصف الاول من عام ١٩٤٢ قوات المحور (المانيا ، ايطاليا ، اليابان وحلفاء ثانويين) تتسنم اوج قوتها .

تراجع المد

كانت سنة ١٩٤٢ هي السنة القلابة في الحرب . فقد ادت سلسلة من المعارك الحاسمة ، التي وقعت في النصف الثاني من هذه السنة ومن عام ١٩٤٣ ، الى نقل زمام المبادرة الى ايدي الحلفاء . ففي المحيط الهادىء ، حطمت القوة اليابانية البحرية في معركة ميدواي ما بين ٤ و ٧ يونيو عام ١٩٤٢ ؛ وفي اغسطس ، نزلت قوات مشاة البحرية الامريكية في جوادلكنال ، وكانت تلك اولى المعارك الهجومية البرمائية التي مكّنت القوة البحرية الامريكية بقيادة الاميرال تشستر نيمتز (١٨٨٥ – ١٩٦٦) من رد اليابان على اعقابها . وفي الاتحاد السوفياتي وفي طقس قارس البرودة ، استسلم ١١٠٠٠٠ جندي الماني في ٣١ يناير عام ١٩٤٣ من اصل ٢٧٠٠٠٠ جندي كانوا يؤلفون الجيش الالماني في ستالينجراد ، بينما قتل الباقون وعددهم ١٦٠٠٠٠ رجل . وفي شمال افريقيا ، كان من نتيجة انتصار الجنرال برنارد مونتجومري (١٨٨٧ – ١٩٧٦) في العلمين في اكتوبر عام ١٩٤٢ ، ونزول الحلفاء في الجزائر ، أن أرغمت جيوش المحور على التراجع الى تونس ، حيث استسلم ٢٥٠٠٠٠ جندي فيها في مايو عام ١٩٤٣ .

بداية النهاية

تم دحر الهجوم الالماني الكبير والاخير على الاتحاد السوفياتي في كورسك في يونيو عام ١٩٤٣ ، وتقدم الجيش الاحمر الى الامام خلال الخريف والشتاء .

في اليوم المحدد لهجوم الحلفاء في اوروبا ، وهو ٦ يونيو عام ١٩٤٤ ، نزلت قوات الحلفاء بقيادة الجنرال دوايت ايزنهاور (١٨٩٠ – ١٩٦٩) في نورماندي. ثم اجتاز الحلفاء الراين في مارس عام ١٩٤٥ ، وتوغلوا في عمق المانيا ، بينما كان هجوم سوفياتي على المانيا يضرب جيوشها من الشرق بقيادة الماريشال جيورجي زوكوف (١٨٩٦ – ١٩٧٤) منذ يناير عام ١٩٤٥ ، ويصل الى برلين في ابريل . انتحر هتلر ، وفي ٤ مايو استسلمت المانيا . في ٦ اغسطس ألقت القوات الامريكية اول قنبلة ذرية على هيروشيما في اليابان ، ثم القت قنبلة ثانية على ناغازاكي ، فاضطرّت اليابان الى الاستسلام في ١٤ اغسطس عام ١٩٤٥ .

تقسيم أوروبا

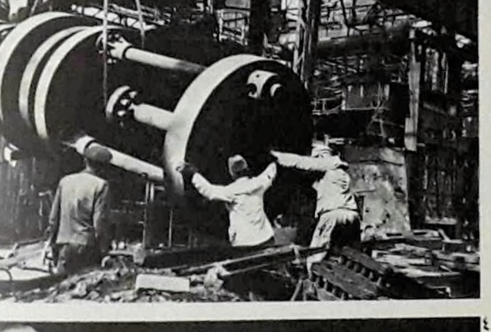
تعتبر الحرب الباردة ، في العادة ، صراعا عالميا بين القوتين العظميين اللتين برزتا مع نهاية الحرب العالمية الثانية . هاتان القوتان ، وهما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، لم تكونا في بادىء الامر متكافئتين بأي حال من الاحوال . فالولايات المتحدة كانت اعظم بكثير من حيث طاقتها الاقتصادية وقوتها الجوية وفي حقيقة انها امتلكت الاسلحة النووية قبل الاتحاد السوفيتي . لكن الاتحاد السوفيتي يتمتع بميزة هامة تتمثل في قدرته على تهديد اوروبا الغربية بقوة جيشه . وكان ذلك هو السبب الذي جعل الولايات المتحدة تشعر أنها ملزمة بنجدة دول

١





٢

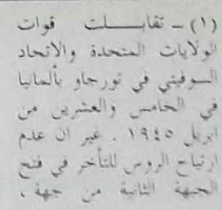


٣



٤





(١) ـ تقابلت قوات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في تورجاو بألمانيا في الخامس والعشرين من ابريل ١٩٤٥ . غير ان عدم ارتياح الروس للتأخر في فتح الجبهة الثانية من جهة ، وشكوك الولايات المتحدة بدوافع السوفيت من جهة اخرى ، جاءت تنذر بقيام الحرب الباردة .

(٢) ـ قام الروس بتفكيك الصناعة الالمانية بصورة كاملة والى حد اثار قلق السلطات في المناطق الغربية ، فاضطروا الى ايقاف هذه العملية .

(٣) ـ جيمس بيرنز (١٨٧٩ ـ ١٩٧٢) وزير الخارجية الامريكية حضر مؤتمر باريس عام ١٩٤٦ الذي كان يعد مشاريع معاهدات الصلح مع ايطاليا ورومانيا وفنلندا وبلغاريا والمجر . لم يحقق المؤتمر سوى جزء من اهدافه ، كما

اوروبا الغربية والدفاع عنها .

سوء الفهم بين الشرق والغرب

كانت هذه هي وجهة النظر التقليدية لنشأة الحرب الباردة . وقد نجمت عن ذلك التفسيرات القائلة بأن روسيا الستالينية ، وقد اجتاحت اوروبا الشرقية بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، بدت كأنها تهدد اوروبا الغربية .

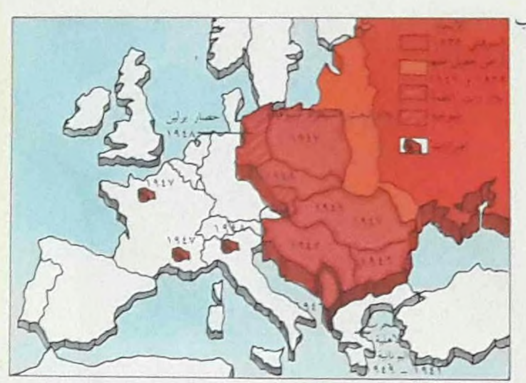
مقابل هذا الرأي قام رأي آخر يقول به بعض المؤرخين الذي رأوا ان الاتحاد السوفيتي ، الذي كان الغرب قد اجتاحه في الماضي عدة مرات ، كان لا يزال خائفا من حلفائه الاسميين في نهاية الحرب العالمية الثانية . ومن وجهة النظر هذه كان احتلال ستالين لاوروبا الشرقية رد فعل دفاعي ازاء هجوم محتمل .

الحقيقة ان مثل هذه الآراء كانت مجرد

٥أ



ب



٦

ظهرت فيه الاختلافات حول المانيا .

(٤) ـ قام مارشال وبيفن وبيدو ومولوتوف بمحاولات فاشلة للاتفاق حول القضية الالمانية عام ١٩٤٧ .

وهكذا بدا كأن كل طرف كان يهدد الطرف الآخر ، فتصاعدت الحرب الباردة .

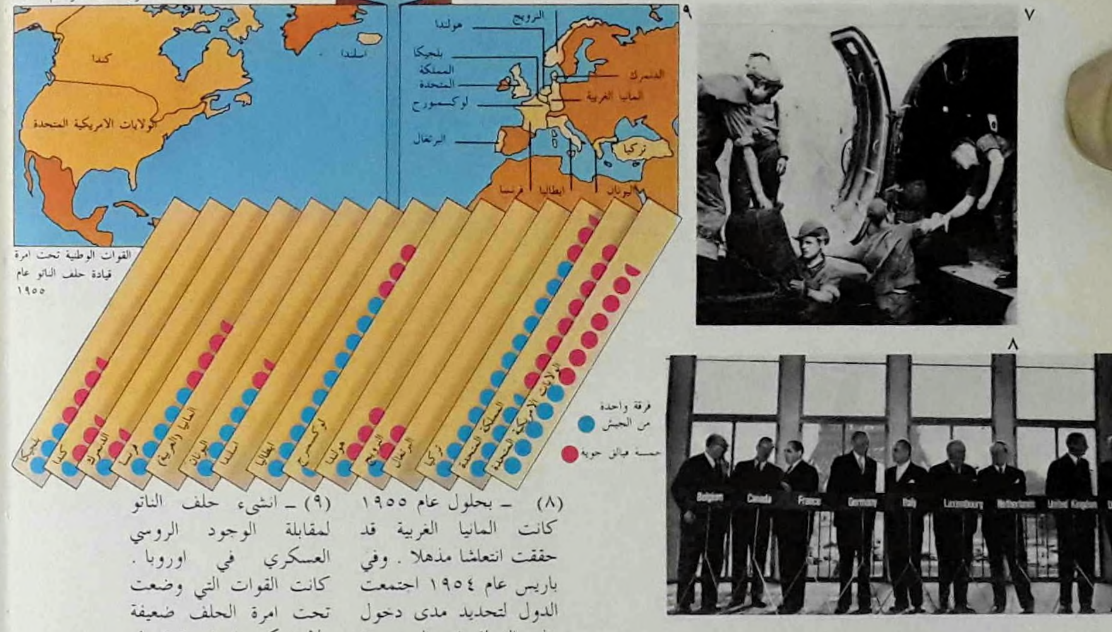
(٥) ـ بدا لوجهة النظر الغربية (ب) ان جيشا سوفيتيا كبيرا قد احتل اوروبا الشرقية واخضعها للحكم الستاليني ، وان هذا الجيش كان جاهزا للتحرك غربا . اما من وجهة النظر الشرقية (أ) ، فان القوة الاقتصادية المتفوقة للعالم الغربي التي كانت تناصرها قوة الولايات المتحدة النووية بدت جاهزة لتفتيت النظام الدفاعي الذي كان الاتحاد السوفيتي يحاول اقامته .

(٦) ـ زعماء التحالف الكبير الثلاثة : تشرشل (الى اليسار) ، وروزفلت (في الوسط) وستالين ، الذين اجتمعوا في يالطا في فبراير ١٩٤٥ . لم تدع فرنسا الى الاجتماع ، وكثيرا ما كان يقال ان اوروبا كانت منقسمة الى كتلتين في ذلك الاجتماع ، ومع ذلك فقد اتفق «الثلاثة الكبار» على وضع الترتيبات النهائية اللازمة لتقسيم المانيا بصورة مؤقتة .

ادعاءات ، ولكن من الواضح الى حد كبير ان سوء الفهم المتبادل بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا قد لعب دورا كبيرا في العمل على تقسيم اوروبا (٥) . وعندما تقابل تشرشل (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥) وروزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) وستالين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣) في يالطا عام ١٩٤٥ (انظر الصورة رقم ٦) ، فان الشكوك الروسية حول التوقيت الغربي لفتح جبهة ثانية قد اثارت بدورها الشكوك الغربية حول نوايا السوفيت في الشرق وبخاصة تجاه بولندا .

تقسيم المانيا

في بادىء الامر ، لم تكن القوات الامريكية تعتزم البقاء طويلا في المانيا ، كما لم تكن تتوقع ايضا بقاء القوات الروسية فيها ، اذ كان من المفترض ان



(٧) ـ كان حصار برلين اول مواجهة عظمى في الحرب الباردة . نشأت هذه المواجهة من القيود التي فرضها الروس على وصول الغربيين الى برلين . ظلت المدينة شهورا وهي تعيش على الامدادات التي تصلها بالطائرات . لكن مصير المدينة تقرر برفض سكان برلين الغربية قبول المساعدات الاقتصادية الروسية مقابل التسليم السياسي ، فادى الحصار في نهاية الأمر الى تقسيم برلين وإكمال تقسيم المانيا .

(٨) ـ بحلول عام ١٩٥٥ كانت المانيا الغربية قد حققت انتعاشا مذهلا . وفي باريس عام ١٩٥٤ اجتمعت الدول لتحديد مدى دخول هذه الدولة في المجموعة الاوروبية . كان كونراد ادينار (١٨٧٦ ـ ١٩٦٧) ، الذي يظهر في الصورة مع الآخرين ، يعمل من اجل هذا الهدف منذ ان اصبح المستشار الاتحادي لالمانيا الغربية عام ١٩٤٩ .

(٩) ـ انشىء حلف الناتو لمقابلة الوجود الروسي العسكري في اوروبا . كانت القوات التي وضعت تحت امرة الحلف ضعيفة ولا تشكل اي قوة . في ١٩٥٥ اصبحت المانيا الغربية دولة مستقلة كاملة السيادة وعضوا في حلف الناتو . وفي مايو من ذلك العام اقام الاتحاد السوفيتي منظمة دفاعية مماثلة هي حلف وارسو .

تقوم القوات المنتصرة بالاشراف على اعادة بناء المانيا الى ان تتوصل الى الاتفاق حول مستقبلها كدولة موحّدة . وعلى هذا قامت الدول الاربع جميعا ـ من خلال وزراء خارجيتها ايرنست بيفن (١٨٨١ ـ ١٩٥١) وجورج بيدو (١٨٩٩ ـ) وفياشسلاف مولوتوف (١٨٩٠ ـ) ووزير الخارجية الامريكية جورج مارشال (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) (٤) بالاشراف على ادارة برلين بالتساوي . غير ان الصورة سرعان ما تغيرت ، وكان احد أسباب تغيرها السيطرة السوفيتية في اوروبا الشرقية وفي المنطقة السوفيتية في المانيا التي جرى تنظيمها على وجه السرعة كجزء من النظام السوفيتي .

في بادىء الامر كانت الولايات المتحدة تطمح الى ادخال اوروبا الشرقية واوروبا الغربية على حد سواء مع المانيا كلها بالطبع في برنامج انعاش اوروبي واسع النطاق يعتمد على المساعدة الامريكية . لكن هذه الخطة ، خطة انعاش اوروبا ، او ما عرف باسم «مشروع مارشال» لعام ١٩٤٧ رفضت من جانب الاتحاد السوفيتي ، ولم يمكن تطبيقها في المانيا الا في المنطقة الغربية فقط ، وكان هذا التطبيق هنا يعني انشاء نقد الماني متين منفصل .

بعد الاصلاح النقدي في المانيا الغربية ، بدأ الاتحاد السوفيتي في حصار برلين . استمر الحصار (٧) قرابة عام كامل (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) ، وكان نقطة تحول في التاريخ الاوروبي . فقد جاء ذلك عندما أصبح تقسيم اوروبا كاملا ـ اذ ان الاتحاد السوفيتي أكمل في فبراير ١٩٤٨ الاستيلاء على البلاد الشرقية .

ميلاد حلف الناتو

جوابا على هذه الخلفية من الاحداث ، اتخذ الغرب قرارا باقامة حلف الناتو (منظمة معاهدة شمال الاطلسي) (٩) ، كحلف طويل الامد تعهدت فيه الولايات المتحدة بالدفاع عن اوروبا الغربية . كان الاعضاء الاصليون (١٩٤٩) للحلف هم : الولايات المتحدة وكندا ودول اوروبا الغربية الرئيسية (٨) . ثم انضمت اليونان وتركيا للحلف عام ١٩٥١ والمانيا الغربية ١٩٥٥ . على نفس القدر من الاهمية جاءت منظمة التعاون الاوروبي الاقتصادي ، التي تشكلت عام ١٩٤٨ والتي ساندت الولايات المتحدة فيها دول اوروبا الغربية في اقامة نظام من الثراء المتبادل . وفي عام ١٩٤٩ وما تلاه بدأ الاوروبيون في تجميع مواردهم في نظام تعاوني أدى في نهاية الامر الى اقامة السوق الاوروبية المشتركة .

اما في الشرق ، فان النظام الستاليني القائم على السيطرة شبه الكاملة من خلال الكومنفورم ، فلم يجد اي تحد الا من يوغوسلافيا .

قبل ذلك ، في عام ١٩٥٠ ، قامت الحرب الكورية ، فبدت وكأنها تؤكد ، من وجهة نظر الغرب ، الحاجة الى قيام حلف الناتو . ونتيجة لذلك ، وبحلول عام ١٩٥٥ ، دعيت المانيا الغربية للانضمام الى الحلف . وعندما فعلت ، تبين بوضوح انه لن يكون بامكانها ان تتوحّد .

الوطن العربي والحرب العالمية الثانية

لم يكن للوطن العربي كله اي علاقة بالحرب ، ولكنها دخلت الى مشرقه ومغربه نتيجة استعماره السابق ، وبخاصة بعد هزيمة فرنسا (يونيو ١٩٤٠) ، والتحاق الاجهزة الاستعمارية الفرنسية في سوريا ولبنان وفي اقطار المغرب بالنظام الذي اقامه المحور في فيشي . اخذ الامر وضعا خطيرا للحلفاء حين حاولت قوات المحور الاطباق على الشرق الاوسط بكماشة ذراعها الاولى في القفقاس (بعد اكتساح روسيا) ، والذراع الاخرى في ليبيا . شعر الحلفاء انهم مهددون بالخروج من المناطق العربية التي تحت ايديهم والتي تكرههم ، كما ان

(١) - كانت كفة الميزان الحربي في جبهة المتوسط وافريقيا ممتدة على طول الساحل الليبي ، ما بين طرابلس والاسكندرية ، وتتركز في منطقة برقة . لهذا لاقت هذه البقاع أفجع التدمير في حرب لا علاقة لها بها . وبرزت اسماء أهم القواد المتقابلين على أرضها : رومل (١٨٩١ - ١٩٤٤) (أ) ومونتجومري

أ ١



ب



ت



مواصلاتهم كلها مهددة . لهذا اعتبروا الشرق العربي بالذات مع ليبيا احد مراكز الخطورة الكبرى ، وكانت معاركهم فيها من المعارك الانقلابية في تاريخ تلك الحرب .

الاعمال الحربية في الارض العربية

كان وضع الحلفاء العسكري في الوطن العربي قويا في بداية الحرب ، فيما عدا الرفض الشعبي لهم . لكن هذا الوضع اصيب بشرخ خطير اثر هزيمة فرنسا ، ووصول الالمان الى سوريا ولبنان والمغرب العربي من خلال حكومة فيشي . كان ذلك يعني ان بريطانيا بقيت وحدها في الشرق الاوسط ، ويجب ان تدافع عن مواقعها فيما بين وادي النيل الى العراق والخليج . ولم يكن بامكان القوى الفرنسية في سوريا اتخاذ موقف هجومي

(١٨٨٧ - ١٩٧٦) (ب) . قبل اصطدامهما قام الحلفاء بهجوم على برقة (سبتمبر ١٩٤٠) ، اعقبه هجوم معاكس من المحور (ابريل ١٩٤١) ثم هجوم مقابل من الحلفاء . ولم يتجاوز الخصمان في هذه الهجمات منطقة برقة التي كانت زراعاتها وموانئها ومدنها : طبرق ، درنة ، بنغازي هي الضحية . وجاء رومل فتوغل بقواته الميكانيكية حتى مشارف الاسكندرية ، وعسكر في العلمين (١ يونيو ١٩٤٢) . لكن دخول امريكا الحرب ، وخسارة المانيا لحرب الغواصات في البحر ، ولمعركة ستالينغراد في روسيا ، كل ذلك مكن الحلفاء من ضرب المحور على جانبي الجبهة الافريقية معاً ، فانتصروا في العلمين (٢٤ اكتوبر ١٩٤٢) ، وانزلوا حملة بحرية (٨٥٠ سفينة) في الجزائر (٨ نوفمبر) ، وامتد التدمير من الجزائر الى الاسكندرية .

---

(٢) - لم يلعب الجنرال شارل ديغول (١٨٩٠ - ١٩٧٠) دوره كزعيم لفرنسا الحرة اثناء الحرب ، ومهندس للجمهورية الخامسة وحسب ، ولكن كان له دوره ايضا في ثلاث بقاع عربية على الاقل : سوريا ولبنان والجزائر . وقبل ان يصطدم بالمشكل الجزائري (١٩٥٨ - ١٩٦١) ، عالج مصير الشمال الافريقي اثناء الحرب مع الجنرال جيرو ممثل فيشي ، ودخلت قوى فرنسا الحرة التابعة له (يونيو ١٩٤١) مع الجيوش البريطانية سوريا ولبنان . ثم زارهما . (والصورة له في المفوضية ببيروت) .

٢





ضد المواقع البريطانية في فلسطين والاردن والعراق لهذا انحصرت الجبهة الحربية اولا في الحدود مع ليبيا (١) . القوى الايطالية والالمانية وصلت بعد هجومين خاطفين (١٩٤١ و١٩٤٢) الى ضواحي الاسكندرية ، بينما كان الجيش الالماني يخترق روسيا الى القفقاس . اسرعت بريطانيا في احتلال سوريا ولبنان (يونيو ١٩٤١) (٣) ، وفي اقتسام ايران مع روسيا واحتلال جنوبه (سبتمبر) ، وعزل الشاه ونفيه . على ان الانقلاب في ميزان القوى جاء بعد دخول الولايات المتحدة الحرب (ديسمبر ١٩٤١) . سمح ذلك لبريطانيا بكسب معركة العلمين (اكتوبر ١٩٤٢) ، بينما كانت القوى الالمانية تهزم في روسيا ، وكانت قوى الحلفاء والامريكيين في الوقت نفسه تنزل في شمال افريقيا ، وتسير نحو تونس لتلتقي مع القوى

٣ أ



ب ت





(٣) ـ سقوط فرنسا السريع ١٩٤٠ لم يترك على الانجليز وحدهم عبء الدفاع عن مواقعهم في المشرق العربي ، ولكنه فتح عليهم جبهة غير منتظرة في سوريا ، حين آلت لحكومة فيشي . زادت الاوضاع حرجا بثورة العراق (مايو ١٩٤١) ، واندفاع شاه ايران مع المحور ، ووصول الالمان البحر الاسود ، بالاضافة الى عواطف الشعوب المضادة . كان الخطر يتناول النفط والمواصلات الامبراطورية ، لاسيما حين عجز الجيش البريطاني عن ضمان جبهة ليبيا . فكان عليه ضمان الجبهة الخلفية . تولى الجنرال ارشيبالد ويفل (١٨٨٣ ـ ١٩٥٠) قائد الشرق الاوسط تسيير القوى الى بغداد . كانت الثورة قد طردت الملك والوصي فأعادهما ، واعدم ونفى الثوار (٣١ مايو ١٩٤١) . بعد اسبوع كان الهجوم على سوريا بالاشتراك مع فرنسا الحرة بقيادة الجنرال لافاراك (ب) . بعد خمسة اسابيع احتلت دمشق وبيروت وحماه (أ) وحلب .

البريطانية القادمة عبر بنغازي وطرابلس . اجتمع روزفلت وتشرشل وديغول في الدار البيضاء (يناير ١٩٤٣) لوضع خطط المرحلة الثانية للحرب . بعد ذلك (في نوفمبر (١٩٤٣) ، اجتمع الاثنان الاولان في مؤتمر بالقاهرة مع زعيم الصين تشان كاي تشك وضعوا فيه خطة طرد اليابان من المحيط الهادىء .

العرب والحرب

استغل الحلفاء الارض العربية ، واقتصادها ، وطرقها ، وامكاناتها البشرية ، باقصى ما يستطيعون . واجهت هذه البلاد في المشرق والمغرب صعوبات اقتصادية كثيرة منها نقص المواد الغذائية وتقنينها بسبب الجيوش ، وتوقف الاستيراد ، والتضخم النقدي ، والغلاء . من جهة اخرى لم تكن العواطف الشعبية بجانب الحلفاء لما عرفه العرب من مظالمهم الاستعمارية ، ولما شهدوه من المؤامرة الانجليزية الصهيونية في فلسطين ، كما لم تكن بجانب المحور (وبخاصة ايطاليا) لاعمالها الوحشية في ليبيا . تقبل بعض الناس المانيا لا من منطلق ايديولوجي ولكن لانها عدوة الاعداء . حاول الحلفاء باجهزة الدعاية الواسعة التقرب من الرأي العام العربي ، ودغدغة الاحلام القومية . لم يكن الناس قد نسوا بعد خديعة الحرب العالمية الاولى ، لهذا اضطر الحلفاء لتقديم بعض الادلة الملموسة على النوايا فكان من ذلك : اقتراحهم بواسطة زعامة الوفد في مصر تأسيس الجامعة العربية (في ١٩٤١ و ١٩٤٣) وتم ذلك في اكتوبر ١٩٤٤ .

وقد وعد الحلفاء سوريا ولبنان بالاستقلال (٢) ، كما وعدوا القوى الليبية ، ووعدوا الجزائر بمثله ، ووعدوا المغرب وتونس بالغاء الحماية . مقابل ذلك اعلنت معظم النظم العربية الحرب على المحور في السنتين الأخيرتين للحرب .

نتائج الحرب على العرب

مقابل عمليات التخريب الواسعة التي اصابت عددا من البقاع العربية ، عجلت الحرب في عملية التحرر العربي ، ودفعت الكثير من الاوضاع الى التغير :

أ ــ خلال السنوات الخمس والعشرين التالية لم يبق بلد عربي محتل .

ب ــ احدثت الحرب تغيرا أساسيا في علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة العربية . فقد حلت تدريجيا محل بريطانيا في المشرق ، ومحل فرنسا في المغرب لتأمين النفط ، وايقاف التوسع الشيوعي ، ومعونة الصهيونية .

جـ ــ اتاحت الحرب للاتحاد السوفياتي ان ينشىء العلاقات مع المشرق العربي بعد ان كانت المنطقة مغلقة دونه .

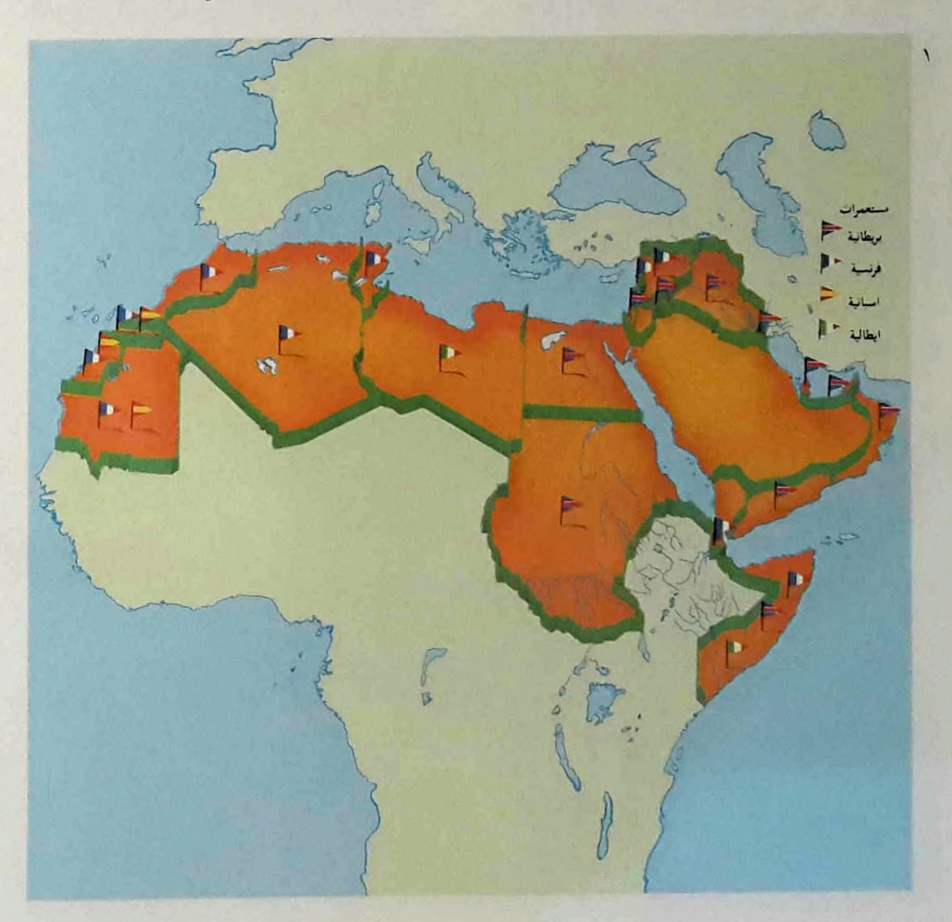
د ــ احدثت الحرب تغيرات في البنى الاقتصادية والاجتماعية للبلاد العربية بسبب التنمية السريعة لبعض الصناعات ، ونمو اعداد الطبقة العاملة ، واثراء بعض الطبقات .

هـ ــ على ان افجع واسوأ ما لقيه العرب من نتائج الحرب هو تبني الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مع قوى الغرب للصهيونية ، ومعونتها على اقامة دولة في فلسطين سنة ١٩٤٨ .

الوطن العربي
حتى أواسط القرن العشرين

لم يكن في وسع الوطن العربي ، خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها حتى اواسط القرن ، ان يخرج ، بقواه التقليدية ، على المصائر التي حددتها من حوله القوى الكبرى التي كانت تحتله في المشرق والمغرب (١) . انتقال ليبيا من ايدي ايطاليا والمحور التي كانت تتخذها قاعدة الى ايدي الحلفاء ، واستلام حكومة فيشي فترة من الوقت لحكم البلاد التابعة لفرنسا في المشرق (سوريا ولبنان) ، وفي المغرب (تونس ، الجزائر ، المغرب) ، كل ذلك لم يغير ، وما كان ليغير ، شيئا من مصائرها بعد الحرب . كانت كلها مسوقة ضمن المجهود الحربي الواحد . بعضها

١



كان قواعد عسكرية اساسية (مصر ، فلسطين ، الاردن ، تونس) وبعضها سحقته الجيوش كرا وفرا (ليبيا) . وحين انتهت الحرب ، حصلت بعض الاقطار العربية على جلاء القوى الاجنبية عنها ، لكن ليدخلها الاستعمار من الباب الآخر .

المغرب العربي

كانت فرنسا قد احتاطت في المناطق التي تحتلها من المغرب العربي ، فابعدت قبل الحرب جميع الزعماء الوطنيين (الحبيب بورقيبة ، مصالي الحاج ، علال الفاسي) . حين نزلت قوات الحلفاء في شمال افريقيا (نوفمبر ١٩٤٢) ظل النظام الفرنسي يتابع ادارته للبلاد ، ويستغل كل قواها وخاصة في الجزائر والمغرب للاعمال العسكرية .

حاول رجال الحركة الوطنية الاستفادة

استعمار البلاد العربية حتى سنة ١٩٤٥ (تواريخ بدء الاحتلال او السيطرة الرسمية)

في المشـــرق

١ ـ عمان (انجلترا)	١٧٩٨
٢ ـ الشاطىء العماني (انجلترا)	١٨٢٠
٣ ـ البحرين وقطر (انجلترا)	١٨٢٠
٤ ـ الكويت (انجلترا)	١٨٩٩
٥ ـ العراق (انجلترا)	١٩١٧
٦ ـ سوريا (فرنسا)	١٩٢٠
٧ ـ لبنان (فرنسا)	١٩١٩
٨ ـ الاردن (بريطانيا)	١٩٢١
٩ ـ المحمرة (ايران)	١٩٢٥
١٠ ـ فلسطين (بريطانيا والصهيونية)	١٩١٧
١١ ـ الاسكندرونة (تركيا)	١٩٣٩
١٢ ـ جزيرة بريم (انجلترا)	١٧٩٩
١٣ ـ جزيرة سقطرة (انجلترا)	١٨٣٤
١٤ ـ عدن (انجلترا)	١٨٣٩
١٥ ـ ميناء اوبوك في جيبوتي (فرنسا)	١٨٦٢
١٦ ـ جيبوتي (فرنسا)	١٨٨٤
١٧ ـ زيلع وبربرة (انجلترا)	١٨٨٤
١٨ ـ ميناء مصوع	١٨٨٥
١٩ ـ اريتريا (ايطاليا)	١٨٩٠
٢٠ ـ ساحل البنادر (الصومال) ـ (ايطاليا)	١٩٠٥
٢١ ـ جوبا وقسمايو (ايطاليا)	١٩٢٥

في المـغـرب

٢٢ ـ الجزائر (فرنسا)	١٨٣٠
٢٣ ـ تونس (فرنسا)	١٨٨١
٢٤ ـ مصر (انجلترا)	١٨٨٢
٢٥ ـ السودان	(١٨٨٢) ثم ١٨٩٨
٢٦ ـ الساقية الحمراء (اسبانيا)	١٨٨٤
٢٧ ـ موريتانيا (فرنسا)	١٩٠٥
٢٨ ـ ليبيا (ايطاليا)	١٩١١
٢٩ ـ المغرب (فرنسا)	١٩١٢
٣٠ ـ ريف المغرب (اسبانيا)	١٩١٢

(١) ـ هذا المصور للوطن العربي ١٩٤٥ جذوره الاستعمارية قديمة . استمرت مختلف القوى الاوروبية في تطويق البلاد العربية والصراع البحري معها حتى ١٨٠٠ ، واحتلت عدة نقاط على اطرافها الشرقية في طريق الهند . خلال القرن ١٩ ، وبعد ان تطورت قوى الغرب البحرية وتقنيته في السلاح ، بينما بقيت القوى العربية (والعثمانية) تقليدية ، بدأ الزحف على الارض العربية قطعة قطعة . وهم الذين رسموا بالتسويات فيما بينهم جميع هذه الحدود القائمة بينها ومن حولها . الدفاع المحلي وبالسلاح القديم كان عبثا . عبد القادر ، عرابي ، المختار ، العظمة ، الخطابي كانوا نماذج الايمان الذي يفتقد التقنية الموازية للخصم ، مثلهم كان الشيخ ماء العينين الذي اعلن الجهاد في شمال موريتانيا على الاستعمار الفرنسي منذ دخوله (١٩٠٥) . تمكن من استرداد الأدرار (١٩٠٦) ، واتجه نحو الجنوب مكبدا الفرنسيين الكثير . لكن الثوار سقطوا شهداء الضعف في التجهيز القتالي .



٢

(٢) ـ وضح الفراق بين الاستعمار والصهيونية بعد الحرب الثانية مباشرة . كان وعد بلفور قد أدى كل أغراضه ، ونقلت الصهيونية اعتمادها الى الولايات المتحدة لتنفيذ مرحلة الدولة . المجموعات العسكرية (الهاغانا التي أسست ١٩٢٠) والارهابية (الارغون ١٩٣٧) التي رعتها انجلترا لضرب العرب انقلبت عليها حتى خلال الحرب ، ثم تحالفت لاجبارها بالقوة على الغاء الكتاب الابيض (١٩٣٩) وفتح باب الهجرة وتملك الاراضي . فرضت انجلترا الحكم العرفي في تل ابيب (١٩٤٥) فترة لكنها اضطرت الى التخلي عن الانتداب وفلسطين .

من ظروف الحرب . في المغرب اسس حزب الاستقلال سنة ١٩٤٤ واصطدم مع السلطات الفرنسية (فبراير سنة ١٩٤٤) . أيده السلطان محمد الخامس فعزلته فرنسا، ونفته ، ثم اضطرت لاعادته والتخلي عن البلاد (مارس ١٩٥٦) . فى الجزائر (٨) اعلن فرحات عباس بيان «١٠ فبراير سنة ١٩٤٣» مطالبا ببرنامج اصلاحي معتدل ، وعقدت الفئات الوطنية مع جمعية العلماء مؤتمرا وطنيا ادى الى انتفاضات ثورية ذهبت ضحيتها عشرات الآلاف (مايو ١٩٤٥ ، ثم ١٩٤٧) حتى قامت الثورة ١٩٥٦ . في تونس حاول الباي (المنصف) نفسه الاستفادة من قوى المحور . لكن الادارة الفرنسية نفته وسيطرت على البلاد مع دخول قوات الحلفاء اليها (مايو ١٩٤٣) . ثم وضع ميثاق وطني ١٩٤٦ أرغمت فيه فرنسا على

٣



٤





٥

٦

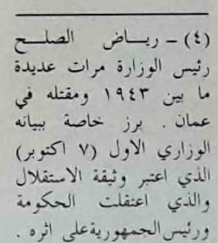


٧



٨





(٣) - بشارة الخوري انتخب رئيسا للجمهورية ١٩٤٣ . استقال ١٩٥٢ . أقام حكم التوازن الطائفي . اعتقله الفرنسيون مع حكومته لتصرفاتهم الاستقلالية ، فاعادته القضية الشعبية وأعلن استقلال لبنان اثر ذلك (٢٢ نوفمبر) .

---

(٤) - رياض الصلح رئيس الوزارة مرات عديدة ما بين ١٩٤٣ ومقتله في عمان . برز خاصة ببيانه الوزاري الاول (٧ اكتوبر) الذي اعتبر وثيقة الاستقلال والذي اعتقلت الحكومة ورئيس الجمهورية على اثره .

---

(٥) - شكري القوتلي انتخب رئيسا للجمهورية (١٩٤٣ - ١٩٤٩) ثم تولى الرئاسة مرة اخرى (١٩٥٥ - ١٩٥٨) . في عهده الاول تم الجلاء الفرنسي عن سوريا (١٧ ابريل ١٩٤٦) وفي الثاني تمت الوحدة مع مصر .

---

(٦) - هاشم الأتاسي ولد في حمص . كان رئيس المؤتمر السوري الاول اثر جلاء الاتراك عن سوريا ١٩١٩ ، ثم رئيس الوزارة في الحكم الفيصلي ١٩٢٠ . انتخب لرئاسة الجمهورية في العهد الوطني ١٩٣٦ ، واستقال ١٩٣٩ احتجاجا على التدخل الفرنسي . تسلم رئاسة الجمهورية ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، ١٩٥٣ .

---

(٧) - تولى مصطفى النحاس امانة سر حزب الوفد المصري أيام سعد زغلول ، ورئاسة الحزب من بعده . ترأس الوزارة بمصر مرات عديدة بين ١٩٢٦ - ١٩٥٠ . عقد المعاهدة مع الانجليز ١٩٣٦ . أسس الجامعة العربية ١٩٤٤ . اعتزل السياسة بعد ثورة ١٩٥٢ .

---

(٨) - أسس مصالي الحاج جماعة «نجم شمال افريقيا» فكانت نواة التحرك الجزائري . منعت ١٩٢٩ واعتقل . تطورت حركته ١٩٣٩ الى حزب الشعب الجزائري ، ثم الى حركة انتصار الحريات الديمقراطية بعد ١٩٤٥ وتعتبر من ممهدات الثورة .

بعض التنازلات (١٩٥٠) لكنها سرعان ما تراجعت عنها . اما ليبيا فقد شارك اهلها في الحرب مع الحلفاء ضد المحور . وتعرضت البلاد لانواع الانتقام والضيق ، وحين خرج المحور منها (يناير ١٩٤٣) عاد مصيرها معلقا ، واحتلتها قبل نهاية الحرب القوى الانجليزية في برقة وطرابلس ، والقوى الفرنسية في فزان حتى ١٩٥٠ . تدخلت الامم المتحدة لخروج هذه القوى (يناير ١٩٥٢) .

مصر والسودان

كانت مصر في الحرب اهم قاعدة عسكرية بريطانية في الشرق الاوسط وافريقيا ، لكن الرأي العام كان ضد الانجليز الذين فرضوا حكومة حزب الوفد (فبراير ١٩٤٢ - اكتوبر ١٩٤٤) للتقرب من الشعب (٧) . أدى ذلك الى ازدياد النقمة والمعارضة ، والى تحول حزب الوفد نفسه الى المطالبة بالغاء معاهدة ١٩٣٦ وجلاء القوات البريطانية ، فاخرج من الحكم . تسلم الوزارة احمد ماهر الذي ادخل مصر عضوا مؤسسا في الامم المتحدة ، لكن الاوضاع الداخلية اضطربت بعد الحرب للدرجة التي دفعت فريقا من الجيش للثورة ، وطرد الملك ١٩٥٢ . تزعم الحركة جمال عبدالناصر.

اما السودان فكان منطقة رديفة لمصر في دعم الحلفاء . اقيمت فيه المطارات والمؤسسات اللازمة للصناعة الحربية ، كما جند عشرات الالوف من رجاله في الاعمال العسكرية . كان مصيره بعد الحرب أحد المشاكل المعلقة بين مصر وانجلترا .

المشرق العربي

عملت بريطانيا في فلسطين على معونة الصهيونية وتشكيل اجهزتها العسكرية وتدريبها اثناء الحرب ، لكن الصهيونيين انقلبوا عليها ، واتجهوا (منذ مؤتمر بلتيمور في امريكا ١٩٤٢) الى التعاون الكامل مع الولايات المتحدة (٢) ، حتى اعلنوا دولتهم (١٥ مايو ١٩٤٨) في اليوم الذي الغت فيه بريطانيا انتدابها على فلسطين . امارة شرقي الاردن التي قدمت للقوات الحلفاء اقوى جيش يعاونهم في الشرق الاوسط تحولت الى مملكة ١٩٤٦ ثم قتل الملك ١٩٥١ . اما سوريا ولبنان فوقعتا في مطلع الحرب تحت الحكم الفرنسي المباشر ، وبعد سقوط فرنسا (يونيو ١٩٤٠) تحت حكم فيشي . لكن الفرنسيين حاولوا معاودة حكم البلاد بالقوة عند نهاية الحرب (مايو ١٩٤٥) فقامت ثورة دموية تم جلاء القوات الفرنسية بعدها (١٧ ابريل سنة ١٩٤٦) عن سوريا وعن لبنان (٣ ، ٤) ، ليبدأ في سوريا منذ ١٩٤٩ عهد طويل من الانقلابات العسكرية .

في العراق ثارت الحركة الوطنية على الحكومة الموالية لبريطانيا (ثورة رشيد عالي الكيلاني مايو ١٩٤٠) فخنقتها بريطانيا بالقوة حتى قامت الثورة ١٩٥٨ .

اما المملكة السعودية فانفتحت بعد الحرب للاستثمار البترولي الامريكي . واضطرت اليمن لبعض الانفتاح بعد مصرع الامام يحيى ١٩٤٨ .

الصهيونيـّـة

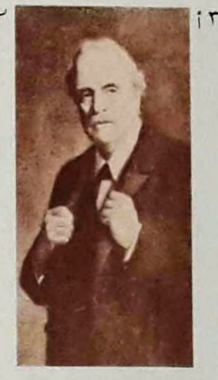
الصهيونية حركة سياسية ذات ايديولوجية عنصرية ـ دينية معا . نشأت بين يهود اوروبا الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد شيوع الافكار القومية ، وحركة الاستعمار في اوروبا ، واصطدام مصالح الطبقات الاوروبية الرأسمالية مع سيطرة اليهود الاقتصادية هناك . تعرضوا بنتيجة ذلك للعداء (٦) والهجرة ، وبخاصة الى امريكا . اضيفت الى ذلك عوامل دينية واجتماعية وثقافية متنوعة . استهدفت الصهيونية حل «المشكلة» اليهودية بايجاد بقعة من الارض يستعمرها اليهود . اقترحت مواضع عديدة ثم غلبت الفكرة التوراتية

١

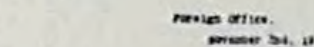
٢

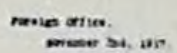


٣ أ



ب





Foreign Office,
November 2nd, 1917.

...r Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on ...half of His Majesty's Government, the following ...claration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet.

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country."

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

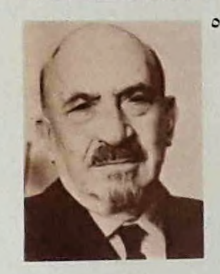
Yours
Arthur James Balfour

٤





٥



(١) ـ عمليات استسلام القدس للقوات البريطانية (٩ ديسمبر ١٩١٧) تمت بهدوء لأنها حليفة . هذا الوفد يرفع العلم الابيض في انتظارها ، وفي مقدمته رئيس البلدية حسين هاشم الحسيني والى الجانب مدير الشرطة عبد القادر العلمي .

(٢) ـ عقد المؤتمر الصهيوني الاول برئاسة تيودور هرتسل في مدينة بال في سويسرا بين ٢٩ و ٣١ اغسطس ١٨٩٨ . أسفر عن قيام المنظمة الصهيونية العالمية .

بالارض الموعودة ، لتصبح فلسطين هي المكان المختار . من الكتاب اليهود الذين فلسفوا الحركة الصهيونية موشيه هس (١٨١٢ - ١٨٧٥) ، وليوبنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) ، وماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣) ، وآحادهاعام (١٨٣٦ - ١٩٢٦) . على أن أهمهم هو تيودور هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) (٤) الذي وضع كتاب «الدولة اليهودية» .

نجحت الصهيونية في تحقيق أطماعها في فلسطين باتباع ثلاثة طرق اساسية : العمل السياسي والتمويل والهجرة .

العمل السياسي

كانت الصهيونية مجرد حلم . دخلت مرحلة التنظيم والتنفيذ اعتبارا من المؤتمر الصهيوني الأول (٢) (بال - سويسرا اغسطس ١٨٩٧) الذي حدد هدف

٦ أ



ب



ت

(٣) - أصدر أرثر جيمس بلفور (١٨٤٨ - ١٩٣٠) وزير خارجية بريطانيا (أ) اثناء الحرب الاولى التصريح الذي دخل التاريخ باسمه . اصدره في رسالة (ب) موجهة الى اللورد روتشيلد في ٢ نوفمبر ١٩٧١ وتتضمن «عطف بريطانيا على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين» . كشفت الوثائق ان الصهيونية أخذت في تلك الفترة ثلاثة وعود اخرى : أخذت موافقة امريكا على الوعد ، ونالت قبله بخمسة اشهر وعدا مماثلا من كامبو وزير خارجية فرنسا ، ووعدا رابعا من المانيا وافق عليه الاتحاديون الاتراك .

---

(٤) - تيودور هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) دعا الى المؤتمر الصهيوني الاول وتولى رئاسة المنظمة الصهيونية حتى وفاته . اجرى اتصالات دولية واسعة لمشروع الدولة ، وكان مستعدا لقبول اي مكان لها .

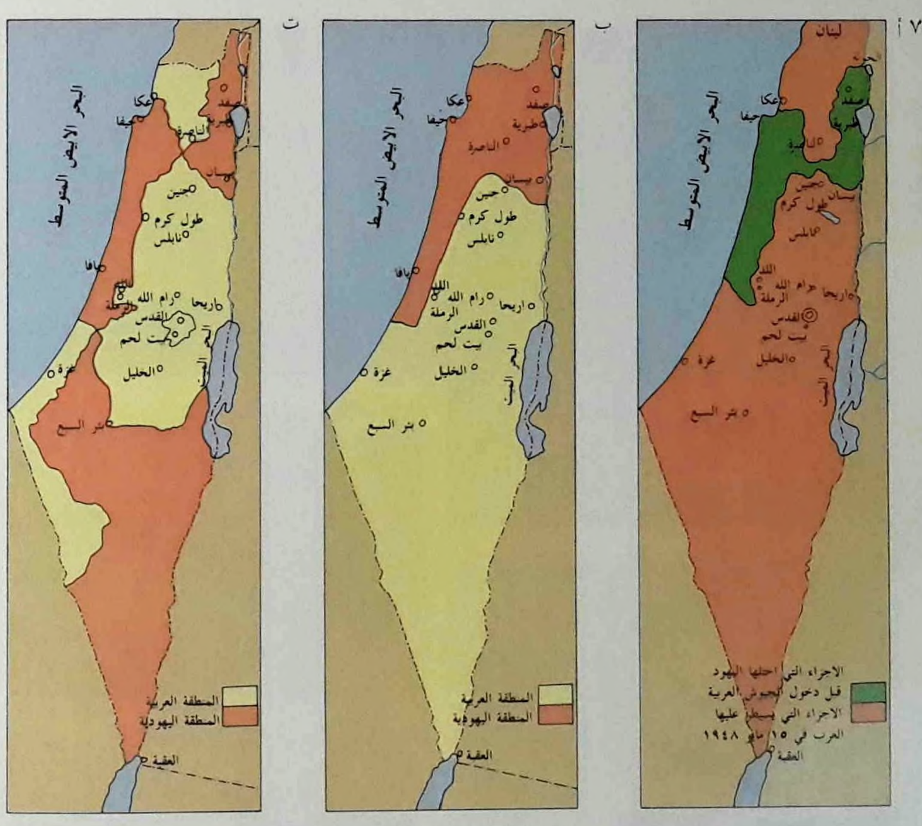
---

(٥) - حايم وايزمن (١٨٧٤ - ١٩٥٢) كيماوي بريطاني كان له دور كبير في صدور تصريح بلفور . تولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية منذ ١٩٢٠ ، وكان أول رئيس للدولة الصهيونية ١٩٤٨ .

---

(٦) - القضية اليهودية الصهيونية مشكلة اوروبية خالصة دفعها الغرب لتحل على حساب العرب . فالتطور الاقتصادي الغربي الذي استغله اليهود اثار عليهم النقمة ، فاضطهدوا كما في كييف (أ) وخاركوف (ب) . الصهيونية استغلت ذلك لتهجيرهم (ت) الى فلسطين .

الحركة بأنه «خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي» ، كما حدد وسائل الحركة ، وأجهزتها الادارية والمالية والقيادية . تتابعت المؤتمرات بعد ذلك ، وتنظم عقدها مرة كل سنتين . عملت الصهيونية في اوروبا على اقناع القوى الاستعمارية بتبني المشروع الصهيوني والاستفادة منه . استطاعت من خلال جهود الصهيوني حاييم وايزمن (١٨٧٤ – ١٩٥٢) (٥) ان تتحالف مع الامبريالية البريطانية ، وأن تأخذ من الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى تصريحا رسميا يتضمن «عطفها على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين» . صدر التصريح سرا في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وعرف باسم وزير الخارجية الذي وقعه آرثر بلفور (١٨٤٨ – ١٩٣٠) (٣) . منذ ذلك الحين ، وبخاصة بعد أن احتلت



(٧) – لجنة الامم المتحدة الخاصة اقرت اكثريتها مشروع التقسيم (أ) . الوسيط الدولي الكونت برنادوت اقترح مشروعا آخر (ب) . القوى الصهيونية قبل نهاية الانتداب أخذت الاقسام في (ت) .

بريطانيا فلسطين (١١ ديسمبر ١٩١٧)، ثم فرضت انتدابها عليها، قام التعاون الكامل بينها وبين الصهيونية لتحقيق الحلم الصهيوني. صارت الوكالة اليهودية تشترك في ادارة فلسطين. وضعت بريطانيا قواتها العسكرية ونفوذها السياسي لخدمة الحركة الصهيونية، وتسهيل الهجرة اليهودية، وخاصة بعد ظهور الحركة النازية في اوروبا. حين برزت الولايات المتحدة كقوة امبريالية عالمية، خلال الحرب العالمية الثانية، غيرت الصهيونية الحصان وركزت اعتمادها على الولايات المتحدة. بعد الحرب استطاعت الصهيونية ان تجمع تأييد امريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا على قرار أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ بأكثرية صوت واحد يقضي بتقسيم فلسطين. ثم اعلنت دولة اسرائيل (١٤ مايو ١٩٤٨).

التمويل والتنظيم:

عملت الصهيونية على تأمين التمويل المنظم للمشروع الصهيوني، واقامة الأجهزة اللازمة لذلك بوصفها أدوات الاستعمار الأساسية. وهكذا انشأت المصرف اليهودي للمستعمرات (١٨٩٨) ولجنة الاستعمار (١٨٩٨)، ثم الصندوق القومي اليهودي (١٩٠١) ومهمته تمويل شراء الأراضي باسم الشعب اليهودي، وأنشيء معه المصرف الانجليزي الفلسطيني (١٩٠٢). ثم مكتب فلسطين (١٩٠٨) وشركة تطوير أراضي فلسطين (١٩٠٨). وفي سنة ١٩٠٧ تأسس الصندوق اليهودي التأسيسي الذي أصبح اسمه فيما بعد كيرين هايسود (١٩٢٠) ومهمته تمويل عمليات الهجرة والاستيطان والمستعمرات. ثم انشئت الجباية اليهودية الموحدة في امريكا منذ ١٩٣٥.

الهجرة الاستيطانية:

لم يكن في فلسطين من اليهود حتى سنة ١٨٨٢ أكثر من ٢٤ الفا (ما يعادل ٤,٥٪ من سكانها)، لا يملكون اي نسبة واضحة من الأرض. نظم الهجرات الاولى حركة (احباء صهيون) من روسيا ورومانيا. انشأوا منذ سنة ١٨٨٢ اوائل المستعمرات. لم يبدأ الاستعمار القوي الواسع وتكاثف الهجرة بكل الوسائل وخاصة من اوروبا الا في ظل الانتداب الانجليزي وبتأييده. أثناء ذلك وخلال الحرب الثانية اعانت بريطانيا اليهود على التنظيم العسكري والتسلح، كما دعمتهم في السيطرة الاقتصادية وفي الحماية من الثورات العربية. بلغ عدد اليهود سنة ١٩٤٨ (عند اعلان الدولة) ٦٥٠ الف (مقابل مليون وربع المليون من العرب) وبلغت مساحة الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها بمختلف الأساليب مليونا و ٥٠٠ الف دونم وهي تساوي ٥,٦٪ فقط من مساحة البلاد الاجمالية. لكن الأمم المتحدة قررت التقسيم لفلسطين بتأثير القوى الاستعمارية الكبرى، وأعطيت الصهيونية ٥٦,٥٪ من البلاد، يسكنها ٤١٠ الاف عربي (٧). وأعطي العرب أقل من ٤٣٪ ليس فيها سوى ١٠ آلاف يهودي وجعلت مدينة القدس دولية.

قضيّة فلسطين

قضية فلسطين نكبة فريدة في تاريخ الاقطار جاءت نتيجة التقاء الاطماع الاستعمارية ، وهي في اوج وقتها ، مع فكرة توارثية قديمة تتحدث عن «ارض الميعاد» ، وفكرة سياسية حديثة تنادي بالقومية اليهودية ، وبالبحث عن ارض لها تقليدا للقوميات الاخرى . بدأت مشكلة فلسطين بالاحتلال الانجليزي المتعاون مع الصهيونية سنة ١٩١٧ . تحولت المشكلة بالتدريج ، ونتيجة الاطماع والتطورات التوسعية العسكرية التي قامت بها الدولة الصهيونية ،الى مشكلة للشرق العربي كله ، تستنزف جهده وقواه التنموية وعطاءه الحضاري .

(١) ـ كان غرض انجلترا من معونة الصهيونية قطع المشرق العربي عن المغرب ، واقامة جماعة اجنبية مأمونة تحرس قناة السويس . لذلك قامت خلال فترة الانتداب مقام الصهيونية بكل اعمال العنف والقمع للعرب . حتى المظاهرات قاومتها ، كمظاهرة القدس سنة ١٩٢٩ (ب) ، وفتحت الهجرة لليهود ، ومنحتهم الاراضي والتدريب العسكري . شعور العرب بالخطر أنزلهم عقب الاحتلال البريطاني ١٩١٩ الى الشوارع (أ) .

أ



ب



٢



٣



القضية في ظل الانتداب الانجليزي

ادرك العرب منذ بدأت عمليات الاستيطان الاولى خطر هذه الحركة، وبخاصة بسبب موقع فلسطين الاستراتيجي في قلب الوطن العربي، والقدسية الدينية التي تتمتع بها. بدأت المقاومة للاستيطان منذ سنة ١٨٨٦ واستمرت في العهد العثماني. لكن الامر انقلب بعد الاحتلال الانجليزي لفلسطين سنة ١٩١٧، ووعد بلفور، ثم فرض الانتداب (١٩٢٠)، والتزام انجلترا بتنفيذ الوعد، واعتبار الوكالة اليهودية ممثلا رسميا للوجود اليهودي في فلسطين، والتعاون معها في ادارة البلاد، ونهب الاراضي، واستثمار المرافق الحيوية، وتسهيل الهجرة اليهودية.

ربط اهل فلسطين مصيرهم أولا بمصير سوريا في المؤتمر السوري بدمشق سنة

أ



ب



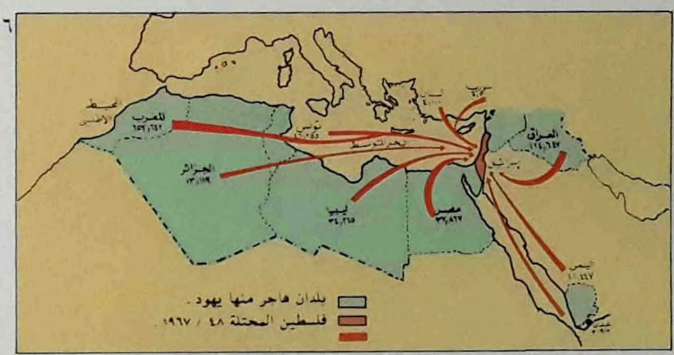
(٢) - محمد امين الحسيني (القدس ١٨٩٣ - بيروت ١٩٦٧) مفتي فلسطين، ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى فيها منذ ١٩٢٢ حتى ١٩٤٨. تولى رئاسة اللجنة العربية العليا منذ ١٩٣٦، وبقي رئيسا للهيئة العربية العليا بعد ذلك حتى وفاته.

(٣) - عبد القادر الحسيني تعلم في الجامعة الامريكية ببيروت والكلية الحربية ببغداد. اشترك بثورات فلسطين وجرح. قاد مجاهدي المنطقة الجنوبية بالقدس ١٩٤٨ حتى استشهد بمعركة القسطل.

(٤) - النقص الاساسي في عمليات الدفاع العربي في فلسطين كان في عدم تكافؤ الاسلحة بين القوى البريطانية المسيطرة والمتحالفة مع الصهيونية وبين المناضلين من الشعب الفلسطيني والمتطوعين العرب. استند العرب الى الحق ولكنهم دافعوا عنه بالبنادق البدائية، حتى في جيش الانقاذ ١٩٤٧ (أ)، بينما عمدت الصهيونية الى القوة من تنظيم غربي، واساليب عسكرية حديثة، واسلحة متطورة، ومذابح جماعية ارهابية. كانت النتيجة اخراج ٩٠٠ الف عربي من بلادهم (١٩٤٨)، لحقهم ٣٨٠ الفا (١٩٦٧) توزعوا لاجئين (ب): ٣٨,٨ ٪ في الاردن، ١٩,٣ ٪ في غزة، ١٨,٦ ٪ في الضفة الغربية، ١٥,٦ ٪ في سوريا، ١٠,٤ ٪ في لبنان، ٢,٣ في مصر، عدا مجموعات متفرقة في العراق والخليج.

١٩١٩، لكن تطبيق اتفاقية سايكس بيكو أعادهم الى النضال المحلي . انشأوا الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية بين سنتي ١٩١٩ ـ ١٩٣٨ ، والاحزاب وعقدوا المؤتمرات ، ونظموا المظاهرات والاضرابات (١) . احتجوا لدى عصبة الامم ، وحددوا مطالبهم برفض الانتداب ، والغاء وعد بلفور ، وايقاف الهجرة . كان كل ذلك عبثا ، رغم الانتفاضات الشعبية التي رافقت كل ذلك سنة ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩ . قامت ثورة كبرى بعد ذلك بين سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، ولجأ الانجليز في قمعها الى اقسى العنف . كما جندوا بالمقابل الصهيونيين ، ودربوهم . وبينما وسطوا الزعماء العرب لانهاء الثورة سنة ١٩٣٩ ، واصدروا الكتاب الابيض الذي يعد بسياسة متوازنة ، اقاموا لليهود قوة عسكرية خاصة تتدرب بجانبهم في

٥ أ

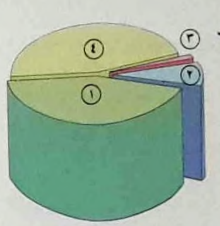


ب



(٥) ـ الصهيونية كاستعمار استيطاني كان نجاحها ـ وما يزال ـ مرتبطا بعدد المهاجرين لفلسطين . بين ١٨٤٠ و ١٩٠٠ طرد الاضطهاد الاوروبي لليهود حوالى ٩٨٥ ألفا ، منهم ٣٥ ألفا الى فلسطين . ما بين ١٩٠١ ـ ١٩٢٠ هاجر ٢,٥ مليون ، وخاصة الى امريكا ، مقابل ١٨ الفا الى فلسطين . الانتداب البريطاني (١٩٢٠ ـ ١٩٣٩) أدخل اليها ٢٩٤ الف يهودي منهم ٢٢٣ الفا بين ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ ، وكان مجموع المهاجرين اليهود من اوروبا ١,١ مليون . خلال الحرب العالمية الثانية ، وحتى ١٩٤٨ ، دخل فلسطين ١٥٣ الفا . معظم هذه الهجرات كانت من اوروبا الشرقية (ب) . بعد ١٩٤٨ هاجر اليهود من البلاد العربية (أ) .

٦



(١) العرب (٢) اليهود (٣) الغير أجانب (٤) أملاك الدولة

(٦) ـ بذلت الصهيونية أقصى جهدها لاستملاك الارضي . بعد خمسين سنة من الجهود البريطانية ـ الصهيونية المشتركة (١٨٩٧ ـ ١٩٤٧) ، كان العرب يملكون من ارض فلسطين البالغة ٢٦٣٠٢٣ ٢ دونم ما مساحته ١٢٥٧٤٧٧٤ دونم ، واليهود ١٤٩١٦٩٩ دونم ، وكانت املاك الدولة (وخاصة النقب) ١٢١١٤٥٠٠ دونم ، ولبعض الاجانب ١٤٢٥٥٠ دونم . مشروع التقسيم اعطى اليهود ٥٦ ٪ من فلسطين والعرب ٤٤ ٪ .

الحرب العالمية الثانية .

حين خرجت بريطانيا منهكة من الحرب سنة ١٩٤٥ كانت الصهيونية قد نقلت مركز ثقلها الى الولايات المتحدة (بعد مؤتمر بلتيمور وبرنامجه ١٩٤٢) . رأت بريطانيا انها قد خسرت العرب واليهود معا فتخلت عن الانتداب لتقرر الامم المتحدة ، تحت الضغط الامريكي خاصة ، تقسيم فلسطين (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) .

اعلان الدولة

رفض العرب قرار الامم المتحدة لما فيه من ظلم فادح ، وكان الحل الوحيد امامهم هو الدفاع بأي ثمن (٤) . بينما تلقت الصهيونية القرار بأعظم مظاهر الفرح لانه اوصلها اخيرا الى اهدافها . كانت قواها العسكرية جاهزة للعمل فقامت بعدد من عمليات الارهاب والمذابح الوحشية لاجبار العرب على الجلاء من المناطق التي تطمع بها (٤) . اعلنت الدولة (١٤ مايو ١٩٤٨) فأسرعت امريكا بعد دقائق الى الاعتراف بها ولحقتها الدول الكبرى . تدخلت الدول العربية المجاورة عسكريا للدفاع عن الوجود العربي في فلسطين ، فكانت النتيجة ان القوى الصهيونية قتلت وسيط الامم المتحدة (الكونت برنادوت) ، واحتلت ضعف المساحة التي حددت لها في قرار التقسيم ، واخذت منطقة النقب لتطل على البحر الاحمر (٦) . غادر فلسطين من اهلها العرب ما يزيد على ٩٠٠ الف لاجىء (٤) اشترطت الامم المتحدة اعادتهم لقبول اسرائيل في المنظمة الدولية . لكن اسرائيل اصدرت سنة ١٩٥٠ قانون العودة الذي يسمح لأي يهودي بالعودة الى فلسطين ، ومنعت عودة اللاجئين .

بعد ابرام الهدنات بين الدولة الصهيونية والدول العربية المجاورة سنة ١٩٤٩ بقي قطاع غزة تحت الادارة العسكرية المصرية . وبقيت الضفة الغربية للاردن وما لبثت المملكة الاردنية الهاشمية ان ضمتها اليها (٢٠ ابريل ١٩٥٠) .

القضية بعد سنة ١٩٤٩

اصدرت امريكا وبريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٠ بيانا بضمان الحدود الصهيونية من اي اعتداء . بلغ تعاون هذه الدول مع اسرائيل الاوج في العدوان الثلاثي على مصر (اكتوبر ١٩٥٦) بمناسبة تأميم قناة السويس . قدمت الولايات المتحدة اوسع العون المالي والعسكري والاقتصادي والسياسي لاسرائيل لتظل صامدة .

كشفت اسرائيل منذ حرب السويس عن طبيعة دورها في المنطقة العربية كأداة من ادوات العدوان الامبريالي لقطع المشرق العربي عن مغربه ، وضمان استثمار النفط العربي دون قلق ، وتوطيد السيطرة الامريكية المتزايدة في الشرق العربي . لهذا اصبحت اسرائيل ترسانة اسلحة (بما في ذلك القوة الذرية) وقامت بعد حرب السويس بالعدوان على البلاد العربية (٥ يونيو سنة ١٩٦٧) محتلة سيناء والضفة الغربية والجولان . حين كادت تهزم في حرب سنة ١٩٧٣ تدخلت الولايات المتحدة لدعمها الكامل .

أمريكا اللاتينية في القرن العشرين

تاريخ امريكا اللاتينية في القرن العشرين هو بالدرجة الاولى قصة المحاولات الرامية الى التخلص من عمليات النهب المنظم التي تمارسها الولايات المتحدة خاصة فيها منذ القرن التاسع عشر، وكسر قيودها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والمقاومة التي اصطدمت بها مثل هذه المحاولات. اخذت التطورات في امريكا اللاتينية تتأثر بصورة متزايدة بالعوامل الخارجية. فقد ادت «الضائقة الكبرى» الى انهيار اسعار صادراتها، كما ان الحربين العالميتين قد حفزتا التصنيع والتحديث فيها بعد حرمانها من الاسواق ومصادر البضائع التقليدية. كذلك حصل

٢



٣



١



(١) ـ تتجلى ايديولوجية الثورة المكسيكية في هذه الجدرانيات الضخمة. كانت الثورة قومية الطابع. جاءت الجدرانيات تعبيرا حتى عن القومية الثقافية. فهي تمثل العنف الهائل: في اضطهاد الهنود على يد الفاتحين الاسبان وفي الرد الغاضب من قبل الفلاحين والعمال المكسيكيين على الاستغلال. يظهر الهنود وزعماؤهم بمظهر مثالي في هذه الجدرانيات، بينما يظهر الطغاة بمظهر مضحك. في هذه الصورة، يخاطب ماركس العمال، في حين كانت الكنيسة والرأسماليون غارقين في الثروة.

نمو سريع للمدن الكبرى ، مثل بونس ايريس ومدينة مكسيكو وسان باولو ، التي تضخمت ايضا في بعض الاحوال بسبب الهجرة .

الديكتاتورية والعسكريون في السياسة

لم يحمل التصنيع والتحديث بحد ذاتهما تغييرا سياسيا واجتماعيا اساسيا الى امريكا اللاتينية . فقد بقيت المشاريع الاجنبية هي المسيطرة على التجارة والصناعة ، وبصورة متزايدة مشاريع الولايات المتحدة . ولم تلعب الطبقات الوسطى المتكاثرة العدد في امريكا اللاتينية الدور الاجتماعي الذي كانت تلعبه شبيهاتها في الولايات المتحدة او اوروبا الغربية . وقلما حققت الاحزاب السياسية المنبثقة من الطبقة الوسطى الاصلاحات الجوهرية عندما كانت تستولي على

٤


٥


٦


٧


(٢) – تشهد الاحياء الاكواخ ، الشبيهة بهذا الحي في ريو دي جانيرو ، على عدم التكافؤ الفاضح بين الاغنياء والفقراء .

(٣) – الطريق العريض الذي اخترق في السبعينات منطقة الامازون في البرازيل يدل على التحديث في امريكا اللاتينية .

(٤) – اصبح الكولونيل كارلوس ايبانيز رئيسا للشيلي سنة ١٩٢٧ ، فنهج سياسة جمعت بين القومية والاصلاح الاجتماعي . الا ان «الضائقة الكبرى» قضت على هذه السياسة ، فاستقال .

(٥) – كان الجنرال خوان بيرون رئيسا على الارجنتين من ١٩٤٦ الى ١٩٥٥ . بمؤازرة زوجته ايفا ، كسب تأييد الجماهير في المدن بسبب المنافع الاجتماعية التي حققها لها . على اثر وفاة ايفا سنة ١٩٥٢ ، ساء وضعه ولم يلبث العسكريون ان خلعوه آخر الامر . بقي انصاره « البيرونيستا» عنصرا رئيسيا في السياسة الارجنتينية ، فاستدعي بيرون لتولي السلطة ثانية سنة ١٩٧٣ ، ولكنه مات في السنة التالية .

(٦) – لعل فيديل كاسترو الزعيم الطوباوي لكوبا الثورية – الذي يبدو هنا وهو يخطب في احد الاجتماعات التي يقيمها ليشرح فيها سياسته – هو اشهر شخصية امريكية لاتينية منذ سيمون بوليفار . ومع ان «الكاستروية» لم تمتد الى اجزاء اخرى من القارة ، فقد تحدى نجاح كاسترو هيمنة الولايات المتحدة على تلك المنطقة واثر تأثيرا عميقا في هيبتها في امريكا اللاتينية .

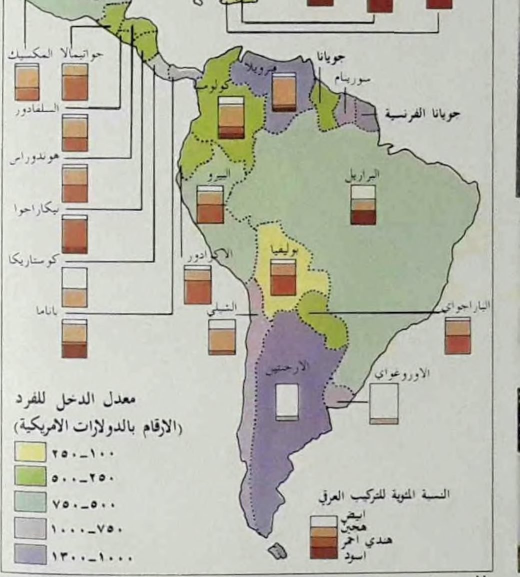
(٧) – اصبح سالفادور أليندي اول رئيس دولة ماركسي ينتخب بحرية ، حينما فاز بانتخابات الرئاسة الشيلية سنة ١٩٧٠ . مع انه واجه معارضة الكونجرس الامريكي وعداوة الولايات المتحدة ، فقد باشر برنامجا اجتماعيا طموحا . لجأ كل من مؤيديه ومعارضيه الى اساليب غير دستورية ، وبلغت الفوضى الاقتصادية والعنف ذروتهما في خلعه على اثر انقلاب عسكري ومقتله آخر الامر في سنة ١٩٧٣ .

السلطة . شجع هذا الوضع على ظهور نوع جديد من الديكتاتوريين الذين كانوا يعتمدون على تأييد العمال في المدن . من هؤلاء الديكتاتوريين الجنرال خوان بيرون (١٨٩٥ ـ ١٩٧٤) في الارجنتين (٥) .

بقي العسكريون يمثلون عنصرا هاما في سياسة امريكا اللاتينية . اعطت الضائقة الاقتصادية ، التي احدثت هزات سياسية في معظم بلدان امريكا اللاتينية منذ ١٩٢٩ ، دفعا ضخما للتدخل العسكري ، ثم شجعت الحرب الباردة فيما بعد هذا الاتجاه . كان العسكريون ، وهم يواجهون في اكثر الأحيان حكومات مدنية ضعيفة وعاجزة ، يميلون لاعتبار انفسهم حماة المصلحة الوطنية الحقيقيين . كان الشعور القومي دوما قويا في اوساط العسكريين اللاتينيين الامريكيين ، ومع انهم كانوا بصورة عامة محافظين ، وفي

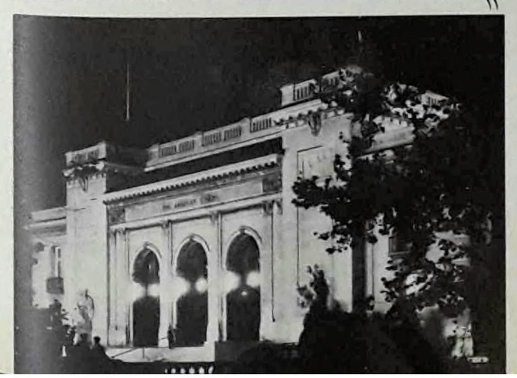


(٨) ـ تبنى الجنرال الفارادو (١٩١٠ ـ) رئيس حكومة البيرو سياسة وطنية ثورية منذ ١٩٥٨ ، ودعا بصورة ناشطة الى التعاون بين بلدان العالم الثالث . في سنة ١٩٧٥ ، عقد مؤتمر لدول عدم الانحياز في ليما .



(٩) ـ يقع مبنى وزارة الخارجية في برازيليا ، عاصمة البرازيل الجديدة .

(١٠) ـ يتبين انتماء امريكا اللاتينية الى العالم الثالث المؤلف من البلدان النامية في هذه الخارطة التي تعطي معدل المدخول الفردي والتركيب العرقي في كل بلد .



(١١) ـ مبنى «الاتحاد الامريكي العام» في واشنطن هو مركز «منظمة الدول الامريكية» التي تربط امريكا اللاتينية بالولايات المتحدة .

العقود الاخيرة مناوئين بشدة للشيوعيين ، فقد اقترن شعورهم القومي احيانا بالراديكالية ، لاسيما بين صغار الضباط . ومنذ بداية العشرينات ، حقق رئيس عسكري ، هو الكولونيل كارلوس ايبانيز (١٨٧٧ - ١٩٦٦) (٤) ، برنامجا من الاصلاح الاجتماعي في الشيلي . الا ان اوسع برنامج عرفته امريكا اللاتينية كان برنامج الحكومة العسكرية في البيرو التي استولت على الحكم سنة ١٩٦٨ . بدأت هذه السياسة بانتزاع ملكية شركة نفط ضخمة تملكها الولايات المتحدة ، واستمرت بالتصدي للمصالح الامريكية .

العداء نحو الولايات المتحدة

بقي الشعور القومي في امريكا اللاتينية لمدة طويلة موجها بصورة رئيسية ضد الولايات المتحدة ، وهي اهم كيان اجنبي في المنطقة (١١) . كانت الولايات المتحدة تمارس نفوذها لدعم الاستقرار والوضع الراهن ، وضد التغيرات الثورية التي كانت تهدد مصالحها ، وكثيرا ما حدا بها الخوف من الشيوعية الى تأييد الديكتاتوريات الامريكية اللاتينية واستخدامها لخدمة مصالحها . وعندما باشر الرئيس جون ف. كندي (١٩١٧ - ١٩٦٣) سنة ١٩٦١ بمشروعه «التحالف من اجل التقدم» - وهو برنامج طموح من التطور الاقتصادي والاجتماعي في امريكا اللاتينية ينطوي على اصلاحات جوهرية وتدابير لتعزيز الديمقراطية - اصطدم هذا البرنامج بالتخاذل والمعارضة .

على الرغم من نفوذ الولايات المتحدة واستمرار البنى الاجتماعية التقليدية ، فقد اندلعت ثلاث ثورات اصيلة في امريكا اللاتينية خلال القرن العشرين : في المكسيك (١٩١٠) وبوليفيا (١٩٥٢) وكوبا (١٩٥٩) . ادت الثورة المكسيكية (١) الى قيام نظام حكومي جديد ، واعادة اساسية لتوزيع الاراضي ، وتحسين وضع الهنود ، كما انها اكدت على القومية المكسيكية ، عن طريق الاستيلاء سنة ١٩٣٨ على صناعة النفط التي كان يملكها الاجانب . ومع ان الثورة البوليفية لم تبلغ هذا المدى ، فقد قضت على امتيازات كبار الملاكين ، واممت مناجم القصدير (مصدر بوليفيا الرئيسي من العملة الاجنبية) ، كما رفعت مستوى الهنود . اما الثورة الكوبية ، فكانت اكثرها تطرفا ، اذ ادت الى اقامة دولة بزعامة فيدل كاسترو (١٩٢٧ -) (٦) تعلن بصراحة ماركسيتها وتحالفها مع الاتحاد السوفياتي .

لم يقتد بكوبا احد في امريكا اللاتينية ، مع ان عنف العصابات في المناطق المأهولة والريف قد تزايد في بعض البلدان .

تعاون العالم الثالث

في هذه الاثناء ، اخذت بلدان امريكا اللاتينية تعلن انتماءها الى بلدان آسيا وافريقيا النامية (١٠) وتتعاون معها في محاولة للحصول منها على شروط تجارية افضل من شروط البلدان المصنعة الغنية . كذلك حاولت التعاون فيما بينها بصورة اوثق وزادت تجارتها خارج نصف الكرة الغربية ، كي تخفف من اعتمادها على الولايات المتحدة .

علم الاجتماع في القرن العشرين وتأثيره

في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية ، أخذ علم الاجتماع يتحول من نظام الى أداة عملية يمكن استخدامها من قبل الحكومة والصناعة . ولكنه لم يتجاهل نشأته قط ، اذ كان قد انبثق اصلا عن الرغبة في فهم قوى التصنيع التي فرقت بين الناس اقتصاديا واجتماعيا وفي مقاومتها . واصل علماء الاجتماع العصريون تشديدهم على السبل الرامية الى الحد من أشكال التفاوت وزيادة الاندماج الاجتماعي .

«المجتمع الفاضل»

شجعت الاضطرابات والانهيارات في

١

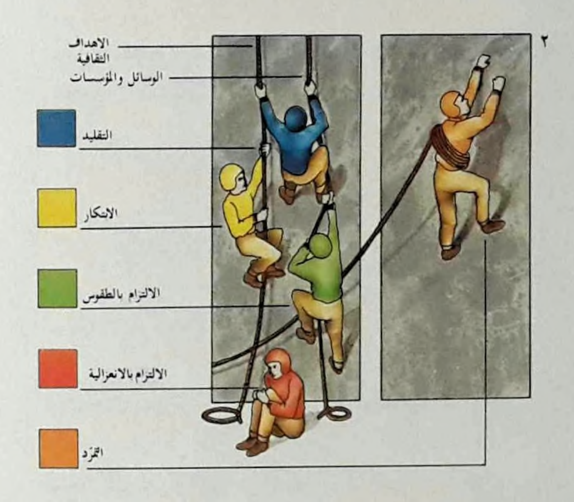
التضارب الاجتماعي

ماركس ١٨١٨ـ٨٣

ماركوز ١٨٩٨ـ

الاندماج الاجتماعي

٢



(١) ـ جاء الفكر الاجتماعي في القرن العشرين منقسما من عدة نواح ، انقسام الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر الذي انبثقت عنه معظم الاختلافات القائمة اليوم . ليس لدينا نظرية اجتماعية واحدة ، بل على العكس عدد من النظريات المتباينة التي منها ما هو متكامل ومنها ما هو متناقض . من اهم هذه النظريات تلك التي تعالج نموذج المجتمع الذي يتخذه علماء الاجتماع منطلقا لابحاثهم . فبعضهم ، مثل تالكوت بارسونز ، يحدّد المجتمع كجهاز متسق ضابط لذاته ، بينما يذهب غيرهم ، مثل ماركوز ، الى ان المجتمع ليس متسقا الى الحد الذي يتبين من امره احيانا ، بل هو منقسم انقساما عميقا بحكم اشكال التفاوت الاقتصادي التي منها يندلع الصراع .

(٢) ـ يبدو في هذا الرسم الذي وضعه ميرتون التكيف الفردي ازاء مجموعة الاهداف والوسائل المحددة اجتماعيا . بفضل هذا النموذج ، يمكن تحليل سلوك الجانح الذي قد يكون ساعيا وراء هدف مقبول اجتماعيا ولكنه لا يلتزم بالوسائل المتواطأ عليها خلقيا لبلوغه ، وسلوك الثائر الرامي الى تغيير الاهداف والوسائل نفسها في المجتمع .

(٣) ـ تنطوي سياسة نقل الاولاد السود غير الموسرين الى مدارس البيض على فكرتين اجتماعيتين رئيسيتين : الاولى الاعتقاد ان الانجاز التربوي يتوقف على البيئة بمقدار ما يتوقف على الوراثة والثانية هي فكرة الدمج العنصري . تدل النقمة الشعبية على هذه السياسة ، كما تتجلى في «حرب» سيارات النقل الكبيرة في بوسطن الظاهرة هنا ، على محدودية مثل هذه المحاولات .

العقدين الثالث والرابع علماء الاجتماع على زيادة الاهتمام «بالمجتمع الفاضل» ، فرأى بعضهم ان المجتمع الفاضل لا بد ان ينطوي على مستوى رفيع من الاندماج والاستقرار ، وعلى نواة مشتركة من القيم ، وتشديد على فكرة الجماعة . من المدارس الفكرية التي رجعت صدى هذا الرأي مدرسة «الوظائفية البنيوية» ، التي رسمت صورة للمجتمع ككائن عضوي ضابط لذاته ، تقوم عناصره المختلفة (المؤسسات) بالوظائف الضرورية فيه . ظهرت الوظائفية في فرنسا على يد اميل دوركهايم ، وطورها في امريكا تالكوت بارسونز (١٩٠٢ –) وروبرت ميرتون ، كما أسس الانتروبولوجيا الاجتماعية البريطانية برونيسلاف مانيلوفسكي والفرد رادكليف براون في غمرة دراساتهما للثقافات «البدائية» الصغيرة الحجم في

٣



٤



(٤) – برز طلاب العلوم الاجتماعية اكثر من سواهم في المظاهرات ضد تورط امريكا في فيتنام ، مثل هذه المظاهرة في فورت ديكس بنيوجرسي سنة ١٩٧٠ . يمثل رد الفعل ضد الحرب في فيتنام المفارقة التي ينطوي عليها تأثير علم الاجتماع في الشؤون السياسية في القرن العشرين . فمنهم من يتهم علم الاجتماع بالتحريض على الصراع والتغيير ، ومنهم من يتهمه بالمساعدة على الابقاء على النظام الاجتماعي القائم . ان تورط طلاب العلوم الاجتماعية الراديكاليين في معارضة الحرب في فيتنام لم يعادل قط الوقت والمجهود ولاسيما المال الذي انفق على الابحاث الاجتماعية الهادفة الى تقوية فعالية الحرب في تلك البلاد .

٥



(٥) – استخدمت الحكومات علماء الاجتماع بصورة متزايدة لمساعدتها في مهمة التخطيط الاجتماعي . ادى الرخاء الغربي فيما بعد الحرب والادراك بأن الاكواخ هي بؤر للمشاكل الاجتماعية الى مشاريع اعادة الاسكان . لكن في عدة احوال ، اجريت « التحسينات » دون الاهتمام بتأثيرها على الناس الذين اعيد اسكانهم . فقد نجم عن الانتقال الى مدن جديدة حسنة التصميم ، ولكن بدون طابع خاص ، تصدع جماعات مستقرة .

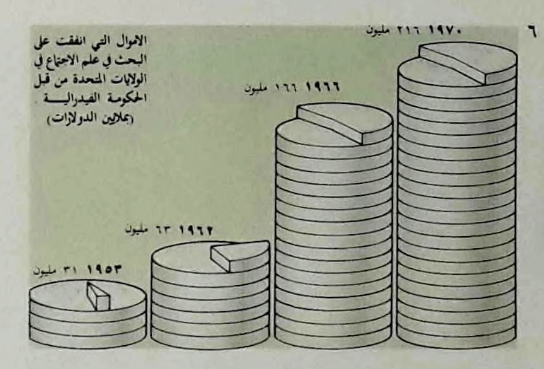
غينيا الجديدة وافريقيا وسواهما من الامكنة ، حيث بدت سهولة التوصل الى معرفة العناصر التي تتكون منها تلك المجتمعات الصغيرة مشجعة على دراستها دراسة شاملة .

يتضح الطابع المحافظ «للوظائفية البنيوية» من تشديدها على الاندماج الخلقي ، وتأكيدها على أهمية المؤسسات الاجتماعية القائمة ، ومن نزوعها نحو الربط بين وظائف هذه المؤسسات ومصالح الفئات النافذة في المجتمع .

علم الاجتماع والهندسة الاجتماعية

وضعت «الوظائفية» اساسا نظريا للاستفادة على نطاق واسع من علماء الاجتماع «كمهندسين اجتماعيين» يعالجون مشاكل معيّنة تعانيها الصناعة او الحكومة . وقد استخرجت من التحاليل

٦



٧

٨



(٦) - طرأ على الابحاث في العلم الاجتماعي تطور سريع منذ منتصف الخمسينات ، كما يبين هذا الرسم البياني للدعم الفديرالي لهذا العلم في الولايات المتحدة . على ان بعض المؤسسات الشبيهة «بمؤسسة فورد» قد قدمت اضخم قدر من المال في هذا المجال . اخذت اساليب علم الاجتماع واكتشافاته تطبق في عدد كبير من الحقول العامة والخاصة ، تتراوح بين الاستراتيجية العسكرية والاسكان ، وبين التسويق والعلاقات الصناعية .

(٧) - يبدو ان «العائلة النووية» ، اي المؤلفة من الابوين والاولاد فقط ، هي التي تقوم بوظيفة العناية بالاولاد وتنشئتهم التنشأة الاجتماعية . لكن في حين يعتبرها الوظائفيون كيانا لازما لا بد منه ، ينتقدها ارباب علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي الآخرون ، مثل ر.د. لاينج ، لشدة تماسكها الذي قد يؤدي الى ظاهرات الكبت والعصاب ، وهي وجهة نظر تدافع عنها بقوة «حركة تحرير النساء» .

(٨) - يتميز القرن العشرون في رأي الكثيرين باتساع الفجوة المتزايد بين مستويات المعيشة الواقعية والتوقعات المرجوة (التي تثيرها حركة الاعلانات مثلا) . نظر علماء الاجتماع الى هذه الشقة من عدة نواح ، فاعتبرها بعضهم سببا من اسباب الاضطرابات والمشاكل الاجتماعية ، بينما نسب غيرهم تقاعس غير الموسرين في العمل على تحسين اوضاعهم الى وسائل الاعلان التي خلقت لهم «عالما من الاحلام الاستهلاكية» . كذلك استخدم علم الاجتماع من جانب الحكومات من اجل الحد من اشكال عدم المساواة .

التي قامت بها الوظائفية مجموعة متنوعة من السياسات المختلفة ، التي كان بعضها مثلا يشدد على الحاجة الى مستويات اجتماعية مختلفة ، بينما كان بعضها الآخر ينادي بالاندماج الاجتماعي . فنقل الطلاب معا في سيارات عامة كبيرة وحشدهم جميعا في مدارس واحدة سياستان حكوميتان اقتبستا لتشجيع الاندماج والمساواة ، وذلك عن طريق جمع الطلاب الموسرين وغير الموسرين في مدرسة واحدة (٨) . كان الاجرام ايضا مشكلة اخرى لجأت بعض الحكومات في معالجتها الى علماء الاجتماع بصورة متزايدة . فقد استند برنامج «تعبئة الشباب» لسنة ١٩٥٨ في الولايات المتحدة على «التحليل الوظائفي» ، وكان يرمي الى تضييق الشقّة بين الاهداف المرجوة والفرص المتاحة امام غير الموسرين ، وهي شقة كان واضعو البرنامج يرون فيها احد اسباب الاجرام .

تراث كارل ماركس

وقفت في وجه الوظائفية البنوية النظرية الماركسية . ففي حين كان الوظائفيون البنيويون يشددون على مفاهيم الاندماج والتعاون ، اعتبر اولئك الذين استلهموا ماركس ان المجتمع يتألف من طبقات متصارعة تفصل بينها اوضاع اقتصادية .

اشار ث. رايت ميلز المتأثر بماركس في كتابه «النخبة الحاكمة» الى تجمع مثلث اطراف السلطة في يد الشركات والعسكريين والسياسيين ، هذه الفئات التي كانت مصالحها واعمالها وثيقة الترابط (٢) . ولكنه ذهب الى ان قاعدة السلطة في هذا التحالف لا يمكن تفسيرها بالاستناد الى مفاهيم ماركسية اقتصادية بحتة ، بل تتطلب تحليلا اوسع للتنظيم الاجتماعي . كذلك اثر التحليل الماركسي الى حد كبير في حركة «القوة السوداء» التي تنكر زعماؤها لفلسفة الاندماج التي كانت تنادي بها حركة الحقوق المدنية وراحوا يتساءلون عما اذا كان الاندماج ممكنا ، او حتى مستحسنا .

كذلك ساعدت حرب فيتنام وتصاعد المعارضة الطلابية لها على بروز مدرسة من مدارس علم الاجتماع كانت قد اكتملت النمو الا انها لم تكن نافذة حتى ذلك التاريخ ، هي مدرسة فرانكفورت . كانت هذه المدرسة تستنكر بشدة ضبط المعرفة ومراقبتها وتوجيهها بواسطة الوسائل الاعلامية ، واصفة هذه الوسائل بأنها مخدر جديد للجماهير على ضوئه يمكن جزئيا تفسير القبول الشعبي لذلك الوضع الاقتصادي الذي يعتبره الماركسيون وضعا ظالما وجائرا .

احتل عرض هذه النظرة على يد هربرت ماركوز مركزا رفيعا بين الاسس النظرية التي قامت عليها حركة المعارضة الطلابية المتصاعدة (٤) . كان ماركوز يرى ان الطلاب ، الى جانب الفئات الهامشية والمحرومة ، هم صانعو الثورة المعاصرون ، وذلك لانهم بالضبط يقفون خارج ثقافة المجتمع الاستهلاكي الخلابة . الا ان نشاط مدرسة فرانكفورت المعقّد والدقيق لم يحظ بعد الا بنفوذ ضئيل .

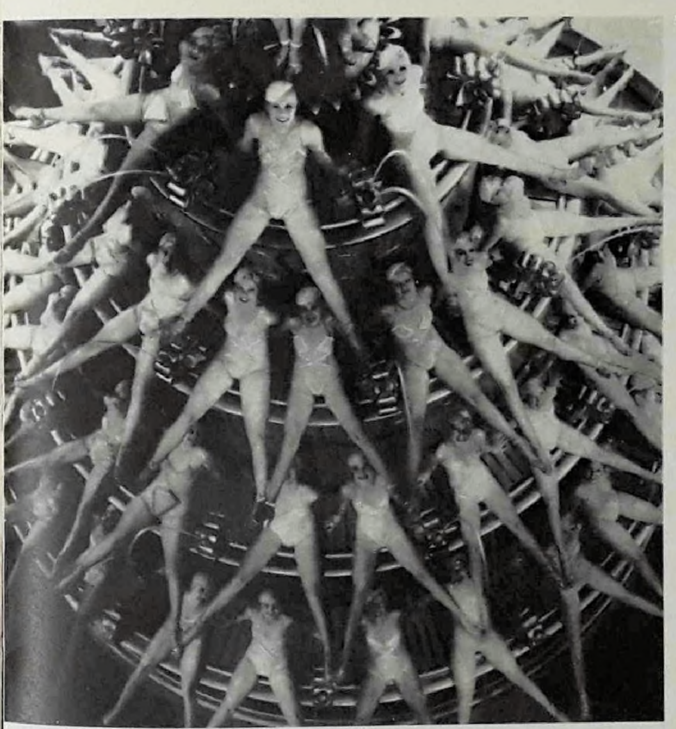
هوليوود

في غضون فترة الأفلام الصامتة ، كانت هوليوود قد طوّقت مركز صناعة الافلام بعقد من النجوم اللامعين الذي جسّدوا احلام واماني مشاهدي السينما . فقد كان من نصيب شارلي شابلين ، وماري بيكفورد ، ودوغلاس فيربانكس ، ورودلف فالنتينو (١) ، وجلوريا سوانسون ، فضلا عن نجوم جديدة ، مثل جريتا جاربو الفاتنة (٣) ، انهم جميعا اثّروا في نمط حياة الملايين الذين كانت السينما تمثل لهم الانعتاق من عالم رتيب وممل .

تنظيم الاستديو الضخم

في اعقاب ١٩٢٧ ، شددت سيطرة

١


٢


٣


٤


٥


الامريكيين على البراءات الخاصة بالتسجيلات الصوتية قبضة هوليوود على صناعة الافلام العالمية ، لاسيما بعد ان اصيبت الاستوديوهات الاوروبية بنكسات مالية اثناء «الضائقة الاقتصادية» . اعيد تنظيم هوليوود من جانب صيارفة «وول ستريت» الذين وضعوا يدهم على ثمانية استوديوهات للانتاج ، وشرعوا بانتاج الافلام على نطاق ضخم بطرق كفيلة بتحقيق ارباح قصوى .

ولاستغلال المواهب الخاصة بنجوم من رعيل جون كروفورد ، وجين هارلو ، وكلارك جايبل ، ابتكرت الافلام ذات الوتيرة الواحدة التي لم تكن فيها القصة تختلف الا هامشيا ، وهكذا توارت افلام الكوميديا الخشنة والميلودراما ، التي كانت اهم اشكال الترفيه الجمهوري في الحقبة الصامتة ، أمام هزليات المهاترة

(١) ـ اصبح رودلف فالنتينو ، منذ اللحظة التي ظهر فيها في «فرسان الرؤيا الاربعة» (١٩٢١) ، المعبود الرومنطيقي لملايين النساء . كان فالنتينو مغتربا ايطاليا وراقص تانجو سابقا ، فجاء صعوده السريع الى سدة النجم الكبر ، وبنوع خاص نجاحه الكبير في فيلم «الشيخ» ، تجسيداً للحلم الامريكي بالشهرة والثروة المفاجئتين .

(٢) ـ كانت المسرحية الموسيقية من ابقى ما قدمته هوليوود لفن السينما الشعبي . في بعض الافلام ، مثل «استعراض النور الدافق» (١٩٣٣) ، اقدم بوسبي باركلي ، وكان سابقا مدير رقص ، على الخروج على عرف الزاوية الثابتة في التصوير ، وذلك لاحداث تأثيرات بصرية مدهشة بواسطة معارض موسيقية راقصة رائعة ، تقوم بادائها جوقات من الفتيات المغنيات او رجال يعتمرون القبعة العالية . كان الرقص الساحر الذي كان يقوم به فريد أستير وجينجر روجرز نمطا اكثر دفئا واقرب الى القلب ، في حين اعيد في الاربعينات تشكيل التراث الغنائي بفضل موهبة جودي جارلند ، وجين كيلي .

(٣) ـ لم تتجل ظاهرة النجوم السينمائية بعظمتها الفاتنة الفائقة ، مثلما تجلت في جريتا جاربو . فقد كان لتحديقها الى قلب الكامرا ، في فيلم «الحب» ١٩٢٧ مثلا ، تأثيرا فريدا في كلا المشاهدين والمشاهدات .

(٤) ـ بلغ جاري كوبير (١٩٠١ ـ ١٩٦١) ، وهو بطل شهير من ابطال رعاة البقر ، ذروة سيرته الطويلة حينما مثل دور المارشال ويل كاين في فيلم فريد زينمان «هاجرة النهار» سنة ١٩٥٢ . وجدت هوليوود في مراسم المبارزة «الغربية» (وستيرن) ، صورة للفضائل التي رافقت فتح الارض الامريكية ونموذجا للصراع الخلقي الذي يمكن اعادة سرد قصته الى الابد . بعد تولي جيمس كروز ادارة فيلم «العربة المغطاة» سنة ١٩٢٣ ، اصبح الفيلم «الغربي» التعبير الرئيسي عن الملحمة البصرية . جعل مديرون عظام كجون فورد ، ونجوم من رعيل كوبير ، وهنري فوندا ، وجيمس ستووارت ، وجون واين ، راعي البقر مثالا للشجاعة والنزاهة وصلابة العود . مثل هذه الافلام كانت ايضا محاولة لتغطية مذابح الابادة البشعة التي مارسها هؤلاء على الهنود بمساعدة الجيش الامريكي .

(٥) ـ ظهرت الاسرة الامريكية النموذجية المثالية ، (التي اتى بها الى الوجود مصنع الاحلام في هوليوود) في سلسلة لمتروجولد وين ماير (م ج م) مخصصة لحياة اندي هاردي . هذا الولد المنتمي الى قرية صغيرة ، كان يمثل ، في الدور الممتاز الذي أداه ميكي روني ، كل الاندفاع والنشاط الخاصين بالشباب الامريكي .

٦



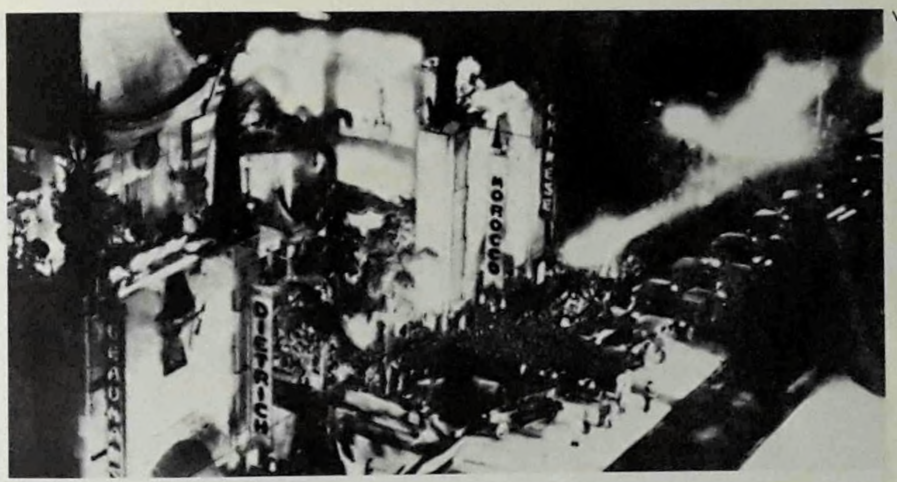
(٦) ـ شاهد «ذهب مع الريح» (١٩٣٩) عدد من الناس اكبر من مشاهدي اي فيلم آخر . اخرج في اوائل ايام الافلام الملونة ، وكان يدوم عرضه زهاء اربع ساعات ، وتميّز ببطلة عنيدة (فيفيان لي) ورجل كامل الرجولة (كلارك جايبل) .

(التي يمثلها «البلهاء» الاخوة ماركس) ومسرحيات الحياة الاجتماعية الرومنطيقية والكوميديات الجنسية والروايات الموسيقية الضخمة التي كان اولها «لحن برودواي» (١٩٢٩) .

كان من شأن انتقال الروايات المباشر من المسرح الى السينما ، واقحام الكامرات في حجرات ضيقة ضابطة للصوت والتحركات المحددة التي كانت تفرضها اجهزة الميكرفون البدائية ، كان من شأن كل ذلك ان يجرد الافلام من سلاستها في اوائل عهد الصوت . ثم استخدم «التصوير الخلفي» ووسّعت الاستوديوهات للاستغناء عن أخذ الصور في مواقعها الطبيعية ، فابتعدت بذلك هوليوود عن وقائع الحياة اليومية .

وباستثناء افلام العصابات الشرسة التي اشتهر بها «الاخوان وارنر» ، كادت

٧



(٧) - كان العرض الاول الفخم لفيلم «مراكش» لمارلين ديتريش سنة ١٩٣٠ ، على «مسرح جراومان الصيني» مناسبة لاعادة ابراز كل بهاء هوليوود في اوج عزّها .

(٨) - مشهد من «العراب» (الجزء الاول) الذي لعب فيه ألبتشينو دور ابن رئيس من رؤساء المافيا المتعطشين للثأر . كان من الممكن ان يكون هذا المشهد من اي فيلم من عشرات افلام العصابات ، التي صنعها ابان العصر الذهبي ادوارد ج. روبنصون وجيمس كاجني في الثلاثينات . الا ان «العراب» مع الفيلمين المتممين له كان من افلام السبعينات ، وهي جميعا تشهد على استمرار جاذبية موضوع العصابات بهوليوود . ادار فيلم «العراب» فرنسيس فورد كوبولا ، فجنى من الارباح اكثر من اي فيلم آخر.

٨



افلام هوليوود في العقد الثالث تصبح للترفيه فقط .

مخدرات الترفيه

انعكس بريق هوليوود التفاؤلي في الاستعراضات (٢) ، وفي ظهور نجوم من الاحداث ، مثل شيرلي تامبل ، وميكي روني (٥) ، وديانا دوربين . في الوقت نفسه ، قوبلت الحاجة الى الترفيه في الغالب بدرجة عالية من البراعة المهنية ، المتجلية باشد وضوح في انتاج وولت ديزني المفعم بالحيوية ، وفي البداهة والدعابة اللتين اتصفت بهما الكوميديات التي اخرجها ارنست لوبيتش في استوديوهات «باراماونت» وجورج كوكور في استوديوهات «م ج م» . من خلال بدائع التلوين التي تجلت في «ذهب مع الريح» (١٩٣٩) ، حقق التنظيم الضخم للاستوديوهات الكبرى هدفه النهائي في هذا الفيلم الذي قيض له ان يبقى رائجا على مدى اجيال (٦) .

قامت أنجح محاولة لتقليد النظام الهوليوودي في بريطانيا ، حيث تمكن الكسندر كوردا بفضل الدعم الامريكي ، من وضع الاسس لاضخم صناعة سينمائية في العالم بعد هوليوود .

في الوقت ذاته ، شطرت جاذبية التلفزيون المنافسة للسينما عدد المشاهدين بنسبة النصف في عقد واحد من السنين .

للرد على تحدي التلفزيون ، حاولت الاستوديوهات تقديم صور اقرب الى الحياة في افلامها . فشلت التجارب الرامية الى احداث وهم الابعاد الثلاثة ، ولكن ابتكار السينما سكوب (١٩٥٣) دفع بتقنية صنع الافلام ، كترفيه جماعي ، الى طور ثالث هام . اخذت هوليوود تخرج افلاما ضخمة تكلف عدة ملايين من الدولارات . لكن على الرغم من انتاج ملاحم مشهورة مثل «بين هور» (١٩٥٩) وبروز عدد من عمالقة النجوم ، مثل مارلين مونرو (١٩٢٦ ـ ٦٢) (٩) ، أخذ نظام الاستوديو الضخم ، ذو البنية التنفيذية الثقيلة ، بالانهيار في اواخر الخمسينات . فراح المديرون والنجوم المستقلون يستعيدون السيطرة على الانتاج ، ويصنعون الافلام التي كانت مواضيعها قادرة على استهواء المشاهدين المرهفي الذوق . وبحلول الستينات كان عدد اكبر من الافلام يصور في المكان ذاته الذي تجري فيه الاحداث . ثم انتقل الفيلم «الغربي» ، (الوسترن) ، وهو نمط هوليوودي خاص (٤) ، الى اوروبا في افلام «السباجيتي الغربية» .

الحنين الى هوليوود

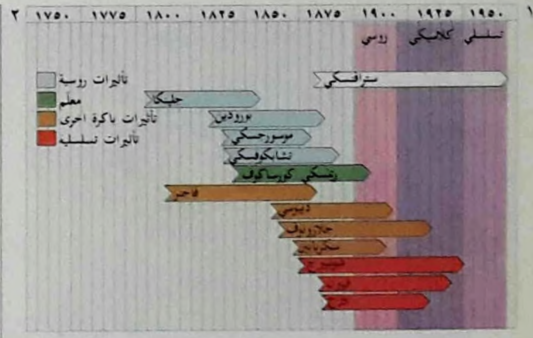
لا تزال الافلام كشكل من اشكال الترفيه الجماعي تتمع بأهمية كبرى في آسيا ، التي اخذ انتاجها المتصاعد يقابل انخفاض الانتاج في الغرب . الا ان الحقبة الهوليوودية قد اكتشفت ثانية في سيل من الافلام القديمة ، التي اشتراها التلفزيون . ثمة ادلة في الوقت ذاته على ان هوليوود سوف تحافظ على مكانتها ، بعد اعادة تنظيمها ، كمنتجة للافلام الضخمة ، مثل «العرّاب» (٨) .

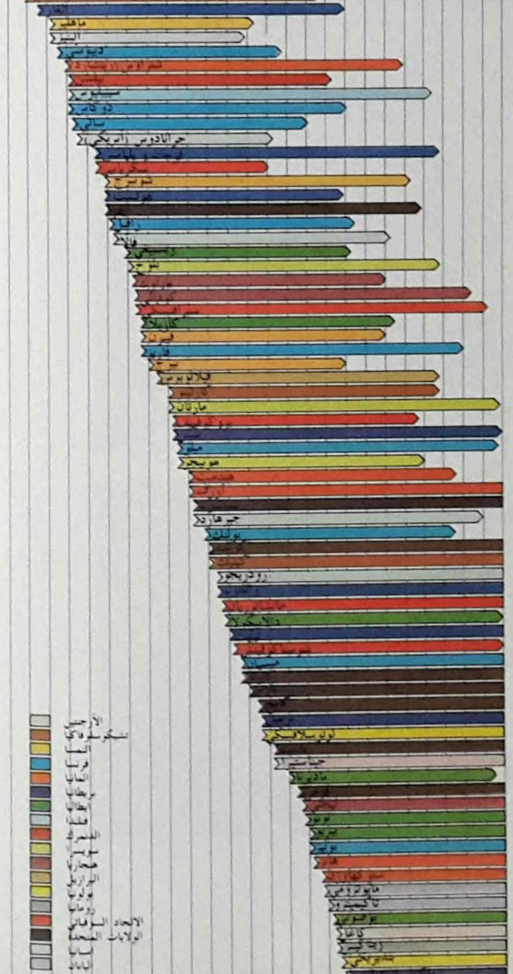
الموسيقى منذ سترافينسكي حتى كايج

يعتبر تاريخ الموسيقى الغربية الجدية في القرن العشرين في معظمه عبارة عن تاريخ للتجربة والابتكار . فحتى في العقود الاولى من هذا القرن ، كانت الاعراف السائدة ، التي تحكمت بالموسيقى الغربية طيلة قرون ، آخذة بالانحسار آخر الامر امام البحث المضني عن تعابير صوتية جديدة .

التجربة والابتكار

في الواقع ، كان الايقاع (الهرمونيا) (تلك المجموعة من القواعد الكلاسيكية التي تتحكم بطريقة تأليف الاصوات بعضها مع بعض ، وبذلك تقرر الدستان





(١) ـ يعد سترافنسكي أحد عمالقة الموسيقى في القرن العشرين . يظهر في الرسم أسلافه ومعاصروه الذين اثروا فيه . كانت ولادته في روسيا ، فعمل على تحديث الايقاع والانغام القومية في مؤلفاته الباكرة ، لاسيما تلك التي كتبها «للباليه الروسية» بباريس . في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، سيطرت على اعماله روح كلاسيكية جديدة متحفظة ، ومنذ العقد الخامس حتى وفاته ، وجد في الموسيقى «المتسلسلة» الهاما ديناميا ، كما يتجلى ذلك في «النشيد المقدس» .

(٢) ـ يمثل هؤلاء المؤلفون الموسيقيون السبعون ، المنتمون الى عالم القرن العشرين ، عدة انماط . فمؤلفو السمفونيا ـ امثال سيبليوس ، شوستاكوفيتش ، نيلسن ، فون وليامز ـ هم معاصرون لمدرسة شونبرج وبيرج وفيبرن القائمة على التأليف على ١٢ نغمة . اما المؤلفون للموسيقى الالكترونية ، مثل شتوكهاوزن ، ميلتون ، بابت ، زيناكيس ، فانهم يقفون في الخط المعاكس للموسيقيين المنتمين الى تقليد عريق في الموسيقى القومية ، مثل كاسيلا ، فايا ، خاتشاتوريان .

والى حد بعيد الشكل الموسيقي ايضا) آخذا بالانهيار بهدوء منذ ان اطلق ريتشارد فاجنر الحانه النابضة في اوبراه «تريستان وايزولدا» (١٨٦٥)، وما لبث التيار المتواصل من الموسيقى الفخمة المتنوعة الالحان التي الفها فاجنر منذ ذلك الوقت حتى العقد الثامن ان انبلج في موسيقى كلود ديبوسي (١٨٦٢ - ١٩١٨)، متجليا في سلسلة من النماذج الصوتية الزاهية. وكما تخطت، في حقل الرسم، ردة فعل «التعبيريين» و«التكعيبيين» ابتكارات «الانطباعيين» الفرنسيين الذين شبه ديبوسي بهم موسيقيا، كذلك حصل في باب الموسيقى، اذ انتقل ارنولد شونبرج (١٨٧٤ - ١٩٥١) (٤) وتلميذاه انطون فيبرن (١٨٨٣ - ١٩٤٥) والبان بيرج (١٨٨٥ - ١٩٣٥) (٥) في النمسا مباشرة من تأثير فاجنر الى استكشاف

٣ أ

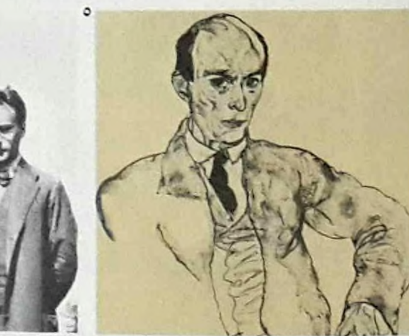


ب



٤





٥



(٣) - كان تأثير التسجيل بصورة عامة على تذوق الموسيقى وانتشارها في هذا القرن عظيما. فمنذ ظهور اولى اسطوانات الشمع الرائجة تجاريا والتي كانت تدوم ثلاث دقائق، والتي صنعها المغني الايطالي انريكو كاروزو (الذي تلقى سنة ١٩٠٣ اول اسطوانة ذهبية اعطيت في التاريخ لقاء مليون اسطوانة بيعت لانشودته «فيستي لاجيوبا» المأخوذة من اوبرا «باجلياتشي» للبون كافالو، منذ تلك الاسطوانات حتى التسجيلات الرباعية الاصوات على اربع اقنية وعلى الفيديو في العقد السابع، اصبح من الممكن لجمهور ضخم ان يتمتع، خارج قاعة الموسيقى، وبفضل الاسطوانات والاشرطة، بمختلف انواع الموسيقى والاداء. تمثل الصورة اساليب قديمة وحديثة للتسجيل. فبينما كان رئيس وزراء بولونيا (١٩١٨ - ١٩٢٠) - عازف البيانو الشهير - ايغناسي بادريفسكي (١٨٦٠ - ١٩٤١) يقوم بتسجيل صوتي في منزله بسويسرا سنة ١٩١١، حيث ينطبع الصوت مباشرة على اسطوانة من الشمع (أ)، كانت موسيقى اوركسترا الفيلهارمونيا الجديدة لريموند ليبارد تسجل على اشرطة مغنطيسية (ب).

(٤) - نجمت شهرة ارنولد شونبرج في اوساط موسيقى القرن العشرين عن تأثير اسلوبه التأليفي القائم على ١٢ نغمة بمقدار ما نجمت عن مؤلفاته ذاتها.

(٥) - كان البان بيرج وانطون فيبرن المع تلميذين من تلامذة شونبرج. تجلى في اعمالهما تأثير تفكير شونبرج واسلوبه.

الالحان بمعنى اكثر تجريدا .

في الوقت ذاته تقريبا ، كان ايجور سترافنسكي (١٨٨٢ ـ ١٩٧١) (١) يؤلف من أجل فرقة «الباليه الروسية» العاملة في باريس باشراف الامبريزاريو سيرج دياجيليف (١٨٧٢ ـ ١٩٢٩) سلسلة من مقطوعات الباليه الزاخرة بالحياة والخيال مثل : «طائر النار» (١٩١٠) ، «بتروشكا» (١٩١١) ، «طقوس الربيع» (١٩١٣) ، وكلها كانت غنية بالانغام اللامتناظرة والتلوين السمفوني .

في هنجاريا ، كان بيلا بارتوك (١٨٨١ ـ ١٩٤٥) (٧) يؤلف موسيقى شخصية مفعمة بالحيوية ، متناغمة ، ومدهشة في استعمالها المتذحلق للعناصر الشعبية النمطية والناشزة . في امريكا ، كان تشارلز ايف (١٨٧٤ ـ ١٩٥٤) ينتج بغزارة مجموعة مبتكرة ، وان لم تكن

(٦) ـ يظهر هنا استوديو صغير لتأليف موسيقى الكترونية . تعدل الخالطات (٦) والمصفايات (١١) ووحدات ترجيع الصدى (١٢) الموجات التي يبثها المركب (١٣) والاشارات الصادرة عن الميكروفونات والخالط (١ ، ٢) وعن المسجلات (٣) ومدور الاسطوانات (٤) ، ثم ترسل جميع الاصوات الناجمة عن ذلك الى لوحة ترقيع (٧) ، ومن هناك ومن خلال مكبرات (٨) ومذياعات (٩ ، ١٠) تخرج كألحان .

(٧) ـ بيلا بارتوك هو من ألمع المؤلفين المعاصرين الناجحين الذين وجدوا في الموسيقى الشعبية مصدرا حيا للالهام . كان استاذا للبيانو في اكاديمية بودابست لمدة تناهز الثلاثين سنة . بدأ سنة ١٩٠٥ بتجميع الاغاني الشعبية الهنجارية خلال رحلات ميدانية برفقة صديقه المؤلف الموسيقي كودالي ، وفي اواخر ايامه كان قد دون وسجل حوالى ٨٠٠٠ لحن ، وقد تأثرت موسيقاه بصورة مبتكرة باسلوب هذه الاغاني .

(٨) ـ كان اوليفيه ميسيان ، منذ ديبوسي ، أبقى مؤلف موسيقي فرنسي في القرن العشرين واخصبهم خيالا وشاعرية . منذ ١٩٣١ كان عازفا للارغن في «كنيسة الثالوث» بباريس ، ومنذ ١٩٤٢ استاذا في «الكونسرفاتوار الباريسي» . ألف موسيقى تتميز بتسلسلات ايقاعية غير مألوفة ، متأثرة بالانغام الشرقية والترنيم الكنسي وزقزقة العصافير والمواضيع الدينية .

(٩) ـ بقي بنجامين بريتن (١٩١٣ ـ ١٩٧٦) لعدة سنين الشخصية الرئيسية في تطور الموسيقى البريطانية في القرن العشرين . تخلى عن التعبير الرومنطيقي الصارم ، فدمج الحانا جديدة وتقنيات كلاسيكية (متأثرا في بادىء الامر بسترافنسكي وجوستاف ماهلر) في التراث الجوقي والصوتي الانجليزي ، متوخيا بدرجة رئيسية الصراحة في الاسلوب والوضوح في الايقاع .

متكافئة ، من الموسيقى التي اصبحت تعتبر بوجه عام اشد اشكال الموسيقى فردية وخروجا على العرف في امريكا .

في روسيا ، دعا الصوفي والمغامر ايقاعيا ألكسندر سكريابن (١٨٧٢ - ١٩١٥) الى استخدام الاضواء الملونة في مقطوعته «بروميتوس : قصيدة النار» (١٩٠٩ - ١٩١١) .

استمرار الموسيقى التقليدية

أمام تجاوزات هذه التجارب والاختبارات ، كان عدد من المؤلفين - امثال ريتشارد شتراوس ، بول هندميت ، ديمتري شوستاكوفيش ، ادوارد ايلجار ، آرون كوبلاند ، زولتان كودالي ، وفريق «الستة» (بولنك ، ميلو ، هونيجر ، دوري ، تايفير ، أوريك) في فرنسا - يواصلون عملهم على وجه تقليدي مستمد من القرن التاسع عشر ، كما سوف يفعل آخرون طيلة عقود لاحقة .

نظام شونبرج ذو النغمات الـ ١٢

في اتجاه مواز لذلك ، قام شونبرج سنة ١٩١٢ ، نتيجة لالتزامه «بتحرير التنافر الصوتي» ، برد فعل من نوع آخر ، فانتج قطعته «بييّرو القمري» على النمط الكلاسيكي المدعو اللحن الخطابي ، الذي يؤديه خمسة موسيقيين ومنشد يتلاعب بالاشعار . لكنه توصل فيما بعد الى اتقان اسلوب انيق للتأليف في ١٢ نغمة كتب له ان يسيطر على سائر انتاجه . في هذا الاسلوب ، تُدرج انغام السلم اللوني الاثني عشر في صفوف او سلاسل (من هنا لفظة «الموسيقى المتسلسلة») كي تحلّ محل الدساتين التقليدية والايقاع .

لم يقتبس تلميذه آلبان بيرج اسلوب الانغام الاثني عشر حتى تأليف قطعته «كونشرتو الكمان» (١٩٣٥) التي اعتمده فيها بكثير من التصرف وبشيء من الرومنطيقية .

ابتداء من سنة ١٩٤٥ ، انبعثت من جديد موسيقى ما بعد فيبرن التجريبية التي اخذت تركّز تركيزا اشد على الالحان بحد ذاتها ، وعلى معالجة المدد والديناميات والسكونات والالوان ، المنتظمة كلها ايضا في سلاسل ثابتة . وهكذا اصبحت احدى مقطوعات البيانو لاوليفييه ميسيان (١٩٠٨ -) (٨) المؤلفة سنة ١٩٤٩ ، حجر الزاوية في تطور بيير بوليز (١٩٢٥ -) وكارلهاينز شتوكهاوزن (١٩٢٨ -) . تأثر انتاج هذا الاخير باستوديو الراديو الباريسي لبير شيفر ، حيث كانت تبث منذ ١٩٤٨ «موسيقى محسوسة» تستخدم فيها المسجلات والاصوات الطبيعية (٦) . بعد ذلك بقليل ، الّف شتوكهاوزن القطعة الرائدة «درس الكتروني رقم ١» (١٩٥٣) ، وهي اول قطعة الفت كليا من موجات الكترونية خالصة .

تواصلت التجارب لادخال اساليب مسرح اللامعقول في عملية الخلق والاداء الموسيقيين ، كما فعل كايج وموريشيو كاجل وكارديو ، وحديثا شتوكهاوزن . كذلك جرت تجارب لايجاد وسائل جديدة لتحديد الالحان بواسطة الرياضيات والآلة الحاسبة .

الجاز والموسيقى الشعبيّة

هيمنت موسيقى الولايات المتحدة على الموسيقى الشعبية الغربية ابان القرن العشرين ، ولاسيما بأنماطها الجديدة الناجمة عن التفاعل بين التقاليد الموسيقية الافريقية والاوروبية المتباينة في الايقاع والنغم واللحن واستعمال الآلات . لعب الفنانون السود دورا حاسما ، لاسيما في النصف الاول من القرن ، اذ تحولت الموسيقى الافريقية الشعبية (٦) مع حلول ١٩٠٠ الى نوع جديد هو الجاز .

اطوار الجاز

مر الجاز باربع فترات رئيسية ، كان حقل الموسيقى «الشعبية» الاوسع يسير

١

١٩٠٠
١٩١٠
نيو أورليتر
١٩٢٠
١٩٣٠
١٩٤٠
الغناء الشعبي
١٩٥٠
١٩٦٠
١٩٧٠
صراخ الحقول
سوداوية الريف
الغناء الريفي
الغناء الشعبي
مطربو الجوقات
روك اندرول
روحيات
الجاز العصري والجاز الروك والجاز الحر الخ

٢



٣



٤



(١) ـ نتج تطور الجاز والموسيقى الشعبية عن التفاعل بين قوتين موسيقيتين : الموسيقى السوداء التي حملها الرقيق الافريقي معه الى الولايات المتحدة ، والموسيقى الشعبية البيضاء ، الاوروبية اصلا . كانت الولايات المتحدة هي البوتقة الثقافية لهذا الخليط ، اذ اخذت الموسيقى السوداء تتدرج من خلال السوداوية الى انماط الجاز المختلفة ، ثم تختلط بسوداوية ونغم المدن لتوليد الروك .

(٢) ـ كان ديوك الينتون (الى اليسار في الصورة) ،

في اعقابها . ففي الفترة الممتدة من ١٨٩٠ الى ١٩١٧ ، راج الجاز بين معظم الامريكيين السود . ظهر اول نمط من الجاز المعروف «بالراجتايم» (وكان يعزف على البيانو) في سان لويس ، على يد واضعه الرئيسي سكوت جوبلين (١٨٦٨ - ١٩١٧) . تلا ذلك نمط ثان من الجاز ، هو «الشجن» الكلاسيكي (البلوز او الموسيقى السوداوية) ، الذي كان يؤديه عازفون محترفون مثل «ما» رايني .

لم تكن نيو أورلينز البلدة الوحيدة بين مدن الولايات المتحدة التي كان يسمع الجاز فيها حينذاك ، لكنها كانت بدون شك أهمها (٥) . ففي سنة ١٩١٠ ، كان في تلك المدينة ، التي يقطنها ٨٩٠٠٠ نسمة من السود ، ما لا يقل عن ٣٠ فرقة .

في حدود الثلاثينات ، تأثر الجاز الى حد كبير «بالضائقة الاقتصادية» ، فاضطر

٥



٦



الذي اعتبره الكثيرون اكبر موهوب انجبه الجاز ، مؤلفا موسيقيا وواضعا للاغاني ومديرا وعازف بيانو . كان ابرع عازف لجاز الجوقة الكبيرة ، وقد ابتكر اسلوبا فريدا في استخدامه الذكي للاصوات الفردية لعازفي الآلات البارزين في فرقته . اسبغ على الموسيقى السوداوية اروع اشكالها الاوركستراوية ، والف موسيقى للجاز كانت ، بالرغم من انها مكتوبة ، تترك مجالا للارتجال . كانت براعته في ادارة الاوركسترا فريدة .

---

(٣) - كان تأثير تشارلي باركر في العقدين الرابع والخامس يضارع تأثير ارمسترونج من قبله . ولد في اكواخ مدينة كانساس ، وعزف في الفرق الضخمة ، ثم ثار على انماطها التردادية ، واصبح القائد البارز لحركة «البوب» . كان عزفه على السكسوفون معقدا ومعرّجا ، وعلى الرغم من محاولاته التحررية المختلفة ، بقيت جذوره راسخة في السوداوية .

---

(٤) - بيسي سميث (١٨٩٨ ؟ - ١٩٣٧) ، وهي من اعظم مغنيات الجاز السوداوي اطلاقا ، ولدت في وسط فقير في تشاتانوجا بولاية تنيسي . في سن الحادية عشرة ، بدأت تطوف الولايات الجنوبية ، مع فرقة استعراض غنائي اسمها «قدم الارنب» ، حيث تأثرت جدا بالمغني «ما» رايني . تمتعت بيسي بشعبية خارقة من ١٩٢٤ حتى ١٩٢٧ ، حينما ضربت «الضائقة» المالية الحفلات المسرحية واخذ الولع بالسوداوية يخف .

---

(٥) - ولد لويس ارمسترونج (الى اليسار في مقدم الصورة) (١٩٠٠ - ١٩٧١) في نيواورلينز ، وتعلم العزف على النفير في المدرسة الاصلاحية . التقى فيما بعد بكينج اوليفر الشهير (١٨٨٥ - ١٩٣٨) ، فاصبح تلميذا له ، ثم حل محله في جوقة «كيد أوري» . سنة ١٩٢٧ ، ألف فرقته الخاصة .

---

(٦) - جلب العبيد الافريقيون معهم اغاني كانت تتصف بالحذلقة النغمية ، واستعملوا بعض النماذج الموسيقية الخاصة . كان من ابرز هذه النماذج نموذج «المناداة والرد» ، الذي كان يمارس في ابسط اشكاله في الاغاني الوطنية ، كالأغاني العمالية .

عدد من الموسيقيين الى السفر الى اوروبا . وفي سنة ١٩٣٥ ، عاد الجاز فجأة الى الازدهار في امريكا ، لكنه عاد هذه المرة على شكل موسيقى «اللف» (السوينج) . كانت هذه الموسيقى تعزفها الجوقات الكبيرة ، وكانت تستعمل فيها مجموعات ضخمة من الآلات النحاسية لاحداث موجة عارمة من النغم . لاقت هذه الموسيقى رواجا كبيرا لدى الجماهير الفتية من البيض بوجه خاص ، فاحرز قادة الجوقات ، من امثال بيني جودمان (١٩٠٩ –) وجلين ميلر (١٩٠٤ – ١٩٤٤) ، شهرة تضارع شهرة قائد الجوقة الكبيرة الاسود العظيم ديوك الينجتون (١٨٩٩ – ١٩٧٤) (٢) .

تطور الموسيقى السوداوية

كانت النتيجة ظهور نمط «الموسيقى

٧



٨



٩



(٧) – كان «الخنافس» طيلة ثماني سنوات (من ١٩٦٢ حتى ١٩٧٠) ابرز فرقة في تاريخ الموسيقى الشعبية . بفضل عزفهم في نوادي هامبورج وليفربول اصبحوا اسطورة ، وقد طوروا «الروك آن رول» بالحانهم وانغامهم . كانت نظرتهم الى تأليف الاغاني وانتاج الاسطوانات تقدمية وتجريبية حقيقية ، وراحت تتطور وتتقدم مع نجاحهم ، وان كانت تتخللها احيانا فترات من القلق والتردد .

(٨) – كانت «بينك فلويد» فرقة لندنية للنغم والسوداوية ، ولكن سرعان ما تحولت نحو التجارب في حقل الآلات المختلطة والوسائل الضوئية المعقدة .

(٩) – ولد الفيس بريسلي سنة ١٩٣٥ في ايست توبيلو ، بمسيسيبي ، ثم بعد ان غادر المدرسة ، انتقل الى منفيس ليعمل فيها كدليل في السينما . لفت انتباه شركة التسجيل المحلية ، فاصبح ظاهرة في عالم الاستعراض المسرحي ، لانه كان اول فنان ابيض يمزج عنف النغم الاسود وزخم السوداوية بالموسيقى الريفية .

الشعبية» (البوب) في الاربعينات ، وهو ضرب متحذلق موسيقيا ، ومن وضع موسيقيين سود من الفتيان امثال لاعب النفير ديزي جيلّزبي (١٩١٧ -) ولاعب السكسوفون تشارلي «بيرد» باركر (١٩٢٠ - ١٩٥٥) (٣) . في تلك الاثناء ، كانت الموسيقى السوداوية آخذة في التطور ايضا . لكن حينما أخذ العمال السود يرحلون عن الارض الزراعية في الجنوب ، ليحلّوا في المدن الصناعية الشمالية ، فانهم حملوا معهم موسيقاهم السوداوية التي لم تلبث ان تغيرت بتغير البيئة الجديدة .

امام هذه المنافسة السوداء ، لم يزدهر الا نمط امريكي ابيض واحد كتب له النجاح ، هو الموسيقى الريفية (٦) التي كانت متمركزة في ناشفيل بتنيسي . كان ثمة ايضا حفنة من المغنين الشعبيين المتجولين من البيض المتفوقين ، الذين طوفوا في ارجاء امريكا في حدود الثلاثينات ، وكان دوري جاثري (١٩١٢ - ١٩٦٧) اهمهم .

في الخمسينات ، كان عصر اجواق الجاز الضخمة قد ولّى ، مخلّفا وراءه منشدي الالحان العاطفية والمطربين ، مثل فرانك سيناترا (١٩١٥ -) وبينج كروسبي (١٩٠٤ -) ، ولم يعد «الجاز العصري» الجديد شائعا الا عند فئة قليلة . فقد عثرت ثقافة الشباب الناشئة بعد الحرب على نمط جديد هو «الروك آن رول» . كان هذا النمط الموسيقي الجديد خشنا وصاخبا وجنسيا ، وكان اشهر مروّجيه اصلا من البيض . كان الفيس بريسلي (٩) اعظم مغنيه ، مع ان لاعب الغيتار الاسود تشاك بيري هو الذي ألّف افضل اغانيه .

في اواخر الخمسينات ، كان «الروك آن رول» طاغيا على كل شيء ، كما انه تفرّع الى عدة اصناف . فقد عاد عازفو الغيتار السمعي المفردون واحيوا الاغاني الشعبية ، ثم تطرّقوا من ذلك الى ابتكار مادة جديدة كانت في احيان كثيرة احتجاجا على اهداف اجتماعية او سياسية معينة . لكن حينما جاء بوب ديلان (١٩٤١ -) ، ارتفعت الموسيقى الجديدة الى مرتبة لائقة وجديرة بالاحترام .

موسيقى الروك المعاصرة

بدأت تجارب الستينات بفترة دعيت «طفرة الموسيقى السوداوية» التي نتجت عن دمج «الروك آن رول» بالالحان السوداء وأنماط السوداوية الاصلية . بعد ان تملك بعض عازفي الغيتار ، امثال اريك كلابتون وجيمي هندريكسي من ناصية الموسيقى السوداوية ، اخذوا يدفعون بالموسيقى قدما خلال قطع اطول وشبه مرتجلة . ثم جاءت «الحركة السرية» (٨) (وهي ثورة ضد التقيد بالتقاليد والاعراف قام بها فتيان تحت تأثير المخدرات) فغيرت الموسيقى ايضا .

كذلك تأثر بهذا النمط في انجلترا بول ماكّارتني (١٩٤٢ -) وجون لينون (١٩٤٠ - ١٩٨١) من فرقة «الخنافس» (بيتلز) (٧) ، وذلك في تدرجهم من الاغاني البسيطة واللبقة الى تعقيدات مجموعة «سارجنت بيبر» .

الباليه الكلاسيكية والحديثة

امتدت الحركة الرومنطيقية ، المتمثلة في مؤلفات بايرون ولوحات دي لاكروا ، بسرعة الى الباليه . فتخلى الراقصون عن الاقنعة واخذوا يمثلون العواطف المشحونة بها الباليه تمثيلا ، وبذلك ازالوا التمييز بين الرقص والتمثيل الصامت . وتطورت تقنات الباليه لكي تتمكن من التعبير عن هذه الامزجة والعواطف .

اولى الباليهات الرومنطيقية

عرضت «السيلفيد» (الجنّية) ، وهي اول باليه رومنطيقية ، للمرة الاولى سنة ١٨٣٢ على انغام الموسيقى الراقصة ، وبإدارة فيليبو تاجليوني . مثّلث دور

١ أ



(١) – تعتبر وضعات القدمين الخمس منطلق جميع خطوات الباليه : في الوضعة الاولى (أ) يتلاقى الكاحلان ؛ في الثانية (ب) والرابعة (ث) تبتعد القدمان عن بعضهما بعضا مسافة ٣٠ سنتم ؛ في الثالثة (ت) والرابعة والخامسة (ج) تكون القدمان متوازيتين . البرمة هي عبارة عن ادارة الرجلين الى الخارج ابتداء من الوركين . تدعى حركات الذراعين «ابواب الذراعين» . تدعى الوضعتان الاكثر استخداما «العربسة» (ارابيسك) و«الموقف» . يمكن تصنيف الخطوات حسب المطلوب ، فاما الى قفزات مثل «الرمية» (جيتي) ، او الى نبضات مثل «النبضة التصالبية» (انتروشا) ، او برمات مثل «البروتة» (بيرووِيت) ، وهي دورة كاملة على رجل واحدة او على اصابع القدم .

(٢) – في السيلفيد ، وهي

٢

٣





السيلفيد ابنته ماري تاجليوني (١٨٠٤ - ١٨٨٤) التي كانت اوثق الراقصات صلة بالباليه الرومنطيقية . كانت ماري اول من لبس التنورة القصيرة التي ما زالت تعرف «بتنورة البالرينا» .

مع حلول منتصف القرن التاسع عشر ، تحولت الباليه الرومنطيقية الى مجرد أداة لابراز حذلقة الراقصة فقط ، واخذت في التقهقر . فاتجه انتباه الراقصين والمديرين والموسيقيين نحو روسيا ومدرسة الباليه فيها المؤسسة سنة ١٧٣٥ ، والتي ابقى على تراثها الفني حيا رجال من رعيل ماريوس باتيبا (١٨١٩ - ١٩١٠) ، وهو فرنسي وفد على سانت بيترسبورج واصبح فيها راقصا رئيسيا . عمل باتيبًا على التقليل من بروز البالرينا دون التخفيض من قيمتها ، فجعل من «فرقة الباليه» (وهي عبارة عن فريق من الراقصين الذين يرافقون

٤



اول باليه رومنطيقية ، رقصت ماري تاجليوني دور السيلفيد ، وهي جنّية وقعت بغرام جيمس الاسكتلندي . لبست تاجليوني صدرية تترك الكتفين مكشوفتين ، وتنورة من الموسلين تصل الى الركبتين ، وسروالا محكما ، وحذاء مروسا من الساتان الزهري ، وقد اصبح هذا الزي زي البالرينا الرومنطيقية الكلاسيكي .

اصبحت السيلفيد ، بموسيقاها الخاصة التي وضعها لها لفنسكجولد ، ومشاهدها المسرحية الجديدة من وضع أوجست بورنونفيل ، جزءا من برنامج الباليه الدنمركية الملكية بكوبنهاجن منذ ١٨٣٦ . تقترن الادوار الرئيسية في هذه الباليه اليوم اقترانا وثيقا باسم مارجريت شان واريك برون .

(٣) - اعطى ميشال فوكين (١٩١٠) في «شهرزاد» لأيدا روبنشتين دور زوجة الشاه المفضلة ، ولفاسلاف نيجنسكي دور عبدها الاسود . كانت هذه الباليه احدى الباليهات الشرقية العديدة التي قدمها دياجيليف . كان لزخرفة ليون باكست الزاهية الالوان تأثير عظيم على الازياء وتصميم الديكور الداخلي .

(٤) - اختيرت «الاميرة النائمة» من جانب «الباليه الملكية» في لندن (وكانت تدعى «باليه سادلرز ويلز» آنذاك) لافتتاح «دار الاوبرا الملكية» بكوفانت جاردن بعد الحرب العالمية الثانية . يرقص الفنانان مارجو فونتين وروبرت هيلبمان (١٩٠٩ -) في المشهد الاخير ، الذي يعرض احيانا «كزفاف اورورا» .

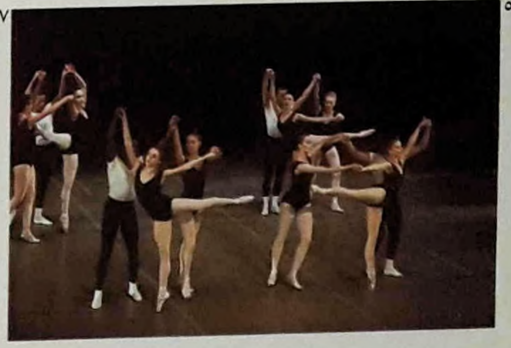
الراقصة الاولى) تبدو في اكثر الاحيان كخلفية زخرفية لها .

أهمية روسيا

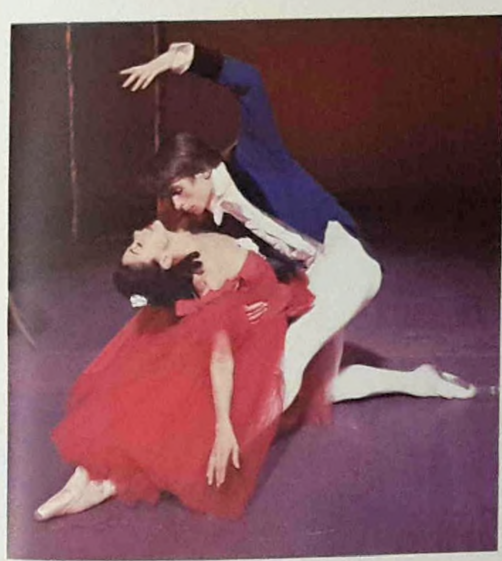
جرى للمرة الاولى عرض «الحسناء النائمة» (٤) ، التي تعتبر عموما رائعة باتيبا ، في سانت بيترسبورج سنة ١٨٩٠ ، على موسيقى تشايكوفسكي الملهمة . عندما ألم بباتيبا المرض ، تولّى مساعده ليف ايفانوف ادارة «كسّارة البندق» ، وبالاشتراك مع باتيبا ألف «بحيرة البجع» ، وهي واحدة من اعظم الباليهات اطلاقا في العالم .

لم يتباطأ باتيبا العجوز في تقدير اهمية عمل ميشال فوكين الشاب (١٨٨٠ – ١٩٤٢) (٤) . الا ان فوكين انتقض على عدد من تقاليد باليهات باتيبا ، فابطل التمثيل الصامت الهرم ، واستبدل بتنانير

٥

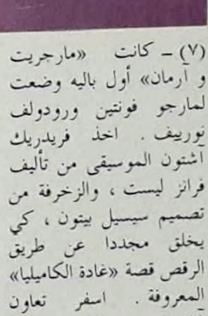


٧





٦



(٥) – وضع جورج بالنشين ، المدير الفني «لباليه مدينة نيويورك» عدة باليهات لهذه الفرقة منذ ١٩٤٨ . تعتبر فرقته و«مسرح الباليه الامريكي» اهم فرقتين كلاسيكيتين في تلك المدينة . قد تكون الاعمال التي اخرجها مع ايغور سترافنسكي ابرز نتاجه ، ومنها «أبولو موساجيتس» (١٩٢٨) و«آجون» (١٩٥٧) . ان آجون (الظاهرة هنا) هي باليه ذات مشهد واحد وبدون عقدة . تؤدى الرقصات في هذا المشهد بازياء التدريب السوداء البيضاء وعلى موسيقى من ١٢ نغما .

(٦) – تظهر هنا مارثا جراهام في باليه «هيروديياد» التي انتجت في سنة ١٩٤٤ . خلقت هذه الفنانة نمطا مبتكرا كليا من انماط الرقص واسست مدرسة للرقص وانشأت فرقة في نيويورك .

(٧) – كانت «مارجريت و آرمان» أول باليه وضعت لمارجو فونتين ورودولف نورييف . اخذ فريدريك آشتون الموسيقى من تأليف فرانز ليست ، والزخرفة من تصميم سيسيل بيتون ، كي يخلق مجددا عن طريق الرقص قصة «غادة الكاميليا» المعروفة . اسفر تعاون آشتون مع فونتين خلال سنوات تأسيس «الباليه الملكية» عن اخراج روائع «اونديين» و «تقاسيم سيمفونية» . ونجم عن مشاركة نورييف لفونتين اداء «خطوة الاثنين» الرائعة في «القرصان» ، وفي تقديم جيزيل في صيغة لا تنسى . لم يكتف نورييف باداء رقصات رائعة في طائفة واسعة من الباليهات ، بل قام ايضا باخراج عدة اعمال كلاسيكية .

الباليه الكلاسيكية ازياء اكثر تناسبا مع الحقبة التي تؤدى فيها الباليه . لذا لم يكن من المستغرب ان يختار المنتج سارجي دياجيليف (١٨٧٢ - ١٩٢٩) هذا الثائر الشاب رئيسا ومديرا لفرقته في اوروبا الغربية .

تأثير دياجيليف

اثناء الموسم الاول للاوبرا والباليه الروسية الذي قدمه دياجيليف في باريس سنة ١٩٠٩ ، اشتملت اعمال فوكين على «السيلفيد» التي وضع موسيقاها هذه المرة شوبان ، «والامير ايغور» بموسيقى بورودين . لاقت الفرقة نجاحا هائلا ، واصبحت تامارا كارسافينا (١٨٨٥ -) وأنّا بافلوفا (١٨٨١ - ١٩٣١) وفاسلاف نيجنسكي (١٨٩٠ - ١٩٥٠) من المشاهير بين ليلة وضحاها .

بعد ذلك باربع سنوات ، انفصل دياجيليف عن «المسارح الروسية الامبراطورية» وألّف فرقة «الباليهات الروسية» ، التي اصبحت من اعظم فرق الباليه التي عرفها العالم .

ادرك دياجيليف باحساسه المرهف ان الباليه ليست سوى جزء من عرض مسرحي معقّد مؤلف من الشعر والادب والرسم والموسيقى والرقص ، فحاول ان يجمع سائر هذه العناصر في الباليهات .

عندما توفي دياجيليف سنة ١٩٢٩ ، انحلت فرقته وتفرقت ، ناشرة افكاره في انحاء العالم الغربي . فوفدت ماري رامبرت (١٨٩٨ -) على لندن وانشأت فيها فرقة الباليه التي عرفت فيما بعد «بباليه رامبرت» . وخلال الفترة ذاتها ، انشأت نينات دي فالوا (١٨٩٨ -) الفرقة التي تعرف اليوم باسم «الباليه الملكية» . كانت اولى راقصات دي فالوا اليسيا ماركوفا (١٩١٠ -) ، وعندما انفصلت عنها برزت مارجو فونتان (١٩١٩ -) كراقصة الباليه البريطانية الاولى اطلاقا . مكث سيرج ليفار في اوروبا واصبح راقصا ورئيسا ومديرا للباليه في اوبرا باريس . وتوجه جورج بالانشين (٥) الى الولايات المتحدة ، واصبح مديرا ومنظما «لفرقة باليه مدينة نيويورك» .

الا ان الفرق التي كان لها تراث خاص قوي لم تتأثر بدياجيليف الى الحد ذاته . وهكذا استمرت «الباليه الدنمركية الملكية» بكوبنهاجن على نهجها في تدريب الراقصين على طريقة اوجست بورنونفيل (١٨٧٩ - ١٩٠٥) . وفي روسيا ما زالت الفرقتان الرئيسيتان باليه «بولشوي» بموسكو وباليه «كيروف» (سابقا باليه مارينسكي) بلنينغراد تؤديان حتى الآن اعمالهما .

طرأ على الرقص العصري عدة تطورات في كلا امريكا واوروبا ، منذ ان ظهرت اعمال ايزادورا دنكان (١٨٧٨ - ١٩٢٧) الرائدة ، ولاسيما تلك التطورات التي احدثتها مارتا جراهام (١٨٩٣ -) (٦) . فقد اصبحت المادة اكثر واقعية ، وأدى دخول الرقص في الافلام السينمائية الى توسيع مجال هذا الفن . ففي «قصة الجهة الغربية» (١٨٦١) مثلا ادخل جيروم روبنز (١٩١٨ -) وصلات من الباليه الحديثة على هذا الفيلم الذي لاقى نجاحا باهرا .

فن السينما

السينما ، كمرآة لافكار الانسان ، تجمع وتوسع مجال الفنون القديمة ، من رسم وموسيقى ورقص ومسرح وادب وعمارة . انها من اكثر وسائل التعبير ابداعا وكمالا ، اذ تتراوح بين النقل الامين للواقع وبين اشد التخيلات غرابة .

التأثيرات الاساسية

في مستهل حقبة السينما الناطقة ، ظهرت ثلاثة اساليب رئيسية ساهمت معا في تطوير الفن السينمائي : اولها اسلوب التركيب (المونتاج) ، وهو عبارة عن طريقة لتجميع المشاهد المتفرقة وتنسيقها وتنقيحها ، ابتكرها د. و. جريفيت ،

١


٢


٣


٤


٥


وهذبها سرجي اينشتاين ؛ ثانيها اسلوب الاخراج (ميز آن سين) الذي يحاول فيه المدير ان يعرض جانبا من جوانب الحياة بوضع فصول روائية طويلة متتالية ، كما فعل اريك فون شتروهايم (١٨٨٥ ـ ١٩٥٧) سنة ١٩٢٣ في «الجشع» (٢) ؛ وثالثها الاسلوب الوثائقي ، وهو عمل صحفي كان الحافز اليه الدراسة العميقة لحياة الاسكيمو لروبرت فلاهرتي (١٨٨٤ ـ ١٩٥١) التي ظهرت بعنوان «نانوك الشمالي» (١) . ان تاريخ السينما كفنّ هو الى حد كبير قصة الطريقة التي استخدمت فيها هذه الاساليب الثلاثة وصهرت معا على يد مديرين ساعين الى التعبير عن رؤياهم الفردية . قاوم ادخال الصوت في الفيلم سنة ١٩٢٧ كثيرون ممن شعروا ان فن الافلام الصامتة الفريد لا بد ان يتأثر سلبيا من جراء ذلك ويندثر .

٦

٧



(١) ـ اوحت حياة الأسكيمو ، بصراعها اليومي القاسي من اجل البقاء ، بفيلم اعتبر عموما منطلقا للفيلم الوثائقي ، هو «نانوك الشمالي» (١٩٢١) . كان مدير هذا الفيلم هو المستكشف روبرت فلاهرتي ، الذي لم يرم اصلا الى وضع قصة سياحية مسلية على الطريقة المألوفة في ايامه ، بل الى الكشف عن روح الدعابة والصلابة التي كان يتصف بها صياد من الاسكيمو وعائلته . أدت هذه المعالجة المبتكرة للواقع الى ظهور الافلام الوثائقية البريطانية في الثلاثينات ، فحملت الكاميرا الى صلب حياة العمال العادية ، كما انها تسببت في ظهور تقنات عدة (مثل المقابلات التي يجري فيها ضبط الصوت آنيا) لعبت دورا هاما فيما بعد في التحقيقات التلفزيونية البعيدة الغور .

---

(٢) ـ كان فيلم «الجشع» ، وهو دراسة ثاقبة للسلوك البشري تجري حوادثه في سان فرنسيسكو قبل ١٩١٤ ، من انتاج ممثل ومدير فردي ، هو اريك فون شتروهايم . اقتطعت اجزاء منه حتى بلغ ربع طوله الاصلي الذي كان يستغرق عشر ساعات ، لكنه بقي من اوائل الشواهد على الطريقة التي يمكن للكاميرا ان تكشف فيها عن الحياة اذا ركزت على فئة من اشخاص يوجههم المدير بحنكة وعناية .

---

(٣) ـ ظهر استخدام الافلام كسلاح سياسي اصلا في روسيا . ولكن النظام النازي في المانيا رفع استخدام هذا السلاح الى درجة الكمال في الثلاثينات ، عندما وضعت وزارة جوبلز صناعة الافلام تحت اشرافها الكامل تقريبا . كانت ليني ريفنشتال وحدها قادرة ، في فيلمها الرائع «اولمبيا» ، الذي عرض بمناسبة الالعاب الاولمبية لسنة ١٩٣٦ ، على التوفيق بين الحاجة الى الدعاية والاستخدام الخلاق لامكانيات الكاميرا .

---

(٤) ـ كان التصوير العاطفي والمراقبة العطوفة للناس العاديين ميزتي فيلم «حفلة في الريف» (١٩٣٦) لجان رينوار ، الذي بناه على احدى قصص موباسان . خرج رينوار ، وكان ابن الرسام اوجيست ، على عادة تنقيح الفيلم اثناء التركيب (المونتاج) ، وذلك في عدد من الافلام التي انتجها خلال الثلاثينات ، مفضلا استخدام الكاميرا بحرية ومرونة وتأليف المشاهد في العمق ، وهي طريقة لاقت رواجا في حقبة ما بعد الحرب .

---

(٥) ـ مثّل اورسون ويلز دورا من أدوار فيلمه ، «المواطن كين» ، وهو دراسة كاسحة لنفسية رجل اعمال كبير كان يشبه كثيرا صاحب الصحف وليم راندولف هيرست . ومع ان ويلز كان في ذلك الحين في سن الخامسة والعشرين فقط ، فقد برز توا كمدير ذي مقدرة نادرة ، يجمع بين الاستخدام الدينامي المتواقت لافلام الاخبار وتأثيرات الانارة والصوت المبتكرة ، وبين التصوير الشمسي الخارق العمق .

---

(٦) ـ وطد فيلم «راشومون» شهرة صانعي الافلام اليابانيين ، عندما فاز «بالجائزة الكبرى» في البندقية سنة ١٩٥١ .

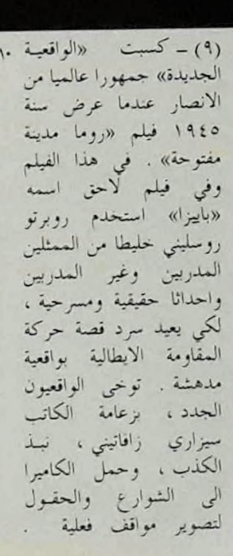
---

(٧) ـ انتقلت افلام السراديب من السر الى العلن في «الجسد» (١٩٦٩) ، وهو فيلم لبول موريسي .

كان من اوائل الذين دللوا ، خلافا لذلك ، على ان الافلام الناطقة بوسعها ان تقنع وتهز وتلهم ، لويس مايلستون ، وذلك في عرضه سنة ١٩٣٠ لفيلم «كل شيء هادىء على الجبهة الغربية» ، المستمد من رواية اريك ريمارك المناوئة للحرب .

لكن في فرنسا ، وبعد انهيار الاستوديوهات الكبيرة من جراء الضائقة الاقتصادية ، ظهر نتاج سينمائي مرموق على يد افراد مستقلين . فقد استخدم جان فيجو ورينه كلير (١٨٩٨ -) ومارسيل بانيول (١٨٩٥ -) الافلام للنقد الاجتماعي او للاعراب عن مزاج بلادهم او لتحويل الحياة العادية الى عالم شعري . كذلك استبق جان رينوار (١٨٩٤ -) (٤) السينما العصرية ، في «الوهم الكبير» ١٩٣٧ و«اصول اللعب» ، بجعل افلامه تدور حول فكرة عوضا عن ان تدور





(٨) - في «الخاتم السابع» (١٩٥٧) ، كان مشهد شبح الموت المغشى بالسواد من جملة المشاهد العنيفة الكثيرة التي استخدمها المدير الاسوجي انجمار برجمان لتقصي معنى الحياة البشرية . جعل برجمان احداث هذا الفيلم وسواه من الافلام تقع في اوروبا اثناء العصور الوسطى ، مستخدما الرمز والتورية بكثرة ، وراسما الحالات المتضاربة من السعادة والالم . قام كذلك بدراسات ثاقبة «للحياة المعاصرة» ولاسيما العلاقات الزوجية .

(٩) - كسبت «الواقعية الجديدة» جمهورا عالميا من الانصار عندما عرض سنة ١٩٤٥ فيلم «روما مدينة مفتوحة» . في هذا الفيلم وفي فيلم لاحق اسمه «بايزا» استخدم روبرتو روسليني خليطا من الممثلين المدربين وغير المدربين واحداثا حقيقية ومسرحية ، لكي يعيد سرد قصة حركة المقاومة الايطالية بواقعية مدهشة . توخى الواقعيون الجدد ، بزعامة الكاتب سيزاري زافاتيني ، نبذ الكذب ، وحمل الكاميرا الى الشوارع والحقول لتصوير مواقف فعلية .



(١٠) - استخدم انطونيني وجه مونيكا فيتي الكئيب في «المغامرة» (١٩٥٩) ، في سلسلة من المشاهد الجريئة في بطئها والتي كانت تستقصي افكار شخصياته وفراغ حياتهم .

حول عقدة متتالية الاحداث ، وبمقاومته لتجزئة مشهد الكاميرا .

التراث الواقعي

في منتصف العشرينات ، قام المدير السوفييتي دزيجا فيرتوف يطالب «بسينما الواقع الراهن» . لكن افضل محاولة لتلمس الدراما في الحياة العمالية ظهرت في بريطانيا ، في فيلم وثائقي بدأه جون جريرسون وتابعه بازيل رايت خلال الثلاثينات . وفي حقبة ما بعد الحرب ، ظهرت النزعة الواقعية في الافلام الروائية التي اخرجها مديرون ايطاليون كروبرتو روسيليني (١٩٠٦ –) وفيتوريو دي سيكا (١٩٠٢ – ١٩٧٦) ولوتشينو فيسكونتي ، الذين راحوا يرتجلون الحوادث في مواقع حقيقية ، مستخدمين احيانا ممثلين غير مدربين (٩) . اصبح استخدام ممثلين غير مدربين «فعل ايمان» لدى المدير الفرنسي روبرت بريسون (١٩٠٧ –) . اخيرا جلبت نهاية الحرب في ركابها انبعاث التراث الفرنسي الشعري ، بفضل النتاج البارز الذي جاء على يد كلير وكوكتو ومارسيل كارني .

في الخمسينات ، كبرت شركات الافلام وازدهرت مهرجانات الافلام الدولية فتمكن المشاهدون الغربيون بفضل ذلك من التعرف على مفاتن الافلام المصنوعة في آسيا . فقد ربح فيلم «راشومون» لأكيرا كوروساوا (٦) ، وفيلم «باب الجحيم» لتاينوسوكي كينوجازا ، جوائز كبرى لليابان سنة ١٩٥١ و ١٩٥٤ ، كما نالت قصة الحياة البنغالية «باثير بانشالي» في مهرجان كان للافلام سنة ١٩٥٦ اشد الاستحسان . في الطرف الآخر ، لاقت صرخات الالم النفساني في افلام المدير الاسوجي انجمار بيرجمان (١٩١٨ –) (٨) رواجا واسعا . في ايطاليا ، استغل امكانيات العدسات المحسنة مايكل انجلو انطونيوني (١٩١٢ –) (١٠) ، الذي استعمل المشاهد الطبيعية للتعبير عن العالم الداخلي لاشخاصه ، وفيدريكو فليني (١٩٢٠ –) ، الذي اعادت افلامه ذات التأثير الكبير تمثيل نواح من حياته وتخيلاته الخاصة .

الموجة الجديدة والسينما الحديثة

بعد تراجع السينما التجارية في الخمسينات ، حافظ على التراث السينمائي نخبة من رواد السينما المرهفي الذوق والحس ، فأدى ذلك مع توافر الافلام من عيار ١٦ ملم والاجهزة المتقدمة تقنيا الى احياء الفيلم الطليعي الفردي كليا وكان من دعاته مايا ديرين وستان براكهيج في امريكا .

اما في عالم السينما التجارية ، فقد نادى فريق جديد من صانعي الافلام ، بزعامة مديري «الموجة الجديدة» بفرنسا ، بفكرة اشراف المؤلف المدير على فرقة صغيرة لتحقيق رؤياه الشخصية . فانصبت جهود المديرين من اشباه جان لوك جودار (١٩٣٠ –) وفرنسوا تريفو (١٩٣٢ –) على محاولة تحطيم الاعراف والتقاليد في التيار الرئيسي لصنع الافلام في كل مكان في العالم .

الاتجاهات الحديثة في الفنون البصرية

منذ منتصف القرن الحالي ، لم يسبق مثيل لتنوع الفنون البصرية ، ولم يشمل قط مفهوم الفن سابقا مثل هذا القدر العظيم من انواع النشاط . فظاهرة الفن تضم اليوم في آن واحد ابتكارات من نوع «منحوتة تغني» لجلبرت وجورج (٧) ، ومزرعة السمك المصغرة التي استحدثها الفنان الامريكي نيوتون هاريسون كدليل على امكانية حل مشاكل التغذية في العالم ، وتسجيلات كونراد اتكنسون الكتابية والبصرية لاشكال الظلم والتفاوت الاجتماعيين . العامل الوحيد المشترك ، الذي يجمع بين جميع هذه الفنون هو صالة الفن التي تعرض فيها .



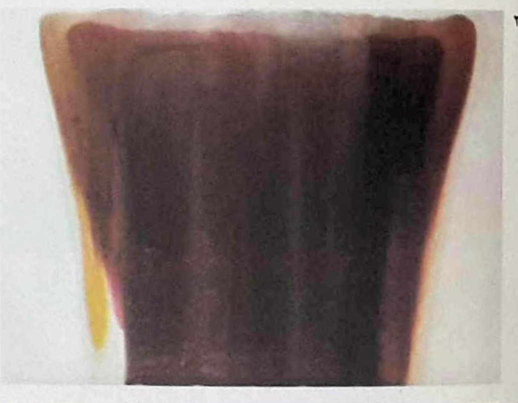
(١) ـ لوحة ريتشارد هاملتون «ما الذي يجعل بيوت اليوم مختلفة وجذابة الى هذا الحد ؟» ، هي التي دشنت فعليا الفن الشعبي البريطاني سنة ١٩٥٦ وكانت نقطة انطلاق له . خلافا لصراحة دور هول ، كان هاملتون يستخدم ، في التأليف المركب الذي يصنعه ، طريقة الصاق الصور التي كان يستمدها من مصادر مختلفة ، بما فيها الصور الهزلية الرومنطيقية والمواد الاعلانية . الصورة المهيمنة على اللوحة مأخوذة من مجلة للرياضة البدنية .

(٢) ـ اصبحت الانظمة الرياضية اساسا لتآليف عدد من الفنانين المعاصرين . فالتداخل الناجم عن التكرار والتغيير من شأنه ان يحدث «رنينا بصريا» خاصا كالذي كان يسعى الى توليده فيكتور فاسارلي

من المفارقات ان النظام الذي كان يندد به عدد من الفنانين الطليقين المعاصرين لكونه مجسدا لفساد المجتمع يصبح هو ذاته ميدان نشاطاتهم الخصب . الا ان الفن كان قد تطور الى حد التساؤل عن حقيقة وجوده بالذات ، وهذا هو احد مظاهر الشكوك التي تراود الحضارة الغربية اليوم حول حقيقة ذاتها .

بوسع المرء ان يتعقّب المأزق الذي يتخبط فيه الفن اليوم رجوعا من منتصف السبعينات حتى ظهور المشاكل التي واجهها رواد الفن المجرد في السنوات الاولى من هذا القرن . فقد اكتشف كازيمير ماليفيتش (١٨٧٨ - ١٩٣٥) وفاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦ - ١٩٤٤) انه ، اذا كان المطلوب هو ان يصبح التجريد أداة مستقلة من ادوات التعبير ، فتكوين الصورة المجردة الشكلي لا بد له

٣



٤



(٣) - في سلسلة «الحجب» لموريس لويس (١٩٠٨ -) ، وهو رسام هنجاري المولد يعمل في باريس ، ويعتبر عموما كمبتدع «فن الأوب» . مع ان لوحاته مجردة كليا ، فهي تخلق احاسيس قوية بالفضاء والحركة والحجم . في الخمسينات ، حاول هذا الفنان ان يضع الأسس للحجم وشكل اللوحة اللذين يسمحان بالقيام بانقى تجربة ممكنة لحقيقة اللون . في لوحاته اللاحقة ، لم يدمج الالوان ، بل فصلها الى خطوط او اشرطة .

(٤) - تخصص عدد من الرسامين الاسبان في «الرسم النسيجي» . هنا ، في لوحة «تأليف» (١٩٥٨) ، استخدم انطوني تابيس الرمل والجبس بحيث يوحيان بجدران متداعية . اصبح ما يوحي اجمالا بالدمار والبؤس من مميزات الكثير من اشكال الرسم والنحت الاوروبيين ، وهو ضرب من النزعة الى مناوأة الجمالية ، التي جاءت كرد فعل على الاستغراق المفرط في التأنق ، لا بل على التجريد الصارم والجاف الذي انصرف اليه الرسامون المرموقون في سنوات ما بعد الحرب مباشرة .

٥



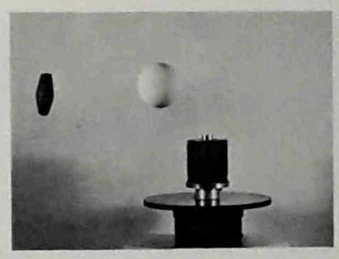
(٥) - تبين «ماريلين في مجموعة الستة» لأندي وورهول (١٩٦٢) الصراحة الجريئة التي يقدم بها الفنانون الامريكيون الشعبيون مواضيعهم . كان موضوع وورهول رسما من الرسوم التي تكون معروفة او اصبحت نموذجية قبل ان تصل اليه . وكان تكرار الموضوع الذي اختص به وورهول وسيلة استعملها ايضا رسامون ونحاتون آخرون .

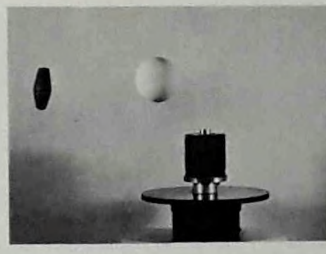
ان يجر معه عناصر حسية من العالم الخارجي غير مرغوب فيها . وعلى هذا ، يصبح التجريد مستحيلا ، فمن اين للرسم والحالة هذه ان يستمر دون العودة الى الايهامية المنبوذة ؟

البنية والفن الشعبي (الأوب)

رأى بعض الفنانين الاوروبيين ان الحل لهذه المشكلة يكمن اجمالا في ابتكار مشوقات اضافية من شأنها ان تعوّض الناظر الى اللوحة عن عدم وجود موضوع لها ، وان هذه المشوّقات الاضافية قد تنجم عن استكشاف حقيقة بنية الرسمة . كان ممثل هذه الطريقة الفنان اللامع انطوني تابيس الاسباني (١٩٢٣ -) (٤) . كان هناك حل آخر تفرّع عن «التراث البنائي» ، وهو يقوم على ابداع اشكال توحي بالحركة ، وقد عرف ذلك شعبيا بفن «الأوب» الذي

٦



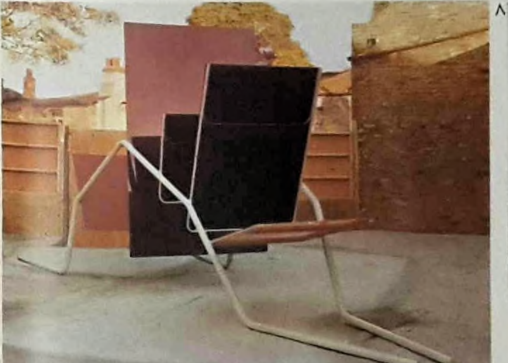


(٦) - غالبا ما ظهر «الفن الحركي» مغرقا في البرمجة والتخطيط . الا ان نماذجه الناجحة نتجت عن تطبيق مبادىء بسيطة . تترك الحركات الدقيقة للصدفة . يستخدم تاكيس المغنطيس مثلا لجعل منحوتاته اما ترتعش في الفضاء ، او ، كما في هذه «المنحوتة النائية» ، تتأرجح بعنف في حركة عشوائية حول ملف مكهرب . في اعمال اخرى ، ادخل تاكيس الصوت باحداث ذبذبات مغنطيسية حول اسلاك او اجراس . عندما تعرض مجموعة من هذه المنحوتات معا بحيث تتضخم حركتها ، يصبح مفعولها قويا بطبيعة الامر ، ولكنها تدل ايضا على العمل من اجل الظهور .

٧



٨



(٧) - قلما مزج الفنانون الفن والحياة مزجا تاما ، كما مزجهما جيلبرت وجورج في اخراجهما «لمنحوتة تغني» ، التي قاما بتمثيلها ميكانيكيا طيلة ثماني ساعات على لحن «تحت الاقواس» من تأليف فلاناجان وألين . جاء فنهما ليكون تعبيرا عن شخصيات خلقت بدقة ، بقصد السخرية من الحرص على الوقار ، وهي الذروة من حيث الخروج على العرف . ربما كانت ابلغ محاولة للربط بين الفن والواقع هي اهداء آلان سونفيست الامريكي جثمانه لمتحف الفن الحديث بنيويورك .

(٨) - «عصفور في اراس ٤» (١٩٦٩) هي لوحة من صنع تيم سكوت (١٩٣٧ -) ، وهو واحد من فريق من النحاتين البريطانيين الذين اشتهروا في منتصف الستينات باستخدامهم الاشكال الملونة اللماعة المصنوعة من مواد اصطناعية . كان هذا الفريق يطمح بالدرجة الاولى الى خلق نحت مجرد بازالة جميع الاشكال التقليدية وتجنب اساليب التأليف الرياضية التي لا تدع للمخيلة الا مجالا ضيقا .

كان افضل نماذجه المعروفة التآليف «المدوّخة» لبريدجيت رايلي (١٩٣١ -) .

كان النفور من جميع انواع الايهام احد مميزات الفنانين في حقبة ما بعد الحرب . لذلك لم يكن من المستغرب ظهور الميل الى رسم الحركة الحقيقية الذي ادى الى نشوء «الفن الحركي» (٦) . لم تكن تلك الفكرة جديدة ، اذ ان الكسندر كالدر (١٨٩٨ -) كان ينتج منذ اوائل الثلاثينات متحركات دقيقة وزاهية الالوان .

الرسم الفاعل والالوان الباهتة

تدلنا بعض التطورات الفنية التي حدثت في الولايات المتحدة على مدى الجرأة التي توصل اليها بعض الفنانين في تصورهم لحقيقة الفن . فرسوم جاكسون بولوك (١٩١٢ - ١٩٥٦) «الفاعلة» شجعت نشوء مفهوم للرسم لم يكن معروفا من قبل ، وهو ان الرسم شيء محسوس قائم بذاته او موضوع صرف . فقد كانت تلك الرسوم لا تسمح للناظر اليها ان يشارك الرسام في بهجة رسمها وحسب ، بل كان شكلها الاجمالي يحول دون ذلك النوع من التفسير المكاني الذي كان يتوخاه بالفعل الرسامون التجريديون الاوائل . فاللوحة يجب ان لا تعتبر بعد الآن كفتاة جميلة او كمشهد خلقي لرفع النفوس الى العلاء ، بل يكفي ان تكون مساحة مسطحة ملونة لا حاجة لها الى التبريرات الروحية التي كان يتوخاها كاندينسكي .

جاء الناقد الفني الامريكي النافذ ، كليمنت جرينبرج (١٩٠٩ -) برأي يقول ان التطور الجوهري للفن الحديث جار في اتجاه تحرير كل عنصر من الصفات التي تخصّ الاشكال الاخرى . من الرسامين الذين شجعهم جرينبرج بوجه خاص على السير في هذا الاتجاه موريس لويس (١٩١٢ - ١٩٦٢) ، الذي بلغ من الحرص على تسطيح الرسم انه كان يفضل ان ينقع لوحاته باللون على ان يعكّر صفاء ثنائية ابعادها (٣) .

من الاساليب الطريفة التي استخدمت لرسم لوحة ثنائية الابعاد ، ما صنعه ياسبر جونز (١٩٣٠ -) عندما اكتفى برسم تروس ورايات ببساطة تامة ، او تلك الاطر المكبرة المأخوذة من افلام الصور المتحركة لروي ليشتنشتاين (١٩٢٣ -) ، او «ماريلين في مجموعة الستة» لأندي دور هول (١٩٣٠ -) . أدت الاهداف التجارية لهذه الاعمال الى ظهور لفظة «الفن الشعبي» (البوب) التي اطلقت ايضا على فن الرسامين البريطانيين ، امثال ريتشارد هاملتون (١٩٢٢ -) (١) .

اتجاهات فن النحت

اصبح النحت ، على غرار الرسم ، شكلا من اشكال الفن للفن بالدرجة الاولى . فلكي يحرر النحاتون هذا الفن من ارتباطاته بالجسم البشري ، استخدموا وسائل شتى ، مثل الالوان الاصطناعية اللماعة التي مدوها على مساحات ذات احجام غير طبيعية ، ثم جزأوا شكلها التقليدي الى عدة قطع (٨) .

الآداب الناشئة في القرن العشرين

من أهم ملامح الادب في القرن العشرين النزعة الاختبارية ، وهي استجابة للتشكيك الذي ساد في اعقاب انهيار الايمان الديني الشامل في الغرب . من الملامح الاخرى ظهور آداب جديدة مميزة (او انبعاث آداب قديمة) تنطوي في الغالب على عنصر من عناصر الاحتجاج السياسي او العرقي الشائع رئيسيا لا كليا في الغرب . فعلى اثر الثورة الروسية ، بدأ على الفور عهد من الحرية النسبية للكتاب الروس ، فكتبوا قدرا كبيرا من الشعر والرواية المميزين . ولكن بحلول ١٩٣٠ ، فرضت رقابة عليهم ما تزال حتى اليوم سارية المفعول الى حد كبير .

١

(١) ـ كان جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) ، الذي ولد في دبلن وغادرها بعد ١٩١٢ ، يمثل بسيرته الادبية تطور «النزعة الحديثة» . جاءت قصصه القصيرة «الدبلينيون» (١٩١٤) واقعية ، وكذلك كتابه الشبيه بقصة حياته «صورة الفنان كشاب» (١٩١٦) . الا ان ما صدر عنه بعد ذلك ، اي «يوليس» (١٩٢٢) ، لم يكن واقعيا ، بل خليطا من الواقعية ، والاسطورة ، والمناجاة الداخلية (السرد المفصل للافكار الباطنة) ، والتخيلات السوريالية ، وغير ذلك . اما رواية «ارق فينيغان» (١٩٣٩) ، التي كتبها بلغة معقدة ، فهي تحتاج الى مفاتيح خاصة لكي يفهمها المرء . ومع انها تعصى على معظم القراء ، فهي رائعة من روائع الدعابة والحيوية .

(٢) ـ جابريل جارسيا ماركيز (١٩٢٨ ـ) هو روائي كولومبي من المع الكتاب الامريكيين اللاتين . جاءت مواضيع رواياته ، التي منها «لا احد يكتب الى الكولونيل» (١٩٦١) ، ذات طابع مميز : فبلدته موكاندو ترمز الى امريكا اللاتينية بكاملها ، مع انه يعالجها بصورة واقعية معقولة . على غرار نيرودا في ميدان الشعر وميكال استورياس (١٨٩٩ ـ ١٩٧٤) الجواتيمالي الحائز على جائزة نوبل ، يعرب ماركيز عن قوة الروحية المصممة على احياء البلاد وانعاشها .

(٣) ـ الكاتب الارجنتيني حورخي لويس بورجيس (١٨٩٩ ـ) فريد في الادب الامريكي اللاتيني . ومع انه نظم شعرا غنائيا طافحا بالحنين ، فهو بالدرجة الاولى مفكر ، ألف قصصا قصيرة تدور حول مسألة ابتكار النظم المتافيزيقية . كانت رؤياه شكوكية ، لكنه كان مؤمنا بطاقة الانسان على التفنن .

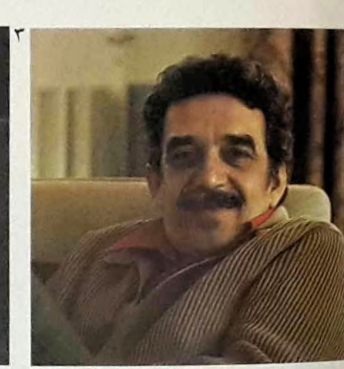
(٤) ـ كان محمد اقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) النظير الاسلامي لطاغور البرهمي . ومع انه كان اقل ابداعا من طاغور ، فقد كان انشط منه سياسيا . يجسد شعره الفلسفي بالاوردية والفارسية اعتقاده بأن الخلاص يكمن في اسلام مطعم بالاشتراكية . مما يشهد على دوره في انشاء باكستان الحديثة ، ان الحكومة جعلت ذكرى وفاته يوم عطلة رسمية .

(٥) ـ احدث يوكيو ميشيما (١٩٢٥ ـ ١٩٧٠) ، الروائي الياباني البارز ضجة عندما انتحر احتجاجا على تخلي اليابان عن روح الانضباط اليمينية . لم تلق رسالته استجابة ، وهي لم تظهر بوضوح في رواياته . ولكنه ابرز في تلك الروايات بجلاء معظم جوانب الحياة اليابانية ، وكان محللا دقيقا للانحرافات الجنسية وللاحوال النفسية السقيمة .

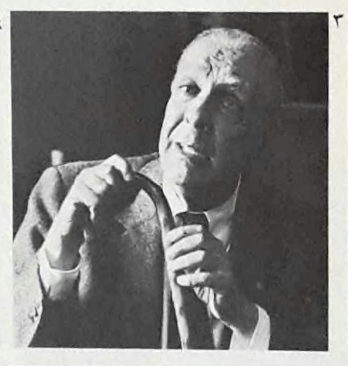
صانعو الاساطير

كان الاتجاه العام نحو استعمال المواضيع الاسطورية ، على الرغم من استمرار الاساليب الواقعية . ففي حين تبدو قصة «يوليس« (١) لجيمس جويس مثلا قصة من قصص الحياة اليومية او ضربا من ضروب المعاناة «العادية» ، فهي قائمة في جوهرها على اسطورة يوليس الشهيرة . وما يلفت النظر ايضا ان الكاتب ألان روب – جريه (١٩٢٢ –) نفسه ، وهو الداعية الفرنسي «للرواية الجديدة» الالحادية الرامية الى القضاء على الفكرة التقليدية التي تنظر الى الرواية «كقصة» ، والى التدليل على أن الكون لا يبالي قط بآمال البشر وامانيهم ، قد استخدم هذه الاسطورة في روايته الاولى «المحّايات» (١٩٥٣) ، حتى ولو لم يكن ذلك الا لاظهار انها بلا جدوى ومخالفة للعقل

٢



٣



٤



٥





٦



(٦) – كان باتريك هوايت (١٩١٢ –) اول روائي استرالي يحوز على جائزة نوبل (١٩٧٣) . تعود جذور رواياته المعقدة والمؤثرة ، مثل «شجرة الانسان» (١٩٥٥) و «فوس» (١٩٥٧) و «الماندالا الصلبة» (١٩٦٦) الى ارض استراليا ، ولكنها تمثل مع ذلك بصورة مطلقة الرواية العصرية . يعالج أخفى افكار شخصياته (بوسائل مباشرة او رمزية) بأقصى ما يمكن من الواقعية . كتبه معقدة ولكنها مفيدة . رسالته وجودية من حيث مناداتها بالصدق المطلق مع الذات وأصالة الوجود والنزاهة اللامحدودة . ابطاله وبطلاته في الغالب مجانين او خطرون ، وفي جميع الاحوال غير متزنين ، ولكنهم ينتصرون دوما على الحياة بفضل شجاعتهم .

ووهمية ليس غير .

مع ان انسان القرن العشرين قد تخلى عن الكثير من معتقداته التقليدية واخذ يسعى وراء حريات جديدة ، فقد عاد في الوقت ذاته الى استيحاء الاساطير القديمة «اللامعقولة» او الى ابتكار اساطير فردية خاصة به . وهكذا نرى ليوبولد سنغور (٩) يعتمد في شعره على الفضائل الزنجية التي كان يجهلها الغرب الى حد ما حتى انبثاق القومية الافريقية . كذلك اعتمد السورياليون الفرنسيون في العشرينات ، بزعامة اندريه بريتون (١٨٩٦ - ١٩٦٦) ، على مواد مستمدة من الاحلام او من «الكتابة الآلية» الصادرة عن العقل اللاواعي . كان الكاتب الهندي رابندرانات طاغور (٨) ، الذي راجت مؤلفاته كثيرا في الغرب ، من اصحاب النزعة الانسانية ، لكنه كان يحاول ان

(٧) - «الكوبيهو» (الوردة) هي زهرة الشيلي القومية ، ورمز قوي لمفاتن واسرار تلك البلاد التي كتب عنها بكثير من الاناقة بابلو نيرودا (ن. ر. رايس ١٩٠٤ - ١٩٧٣) . كان نيرودا ، احب شعراء التشيلي الى قلوب مواطنيه ، يشغل منصبا دبلوماسيا ، ثم توفي في ظروف غامضة بعد بضعة ايام من سقوط حكومة الشيلي المدنية (حكومة آليندي) على يد العسكريين والتآمر الامريكي . جاء شعره حاملا طابع النزعة الحديثة في ازدرائه بالسلطة السياسية وربطه بين الاحوال الذاتية والمظاهر الخارجية . تأثر نيرودا بالسوريالية وفاز بجائزة نوبل ، كما فعلت شاعرة شيلية اخرى ، هي جابرييلا ميسترال .



(٨) - ابدع الشاعر والكاتب المسرحي والروائي البنغالي رابندرانات طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١) أدبا كان اقرب الى اللغة البنغالية المحكية من كل ما كتب من قبل . لعب دورا هاما في تحرير الهند ، ولكنه خسر شعبيته عندما خاصم المهاتما غاندي . يشتمل نتاجه الادبي على مسرحية «ملك الحجرة المظلمة» و«غورا» التي هي افضل من «كيم» لكيبلنج في تصويرها للحياة الهندية . ولكنه اشتهر بنوع خاص كشاعر ، ونالت ترجمته لمجموعته الشعرية «جيتانجالي» (١٩٠٩) اعجاب و.ب. ييتس وسواه .



(٩) - كان رئيس جمهورية السنغال ، ليوبولد سنغور (١٩٠٦ -) ، حتى دخوله حلبة السياسة ، شاعر حركة «الزنجية» الاكبر . لفت شعره الانتباه الى طاقة الثقافة السوداء على الاسهام في الادب العالمي بحكم حيويتها الندّة وايقاعاتها الاصيلة . تعالج قصيدته «تشاكا» بفصاحة مشكلة التوفيق بين السلطة السياسية والممارسة الشعرية .

يكتشف كل ما كان ذا قيمة في البرهمية.

الوجودية والمصلحون

حيثما طرح الدين جانبا باسم الالحادية المطلقة ، وحيثما اخذ الكون يبدو كمكان خال من المعنى وقد جاء الى الوجود بالصدفة ، كما نرى في روايات الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨١) ، هناك بالضبط نجد التشديد متركزا على المجهود «الوجودي» الرامي الى اكتشاف نظام افضل واعدل : فالانسان وحيد في الكون وعليه أن يختار ، بحكم حرية ارادته ، ان يعمل من اجل مصلحة الآخرين . ان هذا المجهود الوجودي يستوجب ، في نظر سارتر ، الرجوع الى الافكار الماركسية ، وعند الضرورة ، الاقدام على تعديلها .

بلغ الادب الامريكي اللاتيني (٣،٢) أوج ازدهاره في النصف الاخير من القرن الاخير ، اذ راح في آن واحد يلح على الحاجة الى الاصلاح السياسي ، ويعترف بما يكتنف الوجود الانساني من اسرار . فالمناطق الداخلية للقارة الامريكية الغامضة اصبحت رمزا قويا لاعماق الذهن البشري التي لم تكتشف ايضا بعد ، بما فيها من اشياء فاتنة بجمالها واشياء مخيفة بفظائعها . وهكذا استطاع بابلو نيرودا (٧) ان يكون في آن واحد شيوعيا ناشطا وممجدا لمثل هذه الاسرار .

تكشف الآداب الافريقية الجديدة عن الكثير من التنوع . فاموش توتوالا يعكس عالم الانسان الافريقي الاسطوري المعقد مع بعد اغواره ، بينما يصور مواطنه الروائي النيجيري تشينوا آتشيبي (١٩٣٠ ـ) ذلك العالم ذاته بطريقة مختلفة كليا . فهو واقعي ، لكنه يضمّن تصاويره للحياة النيجيرية ما لطرق معيشة القبائل الاصيلة من تأثير قوي فيها .

الاحتجاج الخلقي والسياسي

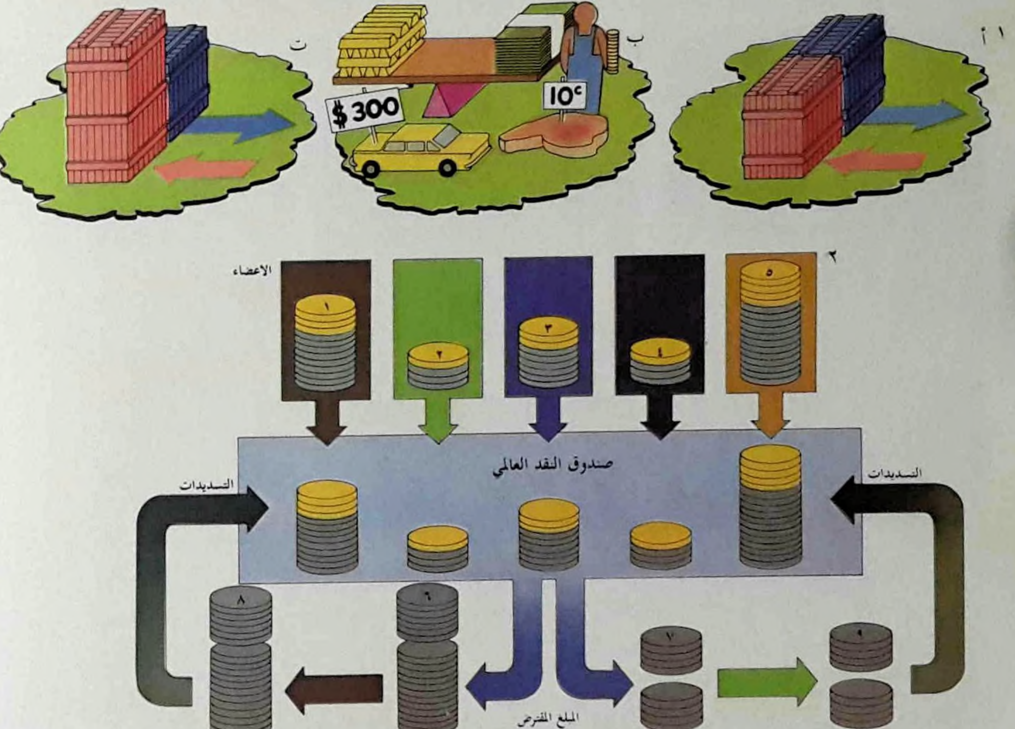
يجد حس الاحتجاج على ظلم الانسان ابلغ تعبير له بالطبع في نتاج الكتاب المنتمين الى بلدان تعيش في ظل انظمة متطرفة ، مثل سولجنتسين في روسيا ، وآتول فوجارد في افريقيا الجنوبية .

من ناحية اخرى ، طبقت الاختبارية الادبية على الشكل والموضوع معا ، فكانت الاشكال الجديدة احيانا معقدة ومرهقة . الا ان بعض الروائيين ، من امثال فرنسوا مورياك (١٨٨٥ ـ ١٩٧٠) ، الفوا روايات واضحة المعالم ومتماسكة ، تدور على مواضيع عصرية بكل معنى الكلمة . كان مورياك كاثوليكيا ، الا ان الاسئلة التي تثيرها رواياته كانت «وجودية» ، بمعنى انها تهاجم جميع الحلول المتعارفة لمشكلة الشر . على الوجه ذاته ، وبعنف اشد ، تكشف آثار مواطنه الفرنسي اندريه جيد (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) عن شخصية تعترف بانحرافها الجنسي وتريد اكتشاف قاعدة لفلسفة خلقية قابلة للحياة اذا امكن .

في انجلترا ، ظهر جراهام جرين (١٩٠٤ ـ) ، وهو يساري بصراحة ، وتنطوي رواياته على وعي عميق للمشاكل الاجتماعية والسياسية ، وتتجه عقيدته الكاثوليكية بجرأة نحو الكفاح في سبيل العدالة .

النظام النقدي العالمي

كانت اقامة نظام نقدي عالمي على اسس جديدة من اخطر المهام امام الزعماء العالميين حين شارفت الحرب العالمية الثانية على نهايتها . ففي مؤتمر بريتون وودز سنة ١٩٤٤ ، كانت تسيطر على اذهان المؤتمرين ذكريات الثلاثينات ، حينما انهارت فكرة اعتبار الذهب مقياسا نقديا (١) يعمل بمثابة نظام شبه آلي لتسوية خلل التوازن في التجارة والمدفوعات بين الامم ، وعقبتها فترة شهدت تقلب معدل القطع او الكمبيو ، وتدابير مقيدة للتجارة وانهيارا اقتصاديا ضخما في معظم البلدان الرئيسية . كان هدف المؤتمر ابتكار نظام نقدي يشجع على التعاون الدولي ويضع



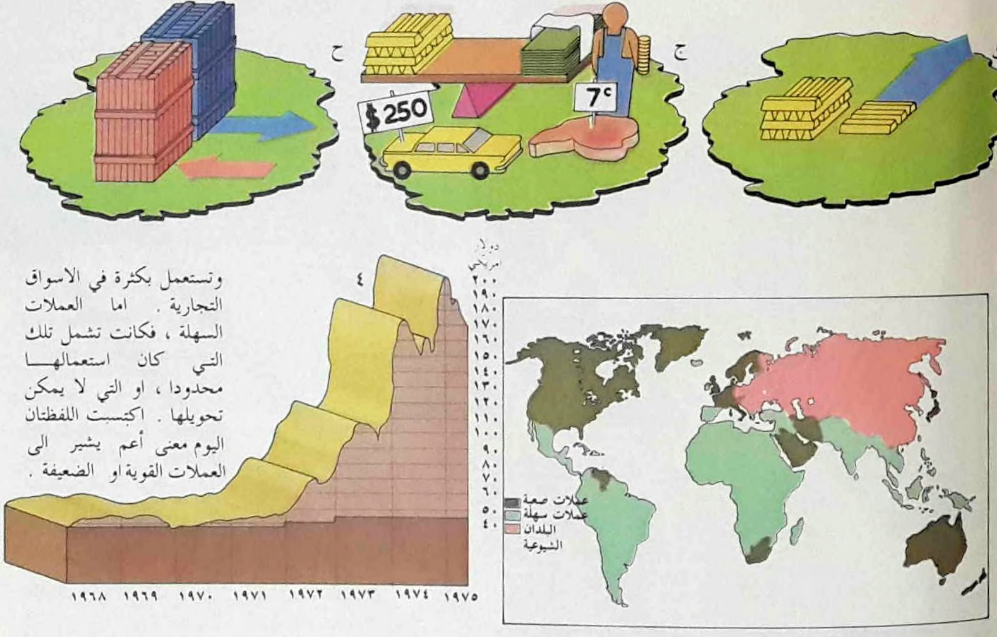
(١) – على اساس نظام معيار الذهب ، يعالج خلل التوازن بتحويل الذهب من بلد الى آخر . اذا تعادلت الصادرات والواردات (أ) في بلد ما ، فهذا البلد لا يخسر ولا يربح شيئا من الذهب . فقيمة العملة المتداولة في بلد ما مرتبطة مباشرة بمخزونها من الذهب (ب) . وعندما يحصل عجز بسبب زيادة الواردات على الصادرات (ت) ، يأخذ الذهب بالتدفق لسد العجز (ث) . من شأن ذلك ان يخفض حجم العملة في البلاد ، مما يخفض الأجور والاسعار (ج) ، فتصبح السلع المعدة للتصدير ارخص ويباع المزيد منها ، فيعود التوازن ، ولكن بمخزون من الذهب اقل (ح) .

(٢) – يستمد صندوق النقد

حدا لعدم الاستقرار .

نظام بريتون وودز

كانت اهم نقاط النظام الجديدة اقرار معدلات ثابتة او محددة للقطع او الكمبيو ، واقامة منظمة مركزية جديدة ، هي صندوق النقد الدولي (ص. ن. د.) ، لمراقبة الترتيبات الجديدة ، ومساعدة البلدان التي تواجه صعوبات في ميزان مدفوعاتها (٢) وتقديم المساعدة للبلدان الفقيرة عن طريق البنك الدولي الجديد (البنك الدولي لاعادة التعمير والانماء) . فرضت معدلات القطع الثابتة على كل عضو من اعضاء «صندوق النقد» ان يبلغ الصندوق عن قيمة نقده المتداول (على اساس الذهب) . ولما كانت جميع العملات «مسعّرة» على اساس عامل مشترك واحد بين الاعضاء هو الذهب ،



الدولي وارداته المالية من مبالغ محددة يساهم بها اعضاؤه (١ ــ ٥) ، على اساس ٢٥ ٪ من الذهب (اللون الاصفر) والباقي من عملاتها الخاصة . يمكن لاي عضو يواجه صعوبات في ميزان المدفوعات ان يقترض من «الصندوق» مبلغا من عملة الاعضاء الآخرين اقصاه ٢٠٠ ٪ من الكوتا الخاصة به . فالبلد رقم ١ يقترض ١٥٠ ٪ (٦) ، بينما يسحب البلد رقم ٢ مبلغ الـ ٢٠٠ ٪ كاملا (٧) . للمحافظة على التوازن في العملات ، يجب التسديد (٨ ، ٩) خلال خمس سنوات بعملات اعضاء اقترض الصندوق منهم .

(٣) ــ يمكن تقسيم العملات العالمية بصورة عامة الى «صعبة» او «سهلة» . لكن في بعض الاصقاع تتغير هذه المفاهيم ، لاسيما بحكم المداخيل النفطية . كانت العملات الصعبة قديما تلك التي كان يمكن تحويلها بنسبة معدل ثابت ، وتستعمل بكثرة في الاسواق التجارية . اما العملات السهلة ، فكانت تشمل تلك التي كان استعمالها محدودا ، او التي لا يمكن تحويلها . اكتسبت اللفظتان اليوم معنى أعم يشير الى العملات القوية او الضعيفة .

(٤) ــ بلغ سعر الذهب ١٩٥ دولارا للاونصة سنة ١٩٧٤ ، بالقياس الى سعره الثابت المساوي ٣٥ دولارا ، والذي ظل صامدا حتى ١٩٦٨ . تهافت المستثمرون على الذهب ، حينما تضاءلت الثقة بالدولار ، ولكنها عادت الى الانتعاش سنة ١٩٧٥ .

فقد تحددت بذلك ايضا معدلات القطع فيما بينهم . كان من الواجب اعتبار هذه المعدلات ثابتة نهائيا ، ولم يكن من المسوّغ قبول اي تعديل رئيسي في قيمة عملة ما الا حينما يعاني البلد من «عدم توازن اساسي» في ميزان مدفوعاته . وكان من المفروض ايضا على كل بلد يرغب في تصحيح «فائض اساسي» لديه نتيجة لزيادة صادراته على وارداته ان يرفع سعر عملته بحيث تصبح صادراته اعلى كلفة وواداته اقل كلفة ، واذا رغب في تصحيح عجز لديه ، فعليه ان يخفض سعر عملته .

أخذ الدولار الامريكي ، والى حد اقل الجنيه البريطاني الاسترليني ، يلعبان دورا رئيسيا في النظام الجديد . كان الاسترليني يتمتع بمكانة بارزة منذ امد طويل كعملة تجارية رئيسية او «نادرة» (٣) . اما مكانة الدولار ، فكانت الى حد كبير ظاهرة من

٥

مجموع المبالغ الاحتياطية ٢٢٢١٣٢ مليون دولار (١٩٧٤)

العملة الاجنبية ١٥٦٦٢٨ مليون دولار
حقوق السحب الخاصة ١٠٩٧٧ مليون دولار
حياطي الصندوق الدولي ١٠٨٢٩ مليون دولار
الاحياطي من الذهب ٤٣٦٩٨ مليون دولار

(٥) – استحدث صندوق النقد الدولي «حقوق السحب الخاصة» سنة ١٩٧٠ ، لرفع الموارد اللازمة لتمويل التجارة العالمية . لهذه الحقوق فائدتان : الاولى هي أنها شكل ثابت ومقبول دوليا للتبادل المالي ؛ والثاني انها تمكن الصندوق من تقديم قروض قابلة للتحويل الى البلدان المحتاجة الى المزيد من الاحتياطي الاجنبي ، لسد العجز في تجارتها . على هذا الوجه ، تلعب هذه الحقوق دور نظام دولي مناسب لجانبي المدين والدائن

(٦) – يسمى الدولار «دولارا اوروبيا» عندما ينتقل الى مالك خارج الولايات المتحدة ، ويودع في بنك في الخارج عوضا عن تحويله الى عملة اخرى او ايداعه داخل الولايات المتحدة . ثمة عملات «اوروبية» اخرى مثل الاسترليني «الاوروبي» . تدل هذه اللفظة على ان العملة المشار اليها مودعة خارج البلاد التي صدرت عنها . عندما يتلقى بنك اوروبي (أ) وديعة بالعملة الاوروبية ، مثلا من مصدر فرنسي ، فبوسعه ان يدينه بدوره الى بنوك اخرى محتاجة الى اموال (ب،ت،ث) ، ويمكن ان يستدينه آخر الامر رجل اعمال بريطاني لتمويل استثماراته . ظهرت سوق العملة الاوروبية في اواخر الخمسينات .

(٧) – يجد معدل القطع المتقلب استقراره بناء على حركة العرض والطلب في اسواق العالم المالية في كل فترة معينة من الزمن . لنفرض ان العملة الوطنية هي الدولار والعملة الاجنبية هي الليرة الاسترلينية ، فمعدل القطع يستقر عند مستوى يتعادل فيه الطلب (الاحمر) والعرض (الازرق) (أ) . اذا ازداد الطلب على المستوردات ولم تتخذ تدابير رادعة ، فالطلب على العملة الاجنبية لا بد ان يفوق العرض على اساس معدل القطع القديم (ب) . لذا يرتفع سعر العملة الاجنبية ، او بكلام آخر ، ينخفض معدل القطع للعملة الوطنية (ت) . لا يزال العالم يعيش تحت رحمة نظام معدلات القطع المتقلبة .

٦ أ

الصادرات
مصنع فرنسي
مستقرض بريطاني
مصدر فرنسي
مستورد امريكي

٧ أ

مستوى التوازن
٣ دولارات = ليرة استرلينية

ب

التوازن تحت الضغط
٣ دولارات = ليرة استرلينية

ت

التوازن الجديد
التوازن القديم
٤ دولارات = ليرة استرلينية

ظواهر ما بعد الحرب ، وكانت تعكس قوة الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا في عالم كانت معظم البلدان البارزة الاخرى فيه تعاني البلايا الناجمة عن الحرب . اضف الى ذلك ان خزينة الولايات المتحدة عمدت الى تحويل الودائع الاجنبية بالدولار الى ذهب على اساس سعر ثابت هو ٣٥ دولارا للاونصة (وبالتالي جعلت الدولار مساويا للذهب في اهميته) ، مما حمل بلدانا اخرى على تخزين ودائع من فائضها بالدولار ، كي تتقاضى فوائد عليها . وهكذا اصبح الدولار والجنيه الاسترليني «عملات احتياطية» رئيسية لدعم الذهب .

الضغط على الاسترليني

كان الشرط الحاسم لنجاح نظام بريتون ـ وودز دون عائق استعداد البلدان المختلفة لتخزين العملتين الاحتياطيتين ، وقد فعلت هذه البلدان ذلك بصورة عامة حتى ١٩٦٤ ، حينما نسفت عدة ازمات نقدية تدريجيا نظام معدل القطع الثابت . تركز الضغط في البداية على الاسترليني ، اذ ان مشاكل بريطانيا الاقتصادية المزمنة في الداخل والخارج حدّت من الثقة به . ثم عقب ذلك بيع كميات كبرى من الاسترليني في عدة مناسبات من قبل مودعين عالميين ، مما سهل تخزين كميات ضخمة من العملة السهلة التحويل (او العملة الساخنة) في سوق الدولار الاوروبي (٦) . لم يكن من الممكن الحد من البيع الا بان يتخلص «بنك انجلترا» من ودائع العملات الاجنبية لشراء الاسترليني في سوق القطع ، وذلك للحيلولة دون هبوط معدل القطع الى ما دون قيمته المتفق عليها . لكن بالرغم من تقديم المزيد من الاموال الى بنك انجلترا من جانب بنوك مركزية اخرى ومن جانب «صندوق النقد الدولي» ، فقد انهار الاسترليني ، وفي ١٩٦٧ خفض سعره بنسبة ١٤,٣بالمائة .

لم تلبث ازمة الثقة ان امتدت الى الدولار ، متخذة شكل المطالبة الملحة من جانب اصحاب الودائع بالدولار بتحويل تلك الودائع الى ذهب ، مما ادى الى ضغط جدي على احتياطي الذهب في الولايات المتحدة . في اغسطس ١٩٧١ ، اتخذ الرئيس نيكسون عدة تدابير للحد من هذا السيل الجارف ، صاعقا العالم باعلانه عن نهاية التزام الولايات المتحدة الطويل الامد ببيع الذهب لقاء دولارات . دفعت صفقة الرئيس نيكسون المفاجئة الى مفاوضات دولية جديدة ادت الى اتفاقية سميتونيان لسنة ١٩٧١ ، التي قضت باعادة تسعير جميع العملات الكبرى بصورة جوهرية بالنسبة للدولار .

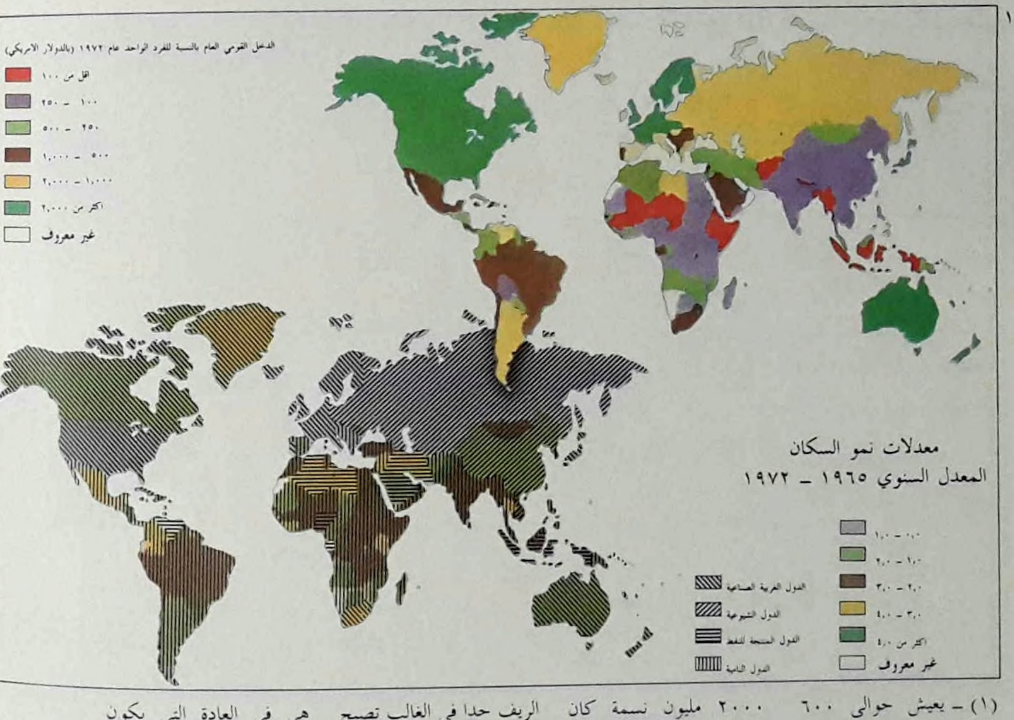
تعويم معدلات القطع

فشلت الاتفاقية في اعادة الثقة (٤) ، فتجدد الضغط على الاسترليني في مطلع ١٩٧٢ حتى ادى الى قرار في يونيو يسمح «بتعويمه» كي يعود الى سعره الخاص في اسواق القطع الاجنبية . في مطلع ١٩٧٣ ، اضطرت ايطاليا وسويسرا واليابان ، وفي وقت لاحق جميع البلدان الاوروبية ، الى اعتماد ذلك الاسلوب وتعويم عملاتها في وجه الدولار .

التخلّف الاقتصادي العالمي

تميزت العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بانقسام حاد بين مجموعة صغيرة من الدول الصناعية المتقدمة التي ارتفع فيها مستوى المعيشة العام والرفاه الاجتماعي ارتفاعا سريعا ، وبين الغالبية العظمى من الدول الاخرى التي ظلت فقيرة بصورة حادة . تضم المجموعة الاولى اكثر الدول الصناعية تقدما في شمال أمريكا واستراليا ونيوزيلندا ومعظم الدول الاوروبية واليابان ، والمجموعة الثانية المناطق المتخلفة الشاسعة في أمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا ، وان كانت البرازيل قد حققت ارتفاعا ملحوظا في اجمالي الدخل القومي في هذه الفترة .

١

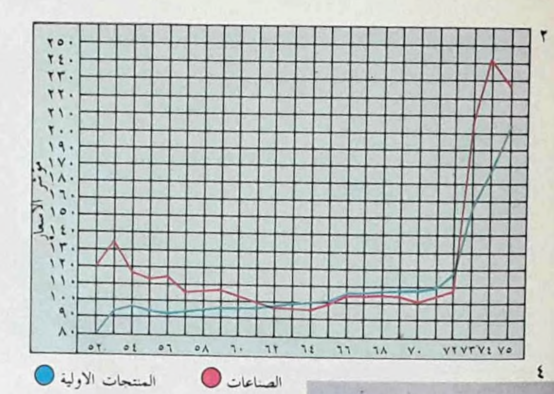


(١) ـ يعيش حوالى ٦٠٠ مليون نسمة في بلدان كان معدل نسبة الدخل القومي للفرد الواحد فيها عام ١٩٧٠ يتراوح ما بين ٢,٠٠٠ الى ٣,٠٠٠ دولار في السنة . وهناك ايضا ٢٠٠٠ مليون نسمة كان معدل نسبة الدخل القومي للفرد الواحد منها في تلك الفترة اقل من ٥٠٠ دولار . ففي البلدان التي تسود فيها ملكية الاراضي الصغيرة ، يبلغ ازدياد السكان في الريف حدا في الغالب تصبح معه قدرة الاراضي الزراعية عاجزة عن مواجهته مما يشجع الهجرة الى المدن التي لا تستطيع سوق العمل فيها هي الاخرى استيعابها . والواقع فان اكثر البلدان فقرا هي في العادة التي يكون ازدياد السكان فيها على اشده . فقد كان هناك بحلول عام ١٩٧٠ اكثر من ٥٣٨ مليون نسمة في الهند ، وقد أخذ هذا العدد يزداد بنسبة ٢,٣ بالمائة في

انماط التجارة

في هذه الفترة بالذات وازاء هذه الهوة المتسعة باطراد ، ظهرت الى الوجود عشرات من الدول الجديدة نتيجة لعملية تصفية الاستعمار . ولكن الاستقلال السياسي لم يجلب معه الحرية الاقتصادية . فاستمرار النمط التجاري الذي كان قائما ابان الفترة الاستعمارية غالبا ما اضطر الدول المستقلة حديثا الى مواصلة الاعتماد على الدول المستعمرة السابقة ، وهكذا ظل دورها الاقتصادي محصورا الى حد كبير في تزويد تلك الدول بالمحاصيل الزراعية والمواد الخام اللازمة للصناعة (٣) ، من جهة ، كما بقيت من جهة اخرى تخدم تلك الدول كسوق للبضائع الفائضة في الدول الصناعية ، وكمستودع لليد العاملة الرخيصة . وأخيرا ظل الكثير من تجارة وصناعة المستعمرات السابقة في

٢



٣

نسبة الصادرات العالمية
الدول الاوروبية الغنية
الدول الشيوعية
الدول المنتجة للنفط
الدول النامية
المجموع بملايين الدولارات الامريكية

٥٧٤،٧٧١ — ١٩٧٣
٣٤٤،٤٦٣ — ١٩٧١
٢٣٦،٣٤٢ — ١٩٦٨
١٨٤،١٣٩ — ١٩٦٣

٤

العام ، كذلك بلغت الزيادة السنوية في المكسيك ٣،٥ بالمائة في الستينات . على النقيض من ذلك ، فان الكثير من دول اوروبا الصناعية لا تزيد النسبة المئوية للزيادة فيها عن ١ بالمائة في السنة .

(٢) – اتجهت اسعار الصادرات العالمية ما بين عام ١٩٥٠ (ذروة الازدهار التجاري المرافق للحرب الكورية) وعام ١٩٧٠ في بادىء الامر لصالح منتجات الدول الاقل تطورا ، واستمرت لفترة في هذا الاتجاه ، الى ان تحولت عنه في آخر الامر . يلقي بعض الاقتصاديين اللوم في ذلك على الاداء الاقتصادي الضعيف للدول الاقل تطورا الناجم عن الانحدار الملحوظ في «شروطها التجارية» ، اي عن انخفاض الاسعار التي تحصل عليها من صادراتها .

(٣) – يتبيّن من ارقام الصادرات للستينات واوائل السبعينات ان تجارة الدول النامية لم تكن تمثل سوى نسبة ضئيلة من التجارة العالمية . ثم اخذت الحال تتغير في عام ١٩٧٤ ، ولكنه لم يحصل ذلك الا نتيجة لازدياد في اسعار النفط . لا تزال صادرات معظم الدول النامية تتمثل في المنتوجات الزراعية مثل القهوة والسكر والمواد الخام اللازمة للصناعة مثل المطاط او القصدير . ولا تزيد نسبة صادراتها من البضائع المصنعة على ٢٥ بالمائة من مجموع صادراتها .

(٤) – بعثت زراعة الارز في الهند وغيرها الآمال في الستينات في انه من الممكن لبعض البلدان الاقل نموا ان تكتفي ذاتيا في الطعام بفضل ما سمي «بالثورة الخضراء» . قام هذا المشروع على زراعة نوع الارز الكثير المحصول والحبوب الاخرى المشابهة . وقد لاقى نجاحا متواضعا في بعض المناطق ، الا ان التكاليف العالية التي استوجبها تنفيذه كانت اكبر بكثير من قدرة الفلاحين على تحمل القروض ذات الفائدة المحلية الباهظة .

ايدي الشركات العالمية المتمركزة في اراضي الدول الغنية والتي تنفق ارباحها خارج المناطق التي جنتها منها .

نتيجة لهذه الروابط التقليدية ، ظلت الدول الاقل تطورا تعاني من ازدهار العالم الصناعي وانتكاساته . كذلك جرت تقلبات حادة في الطلب على المنتجات الاولية التي تبيعها الدول الفقيرة ، مما ادى الى تقلب حاد في اسعار البضائع ، وبالتالي الى عدم استقرار عائدات هذه الدول من العملات الاجنبية (٢) . وهذا الامر يجعل التخطيط لبرامج التنمية في البلدان المتخلفة اقتصاديا أمرا مستحيلا .

ومع أن الدول الغنية تقدم بعض المساعدات لدول ما وراء البحار (٥) ، فان تدفق الاموال الى هذه الدول غير كاف ، خصوصا وان القليل من الدول النامية تمتلك ما يسميه الاقتصاديون «النمو

٥أ

ب

مجموع المساعدات ٪ من اجمالي الدخل القومي
مساعدات فردية
مساعدات جماعية
المجموع بملايين الدولارات الامريكية

هولندا	المملكة المتحدة	الولايات الامريكية المتحدة	اليابان	ايطاليا
٣٠٥	٥٨٦	٣١٨٨	٦٠٨	٩٨

(٥) – تقدم الدول الغنية المساعدات الاجنبية على شكل بضائع وعلى شكل اموال . في الصورة (أ) طائرة مروحية امريكية تنقل المساعدات . ولكن مثل هذه المساعدات تبقى غير كافية اذا ما قورنت بالنقص الحقيقي في الطعام وفي فرص العمل . فحوالى ٨٠ بالمائة من الاموال المستثمرة في الدول النامية تأتي من مصادر هذه الدول المحدودة نفسها ، ولم تبلغ المساعدات الرسمية المخصصة للتنمية التي قدمتها ١٧ دولة غنية (ب) عام ١٩٧٤ اكثر من ٠,٣٣ بالمائة من مجمل دخلها القومي المشترك ، وهو اقل من الـ ٠,٥٣ بالمائة الذي قدم لتلك البلدان في ١٩٦٠ .

٦



(٦) – تعكس المصانع التي تقيمها العديد من الدول النامية اعتقادا مفاده ان القضاء على الفقر يمكن التوصل اليه سريعا عن طريق التصنيع السريع . ولكن سرعان ما تبين ان هذا لم يكن سوى مجرد طموح زائد عن الحد ، وقد ادى الى قيام العديد من المشاكل . فقد كانت هذه البلدان تشكو من نقص في الايدي العاملة الماهرة ، كما ان برامجها الصناعية لم تساعد الريف الفقير .

٧



(٧) – لا تنفق المساعدات على الحاجات الاساسية وحدها ، بل ينفق بعض منها على المشروعات التي يقصد من ورائها اكتساب احترام الآخرين ، كما هي الحال في البناء الخاص بمنظمة الوحدة الافريقية في آديس أبيبا .

القائم على الاعتماد الذاتي» ، او بعبارة اخرى فان مستويات الارباح التي تحصل عليها تلك الدول ليست مرتفعة الى القدر الذي يسمح لها بالتوسع المالي الى المدى المرغوب .

الدول النامية واتحادات المنتجين (الكارتيلات)

اذا كان لحكومات دول العالم الثالث ان تقضي على الفقر وتحافظ على الاستقرار الاجتماعي والسياسي ، فليس لها من خيار على ما يبدو سوى السير بشعوبها في طريق التصنيع (٦) على أمل ايجاد معادلة تمكنها من الوصول الى النمو الاقتصادي القائم على الاعتماد الذاتي . وهذا يعني مكننة الصناعة والزراعة ، وقد ادى هذا الى المطالبة بأن تقوم الدول الصناعية الحالية بتزويد تلك الدول بالتمويل اللازم وبتخفيض القيود التي تفرضها على بعض البضائع المصنعة التي تستوردها من دول العالم الثالث ، مثل المنسوجات ، والتي تعترضها حاليا تعرفات عالية بسبب منافستها لصناعات الدول الصناعية ذاتها .

تحاول بعض الدول النامية هي الاخرى الحصول على اسعار عالية لمنتجاتها الاساسية وذلك عن طريق الدخول في روابط مع غيرها من الدول النامية . تتمثل احدى أنجح الروابط هذه في منظمة الاقطار المصدرة للنفط (أوبك) . فبما ان هذه الاقطار تكاد تحتكر تصدير النفط ، فقد نجحت الاوبك في الحصول على زيادة لسعر نفطها جعلته يبلغ خمسة اضعاف ما كان عليه في عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ . لكن ، بعدما اخفق بعض منتجي السلع الاولية في الوصول الى نفس القدر من النجاح الذي حققته الاوبك ، أخذت اسعار النفط العالية وازدياد اسعار البضائع المصنعة الناجم عن ازدياد سعر النفط تعود بالضرر على البلاد النامية نفسها مثل الهند التي لا تمتلك موارد نفطية . على الرغم من ذلك ، فان المثل الذي ضربته الاوبك كان له تأثير كبير على المنتجين الآخرين للمواد الخام ، مع ان الكثيرين من الاقتصاديين يرون ان مثل هذه الروابط او اتحادات المنتجين او الكارتيلات كما يسمونها لا يمكن لها ان تستمر طويلا ، لان العرض والطلب سيدفعان بالاسعار مرة اخرى في نهاية الامر الى الهبوط الى مستوى يمكن المحافظة عليه .

أدت رغبة الدول النامية في تغيير نظام التبادل التجاري العالمي الى مبادرات سياسية ايضا ، مثل مؤتمر الامم المتحدة الخاص بالمواد الخام الذي عقد عام ١٩٧٤ والذي تبنى برنامجا لاقامة «نظام اقتصادي دولي جديد» .

توقعات مستقبلية

ان نجاح الاوبك واحتمال تطور مثل تلك الاتحادات الخاصة بالمنتجين (الكارتيلات) والخوف من قيام الاضطرابات في العالم الثالث اذا ما بقيت مستويات الفقر على حالها ، كل هذه الاحتمالات حملت مجموعة الدول الصناعية على اصدار بعض التصريحات التي تنم عن القبول بالقيام على الاقل ببعض التنازلات .

الأمم المتحدة

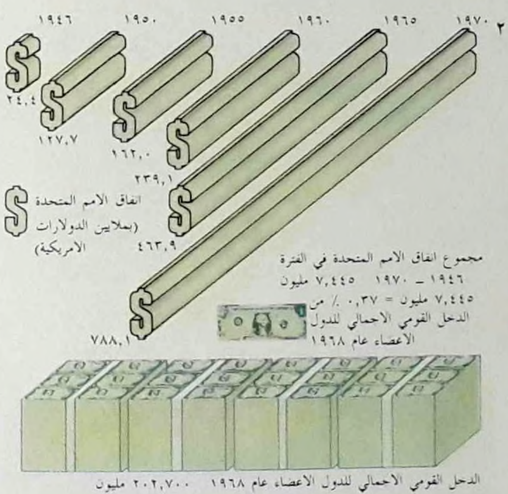
صاغ تعبير «الامم المتحدة» فرانكلين ديلانو روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) رئيس الولايات الامريكية المتحدة، واستخدم هذا التعبير لاول مرة في اعلان الامم المتحدة في اول يناير ١٩٤٢، عندما تعهّد ممثلو ٢٦ دولة باسم حكوماتهم بمواصلة القتال معا ضد دول المحور. ان الامم المتحدة الجديدة هي في الواقع اعادة تنظيم شبه كلي او صيغة حديثة لعصبة الامم السابقة لها.

اعدّ ميثاق الامم المتحدة من جانب ممثلي خمسين دولة في مؤتمر الامم المتحدة بشأن المنظمة الدولية المنعقد في سان فرانسيسكو في الفترة ما بين ٢٥

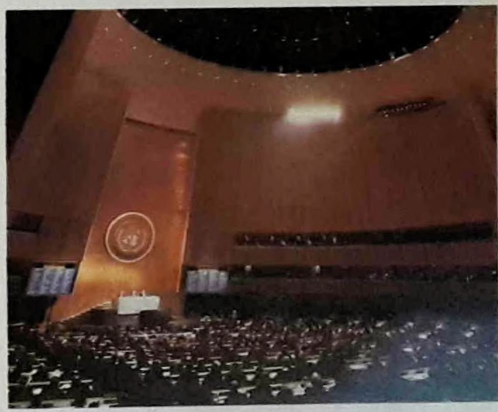
١



٢



٣





(١) ـ جوزيف بول بونكور (١٨٧٣ ـ ١٩٧٢) يوقع على ميثاق الامم المتحدة باسم فرنسا في الاجتماع الاول للمنظمة الذي عقد في سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥. ومنذ ان ذيّل الخمسون عضوا الميثاق بتوقيعهم تضاعفت عضوية الدول اكثر من ثلاث مرات. وبدخول الدول المستقلة حديثا في الامم المتحدة، فان هذه الدول قد اضعفت تدريجيا من سيطرة القوى العظمى على الامم المتحدة وهي السيطرة التي امتدت عشرين عاما.

(٢) ـ تحسب مساهمة الدول في ميزانية الامم المتحدة بالنسبة لدخلها القومي السنوي، وتدفع الولايات المتحدة معظم هذه الميزانية. والانفاق الاجمالي للامم المتحدة منذ عام ١٩٤٦ لا يعدو كونه مجرد جزء ضئيل جدا من الثروة التي تنتجها الدول الاعضاء سنويا.

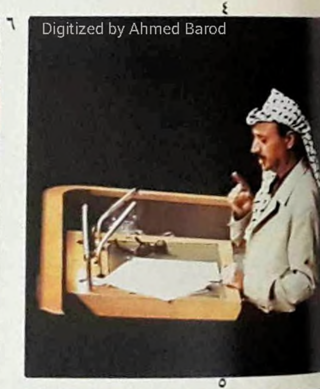
(٣) ـ الجمعية العامة للامم المتحدة هي «برلمان العالم». من صلاحياتها مناقشة اية قضية واقعة في نطاق الميثاق الا حين يكون مجلس الامن متناولا تلك القضية. قراراتها هي مجرد توصيات لا صفة الزامية لها، لكنها ذات وزن معنوي كبير.

ابريل و٢٦ يونيو ١٩٤٥ ، ووقع الميثاق في السادس والعشرين من ابريل ١٩٤٥ ، وبدأت الامم المتحدة اعمالها رسميا في الرابع والعشرين من اكتوبر ١٩٤٥ (١) .

السلام والامن

عضوية الامم المتحدة من الناحية النظرية مفتوحة امام جميع الدول المحبة للسلام التي تقبل بالالتزامات التي يفرضها ميثاقها . والواقع ان مبدأ عالمية الامم المتحدة قد تم قبوله بحيث انضمت جميع الدول المستقلة الى الامم المتحدة ، تعمل في سبيل ذلك ، فيما عدا سويسرا (التي تتمسك بمفهوم من الحياد الصارم) . وبحلول عام ١٩٧٦ كان هناك ١٤٤ عضوا في المنظمة . ليست الامم المتحدة حكومة عالمية ، كما انها ليست دولة عظمى . فجميع الدول الاعضاء هي دول

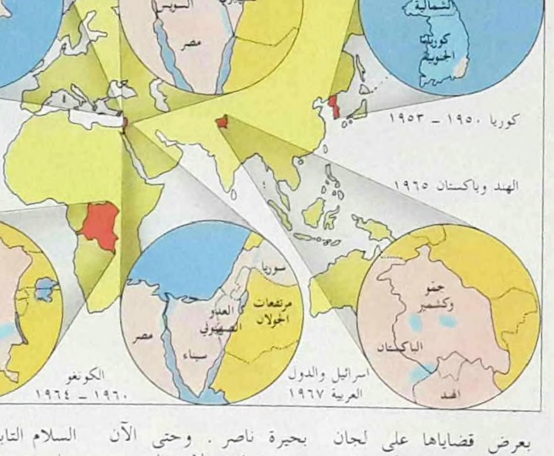
٤

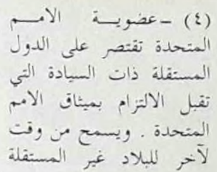


٥



٦





(٤) - عضوية الامم المتحدة تقتصر على الدول المستقلة ذات السيادة التي تقبل الالتزام بميثاق الامم المتحدة . ويسمح من وقت لآخر للبلاد غير المستقلة بعرض قضاياها على لجان الجمعية العامة ، ولكن الامم المتحدة اقدمت على سابقة عام ١٩٧٥ عندما سمحت لياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بالتحدث امام الجمعية العامة ذاتها وشرح قضية فلسطين .

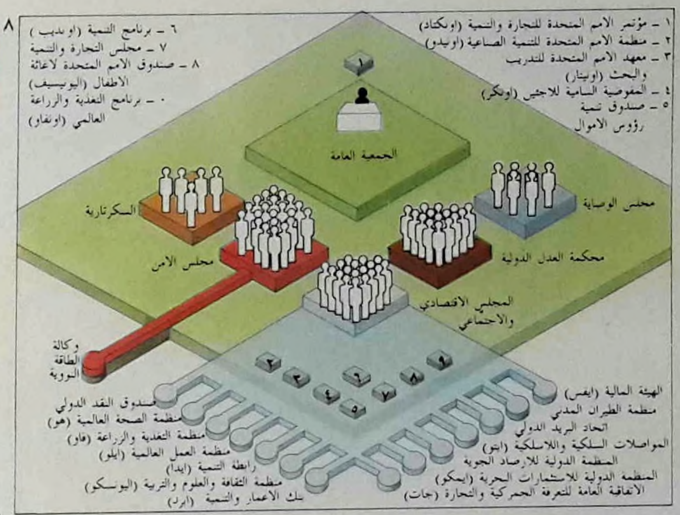
(٥) - انقذت وكالات الامم المتحدة وبخاصة اليونسكو الآثار الضخمة في أبو سمبل من الغرق في بحيرة ناصر . وحتى الآن فان نشاطات الامم المتحدة الثقافية ، شأنها في ذلك شأن نشاطاتها السياسية ، لا زالت اقل تأثيرا من نضالها المستمر ضد المرض والمجاعة من خلال نشاطات منظمة الصحة العالمية ومنظمة التغذية والزراعة .

(٦) - شهدت مناطق «التفجر» في جميع انحاء العالم حضور قوات حفظ السلام التابعة للامم المتحدة منذ ان تحركت المنظمة لمساعدة كوريا (١٩٥٠) . استخدمت تلك القوات لفصل القوات المتحاربة في الشرق الاوسط ، ولمراقبة النزاع المسلح وحفظ النظام الداخلي في الكونغو بعد الاستقلال (١٩٦٠ - ١٩٦٤) ، وفي قبرص حيث ادت النزاعات بين القبارصة الى غزو تركيا للجزيرة خلال عام ١٩٧٤ .

ذات سيادة وتتمتع بالمساواة . وينص ميثاق الامم المتحدة على أنها لا تتدخل في الشئون الداخلية لاي بلد الا اذا كانت تعمل من اجل المحافظة على السلام العالمي او اعادته .

في مجلس الامن لكل من الاعضاء الخمسة الدائمين (فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وجمهورية الصين الشعبية) حق النقض (الفيتو) . ولكن التناقضات في وجهات النظر – وبخاصة الحرب العقائدية الباردة بين الاتحاد السوفيتي والغرب – كان من شأنها انها مكنت هذه القوة العظمى او تلك من التصرف خلافا لرغبة الجمعية العامة ، على الرغم من ان قرار «الاتحاد من اجل السلام» الصادر عام ١٩٥٠ قد خوَّل الجمعية العامة الحق في ان توصي

٧



(٧) – تسيطر الجمعية العامة ومجلس الامن على الجانب «السياسي» للامم المتحدة . ولكن بجانب ذلك هناك اربع هيئات اخرى . فهناك المجلس الاقتصادي والاجتماعي (ايكوسوك) العامل تحت اشراف الجمعية العامة والذي يقوم بتنسيق عمل الامم المتحدة الاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك عمل ١٤ وكالة متخصصة . اما مجلس الوصاية ، فقد تأسس من اجل الاشراف على شئون ١١ اقليما موضوعة تحت الوصاية توصل واحد منها فقط الى نيل استقلاله هو جزر المحيط الهادىء . وهناك محكمة العدل الدولية ، وهي الجهاز القضائي الرئيسي للامم المتحدة ، وجميع اعضاء الامم المتحدة هي اعضاء فيها حكما ، ويمكنها احالة القضايا اليها ، وهي تتألف من خمسة عشر قاضيا ينتخبون من جانب الجمعية العامة ومجلس الامن منفصلين لفترة زمنية اولى من تسع سنوات . اما السكرتارية فهي تخدم جميع الاجهزة الاخرى وتتولى الناحية الادارية للبرامج والسياسات التي تضعها تلك الاجهزة .

٨



(٨) – بعد استئناف الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ ، اقرّ مجلس الامن امرين بوقف اطلاق النار اقترحهما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . واذ ظل القتال مستمرا ، اقترحت الثماني دول الاعضاء في مجلس الامن غير المنحازة ارسال مراقبين غير مقاتلين الى المنطقة بمهمة الاشراف على شروط وقف اطلاق النار .

باتخاذ التدابير الضرورية لابطال فعل الفيتو .

في ديباجة ميثاق الامم المتحدة تأكيد على الايمان بحقوق الانسان الاساسية ، وبكرامة الانسان وقيمته وبالحقوق المتساوية بين الرجل والمرأة . وتتمثل الخطوات الرئيسية الرامية الى تحقيق هذه الغاية في الاتفاقية حول حقوق المرأة السياسية (١٩٤٦) ، والاعلان العالمي لحقوق الانسان (١٩٤٨) ، واتفاقية الابادة الجماعية (١٩٥١) واتفاقية ازالة التفرقة العنصرية (١٩٦٥) .

العمل الاقتصادي والاجتماعي

تخصص الامم المتحدة حوالى ٨٠ ٪ من اعتماداتها لمساعدة الدول الفقيرة في تطوير مواردها البشرية والاقتصادية (٢) .

ويشرف المجلس الاقتصادي والاجتماعي على سبع لجان تقوم باجراء الدراسات ، ووضع التقارير ، واعداد مشروعات المعاهدات الدولية المتعلقة بموضوعات مثل حقوق الانسان ، والعقاقير المخدّرة . وهناك كذلك خمس لجان اقليمية ، واحدة لكل من افريقيا ، وغربي آسيا ، وآسيا ومنطقة المحيط الهادىء ، واوروبا ، وامريكا اللاتينية . ويتجلى اهتمام الامم المتحدة المتزايد بالنشاطات العملية الميدانية المباشرة في الخطوات المتسارعة لبرنامج الامم المتحدة للتنمية .

ظهور اغلبية جديدة

ظل ميزان القوى في الجمعية العامة للامم المتحدة حتى الستينات في صالح التحالف الغربي ويعود السبب في ذلك جزئيا الى التركيب الخاص بمجلس الامن . الا انه عندما بدأت البلاد المستعمرة تنال استقلالها في الستينات ، انضمت الى الامم المتحدة دول جديدة ذات تقاليد ومصالح مختلفة كثيرا جدا عن تلك الخاصة بالولايات المتحدة والديمقراطيات الاوروبية الغربية. وظهر تأثير هذه الدول الجديدة في الجمعية العامة حيث ازداد التركيز على شرور الاستعمار والتفرقة العنصرية وعلى الحاجة الى التنمية الاقتصادية . وتتمثل اغلبية الاصوات العددية اليوم في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والشرق الاوسط . وبحلول عام ١٩٧٤ بدا واضحا ان ميزان القوى في الجمعية العامة قد مال بصورة ايجابية لصالح مجموعة دول عدم الانحياز .

لم تظهر الآثار الكاملة لهذا التحول ، على اية حال ، الا في عام ١٩٧٤ عندما اقرت الدورة الخاصة للجمعية العامة اعلانا وبرنامج عمل لاقامة نظام اقتصادي عالمي جديد . فقد جاء في الاعلان ان الدول الاعضاء في الامم المتحدة تعلن بكل جد واهتمام عن تصميمها على العمل السريع من اجل «اقامة نظام اقتصادي جديد قائم على العدل والسيادة المتساوية والاعتماد المتبادل والمصالح المشتركة والتعاون بين جميع الدول ، بغض النظر عن انظمتها الاقتصادية والاجتماعية ، وهو النظام الذي سيؤمن التنمية الاقتصادية والاجتماعية المطردة والمتزايدة في السلم والعدل لصالح الاجيال الحاضرة والمستقبلة » .

تطوّر المجتمع العربي في القرن العشرين

شهد المجتمع العربي في القرن العشرين كثيرا من التغيرات والتطورات التي شملت عددا كبيرا من النظم والانساق والعلاقات الاجتماعية وأنماط السلوك والقيم ، وان كان لا يزال يحتفظ مع ذلك بكثير من الملامح التقليدية ، مما أدى الى نوع من الازدواجية والتناقض في المواقف والاحكام والتصرفات . وهذا أمر طبيعي نجد له مثيلا في كل المجتمعات اثناء فترات التغير والتحول . يمكن ان نرد هذه التطورات الى اربعة عوامل رئيسية هي : الزيادة الهائلة في عدد السكان ، والتطورات الاقتصادية وبخاصة ظهور النفط في بعض الاقطار ، وتزايد الاحتكاك

١ أ



٢ أ



ب



المادي والثقافي بالعالم الخارجي ، وأهم من كل ذلك النمو الكبير في وسائل الاتصال والانتقال (١) .

التكاثر السكاني والتطورات الاقتصادية

أدى هذا التكاثر في الاقطار الزراعية بوجه خاص الى اختلال التوازن بين الموارد البشرية والطبيعية . ترتب على ذلك هجرة اعداد كبيرة من السكان من الريف، الى المدن . ونجم عن ذلك ارتفاع معدلات التحضر بسرعة فائقة من ناحية ، وترييف المدن من الناحية الاخرى . احتفظ الوافدون الريفيون باسلوب حياتهم وانماط معيشتهم التقليدية التي تتعارض مع اسلوب الحياة الحضرية . واتخذ التحرك السكاني ، وخاصة منذ الخمسينات ، شكل الهجرات الى مناطق الثروة النفطية التي تعقد فيها التركيب السكاني والثقافي البعيد . بدأت في الثلاثينات بالاذاعة المصرية ثم (الشرق الادنى) في القدس و (راديو الشرق) في بيروت وشملت بالتدريج الاقطار العربية (مع الاذاعات الاجنبية) . أعطاها التأثير المتفجر في الخمسينات تغلغل الترانزيستور حتى اعماق القرية والبادية وقد وازاها انتشار السينما (من اجنبية وعربية) ، ثم توفر التلفزيون في الستينات ، لتكون ثورة التغيير الاجتماعي .

ب



(١) ـ قبل ان تكتسح وسائل الاتصال الحديثة المجتمع العربي ، صحافة واذاعة وسينما وتلفزيونا واغنية ، كان لهذا المجتمع وسائل اتصاله في «الحكواتي» (او المداح) ، وفي الاسواق الدورية ، وخاصة في دكان الحلاق (أ) الذي كان المركز الثقافي للاخبار والحكايا ومعرفة المجريات العرفية ، او المقهى . شبكة اخرى مختلفة من وسائل الاتصال الغت وظيفة هذا المركز او ذاك . كان أولها الصحف التي تكاثرت بشكل واضح بعد الحرب الاولى . وجاء «الحاكي» فتصدر البيوت ونزل المقاهي ، كما في هذا المقهى الفلسطيني (ب) في العشرينات لينشر الاغنية العربية وليعطي دورها في التعبير الاجتماعي وبخاصة في كشف العواطف ، واثارة المشاعر الوطنية (أغاني سيد درويش) او النقد السياسي (كأعمال بيرم التونسي وعمر الزعني) . وجاءت الاذاعات فحملت مع الاغنية الاخبار والحديث الثقافي الى المجال

(٢) ـ ثورة وسائل الانتقال المستمرة ، بكل تقنيتها وابعادها لم تتأخر في دخول الوطن العربي وفي ازاحة وسائله القديمة الحيوانية الى الريف اولا ثم الى الصحراء (أ) فهي اليوم في طريق التقنية . شبكات الطرق (ب) ووسائل النقل المتطورة ليست اجتماعيا مجرد مظاهر مادية آلية ولكنها فتحت الباب عمليا لانصباب الغرب في الشرق ، وقربت الجماعات العربية المتباعدة وكسرت عزلة عدد من البقاع بالاضافة الى انها ادخلت مفهوما جديدا للزمن .

بهذه الهجرات وامتصت من المجتمعات التقليدية يدها العاملة والخبيرة .

ومن جهة اخرى فقد جاءت التطورات الاقتصادية لتزيد في عملية التغير الاجتماعي . فقد نجم عن ظهور المعامل والمصانع الحديثة والاصلاح الزراعي ، في عدد من الاقطار العربية ، تكون طبقات عمالية مؤثرة في المدن ، وانهيار العلاقات الزراعية الاقطاعية السابقة ، وانقراض عدد من الحرف مع ما يتبع ذلك من تطورات في القيم والمفاهيم ، ومن مواقف جديدة سياسية واقتصادية واجتماعية ، ومن انتشار التعليم ، ومن التغير الكامل في أمور الحياة اليومية وفي الزي والملابس وغطاء الرأس (للذكور والاناث) بل وفي المسكن وشكله ووظيفته .

التأثر المادي والثقافي بالعلم الخارجي

هذا الاتصال ، الذي بدأ في القرن





(٣) ـ الحجاب الذي احتل ٣ أ الواجهة في قضية المرأة العربية كان مشكلة نساء المدن اللواتي كن لا يعملن الا ضمن جدران البيت (أ) . نساء الارياف والجبال والبادية حجابهن كان دوما أقل قسوة . ومع ذلك فقد أتى التغير الاجتماعي على الحجاب او يكاد في المدن بينما بقي أقل تأثيرا بكثير في الريف البدو حيث تعمل المرأة في الحصاد وجمع الحطب ورعاية الثروة الحيوانية وحتى في بناء البيت وتزيينه وفي الغزل (ب) والنسيج . التطور الاجتماعي ب الاساسي الذي اصاب المرأة بجانب الحجاب كان في أمرين : التعليم الذي أضحى مفتوحا لها في جميع مستوياته في كل مكان ، وفي الريف كما في المدن . أما الثاني فقضية العمل . فالمرأة العربية اليوم تشغل الوظائف العامة بما فيها منصب الوزارة والتمثيل الدبلوماسي وادارة المؤسسات ولها مساواة الحقوق مع الرجل وحق الانتخاب احيانا مع تقييد الطلاق وتعدد الزوجات .

الماضي بداية متواضعة بزيارات الاوروبيين للشرق وببعثات طلابية ، صار بعد قرن وبعض القرن تيارات هائلة ذاهبة آيبة من البشر والانتاج المادي والفكري بين العالمين المتجاورين . مع البضائع والتقنيات المستوردة جرت عمليات تأثير ثقافي طويلة خضع لها العالم العربي لانه الاضعف ، وتمثلت في اقتباس نظم التعليم واعتناق الايديولوجيات والفلسفات الغربية ، ومحاكاة اسلوب الحياة وانماط السلوك الاجنبية ، وتقبل الكثير من القيم والمعايير الاخلاقية التي قد تتعارض مع القيم العربية الاصلية ، وأدى ذلك كله الى حدوث تغيرات هامة في بناء المجتمع العربي وقيمه وتقاليده .

وهكذا تغير التكون الطبقي القديم ، وبدأت تتبلور طبقة وسطى جديدة تختلف كل الاختلاف عن البرجوازية التقليدية التي كانت تستمد كيانها من الانتماء العائلي ، او ملك الارض او المال او النفوذ السياسي . الطبقة الجديدة تتألف من الموظفين وأصحاب الكفايات الجامعية والفنية العالية ومن اليهم ، أي انها تستمد مقوماتها من التعليم ومن المركز الاجتماعي الذي تحتله بحكم ذلك التعليم . دخل الى هذه الطبقة بعض افراد البرجوازية التقليدية ولكن على هذه الاسس الجديدة .

وربما كان أهم التغيرات هي تلك التي طرأت على البناء التقليدي للاسرة وعلى العلاقات الاسروية . فقد ازداد شعور الفرد بشخصيته المستقلة نتيجة التعليم والاستقلال الاقتصادي . وانعكس ذلك في اضمحلال مفهوم الاسرة الكبيرة وفي التمرد على السلطة التقليدية (الآب او الزوج) ، وحققت المرأة درجة عالية من التحرر من المعايير التقليدية (٣) .

وسائل الاتصال والانتقال

ما كان لكل تلك المؤثرات ان تلعب دورها الحاسم لولا التطوير الهائل والمتسارع باستمرار في وسائل الاتصال والانتقال . الاتصال الجماهيري بدأ أواسط القرن الماضي بصحيفة واحدة ليصبح بعد قرن وبعض القرن مئات الصحف المتنوعة والموزعة بكل مكان ، ومعها الاذاعات التي دخلت الاجواء في الثلاثينات واعطاها الترانزيستور اثرها البالغ في الخمسينات . يضاف اليه الغزو السينمائي الواسع وانتشار التلفزيون الذي لحق في الستينات .

ليس أقل من ذلك اثرا تحول وسائل الانتقال من الوسائط الحيوانية القديمة الى الآلية الحديثة (٢) . وهكذا عرف المجتمع المدني ثم الريفي ثم البدوي القطار الحديدي اولا منذ اواسط القرن الماضي في مصر ثم السيارة في عشرينات هذا القرن ، وثم الطائرة بعد ذلك (سلاحا اولا ثم وسيلة نقل) . وهكذا تقلصت المسافات وتقلصت معها اوهام واعتبارات وقيم اجتماعية كثيرة .

هذا يعني أن التغيرات والتطورات في العالم العربي تسير ببطء ولكن باطراد . وهي بالمقارنة مع الاوضاع في اواخر القرن الماضي تكاد تكون ثورة اجتماعية شاملة .

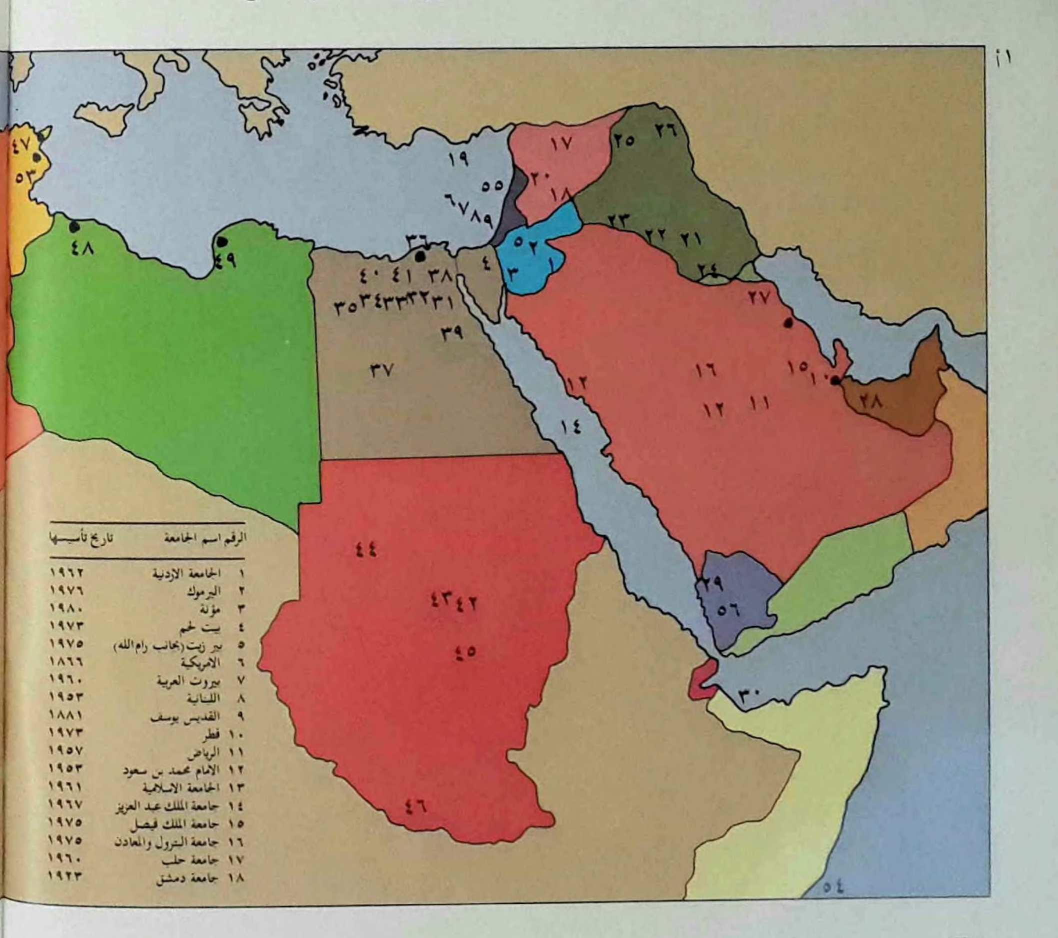
التربيـة في الوطن العربي حتى أواسط القرن العشرين

واقع التربية في الوطن العربي ، في ماضيه وحاضره ، هو محصلة العوامل والظروف التاريخية التي تعرض لها المجتمع العربي ، وأثرت فيه خلال اكثر من قرن ونصف القرن . الوان القوة والضعف في التربية متجاوبة مع ما في حركة المجتمع نفسه من اتجاهات نحو التغيير ، وما يصطدم به من تحديات وصعوبات اجتماعية موروثة او مفروضة ، ومن فقر اقتصادي او ضغط استعماري .

المسيرة الاولى

النظم التعليمية الاسلامية الموروثة كانت هي السائدة في جميع انحاء الوطن

أ



الرقم	اسم الجامعة	تاريخ تأسيسها
١	الجامعة الاردنية	١٩٦٢
٢	اليرموك	١٩٧٦
٣	مؤتة	١٩٨٠
٤	بيت لحم	١٩٧٣
٥	بير زيت (بجانب رام الله)	١٩٧٥
٦	الاميركية	١٨٦٦
٧	بيروت العربية	١٩٦٠
٨	اللبنانية	١٩٥٣
٩	القديس يوسف	١٨٨١
١٠	قطر	١٩٧٣
١١	الرياض	١٩٥٧
١٢	الامام محمد بن سعود	١٩٥٣
١٣	الجامعة الاسلامية	١٩٦١
١٤	جامعة الملك عبد العزيز	١٩٦٧
١٥	جامعة الملك فيصل	١٩٧٥
١٦	جامعة البترول والمعادن	١٩٧٥
١٧	جامعة حلب	١٩٦٠
١٨	جامعة دمشق	١٩٢٣

العربي في مطالع القرن التاسع عشر ، سواء في الطرائق والمناهج او في مادة التعليم او في الابنية والادوات ، وتتركز كلها في العلوم الدينية في الدرجة الاولى . تبدأ بالكتّاب (او المسيد) حيث يتعلم الطفل القرآن ، ومبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ثم تنتقل الى الدراسة على الشيوخ في المساجد ، او المدارس الموقوفة ، او في بيوت الشيوخ انفسهم .

اخترق هذا النظام تدريجيا ، وتبدل بعوامل عديدة :

ـ المدارس على النمط الحديث التي فتحت في مصر (والشام) منذ ايام محمد علي وفي تونس اواسط القرن ١٩ ، وفي الشام والمغرب اواخر القرن نفسه ، ومشت على المناهج المقتبسة عن الغرب .

ـ المدارس التبشيرية التي أسستها في الشام ومصر وفي المغرب بعثات التبشير .

ب





(١) ـ مسيرة التربية مشت من الكتاب او المسيد (أ) الى المدرسة النظامية الحديثة ، ومن حلقات المساجد والمدارس التراثية الى المقاعد الجامعية العصرية . التبدل التدريجي اوصل الكتاتيب الى ما يشبه الانقراض الا في المواقع النائية الفقيرة ، وجعل الحلقات التقليدية مجرد بقايا . التعليم العالي بدأ فعلا منذ سبعينات القرن الماضي . ظهر في الكلية السورية البروتستانية (١٨٦٦) التي تحولت كلية جامعية (الجامعة الامريكية) ، وفي الكلية اليسوعية (١٨٨١) التي سميت جامعة القديس يوسف ، ثم نشأت الجامعة المصرية بمبادرة أهلية (١٩٠٨) ، وظهرت جامعة فرنسية في الجزائر (١٩٠٩) ، وأخرى انجليزية في ام درمان (١٩١٢) ، ثم ثالثة امريكية في القاهرة (١٩١٩) ، والجامعة السورية (١٩٢٣) . لم تظهر حتى الخمسينات سوى جامعة الاسكندرية (١٩٤٢) وعين شمس (١٩٥٠) . وصل العدد اول الثمانينات الى ٥٦ جامعة .

ـ الاتصال بنتائج العلوم الغربية من طب ومبتكرات علمية وأدوات حديثة سواء عن طريق الرحلات والسفر ، او عن طريق الاستيراد والاستخدام .

نتيجة ذلك كله صار «العلم الحديث» مطلبا من المطالب الاساسية لرجال النهضة العربية . لم يلغ النظام الموروث الذي كانت له مراكزه التقليدية القوية المستندة الى المشاعر الدينية ، وبخاصة في القرويين والزيتونة والأزهر والنجف، ولكن النظام التربوي الجديد نما تدريجيا بجانبه ، وأخذ يستلب منه التلاميذ والشأن ببطء في القرن الماضي ، ولكن في ثبات مستمر وتسارع بعد ذلك . في مطالع القرن العشرين كان ثمة نواة واضحة لنظم تعليمية حديثة مستقرة .

التربية العربية بين الحربين

خرجت البلاد العربية من الحرب

٢



(٢) ـ الارقام المتصلة بالامية في الوطن العربي تناقصت منذ مطلع القرن حتى أواسطه بين ١٠ ٪ الى ٣٠ ٪ حسب المناطق . لكن الرقم العام بقي يشير الى نسبة تصل الى ٧٠ ٪ من السكان . لهذا كانت حرفة الكاتب العمومي (العرضحالجي) شائعة ثم تضاءلت . مشاريع القضاء على الامية في بعض الاقطار ، كمصر ، كان التكاثر السكاني يسبقها ، بينما الميزانية المتواضعة في اقطار اخرى هي العائق .

٣



(٣) ـ ما كادت آلات المطابع العربية تشيع ، منذ اواسط القرن الماضي ، حتى انتشرت معها عن سعة حرفة بيع الكتب وجميع المكتبات الخاصة ، بعد أن كانت حكرا على من يطيق شراء المخطوط او نسخه . أسهم ذلك في معونة التعليم ونشر القراءة . ظهرت دور الكتب العامة مبكرة . (دار الكتب المصرية) أنشأها علي مبارك عام ١٨٧٠ .تلاها انشاء مكتبة بلدية الاسكندرية . مع جامعة الجزائر (١٩٠٩) انشئت مكتبة صارت أهم مركز بيبليوغرافي في المغرب العربي (٦٠٠ الف مجلد) ، لكن كتلة كتبها فرنسية . في عام ١٩١٩ انشئت دار الكتب الظاهرية بدمشق . في الثلاثينات كانت لعدد من المدن العربية مكتباتها العامة ، وخاصة في العواصم (مثل بغداد ، بيروت ، الرباط) وفي المدن التراثية (مثل فاس ، القيروان ، حلب) . وشاعت صناعة الكتاب حتى صارت مكتبة الرصيف ظاهرة مألوفة ، كهذه المكتبة امام جامع الكتبية في مراكش .

العالمية الاولى وكلها (عدا اليمن والسعودية) تحت القبضة الاستعمارية. ولم يكن النظام الاستعماري بالذي يهتم بتربية أبناء البلاد المستعمرة، بالاضافة الى أن الفقر الاقتصادي كان يلعب دوره في ازاحة الاهتمام بالتعليم امام المطالب الملحة الاخرى سواء على المستوى الحكومي او الفردي. ومع تراجع النظام التعليمي القديم بوضوح لم يسجل تطور التربية والتعليم طفرات واضحة بين الحربين، وان ظل الايمان بضرورة العلم للنهضة يزداد ويقوى. وهكذا فان التزايد العددي للطلاب ظل مطردا ولكن بنسب محدودة تتراوح بين ٣٪ و ٥٪. عدد التلاميذ الجزائريين في المدارس الرسمية لم يتجاوز في اي وقت ٥,٥٪ من عدد اولئك الذين هم في سن التعليم، بينما كان لكل تلميذ فرنسي في المغرب كله مكان في مدرسة، حتى ولو لم تكن في البلد الذي يسكنه اهله. أعلى معدلات الزيادة كانت في مصر. اما نظم التعليم فقد اتبع النظام الفرنسي كاملا في سوريا ولبنان وفي المغرب، سواء في مراحل الدراسة او في المناهج، مع فرض الفرنسية لغة التعليم في المغرب. واتبعت النظم الانجليزية في العراق ومصر وفلسطين والسودان، والايطالية في ليبيا. وكان المسؤولون الاساسيون عن التعليم من الجهاز الاستعماري.

اما التعليم العالي فكان يعتمد على البعثات التعليمية لاوروبا وعلى الجامعات المحلية. وكانت البعثات الرسمية – حسب السياسة الاستعمارية – محدودة الاعداد، تؤخذ من ابناء الطبقات المضمونة في الولاء، وتوجه الى الدراسات النظرية في الغالب كما تقصر كل دولة ارسالها على البلد المستعمر. الطبقات الميسورة كانت بدورها تفعل ذلك وتبعث بابنائها الى البلاد المستعمرة. اما الجامعات في الوطن العربي فلم تكن تزيد في العدد على ثماني جامعات حتى سنة ١٩٥٠ واربع منها في مصر، واثنتان في بيروت، وجامعة في كل من دمشق والخرطوم (١).

التربية والتعليم بعد الحرب الثانية

رغم مختلف الكوابح الاستعمارية والاقتصادية، اتجهت حركة التربية والتعليم في الوطن العربي نحو ديمقراطية التعليم، واتاحة اكبر الفرص لاكبر عدد من الصغار للدراسة. ساد الاعتقاد ان الاستقلال السياسي لا بد ان يستند الى حركة تعليمية واسعة تتدرج من القاعدة الى القمة في التعليم الثانوي. لهذا خضع التعليم بجميع مراحله لهذا الخط الاستراتيجي دون ان يلتفت حتى الى الاولويات التي يقتضيها هذا الخط. بدأ ذلك باقرار مبدأ الزامية التعليم ومجانيته. اعلن ذلك في مصر ١٩٥٠ ثم في البلاد الاخرى. وسيطرت فكرة التوسع العددي بصورة عامة، دون النظر الى مستلزماتها من موارد وامكانات. هكذا تضاعف خلال الخمسينات عدد الملتحقين بالمدارس الابتدائية، وازداد عدد الملتحقين بالثانويات الى ثلاثة امثالهم، كما تضاعف الملتحقون بالتعليم العالي.

الأدب العربي الحديث حتى أواسط القرن العشرين

ترافقت نهضة الادب العربي الحديث مع حركة النهضة العربية في القرن الماضي ، وكانت التعبير العميق عنها ، والمحرض القوي لها ، كما تبادلت معها عوامل التأثر والتأثير . وبعد ان كان الانتاج الادبي قبل اواسط القرن الماضي قد انتهى الى الجفاف والجمود سواء في الشعر او النثر ، واثقل بالتشطير والتخميس وبالسجع اللفظي والبديع المتكلف ، ساهمت عوامل عديدة متنوعة منها السياسي ومنها الاقتصادي والثقافي في تحريك الاجواء الادبية .

اخذ الفكر الادبي يتمرد مع الفكر السياسي ، على التقليد والجمود ويفتش عن طريق اخر تحت تأثير الصحافة النامية من

١

من كتاب هذه الفترة	الموطن	أهم الانتاج
محمد ابراهيم المويلحي (١٨٥٨ ـ ١٩٣٠)	مصر	حديث عيسى بن هشام
مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤)	مصر	النظرات ، العبرات
طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣)	مصر	على هامش السيرة
ابراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ ـ ١٩٤٩)	مصر	ابراهيم الكاتب
عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤)	مصر	٧٠ كتابا
زكي مبارك (١٨٩١ ـ ١٩٥٢)	مصر	ليلى المريضة
عبد العزيز البشرى (١٨٨٦ ـ ١٩٤٣)	مصر	في المرآة
مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧)	مصر	وحي القلم
أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)	مصر	وحي الرسالة
احمد امين (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤)	مصر	فيض الخاطر
محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥)	مصر	في الميزان الجديد
احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧)	لبنان	الساق على الساق
مي زيادة (١٨٨٦ ـ ١٩٤١)	لبنان	باحثة البادية
أمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠)	لبنان	ملوك العرب
ناصيف اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦)	لبنان	الغرائد الحسان
مارون عبود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢)	لبنان	محددون مجترون
عمر فاخوري (١٨٩٦ ـ ١٩٤٦)	لبنان	الباب المرصود
جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١)	المهجر	النبي
ميخائيل نعيمة (ولد ١٨٨٩)	المهجر	مرداد
أديب اسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٩٩)	سورية	الدرر
عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢)	سورية	ام القرى
عبد الحميد الزهراوي (١٨٥٥ ـ ١٩١٦)	سورية	الفقه والتصوف
ماري عجمي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦)	سورية	مختارات
روفائيل بطي (١٩٠١ ـ ١٩٥٦)	العراق	الربيعيات
محمد الفاضل بن عاشور (١٩٠٩ ـ ١٩٧٠)	تونس	اعلام الفكر
البشير الغورلي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤)	تونس	العالم الاسلامي
مالك بن نبي (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣)	الجزائر	٣٠ كتابا

جهة ، والادب المترجم من جهة اخرى ، والبحث عن الجمهور من جهة ثالثة . فالصحافة غيّرت اللغة الادبية في الصياغة فطردت السجع ، وغيرتها في المضمون فالغت اللعبة اللفظية ، والمترجمون الذين وفد الكثير منهم من الشام الى مصر طرحوا على نطاق واسع ادبا غربيا (مسرحيا وقصصيا) اقبل عليه الناس بلهفة لانه طريف غريب . اسهم في الترجمة نجيب حداد ، وعثمان جلال ، وسليمان البستاني ، ثم طانيوس عبده وفتحي زغلول ، واخيرا اخذ الادب يبحث عن جمهور اوسع من الدوائر الارستقراطية المحدودة التي كان يعيش على فتاتها . صار الشعراء والادباء والكتاب يتجهون في انتاجهم الى جمهور من المتعلمين والقراء والى الطبقات الاجتماعية الناشئة ويحاولون التعبير عن مشاعر جديدة تجد الصدى لديها . من هذا كله نشأ تيار

من كتّاب هذه الفترة	الموطن	أهم الانتاج
محمد البشير الابراهيمي (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥)	الجزائر	عيون البصائر
محمد بن عباس القباج	المغرب	الادب العربي في المغرب الاقصى
محمد الصباغ	المغرب	العبير الملتهب


أ
في الشعر الجاهلي
تأليف
طه حسين
أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية
[الطبعة الأولى]
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م

ب
تحت راية القرآن
المعركة
بين القديم والجديد
(مقالات الأدب العربي في الجامعة المصرية ، والرد على كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين ، وإسقاط البدعة الجديدة التي يريد دعاتها تجديد الدين واللغة والشمس والقمر ...)
تأليف المرحوم
مصطفى صادق الرافعي

(٢) ـ احتدمت فيما بين الحربين معارك ادبية عنيفة متعددة المواقع ، في مصر كما في العراق وفي تونس كما في الشام ولكن الباعث عليها كان واحدا هو الصراع بين القديم والجديد. اخذت المعركة في تونس شكل الرفض لتنصيب أمير للعشراء هناك من جانب مجلة (العالم الادبي). وفي الشام احتدم الصراع بين انصار الفكر الحر الغربي المتخرجين من الجامعات الاوروبية، وبين انصار التراث والتقليد ، على ان اعنف المعارك كانت في مصر. واذا كانت قد بدأت منذ مطالع العشرينات بالهجوم الذي شنه المازني والعقاد في «الديوان» سنة ١٩٢١ ضد شوقي وحافظ ، الا ان المعركة بلغت اوجها حين طرح طه حسين كتابه «في الشعر الجاهلي» (أ) سنة ١٩٢٦ مشككا في صحة هذا الشعر وما يتصل به، فاحدث ضجة واسعة بين رجال الازهر والناس وكتبت الكتب والمقالات العديدة ضده، ووصل الجدل الى البرلمان والجامعة، وكان اعنف المدافعين عن الخط التقليدي التراثي هو مصطفى صادق الرافعي في كتابه ضد طه حسين بعنوان «تحت راية القرآن» (ب) ، وكتابه ضد العقاد (على السفود) . وقد اضطر طه حسين فيما بعد الى تعديل كتابه ونشره بعنوان (في الادب الجاهلي).

الادب الحديث . وكان طبيعيا ان تلتفت الانظار الى شاعر ذي وجاهة سياسية عسكرية مثل محمود سامي البارودي يأتيها بشعر قوي جديد ، او مثل محمود قابادو في تونس ، والى شعر اسماعيل صبري الوجداني الانيق ، او شعر الزهاوي المتحرر وشعر الكاظمي في العراق . كما كان طبيعيا ايضا ان ينفق لدى الناس النثر الجديد المرسل ، المتحرر من السجع واللفظية ، والذي اخذ يكتبه الكتاب والصحفيون واصحاب الاساليب الحديثة المتجاوبة مع حركة العصر والتحرر .

الشعر

الخط الشعري الذي بدأه البارودي في مصر وصل قمته في ثالوث الشعراء المعروف : احمد شوقي الذي نصب اميرا للشعراء وحافظ ابراهيم وخليل مطران الوافد

٣

من شعراء هذه الفترة	الموطن	أهم الانتاج
محمود سامي البارودي (١٨٤٠ ـ ١٩٠٤)	مصر	ديوانه ، مختارات
أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢)	مصر	الشوقيات ، المسرحيات
حافظ ابراهيم (١٨٧٢ ـ ١٩٣٢)	مصر	ديوانه ، ليالي سطيح
خليل مطران (١٨٧١ ـ ١٩٤٩)	مصر	ديوانه
أحمد زكي ابو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥)	مصر	الشفيق الباكي
علي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩)	مصر	الملاح التائه
خير الدين الزركلي (١٨٩٣ ـ ١٩٧٧)	سورية	ديوانه
خليل مردم (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩)	سورية	ديوانه
بدوي الجبل (١٩٠٣ ـ ١٩٨١)	سورية	ديوانه
عمر ابو ريشة (ولد ١٩٠٨)	سورية	ديوانه
بشارة الخوري (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)	لبنان	الهوى والشباب
الياس ابو شبكة (١٩٠٤ ـ ١٩٤٩)	لبنان	افاعي الفردوس
أمين نخلة	لبنان	دفتر الغزل
الشاعر القروي (ولد ١٨٨٧)	المهجر	ديوان القروي
ايليا ابو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧)	المهجر	الجداول ، الخمائل
فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠)	المهجر	على بساط الريح
ابراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١)	فلسطين	ديوان
عبد المحسن الكاظمي (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)	العراق	ديوان
معروف الرصافي (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥)	العراق	ديوان
محمد رضا الشبيبي (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥)	العراق	ديوان
جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦)	العراق	الديوان ، الرباعيات
محمد مهدي الجواهري (ولد ١٩٠٠)	العراق	ديوان ٧ أجزاء
محمود قابادو (١٨١٤ ـ ١٨٧١)	تونس	ديوان
ابو القاسم الشابي (١٩٠٦ ـ ١٩٣٤)	تونس	اغاني الحياة
محمد العيد (ولد ١٩٠٤)	الجزائر	ديوان
بشير الحاج علي (ولد ١٩٢٠)	الجزائر	ديوان
عبد الله القباج (ت ـ ١٩٤٥)	المغرب	ديوان

من لبنان . مدرستهم الشعرية كان لها من يمثلها في العراق كالرصافي ، وفي الشام كخليل مردم وجبري ، وفي تونس مثل الخزندار الذي اعطى بدوره امارة الشعر هناك . لكن تزايد الجماعات الشعرية وتطور مفاهيمها سرعان ما خلق في العشرينات من هذا القرن معركة القديم والجديد . ظهر جيل جديد يتهم شعر هؤلاء بأنه مجرد رنين لفظي ، وبأنه لا يمثل روح العصر ، ولا يعبر عن المشاعر الانسانية . ظهرت المعركة في اكثر من بلد : في تونس حيث قادها الثالوث الرومنسي : (البشروش والشابي ومحمد الحليوي) ، وفي العراق والشام ولبنان ، الا انها بكرت في الظهور واخذت اقوى اشكالها في مصر حيث قادها العقاد والمازني وكتبوا المقالات والكتب العنيفة ضد الجيل الاول التقليدي . كان من نتيجة هذه المعارك بروز الجيل التالي بشعر جديد لم يحطم الاوزان الشعرية ، ولكن جدد في الصور والاسلوب والمشاعر . من هذا الجيل كان احمد زكي ابو شادي الذي اسس جماعة ابولو (١٩٣٢)، وكان علي محمود طه وابراهيم ناجي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٣) في مصر ، وبشارة الخوري وابو شبكة ويوسف غصوب (١٨٩٤ ـ ١٩٧٢) في لبنان ، وابو ريشة في سورية ، والجواهري في العراق ، والشابي ومصطفى خريف وابن تومرت (ولد ١٩١٧) وطوقان في فلسطين .

أهم ما طرأ على الشعر الحديث في هذه الفترة امران : ظهور الشعر المجهري بما فيه من غنائية وحنين وصوفية وعاطفة ورومانتيكية ، نجد نماذجها لدى ابو ماضي وفوزي وشفيق المعلوف والياس فرحات ، ونسيب عريضة (١٨٩٠ ـ ١٩٤٥) . اما الامر الثاني : فهو ظهور ما سمي بالشعر الحر او المنثور تحت تأثير المهجر والشعر الغربي .

النثر

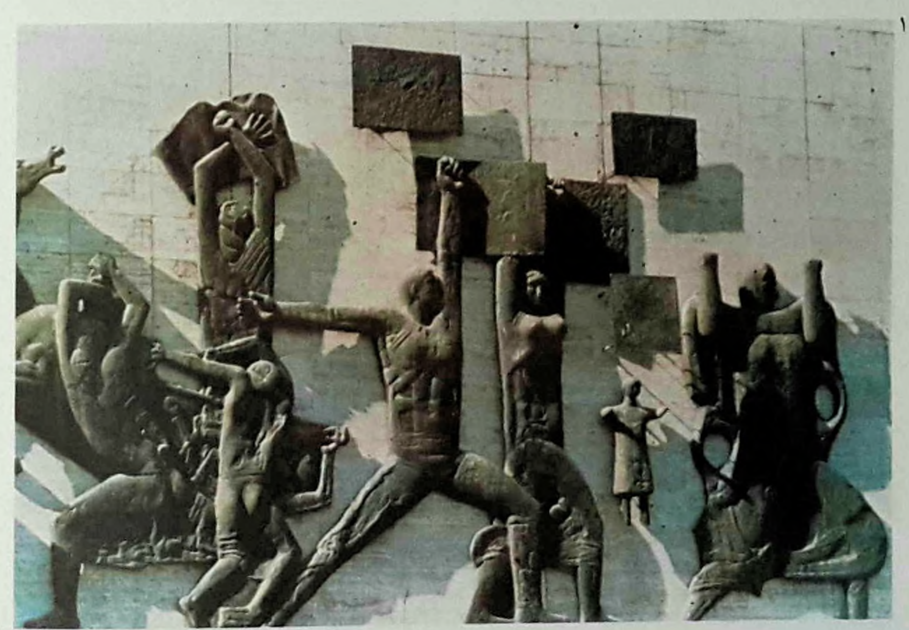
تأثر النثر العربي بما تأثر به الشعر . وازدهر بدوره بما قدمته اجيال متتابعة من الكتّاب لا في مصر وحدها ، كطه حسين وهيكل والرافعي ، ولكن في الشام والعراق وتونس والمغرب على السواء . كما قامت في النثر المعارك العنيفة من اجل التجديد ، لعل اهمها ، المعركة حول كتاب (في الشعر الجاهلي) (٢) . ساعد تكاثر المجلات على تطور الانواع الادبية كلها ، وأعطاها ايضا مواضيعها الاثيرة التي تمثلت عامة في اتجاهين : التحرر الاجتماعي والتحرر السياسي . بالاضافة الى ذلك ساعدت الدوريات الادبية على توطد وانتشار النوعين الادبيين الجديدين : المقالة بانواعها (من ادبية واجتماعية وسياسية خاصة) ، والقصص وهي التي اكتسحت السوق الادبية بعد الرواج الذي شهدته في الدوريات قبل الحرب الاولى وبعدها سواء كانت رواية ام اقصوصة . لا يكاد يوجد اديب لم يجرب حظه فيها : اسماء تيمور والحكيم ومحفوظ والارناؤوط ونوري والبشروش وابن جلون وغلاب هي في الوقت نفسه اسماء كتاب مارس بعضهم المقالة ، وبعض آخر الشعر ، وهم انفسهم مع الآخرين الذين نقلوا القصص من التقليد الى الالوان المحلية الصميمة ، ومن الحكاية الى شكل القصة الفني ، ومن القصص الرومانتيكي والخيالي الى الواقعية الاجتماعية .

الفنون التشكيلية العربيّة حتى أواسط القرن العشرين

على الرغم من اقبال السلطان محمود الثاني على الفنون الغربية وظهور عدد من الرسامين في اسطنبول تأثروا بالفنّين الايطالي والفرنسي، وقدوم عدد من الفنانين الغربيين الى المغرب ومصر والشام وتركيا يرسمون الشرق الطريف، فان ظهور التصوير في البلاد العربية لم يبدأ قبل القرن العشرين.

الرواد الاوائل في المشرق

في لبنان كانت البداية بسبب كثرة اتصاله بالغرب، وتراث الفن الايقوني، وتشجيع الكنيسة والارساليات. مع ذلك فأقدم الفنانين لم يظهروا قبل اواخر القرن



(١) - في قلب بغداد يقوم هذا النصب البرونزي المسمى «نصب الحرية»، (١٩٦٠)، وهو لوحة واحدة تشكل أضخم عمل نحتي عربي معروف، يمثل الثورة والنهضة العربية. أسلوبه مستوحى من فن الرافدين، ويتألف من مجموعة من المواضيع المستقلة المتكاملة. منها الحصان الجامح (رمز الاصالة)، ورواد الثورات، والطفل (رمز الامل والمستقبل)، والام، والمفكر السجين. صاحب النصب جواد سليم (١٩١٨ - ١٩٦٢) عراقي درس في باريس ١٩٣٨ أعمال رودان وفي لندن. له تلاميذ كثيرون. هاجسه الاول هو الاصالة.



(٢) - ابو النحت العربي الحديث هو محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٤). درس بمدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٠٨ - ١٩١٢

الماضي ، امثال داوود القرم الذي درس في روما (١٨٢٥ – ١٩٠٠) . ثم ظهر الجيل التالي امثال قيصر الجميل (١٨٩٨ – ١٩٦٩) (٥) ، مصطفى فروخ (١٩٠٢ – ١٩٥٧) ، وصليبا الدويهي(١٩١٢ـ).

الحركة الفنية في مصر جاءت بعد لبنان . كان غريبا تأخرها بعد ان انفتح لها السبيل منذ ايام الخديوي اسماعيل ، وتجمع فريق من الفنانين الاوروبيين في حي الخرنفش في القاهرة ، وقيام مدرسة (ليوناردو دافنشي) للفنون الجميلة في القاهرة سنة ١٨٩٨ . لكن السلبية تجاه هذه الفنون لم تستمر طويلا ، وبدأت الحركة سنة ١٩٠٨ بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة . رعى الحركة أحدث الباشوات الموسرين (محمد محمود خليل) ، وكان فرنسي الثقافة ، فظهر ذلك في الجيل الرائد من خريجي الفنون امثال

وبرز ، ثم درس في باريس ثمانية اعوام . نحت تمثال نهضة مصر المقام عند مدخل جامعة القاهرة ، كما اقام تمثالين لسعد في القاهرة والاسكندرية . تمثاله هذا «على ضفاف النيل» نحته من الرخام ١٩٢٨ . أصالته تكمن في استلهامه التراث والبيئة والعصر .

٣



(٣) – تحمل هذه اللوحة اسم (النزهة) ، وهي من رسم محمود سعيد (١٨٩٧ – ١٩٦٤) ابن الاسكندرية . تفرد باسلوب يرتبط بتقاليد الفن الفرعوني . صور الحياة العامة والتقاليد بألوان جذابة ، وابتعد عن قواعد المنظور ليتحدى الواقع .

٤



(٤) – (ديوان الخليفة) لوحة رسمها ١٩٣٤ مصور دمشقي اسمه توفيق طارق (١٨٧٥ – ١٩٤٠) ، من الهواة البارزين . أعماله تكشف عن مصور واقعي ذي مقدرة عالية في تأليف المواضيع ، والتقاط الواقع ، وتلوينه بألوان منسجمة حارة .

يوسف كامل (١٨٩١ - ١٩٧١) وراغب عياد (١٨٩٢ - ١٩٦٩) . على ان الرواد في الاسكندرية استلهموا الحياة المصرية فكانوا اكثر اصالة ، وفيهم محمد ناجي (١٨٨٨ - ١٩٥٦) ومحمود سعيد (١٨٩٧ - ١٩٦٤) (٣) .

قبيل الحرب العالمية الاولى ظهر الفنانون في العراق ، وبعضهم من ضباط الجيش العثماني ، مثل عبد القادر رسام (١٨٨٩ - ١٩٥٢) ، والحاج سليم الموصلي . وظهروا في سوريا ومنهم توفيق طارق (١٨٧٥ - ١٩٤٠) (٤) وميشيل كرشه (١٩٠٠ - ١٩٧١) ، وعبد الوهاب ابو السعود (١٨٩٧ - ١٩٥١) . منذ سنة ١٩٣٤ دخلت المدرسة الفنية الانطباعية الى سوريا مع الرسام جورج خوري . تلاميذه حملوا القضية الفنية بعد الحرب الثانية .

٥



٦



٧



(٥) - يذكر قيصر الجميل (١٨٩٨ - ١٩٥٨) عادة بين كبار فناني الجيل الذين وطدوا الفن التشكيلي في لبنان . ولد في عين التفاحة (لبنان) وصار مدير معهد التصوير والنحت في الاكاديمية اللبنانية . يعتبر من اتباع المدرسة الواقعية لاسيما في مثل لوحته (معركة عنجر) .

(٦) - هذه اللوحة تحمل بدورها اسم جبل لبنان وهي ايضا بالالوان المائية رسمها ١٩٢١ فنان آخر من جيل الرواد هو عمر أنسي ، ومن زملائه مصطفى فروخ ، وصليبا الدويهي ، ورشيد وهبي ، وقد حملوا الى لبنان تقاليد فنية متطورة رصينة تعتمد بصورة واضحة على المدرسة الانطباعية . عاش الانسي فترة في الاردن وترك مجموعة من التلاميذ هناك . الوانه شفافة منسجمة على ريشة رشيقة تحمل بعض التأثير من مدرسة سيزان .

لكن اسلوبه والوانه تأثرت باللونية الانطباعية . رسم كثيرا من مشاهد لبنان ، ومنها هذا المشهد بالالوان المائية ١٩٣٩ .

(٧) - عوض اعبيدة ، (ولد في بنغازي) تتلمذ على الكلاسيكية الايطالية في روما . كرس ريشته لرسم اللوحات الوثائقية للحياة الشعبية كلوحته هذه «الشوّاي» . يأسرك بقدرته على التعبير الحر وتقصي دقائق الواقع .

الرواد في المغرب

سيطرة اوروبا على افريقيا العربية في القرن الماضي جذبت الى هذه المنطقة الكثير من رسامي ايطاليا وفرنسا ، ومنهم دولاكروا . كانوا يبحثون عن الغرابة في بلاد الف ليلة وليلة .

في ليبيا كان الفنانون الرواد تلاميذ المدرسة الايطالية ومنهم عوض أعبيدة . اسلوبه الكلاسيكي حي ذو الوان مشرقة ، وقد تخصص برسم الحياة الشعبية والتاريخية الوثائقية (٧) . في تونس بدأ الفن التشكيلي بيحيى التركي الذي درس حرا على الفنانين الوافدين من اوروبا ثم في مدرسة الفنون الجميلة (تأسست سنة ١٩٢٢) . ظهر بعده الجيل الاول من الفنانين : علي بن سالم باسلوبه الزخرفي الشرقي ، وعمار فرحات بلوحاته الوجهية ، وجلال عبد الله رسام المنمنمات . تلاهم بعد ذلك الجيل الثاني ممن درسوا الفن في الغرب (امثال الزبير التركي) ومجموعة (مدرسة تونس) للتصوير .

في الجزائر كان التأثير الفرنسي اقوى ، وخاصة في مدرسة الفنون الجميلة التي انشئت سنة ١٩٢٠ . لكن التقاليد المحلية الرافضة ظهرت في اعمال محمد راسم رائد الفن الجزائري الذي ربط بين الفن التقليدي العربي والفن المعاصر سواء في الشكل او اللون او التكوين ، بينما كان تلاميذ مدرسة الفنون دون شخصية خاصة ، ويتبعون المدارس الفنية الفرنسية . برز منهم الزواوي معمري بعد سنة ١٩١٦ وعبد الحليم هامش (بعد سنة ١٩٢٨) ومحمد ازميرلي الذي تميز بعد سنة ١٩٣٥ .

في المغرب بدأت الحركة الفنية في الثلاثينات . روادها كانوا من العصاميين الهواة . منهم احمد رياطي الطنجي الذي اهتم بتصوير الحياة الاجتماعية . في بداية الاربعينات قويت الحركة التشكيلية بمن تخرجوا من مدرسة الفنون الجميلة في تطوان (اسسها الرسام الاسباني بيرطوشي) وعرفوا بمدرسة مدريد . منهم : محمد سرغيني . بجانبهم ظهرت المدرسة الفرنسية التي رعاها الفنان الفرنسي ماجوريل . ومن تلاميذها احمد الشرقاوي (١٩٣٤ ـ ١٩٦٧) والجيلالي غرباوي (١٩٣٠ ـ ١٩٧١) .

فن النحت

تطور النحت تطورا موازيا للتصوير . لكن المنحوتات الاولى كانت عامة على الاسلوب الكلاسيكي . محمود مختار (١٨٩٣ ـ ١٩٣٤) كان رائد النحت في مصر والبلاد العربية (٢) . اسلوبه كان تحديثا للفن المصري القديم . اشتهر جمال السجيني ايضا بفن الطرق على المعدن . في سوريا كان الرائدان هما فتحي محمد (١٩١٧ ـ ١٩٥٨) ومحمود جلال (١٩١١ ـ ١٩٧٣) . وفي لبنان يوسف الحويك . وفي العراق تميز جواد سليم (١٩٢٠ ـ ١٩٦١) (١) . وازدهر الخزف على يد سعد شاكر . في تونس برز اسم الهادي السلمي . وفي المغرب محمد مليحي ومولاي احمد ادريس . ويشتهر رحول وزكاني بالخزف ، وعبد الله عمرو بصناعة السجاد .

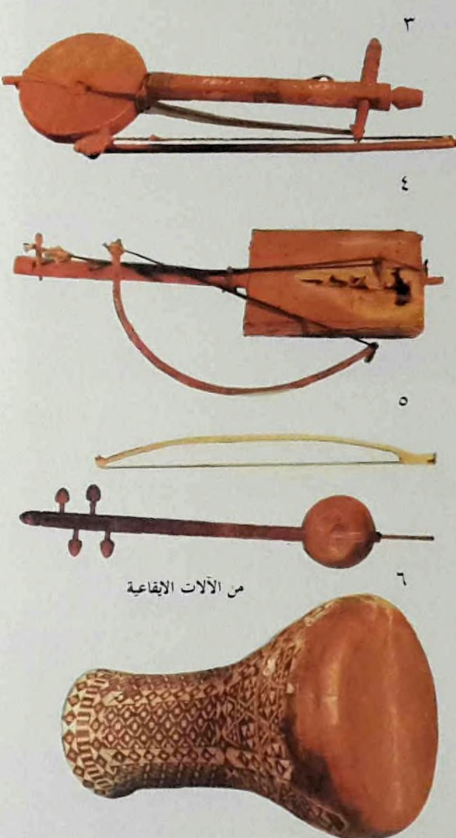
الموسيقى العربيّة في القرن العشرين

بعد التألق الذي عرفته الموسيقى العربية على يد صفي الدين الارموي (ت ١٢٩٤ م) ، حتى محمد بن عبد الحميد اللاذقي (ت ١٤٩٥ م) ، اخذت فنونها تنطوي على نفسها بالتدريج ، حتى اذا كانت مطالع القرن ١٩ لم يكن يعنى بها الا جماعات الفرق الصوفية لاحتفالاتهم الدينية ، وبعض الجماعات غير المسلمة لاحياء الحفلات الاجتماعية . هذا الانطواء سمح لها بالمحافظة على عدد من تقاليد البناء الموسيقي القديم . لكن التأثير الغربي الذي شمل منذ مطالع القرن التاسع عشر جميع نواحي الحياة العربية اصاب الموسيقى بدورها ودفعها في طريق التطور والتحديث . التباين الكامل بين الموسيقى

من الآلات الوترية بالنقر (او الضرب بريشة)



من الآلات الوترية بالقوس



من الآلات الايقاعية

الغربية والشرقية منع المزاوجة القوية الناجحة بين الفنين . البحوث والمؤتمرات التي بحثت ذلك لم تصل الى شيء في قضايا ضبط السلم الصوتي العربي وتوحيد المقامات والايقاعات ، واستخدام الآلات الغربية ، وان نفذت بعض توصياتها العملية مثل نشر المخطوطات الموسيقية وتسجيل الوثائق الصوتية من التراث واقامة المتاحف الموسيقية .

الموسيقى العربية في الاساس نغمية صوتية (بعكس الغربية الآلية) يلعب الغناء دوره الاول في اكثر تعابيرها قيمة ، بينما تحتل الآلات (١ـ٩) الدور الثانوي . لهذا كان التراث غنائيا سماعيا في مجمله . اثرى مع العصور ، ففيه اكثر من مائة مقام (تستعمل منها حتى الآن ثلاثون) ، وفيه الفواصل المساوية لربع الصوت . لهذا ايضا كان حفظة التراث الموسيقي والرواد معا من اهل الغناء . تفتخر بغداد والموصل بنظام المقامات الاساسية

٧



من آلات النفخ

٨ أ

ب



(١) ـ العود العربي من الآلات الاساسية في الموسيقى العربية . يتكون من صندوق صوتي خشبي على شكل نصف كمثري ، يتصل به اتصالا وثيقا الرقبة مع البنجق (الراس) الذي يحوي الملاوي او المفاتيح . في وجه العود فتحات تقوي الصوت . تشد الاوتار عليه متوازية من صدره الى الرقبة الى الملاوي . ويضرب عليه بالمضراب (الريشة) .

(٢) ـ القانون : من اكمل الآلات في الموسيقى العربية ، من حيث اتساع منطقته الصوتية التي تغطي ٣ـ٤ اوكتاف .

(٣) ـ الرباب : يطلق اسم الرباب على عدة انواع من الآلات ذات القوس . آلة الرباب في المشرق تعرف برباب الشاعر وهناك الرباب المغربي والتركي (الارنبة) وتدخل في فصيلة الرباب الآلة التي تسمى في العراق الجوزة وفي مصر بالرباب المصري .

(٤) ـ رباب الشاعر (المشرقية) هي نفسها ربابة البدوي العربية . شكلها المستطيل ذو الجانبين المقوسين يعود الى ما قبل الاسلام بكثير . سوى ان العزف عليها لم يكن بالقوس وانما بواسطة المضراب او الاصابع .

(٥) ـ الجوزة : آلة موسيقية قديمة لكن تسميتها حديثة العهد سائدة في العراق فقط وترجع الى المادة التي يصنع منها الصندوق الصوتي وهي جوزة الهند . تتألف من صندوق صوتي صغير ، مفتوح من الطرفين يغشى وجهه العلوي بقطعة من جلد السمك او الماعز ويتصل الصندوق من الاعلى بزند او عصا من خشب المشمش او النارنج وينتهي باربعة مفاتيح تشد اليها الاوتار المعدنية .

(٦) ـ درابكة : من الآلات الموسيقية الايقاعية وهذه الآلات قسمان : آلات الرق ، والنقر فيها يكون على جلد رقيق مشدود على الاطار او على الصندوق الصوتي ، وينقر عليه باليد او المضرب (ومنها الدرابكة ، والدف والطبل) .

(٧) ـ الدف : آلة ايقاعية قديمة ، تنوعت مع الزمن اشكالها ، لهذا يطلق الاسم على فصيلة واسعة من الدفوف منها المزهر ، والمربع الغربال ، والزنجاري او الرق (ذو الصنوج) ، وبعضها مستدير ، وبعضها مربع ، ومنها الصغير والكبير . وقوامها جميعا اطار خشبي شد عليه جلد رقيق ينقر عليه لضبط الايقاع وتنشيطه .

(٨) ـ من آلات النفخ : (أ) الناي وفصيلتها . وهي انواع كثيرة تختلف في اطوالها وغلظ قصبتها وتستخرج الاصوات منها بالنفخ (ب) على حافة فوهة القصبة مباشرة . تصنع هذه الآلات غالبا من قصب الغاب وفي النادر من الخشب او المعدن . ومن هذه الفصيلة الزمارة والارغول .

السبع . في الخليج حفظ بجانب الغناء البدوي وغناء البحر ، نوع جماعي يعرف بالصوت . في سوريا تفردت حلب خاصة بغناء الموشحات الذي ينطبق على رقص السماح (٢) ، وحافظت دمشق على الدور . فنانو هذين البلدين هم الذين انتقلوا بهذين النوعين الى مصر ، وكانوا اساس الحركة في تجدد الغناء التقليدي فيها . مصر لم تحتفظ من الغناء القديم بغير الانشاد الديني وبعض انواع المواويل . في المغرب العربي بقي الموشح الاندلسي اكثر الانواع شيوعا ، ويتمثل في النوبة التي تحافظ على وحدة المقام وبساطته ، بعكس التعقيد المشرقي وزخارفه الصوتية والآلية .

حركة التحديث

التحديث الذي قاده محمد علي في مصر كان جوهره عسكريا ، لذلك اصاب الموسيقى من هذه الناحية ، وتزعمت مصر تحديثها حتى اواسط هذا القرن . انشىء اول معهد

٩



(٩) ـ السماح رقصة صوفية قوامها خطو منظم الى اليمين والشمال والى امام ووراء مع سكنات متناوبة . يرافق ذلك نقر برأس القدم او الكاحل او تهز الجسم الى اعلى او الدوران حول الذات دورة كاملة او نصف دورة . وللأذرع خلال ذلك حركاتها المتناسقة مع الرقص . ولكل وضع من الاوضاع اسمه الخاص به (تحية ، دعاء ، ضم ، خمار ، جبة ...) . يرافق رقص السماح موسيقى شرقية . وغناء للموشحات على مقامات متنوعة اكثرها شيوعا الراست والبياتي والحجاز كار .

١٠



(١٠) ـ الدبكة رقص جماعي ريفي على شكل حلقة متراصة ينتشر في الشام والعراق . قوامه خطو عادي موضعي على الايقاع مع ضرب القدم اليمنى او اليسرى بشدة على الارض بشكل دوري منتظم . والدبك أنواع عديدة : والتقليدي منه يبدأ بالقدم اليسرى ثم الدبك في الخطوة السادسة (وتسمى بالحورانية) . ويمكن الدبك في الاولى ثم تكون باقي الخطوات خطوا وترقيصا موضعيا (وهي الصباحية) . ويمكن الدبك في الثانية والباقي ثني ركب او سكنات (الشمس) . كما يمكن الدبك في الثالثة (البنات) او الرابعة او الخامسة . ويقود الدبك اول الراقصين في الحلقة وهو عادة أمهرهم . وتختلف الدبكات في السرعة والبطء وفي حركات الجسم مع الخطو . ولكل دبكة اسمها الخاص نتيجة لذلك . وهذا التنوع يرتبط بالجملة اللحنية الغنائية والموسيقية التي ترافق الرقص (الدلعونا ، الميجانا ، اليادي ، اسمر اللون) . والآلات المرافقة هي بصورة أساسية الطبل والمزمار (المجوز) .

للموسيقى العسكرية هناك عام ١٨٢٤ ، وظهرت جوقات الجيش بآلات موسيقية غربية بعد ذلك . الخديوي اسماعيل دفع الحركة خطوة اخرى بانشاء دار الاوبرا (١٨٦٩) . الموسيقيون الذين درسوا في الغرب من بعد حاولوا التوسع في الاقتباس عن الموسيقى الغربيـــة . اسست في مصر عام ١٩٤٠ اوركسترا ملحقة باذاعة الدولة صارت عام ١٩٥٦ جوقة آلية سمفونية كاملة . تطور موسيقي مماثل ظهر في تونس خلال القرن ١٩ ومطالع القرن ٢٠ .

على ان نهضة الموسيقى العربية يجب ان يبحث عنها لدى رواد الغناء الاوائل . اولهم في مصر عبده الحمولي (١٨٤٥ ـ ١٩٠١) الذي سمح له صوته الفريد ، ان يصبح مغني القصر لدى الخديوي اسماعيل الذي ارسله الى الاستانة لتعلم الموسيقى التركية ، فاشاع بجوقته موسيقى البشرف والسماعي . نافسته في عصره زوجتـــه المغنيـــة المظ (١٨٣٠ ـ ١٨٩٧) ، كما زاحمه محمد عثمان (١٨٥٥ ـ ١٩٠٠) صاحب الموشحـــات الشهيرة . خطت النهضة الموسيقية خطوة اخرى بعد ذلك مع الشيخ سلامة حجازي (١٨٥٢ ـ ١٩١٧) ، ومع الاقبال على الملهاة المسرحية المغناة التي اشتهر بها (مقابل الاوبرا الاوروبية) . لكن ابرز الموسيقيين الموهوبين كان دون شك سيد درويش (١٨٩٢ ـ ١٩٢٣) الذي اعطى الموسيقى العربية ، انطلاقة جديدة بما ألف من الموشحـــات والادوار . في هذه المدرسة تتلمذ قطبا الغناء العربي الحديث محمد عبد الوهاب (ولد ١٩٠٥) وام كلثـــوم (١٨٩٨ ـ ١٩٧٥) . اثر الاول في تطوير الالحان بتآليفه الممتزجة بتـأثيرات غربيـة ، واستطاعت الثانية بصوتها واتقانها المدهش ان تربط الناس بالخط الموسيقي التقليدي عدة اجيال رغم ما ادخله الملحنون على موسيقى اغانيها .

على ان الموسيقى العربية من مقام وموال ومالوف وادوار وقدود ما تزال قائمة رغم هذه التطورات كما ان لكل قطر من الاقطار العربية غناءه التقليدي الذي عرف به والوانه الموسيقية الخاصة به وان كانت الاذاعة المصرية القوية بين الحربين ، والافلام المصرية قد ساهمت في نشر الموسيقى الجديدة حتى اضحت هي المدرسة الاولى والمسيطرة من الخليج الى المحيط . وفي مطالع الخمسينات نافستها المدرسة اللبنانية .

الموسيقى الشعبية

بدأ الاهتمام باغاني الحياة في الشارع والريف والملاحة والحداء وغيرها بعد المؤتمر الموسيقي الاول عام ١٩٣٢ . فثمة ازدواجية موسيقية عربية تقابل الازدواجية الادبية بين الفصحى والعامية . لغة الغنـاء الشعبي هي العاميـة المحكية . اما موسيقاه فهي مختلطة الاصول ، وان كان له موازينه وشعره الزجلي ، وايقاعاته ، والحانه المبسطة ، لا تتبع قواعـد المقامـات الرسمية ولكنها تبدو مقامية بوضوح ، ويقوم فيها الوفاق الشكلي بين الكلام والغناء والـرقص الجماعي . يمكن قسمة هذا الغناء الى فئتين : الغناء ذي الوزن الشعري الطويل والايقاع الحر واللحن الكثير المحسنات ، ويكاد يقتصر على الاداء المنفرد مع بعض الآلات وخاصة الرباب او العود . ثم الغناء المقطعي وهو في شكله الادبي عبارة عن بيت من الشعر او مقطع يتكرر جماعيا على ايقاع حاد موزون لاثارة الرقص (من دبكة (٣) وردحة وعرضة وغيرها) ومنه العتابا والمعنى .

القطر	أبرز أنواع الغناء	أبرز الموسيقيين والمغنين ما بين ١٨٣٠ ـ ١٩٥٠ م
العراق	المقامات العراقية . المدائح النبوية والنشيد الصوفي الرفاعي والقادري والبغدادي .	الملا حسن البابوججي (ت ١٨٤٠) وتلاميذه الملا حسن الشيخلي ، وأحمد زيدان (١٨٣٨ ـ ١٩١٢) من الطريقة القادرية . تلميذه من بعده رشيد القندرجي (١٨٦٦ ـ ١٩١٤) ، وهناك الملا عثمان الموصلي المكفوف (١٨٥٠ ـ ١٩٢٣) ، محمد القبانجي (ولد ١٩٠٤) الذي درس في المانيا . اشتهر يوسف يتوني (ولد ١٨٨٧) بعزف السنتور وتفرد صالح شميل (ولد ١٨٩٧) البغدادي بعزف الجورة ، ومحي الدين حيدر بالعود ، ومن تلاميذه منير بشير . وهناك في الاحصاء اكثر من ٢٣٣ موسيقيا مذكورا مع هؤلاء .
الخليج واليمن	الصوت . اغاني البحر . اغاني العرضة . غناء بدوي . تأثير هندي وزنجي .	في الكويت عبد الله الفرج (١٨٣٦ ـ ١٩٠٣) الشاعر الموسيقي ، والاخوين خالد (ت ١٩٢٥) ويوسف البكر (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) وفي قطر : سعيد بن سالم (ولد ١٩١٤) ، وسالم فرج (ولد ١٩٠٩) . وفي البحرين : محمد فارس ، ضاحي بن وليد . وفي عدن : علي أبو بكر ، ومحمد الماس وابنه ابراهيم (ولد ١٩١٢) والاخوان محمد وعلي المكاوي ، وعلي الجراش .
الجزيرة العربية	موشحات . ادوار المقامات العريقة	حسن جاوه (حوالي ١٨٩٥ ـ ١٩٦٤) الذي زار تونس ١٩٣٣ . ابراهيم السمان الحلبي (١٨٩٥ ـ ١٩٦٣) الذي طاف البلاد العربية . عرفه صالح ماعرفة الحضرمي (١٨٦٥ ـ ١٩٥٠) ضابط الايقاع .
الشام (سورية لبنان) فلسطين الاردن	الموال . الموشحات . القدور . الادوار . المقامات . القصيد . الميجانا . الشروقي . المعنى . الموال . دلعونا . الزلف . اليادي . سليمى . العتابا .	شاكر افندي الحلبي الدمشقي الذي سافر مصر يعلم الموشحات (١٨٢) . الطبيب ميخائيل مشاقة (١٧٩٩ ـ ١٨٨٨) . احمد ابو خليل القباني (١٨٣٣ ـ ١٩٠٣) . محمد احمد الوراق الحلبي (١٨٢٩ ـ ١٩٠٠) . أحمد عقيل (١٨١٣ ـ ١٩١٣) وتلميذه عمر البطش (١٨٥٥ ـ ١٩٥٠) الذي لحن ١٤٠ موشحا . علي الدرويش (١٨٨٤ ـ ١٩٥٢) الذي تعلم في تركيا ودرس في تونس والقاهرة وبغداد . توفيق (الياس) الصباغ (١٨٩٢ ـ ١٩٦٤) الذي عمل محاسبا في مصر والسودان قبل ان ينصرف للموسيقى (١٩٢٥) . ميخائيل الله ويردى (١٩٠٤) ، مجدي العقيلي (ولد ١٩١٧) ، الذي درس في ايطاليا . كميل شمبير (١٨٩٢ ـ ١٩٣٤) . وهناك ايضا حليم الرومي . توفيق الباشا . سامي الشوا . في مطالع الخمسينات برز الاخوان عاصي ومنصور الرحباني مع فيروز .
مصر	المواويل . الادوار . الموشحات . الاغاني	مدرسة الصهجية . محمد شهاب الدين (ت ١٨٥٧) الذي نشر سفينة فيها ٣٥٠ موشحا صارت أساس الموشحات الى اليوم . عاصرته مبروكة المغنية . ثم محمد عبد الرحيم المسلوب استاذ عبده الحمولي (١٨٤٣ ـ ١٩٠١) وزوجته المظ (١٨٩٧) . محمد عثمان (١٨٥٥ ـ ١٩٠٠) ومعاصرته المغنية ساكنة . ابراهيم القباني (ت ١٩٢٧) . كامل الخلعي (ت ١٩٣٧) وله ١٠٠ موشح عدا الاغاني المسرحية . وهناك يوسف المنيلاوي (١٨٤٧ ـ ١٩١١) وسالم الكبير (١٨٣١ ـ ١٩٢٧) وسيد الصفتي وفرق العوالم مثل اسماء الكومبسارية وبمبه كشر والحاجة السويسية ، ظهروا في مطالع هذا القرن قبل ان ينبغ سلامة حجازي (ت ١٩١٧) وينقل الاغنية الى المسرح ويتبعه سيد درويش (١٨٩٢ ـ ١٩٢٣) ويظهر بجانبه مجموعة من المغنيات والمغنين امثال ابو العلا محمد ، وناجية الشامية . صالح عبد الحي . فتحية احمد . منيرة المهدية . ويتألق من خلال هؤلاء محمد عبد الوهاب (ولد ١٩٠٢) وام كلثوم (فاطمة ابراهيم) (١٨٩٨ ـ ١٩٧٥) ثم فريد الاطرش (١٩١٠ ـ ١٩٧٥) واخته اسمهان (امال) (١٩١٢ ـ ١٩٤١) ، والموسيقيان زكريا احمد (١٩٨٠ ـ ١٩٦١) الذي لحن اكثر من ٥٠ رواية ومحمد القصبجي .

القطر	أبرز أنواع الغناء	أبرز الموسيقيين والمغنين ما بين ١٨٣٠ ـ ١٩٥٠ م
السودان	الجرداقي (في الغرب) . الدوبيت البرمكي .	الشاعر خردلو في اوائل القرن الحالي . محمد وردي . محمد الامين . عبد الكريم الكابلي (ولد (١٩٣٢) . عائشة الفلاتية (اول امرأة غنّت) .
ليبيا	موشحات المكاوي . المألـوف . التجديد . المرمرمات التركية . الادوار المصرية والمدائح المرزقاوي .	حلقات الصوفية حسن الكعامي . محمد بوربالة . شاكر المرابط وهم من موسيقيي ومغني النصف الاول من هذا القرن . تميز المرابط بالغناء المصري . وهناك المختار حورية الذي كان له مدرسة خاصة في تحديد القرآن . والبشير فحيمة في الغناء المرزقاوي (مرزق بفزان) ، وعلى الشعالية ، وكامل القاضي . والمختار دافرة . واحمد شاهين في المدائح .
تونس	النوبة والمألوف . البشارف التونسية الادوار . البطايحي والمربع التونسي .	الفرق العسكرية النحاسية . الحلقات الصوفية . مدارس قصور البايات . احمد الوافي (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) حامل التراث الموسيقي ، والملحن بمختلف انواع الغناء . محمد بن الحسين الضرير مغني المألوف في الثلث الاول من هذا القرن . ومعاصروه سلامة الدوفاني رئيس المنشدين للطريقة الشاذلية . والصادق بن عرفة ، ومحمد غانم ، وخميس ترنان (١٨٩٤ ـ ١٩٦٤) تلميذ الوافي الذي سجل الكثير من تراث المألوف . وهناك كذلك علي باتواس والطاهر المهيري . وعزوز السمار والصادق الفرجاني
الجزائر	الموشحات . الحوارة . الزندالي . المدح . الشعبي (بمرافقة الزرنة) .	المغني محمد سفنجة (ت ١٩٠٨) وفرقته ، وتلميذه يافيل ولد مخلوف . الشيخ مرمش (١٨٣٥ ـ ١٩٠٤) ، يمينة بنت الحاج المهدي (ت ١٩٣٣) من المسمعات (المداحات) التي رعاها الموسيقي البريهمات مدير آخر مدرسة قبل الاحتلال ، ومعاصراتها خيرية جابوني وحليمة البفري . وهناك الشيخ محمد اسماعيل (١٨٢٠ ـ ١٨٩٢) وابناه علي وقويدر (١٨٤٢ ـ ١٩٢٢) . والشيخ محمد العنقاء المغني الشعبي . والشيخ مصطفى الدرويش . والشيخ العربي بن صاري من تلمسان ، وحسونة خوجة (ت ١٩٦٨) والشيخ بسطانجي من قسنطينة . ومحي الدين باش ترزي .
المغرب	النوبة المغربية الاندلسية . (المألوف) الجد (المدائح النبوية) .	قبيل مطالع القرن العشرين طهر ابراهيم التادلي الرباطي بفاس والشيخ عبد السلام البريهي وابنه محمد (١٨٥٠ ـ ١٩٠٠) وتلاهم في النصف الاول من هذا القرن عمر الجعدي المختص بالقصر الملكي وادريس بن جلون وعبد الكريم الرايس (ولد ١٩١٢) رئيس فرقة البريهي ، واحمد بن محمد الوكيلي (ولد ١٩٠٩) رئيس فرقة الاذاعة للموشحات . والباحث الموسيقي محمد بتونة . والسيد العربي الوزاني . ومن المجددين عبد الوهاب آكومي وعبد الرحيم الشعاط وعبد السلام عاد .
موريتانيا	الاكحال العربية والبياض الزنجية .	في تراثها وتراث السنغال مقامات الراست والسيكاة والبياتي العربية الاصيلة .

المسْـرَح العَربي حتى أواسِط القرن العشرين

عرفت البلاد العربية قبل العصر الحديث المسرح وتمثيل الشخوص في ما كان يسمى بخيال الظل . وكانت هناك حتى عهد غير بعيد عروض (قره كوز) (٢) من الشخوص ، واعمال تمثيلية شعبية متنوعة في المواسم والافراح مثل مسرح البساط في المغرب ، و«المحبظين» في مصر ، على ان المسرح كنوع ادبي من جهة وكفنّ تمثيلي رفيع من جهة اخرى ، انما ظهر منذ اواخر القرن الماضي ، في مصر والشام تحت التأثير الغربي . يسجلون ولادة المسرح العربي الحديث سنة ١٨٤٨ بمسرحية البخيل (المأخوذة عن موليير) والتي قدمها مارون النقاش (١٨٢٧ ـ ١٨٥٥) في بيروت . والواقع ان علينا ان ننتظر ربع قرن آخر لنرى

١

	في مصر	في البلاد العربية الاخرى
١٨٤٧		مارون النقاش يقدم أول مسرحية معربة (البخيل) في بيروت .
١٨٧٤	يعقوب صنوع يؤسس جوقة ويؤلف مسرحياتها . ابو خليل القباني يصل مصر بجوقته (١٨٨٤) . كانت الاوبرا المصرية تقدم بعض العروض الاجنبية منذ ١٨٦٩ .	ابو خليل القباني يؤلف جوقة بدمشق ، ويقدم مسرحيات غنائية (أوبريت) (١٨٧٤ ـ ١٨٧٦) ثم (١٨٨٢) .
١٨٩٣	اسماعيل عاصم يكتب اول مسرحية مصرية ميلودراما (صدق الاخاء) ١٨٩٤ . تتكون فرق عديدة محلية او وافدة من لبنان أهمها : فرق سلامة حجازي ، أمين عطالله ، جورج دخول (الكوميدي) ، سليمان القرداحي ، سليم النقاش .	نعوم فتح الله السحار يكتب اول مسرحية عراقية للتمثيل (١٨٩٣) . تتكون عدة فرق في لبنان ، ثم تهاجر لمصر . تظهر مسرحيات في لبنان مترجمة ، وتاريخية ، ومسرحيات اجتماعية من المهجر . تكتب اول مسرحية في السودان (١٩٠٢) بقلم عبد القادر مختار مع نشاطات مسرحية متقطعة . يتأسس الجوق المصري ـ التونسي (١٩٠٩) .
١٩١٠	جورج ابيض يرجع لمصر ويقدم مسرحيات مترجمة . ثم يؤلف عدة فرق . فرح انطون وابراهيم رمزي يكتبان (١٩١٣) مسرحيات مقتبسة ممصرة . سلامة حجازي يتوفى (١٩١٧) فتخلفه جوقة سيد درويش (فيها عزيز عيد) . ظهور فرق تمثيلية منها (الشباب المصري) المسرحية ، وكامل وزوز الكوميدية .	محمد الحبايبي يكتب أول مسرحية تونسية (١٩١٠) : السلطان بين جدران يلدز . تأسست فرقة الآداب العربية بتونس (١٩١١) وفرقة الشهامة العربية (١٩١٢) . محمد مناشو يكتب ثاني مسرحية تونسية (الانتقام) ، وابراهيم العبادي في السودان يكتب (عروة وعفراء) ١٩١٠ . تكونت (١٩١٨) جماعة صديق فريد للمسرح في السودان .
١٩١٩	توفيق الحكيم يقدم أول أعماله المقتبسة للمسرح . يظهر عدد من الفرق الغنائية المسرحية : منيرة المهدية ، نادرة الشامية ، فاطمة رشدي .	الفرق المسرحية المصرية تزور بلاد الشام والعراق والمغرب كله ما بين ١٩٢٠ حتى ١٩٣٥ وتحرك الحس المسرحي بكل مكان . تتكون بعض الفرق المحلية في الوطن العربي ومنها : في الموصل وبغداد (١٩٥٢) وفرقتان بتونس ، واخرى كوميدية منذ ١٩٢١ . بينما جماعة صديق فريد في السودان تقدم المسرحيات منذ ١٩١٨ وتستمر حتى ١٩٣٣ .

ظهور الحركة المسرحية في الشام ومصر في وقت واحد .

ظهرت في دمشق سنة ١٨٧١ على يد ابي خليل القباني (١٨٣٣ ـ ١٩٠٢) باسم (الكميضة = الكوميدي) . ولم تحتملها الاجواء العامة هناك ، فهرب بها الى مصر (١٨٨٤) ، ثم الى امريكا . وحين مات كان قد قدم ٦٠ مسرحية غنائية . الرائد الثالث هو يعقوب صنوع المصري (١٨٣٩ ـ ١٩١٢) . الذي ألف واقتبس مسرحية ، قبل أن ينفى الى باريس .

في اوائل القرن العشرين ظهرت في مصر المسرحية الاجتماعية (بأعمال فرح انطوان) ، ثم التاريخية (أعمال ابراهيم رمزي) ، والغنائية (سلامة حجازي) (١٩١٧) . اما «اول ممثل وطني اصولي» كما وصفوه فهو جورج ابيض الذي درس التمثيل في فرنسا . كما برز عزيز عيد في الاخراج المسرحي . في سنة ١٩٢٣

	في مصر	في البلاد العربية الاخرى
١٩٢٣	تأسيس فرقة رمسيس أول فرقة نظامية (المخرج عزيز عيد والمدير يوسف وهبي ، وفيها روز اليوسف وفاطمة رشدي) . قدمت مسرحيات جادة مشهورة . كتب احمد شوقي مسرحياته الشعرية . برز المسرح الكوميدي مع فرقة نجيب الريحاني (كشكش بك) وعلي الكسار . تأسس معهد الفنون المسرحية (١٩٣١) (على يد زكي طليمات) ثم الغي . تأسست الفرقة القومية للتمثيل بادارة خليل مطران (١٩٣٥) ، وقدمت ٦ مواسم مسرحية هامة .	تكاثرت الفرق المحلية في بلاد عديدة : في طنجة فرقتان منذ (١٩٢٣) ، وفرقتان بفاس (١٩٢٤) (١٩٢٥) ، وثالثة في الرباط (١٩٢٦) ، ومثلها في مراكش وسلا . ظهر رشيد قسطيني (منذ ١٩٢٦) في الجزائر ، وظهر محيى الدين باشترزي . في تونس برزت أربع فرق (١٩٣٢) . تشكلت في ليبيا (١٩٢٨) فرقة هواة التمثيل (بدرنة) والفرقة الوطنية الطرابلسية (١٩٣٦) يكتب مسرحياتها ويقوم بالتمثيل احمد قنابة . كتب خالد ابو الروس (١٩٣٢) لفرقة في السودان اول مسرحية سودانية خالصة (تاجوج والملحق) ، ولحقه ابراهيم العبادي . تألفت فرق عديدة في فلسطين (حوالي ٣٠ فرقة في القدس) . وكتب كل من جميل بحري للمسرح (١٢ مسرحية) ونصري الجوزي (١١ مسرحية) . تألفت فرق عديدة قصيرة العمر او من الهواة في سورية ولبنان ، بينما كان حقي الشبلي في العراق يؤلف فرقته المسرحية (١٩٢٧) ، ثم يؤلف فرقة اخرى (١٩٣٠) ، ويؤسس (١٩٣٩) قسم التمثيل في معهد الفنون الجميلة ببغداد .
١٩٤٠	حل الفرقة القومية وتأليف الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى (١٩٤٢) . اعادة فتح المعهد العالي لفن التمثيل العربي (١٩٤٤) . محمود تيمور وعلي احمد باكثير يكتبان للمسرح . عزيز اباظة يقدم المسرحية الشعرية .	تشكلت في تونس ثلاث فرق (١٩٤٠) ، ويبرز خليفة السطنبولي بمسرحياته التاريخية . تشكلت فرقة محلية في الجزائر (١٩٤٧) . قامت في السودان (١٩٤٦) ، ثلاث فرق ، وظهرت المرأة السودانية لاول مرة على المسرح . تشكل في المغرب (١٩٤٦ ايضا) ثلاث فرق اعقبها اربع فرق في (١٩٥٠) . ظهر في العراق يوسف العاني (١٩٥٠) .

تأسست أول فرقة مسرحية «نظامية» ، لها جهازها الفني الكامل ، وهي فرقة رمسيس ، وظهرت فيها اسماء عدة ممثلين ، منهم يوسف وهبي . امتد عهدها الذهبي حتى ١٩٣١ بسبب ما قدمت من الروايات الشهيرة (مثل غادة الكاميليا ، راسبوتين ، كرسي الاعتراف) . خلال ذلك تشكلت باشراف الدولة الفرقة القومية للتمثيل سنة ١٩٣٥ التي قدمت مجموعة من المواسم المسرحية العامة . في سنة ١٩٤٢ حلت محلها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى ، وصارت تقدم مسرحيات متنوعة ، وبعض عروضها بالعامية ، كما قدمت الاوبريت والمسرحيات الشعرية . لكن اعمالها لم تلاق النجاح الواسع لابتعادها عن هموم الجماهير ، ولان السينما المصرية كانت قد قضت على الفرق المسرحية الخاصة ، (عدا فرقة الريحاني الكوميدية وفرقة علي

٢



(٢) ـ يبدو ان العرب عرفوا اشكالا مختلفة من المسرح لقرون طويلة قبل منتصف القرن ١٩ الذي ظهر فيه الفن العربي المعاصر بتأثير من المسرح الاوروبي . ولعل اهم تلك الاشكال هو خيال الظل الذي يسميه العامة باسمه التركي «القراقوز» . اول ما ظهر في عهد العباسيين ، ومن الارجح انهم لم يعرفوا فنا مسرحيا معترفا به سواه . انتقل من بغداد الى مصر وازدهر ايام المماليك على يد الشاعر الطبيب محمد جمال الدين بن دانيال الذي ترك العراق الى مصر في القرن ١٣ ، ودفع بهذا الفن الى ذروة كماله ، واضعا له اسسه العملية والنظرية في باباته الثلاث : «طيف الخيال» ، و«عجيب وغريب» ، و«المتيم والضائع اليتيم» . يمكن اعتبار هذا الفن فنا مسرحيا بكل معنى الكلمة مع فارق واحد يميزه عن المسرح الكلاسيكي ، هو ان الصورة ، او بالاحرى ظل الصورة ، هو ما يقوم بالدور التمثيلي مقام الشخص البشري . ترسم الصورة على قصاصة من جلد ، فتصبح دمية ذات بعدين ، وتعلّق وحدها ، أو عدد منها ، بين مصباح وبين شاشة مصقولة بالشمع وشفافة يجلس امامها النظارة ، فيحرك اللاعب تلك الدمى ، فيتحرك ظلها على الشاشة امام اعين النظارة .

الكسار) . استعاد المسرح في مصر تألقه الجماهيري بعد سنة ١٩٥٥ .

المسرح في المشرق

رغم ظهور المسرح مبكرا في سورية ولبنان فانه ظل ضعيف الحركة والاثر في البلدين . زيارات الفرق المصرية (للشام والعراق وبلاد المغرب) كانت تنعشه أحيانا لكنها لم تستطع ، مع المسارح المدرسية ، ان تخلق المسرح الجماهيري الجاد . وظل المسرح نصوصا ادبية لا فن اداء تمثيلي واقعي . وكان الممثلون في اغلبهم من الهواة .

في العراق تشكلت أول فرقة مسرحية سنة ١٩٢٧ أسسها حقي الشبلي تلميذ جورج ابيض (الذي زار العراق سنة ١٩٢٦) ، درس في فرنسا وعاد ليؤسس قسم التمثيل في معهد الفنون الجميلة (١٩٣٩) . ظهرت بعد ذلك عدة فرق مسرحية مثلت روايات تاريخية وقومية واجتماعية . اتجه المسرح بعد سنة ١٩٥١ الى الواقعية والنقد الاجتماعي . في الكويت ظهر المسرح مبكرا سنة ١٩٣٨ وبرز من نجومه محمد النشمي الذي تألق في الخمسينات .

المسرح في المغرب

في المغرب كله كانت زيارات الفرق المسرحية المصرية المتكررة هي التي حركت الجو المسرحي المحلي . وهكذا قامت في درنة بليبيا فرقة من الهواة سنة ١٩٢٨ استمرت تقدم مسرحياتها حتى سنة ١٩٣٦ حين أسس احمد قنابة بمعونة ابراهيم الاسطي عمر فرقة في طرابلس ألف لها عدة مسرحيات ومثلها ومنها : وديعة الحاج فيروز ، حلم المأمون . كما قدم مسرحيات اجتماعية وتاريخية . غير أن النهضة المسرحية الليبية لم تظهر الا في الستينات .

في تونس بكرت الحركة المسرحية في الظهور سنة ١٩٠٩ . لكن نهضة المسرح انما ظهرت سنة ١٩٣٢ بتكوين مجموعة من فرق التمثيل (المستقبل التمثيلي ، فرقة السعادة ، جمعية التمثيل العربي) . وبرزت اول ممثلة تونسية : زبيدة الجزائرية . كما برز في الاربعينات خليفة السطنبولي المؤلف والممثل معا لعدد من المسرحيات التاريخية البارزة .

في الجزائر ارتبط المسرح بشركة غوموفون . قدمت مسرحيات خشنة ضاحكة بعد سنة ١٩٢٦ (مع الممثلين الكوميديين علالو ، داهمون) . ثم كان الثلاثينات عصر المسرح الذهبي على يد رشيد قسنطيني (١٨٨٧ – ١٩٤٤) وله ١٠٠ مسرحية واسكتش وألف اغنية . يبرز بعده في الخمسينات كاتب ياسين ومحيي الدين باش ترزي الذي كتب ٨ من اشهر المسرحيات .

اما في المغرب فقد اسست فرقة الهلال سنة ١٩٢٣ في طنجة فظلت ١١ سنة . وظهرت فرقة اخرى في فاس (١٩٢٤) على رأسها عبد الواحد الشاوي . وبرز فنان مسرحي هو القرى (الشاوي) الذي اضطهد بسبب فنه ، ثم قتل وعرف بدفين الصحراء ، وكان يوم وفاته يوم حداد وطني . تشكلت في الرباط مدرسة العاصمة الرباطية (١٩٢٦) . وفي مراكش فرقة مصطفى الجزار سنة ١٩٢٧ ثم ظل المسرح مزدهرا حتى الحرب الثانية . بعد الحرب تأسست فرقة الاحرار في الرباط ، والنجم المغربي للتمثيل العربي في فاس ، وتميزت جمعية اخوان الفن بالنقد السياسي .

السينما العربية حتى أواسط القرن العشرين

عرفت البلاد العربية السينما كظاهرة تكنولوجية قادمة من الغرب في تاريخ لم يتأخر الا سنة واحدة عن تاريخ انتشارها في اوروبا بعد امريكا . أول عرض لها كان في الاسكندرية (ديسمبر ١٨٩٥) ثم في القاهرة (يناير ١٨٩٦) . وفي هذه السنة نفسها عرضت في تونس . لكنها بدأت تستهوي بعض الفنانين العرب لدخول ميدان الانتاج السينمائي في الفترة بين ١٩١٧ – ١٩٢٧ . كان لا بد لهذه الخطوة من ان يسبقها تطور اجتماعي يتقبلها ، ونمو اقتصادي يمولها ، وحركة مسرحية وموسيقية وثقافية تستطيع ان تقدم لها بعض المقومات الاساسية والفنية ،

١



٢



٣

(١) – شهدت الاربعينات ازدهارا ملحوظا في الفيلم الغنائي بسبب التطور الذي لحق الاغنية ، ودخول قطبي الغناء محمد عبد الوهاب وأم كلثوم مجال التمثيل والانتاج وبسبب الحاجة الملحة للموسيقى كوسيلة لتعويض الحرمان المادي والمعنوي . السينما اختطفت نجوم الغناء لتزيد نجاحها الجماهيري . فيلم رصاصة في القلب (عن قصة توفيق الحكيم) ١٩٤٤ واحد من مجموعة افلام غنائية لعبد الوهاب أخرجها محمد كريم .

وتحشد لها الجمهور المساند . توفر ذلك في مصر اكثر من اي بلد عربي آخر . الاقطار العربية الاخرى التي عملت في الانتاج السينمائي (الجزائر ، سوريا ، العراق ، فلسطين ، المغرب) انتظرت ظهور مؤسسات السينما الرسمية فيها كي تنهض بهذا الفن .

السينما في مصر

اول انتاج سينمائي مصري يستحق حمل الهوية العربية كان سنة ١٩٢٧ في فيلمين : الاول قبلة في الصحراء لابراهيم لاما بطولة بدر لاما ، ثم فيلم ليلى . وكانا بالطبع صامتين لان السينما الناطقة لم تكن قد عرفت . انتجت الفيلم الثاني فنانة مسرحية مشهورة في ذلك الحين هي عزيزة امير ، واخرجه الصحفي احمد جلال . نجح لدى الجماهير لاكتمال عناصره ومقوماته الفنية والاقتصادية





(٢) ـ فيلم وداد (١٩٣٦) ، قامت ببطولته ام كلثوم قصته وحواره للشاعر احمد رامي . اعد السيناريو احمد بدرخان وأخرجه مخرج الماني (فريتز كرامب) . عرض في مهرجان البندقية للسينما ١٩٣٦ . حقق نجاحا تجاريا شجع ام كلثوم على الظهور في افلام اخرى منها نشيد الأمل ودنانير . كما فتح الابواب واسعة للفيلم الغنائي .

(٣) ـ اخرج محمد كريم فيلم زينب مرتين ١٩٢٩ ثم سنة ١٩٥٢ (ومثلته راقية ابراهيم) . القصة للاديب والكاتب محمد حسين هيكل ـ ومضمونها الفكري يتبنى قضية من اهم قضايا المجتمع العربي وهي مشكلة تحرير المرأة ـ التي احتلت مكانا مرموقا في الفكر العربي الحديث ، وكانت معالجة اوضاعها احدى الدعامات التي ارتكزت عليها السينما العربية .

(٤) ـ عرف الفيلم العربي طفرة واسعة منذ الخمسينات بجهود طبقة من الفنيين المثقفين . وفيلم بداية ونهاية (١٩٦٨) عن (قصة نجيب محفوظ) من الاعمال البارزة للواقعية الاجتماعية ويعتبر امتدادا لاسلوب مميز في الاخراج السينمائي عرف به واحد من دعائم السينما العربية والمصرية ـ هو صلاح ابو سيف الذي بدأ في استوديو مصر وعاش عصره الذهبي ـ عمل مساعدا لكمال سليم المخرج الطليعي (١٩١٣ ـ ١٩٤٥) في فيلمه الخالد العزيمة ١٩٣٧ الذي تجري احداثه في بعض حارات القاهرة . استعراض اعمال ابي سيف منذ بدايته الاولى (المنتقم) ١٩٤٧ و«الاوسطى حسن» ١٩٥٢ ، و«شباب امرأة» ١٩٥٦ .. الى «القادسية» ١٩٨٢/٨١ تكشف تميزه في استخدام السينما للتحليل الاجتماعي والسياسي .

(٥) ـ يوميات نائب في الارياف لتوفيق صالح (١٩٦٩) مأخوذ عن قصة توفيق الحكيم ويعالج مشكلة الانفصال والتناقض بين المدينة والقرية .

المحلية . شهدت فترة السينما الصامتة حتى سنة ١٩٣١ اعمالا اخرى منها فيلم زينب سنة ١٩٢٩ (قصة محمد حسين هيكل) وكان خطوة مباشرة في طريق الواقعية الاجتماعية . انتجه رائد مسرحي هو يوسف وهبي واخرجه محمد كريم . وقد صورت مشاهده في قرى الدلتا والفيوم لا عن ايمان مبكر «بالواقعية الجديدة» ، ولكن لعدم وجود استديوهات يومذاك .

وقدم فيه مشهد ملون (٤٠٠ م) جرى تلوينه باليد في باريس . ظهر اول فيلم ناطق اولاد الذوات سنة ١٩٣٢ ، كما ظهرت باكورة السينما الهزلية حين انتج نجيب الريحاني فيلم سعادة كشكش بيه سنة ١٩٣١ ناقلا اليه مسرحه الفكاهي .

يعتبر افتتاح استوديو مصر (١٩٣٥) علامة مميزة في تاريخ السينما العربية لانه لم يفتح المجال لاطلاق الصناعة

٦



٧



٨



(٦) – وصف النقاد فيلم «المومياء» لشادي عبد السلام (١٩٦٩) باللؤلؤة وسط الانتاج السينمائي العربي ، لانه يمثل مذهبا جديدا في المعالجة . استخدم مذهب التجريد لتفجير مشكلة قومية هي ضياع شخصية الامة عبر سنوات طويلة من الفقر والاستعمار . مشهد خروج القرية لوداع الموميات من اقوى مشاهد الفيلم .

(٧) – فيلم «الارض» الذي اخرجه يوسف شاهين (١٩٦٩) كان ملحمة بأناسها الطيبين الذين يروون ارضهم مع الماء بالدماء . ذكر «انه تمثيل مأسوي لنكبة فلسطين ولفضح البورجوازية المهادنة حتى الخيانة» وأضاف «انه اول فيلم مصري يعطي الكلام للشعب» .

(٨) – «رياح الاوراس» لمحمد الاخضر حمينه (١٩٦٩) قصة عائلة جزائرية دمرتها الحرب . اسلوب المخرج تجريدي ويستخدمه وسيلة للنقد الاجتماعي والثقافي والسياسي .

السينمائية ، ولتدريب حشد من الفنيين في ميدان السينما وحسب ، بل اعطاها ايضا أداتها الفنية وشرعيتها القومية . اول فيلم صور فيه هو فيلم وداد بطولة ام كلثوم (٢) ، وحقق ربحا تجاريا كبيرا فتح الباب لازدهار الفيلم التجاري الغنائي ، وخاصة في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها . اشترك في هذا النوع من الافلام جميع نجوم الغناء (١) . ورغم ذلك ظهرت افلام تعكس بعض الوعي السياسي والثقافي ، وفي مستوى حسن من الانتاج منها فيلم العزيمة (١٩٣٩) لكمال سليم ، السوق السوداء (١٩٤٦) لكامل التلمساني و النائب العام (١٩٤٧) لاحمد كامل مرسي . وبرزت اسماء عدد من المخرجين الآخرين منهم نيازي مصطفى .

مع بداية الخمسينات اعيد اخراج فيلم زينب (٣) ناطقا ١٩٥٢ وبدأت تظهر بعض الاعمال السينمائية التي تعكس المناخ الاجتماعي او الفكري القومي تجاوبا مع الظروف السياسية (٤ ، ٥) .

السينما في المشرق العربي

عرفت السينما في سوريا ولبنان والعراق في وقت مبكر . اول عرض في سوريا كان في حلب سنة ١٩٠٨ وفي دمشق سنة ١٩١٨ وفي بغداد سنة ١٩٠٩ . لكن الانتاج تأخر لمصاعب كثيرة فنية . وتجارية وعملية اوقفته عن الازدهار . المحاولات في سوريا كانت فردية دوما حتى سنة ١٩٦٦ ، ولعل ابرزها شركة الافلام السورية التي انتجت سنة ١٩٤٧ فيلم ليلى العامرية ، بالاشتراك مع فنانين وفنيين من مصر . في لبنان لم ينتج ما بين ١٩٢٩ و ١٩٥٢ سوى ٨ افلام .

في العراق ، رغم المحاولات التي بدأت سنة ١٣٩٠ ، لم يظهر أول فيلم عراقي ابن الشرق الا سنة ١٩٤٦ ، ومعه فيلم القاهرة بغداد . ثم ظهر في السنة التالية فيلم علياء وعصام ، ثم ليلى في العراق سنة ١٩٤٩ . الافلام العراقية الجادة بدأت في الستينات بعد افلام رديئة عديدة حين تأسست سنة ١٩٦٠ مؤسسة السينما . يبرز بينها فيلم الظامئون .

السينما في المغرب العربي

انشىء مركز السينما التونسي ١٩٤٦ ، ودائرة السينما في الجزائر ١٩٤٧ ، ومركز السينما المغربي ١٩٤٤. لكن أهم المراكز هي السينما الجزائرية (٨) . وقد برزت عمليا مع ثورة الاستقلال ١٩٥٦ . استخدمت فيها كوسيلة اعلامية ناجحة .

في تونس فتحت أول صالة عرض ١٩٠٨ واخرج اول فيلم ١٩٢٤ وهو صامت بالطبع واسمه عين الغزال اخرجه شمامه شكلي . لكن هذه البداية المبكرة بقيت دون غد حتى الخمسينات . حين تأسست الجامعة التونسية لنوادي السينما .

في المغرب لم ينجم عن انشاء المركز السينمائي سنة ١٩٤٤ انتاج هام وقد صار مؤسسة عامة بعد ١٩٥٥ . أنتج افلاما اخبارية وجريدة سينمائية . بالاضافة الى هذا تأسست منذ ١٩٤٤ ستوديوهات صوصى في الرباط وأول شريط مغربي ناطق بالعربية (وكان ناطقا بالفرنسية في الاصل) انتج ١٩٤٦ واسمه الباب السابع .

Weekly News; [6] New Zealand Forest Products Ltd, Auckland; [7] New Zealand Dairy Board; [8] Air New Zealand; [9] Frank Wallis. **252–3** [Key] Popperfoto; [1] Popperfoto; [2] De Beers Consolidated Mines Ltd; [3] National Portrait Gallery; [4] South Africa House; [5] Camera Press; [6] Camera Press; [7] Popperfoto; [8] Popperfoto; [9] Popperfoto. **254–5** [Key] Source unknown; [2] Camera Press; [3] Camera Press; [4] Associated Press; [5] Popperfoto; [7] Camera Press; [8] Keystone Press; [9] United Nations; [10] Agency for Public Information/Errol Harvey. **256–7** [Key] General Secretariat, Organization of American States; [1] National Palace of Mexico; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Camera Press; [4] Robert Cundy/Robert Harding Associates; [5] Associated Press; [7] G. A. Mather/Robert Harding Associates; [8] Ramano Cagnoni; [9] Douglas Botting; [10] Associated Press. **258–9** [Key] Associated Press; [1] Roger Viollet; [2] Popperfoto; [4A] Roger Viollet; [4B] Roger Viollet; [6] Associated Press; [7] Associated Press; [9] Camera Press; [10] Associated Press. **260–1** [Key] Popperfoto; [1] The Archives, Glasgow University; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Popperfoto; [5] Camera Press; [6] Picturepoint; [7] Picturepoint; [8] Picturepoint; [9] Camera Press; [10] Picturepoint. **262–3** [Key] Picturepoint; [1] Mansell Collection; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] MB photograph; [5] Camera Press; [6] Welsh Arts Council; [7] Camera Press. **264–5** [Key] Shostal; [2A] Camera Press; [2B] Camera Press; [2C] Camera Press; [2D] Camera Press; [2E] Camera Press; [2F] Camera Press; [2G] Camera Press; [4] Associated Press. **266–7** [Key] Margaret Murray; [2] Geoff Goode; [3] Kibbutz Representatives; [4] Scottish New Towns Development Board; [6] Keystone Press; [7] Ted Lau, Fortune © Time Inc 1976/Colorific; [9] Camera Press; [10] Camera Press. **268–9** [Key] Copyright unknown; [1] Kobal Collection; [2] Kobal Collection; [3] Kobal Collection; [4] Kobal Collection; [5] Kobal Collection; [6] Kobal Collection; [7] Kobal Collection; [8] Kobal Collection; [9] Kobal Collection. **270–1** [Key] Universal [Edition] London Ltd; [3A] EMI; [3B] Photo Macdomnic, by courtesy of EMI; [4] Österreichische Nationalbibliothek; [9] Copyright unknown; [10] James Klosty/Edition Peters. **272–3** [Key] Max Jones; [2] American History Picture Library; [3] Max Jones; [4] Max Jones; [5] Redferns/pic by Herman Leonard (Charles Stewart Collection); [6] Max Jones; [7] Redferns/Stephen Morley; [8] Redferns/David Redfern; [9] CBS Records/photograph by Don Hunstein; [10] Jill Furmanovsky/Hipgnosis. **274–5** [Key] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [2] Angelo Hornak/V & A; [3] Frank Sharman; [4] Musée des Arts Décoratifs, Paris; [5] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [6] Fred Fehl; [7] Anthony Crickmay. **276–7** [Key] Columbia Warner Pictures/B.F.I.; [1] Robert J. Flaherty/B.F.I.; [2] Anycon Co/B.F.I.; [3] Ian Cameron; [4] Societé du Cinéma du Panthéon/B.F.I.; [5] RKO General Inc/B.F.I.; [6] Contemporary Films/B.F.I.; [7] Toho International/B.F.I.; [8] Aktiebolaget Svensk Filmindustri/B.F.I.; [9] Rizzoli Films SPA/B.F.I.; [10] Vaughan Films/B.F.I. **278–9** [Key] Leo Castelli, New York; [1] Tübingen Kunsthalle, Germany; [2] Kasmin Ltd; [3] Gallerie Reckermann, Cologne/Germot Langer; [4] Museum of Modern Art, New York. Gift of D. & J. de Menil; [5] Waddington Galleries; [6] Nigel Greenwood/Douglas Thompson; [7] Denise René Gallery, Paris; [8] Trustees of the Tate Gallery/John Webb. **280–1** [Key] Trustees of the Tate Gallery; [1] John Webb/Trustees of the Tate Gallery; [2] Cooper Bridgeman Library; [3] David Strickland; [4] John Webb/Trustees of the Tate Gallery; [5] Woodmansterne; [6] Kasmin Ltd; [7] John Goldblatt/© Floyd Picture Library; [8] Lisson Gallery. **282–3** [Key] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [1] National Gallery of Ireland; [2] National Portrait Gallery; [3] Irish Tourist Board; [4] From *The Tain*/illustration by Louis le Brocquy/published by The Dolmen Press; [5] National Portrait Gallery; [6] Irish Tourist Board; [7] Picturepoint; [8] Andrew Wiard/Report. **284–5** [Key] Scottish Tourist Board; [1] National Portrait Gallery; [2] Scottish Tourist Board; [4] Woodmansterne; [5] Studio Swain/Mitchell Library, Glasgow; [6] Scottish Opera House, Glasgow; [7] Studio Swain/Mitchell Library, Glasgow; [8] Sir Basil Spence Partnership; [9] Trustees of the Tate Gallery. **286–7** [Key] The Wales Tourist Board; [1] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [2] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [3] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [4] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [5] National Portrait Gallery; [6] Jane Bown; [7] Trustees of The Tate Gallery; [8] Welsh Arts Council; [9] Welsh National Opera & Drama Co. **288–9** [Key] Mansell Collection; [1] Trustees of the British Museum/Ray Gardner; [2] Trustees of the British Museum/Ray Gardner; [3] Source unknown; [5] Sheila Orme/The National Trust; [6] SEFA; [7] Topix; [8] Henri Cartier Bresson/John Hillelson Agency; [9] Kobal Collection; [10] Alskog Inc; [11] Eva Sereny/Sygma/John Hillelson Agency; [12] Photo Baker, London; [13] Ian Whyles/Robert Harding Associates. **290–1** [Key] Camera Press; [1] The Beinecke Rare Book & Manuscript, Yale University; [2] John Watson; [3] Photo Baker, London; [4] Photo Baker, London; [5] Alan Durand/Robert Harding Associates; [6] Popperfoto; [7] Source unknown; [8] Associated Press; [9] Douglas H. Jeffrey; [10] Kindly loaned by Amos Tutuola; [11] Camera Press. **292–3** [Key] Roman Cagnoni; [2] Popperfoto; [3] Camera Press; [4] Camera Press; [5] Camera Press; [9] Camera Press; [10] Popperfoto. **294–5** [1] Mansell Collection; [2] Tony O'Malley Pictures Ltd; [3] Green Studio, Dublin; [4] Harland & Wolff Ltd; [5] Camera Press; [6] Camera Press; [7] Camera Press; [8] Arthur Guinness Son & Co (Dublin) Ltd; [9] Camera Press; [10] Popperfoto. **296–7** [Key] Institute of Contemporary History/Weiner Library/Geoff Goode; [3] Central Zionist Archives; [4] Central Press; [5] Camera Press. **298–9** [Key] United Nations; [1] Associated Press; [2] Associated Press; [4A] United Nations; [4B] United Nations; [4C] United Nations; [4D] United Nations; [6] Camera Press; [7] Keystone Press; [8] Camera Press. **300–301** [Key] Terry Kirk/Financial Times; [3] Régis Bossu/Copyright SYGMA/Magnum. **302–3** [Key] Camera Press; [4] Paolo Koch; [5] C. Gascoigne/Robert Harding Associates; [6] Picturepoint; [7] Margaret Murray/Ikon Productions; [8] Peter Fraenkel. **304–5** [Key] Popperfoto; [1] World Council of Churches; [2] Camera Press; [4] Camera Press; [5] Associated Press; [6] Shostal; [7] Camera Press; [8] Associated Press; [9] Chris Steele Perkins. **306–7** [Key] Associated Press; [2] Associated Press; [3] Elliot Erwitt/Magnum; [4] Associated Press; [5] Associated Press; [6] Associated Press; [7] Neal Boenzi/The New York Times/John Hillelson Agency; [9] Camera Press; [10] Popperfoto.

Time Chart

312–13 Mrs Barbara Edwards/Carter Nash Cameron; Michael Holford/V & A; Mansell Collection; Scala; Mansell Collection; Mansell Collection; Ronan Picture Library. **314–15** Michael Holford; Michael Holford/Louvre; Giraudon. **316–17** Mansell Collection; Mansell Collection; Cooper Bridgeman; Mansell Collection; Mansell Collection. **318–19** Mansell Collection; Cooper Bridgeman; Cooper Bridgeman; Mansell Collection. **320–1** Ronan Picture Library; Mansell Collection; Ronan Picture Library; Robert Hunt Library; Mansell Collection; Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz. **322–3** Mansell Collection; Mansell Collection; Bildarchiv Foto Marburg. **324–5** Mansell Collection; Mansell Collection; Imperial War Museum; Mansell Collection; Mansell Collection. **326–7** Radio Times Hulton Picture Library; Popperfoto; Maurice Rickards; Robert Hunt Library; Novosti Press Agency; Novosti Press Agency; Camera Press. **328–9** Camera Press; Camera Press; Camera Press; Keystone Press; Camera Press; Camera Press; Camera Press; Camera Press; Camera Press; Camera Press.

الرسوم :

Art Editors
Angela Downing, George Glaze, James Marks, Mel Peterson, Ruth Prentice, Bob Scott
Visualizers
David Aston, Javed Badar, Allison Blythe, Angela Braithwaite, Alan Brown, Michael Burke, Alistair Campbell, Terry Collins, Mary Ellis, Judith Escreet, Albert Jackson, Barry Jackson, Ted Kindsey, Kevin Maddison, Erika Mathlow, Paul Mundon, Peter Nielson, Patrick O'Callaghan, John Ridgeway, Peter Saag, Malcolme Smythe, John Stanyon, John Stewart, Justin Todd, Linda Wheeler
Artists
Stephen Adams, Geoffrey Alger, Terry Allen, Jeremy Alsford, Frederick Anderson, John Arnold, Peter Arnold, David Ashby, Michael Badrick, William Baker, John Barber, Norman Barber, Arthur Barvoso, John Batchelor, John Bavosi, David Baxter, Stephen Bernette, John Blagovitch, Michael Blore, Christopher Blow, Roger Bourne, Alistair Bowtell, Robert Brett, Gordon Briggs, Linda Broad, Lee Brooks, Rupert Brown, Marilyn Bruce, Anthony Bryant, Paul Buckle, Sergio Burelli, Dino Bussetti, Patricia Casey, Giovanni Cassell, Nigel Chapman, Chensie Chen, David Chisholm, David Cockcroft, Michael Codd, Michael Cole, Terry Collins, Peter Connelly, Roy Coombs, David Cox, Patrick Cox, Brian Cracker, Gordon Cramp, Gino D'Achille, Terrence Daley, John Davies, Gordon C. Davis, David Day, Graham Dean, Brian Delf, Kevin Diaper, Madeleine Dinkel, Hugh Dixon, Paul Draper, David Dupe, Howard Dyke, Jennifer Eachus, Bill Easter, Peter Edwards, Michael Ellis, Jennifer Embleton, Ronald Embleton, Ian Evans, Ann Evens, Lyn Evens, Peter Fitzjohn, Eugene Flurey, Alexander Forbes, David Carl Forbes, Chris Fosey, John Francis, Linda Francis, Sally Frend, Brian Froud, Gay Galfworthy, Ian Garrard, Jean George, Victoria Goaman, David Godfrey, Miriam Golochoy, Anthea Gray, Harold Green, Penelope Greensmith, Vanna Haggerty, Nicholas Hall, Horgrave Hans, David Hardy, Douglas Harker, Richard Hartwell, Jill Havergale, Peter Hayman, Ron Haywood, Peter Henville, Trevor Hill, Garry Hinks, Peter Hutton, Faith Jacques, Robin Jacques, Lancelot Jones, Anthony Joyce, Pierre Junod, Patrick Kaley, Sarah Kensington, Don Kidman, Harold King, Martin Lambourne, Ivan Lapper, Gordon Lawson, Malcolm Lee-Andrews, Peter Levaffeur, Richard Lewington, Brian Lewis, Ken Lewis, Richard Lewis, Kenneth Lilly, Michael Little, David Lock, Garry Long, John Vernon Lord, Vanessa Luff, John Mac, Lesley Macintyre, Thomas McArthur, Michael McGuinness, Ed McKenzie, Alan Male, Ben Manchipp, Neville Mardell, Olive Marony, Bob Martin, Gordon Miles, Sean Milne, Peter Morter, Robert Morton, Trevor Muse, Anthony Nelthorpe, Michael Neugebauer, William Nickless, Eric Norman, Peter North, Michael O'Rourke, Richard Orr, Nigel Osborne, Patrick Oxenham, John Painter, David Palmer, Geoffrey Parr, Allan Penny, David Penny, Charles Pickard, John Pinder, Maurice Pledger, Judith Legh Pope, Michael Pope, Andrew Popkiewicz, Brian Price Thomas, Josephine Rankin, Collin Rattray, Charles Raymond, Alan Rees, Ellsie Rigley, John Ringnall, Christine Robbins, Ellis Robertson, James Robins, John Ronayne, Collie Rose, Peter Sarson, Michael Saunders, Ann Savage, Dennis Scott, Edward Scott-Jones, Rodney Shackell, Chris Simmonds, Gwendolyn Simson, Cathleen Smith, Les Smith, Stanley Smith, Michael Soundels, Wolf Spoel, Ronald Steiner, Ralph Stobart, Celia Stothard, Peter Sumpter, Rod Sutterby, Allan Suttie, Tony Swift, Michael Terry, John Thirsk, Eric Thomas, George Thompson, Kenneth Thompson, David Thorpe, Harry Titcombe, Peter Town, Michael Trangenza, Joyce Tuhill, Glenn Tutssel, Carol Vaucher, Edward Waite, Geoffrey Wadsley, Mary Waldron, Michael Walker, Dick Ward, Brian Watson, David Watson, Peter Weavers, David Wilkinson, Ted Williams, John Wilson, Roy Wiltshire, Terrence Wingworth, Anne Winterbotham, Albany Wiseman, Vanessa Wiseman, John Wood, Michael Woods, Owen Woods, Sidney Woods, Raymond Woodward, Harold Wright, Julia Wright
Studios
Add Make-up, Alard Design, Anyart, Arka Graphics, Artec, Art Liaison, Art Workshop, Bateson Graphics, Broadway Artists, Dateline Graphics, David Cox Associates, David Levin Photographic, Eric Jewel Associates, George Miller Associates, Gilchrist Studios, Hatton Studio, Jackson Day, Lock Pettersen Ltd, Mitchell Beazley Studio, Nega Photographic, Paul Hemus Associates, Product Support Graphics, Q.E.D. [Campbell Kindsley], Stobart and Sutterby, Studio Briggs, Technical Graphics, The Diagram Group, Tri Art, Typographics, Venner Artists
Agents
Artist Partners, Freelance Presentations, Garden Studio, Linden Artists, N.E. Middletons, Portman Artists, Saxon Artists, Thompson Artists

1976; [7] Kunstsammlung Nordrhein Westfalen/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [8] By courtesy of Marlborough Fine Art (London) Ltd. **176–7** [Key] Trustees of the Tate Gallery/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [1] Collection Alex Maguy/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [2] Giraudon/Kunst Museum Basle; [3] Charles Uht/By permission of Nelson A. Rockefeller/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [4] Collection the Museum of Modern Art, New York, Bequest of Alma Erickson Levene/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [5] Philadelphia Museum of Art, The A. E. Gallatin Collection/Alfred J. Wyatt/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [6] Musée Leger/ S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [7] Collection, the Museum of Modern Art, New York. Acquired through the Lillie P. Bliss Bequest/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [8] Private collection, Milan; [9] Collection, the Museum of Modern Art, New York. Acquired through the Lillie P. Bliss Bequest. **178–9** [Key] Architectural Association; [1] A. F. Kersting; [2] Christabel Valkenberg; [3] Architectural Association; [4A] Architectural Association; [4B] Architectural Association; [5] Bill Engdahl/Hedrich Blessing; [6B] Architectural Association. **180–1** [Key] Ronan Picture Library; [1] Mary Evans Picture Library; [3] Ullstein Bilderdienst; [5] Österreichische Nationalbibliothek; [6] Source unknown; [7] Snark International; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **182–3** [Key] National Portrait Gallery; [1] Photographie Giraudon; [2] Mary Evans Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Mansell Collection; [6] Mansell Collection; [7] Punch Publications Ltd; [8] Popperfoto; [9] London School of Economics. **184–5** [Key] Source unknown; [1] Mansell Collection; [2] Cyril & Methodius National Library, Sofia, Bulgaria; [3] Mansell Collection; [4] Archiv für Kunst & Geschichte; [6] IBA, Zurich; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **186–7** [Key] Roger Viollet; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Ullstein Bilderdienst; [7] Source unknown; [8] Ullstein Bilderdienst. **188–9** [Key] Imperial War Museum; [7] Robert Hunt Library; [10] Image Press. **190–1** [1] Imperial War Museum; [3] Heeresgeschichtliches Museum, Vienna; [5] Image Press; [6] Chaz Bowyer; [7] Ullstein Bilderdienst; [9] Image Press. **192–3** [Key] Roger Viollet; [2] Roger Viollet; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Mansell Collection; [9] Ullstein Bilderdienst. **194–5** [Key] Mansell Collection; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Eileen Tweedy/IWM; [4] Camera Press; [5] Wilfred Owen Estate; [8] Mansell Collection; [9] Radio Times Hulton Picture Library; [10] Radio Times Hulton Picture Library. **196–7** [Key] Novosti Press Agency; [1] Novosti Press Agency; [2] Mansell Collection; [3] Bettmann Archive; [4] Novosti Press Agency; [5] Novosti Press Agency; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Novosti Press Agency; [8] Snark International; [9] Geoff Goode/Courtesy The School of Slavonic Studies; [11] Radio Times Hulton Picture Library. **198–9** [Key] Camera Press; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Popperfoto; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Life © Time Inc. 1976/Colorific; [10] Radio Times Hulton Picture Library; [11] Robert Hunt Library. **200–201** [Key] Kobal Collection; [1] By Courtesy of Madame Malthete Melies/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [2A] Out of copyright; [2B] Out of copyright; [3] Itala Films; [4] Kobal Collection; [5] Kobal Collection; [6] Kobal Collection; [7] Out of copyright; [8] Kobal Collection. **202–3** [Key] D. Bellon/Images et Textes/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [1] Gimpel Fils, London/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [2] Kunstsammlung Nordrhein Westfalen/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [3] Collection of the Museum of Modern Art, New York, Purchase; [4] Harry N. Abrams Inc/Permission of Nelson A. Rockefeller; [5] Collection of the Museum of Modern Art, New York. Acquired through an Anonymous Fund, The Mr & Mrs Joseph Slifka & Armand G. Erpf Funds, and by gift from the artist/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [6] Museum Boymans-Van Beuningen Rotterdam/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [7] Arts Council of Great Britain/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [8] Collection of the Museum of Modern Art, New York. The A. Conger Goodyear Fund; [9] National Museum, Moderna Museet, Stockholm. **204–5** [Key] Collection of the Museum of Modern Art, New York. Gift of Mr & Mrs David M. Solinger; [1] Kunstsammlung Nordrhein Westfalen, Düsseldorf/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [2] Stedelijk Museum, Amsterdam; [3] Angelo Hornak; [4] Haags Gemeentemuseum; [5] Trustees of the Tate Gallery; [6] Colourphoto Hans Hinz, Basle/Kunstmuseum, Basle/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [7] By kind permission of Henry Moore/Trustees of the Tate Gallery/John Webb; [8] Metropolitan Museum of Art, New York, George A. Heard Fund, 1957. **206–7** [Key] James Austin; [1] Angelo Hornak; [2] Cadbury Brown/Architectural Association; [4] Roger Whitehouse/Architectural Association; [6] James Stirling/Architectural Association; [7] Adrian Atkinson/Architectural Association; [8] Geoffrey Munro/Architectural Association; [9] James Stirling/Architectural Association. **208–9** [Key] Bettmann Archive; [4] Woolf, Laing, Christie & Partners; [5] Bettmann Archive; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Picturepoint; [9] Bettmann Archive. **210–11** [Key] London School of Economics; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Syndication International; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **212–13** [Key] TUC Archive; [1] Mansell Collection; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Roger Viollet; [5] Roger Viollet; [6] Bettmann Archive; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Maurice Rickards. **214–15** [Key] Camera Press; [1] Source unknown; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Keystone Press; [5] Camera Press; [7] Keystone Press; [9] Robert Hunt Library. **216–17** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] National Army Museum; [3] Popperfoto; [4] Camera Press; [5] Mansell Collection; [6] Geoslides; [7] National Army Museum; [8] Robert Hunt Library; [10] Keystone Press. **218–19** [Key] Popperfoto; [1] Popperfoto; [2] ZEFA; [3] National Portrait Gallery; [4] Popperfoto; [5] Popperfoto; [6] Popperfoto; [7] Black Star Publishing Ltd; [8] Keystone Press Agency Ltd; [9] Popperfoto; [10] Camera Press. **220–1** [Key] Daily Mirror; [2] Trustees of the National Portrait Gallery; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Keystone Press; [6] Camera Press; [7] Royal Commonwealth Institute; [8] Associated Press. **222–3** [Key] Internationale Bildagentur; [2] Ullstein Bilderdienst; [2] Ullstein Bilderdienst; [3] Ullstein Bilderdienst; [5] Ullstein Bilderdienst; [6] International Bilderagentur; [8] Snark International. **224–5** [Key] Popperfoto; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] British Airways; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Graham Newell; [7] Butlins; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Radio Times Hulton Picture Library; [10] Radio Times Hulton Picture Library. **226–7** [Key] Keystone Press; [1] Keystone Press; [2] Robert Hunt Library/Associated Press; [4] Archiv für Kunst und Geschichte; [7] Robert Hunt Library; [8] Cartoon by David Low by arrangement with the Trustees of the London *Evening Standard*; [9] Robert Hunt Library. **228–9** [2A] Robert Hunt Library; [2B] Robert Hunt Library; [2C] Imperial War Museum; [4] Robert Hunt Library; [6] Robert Hunt Library; [8] Robert Hunt Library/Imperial War Museum. **230–1** [1] Documentation Française; [2] Image Press; [3] Image Press; [4] Novosti Press Agency; [5] Popperfoto; [6] Imperial War Museum; [7] Official USAF Photo; [8] Imperial War Museum; [9] Popperfoto; [10] Australian War Memorial. **232–3** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] Imperial War Museum; [4] Fox Photos; [5] Roger Viollet; [6] Roger Viollet; [7] Angelo Hornak/Imperial War Museum; [8] Novosti Press Agency; [9] Orion Press/Camera Press; [10] Snark International; [11] IBA, Zurich; [12] Snark International. **234–5** [Key] Novosti Press Agency; [1] Robert Hunt Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] IBA, Zurich; [4] Associated Press; [6] Keystone Press Agency; [7] IBA, Zurich; [8] Popperfoto; [9] Popperfoto. **236–7** [Key] Popperfoto; [1] Popperfoto; [2] Punch Publications Ltd; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Graham Nash/Conservative Party Archives; [6] Fox Photos; [7] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Popperfoto; [9] Popperfoto. **238–9** [Key] Picturepoint; [1] Popperfoto; [2] David Strickland; [3] Popperfoto; [5] Camera Press; [6] Camera Press; [7] Rolls Royce Motors Ltd; [8] Camera Press; [9] Picturepoint. **240–1** [Key] Novosti Press Agency; [1] Popperfoto; [2] Popperfoto; [3] John F. Freeman; [5] Popperfoto; [8] Colorsport. **242–3** [Key] Camera Press; [2] Popperfoto; [3] Camera Press; [4] Associated Press; [5] Popperfoto; [6] Ginette Laborde, Paris; [7] Picturepoint. **244–5** [Key] Eastfoto; [1] Henri Cartier Bresson/John Hillelson Agency; [2] Eastfoto; [4] Camera Press; [6A] Sally and Richard Greenhill; [6B] Camera Press; [7] Camera Press; [9] Magnum Distribution. **246–7** [Key] Popperfoto; [2] Camera Press; [4] Popperfoto; [5] Camera Press; [6] Camera Press; [7] Australian News & Information Bureau. **248–9** [Key] Picturepoint; [1] Australian News & Information Bureau; [2] Anne-Marie Ehrlich; [5] Australian News & Information Bureau; [6] Popperfoto; [7] Popperfoto; [8] Camera Press; [9] Australian News & Information Bureau; [10] Australian News & Information Bureau. **250–1** [1] Weekly News; [2] New Zealand Herald; [3] Housing Corporation of New Zealand/Alexander Turnbull Library; [4] New Zealand Herald; [5]

Nationaux/Musée Jeu de Paume/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [4] Service de Documentation Photographique de la Réunion des Musées Nationaux/Musé Jeu de Paume/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [5] Service de Documentation Photographique de la Réunion des Musées Nationaux/Musée Jeu de Paume; [6] K. X. Rousseu; [7] Service de Documentation Photographique de la Réunion des Musées Nationaux/Musée Jeu de Paume; [8] Service de Documentation Photographique de la Réunion des Musées Nationaux/Musée Jeu de Paume/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [9] Giraudon/Musée Jeu de Paume/© S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [10] Philadelphia Museum of Art/John G. Johnson Collection. **120–1** [Key] Brenda Houston Rogers; [1] Österreichische Nationalbibliothek; [2] Roger Viollet; [3] Novosti/National Russian Museum; [4] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [5] Brenda Houston Rogers; [7] Gunter Englert; [8] Roger Viollet; [9] Stuart Robinson. **122–3** [Key] J. E. Bulloz; [1] Royal Academy of Arts; [2] A. F. Kersting; [4] From *Entretiens sur L'Architecture*, 1863; [5] From the *Pelican History of Art* by B. Abbott; [7] Mauro Pucciarelli; [8] The Museum of London; [9] Mauro Pucciarelli; [10] James Austin. **124–5** [Key] Geoff Goode/Trustees of the British Museum/Museum of Mankind; [2] Mansell Collection; [3] Trustees of the National Portrait Gallery; [4] Mary Evans Picture Library; [5] Trustees of the National Portrait Gallery; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Rijksmuseum, Amsterdam; [10] British Museum/Photo © Aldus Books, London. **126–7** [Key] The Art Gallery of New South Wales; [1] National Portrait Gallery; [2] National Portrait Gallery; [3] Waitangi National Trust; [4] Fotomas Index; [5] Weidenfeld & Nicolson Archives; [6] Fotomas Index/BM; [7] De Maus Collection/Alexander Turnbull Library; [8] Aukland Institute & Museum; [9] Australian Information Service; [10] Radio Times Hulton Picture Library. **128–9** [Key] Mansell Collection; [1] Popperfoto; [2] Mansell Collection; [4] Mansell Collection; [5] Alan Hutchison; [6] Cooper Bridgeman Library/National Army Museum; [7] Mary Evans Picture Library; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **130–1** [Key] Kim Sayer; [3] Mary Evans Picture Library; [5] Mansell Collection; [6] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Berlin. **132–3** [Key] Mansell Collection; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Mary Evans Picture Library; [3] Maurice Rickards/photo by Angelo Hornak/courtesy Canadian Pacific; [4] Punch Publications Ltd; [5] Fotomas Index; [6] Royal Commonwealth Society; [7] Punch Publications Ltd. **134–5** [Key] Eileen Tweedy/BM; [1] Mansell Collection; [2] Mary Evans Picture Library; [3] Fotomas Index/National Maritime Museum; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Popperfoto. [8] ZEFA; [9] Popperfoto. **136–7** [Key] Popperfoto; [2] Mary Evans Picture Library; [3] Eileen Tweedy; [5] Mansell Collection; [6] Weidenfeld & Nicolson Archives; [9] "Reprinted with permission of The Toronto Star". **138–9** [Key] Werner Forman Archive/Anspach Collection, NY; [2] Romano Cagnoni; [3] Charles Perry Weimer; [5A] Anthony Atmore; [5B] Anthony Atmore; [6] Popperfoto; [7] Ann and Bury Peerless. **140–1** [Key] Punch Publications Ltd; [2] National Army Museum; [3] Rick Strange/Robert Harding Associates; [4] National Army Museum; [5] Mansell Collection; [6] National Army Museum; [7] Trustees of the National Portrait Gallery; [8] India Office Library & Records; [9] National Army Museum. **142–3** [Key] Source unknown; [2] Mary Evans Picture Library; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Sybil Sassoon/Robert Harding Associates; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] From *Tribal Innovators* by I. Schapera; [7] Angelo Hornak/From *Life, Scenery & Customs of Sierra Leone & Gambia* by T. E. Poole; [8] Radio Times Hulton Picture Library. **144–5** [Key] Roger Viollet; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Library Archives of Weidenfeld & Nicolson; [8] V & A/Weidenfeld & Nicolson; [9] Mansell Collection. **146–7** [Key] Newcastle upon Tyne Public Libraries; [1] International Society for Educational Information, Tokyo; [3] Memorial Picture Gallery, Meiji Shrine, Tokyo; [4] Novosti Press Agency; [5] International Society for Educational Information, Tokyo; [6] Bradley Smith; [8] International Society for Educational Information, Tokyo. **148–9** All pictures from Western Americana. **150–1** [5] American History Picture Library; [9] Mansell Collection. **152–3** [1] Mansell Collection; [2] Western Americana; [3] Brown Brothers; [4] Angelo Hornak; [7] Brown Brothers. **154–5** [Key] Ronan Picture Library; [1] Royal Geographical Society; [2] Bradley Smith; [3] Tokyo National Museum; [4] National Maritime Museum; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Radio Times Hulton Picture Library. **156–7** [Key] Cavendish Laboratory/University of Cambridge; [1] The Royal Institution/Cooper Bridgeman; [2] Ronan Picture Library; [3] C. E. Abranson; [4] Mansell Collection; [5] The Royal Institution of Great Britain; [6] Ronan Picture Library; [7] Mansell Collection; [8] Popperfoto; [9] Mansell Collection; [10] Bavaria Verlag. **158–9** [Key] By kind permission of Marks & Spencer Ltd; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Angelo Hornak; [6] Mansell Collection. **160–1** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [1] National Portrait Gallery, [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Punch Publications Ltd.; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Fotomas Index; [7] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Fotomas Index. **162–3** [1] National Portrait Gallery; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Mansell Collection; [7] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Mansell Collection; [9] Radio Times Hulton Picture Library. **164–5** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Mary Evans Picture Library; [4] Woodmansterne; [5] Popperfoto; [7] National Portrait Gallery; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Weidenfeld & Nicolson Archives/Labour Party Photo Library. **166–7** [1] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [2] Welsh Folk Museum/National Museum of Wales; [3] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [4] National Museum of Wales; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [7] Eileen Tweedy/National Library of Wales; [8] National Portrait Gallery. **168–9** [Key] Novosti Press Agency; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Radio Times Hulton Picture Library; [3] John R. Freeman; (4) Novosti Press Agency; [5] Courtesy of Cultural Relations with the USSR; [6] Novosti Press Agency; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Novosti Press Agency; [10] Novosti Press Agency **170–1** [Key] Mansell Collection; [1] Punch Publications Ltd; [3] From the John Gorman Collection; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Giraudon; [6] British Red Cross Society; [7] Radio Times Hulton Picture Library. **172–3** [Key] Mansell Collection; [2] Manchester Public Libraries; [3A] Radio Times Hulton Picture Library; [3B] Radio Times Hulton Picture Library; [3C] Mansell Collection; [5A] Giraudon; [5B] Angelo Hornak/V & A. **174–5** [Key] Cooper Bridgeman/Rasmus Meyer Collection, Bildegalerie, Bergen; [1] Hans Hinz, Kunst Museum, Basle; [2] Trustees of Tate Gallery/© A.D.A.G.P., Paris, 1976; [3] Harry N. Abrams Inc/The Hermitage, Leningrad/© S.P.A.D.E.M. Paris, 1976; [4] Trustees of the Tate Gallery/© S.P.A.D.E.M. 1976/John Webb; [5] Hans Hinz, Basle; [6] Hans Hinz, Basle/© S.P.A.D.E.M., Paris.

هيئة تحرير
بهجة المعرفة
تتوجه بالشكر إلى :

Nicolas Bentley
Bill Borchard
Adrianne Bowles
Yves Boisseau
Irv Braun
Theo Bremer
the late Dr Jacob Bronowski
Sir Humphrey Browne
Barry and Helen Cayne
Peter Chubb
William Clark
Sanford and Dorothy Cobb
Alex and Jane Comfort
Jack and Sharlie Davison
Manfred Denneler
Stephen Elliott
Stephen Feldman
Orsola Fenghi
Professor Richard Gregory
Dr Leo van Grunsven
Jan van Gulden
Graham Hearn
the late Raimund von Hofmansthal
Dr Antonio Houaiss
the late Sir Julian Huxley
Alan Isaacs
Julie Lansdowne
Professor Peter Lasko
Andrew Leithead
Richard Levin
Oscar Lewenstein
The Rt Hon Selwyn Lloyd
Warren Lynch
Simon macLachlan
George Manina
Stuart Marks
Bruce Marshall
Francis Mildner
Bill and Christine Mitchell
Janice Mitchell
Patrick Moore
Mari Pijnenborg
the late Donna Dorita de Sa Putch
Tony Ruth
Dr Jonas Salk
Stanley Schindler
Guy Schoeller
Tony Schulte
Dr E. F. Schumacher
Christopher Scott
Anthony Storr
Hannu Tarmio
Ludovico Terzi
Ion Trewin
Egil Tveteras
Russ Voisin
Nat Wartels
Hiroshi Watanabe
Adrian Webster
Jeremy Westwood
Harry Williams
the dedicated staff of MB Encyclopaedias who created this *Library* and of MB Multimedia who made the IVR Artwork Bank.

الصور :

84–5 [Key] Turkish Tourist & Information Office; [1] J. E. Bulloz; [3A] Bildarchiv der Österreichischen Nationalbibliothek; [3B] Bildarchiv der Österreichischen Nationalbibliothek; [4] William Allan; [5] National Army Museum; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Bildarchiv der Österreichischen Nationalbibliothek. **86–7** [Key] Bettmann Archive; [3] Mansell Collection; [4] Douglas Botting; [5] Mike Andrews; [6] Bettmann Archive; [7] Bettmann Archive; [8] Bettmann Archive. **88–9** [Key] Mary Evans Picture Library; [4] Mansell Collection; [8] By permission of the Science Museum, London; [9A] By permission of Stanley Gibbons Ltd/Angelo Hornak; [10] Mansell Collection. **90–1** [Key] Fotomas Index; [2] Mansell Collection; [3] Weidenfeld & Nicolson Archives; [4] Aerofilms; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] David Strickland; [8] Michael Holford. **92–3** [Key] Freemans; [1] National Museum of Wales; [3] Fotomas Index; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Picturepoint; [8] Spectrum Colour Library; [9] Picturepoint. **94–5** [Key] Fotomas Index/BM; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Fotomas Index/BM; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] National Portrait Gallery; [5] Fotomas Index; [6] Eileen Tweedy; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Radio Times Hulton Picture Library; [10] Radio Times Hulton Picture Library. **96–7** [Key] Weidenfeld & Nicolson Archives/National Monuments Record; [1] Radio Times Hulton Picture Library; [2] National Portrait Gallery; [3] Radio Times Hulton Picture Library; [4] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Weidenfeld & Nicolson Archives; [8] National Portrait Gallery; [9] Aerofilms; [10] Radio Times Hulton Picture Library. **98–9** [Key] Mansell Collection; [1] Trustees of the Tate Gallery/John Webb; [2] J. Whitaker/Sphere Books; [3] Angelo Hornak/Scolar Press; [4A] John Frost Newspaper Collection/Angelo Hornak; [4B] Radio Times Hulton Picture Library; [5] Lauros Giraudon © S.P.A.D.E.M., Paris, 1976; [6] Roger Viollet; [7] Sally Chappell/V & A; [8] Giraudon/Louvre; [9] Society of Cultural Relations with the USSR. **100–101** [Key] University College, Oxford/Angelo Hornak; [1] Trustees of the British Museum; [2] John Massey Stewart; [3] Roger Viollet; [4] Scala; [5] Snark International; [6] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [7] Society for Cultural Relations with the USSR; [8] Mander & Mitchenson Theatre Collection; [9] Radio Times Hulton Picture Library. **102–3** [Key] Ashmolean Museum, Oxford; [1] Whitworth Art Gallery, University of Manchester; [2] Cooper Bridgeman/V & A; [3] Ralph Kleinhempel, Hamburg; [4] Cooper Bridgeman/Staatliche Kunstsammlungen, Dresden; [5] Gulbenkian Museum, Lisbon; [6] Trustees of the Tate Gallery; [7] Laing Art Gallery, Newcastle upon Tyne; [8] Trustees of the Tate Gallery. **106–7** [2] Spectrum Colour Library; [3] K. M. Andrew; [4] Novosti Press Agency; [5] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Staatsbibliothek, Berlin; [6] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Staatsbibliothek, Berlin; [7] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Staatsbibliothek, Berlin; [8] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Staatsbibliothek, Berlin; [9] Mary Evans Picture Library. **108–9** [Key] Mansell Collection; [3] Roger Viollet/Bibliothèque Nationale; [4] Ullstein Bilderdienst; [5] Scala; [7] Snark International. **110–11** [Key] Mansell Collection; [1] Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz, Staatsbibliothek, Berlin; [3] John R. Freeman; [4] Out of copyright; [5] Mauro Pucciarelli; [6] Istituto per la Storia del Risorgimento, Rome. **112–13** [Key] Mansell Collection; [1] Punch Publications Ltd; [2] Robert Harding Associates; [3] Picturepoint; [4] J. Bethell/National Trust/Weidenfeld & Nicolson Archives; [5] Geoff Goode; [6] Mansell Collection; [7] National Portrait Gallery; [9] Cooper Bridgeman Library/the Guildhall Library & Art Gallery. **114–15** [Key] Radio Times Hulton Picture Library; [2] Fotomas Index; [4] Mansell Collection; [5] Radio Times Hulton Picture Library; [6] Radio Times Hulton Picture Library; [7] Radio Times Hulton Picture Library; [8] Radio Times Hulton Picture Library; [9] Robert Harding Associates/London Museum. **116–17** [Key] Helmut Gernsheim Collection; [1] Angelo Hornak/Wellington Museum; [2] Lauros Giraudon/Musée Fabre, Montpellier/© A.D.A.G.P. Paris, 1976; [3] Giraudon/Louvre; [4] Cooper Bridgeman; [5] Cooper Bridgeman/Sir Colin Anderson; [6] Trustees of the Tate Gallery; [7] Courtesy of Jefferson Memorial College, Thomas Jefferson University; [8] Walters Art Gallery, Baltimore; [9] Royal Academy of Arts, London; [10] Trustees of the Tate Gallery/John Webb. **118–19** [Key] J. E. Bulloz; [1] Giraudon/Musée Marmottan, Paris/© S.P.A.D.E.M. Paris, 1976; [2] Museum of Fine Arts, Boston, Arthur Gordon Thompkins Residuary Fund/© S.P.A.D.E.M. Paris, 1976; [3] Service de Documentation Photographique de la Réunion des Musées

Christopher Cviic BA(Zagreb), BSc(Econ, London); Gordon Daniels BSc(Econ, London), DPhil(Oxon); George Darby BA; G.J. Darwin; Dr David Delvin; Robin Denselow BA; Professor Bernard L. Diamond; John Dickson; Paul Dinnage MA; M.L. Dockrill BSc(Econ), MA, PhD; Patricia Dodd BA; James Dowdall; Anne Dowson MA(Cantab); Peter M. Driver BSc, PhD, MIBiol; Rev Professor C.W. Dugmore DD; Herbert L. Edlin BSc, Dip in Forestry; Pamela Egan MA(Oxon); Major S.R. Elliot CD, BComm; Professor H.J. Eysenck PhD, DSc; Dr Peter Fenwick BA, MB, BChir, DPM, MRCPsych; Jim Flegg BSc, PhD, ARCS, MBOU; Andrew M. Fleming MA; Professor Antony Flew MA(Oxon), DLitt(Keele); Wyn K. Ford FRHistS; Paul Freeman DSc(London); G.S.P. Freeman-Grenville DPhil, FSA, FRAS, G.E. Fussell DLitt, FRHistS; Kenneth W. Gatland FRAS, FBIS; Norman Gelb BA; John Gilbert BA(Hons, London); Professor A.C. Gimson; John Glaves-Smith BA; David Glen; Professor S.J. Goldsack BSc, PhD, FINSTP, FBCS; Richard Gombrich MA, DPhil; A.F. Gomm; Professor A Goodwin MA; William Gould BA(Wales); Professor J.R. Gray; Christopher Green PhD; Bill Gunston; Professor A. Rupert Hall LittD; Richard Halsey BA(Hons, UEA); Lynette K. Hamblin BSc; Norman Hammond; Peter Harbison MA, DPhil; Professor Thomas G. Harding PhD; Professor D.W. Harkness; Richard Harris; Dr Randall P. Harrison; Cyril Hart MA, PhD, FRICS, FIFor; Anthony P. Harvey; Nigel Hawkes BA(Oxon); F.P. Heath; Peter Hebblethwaite MA (Oxon), LicTheol; Frances Mary Heidensohn BA; Dr Alan Hill MC, FRCP; Robert Hillenbrand MA, DPhil; Catherine Hills PhD; Professor F.H. Hinsley; Dr Richard Hitchcock; Dorothy Hollingsworth OBE, BSc, FRIC, FIBiol, FIFST, SRD; H.P. Hope BSc(Hons, Agric); Antony Hopkins CBE, FRCM, LRAM, FRSA; Brian Hook; Peter Howell BPhil, MA(Oxon); Brigadier K. Hunt; Peter Hurst BDS, FDS, LDS, RSCEd, MSc(London); Anthony Hyman MA, PhD; Professor R.S. Illingworth MD, FRCP, DPH, DCH; Oliver Impey MA, DPhil; D.E.G. Irvine PhD; L.M. Irvine BSc; E.W. Ives BA, PhD; Anne Jamieson cand mag(Copenhagen), MSc (London); Michael A. Janson BSc; G.H. Jenkins PhD; Professor P.A. Jewell BSc (Agric), MA, PhD, FIBiol; Hugh Johnson; Commander I.E. Johnston RN; I.P. Jolliffe BSc, MSc, PhD, ComplCE, FGS; Dr D.E.H. Jones ARCS, FCS; R.H. Jones PhD, BSc, CEng, MICE, FGS, MASCE, Hugh Kay; Dr Janet Kear; Sam Keen; D.R.C. Kempe BSc, DPhil, FGS; Alan Kendall MA (Cantab); Michael Kenward; John R. King BSc(Eng), DIC, CEng, MIProdE; D.G. King-Hele FRS; Professor J.F. Kirkaldy DSc; Malcolm Kitch; Michael Kitson MA; B.C. Lamb BSc, PhD; Nick Landon; Major J.C. Larminie QDG, Retd; Diana Leat BSc(Econ), PhD; Roger Lewin BSc, PhD, Harold K. Lipset; Norman Longmate MA(Oxon); John Lowry; Kenneth E. Lowther MA; Diana Lucas BA(Hons); Keith Lye BA, FRGS; Dr Peter Lyon; Dr Martin McCauley; Sean McConville BSc; D.F.M. McGregor BSc, PhD(Edin); Jean Macqueen PhD; William Baird MacQuitty MA(Hons), FRGS, FRPS; Professor Rev F.X. Martin OSA; Jonathan Martin MA; Rev Cannon E.L. Mascall DD; Christopher Maynard MSc, DTh; Professor A.J. Meadows; Dr T.B. Millar; John Miller MA, PhD; J.S.G. Miller MA, DPhil, BM, BCh; Alaric Millington BSc, DipEd, FIMA; Rosalind Mitchison MA, FRHistS; Peter L. Moldon; Patrick Moore OBE; Robin Mowat MA, DPhil; J. Michael Mullin BSc; Alistair Munroe BSc, ARCS; Professor Jacob Needleman; John Newman MA, FSA; Professor Donald M. Nicol MA PhD; Gerald Norris; Professor F.S. Northedge PhD; Caroline E. Oakman BA(Hons, Chinese); S. O'Connell MA(Cantab), MInstP; Dr Robert Orr; Michael Overman; Di Owen BSc; A.R.D. Pagden MA, FRHistS; Professor E.J. Pagel PhD; Liam de Paor MA; Carol Parker BA(Econ), MA (Internat. Aff.); Derek Parker; Julia Parker DFAstrolS; Dr Stanley Parker; Dr Colin Murray Parkes MD, FRC(Psych), DPM; Professor Geoffrey Parrinder MA, PhD, DD(London), DLitt(Lancaster); Moira Paterson; Walter C. Patterson MSc; Sir John H. Peel KCVO, MA, DM, FRCP, FRCS, FRCOG; D.J. Penn; Basil Peters MA, MInstP, FBIS; D.L. Phillips FRCR, MRCOG; B.T. Pickering PhD, DSc; John Picton; Susan Pinkus; Dr C.S. Pitcher MA, DM, FRCPath; Alfred Plaut FRCPsych; A.S. Playfair MRCS, LRCP, DObstRCOG; Dr Antony Polonsky; Joyce Pope BA; B.L. Potter NDA, MRAC, CertEd; Paulette Pratt; Antony Preston Frank J. Pycroft; Margaret Quass; Dr John Reckless; Trevor Reese BA, PhD, FRHistS; M.M. Reese MA (Oxon); Derek A. Reid BSc, PhD; Clyde Reynolds BSc, John Rivers; Peter Roberts; Colin A. Ronan MSc, FRAS; Professor Richard Rose BA(Johns Hopkins), DPhil (Oxon); Harold Rosenthal; T.G. Rosenthal MA(Cantab), Anne Ross MA, MA(Hons, Celtic Studies), PhD, (Archaeol and Celtic Studies, Edin); Georgina Russell MA; Dr Charles Rycroft BA (Cantab), MB(London), FRCPsych; Susan Saunders MSc(Econ); Robert Schell PhD; Anil Seal MA, PhD(Cantab); Michael Sedgwick MA(Oxon); Martin Seymour-Smith BA(Oxon), MA(Oxon); Professor John Shearman, Dr Martin Sherwood; A.C. Simpson BSc; Nigel Sitwell; Dr Alan Sked; Julie and Kenneth Slavin FRGS, FRAI; Professor T.C. Smout; Alec Xavier Snobel BSc(Econ); Terry Snow BA, ATCL; Rodney Steel; Charles S. Steinger MA, PhD; Geoffrey Stern BSc(Econ); Maryanne Stevens BA(Cantab), MA(London); John Stevenson DPhil, MA; J. Sidworthy MA; D. Michael Stoddart BSc, PhD; Bernard Stonehouse DPhil, MA, BSc, MInstBiol; Anthony Storr FRCP, FRCPsych; Richard Storry; Charles Stuart-Jervis; Professor John Taylor; John W.R. Taylor FRHistS, MRAeS, FSLAET; R.B. Taylor BSc(Hons, Microbiol); J. David Thomas MA, PhD; D. Thompson BSc(Econ); Harvey Tilker PhD; Don Tills PhD, MPhil, MIBiol, FIMLS; Jon Tinker; M. Tregear MA; R.W. Trender; David Trump MA, PhD, FSA; M.F. Tuke PhD; Christopher Tunney MA; Laurence Urdang Associates (authentication and fact check); Sally Walters BSc; Christopher Wardle; Dr D. Washbrook, David Watkins; George Watkins MSc; J.W.N. Watkins; Anthony J. Watts; Dr Geoff Watts; Melvyn Westlake; Anthony White MA(Oxon), MAPhil(Columbia); Dr Ruth D. Whitehouse; P.J.S. Whitmore MBE, PhD; Professor G.R. Wilkinson; Rev H.A. Williams CR, Christopher Wilson BA; Professor David M. Wilson; John B. Wilson BSc, PhD, FGS, FLS; Philip Windsor BA, DPhil(Oxon), Roy Wolfe BSc(Econ), MSc; Donald Wood MA PhD, Dr David Woodings MA, MRCP, MRCPath, Bernard Yallop PhD, BSc, ARCS, FRAS Professor John Yudkin MA, MD, PhD(Cantab), FRIC, FIBiol, FRCP.

هيئة تحرير بهجة المعرفة :

Editorial Director	**Frank Wallis**
Creative Director	**Ed Day**
Project Director	**Harold Bull**
Volume editors	
Science and The Universe	John Clark
	Lawrence Clarke
The Natural World	Ruth Binney
The Physical Earth	Erik Abranson
	Dougal Dixon
Man and Society	Max Monsarrat
History and Culture 1 & 2	John Tusa
	Roger Hearn
Time Chart	Jane Kenrick
Man and Machines	John Clark
The Modern World	John Clark
Fact Index	Stephen Elliott
	Stanley Schindler
	John Clark
Art Director	Rod Stribley
Production Editor	Helen Yeomans
Assistant to the Project Director	Graham Darlow
Associate Art Director	Anthony Cobb
Art Buyer	Ted McCausland
Co-editions Manager	Averil Macintyre
Printing Manager	Bob Towell
Information Consultant	Jeremy Weston
Sub-Editors	Don Binney
	Arthur Butterfield
	Peter Furtado
	Charyn Jones
	Jenny Mulherin
	Shiva Naipaul
	David Sharp
	John Smallwood
	Jack Tresidder
Proof-Readers	Jeff Groman
	Anthony Livesey
Researchers	Malcolm Hart
	Peter Kilkenny
	Ann Kramer
	Lloyd Lindo
	Heather Maisner
	Valerie Nicholson
	Elizabeth Peadon
	Jim Somerville
Senior Designer	Sally Smallwood
Designers	Rosamund Briggs
	Mike Brown
	Lynn Cawley
	Nigel Chapman
	Pauline Faulks
	Nicole Fothergill
	Juanita Grout
	Ingrid Jacob
	Carole Johnson
	Chrissie Lloyd
	Aean Pinheiro
	Andrew Sutterby
Senior Picture Researchers	Jenny Golden
	Kate Parish
Picture Researchers	Phyllida Holbeach
	Philippa Lewis
	Caroline Lucas
	Ann Usborne
Assistant to the Editorial Director	Judy Garlick
Assistant to the Section Editors	Sandra Creese
Editorial Assistants	Joyce Evison
	Miranda Grinling
Production Controllers	Jeremy Albutt
	Anthony Bonsels
	John Olive
	Barbara Smit
Production Assistants	Nick Rochez
	John Swan

ساهم في إعداد بهجة المعرفة :

Fabian Acker CEng, MIEE, MIMarE; Professor Leslie Alcock; Professor H.C. Allen MC; Leonard Amey OBE; Neil Ardley BSc; Professor H.R.V. Arnstein DSc, PhD, FIBiol; Russell Ash BA(Dunelm), FRAI; Norman Ashford PhD, CEng, MICE, MASCE, MCIT; Professor Robert Ashton; B.W. Atkinson BSc, PhD; Anthony Atmore BA; Professor Philip S. Bagwell BSc(Econ), PhD; Peter Ball MA; Edwin Banks MIOP; Professor Michael Banton; Dulan Barber; Harry Barrett; Professor J.P. Barron MA, DPhil, FSA; Professor W.G. Beasley FBA; Alan Bender PhD, MSc, DIC, ARCS; Lionel Bender BSc; Israel Berkovitch PhD, FRIC, MIChemE; David Berry MA; M.L. Bierbrier PhD; A.T.E. Binsted FBBI (Dipl); David Black; Maurice E.F. Block BA, PhD(Cantab); Richard H. Bomback BSc (London), FRPS; Basil Booth BSc (Hons), PhD, FGS, FRGS; J. Harry Bowen MA(Cantab), PhD(London); Mary Briggs MPS, FLS; John Brodrick BSc(Econ); J.M. Bruce ISO, MA, FRHistS, MRAeS; Professor D.A. Bullough MA, FSA, FRHistS; Tony Buzan BA(Hons) UBC; Dr Alan R. Cane; Dr J.G. de Casparis; Dr Jeremy Catto MA; Denis Chamberlain; E.W. Chanter MA; Professor Colin Cherry D Sc(Eng), MIEE; A.H. Christie MA, FRAI, FRAS; Dr Anthony W. Clare MPhil(London), MB, BCh, MRCPI, MRCPsych; Professor Aidan Clarke MA, PhD, FTCD; Sonia Cole; John R. Collis MA, PhD; Professor Gordon Connell-Smith BA, PhD, FRHistS; Dr A.H. Cook FRS; Professor A.H. Cook FRS; J.A.L. Cooke MA, DPhil; R.W. Cooke BSc, CEng, MICE; B.K. Cooper; Penelope J. Corfield MA; Robin Cormack MA, PhD, FSA; Nona Coxhead; Patricia Crone BA, PhD; Geoffrey P. Crow BSc(Eng), MICE, MIMunE, MInstHE, DIPTE; J.G. Crowther; Professor R.B. Cundall FRIC; Noel Currer-Briggs MA, FSG;



الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
طرابلس

PRINTED IN ITALY
30-4-1983